فتوح عبد المحسن الخترش

الكويت وجاراتها

ه. ر. ب. ديكسون

سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها

صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعدِ منصفا



منشورات

فتوح عبد المحسن الخترش

الكويت وجاراتها

هـ. ر. ب. ديكسون

سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها
صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعدِ مُنصِفا



منشورات
ذات السلاسل
الكويت



الطبعة الثانية

٢٠٠٢م

الناشر

ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع

الكويت، ص.ب ١٢٠٤١ - الشامية - الكويت. تليفون: ٢٤٦٦٢٦٦/٥٥ فاكس: ٢٤٣٨٣٠٤


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يُعدّ كتاب الكويت وجاراتها من الكتب المهمة التي تتحدث عن جانب مهم من تاريخ الكويت في فترة تبدأ من العشرينيات حتى اكتشاف النفط فيها، وبعد أن أصدرنا الطبعة السابقة، وجدنا بها بعض الملاحظات عن ضبط الأسماء والمواقع والأشخاص، نظرًا لأن ترجمة بعض الحروف والكلمات من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية تختلف بعض الشيء، فاستعنا في هذه الترجمة بمجموعة كبيرة من المراجع، حتى استطعنا أن نضبط تلك الأسماء والمواقع بحسب ما هي مستعملة ومدونة في الكتب الخليجية والعربية.

وفي هذه الطبعة حاولنا ما استطعنا أن نصوب تلك الأخطاء، ونأمل أن نجد العون في تصويب أية أخطاء قد يراها المختصون في هذا المجال لتدارك ذلك في الطبعات القادمة.

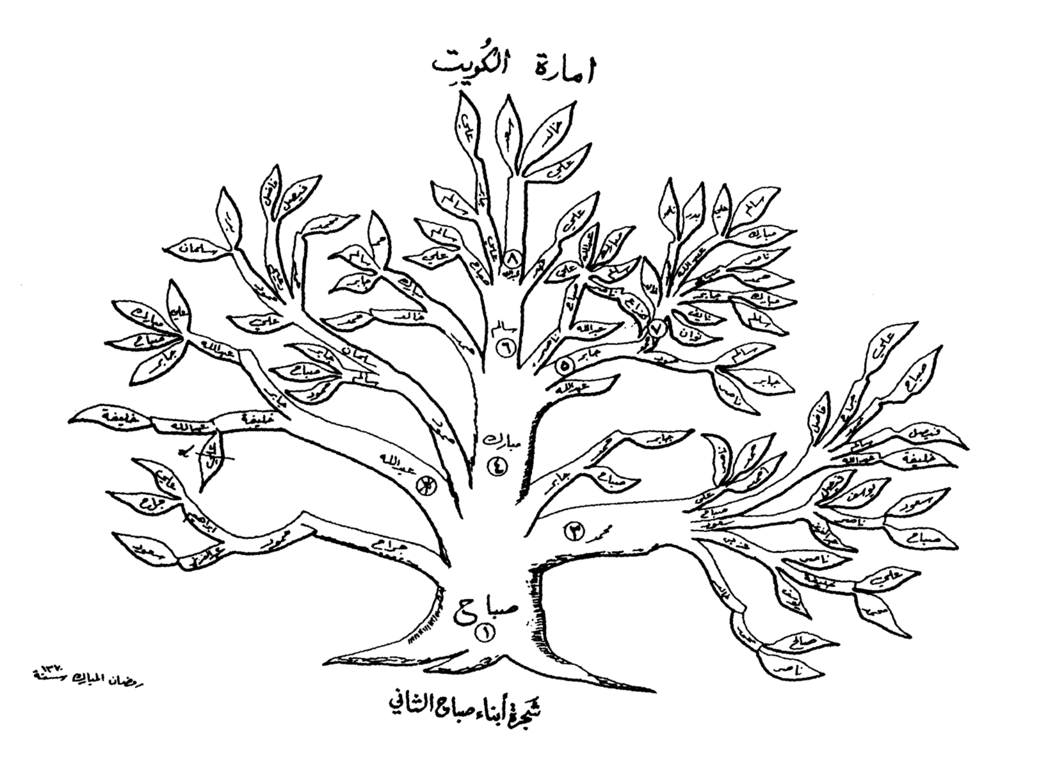
ويظل هذا الكتاب أولاً وآخرًا، رؤية كاتب أجنبي عاش الفترة في الكويت منذ ١٩٢٩م حتى وفاته في الخمسينيات، وقد استطاع أن يسجل هو وزوجته وابنته جزءًا كبيرًا من التحول الاجتماعي في الكويت القديمة، من عالم الغوص واللؤلؤ والرعي في الصحراء إلى كويت جديدة بعد اكتشاف النفط، وتغير طبيعة الحياة وأنماط المعيشة لدى عدد كبير من سكانها.

ولعل القيمة التاريخية لهذا الكتاب في أنه تسجيل لرؤى مقيم أجنبي يراقب بدقة ملامح التطور في المجتمع، ويقدم مشاهداته عن المواطنين وأساليب تعاملهم مع الحياة، وقدرتهم على التكيّف بالبيئة ومعطياتها والتفاعل الإيجابي مع المتغيرات الحضارية في مجالات مختلفة.

وهو بذلك يعد مرجعًا للأجيال المعاصرة واللاحقة في تعرف الصورة الحقيقية التي كان عليها وطنهم ومجتمعهم قبل النفط وفي فترة البداية المبكرة لعصر النهضة.

والله من وراء القصد يهدي إلى سواء السبيل.

امارة الكويت



شجرة أبناء صباح الثاني

رمضان المبارك سنة ١٣٧٠

عن المؤلف وحرمه

ولد الليفتاننت كولونيل هارولد ريتشارد باتريك ديكسون، وابن المتوفى حديثًا جون ديكسون، القنصل العام لصاحبة الجلالة البريطانية بالقدس، في بيروت في ٤ من فبراير ١٨٨١م. وبعد أن تلقي تعليمه في مدرسة سانت إدوارد بأوكسفورد، وكلية وادهام بجامعة أوكسفورد، انضم لفرقة حرس المشاة (Connaught Ragners) في عام ١٩٠٣م، وبعد أداء الخدمة العسكرية في إيرلندا والهند، نُقل في عام ١٩٠٨م إلى الفرقة ٢٩ من حملة الرماح بسلاح الفرسان (Deccan Horse) بالجيش الهندي.

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولي توجهت فرقته إلى فرنسا، ولكن نظرًا لمعرفته باللغة العربية تم إلحاقه بالفرقة ٣٣ بسلاح الفرسان وبعث به إلى العراق في شهر نوفمبر ١٩١٤م حيث شارك في العمليات التي أدت إلى الاستيلاء على البصرة، والقرنة، والناصرية، بما في ذلك معركة الشعيبة، وأشيد بذكره في التقارير العسكرية.

في شهر أغسطس ١٩١٥، نقل إلى الإدارة السياسية تحت رئاسة السير بيرسي كوكس، وساعد في تنظيم الإدارة المدنية في جنوب العراق، والتي كان يجري نقلها بخطي وئيدة من أيدي الأتراك. وبصفته مساعدًا سياسيًا عُين مسئولا عن بلدة سوق الشيوخ والمنطقة المحيطة بها علي الفرات، وكان الإنجليزي الوحيد بين سكان من العرب لا تربطهم بالإنجليز أي ود أو صداقة. وبعد ذلك، عُين وكيلا سياسيًا في الناصرية، مع الإشراف على كل تلك المنطقة بما في ذلك قبيلة المنتفق الكبيرة.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولي مباشرة، نُقل وكيلاً سياسيًا في البحرين، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٢٠ عندما عاد إلى العراق ليشغل منصب الوكيل السياسي لمنطقة وسط الفرات، ثم عمل مستشارًا لأول حاكم عربي لمقاطعة الحلة – Hilla. وفي عام ١٩٢٣ نُقل إلى الهند حيث عمل سكرتيرًا خاصًا لمهراجا بيكانير؛ وبعد أربع سنوات عُين سكرتيراً للمقيم السياسي بالخليج الفارسي (العربي)، والذي كان يباشر مهام منصبه في ذلك الوقت من مقر إقامته بالبحرين. وعندما وصل تمرّد الإخوان ضد الملك ابن سعود إلى ذروته في عام ١٩٢٩ توجه إلى الكويت ليشغل منصب الوكيل السياسي بها، ولعب دورا بارزًا، مخاطرًا بحياته في بعض الأحيان، في المفاوضات التي أدت إلى استسلام المتمردين وتدعيم استقلال

الشيخ السير أحمد الجابر الصباح، حاكم الكويت في ذلك الوقت.

وأدّي تقاعده من الجيش عند بلوغه السن القانونية في عام ١٩٣٦ إلى تخليه أيضًا عن منصب الوكيل السياسي. ومنذ ذلك الوقت ظلّ في الكويت بصفته الممثل المحلي الرئيسي (العلاقات العربية) لشركة نفط الكويت.

ولقد أتاحت له صداقته الشخصية للملك ابن سعود، والتي بدأت في عام ١٩٢٠ والتي استمرت بلا انقطاع حتى وفاة هذا الحاكم في عام ١٩٥٣، وصداقته مع العديد من الناس من مختلف المستويات الاجتماعية في الكويت والعربية السعودية والعراق، أتاحت له الفرصة للحصول على قدر كبير من المعلومات القيِّمة والمباشرة، تمَّ تسجيل البعض منها في كتابه الأول "عرب الصحراء". وهنا، في هذا الكتاب الثاني، يعرض الكثير من الذكريات الشخصية التي لم تسجل من قبل، وتاريخ آل سعود والوهابيين، وتقرير تفصيلي عن تمرد الإخوان في ١٩٢٩–١٩٣٠ ومضاعفاته في الكويت، وتاريخ كامل لذلك البلد الصغير، شديد الأهمية بالنسبة لنا الآن، منذ تاريخه القديم وحتى الوقت الراهن.

وغنيٌ عن البيان أن المؤلف ما كان يمكنه إنجاز ما أنجز أو أن يسجّل كل ما سجل وبهذا التفصيل، لولا المساندة التامة من جانب زوجته مؤلفة كتاب "الزهور البرّية في الكويت والبحرين" والذي يضعها في مصاف علماء التاريخ الطبيعي ذوي القدرات الرفيعة. وفيوليت بنيلوب ديكسون التي تزوجها في عام ١٩٢٠، هي الابنة الثانية لينفيل لوكاس – كالكرافت، من جوكباي لينكولن؛ وكانت عونـًا ورفيقًا أينما ذهبت بهما واجبات زوجها. فبينما نجدها تقيم معه في خيمتها الصغيرة في البادية، سعيدة بصحبة مجموعة صغيرة من البدو البسطاء، نجدها، وربما في نفس الأسبوع، تصاحب زوجها كضيفي شرف بالقصر الملكي في الرياض.

وأيًا كان المكان الذي يتوجهان إليه، أو مدي أهمية أو تواضع المناسبة التي يشاركان فيها، نجدهما يندمجان بطريقة طبيعية تمامًا ودون أي تكلف أو جهد مع الوسط المحيط بهما، وخلال ذلك لا يكفان عن تسجيل الملاحظات، أو رسم بعض الأشكال الأولية، أو وضع الخرائط، أو التقاط الصور الفوتوغرافية، أو جمع البيانات ومراقبة أنواع الحيوان؛ وكل ذلك لهدف محدد هو وضع سجل عن البدو وحياتهم في جوف الصحراء، ليظل حيًا، أمام زحف الحضارة الغربية والذي بدأت تتعرض له بلاد العرب.

ك.و

المحتويات

الصفحة

الجزء الأول
وهو جزء وصفي أساسًا

الفَرس الأصيلة لا يعيبها جلالها(سرج الفرس)

الفصل الأول
إمارة عربية

"نجد على البحر" – التاريخ القديم – الحاكم الحالي – حدود الدولة – الجغرافية الطبيعية – خليج الكويت – مدينة الكويت – ساحل البحر وصناعة السفن والشحن البحري – المناخ والسكان – القوات المسلحة – المواصلات – الحياة النباتية والحيوانية.

"نجد على البحر":

في منطقة الخليج العربي النائية، في موقع على شكل إسفين عميق بين جنوب العراق والأحساء – وهي المقاطعة الشمالية للعربية السعودية الحديثة – تقع إمارة الكويت العربية الصغيرة الحجم المفعمة بالحيوية، والتي تعيش في ظل الحماية البريطانية في واقع الأمر، رغم أنها دولة مستقلة.

و"نجد على البحر" هي التسمية التي يطلقها عليها من يحبّونها، وليس هذا بالوصف غير المستساغ لمدينة وإمارة تأسست على يد حاكم وشعب هاجرا من وسط شبه الجزيرة العربية في أوائل القرن الثامن عشر، وتحتل مكانها اليوم بين الدول العربية في شبه الجزيرة في ظل حاكمها المستنير الموالي لبريطانيا، فخامة الشيخ السير عبدالله السالم الصبّاح الذي تولّي الإمارة في شهر يناير١٩٥٠، ويرتبط بمعاهدات للصداقة والتحالف مع بريطانيا – وهو إجراء وقائي تمليه الضرورة بالفعل: فهذه الدولة الصغيرة تمتلك أروع المواني وأكثرها أهمية من الناحية الاستراتيجية على امتداد الساحل العربي للخليج العربي؟ كما أن لها

جارتان قويتان تقعان على الشمال والجنوب منها، ناهيك عن أولئك المتغطرسين الطامعين على الجانب الآخر من الخليج الذين يداعبهم حلمهم الأبدي بامتلاك إمبراطورية كبري يكون الخليج العربي فيها هو "بحرهم المتوسط" الذي يتحكمون فيه دون سواهم؟!

ومرفأ الكويت الرائع الذي تحيط به اليابسة من كل جانب، والذي يبلغ عمقه عشرين ميلا وعرضه عشرة أميال، بالإضافة إلى ثروتها التي لا تُحصي ولا تُعدّ من النفط الذي يكمن تحت سطح الأرض على بعد ما لا يزيد عن عشرة أميال من البحر، هي — بالطبع — مركز جذب في الوقت الراهن بل هي إحدى بُؤَر الخطر، إن الجميع يخطبون ودّ هذه الحسناء، وكم تقدمت لها العروض فيما مضي، ومازالت تقدم حتى الآن، أحيانـاً بطريقة بدائية على نحو ما كان يفعل سكان الكهوف، وأحيانًا بوسائل اكثر تعقلا وإن كانت لا تقل خطرًا وتتمثل في الإغراء و"تقديم الهدايا". ومن الطبيعي أن يشعر كلُ طالبِ ليدها بالغيرة من منافسيه، الأمر الذي ساعد السيدة الحسناء، إلى حد كبير، على الحفاظ على عذريتها دون أن تخدش أو تُمس طوال سنوات عديدة، والذي تتعلق عليه آمال كل أصحاب العقول الراجحة بأن ينقذها من العشاق الأكثر إلحاحًا.

التاريخ القديم

تنحدر أسرة آلِ صباح النبيلة الأرستقراطية من بني عُتَب (أو العتوب)، وهم أصلاً من البدو الخلّص، ويشكلون فخذًا من بطن الدهامشة – Dahamshah من قبيلة العمارات – Amarat من عنزة، شرفاء المنبت والنسب، ويسكنون الآن العربية السعودية والعراق وسوريا.

وفي شهر أكتوبر من العام الذي تولّي فيه الشيخ عبدالله السالم الإمارة أخبرني أثناء حديث دار بيننا أنه في حوالي عام ١٧١٠م، اضطر القحط الرهيب والمستمر آل صباح، وكانت لهم السيادة في ذلك الوقت على قبيلة عنِزة الكبيرة كلها، إلى الهجرة من أراضي نجد الداخلية بحثـًا عن مكان أقل مشقة يعيشون فيه. وخرج معهم آل خليفة، وهم أسرة أخري من العمارات.

تحركوا في بادئ الأمر صوب الجنوب إلى وادي الدواسر، ولكن عندما تبينّوا أن الأوضاع هناك ربما كانت اكثر مشقة مما هي عليه في نجد، عادوا من حيث أتوا، وتوجهوا إلى الزبارة في شبه جزيرة قطر على ساحل الخليج العربي، تصحبهم

عدّة عائلات كريمة وأقل نفوذًا من العمارات، منهم آل زايد (ويعرفون الآن بآل غانم)[1]، وآل صالح، وآل شملان. ومرة أخري اتضح أن الأوضاع في الزبارة ليست أحسن حالاً، ولذلك انتقلوا، في مسيرات بطيئة، ومعهم ماشيتهم وأغنامهم، حتى وصلوا إلى نتوء بعيد من الأرض داخل في البحر، يتوفر به الماء العذب على بعد بضعة أقدام تحت سطح الأرض، وكان هذا المكان هو موقع مدينة الكويت الحالية.

ووفقًا للتعبير اللفظي المستخدم في ذلك الوقت "عتبت" الأسر المهاجرة إلى "الشمال"، أي تحركوا نحو الشمال. ومن هذه الكلمة القديمة والجيّدة، كما يقول فخامته، اشتق اسم بني عتب، أي القوم الذين عتبوا أو انتقلوا. ولم يكن هذا الاسم بأي حال اسم فخذ من بطن العمارات من قبيلة عنزة.

وعندما وصل سكان الخيام من آل صباح وآل خليفة إلى الكويت، خافوا أن يعترض الأتراك – وكانوا أقوياء في البصرة ويدعّون ملكيتهم لهذه المناطق – على وجودهم هناك وأن يقوموا بطردهم أو فرض الضرائب عليهم. ولذلك تقرر في مجلسهم الذي يضم كبار السن منهم إرسال مندوب إلى البصرة ليشرح للباشا التركي، أو الوالي، أنهم مستوطنون فقراء جاءوا من نجد إلى الكويت يحاولون تلمّس سبيل للحياة هناك، وأنهم لا يقصدون إيقاع الضرر بأحد، وكان الرجل الذي وقع عليه الاختيار للاضطلاع بهذه المهمة يدعي صباحا. ونظرا لسنّه المناسبة، وخبرته، وتوفر ما يسميه العرب الحظ نجح في مسعاه.

وواصل فخامته[2] حديثه فقال إنه في أعقاب ذلك، شنّ آل نصّار Al-Nassar، وهم الأسرة الحاكمة من قبيلة بني كعب العربية العريقة التي تعيش في عربستان جنوبي فارس، الحرب ضد عبدالله، بن صباح، وأن خطر الغزو دفع آل خليفة الأكثر حذرًا إلى العودة جنوبًا إلى الزبارة، ومنها انتقلوا في خاتمة المطاف إلى البحرين، فاحتلوّها، وتولوا حكمها منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

ووفقًا للتاريخ المحلّي، وإن كان فخامته لايقرّ بصحته إلاّ جزئيا، يرجع سبب هجوم آل نصّار على الكويت إلى أن شيخ بني كعب في ذلك الوقت خطب مريم، ابنة الشيخ عبدالله الصباح الجميلة وعندما رُفض طلبه، أرسل قوة بحرية لمهاجمة الكويت.

---

(١) توجد من الزايد أسر أخرى منهم القطامي والصقر.

(٢) المقصود الشيخ عبدالله السالم.

"مإذا؟ أعطي ابنتي لهؤلاء الكلاب من بني كعب لأنجو بنفسي؟ محال! إن أي فرد من آل صباح لا يزوّج ابنته، مادام على قيد الحياة، من أجنبي مشكوك النسب."

وهناك رواية أخري، وهي بدورها مما لا يؤكده فخامة الشيخ عبدالله السالم، تقول أنه عندما أصبح خطر غزو بني كعب وشيكا وانسحب آل خليفة إلى الجنوب، جمع عبدالله كل شيوخ قبيلته وجعلهم يقسمون، وهم مجتمعون على عتبة بيته، على الصمود دفاعًا عن ابنته وعن شرف آل صباح، وأقسم الشيوخ عن بكرة أبيهم، ومن هنا أصبحوا يعرفون ببني عتبة، أو بني عُتُب. ويقال أيضًا أنه عندما وردت الأنباء باقتراب سفن العدو، كانت مريم الجميلة تُشَاهَد طوال الوقت وهي مسلحة بغدّارة ورمح وسيف، ممتطية فرسًا، وهي تدور حول الاستحكامات القديمة للمدينة وتشجع البدو في خيامهم وتشدّ من أزرهم. أما كيف التقي ابن عمها الشاب سالم بن محمد آل صباح وعصبته الباسلة بالقوة البحرية المهاجمة وهي مشتتة إلى أقصي حدٍ وقد توقفت عن الحركة بالليل جنوبي جزيرة بوبيان، وكيف تلمسّ طريقه خِلسةً وهو متنكر في هيئة صائد أسماك بسيط، وكيف دفع بخمس داوات كبيرة الواحدة بعد الأخرى لمهاجمة سفن العدو، وكيف أعمل سيفه، في صمت، في رقاب الحرّاس وأطاح ببقية أطقم السفن المهاجمة ليتساقطوا فوق ظهور مراكبهم، وكيف عاد بالغنائم إلى الكويت ليغدقها لمريم - فيجب ان يسجل في موضع آخر، ويكفينا هنا أن نقول أنه بعد نجاحه الأول، وتحت تأثير الحماسِ المتأجج لمريم، استحوذ سالم على مشاعر أهل الكويت حتى بلغ بهم الأمر ألا ينصاعوا لنصيحة الشيخ عبدالله نفسه، فانطلقوا في سرعة عاصفة إلى البحر في قواربهم الصغيرة، مستخدمين المجاديف الطويلة، ونازلوا ما تبقى من سفن بني كعب وأجبروها على الفرار المشين، ثم هبت عاصفة عاتية دمرت نصف سفنهم وشتت البقية الباقية من السفن المهاجمة، لتكتمل الهزيمة نهائيًا، تمامًا مثلما أصاب سفن الغلايين الإسبانية من خيبة أمل في معركتها أيام الملكة إليزابيث الأولى.

ومنذ ذلك اليوم، وحتى الآن، لم يسمح لأي أميرة من آل صباح أن تتزوج من خارج الأسرة، ولا حتى من أحد أبناء البيوتات العريقة مثل آل سعود أو أشراف مكة أو النبلاء من آل سعدون - وهم الشيوخ الذين يتوارثون رئاسة قبيلة المنتنق الكبرى بالعراق.

ولاتزال صيحات النخوة، ونخوة nakhwa - في الكويت تتركز في صيحتين هما "أنا أخو مريم" و"أولاد سالم". وللإمارة علمها الخاص، قرمزي اللون وكلمة "الكويت "مسطورة بحروف عربية بيضاء في المركز، بينما كتبت على الطرف الضيق القريب من السارية، وبشكل عمودي من أعلي إلى أسفل، عبارة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله."

الحاكم الحالي:

وُلد سموّ الشيخ عبدالله السالم الصباح في عام ١٨٩٥ ، وهو الآن أقوي وأبرز شخصية بين جميع أعضاء أسرة آل صباح. وهو حسن الاطلاع ويمكنه أن يتحدث بسهولة وبذكاء أعلى من المتوسط حول الشئون الدولية عمومًا، كما يتميز على وجه الخصوص بقدرته على تحليل وتقييم المواقف السياسية المختلفة التي تنشأ دائماً في أوروبا والشرق الأوسط. وبالرغم من إعجابه الشديد بالمرحوم الملك ابن سعود، إلا إنه لم ينخدع أبداً أمام الاتجاهات السياسية للملك ابن سعود.

وشيخ القبيلة لا يصل إلى هذه المكانة لمجرد أن أباه كان شيخًا من قبله، وبعبارة أخري فالمشيخة لا تورّث بالضرورة من الأب إلى ابنه. وينطبق نفس القول على الحكام. وعندما توفي الشيخ سالم بن مبارك الصبّاح في ٢٧ فبراير ١٩٢١ خلفه ابن أخيه الشيخ أحمد الجابر آل صباح، وأبدي الشيخ عبدالله السالم آل صباح كل الإخلاص لمؤازرة ابن عمّه والتعاون معه، وربما كان من الطبيعي أن يستأثر بجانب كبير من السلطة، وهو الأمر الذي سمح به الشيخ احمد بما عُرف عنه من كرم وطبيعة سَمْحة.

وتوفي الشيخ أحمد الكبير/ كما يُلقّب اليوم، بداء القلب بعد مرض قصير في ٢٩ يناير ١٩٥٠، وبكاه الجميع. وخلفه في الإمارة الشيخ عبدالله السالم الذي أعلن عن تمسكهَ الشديد بانتهاج خطوات سلفه الموالي لبريطانيا، وقد بدأ بالفعل اتخاذ سلسلة من الإجراءات الحكيمة وبعيدة النظر من أجل إدخال الخدمات الاجتماعية الحديثة: الطرق، والمدارس، والمباني العامة، والمستشفيات، ودور القضاء، وقبل كل ذلك محطة إزالة ملوحة المياه التي ستوفر للمدينة، عند اكتمالها في عام ١٩٥٥، ٤٠٠٫٠٠٠ جالونـًا من مياه الشرب في اليوم. كما أنشأ أيضًا هيئة لتطوير المدينة، وأقرّ خطتها من أجل إنجاز المزيد من التحسينات. ويقدم مقال من مرجريت ك.كلارك، المنشورة في هذا الكتاب المزيد من المعلومات

عن التقدم الذي أمكن تحقيقه بحصول الكويت المفاجئ على الثروة من خلال تطوير حقول نفطها.

وفي ٥ يونيو ١٩٥٢ ، وبمناسبة عيد ميلاد جلالة الملكة، أنعم على الشيخ عبدالله السالم بوسام K.C.M.G الرفيع اعترافاً بخدماته المتميزة كحاكم.

حدود الدولة:

كانت هذه الحدود فيما مضى مصدرًا للكثير من النزاع، وأريق من أجلها قدر غير قليل من الدماء. وسوف نتحدث عنها بالتفصيل في فصول تالية، ويكفينا هنا أن نذكر أن الحدود المعترف بها حاليًا بين الكويت وجارتيها، العراق والعربية السعودية، هي على النحو المبيّن بالخريطة الواردة آخر هذا الكتاب. وهذه الحدود، وفقاً للغة الرسمية المميزة المستخدمة في هذا المجال، هي كالآتي:

"من النقطة التي تتحد عندها البلدان الثلاثة، والتي تقع عند ملتقى وادي العوجة مع الوادي الفسيح الطويل المعروف بالباطن في الغرب، تمتد الحدود الكويتية–العراقية في اتجاه الشمال في موازاة الباطن إلى نقطة تقع مباشرة جنوبي منطقة سفوان، ثم تستدير في اتجاه الشرق لتمر مباشرة جنوبي آبار سفوان، وجبل سنام، وأم قصر، لتصل إلى الساحل عند ملتقى خور الزبير في الشمال وخور عبدالله في الجنوب الشرقي.

وتبدأ الحدود الكويتية–النجدية من نفس النقطة الغربية–ملتقى وادي العوجة بالباطن، ومن هناك، ومع ترك آبار الرقعي Riqai تحت حكم نجد (أي العربية السعودية) تجري في خط مستقيم حتى ملتقى خط طول ٢٩ مع قوس الدائرة التي تمثل تل القرين (أو قرين) الحدّ الجنوبي لها، وتصل إلى الساحل جنوب النتوء المعروف باسم رأس القليعة Ras al Qalaiah مباشرة"، أو (الجليعة).

ومن المفهوم أن مركز الدائرة هو مدينة الكويت (الوكالة السياسية القديمة) وأن نصف القطر هو ملتقى خور الزبير وخور عبدالله (الخط المركزي).

"وتقع جنوبي هذا الخط المقوّس تلك البقعة من البلاد المعروفة بمنطقة الكويت المحايدة، التي تحدّها السلسلة الجبلية المسماة بالشق من الغرب، والبحر من الشرق، بينما يحدّها من الجنوب الخط (من الشرق إلى الغرب) الممتد من الشق مرورًا بعين العبد، إلى نقطة على الساحل شمال رأس المشعاب

Ras al Mishaab مباشرة، وتتقاسم الكويت ونجد (أي العربية السعودية) السيادة على هذه المنطقة وتمارسان فيها حقوقاً متساوية.

"وتشمل إمارة الكويت أيضًا جزر وربة، وبوبيان، ومسكان، وفيلكه، وعوهه، وكبّر) أو كبر)، وقارو، وأم المرادم، مع ما يجاورها من جزر صغيرة من توابعها."

وتبلغ مساحة هذه الدولة ٦٫٠٠٠ ميلا مربعًا ,أي ما يقل عن ١٫٤٠٠ ميلاً مربعا عن مقاطعة ويلز.

الجغرافيا الطبيعية:

يمكن القول بأن دولة الكويت تتكون أساسًا من سطح حصبائي شديد الصلابة شمال الخط الممتد من الكويت إلى رقعي Riqeai مرورا بالجهرة، ثم تتموج إلى أرض رملية جنوب ذلك الخط، بينما البلاد غربي الشق، وفي كل مكان حتى الباطن، مسطحة، وشديدة الصلابة، ومليئة بالحصباء.

وأفضل أنواع العرفج (وهي الشجيرات التي تتخذها الجمال غذاءً) هو ما ينمو منها في المنطقة الواقعة على البحر إلى عمق يبلغ الأربعين ميلا، مع وجود النصي nussi (عشب الصحراء) إلى الغرب منها، والوادي الوحيد واضح المعالم هو الشق، الذي يقع جزء منه داخل حدود الكويت. وهناك وادي الباطن على الحدود الغربية. والمعالم البارزة الوحيدة الجديرة بالذكر هي جال الزور Jal az zor- [1] وسلسلة تلال اللياح Liyah على الجانب الشمالي من خليج الكويت. وبعض التلال المتناثرة في الجنوب والتي تحظى بنوع من الأهمية كعلامات على الطريق مثل مشرف، والسرة Sirra في منطقة القرعة Qaraah وبرقان، ووارة، وقرين (قرين) في منطقة العدان Adán وشغاف Shadkaf وجبل فوريس –Fuaris في منطقة الكويت المحايدة. أما فيما وراء الحدود المعترف بها جهة الشمال من المنطقة المحايدة فليس هناك مايجدر ذكره إلا حيلات المعيجل hilat al-Muaijil وهضبة بعل وورية Wuraiah.

وليس هناك في أي مكان بالكويت مياه جارية أو نبع يتدفق إلى سطح

(١) مرتفعات الزور في غضي شمال شرقي الجهراء على بُعد ميل منها، وهي تلال رسوبية، وفي الكويت (راس الزور) منطقة ساحلية في الجنوب.

الأرض، كما لا توجد أيضًا في المناطق المجاورة باستثناء عين العبد في مقطع Maqta بالمنطقة المحايدة، والتي تتكون من مركبات الكبريت والهيدروجين وتتدفق بمعدّل ألف جالون في الدقيقة.

خليج الكويت:

خليج الكويت جون كبير رائع التكوين يمتد من الركن الشمالي الغربي للخليج العربي، ويبلغ الحدّ الأقصى لطوله من الشرق إلى الغرب حوالي العشرين ميلا، ويقارب شكله شكل هلال يقع الجانب المحدّب منه إلى الشمال واتجاه أحد الطرفين إلى الجنوب الغربي. والخليج، بالمعني الضيق للكلمة، يشكلّ فجوة عميقة في الساحل العربي الأصلي، والذي يتمثل في الشمال في الساحل الغربي لخور صبية الذي تقع فيه جزيرة فيلكة، ويبلغ عرض مدخل الخليج، بين هذه المسطحات التي يغطيها الطمي ورأس الارض Rasal Ardh حوالي أربعة أميال ويفتح في اتجاه الجنوب الغربي.

وهناك ثلاثة خلجان صغيرة في الساحل الجنوبي لخليج الكويت. ففي أقصي الشرق، بين رأس الأرض ورأس العجوزة، منطقة من المياه الضحلة يتضاءل فيها عمق المياه إلى الحدّ الذي لايصلح لدخول السفن؛ وأما الجزء الشرقي منها فهو المعروف ببندر الشعب Bandar Shaab بينما يعرف الجزء الغربي باسم بنيد القار–bunaid al Qar وربما كانت هذه التسمية تحريفا بنيدر الغاز (المرفأ الصغير للبيتومين). ويشمل الجون الأوسط، بين رأس العجوزة ورأس عشيرج Ras Ushairij الجانب الشرقي من مدينة الكويت، وسلسلة صخرية منخفضة مكوّنة من تراكم عظام الحيوانات البحرية ويغطيها الطمي تعرف باسم عكاز AKAZ أو الجزيرة، وجزيرة قرين في الوسط عند الشريط الجنوبي الملاصق للجزيرة، وجزيرة أم النمل بالقرب من رأس عشيرج. أما الجون الذي يقع في أقصي الغرب، وهو دوحة كاظمة، بين رأس عشيرج ورأس الكاظمة، فيشكل أقصي امتداد إلى الداخل للخليج ككل، وتقع عند قاعدته قرية الجهرة.

والأرض المحيطة بالخليج منخفضة، إلاّ على الجانب الشمالي حيث تقع تلال الزور الموازية للشاطئ، والتي يتراوح ارتفاعها بين ١٤٠ و٤٠٠ قدمًا. ويمتد سطح من الطمي الهشّ إلى مسافة تبعد قليلا عن الشاطئ على الجانب الشمالي للخليج، الأمر الذي يصعب معه الاتصال بين البحر والبر عندما تنخفض

المياه. والمياه في أغلب أجزاء الخليج على عمق مناسب لرسوّ السفن، وهناك أرض متماسكة جيدة. ويبلغ عمق المياه ١٤ قامة (القامة = ٦ أقدام) أمام رأس الأرض ويتراوح بين ٦ و ١٠ قامات عند أس العجوزة، ثم يضمحل ليصل إلى ٦ قامات عند مدخل دوحة كاظمة، وهناك شرم صخري يبلغ عمقه قامتين، يسمي فشت الهديبة Fasht al Hadiba على بعد ميلين ونصف الميل شمال المدينة. أما مرسي السفن الكبيرة، والذي تحدد موقعه العوّامات الطافية، فيسمي بندر توينه Bandar Tuwainah، ويقع على بعد ميل ونصف الميل شمال المدينة، داخل فشت الهديبة. وعندما تهب رياح الشمال (رياح شمالية غربية) ترتفع المياه ارتفاعًا ملحوظًا في الجزء الجنوبي من الخليج ولكن ليس للدرجة التي تحول دون دخول السفن الكبيرة.

وهناك فنار في رأس الأرض، تضيء أنواره أثناء الليل. كما يوجد كشّافان، أحدهما أبيض الضوء لإنارة المدينة، عند رأس العجوزة، والآخر أحمر الضوء، مثبت على سطح الجانب الأمامي من المبني الجديد للوكالة السياسية البريطانية – والذي أكمل المؤلف تشييده في عام ١٩٣٥.

مدينة الكويت:

أطلق المستوطنون الأوائل من آل صباح وآل خليفة هذا الاسم، وهو تصغير لكلمة كوت وتعني الحصن الصغير، على الحصن المشيّد في وسط مستوطنة الخيام الأصلية. ويرد ذكر الكويت عموما في الكتب والسجلات الإنجليزية القديمة باسم قرين (أو كرين) وهي تسمية مشتقة بلا شك من اسم الجزيرة التي تحمل نفس الاسم[١] وتقع على مسافة قصيرة من المدينة. والمدينة على بعد حوالي ٨٠ ميلا جنوب البصرة مع اتجاه ضئيل نحو الشرق، على بعد حوالي ٢٨٠ ميلا من البحرين، وتطل على الشاطئ الجنوبي لخليج الكويت، وتقع عند نقطة منه عند حوالي ثلث الطريق من مدخله عند رأس الأرض وقاعدته في الجهرة.

وتمتد مدينة الكويت الآن لمسافة حوالي الثلاثة أميال ونصف الميل على الشاطئ، كما امتدت في السنوات الأخيرة لمسافات بعيدة في اتجاه رأس العجوزة حيث شُيدّ أحد قصور سموّ الشيخ ("قصر الضيافة") وقد شيده المرحوم جابر ابن

(١) عرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم جزيرة الشويخ.

مبارك آل صباح وأطلق عليه اسم قصر دسمان. ويستخدمه الحاكم الحالي كمقر لمجلسه، ولنزول الضيوف الأوروبيين. أما أكبر أحياء المدينة، ويبلغ امتداده حوالي الميل وربع الميل، فيقع قرب المركز، ومنه تمتد الضاحية الطويلة المسماة المرقاب في اتجاه الجنوب الغربي. وإلي الغرب قليلاً من قصر دسمان هناك المبنى الجديد للوكالة السياسية ومنزلين كبيرين من منازل الحاج أحمد عميد عائلة آل غانم، والشيخ عبدالله الجابر الصباح، وزير التعليم بالكويت وحفيد الشيخ عبدالله الذي تولي الإمارة من ١٨٦٦ حتى ١٨٩٢م وعلى بعد ميل وربع الميل غربي الوكالة، شيدت المباني السكنية للممرضات، ومن ورائها المستشفي المجاني الرائع وبه قسم حديث للجراحة، وعيادات للأسنان والعيون، وغرف للأشعة، وجناح للأطفال، إلخ، وعلى بعد حوالي الميل إلى الجنوب الغربي هناك المبنى القديم للوكالة السياسية، ويقيم به الآن الكاتب وحرمه؛ على بعد حوالي النصف ميل منه هناك قصر سمو الأمير بالمدينة، والمبنى الحديث الضخم للجمارك، ونقطة شرطة الجمارك. ومن هذا الحي، تبدأ المداخل المؤدية إلى السوق الرئيسية، وشارع الأعمدة الجديد، على الطرف الجنوبي الأقصى منه، إلى الغرب من ضاحية المرقاب هناك السوق المفتوحة الواسعة المسمّاة الصفاة –Safat.

وإذا واصلنا السير على شاطئ البحر على مسافة غير بعيدة من مبنى الجمارك، نصل إلى مكتب شركة جراي ماكنزي وشركاهم ليمتد، وبعده بقليل المدرسة التي افتتحت منذ وقت قريب والمسمّاة مدرسة الأحمدية. على الجانب الغربي الأقصى للمدينة هناك مستشفيان (للرجال والنساء)، ومساكن الإرسالية الأمريكية العربية.

والأرض التي تمتد عليها المدينة مسطحة ورملية بشكل عام، ولكن الحي الجنوبي الغربي منها يقع على أرض مرتفعة بعض الشيء، مع وجود ممرات ضيقة شديدة الانحدار تمتد منها إلى الساحل. ولقد تحوّلت الشوارع الآن (١٩٥٤)، وكانت في بادئ الأمر غير معبدّة وكثيرة التعرجّات، إلى طرق عامة واسعة حديثة. والطريق الوحيد من الطرق القديمة الذي لايزال يحتفظ بأهميته حتى الآن – إلى جانب طريق البازار (السوق) الرئيسي وشارع الأعمدة[1]، والذي يمتد متعامدًا على البحر من قصر الشيخ ودار الجمارك، هو الطريق الموصّل من

(١) شارع "الجديد" (شارع عبدالله السالم).

صفاة Safat إلى الطرف الجنوبي الشرقي من المدينة المسمى شارع دسمان Dasman.

وأغلب مساكن الكويت من طابق أرضي واحد، ولكنها تبدو أكثر ارتفاعا نتيجة للسور الذي يحيط بالسقف، وهي تبني بشكل عام بحيث يتوسطها فناء مركزي. وأفضل أنواع المنازل يشيد من الحجر المكسو بالجصّ (الجير)، وله بوابات عالية مقوسة، كما تظهر أيضًا بضعة أقواس في الطوابق العليا، ونظام الصيانة بدائي، ولكن يجري تحسينه بالتدريج تحت إشراف الهيئة الجديدة لتطوير المدينة.

وهناك أكثر من أربعين مسجدًا، أربعة منها جامعة، أي تؤدي بها صلاة الجمعة .ولكل هذه المساجد مآذن، ومنها مسجد السوق، وهو المسجد الرئيسي، ويقع في الجانب الغربي من السوق الرئيسي، ومسجد العدساني إلى الغرب قليلا منه، ومسجد هلال، ومسجد صالح فضالة في ضاحية المرقاب، ومسجد النصف إلى الشرق قليلاً من المبني القديم للوكالة السياسية، ومسجد الشيخ، ومسجد آل خليفة بمئذنته الجديدة الرائعة على ساحل البحر بالقرب من قصر الأمير، ومسجد السيد ياسين، ومسجد آل بدر، ومسجد الساير as sayir في القسم الغربي من المدينة، وهناك مسجد عاشر، هو مسجد ملا صالح على الطريق من الصفاة إلى دروازة الجهرة، ومن المحتمل أن يتحول قريبًا إلى مسجد جامع.

وكانت الكويت عند نشأتها مدينة تحيط بها الأسوار، ويقال إنه كانت بها سبع بوابات على الجانب المواجه للبـّر في عام ١٨٧٤، ولكنها اتسعت بعد ذلك بما يزيد على الأربع مرات، فتوارت البوابات القديمة ولم يعد يعرف من مواقعها إلا عدد قليل للغاية. وظلت المدينة لعدة سنوات مفتوحة غير محصّنة، ولكن في عام ١٩٢٠، بعد معركة حمض Hamdh مباشرة، والتي هزمت فيها الكويت، تم تشييد سور جديد في عهد المرحوم الشيخ سالم الصباح، حاكم الكويت آنذاك، لمنع وصول جماعة الإخوان المتعصبة من وسط شبه الجزيرة العربية، ويبلغ طول هذا السور ما يزيد قليلا عن الأربعة أميال وهو يمتد من رأس العجوزة تقريبًا إلى الجنوب الغربي لمسافة تزيد قليلاً عن الميل، ثم يتجه إلى الغرب مع انحراف نحو الشمال حتى البحر ليلتقي به بعد ربع ميل من مبنى الإرسالية الأمريكية.

وهناك اليوم أربع بوابات هي دراوزة دسمان، دروازة البريعصي (وتسمي اليوم دروازة الشعب)، وتؤديان إلى حولي والدمنة، الخ؛ دروازة نايف على الطريق الرئيسي إلى الرياض، ودراوزة الجهرة، وتؤديان إلى الجهرة. وبالإضافة إلى هذه البوابات الأربع التي تحميها البروج، هناك عدد من المعاقل الحصينة مستديرة الشكل - أو القلاع كما تُسمّي (الغولة)؛ شُيدت على امتداد السور ولا يفصل بين أحدها والآخر إلا ٢٠٠ ياردة. وفي الخارج، بين دروازة نايف ودروازة الجهرة، تنتشر العديد من مضارب الخيام البدوية. ولا ينقطع دخول وخروج الجمال والقوافل الصغيرة عبر دروازة نايف، وتسمي هذه المنطقة بالشامية، وإلي الجنوب مباشرة من المدينة، خارج السور، يوجد مطار جوي جيد، مازال يخضع للمزيد من التطوير والتحديث.

على بعد حوالي الربع ميل إلى الجنوب الغربي من دروازة الجهرة، تقع مباني المقبرة المسيحية، والتي قدم أرضها المرحوم الشيخ مبارك الصباح جد الحاكم الحالي، هدية إلى الحكومة البريطانية في عام ١٩١٣. وفي عام ١٩٣٦، أنشئت مقبرة جديدة داخل المدينة ويحيط بها سور، على نفقة الحكومة البريطانية، وقدمت أرضها هدية أيضًا من الشيخ السير أحمد الجابر الصباح، ابن عم الحاكم الحالي، الذي خلفه في الإمارة.

وهذا الوصف لا يكتمل دون الإشارة إلى المبني الجديد الرائع بالقرب من دروازة نايف والذي تتخذ منه إدارة الأمن العام مقرا لها؛ بالإضافة إلى ثانوية الشويخ التي تكلفت مليون جنيه استرليني، والكلية الصناعية الجديدة، ومستشفي الأمراض الصدرية التي تقع على بعد ثلاثة أميال غرب المدينة، ومركز الحجر الصحي الجديد، ومحطة الاتصالات السلكية واللاسلكية، والعديد من مدارس البنين والبنات التي اكتمل بناؤها منذ وقت قريب داخل المدينة تنفيذًا لتوجيهات الشيخ عبدالله الجابر الصباح الذي لا يدخر جهدًا من أجل تقدم البلاد، ومساعديه: السيد عبدالعزيز بن حسين، والسيد مقدادي (من فلسطين). كما يجب ألا ننسي المستشفي العام الذي يضم ٧٥٠ سريرا، والذي سينتهي بناؤه قريبا ويقع بين ثانوية الشويخ (حاليًا جامعة الكويت في الشويخ)، ومستشفي الأمراض الصدرية؛ ومشروع تقطير المياه الذي سبقت الإشارة إليه، ومحطة الطاقة الجديدة العملاقة الملاصقة له.

ساحل البحر وصناعة السفن والشحن البحري:

تبلغ الحركة ذروتها على الشريط الساحلي الذي يمتد لمسافة ثلاثة أميال ونصف الميل في منتصف أغسطس. وإليكم ما سجلته من ملاحظات حول تلك الفترة من عام ١٩٤٤:

"مازالت الكويت منذ القِدَم مركزًا يثير أشد الاهتمام لكل من يرغب في دراسة الأنماط المختلفة عن السفن البحرية في الخليج العربي. واكبر هذه السفن هي البوم bum والتي يملك منها كبار تجار المدينة ما يزيد عن ١٣٠. وتقوم هذه السفن كل عام برحلتين أو اكثر إلى الهند، وزنجبار في أغلب الأحيان، وإلي نهر الرفيجي Rufiji وهي لا ترجع إلا بعد بضعة أشهر من آخر رحلات قامت بها، حيث يعاد تجهيزها من جديد للقيام برحلاتها الطويلة التالية.

"على امتداد السيف –Sif (ساحل البحر) كله، يجلس ربابنة السفن على الداتشات التي تمتد أمام كل المنازل تقريبًا، في الصباح البارد، وينهمكون في ممارسة أعمالهم ودفع الأموال لأطقم السفن، وترفع أشرعة المراكب من مستودعات البضائع وهي تبدو وكأنها حيوانات ضخمة غريبة الشكل مثل تلك التي تعيش في أعماق البحر، وهي تُبسط في غير نظام أو اتساق عبر الطريق، محمولة على أكتاف عدد ربما تراوح بين ١٥ و ٨٠ من بحارّة السفينة. وقبل أن يرفع الشراع، ينشر لإصلاح أي عيوب أو تمزقات أصابته. ويومًا بعد يوم، وإلي أن تبحر السفن إلى البصرة في أوائل ديسمبر لتجلب شحنات التمر التي ستتجه إلى الهند، لا تتوقف الحركة على السيف.

"وترسو على الشاطئ السفن الأصغر حجما من نوع السمبوك، والشوعي التي تأتي عادة من مواطن الغوص على اللؤلؤ مبكرا هذا العام نظرا لحلول شهر رمضان، أو ربما رست داخل جدران المرفأ المرجاني الضحل، على أهبة الاستعداد للعودة لرحلة غوص قصيرة بعد العيد.

وكان عدد السفن التي يجري تشييدها هذا العام أقل من المعتاد نظراً للصعوبات التي اكتنفت الحصول على الأخشاب من الهند بعد تخصيص أغلب إنتاجها لتغطية المتطلبات العسكرية. أما في الظروف العادية فيمكننا أن نري ستة من السفن وقد اكتمل بناء هياكلها على طول الشاطئ كل صيف. وبالقرب من المدينة، خارج السور، يعمل البريطانيون والعرب جنبًا إلى جنب في بناء سفن

غريبة من الخشب المستورد خصيصا من أمريكا. ويقوم الحاج أحمد الأطرم أشهر صنّاع السفن في الكويت بتقديم مساعداته في العمل مع الإشراف عليه.

"والحاج أحمد وأبناؤه على درجة عالية من المهارة في صناعة النماذج المصغّرة من كافة أنواع السفن الشراعية، ويأخذ العديد من بحارة الأسطول الملكي أو غيرهم من الزوّار عند عودتهم من الكويت هدايا تمثل نموذجًا دقيقًا لبغلة، أو بتيل، أو بوم، أو أحد القوارب التي تُستخدم في الغوص على اللؤلؤ، ومنذ حوالي تسع سنوات، أخذ أحد قادة الأسطول أحد هذه النماذج الدقيقة وقدّمه هدية لمتحف العلوم، بمقاطعة ساوث كنسينجتون.

"وبعد ذلك بفترة وجيزة، يحين موسم القوارب الشراعية المخصصة للهو والرياضة ,بعد أن تبحر أغلب السفن ويخلو الميناء ولا يتبقى به إلا بعض زوارق صيد الأسماك. في هذه الفرصة تسنح الفرصة للشباب لممارسة بعض هواياتهم. والمرافئ الآمنة المسمّاة النقعة هي الأماكن المثالية لهم ليتعلموا فن قيادة السفن في البحر. فما أن يتعلم الغلام السباحة حتى يحصل على قارب صغير مصنوع من صفيحة بترول سعة أربعة جالونات، فيُدفع به بواسطة دوّاسة يحرّكها بقدميه لينطلق فوق مياه المرفأ، أو يرفع عليه شراعًا صغيرًا إذا هبّ نسيم مناسب. وبعد ذلك يحصل على هوري حقيقة.

والهوري قارب صغير يصنع بتجويف جذع شجرة، وتحمله السفن الأكبر حجمًا. ولما كان هذا النوع خفيف الوزن وسهل الحمل، فهو شائع الاستعمال بين الباحثين عن الحظور حيث يمكنّهم من الوصول إلى الشراك المنصوبة بعيداً في المياه الضحلة، ويستخدم من يمارسون صيد الأسماك بموازاة الساحل سفينة بدائية تسمي الويرجية wairjjyah تُصنع من جريد النخيل بعد ضمه لبعضه البعض وربطه بالعسو-ssu، وهو حبل يصنع من ألياف ورق ذكور النخيل، وهذه السفينة البدائية مدببة الطرفين ولذلك يمكن أن تتحرك في الاتجاهين، وهي غير مزودة بأي دفة، ويستخدم مجداف لتحريكها، وأحيانـًا تُزوّد بشراع من نسيج رقيق يثبت على صاري صغير يبدأ طرفها لأسفل من فتحة في وسط السطح، وبعد صيد الأسماك، يلقي بها في قاع القارب حيث تظل حيّة في الماء الذي تسرّب إلى الداخل، إلى أن يصل الصيادون إلى الشاطئ ليملئوا به سلالهم.

وهناك أنواع أخري من السفن سنتحدث عنها فيما بعد.

المناخ والسكان:

يشبه مناخ الكويت مناخ الموانى الأخرى على الخليج العربي، وأغلب موانى العراق. ففي الشتاء، وخاصة عندما تهبّ رياح الشمال يصبح الجو أحياناً شديدة البرودة. وفي شهر يناير١٩١١ انخفضت درجة الحرارة إلى ٢٤ فهرنهايت. أما في فصل الصيف، فيلطف نسيم البحر من الحرارة، وتنخفض درجة الحرارة في الصحراء بسرعة بعد مغيب الشمس. ويبلغ متوسط درجة الحرارة القصوي والدنيا ١١٤، ٣٠ على التوالي؛ ويبلغ متوسط الأمطار أقل قليلا من خمس بوصات.

أما بالنسبة لسكان مدينة الكويت، فقد بلغ عددهم في عام ١٩٥٢ ما يزيد قليلا عن ١٦٠,٠٠٠، ثم ارتفع في نهاية عام ١٩٥٣ إلى ٢٥٠,٠٠٠؛ ولكن هذه الزيادة مفتعلة لأنها ترجع أساساً للتدفق الشديد للقوي العاملة الأجنبية غير الماهرة التي تأتي إلى الكويت للعمل في مشروعات تطوير المدينة. أما الأغلبية الكبرى من السكان الدائمين فهم من عرب قبائل العتوب، والعوازم، والرشايدة، وبني خالد، والدواسر، وعجمان، وعنزة، والظفير، إلى جانب الحساوية – أي عرب الأحساء – والبحارنة من البحرين، ويبلغ حجم الجالية الفارسية، التي ازداد عددها كثيراً في السنوات الأخيرة، حوالي ٣٠,٠٠٠ نسمة. وهناك عشرات من التجار وأصحاب الحوانيت من الفرس، ولكن أغلبهم من العمال العاديين.

والفرس والبحارنة وكثير من الحساوية من أتباع المذهب الشيعي، بينما أغلب الكويتيين من أتباع المذهب السني. والحج من الكويت إلى مكة يتم عادة عن طريق البرّ (الجِمال أو السيارات) ويبلغ متوسط عدد الحجاج كل عام حوالي ٦٠٠ فقط.

وأكبر عائلات الكويت، وفقاً لعدد الأحياء من الذكور، هي:

– القناعات Janaat	٢,٥٠٠
– آل خالد	٢٠٠
– آل زايد (آل غانم)	١٥٠
– آل سيف (بما في ذلك ابن رومي والشملان)	١٥٠
– آل بدر	٥٠
– آل جليل	٥٠
– آل صالح	٥٠
– آل صقر	٣٠

وهذه التفاصيل حصلت عليها من عبداللطيف، كبير عائلة آل جليل في الوقت الراهن، ومن الشيخ عبدالله الجابر.

وكلمة "زايد" مشتقة من كلمة "زيادة"، وتعني أن أسلاف العائلة كانوا يملكون أعداداً من الماشية والجمال أكثر مما يملكه العرب الآخرون، وجميع العائلات في الكويت، بما في ذلك آل زايد، تنحدر من عنزة[1] كما سبق أن ذكرنا، والذين جاءوا إلى الكويت من قطر مع آل صباح وآل خليفة منذ حوالي قرنين ونصف القرن. وهم يعرفون الآن باسم آل غانم، ومنهم:

- شاهين بن محمد الغانم (توفي)
- أحمد بن محمد الغانم (توفي)
- إبراهيم بن محمد الغانم (توفي)
- خليفة بن شاهين الغانم
- محمد آل ثنيان الغانم
- يوسف بن إبراهيم الغانم
- إبراهيم بن محمد جبر الغانم
- عبدالوهاب بن خليفة الشاهين الغانم.

وهناك أقارب آخرون مثل:

- خالد الغانم آل زايد
- عبدالوهاب بن عيسي قطامي آل زايد
- عبدالوهاب بن عبدالعزيز آل زايد

وقد تزوج المرحوم الشيخ أحمد الجابر آل صباح، حاكم الكويت السابق، من حصة Hussa ابنة إبراهيم بن محمد الجبر الغانم، وله منها عدة أبناء، أبرزهم عبدالله الأحمد الجابر آل صباح، ومحمد الأحمد الجابر آل صباح، ومنيرة، زوجة الشيخ عبدالله الجابر آل صباح.

---

(١) عَنَزَة: قبيلة عربية، يلفظها المعاصرون عِنزة بكسر النون والزاي، والأصل الفتح، عنيزة: مدينة في نجد.

القوات المسلحة:

لحاكم الكويت[1] حرس خاص قوامه ٥٠ رجلاً، إلى جانب قوة نظامية يبلغ عددها ٦٠٠ يقوم بتدريبهم ضباط بريطانيون وفلسطينيون. وتقوم هذه القوة المسلحة بالبنادق البريطانية ٣٠٣ بالحرس الشخصي للحاكم، وتحرس المدينة، وتحمي منشآت شركة نفط الكويت في الأحمدي، إلخ؛ هذا إلى جانب قوة الحراسة التي تبلغ قوامها ١٨٠ حارسًا التي تتبع شركة النفط الأنجلو - أمريكية.

وفي وقت الحرب، يمكن زيادة القوات النظامية بتجنيد ٢٠٠٠ رجلا، يجمعهم الشيخ من القبائل البدوية الخاضعة لنفوذه، كما يمكن إضافة ٢٠٠٠ آخرين بين سكان المدينة، وعندما نشبت معركة الجهرة في شهر أكتوبر ١٩٢٠، اشترك في أداء الخدمة العسكرية، من الناحية العملية، كل القادرين على حمل السلاح من الرجال في مدينة الكويت، وكان على كل تاجر كبير، ولفترة استمرت عدة أسابيع، أن يلتزم بتوفير عدد يقدر عليه من الرجال لحماية سور المدينة أثناء الليل.

وفي حالة الطوارئ، يملك الشيخ مستودعًا يضم أسلحة جيدة حديثة تتكوّن من حوالي ٤٥٠٠ بندقية من طراز مايزر إلى جانب ٣٠٣ من البنادق البريطانية، بالإضافة إلى كمية وفيرة من الذخيرة. وفي عام ١٩٣٣ ، دعمّ الشيخ أحمد الجابر قواته المسلحة بشراء أربع عربات ثقيلة مسلحة حديثة مزوّدة بمدافع حديثة جيدة عديمة الارتداد. ثم ازدادت وسائل الدفاع في ديسمبر ١٩٥٣ بوصول ١٤ دبابة خفيفة، ثم أربعة مدافع أوستر خفيفة في يناير١٩٥٤. كما يملك الشيخ عبدالله السالم أيضًا ١٢ عربة مصفحة طراز شيفروليه تحمل كل منها عددًا من المدافع طراز لويس مثبتة على حوامل ثلاثية القوائم، وشاحنة واحدة طراز شيفروليه. تحمل مدفعًا رشاشًا من طراز فيكوف، مثبتًا بنفس الطريقة، وفي حالة الضرورة القصوى، يمكن للشيخ الاعتماد على مجموعتين يتكون كل منهما من ١٠٠ شاحنة خفيفة و ١٠٠ شاحنة ثقيلة، توجه على الفور إلى الموقع الذي يتهدده الخطر، من أماكن تجمعها بالمدينة.

---

(١) المقصود عام ١٩٥٣، وكذلك الشيخ عبدالله السالم.

المواصلات:

رغم عدم وجود أي عوائق طبيعية فوق سطح الأرض في الكويت، إلاّ إنها ليست من البلدان التي يسهل التجوال والترحال فيها. فما أن يتجاوز المسافر حدود المدينة في أي اتجاه (باستثناء القرى الخمس الكبيرة)، حتى يصبح من المتعذر تماماً الحصول على أي كمية، مهما صغرت، من المؤن، ولذلك لابد له من حمل كل ما يحتاج إليه من طعام وماء، والطواف بالماشية والأغنام سعيًا وراء الطعام أسهل كثيراً، وتستطيع الدواب من كافة الأنواع أن تقيم أودها بنفسها اعتماداً على ما تظفر به من عشب أو كلأ – والماء نادر الوجود في كل مكان، وخاصة شمال وشمال غرب الجهرة، ويتحدد اختيار الطريق أساسًا وفقا لموقع الآبار وحالتها.

ومع دخول السيارات والتوسع في استخدامها، تم شق طريق رائع يربط بين الكويت والرياض، عاصمة العربية السعودية. ويتخذ هذا الطريق المسار الآتي: الكويت، المناقيش Minaqish خبرات الدويش، الجانب الغربي من الشق، جرية أو "قرية" العليا، طوريبي، (الجانب الشرقي من أراضي الدهناء الرمليه المواجه لرماحْ Rumah)؛ الرماحْ، بويب (تصغير باب)، باس، بمبان Bamabn الرياض، كنارة الدنيا Near Kanhara ، ثم يلتقي في قلب رمال الدهناء بطريق السيارات القادم من الهفوف، عاصمة مقاطعة الأحساء بالعربية السعودية.

وأما فيما يتعلق بتلبية متطلبات العمليات العسكرية، فيمكن القول بأن جميع أراضي البلاد، باستثناء منطقة الكبد Kabd الرملية جنوب غربٍ مدينة الكويت، تصلح للحركة السريعة للشاحنات وسيارات الدوريات. ووفقا لخطط التنمية الجديدة في الكويت سوف يستكمل، عما قريب، شق وتعبيد خمسة طرق رئيسية مسفلتة: من الكويت إلى سفوان، ومن الجهرة إلى الرقة، ومن الكويت إلى مناقيش، ومن الكويت إلى قرى القصور AL-Qusur (الطريق الساحلي)، ومن الكويت إلى عرك Arq على الحدود الجنوبية للمنطقة المحايدة.

الحياة النباتية والحيوانية:

الحياة النباتية نادرة الوجود إلى أقصي حد وتكاد تختفي تمامًا في فصلِ الشتاء والأشجار الوحيدة هي النخيل، والسدر والأثل athl ، وحتى هذه لا توجد إلا في الأراضي المتاخمة للقرى. أما الشجيرات التي تتواجد في المناطق الشمالية والشرقية والجنوبية على وجه الخصوص، والتي تحظى بأهمية خاصة كعلف للجمال، فهي

العرفج، والأنواع المختلفة الأعشاب مالحة الطعم، والتي تدخل جميعًا تحت تسمية الحمض hamdh. والعرفج، أو العوسج شجيرة كثيرة الأشواك مبعثرة الأوراق تحمل ثمارًا حمراء اللون، وينمو الحنظل hadatch وهو من العائلة الحمضية في الصحراء الغربية؛ وأما جنوب خليج الكويت فتنمو الأعشاب الجافة المسمّاة محليًا ثمام thammam كما تنمو ثندا thanda بغزارة على مسافة واسعة جنوب المدينة مباشرة، وتتوفر أعشاب النصي Nussi أيضًا بكميات وفيرة غربي الشق.

والبدو يخرجون كل عشرة أيام، أو كل خمسة عشر يومًا، بأغنامهم وجِمالهم إلى الأماكن التي تنمو بها شجيرات الحمض، والذي تترك الدواب لترعي عليها لمدة أسبوع تقريبًا. ويقول البدو: أن ما تحتويه هذه الشجيرات من أملاح يحافظ على صحة هذه الدواب ويُبقي عليها في حالة جيدة. ويمكن تشبيه تأثير الحمض بالتأثير الناتج من الأملاح التي تلعقها الحيوانات المفترسة في القارة الإفريقية والهند.

وفيما يلي قائمة بالأنواع المختلفة من شجيرات الحمض التي تنمو شرق شبه الجزيرة العربية. وهي ليست أعشابًا، وتتميز جميعًا بالنمط الصحراوي الغريب من الأوراق:

عجيرم (أو عجرم)	الهرم
الظميران	الرمض – رمثة
الجغرف	الشِرعان
الغادة	الشذفان – شنان
الحداتش (أو الحنظلة)	السُوَعد

أما الأسماء اللاتينية التي نعرفها أنا وزوجتي فواردة بالكشّاف. والجِمَال لا تمس الحداتش، ولكن الأغنام تستسيغها، ومن الغريب أنها تؤثر على الأغنام فتجعلها في غني عن الماء حتى عندما ترتفع درجة الحرارة. والرعاة يعرفون ذلك، ولذلك يدفعون بقطعانهم نحو المناطق التي ينمو بها الحداتش عندما يتأخر هطول الأمطار ويصعب الحصول على الماء. والجدير بالذكر في هذا الصدد، أن آل مرّة Al Marra وهم من العائلات العريقة في جنوب العربية السعودية، يستخدمون كلمة طهماج tuhmaj لوصف أي قطعة صغيرة من الأرض تنمو بها عدة أنواع من الحمض جنبًا إلى جنب.

وتتركز أغلب الزراعات في دولة الكويت في المنطقة المحيطة بالجهرة، وسوف نتناولها عند الحديث عن الجهرة في الفصل التالي.

والطيور نادرة، إلاّ في موسم الهجرة. ومن روّاد الشتاء هناك الحباري hubara (الدجاج البري الصغير) والقطا qata والتي توجد بأعداد كبيرة. وفي أوائل الخريف والأشهر الأخيرة من الربيع، تتحول الكويت إلى مركز نموذجي لدراسة الطيور المهاجرة التي تفد من المناطق الاستوائية متجهة إلى روسيا وشمال آسيا الصغرى، لوقوعها على الخط المباشر لحركة هذه الطيور. وقد أوردت في الفصل السابع عشر عددًا من الملاحظات الميدانية لزوجتي في هذا المجال.

أما الحيوانات البرية فتشمل الأرنب، والذئب (الديب) وثلاثة أنواع من الغزال: الإدمي idmi والعفري afri والريمrhim ، ويختلف الإدمي (وهو الغزال العربي) عن العفري بعدم وجود علامات بيضاء أسفل العينين، ويميل لون رأسه إلى البني المشرب بالحمرة، أما بقية جسمه فلونه بني فاتح. ويتميز الإدمي بنفس البقعة السوداء المعروفة باسم الحرقة harga فوق الأنف على النحو الذي نراه في العفري. والعفري (الغزال السعودي) أصغر حجمًا وهو الأكثر انتشارًا شمال شرق شبه الجزيرة العربية؛ ويُعرف بالبقعة السوداء فوق منخاريه، والمساحة البيضاء على جانبي الوجه والممتدة من العينين إلى أسفل. كما يتميز أيضًا بخصلة الشعر السوداء أسفل ركبتيه الأماميتين مباشرة. أما الريم (غزال ماريكا) فيمكن التعرف عليه بالخط الأبيض العريض على جانبي المساحة المركزية البنية؛ وهو يشبه في ذلك غزال العفري، ولكن عرض الخط الأبيض في الريم يعادل عرضه في العفري مرتين ويمتد إلى ما وراء العين. وهناك حول العين وأسفلها عدد قليل من البقع السوداء وبنية اللون. وهو يشبه العفري والإدمي بوجود نقطة سوداء في منتصف المسافة بين المنخارين، ولون جسمه شاحب قليلا حتى يبدو من بعيد وكأنه أبيض اللون.

ورغم نفي بعض الثقاة لوجود الفهد الصياد في شبه الجزيرة العربية إلا أن أحد هذه الفهود تم قتله بالفعل في ١٥ مارس ١٩٥٠م على بعد ٧٠ ميلا من بدنة Badana وهي محطة للضخ على خط التابلاين العربي الممتد من أبقيق إلى البحر المتوسط ففي ذلك اليوم، وأثناء توجه مستر توني فالنتين - وهو من المهندسين الإنشائيين العاملين في مد خط الأنابيب آنذاك - إلى عمله في ساعة مبكرة من الصباح في سيارته (من طراز فورد)، التقي بفهد من هذا النوع وصدمه بسيارته،

وكانت تسير بسرعة ٤٠ ميلاً في الساعة، أثناء محاولته عبور الطريق الذي يجري موازيًا لخط الأنابيب، ولم يستطع مستر فالنتين أن يحدد ما إذا كان الفهد يريد مهاجمة السيارة أو القفز من فوقها. ولقد رأيت جلد هذا الحيوان، وكان طوله ستة أقدام وأربع بوصات، وفي حالة جيدة، ولونه أبيض وعليه نقطة سوداء تغطيه كله فيما عدا المنطقة أسفل البطن. وكانت كل الدلائل تؤكد أن هذا الحيوان هو الفهد الصياد. وكانت له مخالب كلب ضخم من كلاب الصيد وليست على شاكلة الأظافر القابلة للانكماش التي تتميز بها السنانير أو القطط. وكانت له أيضًا تلك العلامة المميزة للفهود والمتمثلة في شعرات اللحية الجانبية. وعندما أُرسلت الصور الفوتوغرافية والوصف التفصيلي لهذا الحيوان إلى متحف التاريخ الطبيعي بساوث كينسنجتون، انتهي الخبراء إلى أنه فهد صياد بالفعل.

وهناك أعدادًا كبيرة من الثعابين والأفاعي في المناطق الساحلية الجنوبية من الكويت أغلبها غير سام. وفي ٨ مايو ١٩٤٨م وصف لي صديقي صالح المرّي كبير قصاصي الأثر العاملين في خدمة الشيخ عبدالله المبارك الصباح، ومدير الأمن العام والقائد الأعلى للقوات المسلحة الكويتية، وصف لي الأفعى الرهيبة المسماة هام Ham أو الكوبرا السوداء، والتي يعرفها أهل الأحساء باسم حيّة Hayah فقال إن طولها يبلغ حوالي خمسة أقدام، وأنها بطيئة الحركة، وسمّها مميت سريع المفعول. وأن البدو يطلقون عليها النار من بُعد. وقال إنها تتحرك في الأغلب في الليل، وتطلق صيحات أشبه بصيحة جِدْي صغير؛ وهي تبادر بالهجوم على كل من يقترب منها. وأضاف سالم المرّي أنه رأي منذ فترة وجيزة آثار زحف هذه الأفعي على الرمال قرب أم قصر. أما الكوبرا العادية، والمعروفة باسم الحنش hanich والتي تتميز بالغطاء الذي يستر رأسها، ولكن مع عدم وجود قرون استشعار كما هي الحال في الأنواع الهندية، فهي الأكثر انتشارًا، كما يكثر أيضًا انتشار الأفعى ذات القرون، والثعبان الناشر، والثعبان العادي، والتي تندرج جميعًا تحت تسمية داب Dab.

والجراد يفد إلى الكويت كل عام تقريبًا، ولكن بدرجات متفاوتة من الكثافة وفقًا لمعدلات سقوط الأمطار؛ فكلما ازدادت الأمطار في الشتاء كلما كان من المحتمل مقدم الجراد في الربيع. وأنا أكتب الآن في شهر مايو ١٩٥٤م، والجراد يقبل إلينا بالفعل في زيارة غير سارّة.

الفصل الثاني
المناطق والقرى المحيطة بمدينة الكويت
وفي شرق شبه الجزيرة العربية

العَدَان – البحرين – الباطن – ظليعات المعيجل – الدبدبة – جزيرة فيلكة – حفر الباطن – الهزيم – الجهرة – كبد – كاظمة – اللبيبة – المقطع – قرين – قصر مشرف - القصور – الرقعي - السلو – الشق – الشقيق – السودا – الصُمَان – أم الخيلان - أم جنيب – الوبرة – وريه – ياه – الهفوف – الدهناء وواحة جبرين – (الأماكن غير المذكورة بهذه القائمة، ترد بالحروف الصغيرة في متن الكتاب)

العدان AL 'AD'AN

منطقة محصورة بين ثلاث مناطق أخري هي القرعة Qara'ah في الشمال، والكبد في الغرب والسلو SALU' في الجنوب، وتبدأ على مسافة ستة عشر ميلاً جنوب مدينة الكويت بعد ملح Malah مباشرة، والتي تقع داخل منطقة القرعة، وتمتد حوالي خمسة وعشرين ميلاً في اتجاه الجنوب الغربي إلى تل القرين الذي يمثل حدودها، وأيضًا حدود إمارة الكويت، مع منطقة السلو، ويقع تل معيدنيات Mu'aidiniyat وآبار الصبيحية التي سنتحدث عنها فيما بعد في الركنين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي للعدان على التوالي، الأمر الذي نتبين منه أن امتداد المنطقة من جهة البحر إلى الداخل يتراوح بين عشرة أميال وعشرين ميلا. وتصل منطقة العدان في مواجهة الساحل، إلى نقطة أبعد من شمال المقوع Maqwa وتشمل قرى الفنيطيس، والفنطاس، وأبو حليفة، والفحيحيل، والشعيبة، والتي تعرف معًا باسم القصور. وتمتد أسفل الجانب الشرقي من العدان سلسلة من التلال المطلة على البحر تُعرف باسم ظهر العدان Dhahar Al 'Adan وعليها تقع مدينة النفط الجديدة، الأحمدي، حيث توجد مجموعة من الصهاريج التي يصل إليها النفط عبر الأنابيب من آبار المقوع والبرقان قبل أن يتجه عبر أنابيب أخري إلى ميناء الأحمدي بفعل الجاذبية الأرضية.

وتضم منطقة العدان البقايا الأثرية الوحيدة ذات الأهمية فيما يتعلق

بدراسة التاريخ القديم، والتي تم اكتشافها حتى الآن في إمارة الكويت. وتتكون هذه البقايا من بعض التوابيت الحجرية التي عُثر عليها فوق رابية صغيرة تعرف باسم أم خزنة Umm Khazna على بعد ستة أميال من تل وارة W'ara الذي يقع هذا التل عند النقطة ٢٥٨ْ وتمتد المرافق التي عثر عليها من الشرق إلى الغرب، ولذلك فهي ليست إسلامية. وتشغل هذه المقابر حيزًا من الأرض المرتفعة تبلغ مساحتها حوالي المائة قدم مربع. وكانت هذه المخلفات الحجرية ملتصقة بمادة جصية، وطول كل تابوت منها خمسة أقدام، وعرضه قدمًا واحدًا وثمانين بوصة، وعمقه قدمين. بينما بلغ سمك الجانبين حوالي أربع بوصات. وكانت هذه المخلفات الأثرية مدفونة على بعد يتراوح بين ثلاثة وأربعة أقدام تحت سطح الأرض، وقد تراكمت من فوقها أعدادًا كبيرة من الحجارة غير منتظمة الشكل، يبلغ حجم كل منها حوالي قدمين مربعين. ولم تكن عليها أي نقوش. ويبدو أن العملة النحاسية التي عُثر عليها بالقرب من هذه المنطقة عملة فارسية، ضربت في بغداد، وهي تعود إلى القرن السابع عشر أو الثامن عشر الميلادي.

ويمكننا أن نتصور طبيعة منطقة العدان ومدي اتساعها، إذا ألقينا نظرة على القرى والآبار والمعالم الطبيعية التالية التي تدخل في إطارها.

أبو حليفة - قرية ساحلية تقع على بعدٍ ثمانية عشر ميلاً جنوب وجنوب شرق مدينة الكويت، وتضم مائة وستين منزلاً، ويسكنها عرب من أصول شتي، وبها حوالي ألف نخلة مثمرة، وثلاثمائة بئر جيدة المياه على عمق حوالي العشرين قدمًا، ولا تصلح كميات المياه بها للاستخدام في أغراض الري إلا بالنسبة لسبعة منها. ولا تزرع في هذه المنطقة إلا كميات ضئيلة للغاية وبجهد كبير من البطيخ والشمام والخضروات، كما تشاهد بها بعض أشجار السدر Sidr أو بر ber. وهذه هي إحدى القرى التي تعرف مجتمعة باسم القصور، والتي يأوي إليها سكان المدينة في فصول معينة من السنة. وعما قريب سيتم ربطها بمدينة الكويت بطريق معبد مسفلت. وفي ٢١ مايو ١٩٣٧ اكتشف مستر أ.ل. لايتمار، وكان يعمل بشركة نفط الكويت، عينة نموذجية لرأس سهم من الحجر يبلغ طولها واحد ونصف البوصة على بعد ثلاثة أميال جنوب غرب قرية أبو حليفة.

عريفجان ARAIFJ'AN: هي آبار تقع على بعد خمسة أميال غرب (جليعة العبيد) على الساحل. ماؤها جيد جدًا.

عرفجية ARFAJIYAH : هي آبار على عمق إثنى عشر قدمًا، على بعد ثمانية أميال شمال شرق الصبيحية. ماؤها يميل إلى الملوحة وغث المذاق.

برقان Burq'an: (النطق الشائع هو بركَان)، خط من التلال يبلغ ارتفاعها ثلاثمائة قدمًا يحيط بفوهة تحتوي على مكامن البيتومين، ويقع على بعد تسعة وعشرين ميلا جنوب مدينة الكويت، وثلاثة عشر ميلا من الساحل. وتتمركز تلال البرقان وسط الحقل الكبير لشركة نفط الكويت. وعمليات الحفر لا تتوقف، ولذلك يتفاوت عدد الآبار من وقتٍ لآخر، ويبلغ عددها وقت كتابة هذه السطور مائة وستة وخمسين بئرًا، منها آبار المقوع Maqwa كما يجري حفر ثلاثة أخري. وفي عام ١٩٣٥ اكتشف الكاتب في تلال برقان عددًا كبيرًا من الأدوات الحجرية على شكل مكاشط أو سهام، وعندما أرسلت عينات منها إلى المتحف البريطاني، انتهي مستر ر.أ. سميث بعد دراسته لها إلى أنها تنتمي إلى العصر الحجري القديم.

دشت Dasht : سهل مسطح قاحل من الرمال والمستنقعات المسبجة، يمتد في اتجاه الجنوب على طول الساحل لعدة أميال من جليعة العبيد، بينما يمتد إلى الداخل لمسافة تبلغ حوالي ثلاثة أميال. وتتناثر به هنا وهناك أعشاب صغيرة من الطرفة tarfah وهي عبارة عن شجيرات هزيلة نحيلة الأغصان، تحمل أزهارًا خفيفة جميلة قرنفلية اللون. وهناك علي بعد حوالي خمسة أميال من جليعة العبيد، وثلاثة أرباع الميل من الساحل تلا رمليًا أبيض يعرف باسم بنيات الدشت Baniyat al dasht.

الدسمة Dasmah : آبار تحتوي على ماء غث مائل إلى الملوحة، على بعد تسعة أميال غرب الشعيبة.

الفحيحيل: إحدي قري القصور، وتقع على الساحل على بعد أربعة وعشرين ميلا ونصف الميل جنوب وجنوب شرق مدينة الكويت. وتضم القرية أربعمائة منزل، وبها عشرون بئرًا جيدة المياه على عمق حوالي الثمانية عشر قدمًا، وحوالي مائتي نخلة، وتزرع بها كمية محدودة من القمح والشعير والبطيخ والشمام، تُروَي بمياه الآبار، ويملك السكان الذين ينتمون لقبائل عربية مختلفة، قطعانًا من الماشية والماعز. ونظرًا للجوء سكان مدينة الكويت إليها في بعض فصول السنة، فهي تشهد ازدهارًا مستمرًا نتيجة لقربها من ميناء نفط الأحمدي.

الفنطاس: قرية أخري من قرى القصور، وتقع على الساحل علىٍ بعد ستة عشر ميلاً جنوب وجنوب شرق مدينة الكويت، وبها مائة وثلاثون منزلاً وسكانها خليط من القبائل العربية، كما هي الحال في مدينة الكويت وفي الفحيحيل. وهناك حوالي ثلاثين بئرًا، بعضها مالح، وبعضها ماؤه جيد على عمق حوالي العشرين قدمًا. ويبلغ اتساع فتحات الآبار عشرين قدمًا مربعًا، الأمر الذي يسمح لثلاث مجموعات من الحمير أن تعمل في وقت واحد. والزراعة أكثر إنتاجية مما هي عليه في الجهرة. رغم أن الأرض المنزرعة أقل مساحة ويُزرع في هذه المنطقة الشعير، والفصة، والبطيخ، والشمام، والفجل، والبصل، وتوجد بالقرية حوالي ستمائة نخلة، والعديد من أشجار السدر والعشور 'ashurr. ولما كانت هذه القرية إحدى المواقع التي ينتجع بها سكان المدينة، فسوف تشهد الكثير من التطور والتحسين نتيجة لمد الطريق المسفلت عمّا قريب بموازاة طريق القصور الإقليمي.

فنيطيس: قرية أخري من قرى القصور، وتقع على الساحل على بعد ثمانية أميال جنوب رأس الأرض AL 'ARD وبها حوالي ستة أو سبعة آبار على عمق اثني عشر قدمًا.

حنيظل: مجموعة من الآبار على الساحل، على بعد ميلين شمال فينطيس، وعدد هذه الآبار كبير، ولكن اثنتان منها فقط تحويان ماء على عمق ثمانية عشر قدمًا.

جعيدان Ja'aidan : منخفض من الأرض تبلغ مساحته ميلاً مربعًا ويقع على بعد ميل واحد شمال برقان، وهو من أراضي قبيلة العوازم، ويحتوي العديد من آبار المياه، إلى جانب عدة أشجار سدر صغيرة ونخيل. وكان أول نفط تضخه شركة الكويت بالقرب من شجرة سدر تقف بمفردها بجوار آبار جعيدان، وذلك حوالي آواخر عام ١٩٣٧، وبعد جهود لم تثمر عن شيء في البحر شمال خليج الكويت.

اللقيط: (أو لُقَيط) آبار على عمق العشرين قدمًا على بعد خمسة وعشرين ميلاً جنوبي شرق مدينة الكويتٍ عن طريق السيارات من برقان إلى قرين. والماء جيد، ولكنه يميل للملوحة قليلا.

منيفة: تسعة آبار على عمق واحد وعشرين قدمًا، بها ماء جيد وتقع على الساحل بين الفنطاس، وحنيظل.

المزارع Maz'ari : مساحة مزروعة من الأرض يبلغ اتساعها بضعة أميال، وتقع على بعد ثلاثة أميال شمال غرب اللقيط، وبها العديد من الآبار الضحلة.

ميناء الأحمدي: ميناء النفط الكبير التابع لشركة نفط الكويت، وهي مدينة حديثة كبيرة تتوفر بها مرافق جيدة ومذهلة حقاً، وبه - على الأرجح - أكبر وأروع محطة للشحن في العالم، ومزود بأحدث أنواع الخدمات والوسائل التي نراها في الموانئ المتقدمة، بما في ذلك المنارة السامقة التي يمتد مداها عشرين ميلاً. ويمكن لأربعة عشر شاحنة أن تستقبل النفط في وقت واحد. وهناك ثلاثة خطوط تحت الماء شمال المحطة الرئيسية. ويصدر الميناء الآن ثمانمائة ألف برميل يوميًا، وسوف يصل عددها إلى مليون برميل عما قريب، وميناء الأحمدي يزداد اتساعًا وأهمية بمرور الوقت، ويشهد تطورات باهرة.

مشعش حبينان Mish'ash Hubainan :خمسة آبار بها ماء متوسط الجودة جنوب المزارع مباشرة.

معيدنيات Mu'aidiniyat :مجموعة من ثلاثة تلال منخفضة تحتوي على الكبريت الذي تنم عنه رائحته المميزة النفاذة التي تقع على بُعد أربعة أميال غرب المقوع، في منطقة القرعة، وفي وسط حقل شركة نفط الكويت الجديد.

قليعة أو (جليعة) العبيد: نتوء صخري مرتفع مسطح القمة على الساحل، يضم مرفأ صغيرًا تأوي إليه قوارب الغوص على اللؤلؤ عندما تهب العواصف، ويقع على بعد خمسة أميال غرب رأس الجليعة، وعشرة أميال جنوب شرق الشعيبة، وليس هناك ماء، ويقال إن بعض الخارجين على القانون استدلوا عليه وتولوا الدفاع عنه منذ عدة سنوات، ويطلق عليه الرحالة الأوربيون الذين يقبلون لزيارته من الأحمدي تسمية "قلعة العبيد".

رأس القليعة (أو الجليعة): نتوء بارز من الأرض على بعد خمسة عشر ميلاً جنوب شرق الشعيبة. ليس به ماء.

صفاوي Safawi : حوالي مائة بئر متناثرة بجوار اللقيط من ناحية الشمال الغربي، يبلغ عمق الآبار حوالي ثمانية عشر قدمًا، وتحوي ماءً جيدًا، ليست هناك زراعة.

شعيبة: آخر القرى الساحلية في منطقة العدان وأقصاها جهة الجنوب،

وإحدى مكونات منطقة القصور، تقع على بعد سبعة وعشرين ميلاً جنوب وجنوب شرق مدينة الكويت، وتضم حوالي مائة منزل يقيم بها سكانها إقامة دائمة إلى جانب عدد من الحوط hautahs التي يقيم بها أصحابها من وقت لآخر، وهي موقع قلعة كانت في وقت من الأوقات المنتجع المفضل للشيخ جابر بن مبارك الصباح، ولكن لم تتبق منها الآن إلا أطلالها. وهناك آبارٍ جيدة المياه على عمق خمسة عشر قدمًا. وحوالي مائة وخمسين نخلة، وقليلاً من أشجار السدر، وشيئـًا من زراعات الشعير والخضروات، ويملك السكان قاربًا أو قاربين، وتقع الشعيبة جنوب ميناء الأحمدي الحديث مباشرة، وهي تزداد اتساعًا بخطي حثيثة.

الصبيحية: حوالي خمسين من الآبار المغرقة في القدم، على بعد اثنين وثلاثين ميلا جنوب مدينة الكويت وعشرين ميلا من الساحل بجوار الحقول الرئيسية لشركة نفط الكويت، وتتناثر على نحو غير منتظم على مسطح من الأرض تبلغ مساحته ميلا مربعًا ,وأغلبها يمتلئ من جديد عندما يتوقف استخدامها. ولكن المياه تتوفر دائمًا في خمسة منها، والماء الجيد أحيانـًا والمائـل إلى الملوحة أحيانًا أخري، يتدفق من عمق ثمانية عشر قدمًا ولكن نظرًا لشدة اندفاعه فهو يرتفع إلى مسافة اثني عشر قدمًا فوق السطح إذا لم يتم سحبه. وهناك العديد من بساتين الخضروات في المناطق المتاخمة.

الطويل: حوالي اثني عشر بئرًا، على بعد ستة أميال غرب وارة W'ara ويتراوح عمقها بين ثلاثين وأربعين قدمًا، والماء عذب.

أم الهيمان Umm al Him'an : مجموعة صغيرة من الآبار مالحة المياه، بالقرب من الساحل، على بعد حوالي خمسة أميال جنوب الشعيبة.

أم اقصبة Umm Qusaba : هي مجموعة صغيرة من آبار المياه قليلة الملوحة، قريبة من الساحل، وتقع على بُعد خمسة أميال جنوب الشعيبة.

أم صفق Umm S'afaq : آبار بها مياه جيدة على عمق ثمانية عشر قدمًا، وتقع على بعد ميلين شمال غرب اللقيط يزرع بجوارها البطيخ والشمام.

العقيلة Uqailah : آبار بالقرب من الساحل، على بعد عدة أميال جنوب الشعيبة تطلق عليها أيضًا تسمية أم العوسج Umm al 'Ausag نسبة لهذا النبات الذي ينمو بها بوفرة.

وارة W'ara : قمة بارزة من الصخر الأسود، يبلغ ارتفاعها مائتي قدمًا، وتشبه البرج المخروطي، وتقع على بعد سبعة أميال شمال غرب برقان.

البحرين

البحرين هي الاسم العام الذي يطلق على مجموعة من الجُزُر الواقعة في الخليج بين ساحل الأحساء في الغرب وشبه جزيرة قطر من الشرق، وأكبر هذه الجزُر، والتي كانت تُسمي أوال Aval فيما مضي وتُعرف الآن بالبحرين، يبلغ طولها سبعة وعشرين ميلاً وعرضها عشرة أميال، وتضم العاصمة المنامة، التي تمتد لمسافة ثلاثة أميال على ساحلها الشمالي. وأغلب سكانها العرب والإيرانيين من الشيعة، والحرفة الأساسية هي الغوص على اللؤلؤ. وتم اكتشاف النفط بها عام ١٩٣٢.

والبحرين إمارة مستقلة تحكمها أسرة آل خليفة المعروفة، التي تنحدر من شبه الجزيرة العربية (وسنتحدث عنها فيما بعد)، وترتبط ببريطانيا بعلاقات وثيقة ومعاهدات. ويمثل الحكومة البريطانية بها وكيل سياسي يعمل تحت رئاسة المقيم السياسي بالخليج العربي، الذي اتخذ مقره في وقت من الأوقات في بوشهر، على الساحل الشرقي للخليج، ولكنه انتقل الآن إلى البحرين، بصفتها القاعدة الأساسية للبحرية الملكية بالخليج العربي.

وهي أيضًا الميناء الرئيسي الذي تفد إليه طائرات الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار لوقوعها على الطريق الجوي الرئيسي إلى الهند وأستراليا والشرق الأقصى، ويقع الميناء الجوي في جزيرة المحرق، على الجانب الشرقي مباشرة من المنامة، ويرتبط بها بطريق معبّد.

وهناك في الساحل الصحراوي في الجانب الشرقي من الجزيرة الرئيسية، عدد من المقابر الأثرية غير محددة الأصل، تعتبر أكبر مرفق في العالم، ويقدر عدد هذه الهضاب بحوالي خمسة آلاف والأرجح أن هناك ما هو أكثر من هذا العدد. ويرجح الأستاذ ب.ب. كورنوول إلى الألف الثانية قبل الميلاد ويعتقد أن ديلمون القديمة هي ما يعرف بالبحرين اليوم.

الباطـــن

آخر وأدنى قطاعات وادي الرمّة Wadi ar rum'ah الكبير الذي يتاخم في جانبيه الأوسط والعلوي العربية السعودية، ووفقاً لبعض الدوائر المختصة، فهذا الاسم يطلق على الوادي الممتد من القصيم جنوبًا، ولكن الاستخدام الأكثر شيوعًا يتركز على إطلاق هذه التسمية للتمييز بين القسم الذي يقع في الحزام الرملي بالدهناء والمسمي بوادي المستوي W'adi al mustawi وإطلاق تسمية الباطن على القسم الأدنى وحده. ولذلك يمكن القول بأنه يبدأ من حوالي سبعين ميلاً جنوبي غرب حفر الباطن، ثم يستمر من الرقعي في نفس الاتجاه لمسافة مائة وثلاثة ميلا حتى يصل إلى سلسلة تلال الرتق Ratk على بعد سبعة وثلاثين ميلاً من البصرة، حيث يصل إلى نهايته. والباطن بشكل عام منخفض واضح المعالم، يتراوح عرضه بين أربعة أميال عند الحفر، وميلين عند الرقعي. وهو شديد الضحالة والضيق عند نهايته في الرتق. ويبلغ اتساع الطرف النهائي للوادي حوالي ثلاثة أميال عند الحفر، ولكنه يقل عن ذلك عادة لأن عرضه على بعد مسافة معينة قبل الرقعي لا يتجاوز نصف الميل، ولكنه مغطى بطبقة مترسبة من الطفل داكن اللون التي تبددت بالتدريج من الأراضي الأكثر ارتفاعًا على الجانبين. وهناك في المستوي القاعدي أحراشًا من النباتات تعيش عليها الغزلان وتستخدم للرعي. وتمتد طرق السيارات من البصرة والكويت إلى القصيم على طول الطرف الجنوبي للباطن، الذي يربط بينها وبين الرقعي.

ظليعات المعيجيل AL DHILAI'AT AL MUAIJIL : سلسلة منخفضة من التلال في المنطقة غير المحددة (تطالب بها الكويت، ولكنها تتبع العربية السعودية في الوقت الراهن)، بين إمارة الكويت ودوحة بلبول في الأحساء، وتمتد شرقًا وغربًا بين آبار حمض في منطقة السودة وآبار اللصافة As S'af'a في الصمان. ويبلغ طول هذه السلسلة حوالي ثلاثين ميلاً وتشمل ظليعات الكبريت أو أبرق الجبريت، وهو الاسم الأكثر شيوعًا. ومن الواضح أن مناطق الدبدبة والصمان والشق تلتقي عند الطرف الغربي لكل منها، وهناك على الجنوب منها ما يلي:

قرية العليا Jariah ILYA :آبار بها ماء عذب على عمق اثني عشر قدمًا، وتقع على بعد حوالي عشرين ميلاً شمال شرق وبرا. وقد بني هذه القرية في عام ١٩٢٠ أحد أسلاف ترحيب بن شقير آل دويش، Turahib ibn Shugair Alduwish

من دوشان، وهي الأسرة الحاكمة في مطير، وكان ترحيب يستخدمها كمقر له، واليوم بها مدرسة، ومسجد، ويحكمها أمير يقيم في قلعة كبيرة تحيط بها حامية من مائتي شخصًا، ومزودة بمحطة لاسلكي.

قرية السُفلى **Jariah Sifla** : توجد هنا آبار عذبة على عمق عشرين قدمًا، على بعد حوالي أربعة عشر ميلاً جنوب شرق قرية العليا، وهي مقر إقامة سعود بن هايف الفقم، شيخ الصهباء من مطير.

قسوان **Qaswan** : هنا أيضًا تتوافر المياه العذبة من آبار على عمق ثمانية عشر قدمًا، على بعد حوالي خمسة عشر ميلاً من قرية السفلى، ونفس المسافة شمال النعيريه على رأس وادي المياه بالأحساء.

الدبدبة

منطقة فسيحة تقع بين الشق في الشرق، والشقيق في الشمال، والباطن في الشمال الغربي، وتنتهي في الجنوب بالقرب من سلسلة تلال المسنّت Musannat ثم تمتد قليلا جهة الشمال لتتجاوز خط عرض مدينة الكويت، وبينما يقع طرفها الشمالي على بعد حوالي خمسة وثلاثين ميلاً غرب الجهرة. ويبلغ طولها الإجمالي حوالي المائة ميل، وعرضها حوالي الخمسين، على الجانب الغربي من الباطن، وفي مواجهة دبدبة الكويتية، تقع منطقة دبدبة العراقية.

والنبات الشائع هو الحمض، وهناك أعشاب النصي nussi إلى جانب القليل من أحراش العرفج، الربلة، والبدو يأكلون ورقات هذا النبات الذي يقارب مذاقه مذاق البصل السكري، ولهذا النبات أزهار جميلة.

جزيرة فيلكا

عرفها البحارة البريطانيون في وقت من الأوقات باسم فيليتشي، وفقًا للمنطوق الشائع وهو فيلجا، وهي جزيرة يبلغ طولها سبعة أميال، بينما يبلغ عرضها في حده الأقصى ثلاثة أميال، وتقع على الجانب الشمالي من مدخل

خليج الكويت، أما حدّها الغربي، القريب من مدينة الكويت، فيقع على بُعد حوالي عشرة أميال شرق وشمال شرق راس الأرض، بينما يقع حدها الشمالي على بُعد حوالي سبعة أميال جنوبي شرق مدخل خور الصبية.

وتماثل فيلكة من ناحية الشكل إسفيناً مشوه التكوين، تقع قمته في الشمال الشرقي، وقاعدته في الشمال الغربي.

والجزيرة منخفضة المستوي، ويبلغ أقصي ارتفاع لها ثلاثين قدمًا عند حدها الغربي الأقصى، وتقع بين مسطح واسع من الطمي والرمال، وبه بعض النتوءات الصخرية تسمى الضروب Dharub وتمتد في اتجاه الجنوب الشرقي من مدخل خور الصبية. وهناك جزيرتين صغيرتين بعيدتين هما (عوهة Auha') وهي صغيرة رملية وتقع على بُعد ثلاثة أميال من الطرف الجنوبي الشرقي الأقصى لفيلكة، في الموقع الذي ينتهي عنده مسطح ضروب Dharub ومسكان (وتُنطق مسجان) وهي جزيرة منخفضة المستوي رملية على بعد حوالي ميلين من فيلكة، في اتجاه خور الصبية.

وليس هناك تحديد دقيق لعدد السكان ولكن الأرجح أنه يبلغ حوالي الألف وخمسمائة، والبلدة أو القرية الرئيسية هي الزور Zor وتقع على الساحل الشمالي الغربي في مواجهة مسكان. والمكان الوحيد الآهل بالسكان خلاف ذلك هو منطقة القرينية Qurainiyah وتقع على الساحل الشمالي على بعد حوالي ثلاثة أميال شمال شرق الزور. وهناك في هذا الموقع منزل من ممتلكات الشيخ محمد الجابر الصباح، تقيم به أسرته في بعض الأحيان لفترات قصيرة. وقد جرت العادة أن يحكم أبوهِ الجزيرة بنفسه، أما الآن فهناك أمير، يتقاضى مرتبًا محدودًا، يحكمها ممثلاً لشيخ الكويت. والأراضي الصالحة للزراعة يعفى حوالي ثلثها من دفع أي ضرائب، وتسمي المعفاة .mu'af أما من يستحوزون على بقية الأراضي فيدفعون الزكاة، وهي ضريبة ينص عليها الدين الإسلامي لشيخ الكويت بما يعادل عُشْر قيمة الناتج الإجمالي. وإلي جانب ذلك يستولي سموه على كل التبن tibbin وهو الحشائش الجافة التي تستخدم كعلف، الذي تنتجه الجزيرة، حتى في الأراضي المعفاة. باستثناء كمية ضئيلة يُسمح للسكان بالاحتفاظ بها لتلبية احتياجاتهم الخاصة. ومحظور على كبار تجار الكويت والأجانب الإقامة في فيلكة، على أساس ما يحتمل أن يؤدي إليه ذلك من مضايقات للسكان الأصليين.

وسكان الزور، وهم من صائدي الأسماك أساسًا وإن كان القليل منهم يغوصون على اللؤلؤ، من أصول شتي. ويُقال إن غالبيتهم جاء من جزيرة خرج، في مواجهة الساحل الفارسي، وأن البقية جاءت من الفاو (بالقرب من مدخل شط العرب)، ومن منطقة هنديان بفارس، بل وحتى من عمان. وهم متحضرون ويسهل التعامل معهم، ولكنهم يؤمنون بالخرافات. وقد واجهوا أوضاعًا شاقة في وقت من الأوقات، أما اليوم وفي عهد سمو الشيخ عبدالله السالم. فقد تغيرت أحوالهم إلى الأحسن، ومنذ قريب، تم بناء مدرسة ومسجد ومستشفي في الزور، كما ارتفع مستوى الإدارة المحلية.

والماء الجيد متوفر في أغلب نواحي الجزيرة على عمق ستة أقدام فحسب، وهو أفضل من الماء الذي يحصل عليه السكان من الآبار المتناثرة على مشارف مدينة الكويت ويقال إنه أقل ملوحة جهة البحر مما عليه الحال في الداخل.

والموارد الرئيسية في فيلكة هي صيد الأسماك، بالإضافة إلى شيء من الزراعة على نطاق ضيق، وتتميز الزور بسهولة رسو السفن على شاطئها ولذلك تري فيها دائمًا ما يتراوح بين خمسين وستين قاربًا من قوارب الصيد الأصغر حجمًا من تلك التي يستخدمها سكان مدينة الكويت، ومما يتراوح بين العشرين والثلاثين من الهواري hawari وهي زوارق طويلة خفيفة تقطرها سفن أكبر حجمًا. وبعد استقطاع المأكل (الماجلة) Makalah أي نفقات إطعام طاقم القارب تُقسم حصيلة صيد الأسماك إلى أنصبة متساوية، أحدها لشيخ الجزيرة، وأحدها لمالك القارب وأحدها للربان، وأحدها لكل فرد من أفراد الطاقم.

وعندما تتوفر مياه الأمطار تحقق زراعة القمح والشعير شيئًا من النجاح، ويقال إن حوالي عشرة آلاف (رطل lb) من القمح تُزرع في جميع أنحاء الجزيرة كل عام، وأن الناتج الإجمالي من الحبوب يبلغ حوالي الخمسين طنًا، ويقسم الناتج بعد استقطاع الضرائب، بالتساوي بين الزراع من ناحية، ومن يوفرون له البذور وحيوانات الحرث والطعام من الناحية الأخرى. والمحصول يزرع في أكتوبر ويجري حصاده في إبريل، وتزرع في هذه الأراضي البطيخ والشمام، وأيضًا الفلفل والخضروات المعتادة مثل البصل والجزر والفجل.

وعندما قامت زوجتي بزيارة الجزيرة في شهر مارس ١٩٤٦ وجدت أن

عديدًا من أشجار النخيل الجديدة زرعت في الزور والقرينية، وكانت جميعها مثمرة، كما وجدت أيضًا أشجار التين، والكينين البمبر (وهي أشجار يحب الأطفال ثمارها الصفراء المستديرة) والسدر والحنة، ولكن النخيل التي تنتشر أساسًا في الطرف الجنوبي الغربي للجزيرة ليست مثمرة في الوقت الراهن.

والحياة النباتية تشبه إلى حد ما الحياة النباتية في بوشهر في فارس، وتنمو شجيرات الجلاديولا والإكسيوليريون مونتانم بغزارة بين زراعات القمح، إلى جانب أربعة أنواع أخرى غير معروفة في الداخل. وهناك عدد ضئيل من أشجار الورد. أما الكمأة البيضاء الكبيرة المعروفة بالزبيدي Zubaidi فهي منتشرة وتوجد بكميات كبيرة في جميع المواقع التي ينمو فيها النبات الصحراوي المعروف باسم رقرق Rag-rug على بعد عشر ياردات أو خمس عشر ياردة من البحر في بعض الأحيان.

وليست هناك أي ثعابين أو ثعالب أو ضباع في الجزيرة، كما لا يقتني سكانها أي كلاب.

وتشتهر فيلكة بقراها القديمة التي لم يتبق منها إلا أطلالها، إلى جانب المقابر والأضرحة المقدسة، ومن أشهر هذه القرى قرية الصباحية التي تقع على الساحل الجنوبي الشرقي، على بعد حوالي الميلين ونصف الميل من الطرف الشمالي. أما على بعد الميل ونصف الميل شمال شرق الزور فهناك منطقة فسيحة جرداء هي السعيدي Sa'idi بالإضافة إلى منطقة مماثلة تسمي الدشت على بعد ميل آخر. ويتناثر حول الزور حوالي ستون مدفنًا للأولياء تلعب دورًا كبيرًا فيما تمارسه الجزيرة من طقوس وعادات. فهناك على بعد ميل جنوب الزور قبري سعد وسعيد، ويقع قبر سعد إلى الغرب من قبر سعيد، ويظهر القبران بكل وضوح لكل قارب يتجه نحوها من الكويت، وزيارة هذين القبرين من الطقوس التي لابد من احترامها ويقال أن هذا يجري تخليدًا لذكري شقيقين وأختهما قتلوا في ذلك المكان، ولهذا السبب يقوم الحجاج من اليمن والهند وأفغانستان وبلوخستان في كثير من الأحيان بزيارة فيلكا. وهناك قبر آخر يفد الحجاج لزيارته أيضًا، يقال إنه قبر محمد البدوي، الذي ترجع شهرته إلى ما يزعم البعض من أن أصبعه قاومت نزع الخاتم المحيط بها بعد موته.

وأخيرًا، على بعد ثلاثة أرباع الميل شمال شرق الزور، على نتوء صغير لا يبعد كثيرًا عن أطلال السعيدي، تلتقي بضريح يعرف باسم مقام الخضر. وعلماء

الدين الإسلامي لا يجمعهم رأي واحد حول ما إذا كان الخضر نبيًا أو لم يكن، بل وإن بعضهم لينكر وجوده أصلاً. ويرى بعض الدارسين أن الخضر هو النبي إلياس، ويُعتقد أنه عاش أيام إبراهيم الذي كان من أتباع موسى وأنه مازال يعيش بعد أن شرب ماء الحياة.

ومن المعتقدات المستقرة محليًا أن الخضر خطا من صخرة أمام ما يعرف الآن بالإرسالية الأمريكية بالكويت فوصل إلى موقع هذا الضريح بقفزة واحدة، ويقال إن الأثر الذي تركته قدمه، وعصاه، مازالت محفورة في الصخر على ساحل البحر بالقرب من الضريح. وعندما زارت زوجتي هذا الموقع وجدت على الصخور المسطحة ثلاثة آثار أقدام محددة لجمل، وثلاثة آثار أقدام واضحة كل الوضوح لرجال حفاة، وأثر قدم لرجل يرتدي صندلاً، وعدة آثار أقدام لأطفال. وإلى جانب ذلك، كانت هناك أربعة أشكال مرسومة على الصخر أشبه بأشكال حيوانات ما قبل التاريخ، يبلغ طول ثلاثة منها حوالي اثني عشر بوصة، بينما يبلغ طول الشكل الرابع ستة عشر بوصة، وكانت هناك أيضًا أشكالاً ربما تثبت الدراسات أنها آثار أقدام بشرية ضخمة يبلغ طول كل منها ثمانية عشر بوصة، رغم أنها لم تكن واضحة. وتعتقد زوجتي أن هذه الصخور كانت في وقت من الأوقات جزءًا من صدر الشاطئ المسطح الذي يغطيه الطمي، هو الذي احتفظ بآثار أقدام الإنسان والحيوان، ثم تحول إلى صخور بمرور الأيام عبر العصور.

وهناك بالقرب من مقام الخضر مقبرة تضم العديد من القبور كبيرة الحجم، تبلغ المسافة بين أعلى نقطة فيها وأدنى نقطة حوالي خمس ياردات ونصف الياردة.

ويؤمن بعض سكان الكويت من أتباع المذهب الشيعي بالقصة الطريفة التي تقول إن الخضر يتوجه إلى مكة يوم الأربعاء من كل أسبوع انطلاقًا من مقره بالبصرة، ثم يقضي يوم الخميس في فيلكة ويعود متبعًا نفس الطريق يوم الجمعة، ومن هنا يجب على السيدة التي تريد الإنجاب أن تتواجد في مقام الخضر في الأيام التي لا يخرج فيها حتى تنال بغيتها وكثيرًا ما تشاهد مجموعات من النساء والأطفال متجهة من الكويت إلى فيلكة للنزهة، وزيارة مقام الخضر تحقيقًا لهذا الغرض. والحكام لا يخفون استياءهم لانتشار أمثال هذه الخرافات ويبذلون كل ما في وسعهم لمنع هذه الزيارات.

ويؤمن أغلب سكان الجزيرة إيمانـًا راسخًا بوجود عفريت شرير يسمى بودرياه Budarya – يقال إنه كثيرًا ما يحوم في البحر حول الجزيرة، وخاصة في المنطقة الممتدة بينها وبين مسكان، وأنه يستدرج من ينفرد بهم ويغرقهم في مياه أعمق من أن تبلغ القدم قرارها فيغرقهم، كما يؤمن كثيرون أيضًا بوجود شاهوه shah'a الذي يوصف بأنه يشبه امرأة ساقاها كرجل الحمار، ويداها كالطرفين الأماميين لبقرة، وشعرها كأغصان الشجر الجافة المهشمة التي تحملها الجمال، ويقال أن شاهوه هذه تتواجد أيضًا في مدينة الكويت.

وثمة رواية شائعة محليًا، تساندها أطلال قلعة في القرينية ومنازل جيدة مشيدة من الحجارة في وسط الجزيرة تقول إن البرتغاليين احتلوا فيلكة في وقت من الأوقات، ومنها مارسوا التجارة مع الداخل، ويقال إنهم طردوا أولاً من دشت، ثم من قلب الجزيرة وكانوا قد ارتدوا إليه، نتيجة لكارثة الفئران التي ساقها عليهم الأولياء.

الحفر الباطن

منطقة هامة يصعب اجتيازها في القطاع المسمى الباطن من وادي الرمّة Wadi al Rum'ah ويقع الحفر في العربية السعودية على بعد حوالي مائة وستين ميلاً غربي وجنوب غرب مدينة الكويت، ويبلغ عدد الآبار حوالي الأربعين، ولكن لم يتبق منها مما يحوي على الماء إلا إحدى عشرة فقط والآبار متناثرة في البطاح الدنيا للباطن، والتي تشكل عند هذا الموقع سهلا دائريًا يبلغ نصف قطره حوالي ثلاثة أميال، ويفصل بين كل بئر والآخر ما يتراوح بين المائة ياردة والربع ميل، ويقع كل بئر وسط هضبة صغيرة (تشبه آبار الرمّة على الطرف الجنوبي الغربي للدهناء بالقرب من الرياض)، يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة أقدام، شكلتها الرمال التي رفعت من البئر. والآبار مبطنة بطبقة من الحجارة ويبلغ اتساعها حوالي ستة أقدام عند فوهتها، ويبلغ متوسط عمق المياه مائة وخمسين قدمًا، أما إذا تركت البئر بدون استخدام لفترة فيرتفع مستوي الماء إلى حوالي الثلاثين قدمًا. ومياه هذه الآبار دافئة إلى حدٍ ما، وعندما يهب النسيم البارد في الصباح، يمكننا أن نري البخار يتصاعد من فوهاتها.

ومن المؤكد أن آبار الحفر تنتمي إلى عصر قديم جدًا، والأرجح أنها كانت على الطريق الرئيسي بين مدينة جرّة القديمة Gerra (عقير الآن)، وفلسطين. والبدو لا يعرفون من الذي حفر هذه الآبار، ولكنهم يقولون إنها ترجع إلى أيام الجاهلية، أي قبل الإسلام.

وتدّعي مطير ملكية هذه الآبار في الوقت الراهن، رغم أن القبائل الأخرى تستخدمها بين الحين والحين، وكان من الممكن أن تُستخدم على نطاق أوسع لولا ما يسببه عمقها الكبير من متاعب.

والحفر أحد المواقع التي لابد من المرور بها على الطريق إلى القصيم من الكويت والبصرة، ويتولى شئونها أمير، وبها حامية قوامها ثلاثمائة رجل، وقلعة كبيرة مهيبة حمراء اللون شيدت عام ١٩٣٦ كما شيدت به أيضًا مدرسة ومسجد ومحطة للاتصالات اللاسلكية. وهناك في الحفر أخدودين صغيرين يربطانه بالباطن، يمتد أحدهما من الشمال والآخر من الجنوب، ويسمي الأول فُيلج الشمالية ويؤدي إلى مجموعة من الآبار المتتالية المنتشرة في اتجاه الشمال نحو طوال الظفير Tawal adh Dhafir ويسمي أول هذه الآبار الدليمية، وأما الأخدود الصغير الثاني فهو فيلج الجنوبية، ويؤدي بالمثل إلى مجموعة من الآبار المتتالية التي تتجه نحو الجنوب الغربي تعرف في مجموعها بآبار طوال المطير، وأولها هو اللصافة في الصمان، ويمر خط أنابيب التابلاين العربي الكبير الآن جنوبي الحفر قليلاً حيث تقع محطة الضخ رقم ٣ على بعد حوالي خمسة عشر ميلا جنوب شرقه، في قلب منطقة قيصومة Qaisuma.

الهـــزيم

منطقة داخل الأراضي المحايدة يحيط بها البحر من الشرق، ومنطقة السلو من الشمال ومنطقة الشق من الغرب، بينما يمثل غدير المقطع Maqt'a حدّها الجنوبي ويفصل بينها وبين سهل لبيبة. وتبعد هذه المنطقة – عندما يبدأ القياس من مركزها – عن مدينة الكويت حوالي ستين ميلاً في اتجاه الجنوب الشرقي، أما إجمالي امتدادها فهو غير محدد. وتتكون الهزيم من سهل فسيح يخلو من أي أشجار، ولكن به من الكلأ ما يصلح لرعي الجمال. والتربة صلبة داكنة اللون،

وليس بها أي نتوءات حجرية، وهناك عند الطرف الجنوبي بالقرب من غدير المقطع، سبخة واسعة. وتشمل الهزيم ما يلي:

قريبيات: آبار يمكن رؤيتها من البحر، بالقرب من الحدود الشمالية للمنطقة ويتراوح عمقها بين عشرة أقدام واثني عشر قدمًا، وتتفاوت نوعية المياه وفقًا لكمية الأمطار.

عطارش Atarish : آبار جيدة المياه، على عمق اثني عشر قدمًا، وتقع غرب أصيلة 'Usaila مع انحراف يسير نحو الشمال.

ظليعات العشاري Dhilla 'at al Ash'ari : آبار بها ماء جيد على عمق تسعة
أقدام، إلى الجنوب قليلاً من الرافعية Rafi'iyah.

المراغة Mar'agha : تل مخروطي الشكل وآبار تقع في حوالي منتصف الحدود الغربية للمنطقة، على بُعد يتراوح بين العشرين والخمسة وعشرين ميلاً، شمال غرب مصب غدير المقطع، وبين عشرة وخمسة عشر ميلاً جنوب شرق الوفرة. ويصل مستوي الماء في الآبار إلى تسعة أقدام، ولكنه غير جيد.

قامة: (وتنطق جامة): آبار بها ماء من نوعية غير جيدة، على عمق اثني عشر قدمًا، وهي قريبة جدًا من ساحل البحر. على بعد ميلين جنوبي قريبيات.

الرافعية Rafi'iyah : آبار تحتوي ماءً جيدًا نسبيًا على عمق اثني عشر قدمًا، وتقع على بعد حوالي عشرة أميال غربي وجنوب غربي غدير المقطع.

رغوة Rughwah : آبار تحتوي ماءً مالحاً على عمق ستة أقدام، على بعد بضعة أميال شمال وشمال غرب الرافعية.

الرُحيّة: تل نائي على بعد خمسة أميال غرب الوفرة.

الشظف Shadhaf : آبار بها قليل من المياه على عمق اثني عشر قدمًا، وتقع على بعد سبعة أميال جنوب وجنوب شرق الوفرة، على نفس المسافة غرب المراغة، وهناك إلى جانبها تلا مخروطي الشكل.

Taiyib Ism,Al : آبار على مسافة قصيرة إلى الداخل قامه Qamah بها ماء لا يصلح للشرب على عمق اثني عشر قدمًا.

أصيلة Usaila : آبار بها ماء جيد على عمق اثني عشر قدمًا، وتقع على بعد حوالي أربعة أميال غرب الرافعية، مع انحراف يسير نحو الشمال.

الوِفرة Wafrah : موقع شهير تضرب فيه قبيلة العوازم خيامها على بعد يزيد قليلاً عن الستين ميلا جنوب مدينة الكويت مباشرة، ويبلغ عمق آبارها العديدة اثني عشر قدمًا، وبها ماء من نوعية لا بأس بها.

الجَهْـــرة

النطق الشائع هو الجهرة Jaharah وهكذا تكتب أيضًا، وهي قرية وواحة كبيرة في إمارة الكويت تقع بالقرب من الطرف الأدنى لخليج الكويت، على بعد حوالي ميلينٍ إلى الداخل، على ارتفاع أربعين قدمًا فوق سطح البحر، كما تبعد عشرين ميلا عن الطريق من مدينة الكويت. وهي الموقع الرئيسي، والوحيد تقريبًا الذي تصلح أراضيه للزراعة في الإمارة، ويرى البدو فيه نقطة على أعلي درجة من الأهمية الاستراتيجية. والجو جاف والمناخ صحي، ومياه الشرب رائعة في الجانب الغربي من المستوطنة.

وتقع القرية وسط سهل مكشوف من الرمال يتوفر به نوع من الكلأ يصلح علفاً للجمال. على بعد ثلاثة أميال ونصف الميل جنوب شرق الممر الجبلي الذي يقطع تلال الزور والمسمي ممر المطلاع 'Mutla والذي تعبر منه قوافل السيارات والجمال في طريقها المباشر من الكويت إلى البصرة. والصحراء ترتفع بالتدريج في اتجاه الغرب والجنوب الغربي من القرية، ويمتد إلى الشمال منها، على بعد ميل واحد سهل يسمي سهل المريطبة Muraitibah حيث يضرب البدو خيامهم ويقيمون في فصل الصيف. وتكثر في هذا السهل الآبار التي تتوفر بها المياه على عمق اثني عشر قدمًا.

وتقوم على حماية الجهرة مجموعة من المدافع التي صُفّت على تلال الزور، ولكن من الصعب الدفاع عنها على نحو فعال اعتمادًا على ميزان القوات البحرية نظرًا لضحالة المياه في هذا الجزء من خليج الكويت.

ويملك شيخ الكويت مقرًا حصينـًا في الجِهرة يعرف باسم القصر الأحمر، نسبةً للون أسواره، ويقع على بعد يزيد قليلاً عن نصف الميل جنوب شرق

القرية، خارج حدود الزراعات، ولا يفصل بينه وبين أقرب البساتين إلا طريق بري. وتبلغ مساحة القصر حوالي الثمانين ياردة مربعة، وتعلو الأبراج أركانه الأربعة، كما شُيد برج أعلي مدخله المواجه للشمال الغربي. ويبلغ سُمك الأسوار قدمين عند قمتها، وارتفاعها خمسة عشر قدمًا، ثم ترتفع فوقها الأبراج ثمانية أقدام أخري. وهناك فتحات للرمي في الأسوار والأبراج، ولكنها صغيرة ومشيدة بطريقة بدائية لا تسمح إلا بمجال محدد لتأثير النيران. وليست هناك بالقلعة أي آبار جيدة المياه، الأمر الذي كاد أن يؤدي إلى كارثة أثناء القتال الذي جري عام ١٩٢٠م[1]. ففي ذلك الوقت كانت هناك أسوارٌ عالية تحيط بأحد البساتين، على الطريق المواجه للقلعة، وما أن دمرت حتى اتخذ العدو منها ستارًا رائعًا يحجبه عن الرؤية ويحجبه عن تأثير النيران بدرجة أو أخري. وهناك بالقصر حظائر يمكنها أن تأوي حوالي المائة حصان، وتستخدم أساسًا في الوقت الراهن لتربية ما يملكه سمو الأمير من صغار الإناث من الجمال والماشية.

وبعد معركة ١٩٢٠م أخليت القرية تمامًا لعدة أسابيع، وبعد استردادها، شُيد من حولها سور، بعد هدم عدد ضئيل من المنازل حتى لا تشوه شكل السور، والقرية الآن مستطيلة تقريبًا، ويبلغ طولها حوالي ستمائة ياردة وعرضها خمسمائة ياردة، ويواجه جانباها الجنوب الغربي والشمال الشرقي.

وعندما توفي الشيخ سالم بن مبارك الصباح، كان يعتزم بناء قلعة صغيرة بين الجهرة ورأس الخليج من أجل حماية المرسى، وحتى يمكن للإمدادات، إذا ما حوصرت الجهرة، أن تصل إليها من الكويت عن طريق البحر، ولكن هذه الفكرة لم يعد أحدٌ ينادي بها الآن بعد أن استتبّ السلام مع العربية السعودية.

وأغلب السكان الدائمين للجهرة من المزارعين، وهم ينحدرون من أصول نجدية ويعملون في أراض يملكها سمو الأمير وعدد من تجار الكويت وبعض أقارب نقيب البصرة، والمنازل والتي يبلغ عددها مائة وتسعين مبنية من الطين وتأوي حوالي الألف نسمة، وفي فصل الصيف يضرب البدو خيامهم بأعداد كبيرة خارج الأسوار. وفي فصل الشتاء أيضًا تنتشر بعض المضارب على مشارفها، والدواجن والبيض غير متوفرة بكميات كبيرة، ولكن هناك الكثير من الأغنام والماعز وما يكفي من الماشية لتجنب أي نقص في الألبان، وتستخدم الحمير والتي

---

(١) موقعة الجهرة.

يبلغ عددها حوالي ١٠٠ في النقل المحلي، كما يمكن استئجار الجمال من البدو.

وكما سبق أن ذكرنا؛ فأهمية الجهرة هي أساسًا أهمية زراعية، وتكاد تتركز فيها كل الزراعات التي تدخل ضمن ممتلكات الشيخ.

وليس هناك معيار محدد لتقسيم الناتج بين مالك الأرض ومن يزرعها، والمحاصيل التي تزرع هي القمح والشعير والجت (البرسيم)، وتبلغ كمية الشعير حوالي ضعف كمية القمح، ويبلغ إنتاجه عندما تسود الظروف الملائمة حوالي المائة وعشرين منًا "وحدة وزن هندية"(٩٦٠٠ لبرة) ويزرع القمح ويسمي الحنطة أو الحب، في أوائل شهر سبتمبر ويحصد مع الشعير في أوائل شهر مارس، كما يحصد جانبٍ من محصول الحبوب قبل أن يكتمل نضجه لتستخدم أعواده الخضراء علفًا للماشية، على غرار ما يحدث في الهند، ويسمي عندئذٍ بالقصيل Qasil ولهذا الغرض تجمع أعواد الشعيرِ مرتين قبل أن يترك ليكتمل نضجه. أما القمح فنادرًا ما يعامل على هذا النحو إلاّ في السنوات التي تتحسن فيها الأحوال لدرجة غير مألوفة، والفالف Al-falfa وهو نبات عشبي يعلف للدواب ويسمى أيضًا الجت Jath والقت Qatt، وهي تسمية نادرة لنوعية ممتازة، ويزرع على نفس الأرض لمدة أربع سنوات متتالية، ثم تترك خالية لإراحتها لمدة عام، كما يُزرع البطيخ والشمام مرة كل عام، ويكتمل نضج محاصيلها في أواخر أكتوبر، ويستمر موسمها حوالي الشهر. وكمية الإنتاج قليلة جدًا لا تسمح بالتصدير لمدينة الكويت. أما القرع فينضج في أوائل ديسمبر ويستمر لمدة ثلاثة أشهر وتسمح كميات الإنتاج بالتصدير إلى الكويت، وتنضج البقول في شهر فبراير ولكن المحصول قليل ولا يكفي إلا لتغطية احتياجات القرية. ويكتمل نضج البصل في أواخر ديسمبر ويستمر حتى الربيع، ويبدأ الفجل (الرويد) في أوائل السنة ويستمر لفترة أطول من البصل، ويزرع الكرات (البقل) كل عام من جديد، ويتم جنيه مثل الجت (البرسيم) ويمكن الحصول منه على ستة عشر دفعة في الموسمِ، أما الحلبة وقرّة العين (الرشاد) فهما محصولان ضئيلان لا يستمران طويلا ولا تستخدم أعشابها إلا كنوع من التوابل، وهناك أيضًا نبات الباذنجان الذي يعرف باسم البرنجال في الهند والباذنجان في شبه الجزيرة العربية، وينضج مبكرًا في أوائلِ العام إلى جانب البامية والطماطم والتي ليس لها اسم عربي ولا تستمر طويلا، ويجري تصديرها إلى مدينة الكويت.

ولا يُصدّر إلى مدينة الكويت إلا حوالي الثلاثين طنـًا من الحبوب كل عام، ولكن يمكن التوسع في الزراعة في الجهرة إذا استثمر فيها المزيد من الأموال.

وتُزرع المحاصيل التي سبق ذكرها اعتمادًا على الري، على مساحات من الأرض محاطة بأسوار من الطين، يبلغ ارتفاع بعضها ثمانية أو تسعة أقدام، ولكن ارتفاعها أصبح أقل من ذلك بعد معركة الجهرة عام ١٩٢٠ كجزء من خطة الدفاع عن الموقع، وهناك بديل اقتصادي لهذه الأسوار وهو الخداد Khadad وهو خندق يبلغ عمقه قدمين وعرضه قدمين وله جدران رملية ترتفع لمسافة قدمين على كل من الجانبين، وتقع البساتين في الأغلب في القسم الجنوبي الشرقي من القرية، بينها وبين القصر الأحمر. وتزرع كمية ضئيلة من القمح والشعير اعتمادًا على مياه الأمطار وحدها، ولكن مساحتها ضئيلة للغاية بالنسبة لسائر الأراضي المنزرعة.

وتستخدم للري تسعة عشر بئرًا كبيرة يبلغ متوسط أعماقها عشرين قدمًا، ويُرفع الماء، وهو مالح، في قِرَب بواسطة حمير تتحرك علي منحدر مبتعدة عن السور، وأيضًا بواسطة المضخات الآلية. ويسمي الماء الذي يُرفع على هذا النحو العرجية Arjiyah وتسمي القنوات التي تتدفق عبرها المياه من فوهة البئر متجهة إلى موقع الزراعات بالساقية Saqiyah. وفي بعض الأحيان يجمع الماء المرفوع في خزان (بركة) ثم يندفع خارجًا منه عندما يمتلئ، وأما الشرب Sharb فهو مصطبة محاطة بسور تدفع مياه الري للانتشار خلالها قبل إطلاقها نحو المستويات الأدنى من الأرض.

وتسمي المحاصيل التي يتأخر نضجها بالمصيف Musaiyaf . وأما الأنواع الأساسية من التربة فهي الحرة harra أو الأرض الجيدة الصالحة للزراعة، والديم daim أو الأرض الواقعة على حافة الخبرا Khabra أو التي لا تُروي إلا بمياه الأمطار، والحزام hazam وهي أرض حجرية، والسبخة وهي مالحة ملبدة بالطمي ولا تصلح للزراعة.

وأكثر الأدوات التي تُستخدم في الزراعة شيوعًا هي الفأس القديمة المسماة عفدان ifdan وهي معول كبير الحجم من الحديد، قصير المقبض، والسكين sakhin ويستخدم في شق وفتح وإغلاق قنوات الري، والمسّاح masah وهو أداة خشبية ذات أسنان تستخدم لتسوية الأرض، أما المخيال mikhyal فهو عصا يعلق

عليها الراعي أو البدوي في الصحراء بشته (العباءة bhisht) حتى يتجمع حولها ماشيته ويمنعها من الشرود وهو يستخدم أيضًا كفزّاعة لتخويف وطرد الطيور في الأراضي المنزرعة.

ويعتمد أمير الكويت على وكيل لزراعة بساتينه، كما ينوب عنه عندما يغيب عن المواقع، ولا يتواجد من يمثله من شيوخ الأسرة، ويعتبر شيخ الكويت الجهرة من أهم المواقع في أراضيه، ليس فقط لمواردها الزراعية وإنما أيضًا لما يحظى به مالكها من مكانة، ولما تتيحه له من سيطرة على أعداد كبيرة من البدو الذين يُسمح لهم بضرب خيامهم على مشارفها في فصل الصيف بالإضافة إلى تحكمها في الطريق إلى البصرة.

وهناك عدة مواقع ومعالم بارزة تحمل أسماء وإن كانت لا تنتمي لأي قسم من الأقسام المعروفة لإمارة الكويت، وقد رأينا أن نورد كلمة عن كل منها للتعريف بها نظرًا لمتاخمتها للجهرة، وهي وفقا للترتيب الأبجدي:

أم التوينج Umm at Tuwaininj : سهل مرتفع على شكل سلسلة مقوسة طويلة بين ممر أطراف وفريدة، ويمتد في اتجاه الجنوب الشرقي، ثم إلى الشرق من فريدة. وتتكون في هذا الموقع بركتان صغيرتان في فصل الشتاء نتيجة لتجمع مياه الأمطار ومخلفات بعض المستوطنات.

أم الروس Umm Rus : تل ثلاثي القمة، يشكل أحد المعالم الواضحة على بعد مائة وخمسين ميلاً جنوب وجنوب غرب الجهرة.

ثميلات الجويسري Thamilat al Juwaisiri : حوض مياه طبيعي شهير، على بُعد ستة أميال شمال غرب ممر أطراف، يتحول إلى بركة في فصل الشتاء.

خبرات البعل Khabrat al Ba'al : حوض طبيعي على بعد أربعة أميال جنوب غرب الجهرة، تتجمع به كمية من مياه الصرف الهابطة من الصحراء في اتجاه الجهرة، وتزرع حوله كميات ضئيلة من القمح والشعير في الفصول المواتية.

خد السعدة Khad as Sa'ada : سلسلة من التلال الناتئة تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتبدو بيضاء اللون على البعد، وتقع جنوب طريق الجهرة - الرقعي، على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً من الجهرة، والمنطقة كلها تنحدر

في اتجاه الشمال على طول الطريق من الجهرة إلى خد السعدة. وهناك عند نقطة تقع على بعد عشرين ميلاً غرب الجهرة، على طريق الجهرة-الرقعي المباشر نفسه، مجموعة من التلال الجصية البيضاء تُعرف باسم جهلولة Gahlula (أو جهيليلة Gahilila) تُشكل أحد المعالم البارزة في هذه الناحية.

الرحية Ruhaiyah : وهي تل ناتئ يبلغ ارتفاعه أربعمائة قدم، ويقع على بعد عشرة أميال جنوب وجنوب غرب الجهرة.

ممر الأطراف Atraf pass : بعد الهضاب الصغيرة الوعرة، ومجري مائي عميق جاف على بعد عشرة أميال غرب وجنوب غرب الجهرة، يشكل الطرف الغربي لتلال الزور.

فريدة Faridah : تل مرتفع مستطيل يقف منفردًا على بعد اثني عشر ميلاً غرب وجنوب غرب الجهرة.

كَبْـــــد

موقع على بعد حوالي الثلاثين ميلاً جنوب غرب مدينة الكويت بين منطقتي القرعة في الشرق والشق في الغرب.

وتتكون تلال كبد من حزام من الأرض المرتفعة يمتد شرقًا وغربًا لمسافة عشرةِ أميال، وهناك إلى الجنوب مباشرة من كبد حزام مواز يسمي كبيدة (وتنطق عادة جبيده)، وإلي الشرق منها بعض الآبار تسمي جهيلّية Jahiliyah وعبدلية abdaliyah (وهي المصدر الرئيسي الآن للمياه التي تستخدمها شركة نفط الكويت)، وإلى الجنوب من هذه الآبار يبرز أحد المعالم البدوية الشهيرة وهو نصب جحطان Cairn of Jahtan على بُعد عشرين ميلاً جنوبه يقع سهل فويرس Fawaris في المنطقة المحايدة الكويتية، وهو سهل محدد المساحة تتناثر به بعض التلال الضخمة الصغيرة، وهو اليوم مركز حقل نفط أمينويل. وهناك مجموعة من خمسة تلال صغيرة على الطرف الغربي لكبيدة تسمي مناقيش Minaqish وهي بيضاء كالثلج وتنتصب بالقرب من طريق السيارات من الكويت إلى الرياض على الحدود الجنوبية الغربية لإمارة الكويت.

كاظمـــة

يعرف أكثر تجويفات خليج الكويت اتجاهًا نحو الداخل، إلى الغرب من رأس عشيرج، باسم دوحة كاظمة، وتسمي النقطة الناشئة داخله على جانبه الشمالي باسم رأس كاظمة. والتجويف يزداد ضحالة كلما زحف إلى الداخل، ويبلغ عرضه أربعة أميال وعمقه ست قامات في منتصف مجراه عند رأسه التي تبعد تسعة أميال غرب مدخل رأس عشيرج، وحوالي ميلين من قرية الجهرة.

وهناك مرفأ جيد تحميه الطبيعة من رياح الشمال (وهي رياح شمالية غربية) يمكنه استقبال عدد كبير من السفن التي يصل غاطسها حتى الأربعة وعشرين قدمًا، ولكن ليست هناك مياه عميقة بالقرب من الشاطئ، ولذلك يتعين نقل حمولات السفن في الصنادل أو إنزالها على الأرصفة المشيدة داخل المياه، ورأس الكاظمة نقطة منخفضة موحلة تمتد حوالي نصف الميل في اتجاه الجنوب داخل التجويف على بعد حوالي ثلاثة أميال من رأسه، وهي لا ترتفع إلا قليلا عن مستوي سطح البحر، ولكن عنف الطبيعية والرمال التي تتراكم في أعقاب المد المرتفع توفر لها شيئًا من الحماية.

وأثناء الحرب العالمية الأولي قام العديد من سفن المستشفيات بالتوقف في مرسي كاظمة لتستقبل الجرحى والمرضي من السفن المشابهة الأصغر حجمًا التي يمكنها أن تجتاز حاجز شط العرب ولتتجه بعد ذلك إلى الهند حاملة الحالات التي تحتاج إلى علاج. كما كانت تأتي إلى خليج الكويت أيضًا سفن أخري تحمل المرضى الذين هم في دور النقاهة.

ومن المهم أن نذكر هنا أن نقطة نهاية خط سكة حديد برلين-بغداد-البصرة الشهير، الذي آثار الكثير من الجدل قبل حرب ١٩١٤ مباشرة، كان من المقرر أن تكون عند رأس كاظمة، وكان الألمان يدركون تمام الإدراك في ذلك الوقت أن البصرة كميناء لا يمكن أن تفي بهذا الغرض نظرًا للنفقات الباهظة التي كان سيتعين تخصيصها لرفع حاجز شط العرب، ومن هنا تحولت أنظار الألمان والأتراك معًا إلى خليج الكويت.

الليبيــــة

سهل يصلح للرعي في القطاع الساحلي جنوب المنطقة المحايدة مباشرة، ويمثل غدير المقطع Maqta حدوده الشمالية، ولذلك يمكن اعتباره جزءًا من منطقة السودا As Suda متاخمة من الجنوب جبل عموده Amudah الذي يقع جزء منه في المنطقة المحايدة والجزء الآخر في العربية السعودية، وهناك تلٌ مخروطي أبيض ناتئ في وسط هذا السهل يُعرف باسم جبل طيار Taiyar.

المقطع MAQT'A

غدير من المياه المالحة غير الصالحة للشرب في القطاع الجنوبي من المنطقة المحايدة، يمثل الحدود الفاصلة بين الهزيم في الشمال وسهل لبيبة في الجنوب. وهوٍ يخرج من نبع الكبريت المسمي "عين العبد"، على بعد حوالي خمسة عشر ميلا من الساحل، ويصل إلى البحر شمال رأس الخفجي مباشرة، ويقال أن المياه تتدفق في المقطع بعرض يتراوح بين عشرة أقدام واثني عشر قدمًا، على عمق قدم واحد، وأنه عندما تبلغ شدة اندفاعه ذروتها، يمكن للسفن المحلية أن تشق طريقها فيه لمسافة محدودة. ويُعرف مدخله باسم خور المقطع، كما يستخدم اسم الجمع (المقاطع) أيضًا في بعض الأحيان.

وقد زرت عين العبد في عام ١٩٣٤ ثم في العام التالي، ومرة ثالثة في عام ١٩٤٣م، إن حوايى ألف جالون من الماء تتدفق هناك كل دقيقة وتتكون العين، أو "النبع" من منخفض يشبه الكأس يبلغ اتساعه خمسين قدمًا، والماء كريه الرائحة إلى أبعد الحدود، ويحتوي على كبريتات الهيدروجين، ولكنه يتميز بصفائه وارتفاع كثافته، ويقول البدو إنه من الخطر الدخول إلى مركز الحوض نظرًا لما يزخر به من رمال متحركة تغوص فيها الأقدام، وهناك قصة تقول إن عبدًا أسود يظهر في وسط العيَن بين الحين والآخر، والأرجح أن هذا القول يرتبط بدفع المياه لمخروط أسود من الطمي إلى أعلي عندما تصل إلى درجة الغليان في بعض الأوقات. وقد رأيت هذه الظاهرة. والبدو لا يحبون هذا المكان ويتجنبونه بكل حذر، ويقولون إن العبد الأسود نصفه بشر ونصفه شيخ، يعيش في العين، ويمكننا أن

نراه في بعض الأحيان وهو يستمتع بأشعة الشمس على الضفة، وهو يهاجم المسافرين الذين يغامرون بالاقتراب فرادي من عين العبد.

والمقطع أيضًا اسم لجزيرة تابعة لدولة الكويت، أمام ساحل السودا، على بعد ميل ونصف الميل جنوب حدّ المشعاب، ويبلغ طولها ميلين من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وبها قمم صخرية يتراوح ارتفاعها بين العشرين والخمسين قدمًا، وتقع في جانبها الشرقي، وليست هناك أي قنوات صالحة للملاحة بين الجزيرة والمناطق الداخلية، كما تختفي إلى حد كبير عندما تعلوها مياه المد المرتفع.

قرعـــة

هي شريط من الأرض الجرداء، ويحدّها خليج الكويت من الشمال، والبحر ونتوء رأس الأرض من الشرق، ومنطقة العدان من الجنوب، والموضع المسمي كبد في الغرب، وتشمل قرعة - بالإضافة إلى مدينة الكويت - الأماكن التالية:

البدع Bad'ah : شريحة صغيرة من الأرض على الساحل على بُعد ميلين ونصف الميل جنوب غرب رأس الأرض.

الشدادية Chadadiyah : بعض الآبار على بُعد تسعة أميال جنوب غرب مدينة الكويت، مع شيء من الاتجاه نحو الغرب على طريق الرياض الرئيسي، والماء غير جيد، وتقول بعض المصادر المختصة إن هذه الآبار تقع خارج نطاق منطقة قرعة.

دمنة Dimanah : قرية كبيرة من قري العوازم عند الطرف الأدنى لشبه جزيرة رأس الأرض، وتقع على حافة منخفضة من الرمال على بعد حوالي المائتي ياردة من البحر، وثمانية أميال شرق وجنوب شرق مدينة الكويت. وبهذه القرية مسجد، ومائتا منزل، ومدرسة، وبعض المباني الفاخرة التي شيدها الشيوخ لتكون مقرًا لهم. وهناك عدد من الآبار ولكن القليل منها فقط تتوفر به المياه، والتي تميل إلى الملوحة قليلاً، ونظرًا لاعتدال المناخ في هذه المنطقة يتسابق العديد من شيوخ الكويت وعِلية القوم بها لبناء مدينة جديدة جميلة بين دمنة ورأس الأرض، ومنذ عام ١٩٥٣ أطلقت على دمنة تسمية السالمية.

حولّي Hawali : قرية كبيرة على بُعد أربعة أميال جنوب شرق مدينة الكويت، بها مدرسة، ومسجدان، وحوالي خمسمائة منزل وحوطة hautah وخطوط تليفونية، وسكانها المقيمون الآن من أبناء قبائل عربية مختلفة على غرار من تلتقي بهم في مدينة الكويت، ويعملون جميعًا كمزارعين بالأجر في البساتين، ويزرعون الشمام، والجزر والبصل...الخ، التي تباع في سوق الكويت، وهناك عدة آبار تروي منها هذه البساتين، وفي جنوب القرية شُيد قصر بيان Baiyan مكان المقر الريفي لشيخ الكويت السابق، ولكنه تحول الآن إلى أطلال. ويتكون هذا القصر من مبني صغير من دور واحد، وعدد من المباني الملحقة لنزول الضيوف، وأجنحة للخدم، وتقع جميعًا على تل صغير يشرف على القرية، ويملك الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، ابن الأمير السابق "فيلا" في حولي، كما يضم بها عدد من كبار التجار في فصل الربيع. ومع ازدياد اتساع الكويت، فسوف ترتبط حولي بالعاصمة عما قريب لتصبح ضاحية من ضواحيها.

ملح Malah : خمسة عشر بئرًا على بعد خمسة عشر ميلاً جنوب مدينة الكويت، وثمانية أميال غرب قرية أبو حُلَيفة على الساحل، قريبًا من حقل نفط مقوع Maqwa ، ويبلغ عمق الآبار عشرين قدمًا، والماء مالح ولكنه صالح للشرب. وكانت هذه الأراضي تزرع فيما مضي، ومازالت بها أطلال قلعة قديمة.

المقوع Maqwa : على بعد ميلين إلى الشمال من ملح يقع أصغر الآبار التي حُفرت في الحقلين التابعين لشركة نفط الكويت (ثلاثة وعشرون بئرًا)، كما بها أيضًا المستشفي المركزي ومركز التدريب، وهناك عدد قليل من الآبار، أحدها فقط يحتوي على ماء جيد.

مِشْرف: على بعد ميلين جنوب قصر السرّة Qasr as Sirra قلعة قديمة رائعة تحولتَ إلى قصر حديث يتخذه الشيخ عبدالله المبارك الصباح، القائد العام للجيش الكويتي مقرًا له.

قصر السرة: المقر الريفي للشيخ عبدالله الجابر الصباح، المدير العام للتعليم بالكويت، ويقع على بعد ثمانية أميال جنوب وجنوب شرق مدينة الكويت.

قليصية Qulaisiyah : ستة آبار على بعد عشرة أميال جنوب شرق مدينة الكويت، وميلين ونصف الميل من الساحل، هناك ماء جيد على عمق سبعة وعشرين قدمًا، ولكن ليست هناك زراعة.

رأس كيفان Ras Kaifan : بضعة آبار تردمها الحجارة الرملية، على الجانب الجنوبي من رأس الأرض، ويوجد بالقرب منها كوخ أو كوخين من أكواخ صائدي الأسماك.

رميثية Rumaithiyah : قرية صغيرة مأهولة طوال الوقت على بعد ستة أميال جنوب شرق مدينة الكويت.

السالمية: انظر الدمنة.

شعب Sha'ab : قصر أبيض ضخم علي الساحل، في منتصف الطريق بين رأس العجوزة ورأس الأرض، ويسكن هذا المَعْلم البارز الآن فخامة الشيخ عبدالله السالم أمير الكويت.

صليبخات Sulaibikhat : تلال رملية بيضاء على أرض مرتفعة على بعد ستة أميال جنوب غرب مدينة الكويت، على الطريق إلى الجهرة وجنوبها، بالقرب منها شيدت مركز الحجر الصحي في عام ١٩٥٣ واستخدمت مؤقتاً في عام ١٩٥٣ كمستشفي للأمراض الصدرية للنساء، ويجري الآن بناء ضاحية خاصة للأجانب.

صليبية Sulaibiyah : أربعة آبار مياه جديدة عميقة، على بعد ميلين جنوب شدادية، تعتني بها شركة نفط الكويت لخدمة مدينة الكويت وجمال البدو وماشيتهم، الماء مالح قليلا، ولكنه يصلح للشرب، عند خلط أي كمية منه بما يعادل نصفها من الماء المقطر.

عديلية: منخفض ضحل فسيح، يضم حوالي ستة آبار على بعد ثلاثة أميال جنوب مدينة الكويت، وعندما تسقط الأمطار في الخريف يزرع القمح ويحقق محصولاً طيبًا.

ورأس العجوزة ورأس الأرض من بين المعالم الساحلية لمنطقة القرعة.

قصــر مشرف

كان في بادئ الأمر قلعة على بعد ثمانية أميال جنوب وجنوب شرق الكويت، تقوم على حراسة المشارف الجنوبية للمدينة، وقد شيدت هذه القلعة عام ١٩٠٠م في عهد الشيخ مبارك الصباح، الذي كان يستخدمها كمقر له من

وقتٍ لآخر، ثم تم تجديدها بالكامل في السنوات الأخيرة، وأعيد بناؤها على يد ابنه عبدالله، ودون اعتبار للنفقات حتى أصبحت اليوم أفخم المقرات التي تصل إلى مستوي القصور في شبه الجزيرة العربية كلها، وبها قاعات رائعة للاستقبال والطعام يمكنها استيعاب ثلاثمائة شخص في المرة الواحدة، وأضيف إليها مؤخرًا مسجد رائع، كما شيد العديد من غرف النوم المزودة بوسائل الراحة الحديثة لاستقبال الضيوف.

ويحصل القصر على بعض احتياجاته من الماء من الآبار التي يتراوح عمقها بين الستين والسبعين قدمًا، وتقع على بعد ميل واحد للشمال الغربي. والماء جيد ومتوفر بكميات كبيرة، وتقع في سلسلة تلال الظهر Dhahar على بُعد حوالي اثني عشر ميلا إلى الجنوب مع انحراف يسير إلى الشرق من مشرف (في مواجهة الفنطاس)، آبار تعرف باسم ثميلات العطول Thamilat al Atul وهو الاسم الذي أطلقته عليها أسرة من قبيلة العجمان، ومياهها دائمة العذوبة.

ويقيم فخامة الشيخ عبدالله المبارك الصباح، وهو خير خلف لخير سلف في مشرف أغلب أشهر السنة.

قـــــرين

يُطلق هذا الاسم - وينطق جرين في كثير من الأحيان - على جزيرة صغيرة جرداء في خليج الكويت، وأيضًا على تل ضخم يقف منعزلاً بمفرده في الأراضي الداخلية.

وتقع الجزيرة الصغيرة، وتسمي أيضًا جزيرة الشويخ، على بعد حوالي الميل ونصف الميل من الشاطئ عند نقطة على مسافة أربعة أميال غرب مدينة الكويت، وهناك بالقرب من طرفها الجنوبي أكمة صغيرة بنية اللون يبلغ ارتفاعها سبعة وعشرين قدمًا، على الجانب الجنوبي الشرقي منها، وبينها وبين ساحل الكويت، حوض صغير يسمي بندر الشويخ، حيث يمكن للزوارق المحلية أن تتحرك وهي في حماية كاملة من الرياح، في مياه يبلغ عمقها ثلاث أو أربع قامات. ويرتبط هذا المرفأ بالخليج المفتوح بواسطة قناة ضيقة طويلة لا تحتوي إلا على ما يتراوح بين اثني عشر وثلاثة عشر قدمًا من المياه عندما ينخفض المد في

الربيع، ولمسافة تبلغ أربعمائة ياردة، ويبدو أن العقبة التي تحول دون تدفق المياه هو صخرة ليس من السهل إزاحتها. ومن أجل إعداد القناة حتى تستطيع استقبال السفن الكبيرة، تجري الآن عمليات لرفع الأوحال من القاع (١٩٥٣). والأرجح أن تسمية جرين (قرين)، وهي الاسم الإنجليزي القديم لمدينة الكويت، كانت تستخدم للدلالة على هذه الجزيرة.

أما جبل قرين، في الطرف الجنوبي الأقصى من أراضي الكويت على الحدود بينها وبين المنطقة المحايدة فهو يقع على بعدٍ ما يزيد قليلاً عن الأربعين ميلاً جنوب مدينة الكويت، وحوالي أربعة عشر ميلاً من ساحل البحر. ويشمل هذا الاسم بعض الآبار ومنخفض يسمي خور القرين، يمتد جنوب التل وشرقه، وتنمو به الحشائش والأعشاب. وبالرغم من تسميته بالخور، إلا إنه من الواضح أنه ليس هناك أي اتصال بينه وبين البحر. وتتسرب مياه الصرف من هذا الخور إلى الأرض في فصل الأمطار لتكون مسبخة مالحة بالقرب من آبار القرين. ووفقاً لما تذهب إليه أكثر المصادر دراية بالأوضاع في هذه المنطقة، فإن تلّ الكويت وحده، وليس الآبار، هو الذي يقع ضمن أراضي الكويت.

القصـــور

يطلق هذا الاسم على قرى أبو حليفة، والفحاحيل، والفنطاس، والفنيطس، والشعيبة، والتي تدخل كلها في إطار منطقة العدان.

الرقعي Al Riq'ai

اسم مجموعة من الآبار على الضفة الشرقية للباطن عند نقطة تبعد حوالي المائة ميل وخمسة غرب وجنوب غرب مدينة الكويت، على خط مباشر معها، والآبار أعلي نسبيًا فوق القاع المعتاد لمنخفض الباطن، ولا تتوفر بها المياه دائمًا، ولكن يمكن الحصول على الماء طوال فصل الصيف عندما تمطر بغزارة في فصل الربيع، وتقع الآبار التي يمكن استخدامها بين الصخور وترتبط فيما بينها

بمسارب تحت الأرض، ولكن حركة تسرب المياه بطيئة للغاية، بحيث لا يمكن الحصول إلا على كمية ضئيلة عند كل محاولة، وتقع الرقعي داخل العربية السعودية وبها مخفر للشرطة.

السلو 'Al Salu

بقعة على الساحل في الركن الشمالي الشرقي للمنطقة المحايدة بين العدان والهزيم، يحدها من الشمال القرين ورأس القليعة، ومن الجنوب تل شظف ورأس الخفجي.

الشـــق

وادي طويل ضحل، يبلغ امتداده المائة ميل من الشمال إلى الجنوب، وعرضه حوالي عشرة أميال في المتوسط، ويشكل المنطقة المعروفة بمنخفض الشق التي تقع على بعد حوالي الأربعين ميلاً من جانبه الشمالي داخل حدود إمارة الكويت، والتي تنتهي في الشمال على بعد حوالي الثلاثين ميلاً شمال الجهرة. وفي الجنوب بجوار وربية Warbaiah وتحدها من جهة الشرق منطقة الكبد ومنطقة العدان داخل أراضي الكويت، ومناطق السلو والهزيم والسودا As Suda في الجنوب، أما في الغرب فتحدها منطقتا دبدبة والقرعة، بينما تقترب الصمان Summan منها عند ركنها الجنوبي الغربي.

وليس للشق سكان ثابتون، ولكنها تنتج الوفير من العشب والحطب الذي يباع في مدينة الكويت، وهي تمثل في الشمال الحد الفاصل بين أعشاب الحمض في الغرب والعرفج في الشرق، وهناك في الموقع الذي يمر به الطريق من الكويت إلى مدينة الرقعي، على بعد أربعين ميلا غرب وجنوب غرب الكويت، حوض للمياه يسمي خبرات الفرق Khabrat al faraq ولكنه لا يمتلئ بالمياه إلا في فصل الأمطار، وحوض مماثل على الطريق المباشر إلى الرياض على بعد أربعة وأربعين ميلاً جنوب غرب مدينة الكويت يسمي خبرات الدويش أو خبرات جلهم Jilhim وأول هذين الموضعين داخل حدود الكويت، وأما الثاني فخارجها مباشرة.

الشقيـــق

منطقة تمتد بين الباطن والكويت في الشمال الغربي من الجهرة، على الجنوب مباشرة منها تمتد منطقة شاسعة تسمي الدبدبة. وقد استمدت اسمها من عدد من الشقيق أو المنخفضات، الذي يمتد بعضها من الشمال الشرقي مثل شقة أم الرويسات، وشقة الجليب Al-Jalib وشقة الضويجية، وتقع الأخيرة منها داخل حدود الكويت، أما الأخري مثل شقة الصقية فتمتد في اتجاه الجنوب الغربي بينما تمتد شقة الوصية إلى الباطن في الشمال، والشقيق أرض جرداء ليس بها إلا القليل من العشب، وليس لها سكان محدودون.

السودا As Suda

سهل فسيح يُشكل المنطقة الواقعة على البحر في أقصي جنوب الأرض غير المحددة التي سبق الحديث عنها، ويحده من الشمال منطقة الهزيم في الأرض المحايدة التي يفصله عنها مجرى المقطع ثم تمتد غربًا إلى الطرف الشرقي الأقصى لسلسة تلال ظليعات المعيجل Muaijil وتل النعيرية Nuairiyah ويشمل في طرفه الشمالي سهل اللبيبة، ويبلغ طول السودا من الشمال والشمال الغربي إلى الجنوب والجنوب الشرقي حوالي الستين ميلا، وسطح الأرض بها مستوي ويتكون من رمال داكنة، وليست هناك أشجار ولكن ينبت الحمض، والحنظل، والعرفج، والثمام التي تتغذى عليها الجمال.

وفيما يلي المعالم الأساسية داخل هذه المنطقة:

عرافجية Arafjiyah : آبار يبلغ عمقها خمسة عشر قدمًا، على بُعد ثمانية أميال غرب جبل عموده Amudah والماء صالح للشرب.

عرق: آبار يبلغ عمقها اثني عشر قدمًا على بعد اثني عشر ميلاً شمال وشمال غرب تخاديد Takhadid على بُعد ثمانية عشر ميلا جنوب وجنوب شرق التل المخروطي والآبار المسماة المراغة Maragha بالهزيم، على بعد حوالي عشرين ميلا من البحر، وهي تمتد على طول الحدود الجنوبية للمنطقة المحايدة. والماء في الآبار خَطِر، ولا يصلح للشرب في أغلب المواقع.

بعل Ba'al : هضبة، أو تل مسطح القمة، يبلغ نصف قطرها حوالي ستة أميال، وتقع في اتجاه الركن الجنوبي الغربي للمنطقة. وكثيرًا ما يفد البدو إلى هذا الموقع من إنجير Ingair التي تقع على بعد ستة أميال ونصف الميل في الشمال الشرقي.

حَمْض أو حَمَض Hamdh - Hamadh : آبار يميل ماؤها إلى الملوحة قليلاً، على عمق اثني عشر قدمًا، وتقع على بعد يتراوح بين العشرين والأربعة والعشرين ميلاً شمال غرب تل النعيرية، وكانت هذه هي المساحة التي شهدت هزيمة القوات الكويتية تحت قيادة دعيج بن سليمان بن صباح الفاضل في عهد الشيخ سالم.

إنجير أو نقيرIngair : آبار تحتوي ماء يصلح للشرب، على بعد أربعة أميال جنوب نقيرة Naqira وستة أميال ونصف الميل شمال شرق بعل.

نقيرة Naqira: آبار تحتوي ماءً عذبًا على عمق اثني عشر قدمًا، على بعد سبعة أميال ونصف الميل جنوب شرق وجنوب حمض.

شظي Shadhi : آبار يبلغ عمقها ستة أقدام، على بعد بضعة أميال شرق عرفجية، الماء عذب في بعض الآبار وغير صالح للشرب في البعض الآخر.

تخاديد: آبار تحتوي ماءً عذبًا على عمق اثني عشر قدمًا وتقع على بعد اثني عشر ميلاً جنوب شرق العرق.

وأما المعالم الأساسية لساحل السودا فهي من الشمال إلى الجنوب – رأس الخفجي، وحدّ (أو رأس) المشعاب (نتوء يشبه العصا التي تساق بها الجمال)، وجزيرة المقطع، ودوحة الخريس Al Khurais ورأس التناجيب Tanajib ودوحة بلبول وجبل منيفة.

الصمـــان

منطقة مترامية الأطراف في العربية السعودية، يقع القسم الشمالي منها داخل الحدود السابقة التي طالب بها شيوخ الكويت، وتمتد بين صحراء الدهناء في الغرب، ومناطق دبدبة والشق وتلال أبو ظهير وتلال طافَ Taff في الأحساء في الشرق، كما تمتد الصمان من خط عرض حفر الباطن في الشمال إلى الطريق بين

الرياض والهفوف في الجنوب، وربما إلى ما بعده أيضًا. ويبلغ طولها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مائتان وأربعون ميلاً على الأقل، ويقسمها الطريق المباشر للسيارات من الكويت إلى الرياض إلى نصفين متساويين، وأما عرضها والذي يبلغ التسعين ميلا عند هذه النقطة، فتناقص في اتجاه الجنوب ليبلغ حوالي الثلاثين ميلاً عند النقطة التي يليها طريق السيارات بين الرياض والهفوف.

وعندما ندخل الصمان من ناحية الكويت على الطريق المباشر إلى الرياض، نلتقي بأرض تنتشر فيها أكوام الصخور وتلال الحجر الرملي مسطحة القمة، تتخللها وديان ضحلة متعرجة تزخر بالزهور البرية، والحشائش والأعشاب في فصل الربيع. وبعد ذلك، تزداد التلال تشابكا ثم ما تلبث الأرض أن تزداد استواءً بعد حين. وتمتد الوديان – وهي عريضة مسطحة القاع – في مسارات متعرجة في الجنوب والشمال. بينما تتشح التلال – وهي منخفضة مستوية وأكثر انتظامًا في توزيعها – بلون الآجر. أو تبدو حمراء اللون عندما تتخذ الشكل المخروطي. ويعقب ذلك قطاع من الأرض الجرداء، ثم تيه من الوديان. والآن المظهر العام أقل قسوة ووعورة. وتتكون الأميال العشرون الأخيرة بالقرب من الحدود الغربية من الصمان من أرض تتناثر بها الأعشاب والحشائش. تتحول بالتدريج إلى سهول متموجة تتخللها نتوءات صغيرة من الحجر الرملي التي تنتهي عند الحد الرملي الأحمر للدهناء.

على طريق الرياض–الهفوف، تظهر في الصمان في اتجاه الشرق منحدرات صخرية متقطعة ومحصورة يتراوح ارتفاعها بين الخمسين والمائة قدم. وفي مواجهتها يتكون القطاع الأوسط من سهول جرداء تمتد إلى الأفق وتتناثر بها الحجارة الصغيرة ولا تنتج أي أعشاب تصلح لرعي الجمال أو لتوفير الحطب للوقود.

وعندما تتوافر مياه الأمطار، تخضّر الأرض وتظهر المراعي اليانعة في الجزء الأكبر من الصمان، وهي مراعي أفضل كثيرًا من مراعي الدهناء، والحطب الشائع في هذه المنطقة هو نوع من النبات العطري البرّي، كما يتوفر الحميض humaith وهو حامض حريق المذاق بكميات كبيرة، ويقال إن الأتراك هم الذين أدخلوا زراعته إلى الأحساء. وفي فصل الربيع، يظهر العديد من أنواع الزهور البرية، والبقدونس البرّي، كما تزداد أشجار السدر ضخامة ويحافظ عليها قبيلة

مطير إلى حد كبير. والعرب الذين يضربون خيامهم في الصمان ينتسبون جميعًا – تقريبًا – لمطير، ولكن هناك أيضًا بعض العجمان يقيمون معهم جنبًا إلى جنب عند الطرف الجنوبي. كما يفد إلى هذه المنطقة أيضًا بنو خالد، وقحطان، والسبيع Sebei. وأكثر الآبار شهرة هي الوبرة، واللهابة Al-Haba وقرعة، واللصافة، والجاريئان: جرية العليا Ilya وجرية السفلى Sifla.

أم الخيـــلان

شريحة صغيرة من الأرض تمتد بين منطقتي ياه Yah في الشرق والشقيق في الغرب وتقع في الركن الشمالي الغربي لأراضي الكويت المعترفٍ بها، ويبلغ قطرها حوالي الثمانية أميال، وتمتد على بعد خمسة وأربعين ميلاً شمال غرب الجهرة.

أم جنيب

مصطلح عام يطلق على مناطق القرعة، والكبد، والعدان، بالإضافة إلى السلو والهزيم، والتي تقع في المنطقة المحايدة، على القسم الشمالي من السودا في الأراضي غير المحددة (التي تطالب بها الكويت وتتبع العربية السعودية في الوقت الراهن)، وإلي الجنوب منها. ويحد البحر أم جنيب من ناحية الشرق، وخليج الكويت من ناحية الشمال، وطليعات المعيجل Muaijil في الجنوب. وهذه هي الأراضي التي تطلق عليها هذه التسمية بشكل عام، ولكن هناك أيضًا من يرون أن أم جنيب تمثل منطقة صغيرة منفصلة أكثر ارتفاعًا إلى حدٍ ما من الهزيم، وتقع غرب الهزيم واللبيبة، وتضم تل رُحية وآبار شظف والوفرة.

الوبـــرة

مضرِب شهير للخيام ومركز تتوفر به المياه في الصمان، على بعد مائة وأربعين ميلاً جنوب غرب مدينة الكويت، على خط مستقيم معها. وهي أحد الأماكن الأساسية والمركزية لتوقف القبائل وهي في ترحالها بين الساحل والأراضي

الداخلية في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية. وهناك أكثر من مائة بئر، في إطار مساحة تبلغ حوالي أربعمائة ياردة مربعة. ولكن القليل منها فقط في حالة جيدة، وهي مغمورة لمسافة تتراوح بين أربعة وعشرين وثمانية وعشرين قدمًا بين صخور الحجارة الرملية. كما أنها قديمة جدًا، وتتميز فوهاتها بما على أطرافها من شقوق نتيجة للتآكل الناتج عن إنزال الحبال لرفع الماء. والسائل الذي تحتويه هذه الآبار يميل إلى الملوحة، وهو أقل جودة بكثير من مياه آبار جرية العليا واللهابة Al Haba التي تبعد عنها في اتجاه الشرق، واتجاه الغرب والجنوب الغربي على التوالي، والتي يفضل المسافرون الآن القدوم إليها وهم في طريقهم من الكويت إلى الرياض.

الوريعة (Waraiah)or Wariyah

شريحة صغيرة من هضبة بين منطقتي السودا والصمان، تمتد لمسافة ثمانية وعشرين ميلا في اتجاه الشمال الغربي من الوبرة، وسطحها غير منتظم وتتناثر بها الشقوق، وآجام التربة والحجر الرملي. وهناك في الطرف الغربي مجموعة من ثلاثة أو أربعة نتوءات تسمي مرباط Marbat.

جال الليّاح Jal al-Liyah

تقع هذه المنطقة الصغيرة على بعد ثمانية عشر ميلاً شمال وشمال شرق الجهرة، وتشكل الطرف الأقصى لسلسلة التلال المنخفضة المعروفة باسم جال الليّاح Jal al Liyah والتي تمتد في اتجاه الغرب من الجال ثم تتحول إلى الجنوب الغربي نحو الركن الجنوبي الغربي للدولة. ويبلغ الطول الإجمالي لجال اللياح حوالي الخمسة وثلاثين ميلا.

وفيما يلي بعض الأماكن الأخري الواقعة شرق شبه الجزيرة العربية، والتي سأتناولها أحيانًا في فصول لاحقة:

الهفـــوف

قمت بزيارة الهفوف سبع مرات، وهي موطن إبراهيم وعاصمة ولاية الأحساء شرقي شبه الجزيرة العربية، أثناء هذه الزيارات جمعت العديد من القصص الغريبة التي لم يسبق تسجيلها والتي تنتشر بين البدو، ومن الواضح أنه لم يقدر لبيلغريف أو فيلبي أو تشيزمان أو غيرهم ممن زاروا هذه المنطقة أن يكتبوا عنها.

وتربط أغلب القصص، بشكل أو بآخر بالجزء المركزي من التل المعروف باسم جبل قارة (أو جارة) الذي يشبه القلعة الأثينية، وينتصب بقمته المسطحة وسطٍ الغابة الوارفة الكثيفة التي تحيط بمدينة الهفوف لمسافة تبلغ الخمسة عشر ميلاً. وعندما تجولت عند قاعدة هذا التل الشهير المكون من الحجر الرملي داكن اللون، جالت في ذاكرتي وبدون إرادة من جانبي، صور الطبيعة الوعرة الكالحة في أريزونا، لأن جبل قارة تحيط به من كل جانب ممرات ضيقة وأخاديد شديدة الانحدار نحتتها قرون من الرياح الحارة التي تلفح الصحراء، وكان ما شد بصري على وجه الخصوص تلك السلسلة من الأعمدة الراسخة الرائعة التي تشبه أعمال الكائنات الخرافية التي ولي زمانها، والمشهد في هذه الأماكن عندما توشك الشمس على المغيب مشهد مثير إلى أبعد الحدود، وفائق الجمال بلا نزاع.

ويقع كهف إبراهيم على الواجهة الجنوبية للجبل على قاع سلسلة من الأعمدة القوية الشبيهة بالرواسب الكلسية المدلاة من سقوف المغاور (الستالكتايت) والتي تتخللها الشقوق الضيقة. وعندما حاولت مرتين أن أكتشف حقيقة هذه الأعمدة وأن أتفحصها لم أحقق بغيتي، ولم أرى إلا جزءًا في الفراغ الداخلي الفسيح الذي يمكن للمرء أن يدخل إليه بلا عودة، كما يقول البدو، إذا لم يمسك بخيط يربطه ابتداء من المدخل ليحدد مساره بواسطته حتى يضمن العودة بسهولة.

الفصل الثالث
قبائل وعائلات شبه الجزيرة العربية

المستوطنون والرعاة – عجمان – عنزة – عقيل – العوامر – العوازم – بنو هاجر – بنو كعب – بنو خالد – بنو صخر – بنو تميم – بنو يام – بنو ياس – بلي – الدواسر – حرب – الحساوية – حطيم – آل خليفة – المناصير – المرة – مطير – أهل نجران – قحطان – القواسم – الرشايدة – آل رشيد – آل صباح – السهول – الصعير – آل سعود – سبيع – شمر – السديري – صلبة – عتيبة – الزعب و (عدوان).

المستوطنون والرعاة

ينقسم العرب إلى مجموعتين أساسيتين: البادية: الذين يعيشون حياة الرعاة في الصحراء، ومنازلهم خيام سوداء تصنع من شعر الماعز أو صوف الماشية، والحضر: وهم سكان المدن أو القرى، ويعيشون في منازل دائمة بُنيت من الحجارة والطمي. وكلمة بدويّ مشتقة من البادية، فالعربي الذي يعيش في الصحراء (البادية) يسمى بدويًا، وجمعها بدو، أما ساكن المدينة فهو حَضَري.

وهناك فئة ثالثة تتوسط البادية والحضر، وهي عريب دار Araibdar' أو عربي الدار، وهم شبه رعويين، ويضربون خيامهم بالقرب من المدن أو يعيشون فيها في فصل الصيف، ثم يعودون مرة أخرى إلى حياتهم القائمة على التجوال والتنقل عندما يأتي الشتاء. وتنطبق تسمية العريب دار على وجه الخصوص على دولة الكويت. والبدو الحقيقيون لا يربون إلا الجمال. ويسمى رعاة الصحراء باسم الشاوية[1] Shawiyah أو الشواوي في العراق، بينما يعرفون في الكويت والعربية السعودية باسم (الحُكرة) Hukra ويتكونون في الجانب الأكبر منهم من القطاعات التي تربي الماشية من أبناء القبائل التي تعيش جنوبي نهر الفرات. وهناك قبائل أخرى، مثل مطير والعوازم، تقوم مجموعات خاصة من بينهم بأعمال الرعي.

---

(١) مفردها شاوي.

وهناك أيضًا العشائر Ashai'yir التي تمارس الزراعة اعتمادًا على مياه النهر على ضفاف دجلة والفرات، والصُنّاع Al Sana وهم مجموعة من تجار الحديد والمواد المعدنية، ومن أطباء البيطرة، والعمال الذين يقومون بصيانة وإصلاح الأسلحة النارية. وتتبع كل قبيلة من الأشراف مجموعة من المهن تحقق كفايتها، والتي لا يوجد مثيل لها إلا في الكويت وأرض نجد، وغير متوافرة في العراق.

والبدو الحقيقيون شديدو الاعتزاز بأنسابهم ولا يسمحون لأحد بأن يمتزج بهم، إنهم العرب العاربة، أي عرب أبناء عرب من سلالة يعرب أبي العرب؛ ويرون أن جميع الآخرين ليسوا إلا عربًا مستعربة، أي من أصبحوا عربًا، أي سلالة إسماعيل وأمه هاجر. وينقسم كلٌ من العرب العاربة والعرب المستعربة إلى قبائل رفيعة المكانة وأخرى أدنى منزلة. أما القبائل عريقة النسب فتسمى بالأشراف، أي إنهم أصلاء أنقياء النشأة والدم، أما سائر الآخرين فهم من غير الأشراف، وهم لا يعترضون على هذا التمييز.

وأشهر القبائل في شبه الجزيرة العربية هم عنزة، وشمر، وحرب، □ومطير، وعجمان، والظفير، وبنو خالد، وبنو هاجر، والمرة، وقحطان، وعتيبة، □والدواسر، والسهولSahul ، والمناصير، وبنو ياس، وسبيع Sebei والقواسم، وبنو يام Yam وزعب Za'ab ؛ منهم عدوان وبنو تميم، وإن كان بنو تميم لا وجود لهم الآن كقبيلة متكاملة. والعوازم، والرشايدة، وحطيم، والصلبة Salubba، وعقيل.

عجمـــان

تدين هذه القبيلة الكبيرة القوية والتي تعيش شرق شبه الجزيرة العربية بالولاء للملك سعود، ابن الملك ابنِ سعودٍ الكبير والحاكم الحالي للعربية السعودية، وترتبط هذه القبيلة ارتباطًا وثيقًا بآل مُرّة، ويعتبر أعضاؤها أنفسهم سادة الصحراء، الأمر الذي لا توافق عليه القبائل الأخرى دائمًا. وهم يتصاهرون ويتزاوجون مع بنى يام الذين يزعمون الانتساب لنفس السَلَف، يام. وأبرز شيوخهم هم آل حثلين، من فخذ الناجعة من بطن المعيض Ma'idh. ومن بين بطونهم:

آل عرجة	الشيخ بن رماح
الضاعن	شيخ الدامر
الحبيش	الشيخ ابن الويفIlwaf
الهادي	الشيخ عبيد المتلقم
الحيّان	الشيخ ابن صباح
الهتلان	الشيخ بن زمانان
المحفوظ	الشيخ حمد ابن راكان المكرادMikrad
المعيض	الشيخ راكان بن ضيدان الحثلين
المفلح	الشيخ ابن دبلان
المصرة	الشيخ محمد بن الوذين
السفران	الشيخ ابن مُنيخر
السليمان	الأمير هيف بن حجرف (ويدين بالولاء للكويت)

ولا تشمل شجرة أسرة آل حثلين الواردة فيما بعد إلا الأسماء التي أشرنا إليها على هذه الصفحات.

وعندما اغتيل ضيدان بن خالد الحثلين في عام ١٩٢٨ أصبح ابنه راكان Rakan هو أبرز الشيوخ في نظر العجمان، ولكن ابن سعود عين خالد بن محمد الحزام الحثلين مكانه. وكان خالد - المعروف باسم "زب سحمان" (أي عضو الكلب الذكرى) صاحب منزلة رفيعة في مجالس عجمان التي يعقدها ابن سعود، وكانت له مكانته الخاصة لديه.

اشتهرت قبيلة عجمان منذ القدم بجمال بناتها، ونزوح العديد منهن مع أمراء من البيت الملكي السعودي، ومن حكام الكويت والبحرين، ومن الأسر العريقة من مطير، إلى جانب علية القوم من أهاليهن. وفى الآونة الأخيرة اكتسبت القبيلة قدرًا كبيرًا من الشهرة على يد أربع من جميلاتهن، وكن جميعًا يحملن نفس الاسم، وهو الجازي Al Jazi "الجازِي". ومن بين هؤلاء الأربع، كانت الجازي بنت محمد الحزام الحثلين هي الأكثر جمالاً وجاذبية وأقواهن شخصية. واليوم رغم إنها لم تعد على ما كانت عليه من نضارة وحيوية إلا إنها تحتل مكانة خاصة بين قومها، ومازالت هي الأثيرة لدى زوجها الحالي الشيخ راكان

بن ضيدان الحثلين – الذي تعتبره عجمان كبيرها. وقبل أن تقترن بزوجها الحالي سبق لهذه الملكة التي تربعت على عرش الجمال البدوي أن تزوجت من:

- المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود (ابن سعود)،
- المرحوم الأمير محمد آل سعود، (شقيق الملك ابن سعود)،
- الأمير سعود العرافة آل سعود (زوج أخت الملك ابن سعود)،
- الشيخ بندر الدويش (شيخ مطير الشهير)،
- المرحوم الشيخ مُطلق الجبعة al Jaba'a وهو من أبرز شيوخ قبيلة قحطان التي صاهرت الدوشان (الفرع الحاكم من مطير).

وتزوجت الملك ابن سعود ثلاث مرات وفي كل مناسبة زواج يقدم ابن سعود هدية سخية من الإبل، كان الملك يقنع بها زوجها بطلاقها متذرعًا بقوله: "إنني لم أبرأ من حبي لها بعد" وشقيق هذه السيدة هو الشيخ خالد بن محمد الحزام الحثلين.

وأما الجازي الثانية، شقيقة خالد المكراد وابنة عم حمد بن راكان المكراد (شيخ آل محفوظ)، فتزوجت على التوالي من الشيخ خالد (السابق ذكره) وفلاح بن سلطان الحثلين، بينما تزوجت الثالثة ابنة فلاح بن سلطان الحثلين من نايف بن محمد الحثلين المعروف باسم آبا الكلاب، والذي توفي في سجنه عام ١٩٣٤ لاتهامه بالتمرد، ومشعل بن ضيدان الحثلين. وتزوجت الرابعة ابنة فهد الفعران al Fa'aran الحثلين من الشيخ راكان بن ضيدان الحثلين، ولكنها لم تعمر طويلا.

وقد استقيت هذه المعلومات من الشيخ نايف بن حزام الحثلين.

و"وضحة Wadha "بنت حزام الحثلين (انظر الشجرة) هي أم سعود العرافة آل سعود الذي تزوج نورة Nura أخت المرحوم الملك ابن سعود الشهيرة.

وفي عام ١٩٣٢ أخبرني سموّ المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح أن اللغة العربية التي تتحدثها عجمان هي الأكثر نقاءً بين كل ما تتحدث به القبائل في شبه الجزيرة العربية، وأنه يرجح أنهم مازالوا يحتفظون إلى حد بعيد بنفس الخصائص التي تميزت بها اللغة العربية قبل الإسلام، وقال إن العجمان يستخدمون العديد من الكلمات والعبارات التي تختلف كل الاختلاف عما يستخدم في المواطن الأخرى أو من جانب سائر القبائل، وعلى أي قبيلة أخرى في شبه الجزيرة العربية، فالعجمان مغرمون بإطلاق أسماء من نوع خاص على

أطفالهم، أقرب ما تكون إلى الخلاعة والإثارة، تظل ملتصقة بهم طيلة حياتهم. وقد سبق أن التقينا بمثالين: خالد "زب سحمان" ونايف "آبا الكلاب" وهناك أمثلة أخرى مثل منصور "روث الذئب"، وسعود "أبو شرين" Abu Sharrain، وهذا الأخير هو الاسم الذي يُطلق على الحاكم الحالي للعربية السعودية. أما المرأة العجمية التي تقضم أمها قطعة من أذنها وتأكلها عند مولدها (حفاظًا على حياتها) فتسمى الجِدْع Al Jida'.

وصيحة الحِرب لدى العجمان هي: "مفراص الحديد وأنا ابن العجم لولا طعْنَا ما حدن خلانا نسكن الديرة".

عنــــزة

قبيلة عنزة من قبائل الأشراف التي ينتشر أبناؤها في نجد والعراق وسوريا. وهي أقوى القبائل البدوية جميعًا سواء برجالها (حوالي سبعة وثلاثين ألفًا من الذكور)، أو بما تملكه من جمال (حوالي المليون). وتنقسم عنزة إلى بطون عديدة منها ما يلي:

العمارات Amar'at' : وكان أبرز شيوخها هو فهد الهذال Al Hadhal وعندما توفى خلفه ابنه محروت Mahrut الهذال. وآل صباح (الأسرة الحاكمة في الكويت) ينتمون للعمارات (فخد الدهامشة)، وكذلك آل خليفة (حكام البحرين)، والواقع أن الشيخ محروت يدّعي أنه الرئيس الشرفي لهاتين الأسرتين، وقد ألمح إلى ذلك أثناء الزيارة الأخيرة التي قام بها الشيخ عبدالله الصباح إلى بغداد، وعندما حدثني سموه عن هذه الواقعة أضاف معلقا: "وقال ذلك بكل جدية".

ومن العائلات المعروفة من العمارات، والتي تقيم في الكويت، نذكر آل صالح (وكبيرها عبدالملك الصالح)، وآل شملان (وكبيرها محمد الشملان)، وآل غانم، وكانت تُعرف من قبل باسم آل زايد (وكبيرها الحاج أحمد الغانم)، وقد سبق أن أوردنا في الفصل السابق أسماء الأقطاب الآخرين من أسرة آل غانم. وأم الشيخ الحالي للدهامشة، من العمارات فهو ابن مجلاد Ibn Mijlad.

فدعان Fida'an : وشيخها الحالي هو ابن مهير Muhair.

آل رولة: وأبرز شيوخ هذه الجماعة الشهيرة التي تعيش في نواحي

دمشق هو فواز بن نوري آل شعلان. وهناك فخذ لهذه القبيلة هو المصاليخ Masalikh يدين بولائه لسوريا. والملك سعود نفسه من سلالة المصاليخ، أما آل حضال وآل شعلان، الذين يعتبرون أنفسهم رؤوس عنزة بكل فروعها، فيزعمون أنهم أرفع شأنـًا حتى من ابن سعود وابنه، الحاكم الحالي.

السبعة Sba'a : استنادًا إلى ما يذهب إليه كارل راسوان، مؤلف كتاب "خيام شبه الجزيرة العربية السوداء"، فإن فهد المصرب Masrab الشيخ الحالي للسبعة، هو أحد الخلفاء المباشرين للشيخ ميجِول Mijwal المصرب، الذي تزوج السيدة الشهيرة دجبى، الليدى إلن برو سابقًا. ويقول عن فخذ المصاربة، من السبعة، أنهم مازالوا يُعتبرون من أكثر قبائل الصحراء الكبرى بشبه الجزيرة العربية عراقة من ناحية الدم.

ولد على: فخذ هام من عنزة، يعيشون غرب نجد، وأكبر عائلاتهم هي المعروفة بأسم آل سمير Al Sumair .

عقيل (أو عجيل): جماعة من تجار الجمال يتخذون دمشق وبغداد مركزين لنشاطهم، وهم ليسوا قبيلة بدوية بأي حال، والوصف الأكثر دقة لهم هو أنهم جماعة حَضَرية.

العوامر: قبيلة قوية المراس في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية.

العوازم: قبيلة كبيرة هامة في شمال شرق شبه الجزيرة العربية.

بني هاجر: قبيلة في وادي الدواسر، جنوب الرياض عاصمة العربية السعودية، وأبرز شيوخهم شافي Shafi بن شافي.

بنو كعب: هذه القبيلة من الأشراف التي تعيش في عربستان وفارس، لا تعتبر من قبائل شبه الجزيرة العربية الأصيلة، ولكننا نتحدث عنهم هنا لتكتمل صورة المنطقة المحيطة بالكويت ككل. وكان بنو كعب، تحت قيادة أسرتهم الحاكمة، آل نصار، هم الذين هددوا الكويت أيام مريم ووالدها عبدالله الصباح، وأثناء الحديث الذي أشرنا إليه في الفصل الأول، ذكر سمو الشيخ عبدالله السالم أن آل نصار أسرة عربية عريقة المنبت، وأنها ترجع في أصولها إلى نفس أصول سبيع Sebei (سبيع) Sbei في الإحساء ووسط شبه الجزيرة العربية، وأضاف أن قبائل المناطق الساحلية في فارس، سواء شمال بوشهر أو جنوبها، ينحدر العديد منها من أصول عربية بما في ذلك فروع لعجمان، ومطير، وسبيع، ولكن القبائل

التي تعيش الآن في شبه الجزيرة العربية الأصيلة لا يمكن أن تزوج بناتها منهم، لأنهم تزوجوا في وقت من الأوقات من سيدات من أصل فارسي.

بنو خالد: قبيلة كبيرة من الأشراف في الإحساء، لهم شهرتهم في تاريخ شبه الجزيرة العربية، وأسرتهم الحاكمة هي أسرة ابن عريعر.

بنو صخر: قبيلة من الأشراف في الأردن.

بنو تميم: قبيلة في شبه الجزيرة العربية القديمة، ويعيشون اليوم في قطر، الخ. وينتمي حاكم قطر لبنى تميم.

بنو يام Ya'm : قبيلة، وهم أشقاء بالدم لعجمان وآل مرّة، وموطنهم مقاطعة نجران على الحدود الشمالية الشرقية لليمن.

بنو ياس Ya's : قبيلة في عُمان المتهادنة، ويعيشون حول أبوظبى وشرقى قطر على الخليج.

بلي Billi : قبيلة في شمال الحجاز، زعيمها ابن رفادةRifada

الدواسر: قبيلة تعيش في وادي الدواسر إلى الجنوب من الرياض.

حرب: قبيلة في نجد، أسرتها الحاكمة آل فرم.Al Firm

الحساوية: قبيلة من الزراع في الهفوف.

حطيم: قبيلة قوية شمال الحجاز.

آل خليفة

ينحدر حكام البحرين، هم وآل صباح في الكويت، من العمارات من عنزة، ورغم ما كان من علاقات مباشرة بين شيوخ آل خليفة والبريطانيين منذ عام ١٨٠٥م، وتوقيع معاهدة بين الطرفين في عام ١٨٢٠م، إلا أن الشيخ عيسى بن على آل خليفة لم يرتبط معهم باتفاقية ملزمة على غرار تلك التي وقع عليها حاكم عمان، إلا في عام ١٨٦٧م ويدين الشيخ عيسى بتولية الإمارة في ذلك العام للنفوذ البريطاني وما قدم له من مساندة ضد فريق أرفع منزلة من أسرته كان يبذل كل جهد من أجل الاستيلاء على مقاليد الحكم والسيطرة على الجزيرة. واستمر

حكم الشيخ عيسى حتى عام ١٩٢٣م عندما قام الوكيل السياسي الميجر ك. دايلي، بخلعه تنفيذًا لتعليمات حكومة الهند، ليحل محله ابنه حمد. وتولى الشيخ السير حمد بن عيسى آل خليفة الحكم حتى وفاته عام ١٩٤٢م. فخلفه ابنه الحاكم الحالي سمو الشيخ السير سلمان بن حمد آل خليفة، وهو من أكثر حكام البلاد العربية حكمة واحترامًا ومحبة من الجميع، وأحد غلاة المدافعين عن الارتباط ببريطانيا. وتقوم في الوقت الراهن علاقات وثيقة بين البحرين والحكومة البريطانية من خلال معاهدة مبرمة بين الطرفين.

المناصير

قبيلة تعيش في عمان المتهادنة.

آل مـــــرّة

كُتب الكثير وفى أوقات مختلفة عن هذه القبيلة القوية التي لا يُعرف عنها إلا القليل، والتي تعيش في قلب المناطق الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية، ولعل أشهر من كتب عنهم هو برترام توماس في كتابه "بلاد العرب السعيدة"، وبول هاريسون، في كتابه" العرب في بلادهم"، وجون فيليبى في كتابه "الربع الخالى"، والتي ترد فيها بعض الإشارات لمواطن هذه القبيلة التي تكتنفها الأسرار، ولقوتهم الشعبية وقصصهم الخرافية والقدرة المذهلة لأبنائها على اقتفاء الأثر. وبالرغم من ذلك، فلست أستطرد بعيدًا عن الموضوع إذا أضفت المزيد من المعلومات عن هذه القبيلة حيث أسعدني الحظ بالتعرف على بعض الحقائق التي حصلت عليها مباشرة من رجال ونساء من آل مرة كنت ألتقي بهم من وقتٍ لآخر. وسوف يأتي ذكر عدد من هذه القصص والأحداث في فصول لاحقة، ولذلك سأقتصر هنا على بعض التفاصيل لنمط الحياة والديرة (أرض القبيلة)، وتاريخ هذه القبيلة الكبيرة.

بنو مرة قبيلة من جفاة القوم، شديدي الاعتزاز بأنفسهم، ويعرف عنهم

الوفاء من أكل معهم "العيش والملح"، والحفاظ على العهد لكل من عاهدهم، ومن هنا كان ولاؤهم لصاحب الجلالة عبدالعزيز آل سعود وابنه الواعد. وهم يقولون أنهم يملكون عشرة آلاف خيمة، ورغم ما قد يكون في ذلك من مبالغة، إلا أنه من المؤكد أنهم أكثر عددًا مما يتصور أغلب الناس. وهم أبناء عمومة قبيلة عجمان القوية التي تعيش بعيدًا في الشمال. وهناك رواية تقول أن الجد الأعلى لآل مرة، على بن مرة، كان شقيقًا من أشقاء يام Yam الجد الأعلى لعجمان. أما مرّة فهو اسم والدتهم، وكانت امرأة شهيرة من قحطان.

وآل مرة يسكنون المناطق الشمالية والوسطى والشرقية من الربع الخالي ويسمونها ديارهم ويعتبرون واحة جبرين من ممتلكاتهم الخاصة وأرضًا ينزلون بها في فصل الصيف رغم تفضيل كبارهم الانتقال إلى الهفوف في السنوات الأخيرة، وهي على بعد مائة وثمانين ميلا إلى الشمال الشرقي من جبرين، حيث يضربون خيامهم في رجيجة Ragaija وهي منطقة محجوزة للبدو خارج المدينة نتيجة لانتشار بعوض الملاريا بواحة جبرين، ولأن نزولهم بها يجعلهم على مقربة من مصادر الطعام ويساعدهم على الاتصال بالمسئولين التابعين للملك سعود وممثليه.

ومنذ بضع سنوات، أخبرني رجال من قبيلة مرة عن واحة نائية، أكثر جمالاً من جبرين يولعون بزيارتها لقضاء بعض الوقت مع أصدقائهم من العوامر، والمناصير وبنى ياس، وقالوا إن بها عددًا من ينابيع المياه الغزيرة، والعديد من مدرجات النخيل، وأنها تقع على مسيرة خمسة عشر يومًا على متن الجمال في الجنوب الغربي من بريمي، وعلى نفس البعد جنوب وغرب أبوظبى على الساحل المتهادن، وأنها تسمى ليوة Ljwa. ولم أتمكن من التوصل إلى أية إشارة أخرى لهذا الموقع البهيج إلى أن أدركت أن المقصود بها هو ليوه Liwa وهي واحة، أو بالأحرى سلسلة من الواحات في الأراضي الداخلية لأبوظبي، سبق أن قام بزيارتها عدد من العاملين في شركة أرامكو أثناء بعثاتهم الاستكشافية والعلمية في السنوات التي سبقت الحرب الثانية، وكان دليلهم الأول هو العجماني الشهير خميس بن رمثان Rimthan وكان من أصدقائنا، وزوجته هي شقيقة محمد ابن طاحوس Tahus رئيس حرس شركة نفط الكويت في منطقة برقان.

وفى عام ١٩٤٣ تشرفت ومعي زوجتي، بمقابلة شخصية بارزة من آل

مرة، هو محمد بن سالم بن دراهم المري من فخذ آل عذبه Adhiba من بطن نقادان Nigadan وكان قد حضر إلى الكويت مكلفًا من وزير مالية الملك ابن سعود بالبحث عن قصاص أثر مرى على مستوى جيد من الكفاءة ليلعب دور شرلوك هولمز (المخبر السري) في الكويت. ورفض محمد بن سالم أن يقبل هذه الوظيفة لتواضع المرتب المقترح، ولكنه مكث في المدينة عدة أيام، وتناول العشاء معنا، ثم زارنا عدة مرات بعد ذلك. وقد سمعنا منه بعض القصص المثيرة، بعضها حقيقي وبعضها خرافي. وكان من بين ما ذكره:

١) أن صيحة الحرب لدى آل مرة هي "أولاد الشبيبي".

٢) أنه نظرًا لانتمائهم لنفس المنشأ الذي تنمتي إليه عجمان، فهم يخرجون دائمًا لنجدة عجمان إذا تعرضت لأي خطر، وما عليها عندئذٍ إلا أن تطلق جملاً من بين قطعانها، وقد التفت سفيفة Safifa حمراء حول رقبته، فهنا يهب آل مرة عن بكرة أبيهم لنجدتهم. وهذا التعاون الذي تفرضه الضرورة، كما قال ابن سالم، لا يمنع أن يكون لآل مرة خلافاتهم ونزاعاتهم مع عجمان.

٣) ووصف بالتفصيل أصوات الرمال الفريدة في جوف الصحراء عند هبوب الرياح، فقد قدم تفسيرًا معقولاً لهذه الظاهرة: فتحت تأثير الرياح تتساقط شلالات من الرمال من قمم الكثبان متجهة أسفل سفوحها أو نحو الجوانب شديدة الانحدار. وعندما تبلغ شدة الرياح درجة معينة، تصدر عنها أصوات كقرع الطبول أو كهدير طائرة تحلق على البعد. ويعتقد أبناء قبيلة آل مرة، من عامة القوم، أن هذه الأصوات يطلقها الجن الذين يسكنون الربع الخالي، ويصيبون الناس بالجنون في بعض الأحيان. وفسّر محمد الأمر فقال إن هؤلاء الجن لهم عيون تتجه أطرافها إلى أعلى وإلى أسفل، وليست أفقية كما هي الحال في البشر الذين يحق عليهم الموت، وأضاف أن الجد الأكبر للقبيلة كان من الجن بالفعل، وكانت له عينان على هذه الشاكلة.

٤) وأن آل مرة يروضون أنفسهم على مواجهة الحياة بدون ماء، ويقول إنه هو نفسه، ورغم وجوده في الكويت وعلى بعد ثمانمائة ميل من موطنه، لم تمس شفتاه الماء، أو إن شئنا الدقة لم تمسه إلا عند احتساء القهوة،

وطوال اثني عشر شهرًا. ولبن الناقة هو الشراب الشائع لدى آل مرة.

٥) إن أسلوبهم في القتال لا يتغير، فهم يستدرجون أعداءهم إلى مناطق نائية من الربع الخالي، ثم ينقضون عليهم ويسحقونهم.

٦) أن أسمَى آيات الكرم التي يمكن أن يبديها المري نحو ضيفه هي أن ينحر جملاً صغيرًا ويسلقه في لبن أمه.

٧) وأن ليس جميع آل مرة ممن يجيدون اقتفاء الأثر، وأبناء نقدان Nigadan هم المعترف بهم كأفضل من يمارس هذا العمل.

٨) وأن المري عندما يصادق، فهو يظل على صداقته أبد الدهر.

وأما عن أصل آل مرة فروى لي القصة التالية: منذ عدة مئات من السنين، وقبل أيام إبراهيم وعندما لم يكن هناك دين ولم يكن الناس يصومون أو يؤدون الصلاة على النحو الذي ينبغي أن يفعله المسلمون، كان هناك محارب مشهور يدعى على بن مرة، يعيش في جنوب شبه الجزيرة العربية، وهو شقيق يام، الجد الأكبر لقبيلة عجمان (وإن كان البعض يقولون أن عجمان من سلالة مرزوق بن على بن مرة).

وذات يوم من أيام الربيع، كان الحزن يسيطر على عليّ بن مرة بعد أن تفشى مرض الجرب اللعين في قطيعه المكون من أربعين جملاً، لم يبق منها على قيد الحياة إلا أربعة، وعندما لم يعد في وسعه أن يتحمل رؤية هذه الجمال الأربعة أيضًا وهي تعانى سكرات الموت، خرج إلى الربع الخالي والأسى يعتصره، واستبد به اليأس. وهناك، في بقعة منعزلة التقى بفتاة جميلة كانت تقاتل دفاعًا عن حياتها وتصارع ذئبًا ضخمًا، وهرع لنجدتها، وتمكن من قتل الوحش. وعرفانـًا من الفتاة بما أسداه لها من جميل قالت له إنها على استعداد لتلبية أي طلب من جانبه، فأجاب أن كل ما يصبو إليه هو أن تقبله زوجًا.

وأجابت الفتاة: "لا يمكن تحقيق ذلك إلا أن أحصل على موافقة أبي وأخوتي، الذين يعيشون بين قومي، جن الأرض".

وهنا أدرك على بن مرة أن هذه الشابة الغريبة ليست من البشر، وإنما هي جنية.

ولما رأت الجنية ما هو عليه من هم وانكسار سألته عما دهاه، فروى لها

قصته وقال إنه ترك آخر أربعة جمال كانت في حوزته وراء تل بعيد لأنه لم يحتمل أن يراها وهي تصارع الموت.

وقالت الفتاة الجنية: "هيا معي سوف أصطحبك إلى والدي، وسوف يعرف كيف ينقذ جمالك من المرض، ويمكنك في نفس الوقت أن تطلب يدي للزواج."

ثم طلبت من علي بن مرة أن يغمض عينيه، ووضعت كفها عليهما في إحكام، وصدرت عنها إشارة فإذا بأخدود عظيم ينفتح بجانبهما، ومن خلال هذا الأخدود، اصطحبته إلى العالم السفلي ليلتقي بقومها.

وعندما رفعت كفها عن عينيه، انبهر علي بن مرة لما تراءى أمام ناظريه من بساتين تزخر بالماء الدافق والحشائش الغضة اليانعة في كل مكان. وأما الفتاة التي كانت لها في العالم العلوي عينان من النوع المعتاد، فقد أصبحت لها، على حين غرة عينان رأسيتان، ولكنها ظلت على ما كانت عليه من جمال.

واقتادته إلى والدها، وأخبرته بالقصة كلها وكيف أنقذها علي من الذئب، كما حدثته عن الجمال التي نفقت جميعًا إلا أربعة، وأخبرته أيضًا أن منقذها يريد الآن أن يتزوجها، وأنها على استعداد لأن تقبل طلبه، بشرط موافقة والدها. ووافق الوالد عن طيب خاطر، وكذلك فعل اخوتها، وكل جن القبيلة، الذين شعروا جميعًا بالامتنان لعلي الذي أنقذ حياة أميرتهم. وحقًا كانت الفتاة أميرتهم، وابنة كبير جميع الجن الذين يعيشون في تلك الفيافي. وكان لهم شرط واحد طلبوا من علي بن مرة أن يلتزم به، وهو ألا يقول بعد ذلك أبدًا "بسم الله" وإنما يقول دائمًا "باسم الجن"، وأنه إذا حدث في وقت من الأوقات أن تضرع لمعبود أيًا كان نوعه، إذا فوجئ بأمر من الأمور أو عندما يشرع في تناول طعامه أو في أي موقف من المواقف، فعليه ألاً يقول "بسم الله" وإنما "بسم الجن". وحذروه بطامة كبرى تحل به إذا لم يصدع لهذا الأمر.

وكان علي بن مرة قد أحب الفتاة من أعماق نفسه، فوافق على ذلك. واحتفل بالزفاف بعد قليل، وكان الاحتفال رائعًا وبهيجًا. وزد على ذلك أن والد الفتاة وقومها تنازلوا عن كل ما يلتزم به الزوج في مثل هذه الأحوال من نفقات عرفانًا بالجميل الذي طوق به علي أعناقهم.

وعاش علي بين الجن سبعة أيام بعد الزفاف، فوجد أنهم يعيشون مثلما

يعيش البشر في العالم العلوي، وأن لديهم جمالهم وأغنامهم، ويعيشون في خيام سوداء وكان الفارق الوحيد الذي تبدى له هو أن أعينهم كانت تتخذ الوضع الرأسي من أعلى لأسفل، وليس الوضع الأفقي، كما كان طعامهم ماسخًا، أي مطهيًا بدون ملح.

وانقضت الأيام السبعة، فسُمح لعلى أن يعود ومعه زوجته إلى العالم العلوي، وبعد أن تناولت الزوجة تحيات الوداع مع أهلها، أحكمت وضع كفها حول عينيه واقتادته إلى أعلى على نفس النحو الذي اقتادته به إلى أسفل. وكانت فرحة علي وسعادته بلا حدود عندما رأى أربعين جملاً في كامل صحتها تلتف حول فتحة الأخدود، ومن بينها جماله الستة وثلاثين التي سبق أن داهمها المرض ونفقت. وأخبرته زوجته الشابة الجميلة، في حياء وخفر، إن هذه هي هدية الزواج يقدمها إليه والدها. وعندما التفت نحوها ليعبر لها عن فيض مشاعره، رأى عينيها وقد عادتا إلى وضعها الأفقي كما كانت عند لقائهما أول مرة، مثل أي امرأة أخرى، ولكن أكثر جمالاً من أي حسناء أخرى في العالم كله.

وما أن استرد صوابه، حتى أخذ زوجته والجمال وولى وجهه شطر نجران، حيث تعيش أمه المرية، وهي امرأة من قبيلة قحطان العربية، ومكث هناك يرفل في سعادة غامرة مع زوجته الحبيبة، وبعد حين أنجبت له أنثى جميلة.

وتعاقبت الأيام إلى أن بلغت ابنته السابعة من عمرها، والرخاء والأمان والبهجة تحيط به من كل جانب وذات يوم كان عليه أن يخرج في رحلة طويلة شاقة بحثًا عن بعض الجمال الشاردة، ومكث في رحلته عدة أيام، ثم عاد إلى خيمته وقد أخذ منه الإرهاق كل مأخذ وتصادف أن زوجته لم تشعر بمقدمه عندما دلف إلى الخيمة، وكانت تجلس وظهرها في اتجاه دخوله، وعندما ارتاح على الستار المسدل على جناحها في الخيمة ووقف يتأملها كانت كل جدائلها تتماوج في حجرها، وهي تنظف شعرها وتمشطه.

ولم يكن علي يعرف أن ما رآه إنما هو من الأمور المعتادة بين الجنيات، وباغته منظر رأسها العارية فلم يسعه إلا أن يصيح وقد استبد به الرعب واعترته الدهشة "باسم الله" وعلى الفور، دوت السماء بهزيم الرعد والتمعت بضياء مبهر شديد، وانشقت الأرض لتبتلع زوجته الحبيبة وخيمته، وكل ما يملك وسط

سحابة من الدخان والغبار، نزلت الزوجة إلى العالم السفلي من جديد، ولم يفلت على من نفس المصير إلا عندما قفز قفزة سريعة وهائلة إلى الوراء، ثم اندفع نحو ابنته واحتضنها بين ذراعيه بكل قوته حتى لا تختفي هي الأخرى.

وشبت الفتاة الصغيرة عن الطوق وتزوجت شابًا من عشيرة على الأقربين، وكانت هي الجدة الكبرى لقبيلة آل مرة، التي يزيد عدد رجالها اليوم عن العشرين ألفا.

هذه هي القصة التي رواها لي محمد بن سالم بن دراهم المري.

وعندما تسأل رجلاً من آل مرة عن اسمه، فغالبًا ما يقرنه باسم أمه بدلاً من اسم أبيه، فيجيب على سبيل المثال: "أنا على ابن نورة"، ولا يقول كسائر العرب "أنا على بن مرزوق"، ويرى عديد من الأشخاص الذين ناقشت معهم هذه الظاهرة أن السبب في ذلك يرجع إلى الرغبة في "اتقاء شر الحسد"، لأن تعريف أي شخص غريب أو غير معروف لهم، باسم الأب يمكن أن يؤدى إلى عديد من الأخطار، لا تفتر فيها المنازعات ولا يتوقف سفك الدماء. وفى رأيي أن السبب الأقرب إلى الصحة هو أن آل مرة يتصرفون على هذا النحو تخليدًا لذكرى تلك الجنية جدتهم الكبرى.

وآل مرة، كما ذكرت، يشتهرون بمهارتهم الشديدة في اقتفاء الأثر، وكثيرة هي القصص التي تُروى عن هذه الموهبة الغامضة الخارقة التي تميزوا بها. وهم يفخرون بذلك كل الفخر، ولا يملون الحديث حول هذا الأمر، ويتيهون زهوًا بما ينجحون في تحقيقه، ولقد بلغوا درجة من البراعة تسمح لهم بالتعرف على ابن الرجل أو ابن الحمل. رغم عدم رؤيتهم فيما سبق لهذا أو ذاك بمجرد رؤية آثار أقدام الأب. وهم يقولون أن هذه حقيقة يعرفها الجميع، وفى غاية البساطة، ويزعمون أنهم ورثوها عن الجنية، أو عن تلك الأرواح التي تسكن الغياهب المظلمة تحت الأرض.

وفيما يلي بطون آل مرة:

- **آل بحيح** Bahaih: وشيخهم الصعاق Sa'ag, وينقسمون إلى فرعين: آل سمرة Simra، وآل صنيت Sinait .
- **آل فهيدة** Fahaida : وشيخهم ابن شريم Sharaim, وينقسمون إلى فرعين : آل بريد، وآل داويه.
- **آل جابر**: وشيخهم هو آل جابر المرضف al Maradhaf ويُعرفون أيضًا باسم

راعي يبرين Ra'i Jabrin إشارة إلى ملكيتهم لواحة يبرين.

- **آل مهنا:** وشيخهم طالب المهنا.
- **آل نقادان** Nigada'n: وهذه هي المجموعة القبلية التي يأتي منها أغلب قصاصي الأثر المشاهير من آل مرة. وأبرز شيوخهم هو فيصل بن نقادان من آل عذبه Adhiba' التي ينتمي إليها أيضًا صديقنا، محمد بن سالم بن دراهم المري، الذي أمدني بالكثير من التفصيلات المتعلقة بآل مرة، بما في ذلك أسماء الشيوخ الواردة في هذه الفقرات، وينقسم آل نقادان إلى ثلاثة فروع هي: الغفران Ghafaran والغياثين Ghiyathin والجرابعة Jarabaah.

وفي عام ١٩٤٣ أسعدني الحظ أنا وزوجتي بلقاء الشيخ محمد بن صالح أبو ليلة، شيخ آل غفران الشهير، الذي جاء مع أخته نورة لشراء بعض احتياجاته من الكويت، وقد قمنا بزيارتهما بين خيام العجمان على تل الشامية الرئيسي خارج الكويت، والذي يخصص دائمًا كمربض صيفي للبدو. ونظرًا لضآلة وخفة وزن ما كان يحمله الشيخ محمد وأخته معهما في رحلتهما، لم تعد لهما أي خيام وإنما مجرد مساحة مكشوفة من الأرض وضعا فيها مشترياتهما، تحيط بهما ماشيتهم في مأوى أشبه بالزريبة Zariba. وفي اليوم التالي زارنا في منزلنا الشيخ محمد وأخته التي أبدت روحًا ودية حميمة نحونا، وقالت إنه لم يسبق لها أن رأت امرأة أو رجلا من الإنجليز، ولكن بدا عليها شئ من القلق لوجودها داخل منزل مشيد على غرار منزلنا خشية أن يتهاوى السقف فيسحقها، وأضافت أنه لم يسبق لها أيضًا أن شهدت مدينة إلا مرة واحدة، وكانت مدينة الهفوف، ولكنها لم تدخلها. وكان الحديث معها يشيع البهجة في نفوسنا، وقالت، وهي الفتاة ذات الأربعة عشر ربيعًا، التي لا تفارق البسمة شفتيها، وتتسم بالبساطة المفرطة، وتتحرق شوقًا إلى المعرفة، أنها تود لو ظلت معنا على الدوام، والواقع أنها كانت أقل توترًا مما لمسناه في العديد من فتيات مطير وعجمان.

وكان أخوها أيضًا شخصية مثيرة للانتباه إلى أبعد الحدود. وكان مثل نورة يتحدث لغة عربية جميلة، ومن الأسهل كثيرًا أن تفهم ما يقول بالمقارنة بالعجمان، وغيرهم من القبائل التي تعيش إلى الشمال منهم، وعندما تطرق الحديث إلى شجرة الأسرة ومنشئها، ذكر لنا ودون لحظة تردد، أسماء اثنين وعشرين من أسلافه في تسلسلهم الدقيق، حتى وصل إلى القرن الثاني عشر

تقريبًا، ثم تحفظ فأضاف أنه نسي بعض الأسماء، وأقر الشيخ محمد بأن الجد الأكبر للأسرة هو على بن مرة، الملقب بعلي الكافر، ولكنه أعرب عن اعتقاده بأن العجمان لا ينحدرون من يام، شقيق علي، وإنما من مرزوق بن علي.

مطيـــر

تعتبر مطير بتاريخها العريق الحافل والممتد، من أبرز القبائل العربية، وتنقسم هذه القبيلة إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي: آل دوشان Dushan وهي الأسرة الحاكمة، وآل علوى Al 'Ilwa وآل برية Buraih. ويعيش أغلبهم في الأراضي الممتدة من الكويت في الشمال إلى الدهناء والحزام الرملي في الجنوب، ويلازمون الجانب الشرقي للباطن ويتجنبون مواطن عجمان والعوازم. والأراضي المتاحة للكويت هي المرعى الدائم لهم، وهم يربون أعدادًا كبيرة من الجمال والخيل، ويتميزون عند الحرب والنزال، بالقدرة على شن الهجمات المفاجئة من قواعد نائية.

والدوشان لا ينقسمون إلى أفخاذ، وإنما إلى فروع تدخل كلها في إطار أسرة آل دويش، وهي:

- **آل عماش:** وشيخهم محمد بن عماش الدويش.
- **السلطان:** وشيخهم بندر بن فيصل بن سلطان الدويش.
- **المحمد:** وشيخهم محمد بن بدر الدويش.
- **الماجد:** وشيخهم عبدالعزيز بن عبدالله الماجد الدويش.
- **الشقير:** وشيخهم تريحيب Tarahib بن بندر الشقير الدويش.
- **الفهادة:** وشيخهم ماجد الأصقه الدويش
- **الوطبان:** وشيخهم محمد بن بندر الوطبان الدويش.

وتوضح الشجرة المنشورة في آخر هذا الفصل تفاصيل هذه الفروع السبعة.

وأبرز شيوخ آل دوشان، بل ومطير كلها أيضا، في الوقت الراهن، هو بندر

ابن فيصل بن سلطان الدويش بن فيصل الدويش. وكلاهما ينتميان لسلطان؛ وقد تزاوجت أسرة الجبعة AL-Jabaa مع آل دوشان.

وأما فيما يتعلق بالفروع الأخرى، فسوف تفيدنا القوائم المنشورة في آخر الفصل في تتبع الوقائع التي لابد من تسجيلها بعد حذف كل الأسماء التي لا علاقة لها بدراستنا.

أما المجموعة الثانية من مطير، العلوى، فتنقسم إلى ثلاثة فروع رئيسيه هي:

- الموهة AL Muwahah : وأبرز شيوخها بندر الدويش، ومن أهم تفريعاتها الرخمان AL Rakhman (الشيخ ابن زريبان).
- الصهبة: وأبرز شيوخهم جفران الفقم Jafran al faqm ويدخل ضمن هذا الفرع ذوي عون Dhawiavn الذين أعتقد أنهم ينتمون لنفس الأصول التي ينتمي إليها بنو عبدالله، وشيخ ذوي عون هو ابن جبرين، رغم أن البعض ينازعونه هذه المكانة.
- الجبلان: وأبرز شيوخها صاهود بن لامي Sahad ibn Lami، ومن تفريعاتهم اليحيا Lihaya. وكان فيصل الشبلان، وهو أحد قادة قبيلة مطير في التمرد الذي قام به الإخوان ضد ابن سعود في ١٩٢٩–١٩٣٠، شيخاً اليحيا؛ وعندما توفي أصبح ابن أخيه، مسير Misyar شيخاً لهم.

وينقسم آل بريه AL Buraih أيضا إلى ثلاثة فروع:

أولاد واصل، وشيخهم ابن عشوان، وأولاد علي، وبنو عبدالله. وينزل أولاد واصل بنفس النواحي التي تنتشر بها أغلب أبناء مطير، ولكن أولاد على لايبرحون المناطق الواقعة جنوب وغرب الدهناء وحزام الرمال، ويتركز أغلبهم في القصيم وفى اتجاه الحجاز، بينما يتركز بنو عبدالله في أراضي نجد الداخلية.

ويدخل في إطار أولاد واصل كل من الدياحين Diyahin، وأبرز شيوخهم عياد المترجي؛ وآل برزان، وأبرز شيوخهم ابن شويربات. وقد تسببت هذه الأسرة في الكثير من الاضطرابات والقلاقل في وقت من الأوقات. وتعتقد جميع قبائل شمال شرق الجزيرة العربية أن الدواء الناجح لداء الكلب هو جرعة مقدارها قدح من القهوة من دم برزانِي؛ ولذلك كان كل من يعقره كلب مسعور أو ذئب أو ما

شابه ذلك يسعى للحصول على هذا الدواء وهو على استعداد لأن يدفع بسخاء للبرزاني الذي يلبي طلبه. ويدخل في إطار أولاد واصل أيضا الصعران AL Suran الشيخ ابن بصيص Busaiyyis والوساما Masmah (الشيخ سلطان بن مهيليب Mahailib). وينتمي ميمون AL Maimun إلى بنى عبدالله.

وهناك قبيلتين من غير الأشراف تنتميان إلى مطير وهما الرشايدة (الشيخ عاصي بن مسيلم (Asi ibn musailim) ويدينون بولائهم للكويت، وأعمامهم الحرشان Hirshan.

أهل نجران: هذه هي التسمية التي تطلق على سكان مقاطعة نجران، جنوبي غرب شبه الجزيرة العربية؛ وكانوا في يوم من الأيام من أتباع إمام اليمن، أما الآن فيخضعون للملك سعود، ملك العربية السعودية.

قحطان: قبيلة ينحدر منها - مرورا بآل شمر - البيت المالك آل رشيد، حكام حائل وجبل شمر. كما نشأت من قحطان أسرة آل جبعة AL Jabaa. وقد اقاموا لفترة جنبًا إلى جنب مع الدوشان (مطير). وشيخهم في الوقت الراهن هو محمد بن مطلق آل جبعة

القواسم: قبيلة على الساحل المتهادن.

الرشايدة Al-Rashida: وينقسم الرشايدة إلى خمسة عشر فرعًا.

الرشيد Al-Rashid: تنحد أسرة الرشيد، وهم حكام حائل وجبل شمرّ وأمرائها السابقين من الجعفر AL Jaafar من آل عبْدَه AL Abda بشمرّ. وقبل ظهور أول أمرائهم عبدالله بن رشيد، كانت أسرة ابن على، وهي أيضا من الجعفر، هي التي تقبض على زمام السلطة وتحكم حائل باعتبارهم من رعايا آل سعود الذين كانوا هم القوة السائدة في قلب شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت، ويقضى محمد الرشيد، أميرهم الثاني عشر أيامه الآن سجينـًا مُكرمًا في بلاط الملك سعود.

الرشيد: قبيلة صغيرة من سكان جنوب شبه الجزيرة العربية؛ وينبغي عدم الخلط بينهم وبين القبيلة السابقة التي تحمل نفس الاسم.

الصباح: سبق أن قدمنا في الفصل الأول كل ما يتعلق بأصول ونسب هذه الأسرة الحاكمة للكويت. وقد أوردنا في آخر الكتاب شجرة للأسرة ليسترشد بها القارئ، بعد حذف كل الأسماء التي لا علاقة لها بدراستنا.

سهول Sahul: قبيلة ترتبط بسبيع Sebei موطنها الإحساء وقلب شبه الجزيرة العربية.

سيار Saiar: قبيلة تقيم بالأراضى الداخلية لحضرموت، جنوب شبه الجزيرة العربية.

آل سعود: ينتمي حكام العربية السعودية، الذين كانوا أمراء للدرعية – العاصمة القديمة لنجد في القرن الخامس عشر، إلى قبيلة المصاليخ Masalikh من عنزة، وهي نفسها من سلالة ولد على في غرب نجد، ويمتد نسبهم إلى إسماعيل عَبْر عدنان. ووفقا لروايتهم همَ أنفسهم، فآل سعود هم من سلالة بنى بكر بن وائل، عبر مهنّا بن ربيعة ملك نجد، والأحساء، وعمان، الخ، في القرن الخامس عشر. وقد أوردنا شجرة للأسرة في آخر الكتاب ليسترشد بها القارئ بعد حذف كل الأسماء التي لا علاقة لها بدراستنا. وعندما توفي الملك عبدالعزيز آل سعود في ٩ نوفمبر ١٩٥٣، خلفه ابنه الأكبر سعود، بينما نُصِبّ الابن الثاني فيصل، وليًا للعهد وتولى رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الدفاع.

سبيع Sebei: قبيلة في الإحساء ووسط شبه الجزيرة العربية.

شمر: قبيلة في القطاع الشمالى من وسط شبه الجزيرة العربية، حول حائل وجبل شمر، وهم يدينون بالولاء في الوقت الراهن لملك العربية السعودية. وتنقسم شمر إلى ثلاثة فروع: عبده Abdah ، وأسلم Aslam، وسنجارة Sinjara. وينحدر البيت المالك لآل رشيد، عبر آل عبده، من قحطان. والواقع أن هذه الفروع الثلاثة تزعم الانتساب إلى قحطان، ولكن الشيخ ضيدان بن عقلة Ugla وهو من كبار شيوخ ال زعب، أخبرني ذات مرّة أن عبده وحدهم هم الذين يمكنهم أن يدعّوا ذلك (انظر الرشيد).

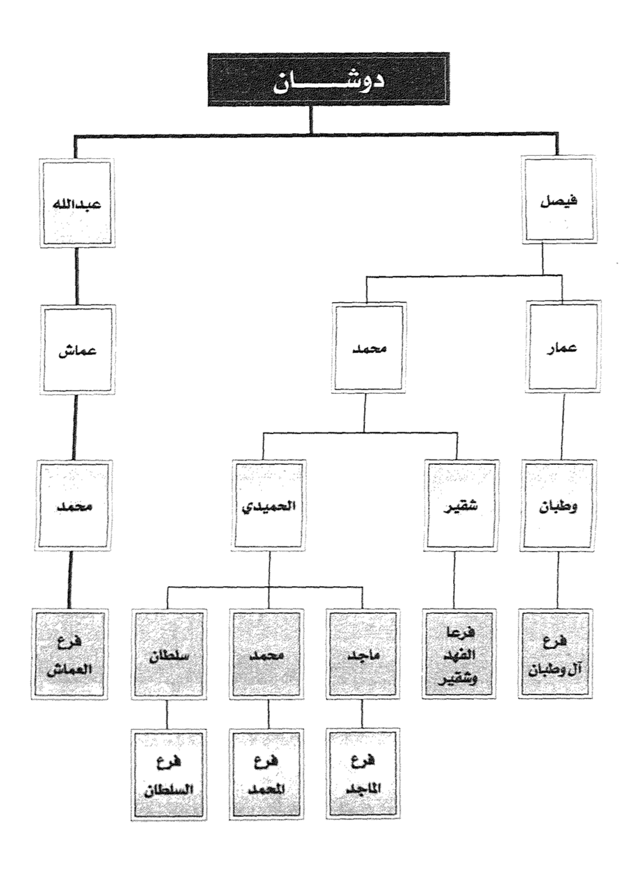
السديري: أسرة هامة في نجد، وتوضح شجرة الأسرة الواردة بآخر هذا الفصل مدى نفوذها وأهميتها في إدارة الحكومة السعودية.

صلبة Sulabba: عُرف عنهم أنهم أفضل المرشدين في الصحراء، وأبرع من يمارس الصيد.

عتيبة: قبيلة كبيرة في القطاع الغربي من شبه الجزيرة العربية. ولها فرعان أساسيان: آل حميد Humaid وآل روقة - Rauga وكانت قبيلة عمار Ammar — في وقت من الأوقات – من البطون القوية لعتيبة.

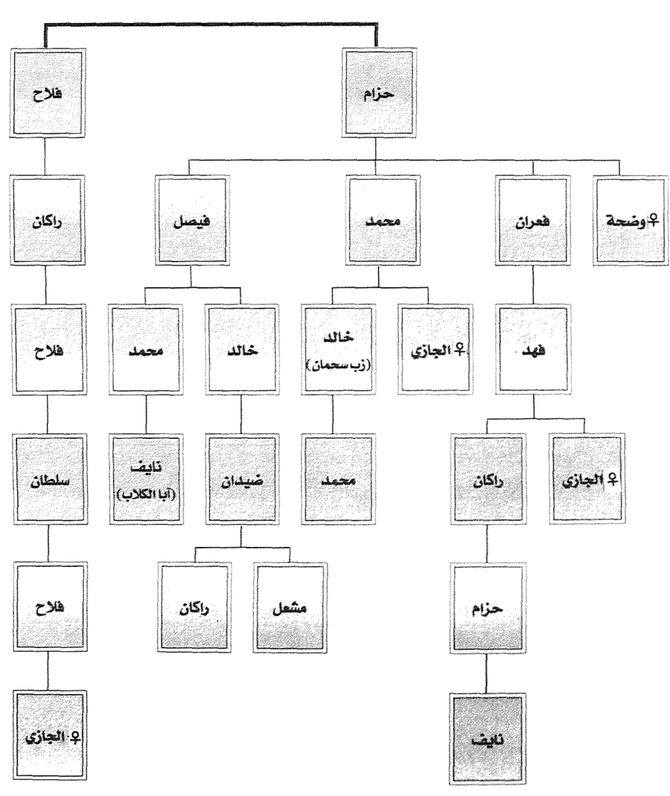
آل زعب Zaab (وعدوان Adwan) آل زعب قبيلة صغيرة غير محددة الموطن، بينما عدوان قبيلة صغيرة أخرى، شقيقة لها.

أســرة آل دويــش

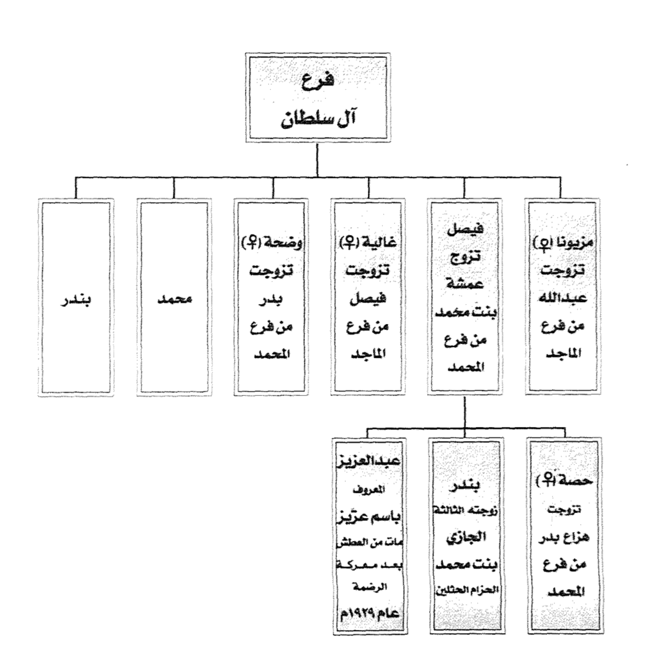


مانـــع الحثلـين

(♀ = أنثى)   من أسرة آل معيض Al-Ma'idh وفروع الناجعه Naji'ah

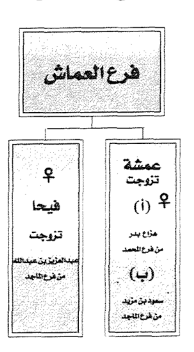


فرع آل سلطان

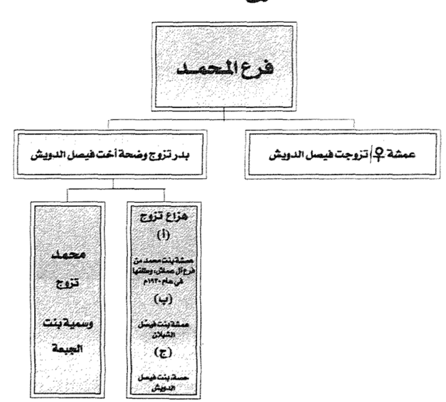


فرع
آل سلطان
مزيونا (♀)
تزوجت
عبدالله
من فرع
الماجد
فيصل
تزوج
عمشة
بنت محمد
من فرع
المحمد
غالية (♀)
تزوجت
فيصل
من فرع
الماجد
وضحة (♀)
تزوجت
بدر
من فرع
المحمد
محمد
بندر
حصة (♀)
تزوجت
هزاع بدر
من فرع
المحمد
بندر
زوجته الثالثة
الجازي
بنت محمد
الحزام الحثلين
عبدالعزيز
المعروف
باسم عزّيز
مات من العطش
بعد معركة
الرضمة
عام ١٩٢٩م

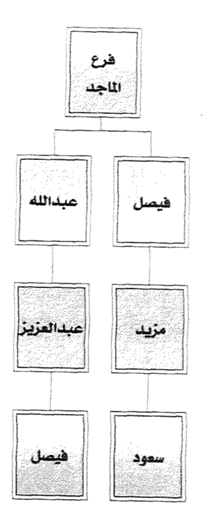
فرع العماش



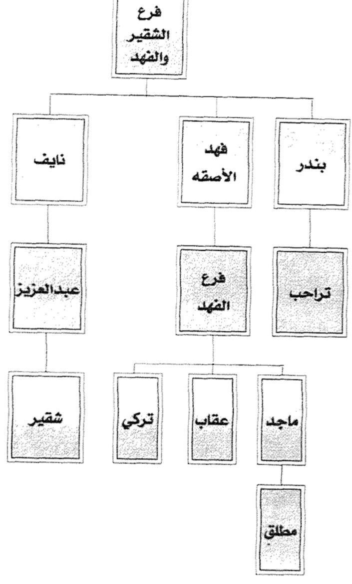
فرع المحمد



فرع الماجد

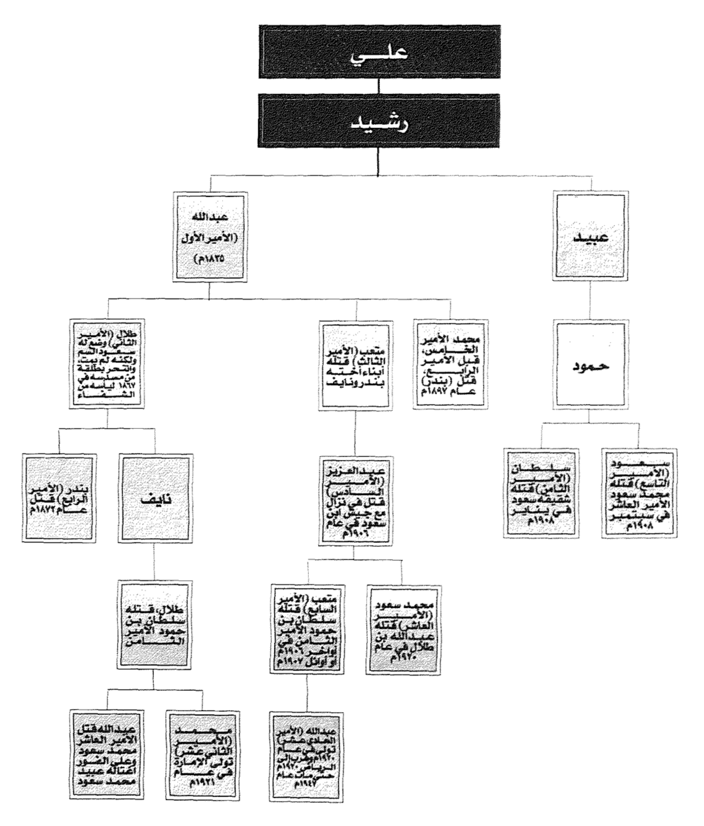


فرع الشقير والفهد



أسرة آل رشيد

الحكام السابقين لحايل وجبل شمر



الجزء الثاني
وهو جزء تاريخي أساسًا

لا يقدم القومُ إلاّ خيارها

الفصل الرابع

نشأة الدعوة الوهابية وأفول نجمها ١٧٤٢-١٨٩٣م

مولد محمد بن عبدالوهاب - محمد بن سعود يصبح أول أمير وهابى لنجد - محمد على باشا يغزو الإحساء - بدء العلاقات البريطانية مع الكويت - الإجراءات التركية ضد نجد - نجد ولاية تابعة لمصر - فيصل الكبير - الاحتلال التركي الثالث - آل رشيد يسيطرون على شبه الجزيرة العربية.

في أواخر القرن السابع عشر، كانت نجد، وشبه الجزيرة العربية عمومًا باستثناء عمان واليمن والحجاز، مقسمة إلى عدد من المناطق والمدن المستقلة يحكم كلاً منها، وفقاً لمبادئ الحكم الذاتي، شيخ قبيلة، تحت حماية البدو. فكان الدين، وهو آنذاك في أكثر أشكاله بدائية، يكاد يكون منسيًا بين سكان تلك النواحي، ولم يكن له وجود من الناحية العملية بين القبائل. والواقع، ووفقاً لما انتهى إليه وليم جيفورد بلغريف، كانت الطقوس الغريبة والخرافات، المرتبطة أوثق الارتباط بالصابئة وعبادة الشمس والقمر والنجوم، والتي كانت لها السيادة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، تجد الأرض خصبة ممهدة أمامها، بينما تحول الختان والمراسم المقدسة للزواج إلى أشياء لا يلتزم بها أحد.

وفى عام ١٦٩١، وُلد في عيينه Ayaina وهي بلدة صغيرة جنوب العارض Aridh إحدى مقاطعات نجد، محمد بن عبدالوهاب. كان أبوه من قبيلة بنى

تميم، والتي تدين لها السيطرة في جميع أنحاء جبل شمّر في ذلك الوقت، تحت زعامة بيت ابن علي. وعندما بلغ محمد طورَ الرجولة، وبدأ ممارسة التجارة، على نفس النحو الذي مازال العديد من أهل نجد يمارسونها حتى اليوم. وقادته أولى رحلاته التجارية إلى البصرة وبغداد، وانتهت به في خاتمة المطاف إلى دمشق حيث التقى بعدد من شيوخها المتعلمين والمتعصبين دينيًا. وكانوا جميعًا من أتباع المذهب السنّي، بينما البعض منهم، مثل ما كان هو نفسه، من أتباع المذهب الحنفي، والبعض الآخر من أتباع المذهب الشافعي، ولكنهم كانوا جميعا يعارضون أصحاب الفكر المتحرر في الشمال، والخرافات التي يمارسها الدراويش ومن شابههم، وكل الأفكار التي جاء بها الفرس والأتراك إلى كل بقعة في الشرق، أيًا كانت هذه الأفكار.

ومن دمشق، وبعد أن انتهى من دراسته لقواعد الدين، توجه محمد بن عبدالوهاب إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى موطنه الأصلي حيث تزوج واستقر به المقام في قرية حريملاء Harilama بالقرب من الدرعيه، وهي عاصمة نجد في ذلك الوقت. وهناك، وفى عيينة، بدأ نشر تعاليمه، وكانت سماتها الأساسية كما يلي:

١) العودة إلى العقيدة الإسلامية على النحو الذي ينص عليه القرآن، ونبذ أي معتقدات أو أفكار أخرى ينادي بها أتباع المذهب السنّي.

٢) إنكار أي سلطة روحية للخليفة العثماني أو أي خليفة آخر، أو احترام خاص يُولى به شرفاء مكة أو سادتها (سلالة النبي)، أو رجال الدين أو الدراويش أو غيرهم من الأشخاص.

٣) العودة إلى الالتزام الصارم بما ينص عليه الدين في مسائل الصلاة والصوم والحج.

٤) التحريم القاطع للخمر، والتدخين، والميسر، والسِحْر، واستخدام الحرير أو الذهب في الملابس، أو بناء شواهد لقبور الموتى.

وكان محمد بن عبدالوهاب يتمتع بالقوّة والتوقّد جسدًا وعقلاً، إلى جانب أن تجاربه في دمشق، كما يقول بلجريف: "أضافت إليه وغرست في يقينه أفكارًا كان من الواضح أنها راودته من قبل في صورة ضبابية وغير قاطعة". لقد تعلم

كيف يفرق بين العناصر الأساسية للإسلام وما اختلط بها من إضافات حديثة عارضة؛ ووجد نفسه أخيرًا يمتلك ما يمثل النظرة الجوهرية ونقطة البداية التي لم تتوفر إلا للنبي وصحابته الأوائل في الحجاز، منذ اثني عشر قرنـًا.

وفى حوالي عام ١٧٤٢، نجح محمد بن عبدالوهاب في إقناع محمد ابن سعود، حاكم العارض، بما يدعو إليه، ومحمد بن سعود ينتمي لقبيلة المصاليخ من عنزة، وعندما آمن بما ينادي به محمد بن عبدالوهاب، تبعه العديد من سكان الدرعيه والمناطق المجاورة حتى دانت له الزعامة الدينية، بعد تحرير الدين مما دخله من شوائب، بل وأصبح كبير المسلمين جميعا، كما يدعّى الوهابيون.

وبالتدريج، واهتداء بالآراء التي تتوصل إليها المجالس التي يعقدها محمد بن عبدالوهاب، وركوبًا لموجة التعاليم الجديدة، أخذ محمد بن سعود يدعم سلطته ويبسطها على كافة أنحاء العارض، بل وعلى كافة أنحاء نجد في واقع الأمر، ليصبح في عام ١٧٤٥م أول أمير وهّابي للمقاطعة، وكان أشد الصراعات التي خاضها هو صراعه مع أهل الرياض، الذين قاوموه لفترة طويلة تحت زعامة الشيخ محمد بن دواس Daus يساندهم آل عريعر، الأسرة الحاكمة من أشراف بني خالد. وكان بنو خالد، والذين يشبهون آل سعدون، من قبيلة المنتفق، بالعراق، في كثير من الأوجه، يملكون منطقتي الإحساء والقطيف، ورغم إذعانهم لدفع الجزية، إلاّ أنهم كانوا دائمًا من المعادين لآل سعود ومازالوا يعادونهم، في الخفاء، حتى اليوم، وكان شقيق الأمير، ثنيان بن سعود، هو الآخر من أشد مناهضي الدعوة الجديدة، ومازال أخلافه ينتمون إلى الجناح المعادى للوهابيين في العارض. والجدير بالذكر، على أي الأحوال، أن أحمد بن ثنيان، الذي ترأس هذا الفرع من آل سعود عام ١٩١٩، قام بزيارة للندن بصحبة فيصل بن عبدالعزيز آل سعود (ابن سعود)، وظلّ حتى وفاته من الأنصار الأساسيين لذلك الحاكم.

وفى عام ١٧٦٥، توفّى محمد بن سعود، فخلفه ابنه عبدالعزيز، أما محمد بن عبدالوهاب فعاش حتى عام ١٧٨٧، ومات في سنٍ متقدمة.

على باشا يغزو الإحساء

كان الأمير الثانى لنجد رجلا نشطًا وطموحًا. وبعد أن استكمل إخضاع نجد والإحساء، قاد الجيوش الوهابية وتقدم بها شمالاً إلى أن بلغ البصرة، بل ودخل أرض العراق الأصلية (وكانت تسمى بلاد ما بين النهرين في ذلك الوقت)

وكانت تشمل ثلاث ولايات من ولايات الدولة العثمانية (بغداد، والبصرة، والموصل)، وتشكل جزءًا من تركيا الآسيوية، ونتيجة للغارات التي شنّها عبدالعزيز نواحي تلال سنجار بالقرب من الموصل شمال العراق، ثارت مخاوف الحكومة العثمانية حتى اضطرت في نهاية الأمر، في عام ١٧٩٨م إلى توجيه حملة عسكرية تركية ضده، خرجت بطريق البّر من بغداد إلى الإحساء تحت قيادة المدعو علي باشا - فكانت هذه القوة تتكون مما يتراوح بين الأربعة آلاف والخمسة آلاف من المشاة النظاميين، المسلحين بالمدفعية، إلى جانب فرقة كبيرة من البدو والعرب من أبناء قبيلة المنتفق والظفير وغيرهما من القبائل المعادية للسلطة الوهابية. وتوجهت الحملة إلى الساحل واستولت على جانب كبير من الإحساء، ولكنها عجزت عن إخضاع العاصمة المنيعة، مدينة الهفوف، وعندما اضطر علي باشا إلى التقهقر إلى الشمال، التقى به سعود بن عبدالعزيز آل سعود، ابن الأمير، وكان ينزل في موقع بالقرب من آبار ثاج Thaj.

فكان من الواضح أن المعركة وشيكة بين الطرفين، ولكن أمكن تجنبها في اللحظة الأخيرة عندما تدخل شيوخ البدو المحليين، وسُمح لعلي باشا بالانسحاب إلى البصرة دون تحرش، وعلى الفور، استولى سعود على الإحساء وأنزل العقاب بكل من أذعن للأتراك. وساهمت هذه التطورات إلى حد كبير في توسيع سلطة الوهابيين، وأخذت البيعة تصل إليهم من كل حدبٍ وصوب، وبالرغم من ذلك، رأى الأمير عبدالعزيز أنه من الحكمة أن يسوّي الوضع مع بغداد، وأرسل إلى واليها، سليمان باشا أفخر الهدايا والجياد.

ومن الواضح أن الأمير كان يجنح إلى السلم، كما كان متواضعًا في زيّه ومسلكه، وَرعًا تقيًا إلى أبعد الحدود. أما سعود، من الناحية الأخرى، فكان مقاتلاً، ومن خلاله أخذ الوهابيون يشقون طريقهم، ومن اللافت للنظر حقًا أن نلاحظ كيف انتقلت معالم شخصيتي هذا الأب وابنه، وبكل حذافيرها، إلى الأمير عبدالرحمن وابنه المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود.

ومنذ ذلك الحين، تحولت الدولة السعودية إلى حكومة نظامية، لها إدارتها المركزية، ونظام للضرائب بدلاً من الجزية، وجيش نظاميّ تحت قيادة سعود، ورغم ذلك، واجهت هذه التطورات معارضة شديدة، لاتزال قائمة حتى اليوم، من جانب البدو الذين جُبلوا على التمسك باستقلالهم والنفور من الخضوع

للنواهي الدينية التي تفرض عليهم. ولم يحدث في أي وقت من الأوقات أن اقتنع القصيم وجبل شمر، وهما من مراكز الحياة البدوية، اقتناعاً بتعاليم الوهابيين، بينما لم يقبل أهل الإحساء، وهم عنصر نشط تربطه علاقات تجارية وثيقة بالهند وفارس، حكم آل سعود إلاّ صاغرين، وكان من الواضح أن جنوبي نجد وحده هو الذي يؤمن بالوهابيين إيماناً عميقاً، بلغ حدّ التعصب، وكان هذا التعصب هو مصدر قوة الدعوة الوهابية الذي اكتسحت كل ما وقف في طريقها.

وفي عام ١٧٩٩ توجه سعود إلى مكة لأول مرة لأداء فريضة الحج على رأس أربعة آلاف من أتباعه وأنصاره المسلحين. ثم كرر هذه الخطوة التي تنم عن الورع والتقوى مرة أخرى في عام ١٨٠٠، وفي حوالي ذلك الوقت كان المرور عبر نجد إلى مكة، سواء من ناحية البحرين أو من ناحية بغداد، محظوراً على الحجاج من أتباع المذهب الشيعي، الذين كان الوهابيون يعتبرونهم من الكفار نظراً لمعارضتهم للمذهب السنّي، وقد أثار ذلك مشاعر عارمة ضد الوهابيين في فارس والعراق، حيث أغلب السكان من الشيعة، لينتهي الأمر باغتيال عبدالعزيز على يد فارسي من كربلاء. ويحدد الكولونيل روس، المقيم السابق في بوشهر، عام ١٨٠٣ تاريخاً لهذا الحدث، ولكن أسرة آل سعود تحدد تاريخه بعام ١٨٠٠، وهو التاريخ الذي يتفق مع سائر الأحداث الأخرى. وعلى سبيل المثال، ففي عام ١٨٠١ خرجت حملة موجهة ضد عمان تحت قيادة سالم الحرك Alhark، أحد قادة سعود؛ وفي نفس العام زحف سعود نفسه على رأس قوة قوامها عشرين ألف مقاتل، إلى الفرات، واستولى على كربلاء وأشاع بها النهب والسلب في ٢٩ أبريل، وبعد أن ذبح كل سكانّها من الذكور وسوّى مدفن الحسين بالأرض، عاد ومعه كميات ضخمة من الأسلاب. وأشاع نجاح هذا الهجوم الذي جرى تحت اسم الإسلام - بعد تطهيره من البدع والشوائب - ضد مدينة من ممتلكات السلطان الرعب في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

وفي عام ١٨٠٢ بدأت جزر البحرين تدفع الجزية للوهابيين الذين بسطوا سلطتهم على الساحل الشرقي حتى الباطن وعلى خليج عُمان، بينما اعتنق عدد من القبائل العُمانية، أبرزها القواسم في رأس الخيمة، المذهب الوهابي وبدأوا يدفعون الزكاة للأمير سعود، ومازالوا على ذلك حتى اليوم.

وفي عام ١٨٠٣، وقع الصدام مع غالب، شريف مكة، وزحف ابن

سعود إلى الحجاز على رأس جيش كبير، واستولى على الطائف، ودخل مكة في أول مايو، فخلع غالبًا وعين عليها شيخًا من أتباعه، ولكنه، على أي الأحوال، لم يتخذ مظهر العدو، وإنما بدا وكأنه حاج جاء لأداء فريضة الحج، ومنع قواته من القيام بأي أعمال للنهب والسلب. وكان الإجراء العنيف الوحيد الذي سمح به هو هدم المقابر الكبيرة حتى "لم يعد هناك أي وثن في المدينة المقدسِة"، على حَدِّ قول سكان المدينة أنفسهم. كما ألغى أيضا الضرائب والمكوس، وحطم كل الوسائل التي تستخدم في التدخين، وأزال مساكنِ من يبيعون الحشيش أو يمارسون حياة الرذيلة جهارًا دون تقيد بأي أخلاق. ثم قَفَل عائدًا إلى نجد، حيث تقاطرت عليه آيات الولاء والخضوع من وسط شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك مكة المكرمة.

فكان هذا هو ذروة ما وصلت إليه السلطة الوهابية. وأصبح للقانون والنظام السيادة في ظل حكومة مركزية، وعندما عاد إلى الرياض، وعد سعود بحماية الأرواح والممتلكات والتجارة في جميع أنحاء ممتلكاته، واستمر هذا الوضع لعدة أعوام.

بدء العلاقات البريطانية مع الكويت

بدأ التاريخ المسجّل للعلاقات البريطانية مع الكويت في عام ١٧٧٥، في عهد الشيخ عبدالله، والد مريم، عندما أُرسِلَ أول بريد بريطاني من الخليج إلى حلب، لأول مرة، من الكويت، بعد استيلاء الفرس على البصرة؛ واستمر هذا الوضع حتى عام ١٧٧٩. وفي عام ١٨٠٥م طلب الشيخ عبدالله، وحاكم الزبارة – الدولة الجديدة التي أسسها آل خليفة على الساحل الغربي لشبه جزيرة قطر بعد أن غادروا الكويت – من الحكومة البريطانية أن تضمن لهما العودة سالمين إلى البحرين إذا ما قاما بقطع علاقاتهما بالوهابيين الذين ربّما أجبروهما على المشاركة في سلب السفن التجارية البريطانية ونهبها إذا استمرا على علاقاتهما بهم ولكن طلبهما لم يحظ بالقبول.

ومرة أخرى، زحف الأمير سعود إلى العراق في عام ١٨٠٧ وضرب الحصار على مدينة مشهد (أو النجف الأشرف) التي تحميها الأسوار؛ ولكنه اضطر إلى التراجع بعد أن فشل في الاستيلاء عليها. وبعد سنتين، حشد جيشًا من ثلاثين ألف مقاتل وقد عقد العزم على الهجوم على بغداد، ولكن الاضطرابات نشبت في نجد فاضطر إلى التخلي عمّا يخطط له، وبدلاً من المضي قدُمًا في تنفيذ ما كان

يهدف إليه، توجّه مرة أخرى إلى مكة للحج؛ ومنها عاد إلى موطنه عن طريق المدينة، وكان ضمها إلى إمبراطوريته في ذلك الوقت.

أمّا في عمان، فواصلت القوات الوهابية تدعيم مواقعها، ويبدو أن اسم الوهابيين عُرف لأول مرة في الهند مرتبطًا بغاراتهم وأعمال القرصنة التي شهدها المحيط الهندي مما دفع الحكومة البريطانية إلى توجيه حملة في عام ١٨٠٩، بمشاركة سلطان عمان، ضد رأس الخيمة قلعة القواسم على مدخل الخليج. وعندما أبدى الشيخ عبدالله، شيخ الكويت، رغبته الجادّة في المساعدة في هذه الحملة، لم يحظ طلبه بالقبول. ونجحت الحملة، وانتهت بإبرام معاهدة تلزم القواسم باحترام العلم البريطاني والممتلكات البريطانية ومساعدة السفن التي تفد إلى ساحلهم.

ولم يرتدع الوهابيون أمام هذه الإجراءات التي اتخذها البريطانيون، فزحفوا في العام التالي إلى مطرح Matrah على بعد بضعة أميال من مسقط، ثم إلى البحرين، التي احتلوها وفرضوا عليها حاكما عسكريا يدعى ابن عفيصان Ibn Ahfuisan. ومازالت القلعة التي شيدها هذا الحاكم قائمة حتى الآن، وتستخدم كمركز لشرطة الشيخ سلمان آل خليفة، الحاكم الحالي للبحرين. وبعد ذلك، قام سعود بغزو العراق، ثم أغار ابنه عبدالله في عام ١٨١١م على مشارف بغداد، بينما قام أبونقطة Abu Nuqtah وهو قائد من قادة جيوش الأمير، بغزو سوريا وأجبر دمشق على أن تدفع فدية. ولكن المدينة أنقذت نتيجة للجهود المشتركة التي بذلها بدو الشمال تحت قيادة ابن شعلان، شيخ الرولة (من عنزة) الذي ألحق الهزيمة بابن نقطة على ضفة نهر بَرَدَى، فاضطرت القوات الوهابية إلى التقهقر مرة أخرى إلى نجد.

إجراءات تركية ضد نجد

وبالرغم من ذلك، كان من المحتمل أن توسّع الإمبراطورية العربية الجديدة حدودها وصولاً إلى البحر المتوسط، وأن تنشر دعوتها الدينية الإصلاحية بين العرب جميعا؛ وهنا أصبح خطر الإسلام المتطرف حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها.

كان أول ظهور للأتراك في شبه الجزيرة العربية في عام ١٥٢٤، عندما استولى السلطان سليم الأول على الأراضي المقدسة، مكة والمدينة، بقوة السلاح،

وضم اليمن إلى ممتلكاته، بعد أن استولى على مصر واغتصب الخلافة التي كانت حتى ذلك الحين في يد العباسيين. ولكن لم يحدث في أي وقت من الأوقات أن ادعى الأتراك ملكيتهم لأي جزء من شبه الجزيرة العربية الأصلية فيما وراء المناطق المطلة مباشرة على البحر الأحمر. وفى القرن التالي، اضطر الأتراك للانسحاب حتى من تلك المناطق نتيجة للتمرد الوطني، بحيث لم تعد لهم دعاوى للسيادة على شبه الجزيرة العربية، باستثناء طريق الحج للقادمين من دمشق والقاهرة.

وأخذ رعايا السلطان محمود الثاني من أتباع المذهب السنّي يذكّرونه بأن أحد المبررات التي استند إليها أسلافه من بيت عثمان للاستيلاء على الخلافة كان هو امتلاكهم للأراضي المقدسة في مكة والمدينة. ونظرًا لما تعرّض له السلطان محمود من ضغوط لاسترداد هذه الأراضي وفرض حمايته عليها بالقوة، عقد العزم على اتخاذ إجراءات جادّة ضد نجد. ومن المحتمل، حقا، أن الأخطار التي كانت تهدد المصالح التركية في أوروبا في السنوات السابقة من القرن هي التي أرجأت الإقدام على عمل عنيف. كما ساهم احتلال نابليون لمصر وما نتج عنه من ارتباك في الإمبراطورية التركية بدور غير قليل في نجاح الوهابيين. ولكن الآن، ومصر تحت حكم محمد على باشا، نائب السلطان الشهير، فها هو السلطان يوكل إليه، بما عرف عنه من صرامة وبطش، مهمة تأديب آل سعود.

وأتاحت غيبة جيوش الأمير سعود في الشمال الفرصة المواتية للقوات المصرية، فاتجهت قوة قوامها ثمانية آلاف مقاتل إلى الحجاز تحت قيادة طوسون باشا بن محمد على؛ وتم احتلال مكة دون مقاومة؛ وأما عندما زحف طوسون إلى الداخل فقد تصدّى له عبدالله بن سعود وألحق به الهزيمة في الصحراء ودمرّ نصف قواته. ولم يتمكن طوسون في مواجهة هذا التطور الخطير إلاّ أن يصمد في مكة حتى تصله النجدة من مصر.

وعندما نفد صبر محمد على واجتاحه الغضب لفشل ابنه، خرج بنفسه إلى مكة في عام ١٨١٣، وقبض على الشريف - وكان الشك يساور محمد على بأنه من أتباع المذهب الوهابي - وبعث به أسيرًا إلى القاهرة. وفى ربيع ١٨١٤، أعيد طوسون باشا مرة أخرى إلى قيادة الحملة الموجهة ضد نجد، ولكنها لقيت الهزيمة بدورها في موقع بين الطائف وتربة. وبينما الاستعدادات تجرى لتجديد

الحملة، توفّى سعود بن عبدالعزيز آل سعود، الأمير الوهابي الكبير، في شهر أبريل من نفس العام، ليخلفه عبدالله، دون معارضة.

وفى شهر يناير ١٨١٥، أي في نفس العام الذي شهد معركة واترلو، أنزل طوسون باشا أول هزيمة حقيقية بالجيش الوهابي، وتمكن بذلك من الإسراع باحتلال المدينة والتقدم في القصيم، المقاطعة الشمالية لنجد، حتى استولى على الرّس Rass –عاصمة القصيم في ذلك الوقت – وشرع يستعد لمواصلة حملته، وبدأ عبدالله آل سعود، وكان قد تقهقر إلى مدينة عنيزة، المفاوضات مع الجانب المصرى، لتنتهي – لدهشة الجميع – باستسلامه لطوسون باشا رغم إنه لايزال يحتفظ بجيش قوى. وربما كان السبب الكامن وراء هذا الاستسلام هو إحساسه بأن موقفه في نجد لم يعد آمناً، وأن البدو، وإن كانوا قد خضعوا للنفوذ الوهابي نتيجة للخوف من ناحية، وجريًا على ما درجوا عليه من خضوع للطرف الأقوى من ناحية أخرى، إلاّ إنهم لم يقبلوا هذا النفوذ تمامًا في أي وقت. والآن، والعديد منهم يغيّر ولاءه وينضم للأتراك، والهزيمة الأخيرة التي حاقت بالوهابيين تهزّ الثقة بهم بين سكان المدن في نجد، فلم تعد أمام عبدالله أي فرصة لتوقع النجاح.

وبناء على ذلك، وافق على الشروط المجحفة التالية:

١) أن يعترف بسلطان تركيا سيداً أعلى.
٢) أن يقدم الضمانات لمسلكه في المستقبل، بما في ذلك التوجه الى القسطنطينية إذا طُلب منه ذلك.
٣) أن يسلّم الدرعيه، عاصمته، إلى حاكم يعينه السلطان.
٤) أن يعيد المجوهرات التي نهبها من المدينة عندما زارها والده عام ١٨٠٩.

ووفقا لهذه الشروط، عُقد الصلح بين عبدالله وطوسون باشا وقدّم عبدالله كل ما طلب منه من ضمانات، ولكنه لم يسلّم الدرعية، بل على العكس، أخذ يستعد لمواجهة الحصار. ومن الناحية الأخرى لم يقدم محمد علي على خرق الصلح عندما علم أن عبدالله يرفض التوجه إلى مصر.

وصدرت التعليمات لطوسون بالعودة، وتم تعيين أخيه إبراهيم، وكان لايزال في السادسة والعشرين من عمره، قائدا للجيش في شبه الجزيرة العربية بدلاً

منه. وثمة قصة طريفة تُروَى في هذا الصدد: فيقال إن محمد علي، عندما يئس من وصول طوسون إلى قلب نجد وسحق قوة الوهابيين إلى الأبد، أخذ يتدبر الأمر في مقرّه الخاص في القاهرة، وكان قادة قواته يشدّون من أزره ويطلبون منه ألا يذعن، وكل منهم يعرض أن يتولى قيادة الحملة إلى النجاح إذا وقع عليه الاختيار. وهنا طلب محمد علي إحضار سجادّة كبيرة وتفاحة، وبسطت السجادة على الأرض ووضعت التفاحة في مركزها.

وقال محمد علي: "والآن أيها السادة، إن مهمة الاستيلاء على نجد شاقة بنفس الدرجة التي يصعب معها الحصول على التفاحة من موقعها في مركز السجادة. والرجل الذي يستطيع أن يمسك بالتفاحة دون أن تطأ قدماه السجادة هو وحده القادر على الاستيلاء على نجد."

وتستمر القصة فتحكي كيف أخذ القادة يفكرون الواحد بعد الآخر، ويبحثون عن طريقة للوصول إلى التفاحة، ولكن دون جدوى، فراحوا يتذرعون بغرابة الاختبار الذي يتعرضون له. وكان آخر من تقدم ليدلي بدلوه هو إبراهيم. ووافق محمد علي وقد اجتاحته الرغبة ليرى كيف سيحلّ ابنه المشكلة التي بدا حلها مستحيلا بالنسبة لقادته. ونهض إبراهيم، وراح يخطو في هدوء وأناة متجها نحو السجادة، فطواها، إلى أن وصل إلى مركزها، فمدّ يده، وأمسك بالتفاحة. وأعجب محمد علي بابنه كل الإعجاب، وعلى الفور، عينّه لتولي قيادة جيوشه.

وفي شهر سبتمبر ١٨١٥ ، خرج إبراهيم باشا من مصر على رأس جيش كبير وزحف إلى ساحة العمل. وكان اللقاء الأول مع أهل نجد عند الماويه Mawiyah حيث هاجم عبدالله آل سعود الجيش المصري، ولكن المهاجم مُنِي بهزيمة ساحقة. وأمام هذا الموقف أعدم إبراهيم باشا كل من وقع بين يديه من أسرى. ثم تقدم، ومعه أربعة آلاف من المشاة، وألف ومائتين من الفرسان إلى جانب فصائل من القبائل العربية الصديقة الموالية لبني خالد، ومطير، وحرب والسهول، والسبيع - متجهًا إلى الرّس، التي سبق لطوسون أن ارتدّ عنها وأصبحت الآن في حوزة حاميه وهابية. وواجه إبراهيم صدمة عنيفة وقاسية أمام هذه المدينة؛ فبعد أن حاصرها لمدة ثلاثة أشهر ونصف الشهر، وفقد ثلاثة آلاف من مقاتليه اضطر إلى رفع الحصار والموافقة على عقد الهدنة.

وبالرغم من ذلك، وبعد امتناع الرّس عليه، واصل إبراهيم زحفه شرقًا نحو

مدينة عنيزة، بينما تقهقر الأمير عبدالله جنوبا إلى مدينة بريدة، وبعد ستة أيام، استسلمت حصون عنيزة، فخضعت منطقة القصيم كلها لإبراهيم باشا. وانسحب عبدالله إلى شقرة SHAQRA عاصمة مقاطعة وشم WASHM واستولى إبراهيم على بريدة حيث توقف لمدة شهرين لتعزيز قواته.

وفى هذه الأثناء، تركزت سياسة الباشا في كسب مودّة أكبر عدد ممكن من النجديين وتحويلهم عن ولائهم للوهابيين. ولم ينس قصة السجادة، وبدأ – إن جاز القول – في طيّ القبائل العربية من خلال مسلكه الصريح والواضح الذي حظي بإعجاب وتقدير الجميع. وصدرت التعليمات مشددة بمنع أي عمليات للنهب أو السلب، أو أي إساءة لسكان القصيم؛ وكان الثمن يدفع نقدًا، وفوراً، في كل مكان مقابل ما تحصل عليه قواته من مؤن، مع تحديد هذا الثمن وفقا لما يرتضيه البائعون.

وكان إبراهيم يعقد مجلسه بانتظام، ويراعى ألاّ يخرج أي زائر يفد إليه، صفر اليدين، وكانت الهدايا تقدّم للجميع، كباراً وصغارًا، وفقا لأوضاعهم. وعلى هذا النحو أمكن جذب العديد ممن كانوا لايزالون على ولائهم لآل سعود. وكان من بين من كسبهم إبراهيم باشا إلى جانبه فيصل الدويش، شيخ مطير الشهير في ذلك الوقت والذي كان على استعداد تام للانضمام إلى إبراهيم نتيجة لسابق صدامه ونزاعاته مع آل سعود، وتطلعه لأن يُعيْن حاكمًا لنجد، وهو وعد لم يكن في نيّة الباشا أن يحققه.

* * *

وبعد أن حصل إبراهيم، وهو في بريدة، على الإمدادات من الرجال والسلاح، وتوفرت له احتياجاته من المؤن والذخيرة، تمكن من مواصلة تقدمه إلى شقرة، على رأس قوة من أربعة آلاف وخمسمائة من الجنود النظاميين من الأتراك والألبان وأبناء البربر، بالإضافة إلى الفصائل العربية، ورافق قوته حوالي عشرة آلاف جمل، وكان المشاة يمتطون كل اثنين على أحدها. وفى نفس الوقت، كان عبدالله آل سعود قد ارتدّ إلى عاصمته الدرعية، وأخذ يعمل على تدمير كل ما وراءه في جميع أنحاء الأراضي الداخلية، ويسوق المزيد والمزيد من الماشية والأغنام نحو الإحساء.

كان ذلك في أواخر شهر ديسمبر ١٨١٧. وفى الشهر التالي، ظهرت

قوات إبراهيم باشا أمام شقرة بعد أن أخذت تقترب منها بخطى وئيدة ومنتظمة تنفيذاً لتوجيهات المهندس الفرنسي م. فيزيير. واستسلمت شقرة في ٢٢ يناير، ومنح إبراهيم الأمان لحاميتها ولكن مع نزع سلاح رجالها وتعهدهم بعدم الانخراط في الخدمة العسكرية ضد القوات التركية - المصرية. (وبعد عدة أشهر، عندما سقطت الدرعيه، أمر إبراهيم بتدمير أسوار شقرة تدميراً كاملا).

والآن، بدأ عبدالله آل سعود إعداد الدرعيه للدفاع والصمود. وقبل أن يواصل إبراهيم مطاردته له، رأى أنه من الحكمة أن ينحاز عن الطريق المباشر ليستولي أولاً على بلدة ضرماء (وتنطق محليًا الظرومة)، ولكنه واجه عندها مقاومة ضارية وفقد عددًا من قواته، وانتقامًا لذلك، قتل جميع سكانها من الذكور، ودمّرها تمامًا، واستباحها للنهب والسلب، وتركت نساؤها فرائس لوحشية الجنود الأتراك.

وعطلت الأمطار زحف إبراهيم فلم يصل إلى الدرعيه في شهر مارس، ثم تمكن من الاستيلاء عليها في شهر أبريل بعد أن وجّه إليها قوة قوامها خمسة آلاف من المشاة والفرسان، واثنا عشر مدفعًا، منها مدفعان من طراز مورتار، ومدفعان من طراز هاوتزر. وبعد ذلك بفترة وجيزة، وصلت إلى المعسكر التركي تعزيزات وإمدادات من المدينة والبصرة.

استمرت عمليات الحصار لبعض الوقت دون أن تحقق الأسلحة التركية - المصرية أي نجاح، وعندما وقع انفجار في أواخر مايو، فقد الباشا كل احتياطاته من الذخيرة وتدهور الموقف وبلغ أقصى درجة من الحرج. والواقع أن شجاعة إبراهيم باشا الشخصية التي لا تلين، والمثال الرائع الذي ضربه، هما وحدهما اللذان أنقذا الجيش من كارثة كادت تحيق به. وعانت قواته الكثير من الدوسنتاريا والرَمَد حتى توهمت قوات عبدالله أنه يمكنها التغلب على الحصار بشن هجوم مفاجئ على القوات التركية. ولكن هذا الهجوم دُحر، وتبددت الفرصة، وسرعان ما وصلت إلى المعسكر التركي قوافل تحمل الذخيرة والمؤن. وأعقب ذلك تعزيز قوات المشاة والفرسان. وفى قمة هذه التطورات، جاءت الأنباء تُبشّر بمقدم خليل باشا من مصر على رأس لواء من ثلاثة آلاف من القوات الجديدة.

وفى أوائل سبتمبر، أرسل عبدالله آل سعود راية الهدنة مطالبًا بلقاء

رسمى مع ابراهيم باشا وتمت الموافقة على ذلك. واستقبل الشيخ الوهابّي استقبالاً لائقًا، وأحيط علمًا بأن الشرط الأول والذي لا مفرّ منه للصلح هو أن يتوجه بنفسه إلى القاهرة، فطلب مهلة لمدة عشرين ساعة ليتدبر الأمر، وفى نهايتها، عاد إلى معسكر الباشا وأبدى استعداده لتنفيذ الشرط، مقابل أن يتعهد إبراهيم من جانبه بحمايته. وتفيد التقارير الواردة في تلك الفترة أن إبراهيم أجاب بأنه ليس مُخَولاً أن يربط السلطان ونائبه محمد على بأي التزام أو تعهد، ولكنه ألمح إلى أن كلاهما أكرم من أن يعملا على قتله، وحتى اليوم، مازال عرب نجد يعتقدون أن الباشا تعهد بالفعل – وأعطى كلمته – بعدم إلحاق أي أذى بالشيخ عبدالله. ثم ناشد عبدالله أنصاره وأبناء أسرته أن يحذو حذوه. وتمت الموافقة على الشروط، وانعقد الصلح.

وعلى الفور، خرج الأمير الذي أَفلَ نجمه، في رِحلته تحت حراسة مشددة. وعندما وصل إلى القاهرة استقبله محمد على استقبالاً وديًا كريمًا، وبعث به إلى القسطنطينية مع مناشدتها بشدة للعفو عنه، ولكن السلطان محمد كان عنيدا فظًا لا يعرف الصفح، ومن ثم جرى استعراض عبدالله بن سعود آل سعود، رابع أمراء نجد، ومعه مرافقه، لمدة أربعة أيام في شوارع المدينة، وهم جميعًا في الأغلال.

وهكذا انتهت الحقبة الأولى من الحكم الوهابي في نجد.

نجد ولاية تابعة لمصر:

على امتداد السنوات الثلاث والعشرين التي أعقبت تدمير الدرعيه، ظلت نجد ولاية تابعة لمصر، تحتلها القوات المصرية أحيانـًا، ويكتفى أحيانـًا بأن تدفع الجزية، وكان مشاري Mishari شقيق عبدالله، هو الأمير الخامس لها، تحت الحكم المصري.

وعندما ظهر إبراهيم باشا لأول مرة في نجد، كسب ودّ الجميع باستقامته ورجولته ومسلكه المتعاطف، وخاصة في جبل شمر والقصيم والإحساء، التي استقبلته كمحرر من النير الوهابي وليس كغاز أجنبي. ولم يسبق لجيش تركي أن شوهد في وسط شبه الجزيرة العربية، ولم يكنْ عرب الداخل – إلا غلاة المتعصبين منهم – يحملون للأتراك أي كراهية خاصة، ولكن ما أن رحل إبراهيم حتى أثارت القوات التركية والألبانية عداء الأهالي نتيجة لما كانت تمارسه من قسوة،

وفى أوائل ١٨٢٢، دُبّرت مذبحة لحامية تركية في الرياض، العاصمة الجديدة لنجد (لأن الدرعيه لم تقم لها قائمة من جديد أبدًا)؛ ثم أعقب ذلك، في عامي ١٨٢٣ و ١٨٢٤، قيام العرب بهبّة ناجحة تحت قيادة تركي بن عبدالله آل سعود، عم الأمير مشاري وتمكن من استعادة سيادة الأسرة في العارض، واستولى تركي على الرياض، وطرد القوات المصرية التي كانت لاتزال في نجد، واعترف به، كزعيم للحركة الشعبية ضد الأجانب، أميرًا بدلاً من مشاري من جانب أغلب القبائل في وسط شبه الجزيرة العربية.

وعلى مدى عشر سنوات، من ١٨٢٤ حتى ١٨٣٤، أخذ تركي يدعم سلطته في نجد والإحساء، بل وأيضا في القصيم وعلى امتداد الساحل العربي للخليج حتى رأس الحد، واعترف به الجميع ودفعوا له الجزية، وتصرف، هو أيضًا بنفس الحكمة مع حكومة مصر، وحصل على موافقتها على كل ما اتخذه من خطوات في شبه الجزيرة العربية. وفى عام ١٨٢٤، اغتاله مشاري بن خالد، الذي لقي مصرعه بدوره على يد فيصل بن تركي. وكان قاتل تركي أحد أبناء خالد بن سعود آل سعود، من أخوة مشاري الأمير الخاسر (توفى)، ومن المطالبين بالعرش. ولكن فيصل هو الذي اعترف به أميراً خلفًا لوالده.

فيصل الكبير

وفى نفس العام الذي تولىّ فيه فيصل الكبير – وهذا هو الاسم الذي أصبح معروفا به - تجاهل، أو بالأحرى، رفض دفع الجزية لمصر؛ فأرسل محمد على باشا قوة تحت قيادة جميل باشا لخلعه وتعيين خالد مكانه. وعندما اقتربت قوات جميل باشا، فرّ فيصل إلى الإحساء.

واستولى خالد على العرش بمساندة قطاع من أهل العارض وقوات خورشيد باشا، الذي خَلَفَ جميل. ولكن القائد المصري سرعان مانّحاه ليعيد السيطرة المصرية الكاملة في جميع أنحاء نجد. واستسلم فيصل، وبعث به أسيرًا إلى القاهرة.

لم يستمر هذا الاحتلال المصري الثاني لنجد إلاّ عامين؛ ثم تم استدعاء أغلب القوات وتُرك خالد واليًا من قِبَل الحكومة التركية. وفى عام ١٨٤٢ تزعم عبدالله بن ثنيان آل سعود ثورة ضد خالد الذي طُرد من الرياض ومعه ما تبقى من القوات المصرية، وتولى عبدالله حكم نجد حتى العام التالي عندما ظهر فيصل

على الساحة من جديد في العارض بعد هروبه من سجنه بالقاهرة، واعتُرف به في كل مكان أميرًا بدلاً من عبدالله.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى نهاية حكمه الطويل الذي استمر إحدى وثلاثين عاما، لم تمارس الحكومة المصرية أو الحكومة التركية أي سلطة أيًا كان نوعها في نجد. وفى عهد فيصل، أعيد احتلال كل الأراضي التي سبق أن كانت ضمن الإمبراطورية الوهابية، ومرة أخرى أُلحقَ جبل شمر إلى الدولة الوهابية وكان قد حصل على الاستقلال تحت زعامة أسرة ابن علي، من بنى تميم، وبمساعدة فيصل، وطدّ عبدالله بن رشيد بن عبدَهَ منِ شمر، مركزه في حائل، وأخذ يدفع الجزية لفيصل، فاعترف به أميرًا على شمر. ولم تعجز قوات فيصل عن تحقيق أهدافها إلاّ في البحرين، وذلك نظراً لما قدمته بريطانيا من مساندة لشيوخها.

ومن أجل وصف الأوضاع في الرياض في عهد فيصل، ليس هناك أفضل من قراءة كتاب بلجريف "قصة رحلة لمدة عام في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية" الذي يتحدث فيه بأسلوب حي وصادق، عن إقامته المؤقتة، متنكراً في هيئة شخص من سوريا، في هذه العاصمة التي جاء إليها من دمشق. وكان وليم جيفورد بلجريف أحد الأبناء الأربعة النابهين للسير فرنسيس بلجريف، وأما أبناؤه الآخرون فمنهم فرنسيس تيرنر بلجريف مؤلف كتاب "الكنز الذهبي"، ووليم جيفورد، عضو الإرسالية الجزويتية، والضابط السابق بالجيش الهندي، والدبلوماسي الذي تولى فيما بعد منصب الوزير المفوض في أورجواي.

فقد فيصل بصره في السنوات الأخيرة من حياته، وانتقلت إدارة شئون دولته إلى ابنه الأكبر، عبدالله، الذي انتهت به قسوته وتعصبه إلى معاداة البدو وخروجهم عن طاعته وتهيئة الأوضاع للتدخل الثالث من جانب الأتراك. وعندما توفي فيصل في عام ١٨٦٥، أصاب الوهن الدولة السعودية مرة أخرى نتيجة للتحلل الداخلي بعد أن استردّت الكثير من قوتها السابقة في عهده، وكان عبدالله، الأمير الثاني عشر، وهابيًا متشددًا، بينما كان سعود، الابن الثاني، من أصحاب الفكر المتحرر وكانت قناعته قومية أكثر منها دينية. وترأس كل منهما فريقا من أهل البلاد؛ عبدالله على رأس الحضَر (سكان المدن) في العارض، وسعود على رأس البدو، عرب الصحراء. واتخذ محمد، الابن الثالث إلى جانب عبدالله. واقتسم عبدالله وسعود التركة فيما بينهما لفترة من الزمن، على نحو

يشبه كثيرًا انقسام المنتفق في العراق فيما بعد إلى فريقين بعد وفاة ناصر باشا السعدون.

وكما هي العادة في مثل هذه الأحوال، كان لابدّ من الصدام بين الأشقّاءَ. وفي عام ١٨٧١م أجبر سعود أخاه عبدالله على الفرارِ من العارض ونصبّ نفسه أميراً بلا شريك، واستقل جبل شمر والقصيم استقلالاً كاملاً، ورفضت الإحساء دفع الجزية.

وشق عبدالله، يصاحبه عدد قليل من الأتباع، طريقه إلى حائل حيث يتولّى الحكم متعب بن عبدالله آل رشيد، كأمير ثالث لشمّر. وعندما استقبله متعب مرحبًا، بدأ عبدالله اتصالاته من هناك مع مدحت باشا، الحاكم العام للعراق، في بغداد.

الاحتلال التركي الثالث

وقبل أن أروى قصة الفصل الأخير من المحنة التي ألمت بالعرب وضم الأتراك لبلادهم، أجد لزامًا عليّ أن أعرض في إيجاز آراء ودعاوى السلاطين العثمانيين فيما يتعلق بشبه الجزيرة العربية. فالحملة التي قام بها إبراهيم باشا في عام ١٨١٥ لم تكن تأكيدًا لحق في السيادة، وإنما كانت تأديبًا وانتقامًا من طائفة معادية، وما أن تم سحق الحكومة الوهابية، حتى لم تعد نجد تحظى إلا بالقليل من الاهتمام كأحد ممتلكات الدولة العثمانية، وفى ذلك الوقت، كان السلاطين يركزوّن كل اهتمامهم على وضعهم في أوروبا، ولم يكن في وسعهم أن يستسلموا لأحلام التوسع في آسيا كما كانوا، من الناحية العسكرية، أضعف من أن يتصدوا لمشروعات لا تفرضها الضرورة المطلقة، ولكن ما أن انتهت حرب القرم في عام ١٨٥٦ حتى أعيد تنظيم الجيش التركي على أحدث النظم، فارتفعت كفاءته - بفضل القرض البريطاني - وزوّد بالأسلحة ذات الفعالية الشديدة.

وعندما وجد السلطان عبدالعزيز، الذي تولى حكم تركيا من ١٨٦١ حتى ١٨٧٦، أن في حوزته قوة غير عادية، استخدمها في بادئ الأمر من أجل إخضاع الولايات النائية من الإمبراطورية التي تزعزعت فيها سلطته، ثم لإخضاع القبائل النازلة على حدوده والتي بدا أنه من الأسهل إلحاق الهزيمة بها. وهكذا عادت الأراضي الواقعة على حدود سوريا وكردستان إلى الخضوع للدولة العثمانية، وتم احتلال وادي دجلة والفرات بعد أن مارست هذه المناطق الاستقلال الكامل منذ

أيام تيمور لنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥)؛ ودخل العراق من جديد تحت سيطرة النظام الضريبي التركي.

وعندما افتتحت قناة السويس، وكان الوصول إلى شبه الجزيرة العربية متاحًا فقط عن طريق البّر حتى ذلك الحين، أصبح من السهل الوصول إليها من القسطنطينية عن طريق البحر. ونتيجة للقوة المتزايدة الناجمة عن تراكم الثروات، ووجود جيش على أهبة الاستعداد ومجهزّ للعمل، راودت أحلام الفتح الحكومة العثمانية من جديد، وتذكرّ السلطان عبدالعزيز ما بدا أنه قد نَسِيَه هو وأسلافه: أنهم ورثة الخلافة الإسلامية (العربية)، واستناداً إلى هذه الحقيقة أقام وزراؤه دعواهم بتلك البلاد العربية، ودعمت الحكومة العثمانية حاميتها في كل من مكة والمدينة وزادتها عددًا، ووجهت حملة إلى اليمن، في نفس الوقت الذي عُيّن فيه مدحت باشا، هذا القائد الطموح الذي لا يهدأ ولا يكل، حاكمًا عامًا لبغداد، مع صدور التعليمات له بترقب الأوضاع حتى تحين الفرصة من أجل مّد نفوذ السلطان في أي اتجاه يرى أنه من المناسب أن يتجه إليه.

والآن، سنحت الفرصة المرتقبة، وعلى الفور، استجاب مدحت باشا لنداء عبدالله آل سعود، فأصدر بيانـًا يعلن فيه عودة سيادة السلطان على نجد وتعيين عبدالله قائمقامًا على الولاية، وبالإضافة إلى ذلك، جاء في البيان أن قوة تركية سوف تتوجه من بغداد "لحفظ النظام وتدعيم وضع القائمقام المذكور ضد أخيه المتمرد"

وبعد شئ من المعارضة من جانب حكومة الهند، التي أصرّت لسنوات عديدة على إقامة السلام المطلق في الخليج - وهو الوضع الذي اتفق عليه جميع شيوخ الساحل العربي وأيضًا أهل الإحساء والحكومة الوهابية وأسفر عن نتائج إيجابية رائعة - خرجت حملة عسكرية متجهة من البصرة إلى الإحساء عن طريق البحر. وكانت هذه الحملة تتكون من خمسة آلف من الجنود الأتراك النظاميين تحت قيادة حافظ باشا - ورست سفنها بالقطيف في يونيو ١٨٧١. وفى هذه الأثناء كان عبدالله قد عاد إلى نجد، وبعد أن حشد جيشًا من أنصاره، في تعاون وثيق مع قحطان وهاجم سعود من ناحية الغرب، حاقت به الهزيمة فلجأ إلى المعسكر التركي. ورغم ذلك، شاعت الاضطرابات في الرياض، فاضطر سعود إلى النزول إلى ميدان القتال ضد عبدالله بن تركي آل سعود، ابن الأمير السادس، الذي تجرّع الهزيمة على يديه، فاضطر هو الآخر إلى الانسحاب إلى قطر.

وهنا كان الأتراك قد احتلوا كل الضفة الساحلية للإحساء، وقلعة المدينة، ومدينة الهفوف، ثم بدءوا اتصالاتهم مع عبدالله بن تركي، الذي أطلقوا عليه لقب مدير الرياض، "انتظارا لوصول عبدالله بن فيصل إلى هناك". ولكن قبل نهاية العام، أعلن مدحت باشا، بعد التماس تقدم به سكان نجد الأصليين إلى السلطان، أن أسرة آل سعود لم تعد هي الحاكمة في نجد، وأنه منذ ذلك الوقت فصاعدًا سيتولى إدارة البلاد حاكم تركي، وفى نفس البيان، أعلن تعيين حافظ باشا متصرفًا لنجد. وهكذا تمت تنحية عبدالله تمامًا، فهرب من المعسكر التركي إلى الرياض. وبدأ رؤوف باشا الذي خلف مدحت باشا في بغداد، المفاوضات مع سعود في عام ١٨٧٢، وأقنعه بإرسال شقيقه الأصغر عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، إلى بغداد، حيث احتجز بها كسجين، وفى نفس العام عاد سعود إلى الرياض، وقام مرة أخرى بخلع شقيقه عبدالله، الذي انسحب إلى الكويت، ليترك سعود في وضع لا ينازعه فيه أحد.

وفى عام ١٨٧٣، انسحبت جميع القوات التركية النظامية من الاحساء، وتركت وراءها بزيع بن عريعر الخالد، شيخ بنى خالد الذي ورث عن أسلافه العداء لآل سعود، ومع حاميه من الشرطة الراكبة، ليتولى حكم الولاية ممثلا للعثمانيين.

وفى عام ١٨٧٤ ، قاد عبدالرحمن بن سعود ثورة في الإحساء بعد أن أطلق سراحه من سجنه في بغداد. وانضمّ إليه آل مرّة، وعجمان، وبنو هاجر، فزحف معهم إلى الهفوف وحاصر بازى BAZI فيها مع حاميته التي قتل العديد من أفرادها .. وعندئذ أرسل والى بغداد التركي فرقة من القوات النظامية عن طريق البحر، مع قوة كبيرة من عرب المنتفق عن طريق البرّ، لاحتلال الهفوف، تحت قيادة ناصر باشا السعدون والى البصرة وشيخ المنتفق الشهير.

وعندما وصلت الأنباء باقتراب ناصر وقواته، تقهقر عبدالرحمن وارتدّ إلى الرياض؛ وزحف ناصر إلى الهفوف وحرر الحامية التي كانت تدافع عن نفسها تحت أشد الضغوط في الكوت (الحصن)، واستباح المدينة للسلب والنهب، فانخرط الجنود الأتراك وقواتهم الاحتياطية لعدة أيام متوالية في أعمال إجرامية ضد سكان المدينة، حتى احتجّ الضباط الأتراك أنفسهم على ما يجرى وأبلغوا احتجاجهم إلى ناصر باشا. ولكن الباشا رفض أن يستجيب لهم وتذرعَ بأن الإجراءات الصارمة أمر لابدّ منه حتى يرتدع الآخرون.

وبعد هذه الأحداث بفترة قصيرة، توفى الأمير سعود في الرياض، وقيل أنه مات بالسمّ. وفي عام ١٨٧٥، عاد عبدالله مرة أخرى إلى نجد، فوجد عبدالرحمن وقد وطدّ أقدامه. وبعد شئ من النزاع، توصل الأَخَوان إلى تسوية وديّة فيما يتعلق بسلطة الشيخ، تقضي بأن يحمل عبدالله لقب الأمير، وأن يكون عبدالرحمن هو الوزير الأول (الحاكم الفعلي).

وكان مدحت باشا، الذي تولىّ منصب الصدر الأعظم في عام ١٨٧٣، يبذل قصارى جهده من أجل خلع السلطان التركي عبدالعزيز في ٣٠ من مايو ١٨٧٦، وبعد خمسة أيام، انتحر عبدالعزيز بقطع شريان في ذراعه بموسي. وفى ٣١ أغسطس، أعلن أن خليفته مختل عقليًا ويعتبر في عداد المجانين، فخلع بدوره، ليخلفه في اليوم التالي أخوه السلطان عبدالحميد الثاني.

وفى حوالي عام ١٨٨٠، ولد في الرياض أول أبناء عبدالرحمن آل سعود، وإن لم يرد أي ذكر للتاريخ المحدد لهذا الميلاد، والاسم الكامل لهذا الوافد الجديد هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، وهو الذي قدّر له أن يكون ذلك الحاكم الكبير الذي عرفه العالم الحديث باسم الملك ابن سعود.

وفى عام ١٨٨١ ، اتهم السلطان عبدالحميد الثاني مدحت باشا باغتيال السلطان عبدالعزيز، وتمت محاكمته في ٢٨ من يونيو، وحكم عليه بالإعدام. ونتيجة للضغط من جانب بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية عُدّل الحكم إلى النفي إلى الطائف بالقرب من مكة، حيث ظل حبيسًا إلى أن لقي حتفه نتيجة لسوء المعاملة والقسوة في ٦ من أبريل ١٨٨٣.

آل رشيد يسيطرون على شبه الجزيرة العربية

كان عبدالله بن فيصل أميرًا لنجد من الناحية الشكلية لا أكثر، ولم يمتد نفوذه إلاّ قليلاً وراء أسوار الرياض، ولم يتجاوز، بكل تأكيد، أراضى العارض وتوفي عبدالله في الرياض في آخر نوفمبر ١٨٨٩، وبعد سنتين، استولى عبدالرحمن على العاصمة، فحاصره فيها محمد آل رشيد. وبعد أربعين يومًا، أرسل عبدالرحمن شقيقه الأصغر محمد بن فيصل آل سعود، للتفاوض على شروط التسليم مع ابن الرشيد، ويبدو أنه وافق أن يتنازل له عن الإمارة.

وتوجه عبدالرحمن مع أبنائه الأربعة ومن تبقّى من أسرته إلى منفاه في

البحرين، وفى عام ١٨٩٣ طلب من الشيخ محمد الصباح أن يِقيم في الكويت، فانتقل إليها بعد الموافقة على طلبه. وفى حوالي عام ١٨٩٤ توفى شقيقه محمد، الذي لعب دورًا هامشيًا نسبيًا طوال الوقت، وأساسًا كوسيط في النزاعات الأسرية وفى الصراع ضد آل رشيد.

وفى ذلك الوقت كتبت السيدة آنى بلانت، التي رافقت زوجها في رحلاته في أفريقيا وآسيا تقول: "يمكن القول بأن سلطة أسرة ابن سعودٍ في شبه الجزيرة العربية انتهت بالفعل، وانتقلت إلى آل رشيد في حائل. وبدأ كلُ محب لوطنه التجمع بإخلاص حول محمد آل رشيد، أمير حائل وجبل شمر العظيم". لقد تولى حكام آل رشيد زعامة جميع المستوطنات الهامة في القصيم وسدير Sadair والعارض والوشم Washm .

الفصل الخامس
حكايات جَدّي

حصار بليفنا – مغامرات في أفريقيا – معركة نازيب - Nazib – انتحار السلطان عبدالعزيز – مقتل مدحت باشا.

كان جدّي الأكبر، جون ديكسون، الطبيب الجرّاح بالقوات البحرية الملكية، أحد الذين كانوا بجانب نلسون في معركتي كوبنهاجن والطرف الأغر. وبعد الحروب النابليونية، استقر في طرابلس، ثم تزوج من اليزابيث، الابنة الوحيدة للسير أرشيبالد دالزيل، الحاكم العام والقائد الأعلى لقلعة ساحل رأس الرجاء الصالح.

وأما جدّي، إدوارد دالزيل ديكسون، فولد في طرابلس، بشمال أفريقيا، في ٢٩ من نوفمبر ١٨١٥. وبعد عدّة مغامرات قضى حوالي ستين عامًا في القسطنطينية، جزءًا منها كضابط في القسم الطبي للجيش التركي، ولكن أساسًا كطبيب لسفارة جلالة الملكة البريطانية هناك، كما عمل في الفترة الأخيرة منها طبيبا خاصًا لثلاثة من سلاطينها: عبدالمجيد، وعبدالعزيز، ومراد الخامس. ثم أنهى خدمته الرسمية وهو يعمل طبيبًا أول للسفارة البريطانية، ورئيسًا للجنة الدولية للأطباء المقيمين بالعاصمة التركية، وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى أن استقال وتفرّغ لحياته الخاصة في القسطنطينية، وقد تزوج ثلاث مرات؛ وكانت زوجته الأولى، لويزا بوينا باري وارينجتون، جدّتي، من مواليد طرابلس وماتت بها، وكان أبوها، الكولونيل هانمر وارينجتون، الذي سبق أن عمل في الفرقة الرابعة لسلاح الفرسان، قنصلاً عامًا في طرابلس لعدة سنوات؛ وهو من سلالة تريفور تيودور، لورد هيرفورد، الجدّ الأعلى لبيت تيودر الملكي.

وأنا أذكر كل ذلك لأبينَ أن تجارب أسلافي وثقافتهم والبيئة التي نشأوا في إطارها كانت هناك في شمال أفريقيا، بين الأتراك والعرب، الذين يرجع إليهم الكثير فيما يتعلق بحياة أبي – وبحياتي أنا أيضًا، وأمضى أبي أغلب سنوات حياته في مجال الخدمة القنصلية في الشرق، وخاصة في ولاية سوريا التركية وكانت تضم لبنان وسوريا، أما أنا، فولدت في بيروت في ٤ من فبراير ١٨٨١، وقضيت أيام طفولتي في دمشق والقدس، حيث كثيرًا ما اعتاد والدي أن يروى لنا قصص الأحداث المثيرة والشيقة التي زخرت بها حياة جدّي.

وكانٍ لقائي الأول، والأخير، مع جدّي في عام ١٨٩٩، وكان أبي في ذلك الوقت قنصلاً عاماً في القدس، والأتراك يحتلون البلاد. وبعد أن تخرجت من مدرسة القديس إدوارد، في أكسفورد، توجهت في رحلة إلى القدس مع عمتي، هيلدا ماليتي، لألتقي بأبي وأميّ وشقيقتين لي، قبل أن التحق بكلية وادهام بأكسفورد، كما كان جدّي يتطلع شوقاً لرؤية حفيده الوحيد، واتُفق على أنِ نبدأ رحلتنا من مارسيليا، وأن نركب إحدى بواخر شركة المسِيجيرى ماريتيم تقلنا إلى القسطنطينية، ومنها نواصل رحلتنا إلى القدس. وقام أبي بإعداد كل شئ، بينما رحت أتطلع للقاء ذلك الرجل العجوز الشهير الذي سمعت الكثير عن مغامراته، ولكنه - للأسف - لم ينشر قصة حياته.

وصلت أنا وهيلدا إلى القسطنطينية والتقينا بجدّي الذي اصطحبنا إلى منزله في حي (بيره)، وهو مبنى قديم فاخر الأثاث. وكان جدّي يرتدى نظارة، أشيب الرأس. وكانت زوجته الثالثة (أرن) وهي يونانية، في حوالي الثلاثين من عمرها في ذلك الوقت. وكانت رقيقة جداً معنا. وكانت لا تعرف إلا القليل من اللغة الإنجليزية، ولذلك كانت اللغة التركية هي المستخدمة داخل المنزل.

وكان لجدّي صديق عظيم هو عثمان غازي باشا، المدافع الشهير عن قلعة بليفنا أثناء الحرب التركية - الروسية الثانية، والذي تناول الغداء معنا مرتين على مدى الأسبوع الذي أمضيته هناك. وكان من المدهش أن نرقب جدّي وهو يتحدث مع الباشا الذي تقدمت به السن، ثم يترجم لي ما يدور بينهما أولاً بأول. وعرفت من جدّي أنه ساهم هو الآخر فيما جرى من أحداث أثناء الحصار، وأنه حضر استسلام عثمان غازي باشا للقيصر نيقولا الأول بعد طول المقاومة. ولكن نظرًا لأنه كان طبيبًا في السفارة البريطانية في عام ١٨٧٦م، عندما انتحر السلطان عبدالعزيز، كان من الصعب التوفيق بين القصة الأولى وهذا القول، إلا إذا كانت الأوامر قد صدرت إليه من السفير البريطاني بمصاحبة جيش عثمان باشا إلى بليفنا، وهو أمر بعيد الاحتمال. ولكنٍ من المؤكد أن هذه الصداقة الحميمة التي جمعت بينه وبين عثمان واستمرت طويلاً، بدأت في ذلك الوقت.

وسواء كان جدّي حاضرًا هذا الحصار أو لم يكن، فقد كان وصفه حيًا ودقيقاً إلى أقصى حدّ. ففي ٢٤ من أبريل ١٨٧٧ أعلنت روسيا الحرب على تركيا، واندفع عثمان باشا غازي على رأس أربعين ألف مقاتل ليتخذ مواقعه في

قرية بليفنا، التي تقع مباشرة على خطوط مواصلات الجيش التركي – الروماني في زحفه إلى القسطنطينية، الأمر الذي استحال معه على القيصر نيقولا أن يواصل تقدمه قبل أن يتخلص من هذا الخطر التركي. ونجح عثمان في دحر هجوم بعد هجوم من جانب جيش يتفوق عليه تفوقا ساحقا، ولمدة أربعة أشهر كاملة، بحيث أتاح لبريطانيا وفرنسا الوقت اللازم لوصول قواتهما لمساعدة تركيا، وحدثنا جدّي أيضًا عن محاولة عثمان الأخيرة لشق طريقه بالقوة واختراق خطوط العدو الذي يحاصره، ثم عن استسلامه في ١٠ من ديسمبر؛ فرغم ما أصابه من جروح شديدة، استسلم بنفسه للقيصر نيقولا الذي أعاد له سيفه وهو يقول: "لقد دافعت دفاعًا بالغ الروعة، وأنا أعيد السيف لرجل شجاع".

وكم كان ممتعًا أن استمع لجدّي وهو يروي كيف يُسمح له بعد الاستسلام برعاية العدد الذي لا حصر له من الجرحى الأتراك، وعن المشهد الختامي لحرب قصيرة ومريرة.

قال عثمان باشا: "في تلك الأيام، كان المقاتلون الأتراك، والضبّاط على وجه الخصوص، من نوعية ممتازة حقا، أما اليوم فهم يتوجهون بالعشرات إلى برلين لتلقى التعليم العسكري؛ ولكن هل ستعود علينا أي فائدة منهم؟ أعتقد أن الأمر على عكس ذلك. إنهم يتعلمون شرب الخمر، والميسر، وممارسة نوع صاخب من الحياة، لقد فقدوا الروح القديمة العظيمة التي تميزت بالولاء بين الضباط والجنود، ولم تعد هناك روح الفريق التي كانت واضحة تمامًا بين الضباط العثمانيين في غابر الأيام".

وهكذا، فحتى في أيام جدّي، كانت الانتقادات توجه لمحاولات تغريب شباب بلدان الشرق.

كان جدّي يأسرنا كل ليلة، ولساعات طويلة من النهار، بالحديث عن ذكرياته، وقال إنه لم يكتب قصة حياته لأنه لم يكن لديه متسعٌ من الوقت، ويبدو لي أنه كان يشعر بأنه لن يراني مرة أخرى ولذلك كان حريصًا على أن أعرف وأن أسجل بعضًا من تجاربه المثيرة والمدهشة قبل أن ينتهي به الأجل.

وحدثني جدّي فروى كيف استولت عليه فكرة كتابة دراسة عن موضوع الرق في أفريقيا وكيف يتم جلب الرقيق من داخل القارة ونقلهم للبيع في الأسواق في تركيا، ومصر، وشمال أفريقيا، وآسيا الصغرى، وشبه الجزيرة العربية، وذلك

بعد حصوله على درجته العلمية في الطب من لندن وأدنبرة. كان يريد أن يسجّل اسمه بين المشاهير، لأن الغرب كان يزداد إدراكا يومًا بعد يوم لما يقترن بتجارة الرقيق من فظائع وأهوال، حتى أصبحت قضية تحرير الرقيق هي السائدة في كل مكان، وبعد أن أنهى دراسته، عاد إلى طرابلس عاقدًا العزم على الحصول على معلومات مباشرة حول الموضوع.

ومن أجل تحقيق بغيته، انضم إلى ركاب حملة عربية لتجارة الرقيق، واجتاز منطقة الصحراء التي لا يعرف الأوربيون شيئًا عنها على الإطلاق حتى اليوم، وبعد عدّة أشهر من المشاق واحتمال الحرارة التي لا تُطاق، والعواصف الرملية، وصل هو ومن معه إلى بحيرة تشاد، وهي تجمعٌ ضخم للمياه في قلب القارة على حدود نيجيريا، وأعتقد أن اسمه سُجل في وزارة المستعمرات بصفته أول من قام بهذه الرحلة الكبرى، والتي التقى أثناءها ببعض الضباط البريطانيين على شاطئ البحيرة؛ وإن كنت غير متأكد من ذلك.

ومن بحيرة تشاد، رافق مجموعة أخرى من تجار الرقيق وواصل رحلته جنوبا في إقليم الكونغو وأرض الأقزام. وأخيرًا، وبعد ثلاثة أعوام من التجوال والترحال، وصل إلى ساحل المحيط الهندي، وشاهد شلالات زمبيزي الكبرى وهو على الطريق، منضمًا، في تلك الرحلة، إلى مجموعة ثالثة من تجار الرقيق العرب الذين وفدوا إلى تلك المناطق قادمين من مُمباسا. أما الجزء الأخير من الرحلة، والذي انتهى في السويس، فكان على متن إحدى الداوات التي اكتظت بالرقيق المتجهين للسوق المصرية؛ كما قال.

وأضاف جدّي: " حصلت على المادة التي كنت أسعى للحصول عليها، ولكن الأمر تطلب منّي ثلاثة أعوام من أشقّ التجارب وأكثرها قسوة، والتي لا يمكن لإنسان أن يصمد أمامها، وقد جلبت معي قزمًا وأحضرته إلى طرابلس."

حدث كل ذلك قبل أن يلتقي ستانلي بلفنجستون في جوف القارة الأفريقية، وليثير دهشة العالم لغرابة قصته.

وقال جدّي: "قبل ثلاثين عامًا، كنت عازفا عن أن أبلغ العالم أنني كنت هناك، وذلك لعدة أسباب: أهمها حالة الثورة والغليان التي وجدتها في الشرق الأوسط وتركيا عندما عدت إلى طرابلس."

كانت مصر قد ثارت ضد تركيا. وأعلن محمد على باشا استقلاله، وتحت

قيادة ابنه العظيم، إبراهيم باشا، أخذت قواته تواصل زحفها. واستجابة للنداء الملّح الذي أصدره السلطان محمود الثاني لطلب المساعدة وفتح باب التطوّع، توجه جدّي إلى القسطنطينية وانضم إلى الجهاز الطبّي للجيش التركي. وبعد تقلباتٍ عدّة، وجد نفسه، في أوائل ١٨٣٩م يعمل تحت رئاسة حافظ باشا المكلف بمهمة وقف زحف إبراهيم باشا إلى الشمال نحو القسطنطينية. وكان رفيق جدّي في خيمته وصديقه العظيم في ذلك الوقت ضابطًا ألمانيًا شابًا من سلاح المدفعية يدعى فون مولتكه.

ومن خلال سلسلة من الضربات الرائعة المتلاحقة، كان إبراهيم باشا قد احتل فلسطين، وسوريا، وما أن استولى على حلب ودعّم مواقعه، حتى بدأ الاستعداد لمواصلة الزحف شمالاً، فالتقى به الجيش التركي عند نصيب Nazib بالقرب من الفرات وعلى بعد حوالي السبعين ميلا شمال شرق حلب.

وكما يقول جدّي، كان حافظ باشا يفتقد كليةً كل الصفات التي ينبغي توفرها في القائد، وكان يؤمن باستطلاع النجوم وغير ذلك من السخافات؛ وشرع في الدخول في مناورات مضادة انتظارًا للخطة التي تحددها الأفلاك كتوقيت مناسب لخوض المعركة. وكان لهذا المسلك آثاره المريرة على مرؤوسيه من القادة الأتراك الذين عبّروا عن سخطهم منذ البداية.

وسرعان ما كانت النهاية. فبعد سلسلة من المناورات الرائعة، وجه إبراهيم باشا – رغم التفوق العددي للأتراك بما يعادل الضعف – ضربةً مباغتة وقاصمة في ٢٤ من يونيو، وهزم قوات حافظ باشا هزيمة ساحقة، أمّا ما أعقب ذلك من تطورات فهو، كما يقول جدّي، مما لا يمكن وصفه. لم تكن هناك أي فكرة للصمود أو بناء خط ثان للدفاع. وولّى الجيش التركي كله الأدبار طالبا النجاة والسلامة. وكان وضعًا يثير الرّثاء والبكاء، بكل معنى الكلمة.

وهرب جدّي من الميدان مع فون مولتكه ليجدا الأمان والمأوى في إحدى قرى الأرمن، وبها أصيب فون مولتكه بحمىً التيفود فعالجه جدّي إلى أن برأ من مرضه الذي استمر طويلاً، وهكذا قدّر لهذا الضابط الألماني الشاب أن يعيش ليكون قائدا للجيش الألماني الذي هزم فرنسا في ١٨٧٠ – ١٨٧١. ويذكر فون مولتكه في رسائله إلى أخيه الطبيب الإنجليزي الذي أنقذه من الموت. وإني لأتذكر جيدا جدّي العجوز وهو يضحك متعجبًا ويقول: "تُرى ماذا كان الفرنسيون سيقدمون لي لأترك فون مولتكه ليموت بعيداً في أرمينيا التركية؟"

وبعد سبعة أيام من المعركة، توفي السلطان محمود. وكان الوضع متدهورًا إلى الحدّ الذي دفع السلطان الجديد إلى مناشدة إنجلترا وفرنسا، بل وحتى روسيا. لإنقاذه من مصر. وعلى الفور، استجاب الجميع لمناشدته، ونزل جيش بريطاني - فرنسي في بيروت، وتم احتلال دمشق، وأجبر إبراهيم باشا على التوقف، وقطعت خطوط مواصلاته، ولما كان جنديًا يعرف جيدًا معنى القتال، وافق على الشروط التي عرضت عليه، وارتد نحو الجنوب إلى لبنان التي سمح له بالاحتفاظ بها لبعض الوقت.

وكانت تلك هي أيام السيدة هيستر ستانهوب الشهيرة، ابنة أخت بيتّ، التي مدّت يد المساعدة من منزلها في عرجون، بالقرب من بيت الدين، إلى العديد من الجنود الأتراك والألبان اللاجئين منذ المعارك الأولى في سوريا ولبنان، وبسطت عليهم رعايتها رغم كل اعتراضات إبراهيم باشا.

وتحدث جدّي بالتفصيل عن انتحار السلطان عبدالعزيز في عام ١٨٧٦، وكذلك المحاكمة الكبرى لمدحت باشا في عام ١٨٨١م والتي اتهمه فيها السلطان عبدالحميد كذبًا باغتيال السلطان عبدالعزيز. وكان جدّي أحد الأطباء السبع عشرة الذين سمعت أقوالهم حول أسباب وفاة عبدالعزيز.

وفيما يلي فقرة أنقلها من كتاب "حياة مدحت باشا"، من تأليف ابنه علي حيدر مدحت : "... وعندما صدر الأمر باقتحام الغرفة، وجدوا عبدالعزيز جالسا في الوضع الذي سبق وصفه، وسط بركة من الدماء التي تسيل من جرحين في ذراعيه، كان من الواضح أنهما نتجا عن استخدام مقص سقط بجانبه على الأرض. ولم يكن في وسع الأطباء الذين استدعوا على عجل إلاّ أن يؤكدوا أن روحه قد فاضت، وعلى الفور، أمر الوزراء - الذين سَعِدُوا لهذه المأساة - بإجراء فحص عاجل للجثمان يشترك فيه كل من يوجد في فلسطين من العاملين في مجال الطب، فاجتمعوا على وجه السرعة لإصدار تقرير حول الموضوع، ووقع سبعة عشر رجلا من جنسيات مختلفة، ومن أبرز الشخصيات في المدينة وفي سفارات الدول الكبرى، بيانًا يعلنون فيه بالإجماع أن الوفاة كانت بلا شك نتيجة للانتحار".

عندما طُلب إعدادُ تقرير عن الحالة العقلية للسلطان مراد، كان أحد الأطباء الستة، وكان أربعة منهم من سفارات بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والنمسا

والمجر، الذين أوكلت إليهم هذه المهمة. وبعد الفحص، كان رأيهم أنه: "لو استردّ السلطان قواه العقلية بعد فترة طويلة، وهو ما يتعارض مع كل التوقعات، فهي لن تعود أبداً إلى حالتها الطبيعية".

وفى يوم ٦ أبريل ١٨٨٣ ، وفى الساعة الواحدة والنصف مساءً، وبأمر مباشر من السلطان عبدالحميد - الذي خلف مراد - خُنِقَ مدحت باشا في غرفة نومه في الطائف، ومعه رفيقه في السجن عماد محمود باشا. وكان الضابط الذي نفذّ هذا الأمر هو المدعو الرائد بكير، من الفصيلة الثالثة بالفرقة الأولى، المكلفة بحراسة المسجونين.

وأخبرني جدّي أنه رفض بعد ذلك أن تكون له أي علاقة بالسلطان عبدالحميد الذي كان شريرًا من كافة الأوجه. وقبل ذلك، كان جدّي يعمل دائمًا كطبيب خاص للسلاطين، كما تولى علاج مدحت باشا، وكان من أصدقائه، عدّة مرات.

هذه هي بعض القصص التي سمعتها من جدّي وسجلتها في حينه، ثم توفى جدّي في ٢٧ من مارس من العام التالي.

الفصل السادس
نجد والكويت، ١٨٩٦ - ١٩١٧

مبارك يستولي على عرش الكويت - ابن سعود يستولي على الرياض - تدعيم العلاقات بين بريطانيا والكويت - احتلال القصيم - كنز إسرائيل - الإرسالية الأمريكية العربية - حدود الدولة - مولد دعوة الإخوان - ابن سعود يستولي على الإحساء - الكويت تنضم إلى الحلفاء - ابن سعود يساند بريطانيا - وفاة الشيخ مبارك - زعيم للإخوان - حسين يصبح ملكا على الحجاز.

مبارك يستولى على عرش الكويت:

في عام ١٨٧١ وافق عبدالله بن صباح آل صباح، شيخ الكويت منذ ١٨٦٦ وحتى وفاته في ١٨٩٢، على حمل لقب القائمقام الذي منحه له الأتراك. وعلى نفس النحو كان شقيقه محمد، الذي خلفه، غير ميّال لمعارضة الأتراك؛ ونظراً لضعفه وعدم كفاءته، سلم مقاليد الأمور في الإمارة، من الناحية العملية لشخصية عراقية[1] نشطة لا تهدأ ولا تكل، هي يوسف الإبراهيم، الذي جاء من البصرة، التي تقع على الضفة اليمنى لشط العرب. وكان يوسف، وهو من اكثر قومه ثراء وأعلاهم منزلة، مواليا للأتراك ويعمل لحسابهم بلا شك، ويأمل أن يأتي اليوم الذي يخلعون فيه آل صباح لتحلّ أسرته مكانهم. وكان جَراح، شقيق محمد، اكثر ضعفاً من محمد نفسه، بينما كان مبارك، الأخ غير الشقيق، شابًا عمليًا يتعصب حبًا لبلاده التي رآها تخطو بخطى سريعة نحو الدمار.

تحمّل مبارك كل هذه الأوضاع حتى عام ١٨٩٦، ثم ضرب ضربته فقتل أخويه غير الشقيقين واستولى على العرش. وهرب يوسف المخادع، فكان الانقلاب موجهًا ضدّه أساسًا، على متن إحدى الداوات ثم على ظهر جواد إلى أن وصل إلى البصرة ليبدأ على الفور مؤامراته ضد مبارك في تعاون وثيق مع الأتراك.

كان موقف الأتراك من شيخ الكويت الجديد في بادئ الأمر هو موقف الحياد والتودد. وفي شهر يناير ١٨٩٧، ووفقا لمشورة يوسف الإبراهيم عيّنوا، وبلا

(١) يوسف بن عبدالله الإبراهيم كويتيًا.

مبرر واضح، مباركًا قائمقامًا لهم في الكويت، ولكنه لم يسعد كثيرًا لهذا التشريف الذي لم يرِ فيه إلا مؤامرة للسيطرة على بلاده. وفى شهر فبراير، ذهب الأتراك إلى ما هو أبعد من ذلك فأرسلوا مسئولا من قِبَلهم لتولى إدارة الحجر الصحي في الكويت، فما كان من مبارك إلا أن طلب لقاء المقيم السياسي البريطاني بالخليج، أو من ينوب عنه، لمناقشة هذه التطورات. وفى شهر سبتمبر، وصل إلى الكويت أحد معاوني المقيم فأبلغه مبارك أنه يودّ، هو وقومه، الدخول تحت الحماية البريطانية لتجنب ضم الأتراك بلادهم إلى ممتلكاتهم، ولم توافق حكومة صاحبة الجلالة على هذا المطلب، الذي تقدم به مرة أخرى في العام التالي، فقوبل أيضًا بالرفض، وفى شهر يناير ١٨٩٩ وقع مبارك اتفاقية يلتزم بمقتضاها هو وخلفاؤه من بعده، بعدم التخلي عن أي جزء من أراضيه بدون موافقة الحكومة البريطانية التي تعهدت، من جانبها، بمساعدته هو وخلفاءه من بعده وأن تقيم معهم علاقات وديّة طالما تصرفوا وفقا لما التزموا به في هذه الاتفاقية.

وفى شهر مايو من ذلك العام، أنشأ الشيخ مبارك إدارة للجمارك بالكويت، وبدأ تحصيل رسم مقداره ٥٪ من قيمة جميع الواردات، بما في ذلك الواردات القادمة من الموانى التركية. وعندما وصل مسئول تركي في شهر سبتمبر ليتولى إدارة الميناء، وبرفقته خمسة من الجنود، رفض الشيخ مبارك استقبالهم، فلم يكن أمامهم إلا العودة إلى البصرة. وفى شهر مايو ١٩٠٠، وافق مبارك على حظر استيراد وتصدير السلاح، وأصدر بلاغا بهذا المعنى جاء فيه أن جميع السفن التي يشتبه في حملها للسلاح سوف تكون عرضة للتفتيش، مع مصادرة كل ما يعثر عليه من سلاح.

في ذلك الوقت، كان عبدالرحمن بن فيصل آل سعود وأبناؤه الأربعة لازالوا يعيشون في منفاهم بالكويت، ضيوفا على الشيخ مبارك، الذي يرجع إليه الفضل في الإعداد السياسي لعبدالعزيز آل سعود، الحاكم المقبل للعربية السعودية، واتجاهاته الموالية لبريطانيا، وفى خريف ١٩٠٠ قاد مبارك، ولمصلحة آل سعود، غزوة لافتة للنظر في قلب شبه الجزيرة العربية حيث كانت السيادة لعبدالعزيز آل رشيد، سادس أمراء حائل. وفى أوائل عام ١٩٠١م وقع اشتباك عنيف مع قوات آل رشيد عند الصريف، بالقرب من بريدة، وحاقت الهزيمة بمبارك وقتل اثنان من أهل بيته؛ شقيقه الأصغر حمود بن صباح آل صباح، وصباح، الابن الأكبر لحمود.

ونتيجة للأخطار التي تبدّت واضحة في ظل هذا الوضع الجديد، أخذ

مبارك يسعى مرة أخرى للتقارب مع المقيم السياسي بالخليج. وبوساطة من قائد السفينة الحربية سفنكس، طلب من الحكومة البريطانية فرض الحماية الدائمة على الكويت في أقرب وقت ممكن، ولكن طلبه قوبل بالرفض كما سبق أن قوبل في محاولاته السابقة.

ابن سعود يستولي على الرياض:

شهد عام ١٩٠١ حدثاً أدّى إلى عودة أسرة آل سعود إلى نجد ووسط شبه الجزيرة العربية، عندما خرج الشاب عبدالعزيز آل سعود، وهو لايزال في العشرينات من عمره، عاقداً العزم على تأسيس مملكة بمساعدة الشيخ مبارك، يرافقه أربعون فحسب من أنصاره، من بينهم شقيقه الصغير محمد، واثنان من أقاربه هما عبدالله بن جلوي آل سعود وعبدالعزيز بن مساعد آل سعود. وبعد أن نجح في تجنّب لقاءٍ القوة الرشيدية التي حاولت قطع الطريق عليه في الباطن، على بعد مائتي ميلاً غرب الكويت، وصل مع جماعته خُفية إلى الرياض فكمنوا خارجها بين أشجار النخيل لمدة يومين.

وقصة استيلاء عبدالعزيز على القلعة الكبيرة في وسط المدينة أشبه ما تكون بالقصة الخرافية، وهي تقدم – أفضل من أي شئ آخر – صورة واضحة لشخصية هذا الرجل غير العادي، فعندما اكتشف أن عجلان، الحاكم الرشيدي للمدينة، له زوجة أنزلها في مسكن على بعد خمسين ياردة من القلعة، على الجانب الآخر من أحد الميادين، تسلل عبدالعزيز في الليلة الثالثة، وبكل هدوء، إلى منزل السيدة ومعه ثلاثة وعشرون من رجاله الأربعين، عن طريق السطح، وأكد للمقيمين بالدار أنه لن يمسّهم أي سوء إذا التزموا الصمت انتظاراً لبزوغ الشمس ومطلع الفجر.

وخرج عجلان من القلعة في الوقت المحدد كعادته، فانتظر عبدالعزيز إلى أن اجتاز نصف الطريق عبر الميدان، ثم اندفع نحوه هو ورجاله، وبدلاً من أن يتوقف حاول عجلان الفرار وهرع راجعاً إلى القلعة وهو يصرخ طالباً فتح البوابة الصغيرة، فسدد عبدالله بن جلوى نحوه رمحا صغيراً كان يحمله، ولكنه أخطأه. وفتحت البوابة الصغيرة التي يبلغ ارتفاعها قدمين، وتعلو عن سطح الأرض بمقدار نصف قدم، فسنحت الفرصة للمطارَد والمطارد معاً بالاندفاع إلى الداخل، وأمسك عبدالله بن جلوى عجلان من ساقه، وطرحهَ أرضاً داخل البوابة مباشرة، وقتله، ثم جاء عبدالعزيز فقطع رأسه وألقى بها من فوق أسوار القلعة وهو يصيح: "من يقف إلى جانبي .. منْ؟ ها هو أميركم قد رُدّ إليكم!".

وبعد أن أحكم عبدالعزيز قبضته على البوابة ,طلب من الحامية أن تستسلم، واستسلمت الحامية ومن بعدها استسلم سكان الرياض جميعًا، وبادر عبدالعزيز بوضع المدينة في حالة الدفاع، وعندما ظهرت قوات ابن رشيد أمامها بعد بضعة أيام، وجدت أنها أشد مناعة من أن تقتحمها، فانسحبت صاغرة ونجح عبدالعزيز في مطاردتهم بالقوة حتى القصيم.

وانتشرت الأنباء في جميع أنحاء نجد كانتشار النار في الهشيم، وهرع الجميع للإعلان عن ولائهم لآل سعود، وبكل حكمة، انتحى عبدالرحمن العجوز جانبًا، وقبِل أن يتولى ابنه الإمارة.

وفي شهر مارس ١٩٣٥ قال لي أحد هؤلاء المشاهير الثلاث والعشرين: "أهٍ يا آبا سعود كانت تلك أيامًا مجيدة، جديرة بأن يدفع المرء حياته ثمنـًا كي يشهدها، ومازلت حتى الآن أستطيع أن أرى ابن سعود وهو يتأهب للخروج من مسكنٍ زوجة عجلان على الجانب الآخر من الميدان، كمْ كان رابط الجأش متماسكاً لكل حواسه. لقد رأيته يزيح عقاله (غطاء الرأس) ويربط كوفيته حول رأسه وعنقه، ثم ربط الكمين الطويلين لدشداشته بكل عناية، حول مؤخر رقبته".

تدعيم العلاقات البريطانية مع الكويت:

وصلت السفينة الحربية التركية "زحاف" إلى الكويت في شهر ديسمبر ١٩٠١ ووجَهت إنذارًا للشيخ مبارك تطالبه فيه باستقبال فصيلة عسكرية تركية في الكويت، وإلاّ فعليه أن يغادر العاصمة ويتوجه إلى القسطنطينية متخليًا عن منصبه، ورد مبارك بطريقة مهذبة، ولكن مع رفض الإنذار، وانسحبت "زحاف". وفي أواخر نفس الشهر، كان هناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مؤامرات يوسف الإبراهيم على وشك أن تؤتي ثمارها عندما تبين أن ثمة خططًا تُرسم وتُدبَّر بليل لشن هجوم بري على الكويت تشترك فيه قوة تركية من البصرة ومجموعات من القبائل تحت قيادة عبدالعزيز آل رشيد، من ناحية حائل. وعلى الفور، اتخذت القوات البحرية البريطانية في الخليج مواقعها للتعاون في الدفاع عن الكويت، وهو إجراء نجح بالفعل في وقف محاولات ابن رشيد الذي انسحب إلى موطنه في الصحراء ورفض الأتراك أن يقاتلوا بمفردهم، فقفلوا راجعين إلى البصرة.

وكان الهجوم المباشر الأشد خطورة الذي يتعرض له مبارك هو ذلك الذي

جرت الاستعدادات له في خريف ١٩٠٢، يُقال إن يوسف بن عبدالله الإبراهيم كان هو الرأس المدبرة لهذا الهجوم، وأنه كان يهدف إلى الاستيلاء على الكويت بضربة مفاجئة. ونزلت قوة ضخمة من قبيلة الشريفات وغيرها من العرب في الدورة على شط العرب، تحت قيادة حمود ابن أخ مبارك وابن جراح آل صباح، الذي اغتاله مبارك ليلة توليه الإمارة. وبلغت هذه الأنباء قائد السفينة الحربية البريطانية وهو في الفاو في ٣ ديسمبر، فبادر بالتوجه إلى الكويت على الفور ليحذر أهلها من الخطر القادم، فوجد المدينة تحت السلاح استعدادًا للدفاع.

وبدأ البحث عن العدو، ولكن دون نجاح في بادئ الأمر، ولكنه اكتُشف يوم ٥ من ديسمبر، وهو ينزل رجاله إلى البر عند رأس العجوزة، شرق مدينة الكويت مباشرة. وقامت الزوارق المسلحة والمرافقة للسفينة لابوينج بمطاردة بغلتين كبيرتين تحملان مائة وخمسين من المقاتلين المسلحين بالبنادق. وبعد قتال عنيف، أُسرت البغلتان بكل ما تحملانه من مؤن وسلاح وذخيرة وسلالم لتسلق الأسوار، وهربت حوالي خمسين قطعة بحرية مساعدة إلى خور عبدالله وتوارت عن الأنظار. ولم يتمخض التهديد بالغزو عن أي شئ تمامًا كما حدث أيام مريم الجميلة وسالم الشجاع.

وجاءت الزيارة التي قام بها اللورد كيرزون، نائب الملك بالهند للكويت في نوفمبر ١٩٠٣م، لتؤكد النفوذ البريطاني في الكويت، ولتسلط الأضواء على العلاقات الودية بين الشيخ مبارك والحكومة البريطانية، وفى عام ١٩٠٤ وافق مبارك على عدم السماح لأي حكومة أخرى بإقامة مكتب للبريد في بلاده. وتمت الموافقة في يونيو ١٩٠٤ على تعيين وكيل سياسي بريطاني بالكويت، ووصل أول من شغل هذا المنصب في شهر أغسطس من نفس العام.

وفى عام ١٩٠٧ وافق مبارك على أن يؤجر للحكومة البريطانية وإلى الأبد، مساحة من الأرض على بعد حوالي الميلين غرب مدينة الكويت، على المنطقة الساحلية بين بندر الشويخ والمدينة، مقابل ستين ألف روبية في السنة. ونتيجة لهذه الخطوة، حصل البريطانيون على مرسىً آمن تتوفر له الحماية الطبيعية، وإن كان هناك بعض الشك في أن المقصود كان هو مواجهة مشروع خط سكة حديد برلين-بغداد الاستراتيجي الذي كان من المقرر أن يمتد إلى البصرة، مع طرح الكويت كأحد الخيارات لتكون نقطة نهاية له. وكان من المفترض أن

يؤدى تحصين المنطقة المؤجرة. وتحويل بندر الشويخ إلى قاعدة بحرية بريطانية أو محطة للفحم إلى ضمان سيطرة حكومة صاحبة الجلالة، بشكل فعّال، على ميناء الكويت، وإدخال الطريق البحري حتى رأس كاظمة، وهي الموقع المقترح كنقطة نهاية للخط الحديدي على الجانب الشمالي من خليج الكويت، في إطار المدى المؤثر لنيران القوات البريطانية.

وعندما حصلت الحكومة البريطانية على هذا العقد، أكدت للشيخ مبارك في نفس الوقت أنها تعترف بأن دولة الكويت وتخومها (حدودها) تدخل ضمن أملاكه هو وكل من يخلفه من بعده، وأن جميع الإجراءات بما في ذلك فرض الجمارك ... الخ، ستظل من اختصاصه هو وكل من يخلفه من بعده، وأنها لن تفرض أي رسوم في المنطقة المؤجرة أو أي أراض أخرى قد تستأجرها في المستقبل منه أو من خلفائه من بعده. وكان من حق الحكومة البريطانية أن تتخلى عن عقد الإيجار في أي وقت، وهو ما حدث بالفعل في عام ١٩٢٢ عندما تبدد الخطر التركي الألماني، ولو أن التاريخ أعاد نفسه، وهو ما دأب عليه دومًا، فلاشك أن بريطانيا سوف تتذكر الخطر القديم من جديد وتتخذ الإجراءات الوقائية اللازمة بالتعاون مع حليفتها الصغيرة الكويت.

احتلال القصيم:

كان ابن سعود – الذي بات معروفًا في جميع المقاطعات الجنوبية لنجد – قد زحف متوجهًا إلى القصيم في عام ١٩٠٤ ورغم اضطراره إلى التراجع مؤقتًا أمام قوة تركية بقيادة أحمد فيظى باشا جاءت لمساعدة ابن رشيد، إلا أنه نجح في تحقيق هدفه في عام ١٩٠٦م، عندما أجبر أحمد فيظى على التقهقر والارتداد إلى المدينة، ونصّب سعد الابن الأصغر لابن سعود حاكمًا على القصيم.

وفى شهر إبريل ١٩٠٦ لقي الأمير عبدالعزيز آل رشيد مصرعه، صدفةً، في صدام مع جيش ابن سعود، فخلفه ابنه الأكبر "متعب". ويمكننا إدراك طبيعة فترة الفوضى التي بدأت في حائل في ذلك الوقت إذا ألقينا نظرة على شجرة أسرة آل رشيد (الفصل الثاني)، وما حفلت به من اغتيالات. وفى خاتمة المطاف، تمكن محمد سعود في عام ١٩٠٨ من توطيد أقدامه تمامًا. وظل حاكمًا لحائل حتى عام ١٩٢٠ عندما اغتاله عبدالله بن طلال آل رشيد.

وفى عام ١٩١٠ كان على ابن سعود أن يواجه الخطر من الخارج ومن

الداخل في آن واحد، عندما هب بعض المطالبين بالعرش من أحفاد عمه سعود الذين عرفوا باسم العرافة، أي المعترف بهم - ثائرين في خرج وحائل. وفى نفس الوقت، ظهر عبدالله، ابن حسين شريف مكة، في القصيم، ليعلن دون مواربة مؤازرته لقبيلة عتيبة في مطالبتها بحقوقها التي تتهم ابن سعود بانتهاكها. وألقي القبض على سعد آل سعود وأودع السجن، أما عبدالله فعندما وجد أن محمد سعود آل رشيد الذي كان يعول عليه لا يبدى أي ميل للتعاون معه، ارتد مرة أخرى إلى حائل، ولكن ليس قبل أن يحصل على وعد من ابن سعود بالمساهمة بأربعة آلاف جنيهًا كل عام لمواجهة احتياجات مكة، وبأن يسمح للقصيم باختيار حكامها. وعلى مضض، وعدَ ابن سعود أن يلتزم بهذه الشروط بكل أمانة. ولسنا في حاجة إلى القول بأنه لم يحدث أي التزام بأي وعد، تذرعًا بأن عبدالله تقدم بمطالبه وهو يتصور أن التمرد في جنوب نجد سوف يحتم على ابن سعود أن يقبل الشروط.

وعندما رحل عبدالله، تحول ابن سعود باهتمامه إلى خرج وحائل، وسرعان ما تمكن من سحق التمرد، وأخذ يطارد العصاة بكل ضراوة من مدينة لأخرى في جميع أنحاء نجد، إلى أن قضى عليهم تمامًا، كما ثأر لنفسه أيضًا من عتيبة لدعوتهم عبدالله للمجيء إلى القصيم، متذرعًا بأنهم يأوون بعض من يطاردهم من المتمردين.

وبعد ذلك تمكن ابن سعود من إجبار القصيم على الإذعان له، تارة بالقهر المباشرة، وتارة بالوسائل الدبلوماسية. وهو لايزالِ يحتفظ حتى الآن بقوة كبيرة في القلعة الشمالية في بريدة على الطريق إلى جيل شمر.

كنز إسرائيل:

بعد أن تخرجت من كلية وادهام، جامعة أكسفورد، عُينت بالكتيبة للحرس (٨٨ مشاة) في إيرلندا في عام ١٩٠٣م، ثم نُقلت إلى الكتيبة الثانية (٩٤ مشاة) في العام التالي، ثم ألحقت في عام ١٩٠٨م بالجيش الهندي (الفرقة ٢٩ حملة الرماح بسلاح الفرسان (Deccan Horse). وفى عام ١٩١١ حصلت على إجازة لمدة ستة أشهر، فقررت أن أقضي الجزء الأول منها في إنجلترا، على أن أمضى الشهرين الأخيرين مع أمي وشقيقتي في القدس، والتي استمروا على إقامتهم بها بعد وفاة أبي عام ١٩٠٦ ودفنه في المقابر البريطانية على جبل صهيون.

وبينما أنا في طريقي إلى إنجلترا وصلت إلى عدن على متن إحدى بواخر شركة P&O، في منتصف إبريل ١٩١١ فوجدت في انتظاري برقية من أمي تلح علي فيها أن أقطع رحلتي عند بورسعيد وأن أتوجه إلى القدس، نظرًا لما تتوقعه من أحداث هامة وغريبة سيكون لها أبلغ الأثر بالنسبة لها ولشقيقتي.

وانصعت لرغبة أمي، وعندما وصلت إلى بورسعيد، انتقلت إلى إحدى البواخر الخديوية، ونزلت في يافا، ومنها اتجهت إلى القدس بالقطار، ووجدت الأسرة على خير حال. كانوا يعيشون في منزل سبق أن اتخذه الأسقف الأنجليكاني بالقدس مقرًا له، ويقع خارج البوابة الكبيرة المميزة للقنصلية الروسية مباشرة، تلك البوابة التي لا تبرح صورتها ذاكرتي منذ طفولتي قبل أن أذهب لتلقى دراستي في إنجلترا.

ولكنى وجدت القدس تغلى بالتوتر، والصخب والضجيج في كل مكان، والمتاريس أقيمت على مداخل الشوارع الجانبية والقوات التركية تتجول دورياتها بلا انقطاع، ليلاً ونهارًا في المدينة القديمة والطرق العامة الرئيسية خارج الأسوار. وكان من الواضح أن حالة الحصار الدائم قد فرضت على المدينة.

ولم يتطلب الأمر منى وقتًا طويلاً لإدراك ما وراء كل ذلك، لأن أمي كان لديها العديد من الأصدقاء الذين كانوا يتوقون إلى الإسراع بتعريفي بكل شئ. وكان من بين هؤلاء الأصدقاء أحد الآباء الدومينيكانيين، وهو قس يوناني مهذب كان يعلم شقيقتي لغته، والكاهن المقيم لكنيسة المسيح وأسرة أسقف كاتدرائية القديس جورج، ومجموعة من العاملين بها، وأخيرًا وليس آخرا كان من بينهم المدير المحلى لشركة "توماس كوك وأولاده"، الذي لن أنسى ما حييت تعاطفه الرائع مع أمي وشقيقتي وقت الشدة في أعقاب وفاة أبي.

وأجمع هؤلاء الأصدقاء على تفسير واحد، وهو أن المدعو الكابتن (P) (ربما كان في ذكر اسمه كاملاً ما يبعث على الأسى رغم انصرام حقبة طويلة من الزمن)، قدم الكثير من خدماته وأمواله هو واثنين آخرين من المغامرين الإنجليز، لعالم فنلندي هو الدكتور والتر جوفيليوس، كان يعمل مساعدًا لمهندس سويدي يدعى ملندار، وكان الدكتور جوفيليوس يعتقد أنه - هو وملندار - قد اكتشفا شفرة أو رسالة سرية في سفر حزقيل تشرح على وجه الدقة أين خبأ كهنة المعبد كنز إسرائيل قبل سقوط القدس في أيدي الغزاة البابليين عام ٧٥٠ ق.م، وتحدد مواقع

مدافن ملوك إسرائيل، ويهوذا، وقبر داوود وسليمان، والتي لم يعثر أحد على أثر له حتى الآن. كما قيل أن الكنز يشمل تابوت العهد وسيف سليمان وعرشه، وألواح الوصايا العشر، وثلاثة آلاف درع من الذهب وما إلى ذلك، أي أنه في مجموعه اكتشاف لا يقدر بثمن، وتقدر محتوياته بحوالي خمسين مليون جنيه.

وطوال عامي ١٩٠٩ و ١٩١٠ ظل الدكتور الفنلندي وجماعته يعملون دون أن يسترعوا انتباه أحد، لأن محاولتهم كانت تجرى خارج أسوار المدينة على سفح جبل أوفيل Ophel الرابض جنوبٍ شرق المدينة القديمة، وأما من ضمن ما يسعون إليه فكان يكتفي بالابتسام قائلاً أنهم مجموعة من الهواة، لا يمكنهم الخروج بشيء يُذكر، وأن عين السلطات التركية ترصدهم بكل دقة. وعندما استبد اليأس بهؤلاء المغامرين بعد أن أنفقوا مبالغ طائلة أغاروا على باحة مسجد عمر، وهي أرض مقدسة لدى المسلمين واليهود والمسيحيين جميعًا، واكتشف أمرهم وهم يحفرون نفقًا قديمًا أسفل قبة الصخرة نفسها، وهنا أفلت الزمام وتحولت المسألة إلى مسألة أخرى تمامًا.

واندلعت العاصفة عارمة وكانت القدس على وشك مواجهة هبة دينية يمكن أن تتحول بكل سهولة إلى مذبحة للمسيحيين واليهود، وللرجال والنساء من الإنجليز بكل تأكيد وإن كان هذا لم يحدث، فالفضل يرجع للحامية القوية من القوات التركية التي هرعت إلى المدينة للمحافظة على النظام أثناء عيد الفصح عند المسيحيين، وعيد الفصح عند اليهود ومولد النبي موسى والتي تصادف أن حان موعد جميع هذه الأعياد في وقتٍ واحد ذلك العام.

وسارع الكابتن (P) وزملاؤه بالفرار إلى حيفا، ومنها ركبوا يختًا خاصًا بهم، وولوا الأدبار في جُنح الظلام. وبعد أن أمضيت شهرًا في القدس غادرتها لأواصل إجازتي في إنجلترا.

الإرسالية الأمريكية العربية:

شهد عام ١٩٠٩ إنشاء فرع في الكويت للإرسالية الأمريكية العربية التابعة للكنيسة الهولندية الإصلاحية، وإن كنت سأقدم فيما يلي وصفًا لبعض جوانب الحياة في مدينة الكويت في عام ١٩١٢، فلابد من أن ننسب الفضل لذويه، السيدة إليانور تايلور كالفرلي، التي تعيش الآن في هارتلاند بولاية كونكتيكات، والدار التي تشرف على إصدار مجلة "رابطة العاملات الأمريكيات في المجال الطبي".

انطباعات أولى:

تقول السيدة إليانور في مقال ظهر على صفحات هذه المجلة في شهر أغسطس ١٩٥٠: "مازالت صورة الكويت ماثلة في ذاكرتي وبكل وضوح وبنفس الشكل الذي رأيتها عليه لأول مرة في يناير ١٩١٢، كان ذلك من على متن الباخرة التي أقلتنا من جُزر البحرين في رحلة نحو الشمال استمرت لمدة يومين، إلى أن وصلنا إلى مشارف الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية المطل على الخليج. كنا ثلاثة من أعضاء الإرسالية الشباب - الدكتور بول. و. هاريسون، وزوجي، وهو قس بروتستانتي ومدرس، وأنا، وكنا قد عينا للعمل في هذا الفرع الجديد للإرسالية العربية بعد نجاحنا في امتحانات اللغة العربية في السنة الثانية، وبينما كنت أقف هناك عند السياج المحيط بسطح السفينة أدقق النظر بعيني حتى لا يفوتني أول مشهد لظهور اليابسة رأيتها أخيرًا! من جوف الصحراء، وفيما وراء الأفق لاحت ملامح مدينة قليلة المساكن، وفي لون الرمال، ومن فوقنا كانت السماء زرقاء شديدة الزرقة، ومن تحتنا المياه الزرقاء للخليج وقد تناثرت عليها نقط بيضاء تنم عن أشرعة السفن، وعلى امتداد الشاطئ ألقى مراسيه صف ممتد من القوارب الشراعية في انتظار موسم الغوص على اللؤلؤ، وكان في ذلك الوقت المهنة الأساسية في ذلك المكان ولم يكن هناك في هذا المشهد كله شجرة واحدة أو رقعة خضراء، ومع ذلك فللكويت جمال من نوع خاص - جمال الرمال والسماء والبحر - وهي المدينة الصحراوية التي انعقدت آمالنا على أن نعيش فيها ونعمل لعدة سنوات قادمة.

وبدون إبطاء نزلنا إلى الشاطئ ورحنا نحث الخطى في شوارع غير معبدة، وكان علينا بين الحين والحين أن ننتحي جانبًا لنفسح الطريق لتمر الجمال والحمير وهي تحمل قربًا تتساقط منها قطرات من مياه الشرب التي لابد من جلبها إلى المدينة لأن مياه آبارها لا تصلح للشرب لشدة ملوحتها، وكانت النساء اللاتي صادفتهن على الطريق محجبات ويغطين رؤوسهن وأشبه ما يكن بصور البطاركة في العهد القديم.

وكانت المدينة تبدو وكأن منازلها جميعًا يحيط بها سور واحد ممتد شيد من الطين، ولكننا اهتدينا إلى المنزل الذي سنتخذ منه سكنًا ومستشفى في نفس الوقت، من خلال باب داكن اللون محكم الغلق يفتح في ذلك الجدار، ولم يكن للمنزل شأنه شأن أغلب المنازل العربية أي نوافذ تطل على الخارج. وكانت

الغرف تُفتح على ساحتين، واخترنا القسم الأكبر ليكون هو المكان الذي يمارس فيه الدكتور هاريسون عمله، واحتفظنا بعدد قليل من الغرف لإقامتنا جميعًا. وكانت الساحة الصغرى منعزلة ومن ثم تصلح كمكان لعلاج السيدات المسلمات. وقسّمنا إحدى الغرف التي تفتح على هذه الساحة إلى قطاعين بواسطة ستائر من القماش، أحدهما لتكون مكتبًا للطبيب، والآخر كغرفة للعمليات، وبسطنا حصيرة في الغرفة الأخرى وسميناها "عنبر المرضى"، ولم تكن هناك أسِرَّة، فالعرب اعتادوا النوم على الأرض.

لم تكن الكويت تعرف شيئًا عن مدارس الطب أو الأطباء المتخصصين في أمراض النساء، وكان في المدينة قابلات وحلاقون برعوا في العلاج بالكي والحجامة، وكان هناك أيضًا رجال ونساء يعرفون استخدام الأعشاب وما شابهها من وسائل العلاج، ووفقا للمفهوم السائد بينهم كانت الأمراض من نوعين: "الحار" أو "البارد"، و "الرطب" أو "الجاف"، وكان هذا التقسيم أشبه ما يكون بالنظام القديم لدى الإغريق. ولكن هؤلاء الإنجليز الذين يركض الأطفال وراءهم في الشوارع ساخرين مهللين، من ذا الذي يستطيع أن يثق بهم؟! وقد حدث بالفعل أن جاء إلى المستوصف الذي أديره عدد قليل من النساء، الأكثر شجاعة بلاشك من غيرهن، ولكن البعض منهن رفضن استخدام ما أعطيته لهن من دواء خشية أن يكون نوعًا من السموم، وكانت حقيبة التوليد مجهزة وفى الانتظار، ولكن أخيرًا وبعد انقضاء عدة أشهر، وعندما استدعيت لمباشرة حالة ولادة، طلب مني أن أتوقف، ولم يُسمح لي بالدخول. وكانت القابلات المعاديات قد نجحن في إقناع الأسرة بعدم إشراكي في الأمر.

وبالتدريج، وبالرغم من المعارضة تزايدت أعداد الوافدين إلى عيادتنا، وأصبحت علميات انحراف الأهداب مع استخدام التخدير الموضعي من الأشياء الشائعة في إزالة التشوهات والآثار الناتجة عن التراكوما (الرمد الحبيبي)، وقد استردت بدوية ضريرة جاءت من الصحراء بصرها بعد أن أجرينا لها عملية كتراكت (المياه البيضاء)، ولكن العملية التي أجريناها لفلانة هي التي عززت مكانتنا وجعلت أسماءنا تتردد في الآفاق، أكثر من أي إنجاز آخر حققناه. كانت هذه المريضة تعاني من فِتاق سُرِّي أدى إلى تشوهات شديدة، وبلغ حجمه حجم ثمرة الليمون الهندي (الجريب فروت)، وسألتنا: "هل يمكنكم إزالته، دون أن أشعر بأي آلام؟.

كانت لدينا مجموعة كاملة من أدوات الجراحة، ولكن نظرًا لعدم وجود وعاء للتعقيم، قمنا بغسل ملابسنا في ماء يغلى ثم ارتديناها وهي رطبة قبل أن تجف تمامًا. وقبل هذه العملية، حدث أكثر من مرة أن كان المريض يختفي تمامًا في اللحظة المحددة. وكان يتولى مساعدتي أم وأخت موظف سوري بالإرسالية، وكانت الأم قد تدربت على استخدام الكلوروفورم (البنج)، من خلال جهاز جنكر للاستنشاق، أما أنا والأخت فأخذنا نفرك (نحك) أيدينا لمدة عشر دقائق متواصلة ثم غمسناها في محلول مطهر، وبعد أن وضعت الأدوات في أماكنها استعدادًا لإجراء العملية شددت على مساعدتي بألا تمس أي شئ إلا بناء على تعليمات مني. وفي اليوم التالي، جلس زوج فلانة خارج الباب ليتأكد من عدم دخول أي رجل، وليرى وجه زوجته، وبعد أن نجحت العملية، وبدا الارتياح على الجميع، انطلقت إحدى الواشيات تذيع الأنباء وتردد: لماذا كل هذا الضجيج؟ لقد فتحت بطن فلانة وأخرجت أحشاءها وحملتها إلى البحر فغسلتها ثم أعادتها إلى مكانها من جديد".

وسوف أورد فيما بعد المزيد من النظرات نقلاً عن مقال السيدة كالفرلي، أما الآن فيكفي أن أسجل بعض الملاحظات عن الأمراض التي واجهناها.

الجذام (البَرص):

ويكاد لا يوجد في شبه الجزيرة العربية نفسها، أما في الكويت فلم نصادف إلا حالة أو حالتين. ولكنه أكثر انتشارًا في العراق، وهناك مستعمرة لعزل المرضى ومستشفى في العمارة على نهر دجلة، كانت الإرسالية الأمريكية هي التي تتولى إدارتها حتى عهد قريب.

اللمباجو (البرجه): Lumbago

ألم عصبي أسفل الظهر، ينتشر إلى حدٍ ما بين المسنين من البدو .والعلاج الوحيد هو الدهان والتدليك بدهن الضأن الساخن. ولكن من الشائع بين البدو أنه يمكن شفاء المصاب به إذا انبطح على بطنه، ثم جاءت سيدة أنجبت توأمين في أول ولادة لها، ومشت فوق ظهره من جانب لآخر قبل أن يتناول أي طعامٍ في الصباح، مع وضع قدمها كل مرة على الجزء الأصغر حجمًا والأكثر تحملاً من الظهر، وتحميل كل ثقلها عليه. ولابد من مراعاة هذه الخطوات بكل دقة. وإذا

كررت السيدة هذا الأسلوب للعلاج لمدة ثلاثة أيام متتالية، تتحقق نتائج أسرع. ولقد أجريت هذا النوع من العلاج في شهر يوليو ١٩٤٠ وحققت بعض النجاح.

والعلاج الوحيد للشلل (الفالج) لا يمكن أن يتأتى إلا باستشارة الطبيب، والبدو يدركون ذلك جيدًا. ويجب إبعاد الأقارب من النساء عن المرضى.

حدود الدولة:

كانت مسألة وضع شيخ الكويت وأراضيه موضوعًا للتعارض بين الحكومة البريطانية والباب العالي في عام ١٩١٣، وتمخضت المفاوضات عن توقيع الاتفاق الإنجليزي التركي في نفس العام، ولكن لم يتم التصديق عليه بأي حال. ووفقا لهذا الاتفاق، تم الاعتراف بالاستقلال الذاتي لشيخ الكويت في منطقة تمتد حدودها على شكل نصف دائرة، مركزها مدينة الكويت، ومصب خور الزبير عند النقطة التي يلتقي فيها بخور عبدالله عند نهاية نصف قطرها في الشمال، وتل القرين في الجنوب، بالإضافة إلى جزر وربة وبوبيان، ومسكان، وفيلكة، وعوهة، وكبرر، وقاروه Qaru وأم المرادم، وتوابعها من صغار الجزر.

كما تم الاعتراف بأن شيخ الكويت هو السيد الأعلى لكل القبائل، مع تخويله حق جباية الجزية من منطقة أكثر اتساعًا تبدأ حدودها من الجانب الجنوبي لخور الزبير عند نقطة التقائه بخور عبدالله، وتمر جنوب أم قصر وسفوان وجبل سنام مباشرة، ثم تستمر حتى وادي الباطن، ثم تستدير في اتجاه الجنوب الغربي بحذاء وادي الباطن إلى أن تصل إلى مجموعة آبار حفر الباطن، فتستدير مرة أخرى في اتجاه الجنوب الشرقي لتضم آبار اللصافة Safa، اللهابة، والوبرة، وقرعة، وقرية انطاع Nta'، ثم تصل إلى البحر عند جبل منيفة. ونتيجة للحرب مع تركيا في عام ١٩١٤ لم يتم التصديق على هذه المعاهدة.

مولد الدعوة الوهابية:

سبق أن كُتب الكثير وألقى العديد من المحاضرات عن حركة الإحياء الديني الشهيرة التي يعرفها البعض باسم "حركة الإخوان"، ويصفها البعض الآخر بأنها "الخطر الإرهابي الجديد"، والتي اجتاحت شبه الجزيرة العربية كالحريق الداهم في الفترة من ١٩١٤ حتى ١٩٣١م، وكان من أشهر من كتبوا عنها فيلبي، وروتر، والسير فؤاد حمزة، وأمين الريحاني، وحافظ وهبة، وغيرهم.

وبالنسبة لي كانت الأحداث التي ارتبطت بهذه الحركة، خاصة تمرد الإخوان في ١٩٢٩–١٩٣٠م، ودمارهم في آخر الأمر، من القضايا التي أثارت اهتمامي إلى أقصى درجة ,لأنني عشت على حدود أرض وهابية لعدة سنوات، مع فترة انقطاع قصيرة واحدة، كنت أثناءها على علاقة وثيقة بكل مرحلة من مراحل الصراع، وكنت أبذل كل جهد للتعرف على الأوضاع وما يجرى في الخفاء من خلال الاتصال المباشر بالشخصية الأساسية على مسرح الأحداث وهو جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود. ولكنني كنت أسمع الكثير أيضًا مما هو هام وله قيمته من عديد من القادة العسكريين للإخوان بعد أن تمردوا وشقوا عصا الطاعة على ملكهم. وهكذا عرفت القضية من الطرفين وخاصة فيما يتعلق بالتمرد وكل ما أحاط به من ملابسات. ولا يمكنني أن أنسى شهادة الزوجات الباسلات لعديد من قادة الإخوان اللاتي تشرفت زوجتي وتشرفت أنا الآخر، بكسب ثقتهن وصداقتهن.

ورغم كثرة ما كُتب أيضًا عن قسوة الإخوان وفظاظتهم وما يثيرونه من رعب، أجد لزامًا عليَّ أن أسجل أن هذه الأقوال لم تكن إلا نوعًا من المبالغة التي روج لها البعض من أجل تحقيق مآرب سياسية. ولقد كنت دائمًا من المعجبين إعجابًا خفيًا بالإخوان ربما لأنني عرفت العديد منهم عن قرب، أو لأن ثمة جاذبية خاصة يتميز بها هؤلاء الذين لا يقولون إلا الصدق، والمؤمنون بالله أعمق الإيمان فخرجوا – وفقا لما ينادون به – من أجل الإصلاح وتطهير الدين من الشوائب والأدران. وأعترف بأنني كلما كنت أتعرف بفرد من الإخوان كنت أجد أن الفوارق ضئيلة للغاية بينهم وبين كافة الأنماط الأخرى من البدو في مكان آخر، كانوا يحبون زوجاتهم وأطفالهم وجمالهم وجيادهم كما يفعل الآخرون، بينما تتميز نساؤهم بنفس تلك السمات المحببة التي نجدها بين أخوات لهن في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، ولكن القضية هي أن أحدًا لم يهتم بدراسة مثل هذه الجوانب بعمق.

زعماء دينيون:

ويمكن القول بمعنى عام، أن دعوة الإخوان كانت إحياءً للوهابية، وأنها لم تكن هرطقة، على الأحوال، وإنما حركة دينية بين مسلمين نجديين من أجل إحياء تعاليم المدرسة الحنبلية من مذهب أهل السنة على النحو الذي سبق أن قام به الإمام أحمد بن حنبل (٧٨٠–٨٥٥). وفى حدود علمي، بدأت هذه الدعوة

بالشيخ عبدالكريم المغربي، وهو من رجال الدين ثاقبي الفكر وكان في وقت من الأوقات كبيرًا للعلماء لدى فالح السعدون باشا، شيخ قبيلة المنتفق. وبعد فترة كان يمارس نفس الدور لدى مزعل باشا السعدون والد إبراهيم بك السعدون شيخ القبيلة الحالي. وعندما ترك العمل لدى مزعل باشا، رحل إلى نجد وبدأ يمارس نشاطه سرًا كمعلم ومصلح ديني في بلدة الأرطاوية Irtawiyah وكانت في ذلك الوقت وكرًا صغيرًا للدعوة الوهابية. وهناك قصة تقول إنه عندما توجه مزعل باشا إلى مكة في عام ١٨٩٣ رجع منها عن طريق نجد فعرج على الأرطاوية لزيارتها، وبدلاً من الترحيب به كما كان يتوقع من صديقه القديم، طرده عبدالكريم وصب عليه لعناته ووصمه بالكفر والشرك.

وكان من بين الزعماء الدينيين الآخرين المعروفين الذين أججوا نيران دعوة الإخوان عبدالله بن عبداللطيف بن عبدالوهاب، قاضي الرياض وسليل مؤسس الدعوة الوهابية والشيخ عيسى قاضي الإحساء.

ومن الصعب تحديد التوقيت الدقيق لمولد حركة الإحياء، ولكن من المؤكد أن كلمة "إخوان" بالمعنى الخاص الذي أصبحت تدل عليه وليس بمعنى الرابطة الأسرية – لم تكن معروفة قبل عام ١٩١٣، ومن المؤكد أيضًا أن هذه الحركة لم تلعب أي دور في استرداد عبدالعزيز لنجد في عام ١٩٠١، كما لم يكن لابن سعود أي علاقة بها عند بدء ظهورها ولم يحدث إلا بعد استرداده للإحساء من الأتراك أن أحس بهذه الحركة وتنبه لوجودها. وقد ذكر لي ذلك بنفسه.

وفي عام ١٩١٤ ظهرت دعوة الإخوان علنـًا على الساحة في نجد ودون تستر. وبينما استمر سكان المدن على تمسكهم بالوهابية، التف أهل القرى والبدو، وعن بكرة أبيهم تقريبًا، حول راية الإخوان.

وفي أوائل عام ١٩١٤ جاءت الضربة الكبرى الثانية التي سددها ابن سعود باستيلائه على الإحساء، وهي خطوة كان يتمناها منذ وقتٍ طويل: أولاً لأن الإحساء كانت من قبل جزءًا من نجد، وثانيًا لإحساسه المتزايد بحاجته لما تدره من دخل، وأتاحت له حرب البلقان والنزاعات الخارجية والداخلية بالإضافة إلى أن أقاربه المتمردين كانوا يتوارون لاجئين في الهفوف، الفرصة التي يتمناها. وفي جُنح الظلام خرج على رأس خمسمائة من رجاله من راكبي الجمال السريعة من الرياض متوجهًا إلى الهفوف، فتسلق الأسوار الخارجية لقلعتها عند الطرف

الشمالي للمدينة، ونجح في إجبار حاميتها التي تتكون من حوالي ألف جندي من المشاة الأتراك المسلحين بالبنادق، على الاستسلام، ثم استولى على القطيف بعد عشرة أيام وسمح للوالي التركي والحامية بالخروج مشيعين بما تقضي به التقاليد العسكرية من احترام، فاتجه موكبهم إلى ميناء عقير، وارتد بعضهم إلى البصرة والبعض الآخر إلى قطر.

الكويت تنضم إلى الحلفاء:

عندما اندلعت الحرب مع تركيا في عام ١٩١٤ ألقى مبارك وعلى الفور بكل ثقله إلى جانب الحلفاء، رغم ما كان يعنيه ذلك من مجازفة فيما يتعلق برد فعلٍ الأتراك، لأن القوات البريطانية لم تكن قد دخلت بلاد ما بين النهرين بعد. وكلف مبارك في وقت مبكر بإحكام قبضته على المراكز العسكرية الحدودية التركية في سفوان وأم قصر، بالإضافة إلى المراكز المماثلة على الجانب الجنوبي لجزيرة بوبيان. ثم طلب منه بعد ذلك أن يهدد البصرة من جهة البر، وأن يستولي عليها إن أمكن، وأن يتولى حماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم بها.

ورغم عدم نجاحه في احتلال البصرة، إلا أن وجوده في الأراضي الداخلية على رأس قوة كبيرة من البدو كانت له فائدته القصوى في تشتيت انتباه العدو، كما لعب دوره العملي في مساندة الجنرال آرثر باريت وجيشه عندما نزل إلى البرّ في مواجهته عبدان على شط العرب، وبدأ زحفه نحو البصرة وعلى الطريق الموازى للضفة اليمنى.

وكمكافأة لمبارك لدخوله الحرب إلى جانب بريطانيا وما أبداه من نشاط عسكري مثمر، سلمته حكومة صاحب الجلالة وعدًا كتابيًا بأنه في حالة انتصار الحلفاء في الحرب "وهو ما سيتحقق بمشيئة الله":

١) فسوف تعفى بساتين النخيل الخمس التي يملكها في شط العرب من أي ضرائب.

٢) ولن يُسمح بأي مساس لملكيته لهذه البساتين (وكان الأتراك قد حاولوا انتزاعها أكثر من مرة).

٣) وسوف تعترف الحكومة البريطانية به على الدوام، هو وورثته ومن يخلفه من بعده، شيوخًا للكويت.

ومنذ أن احتلت القوات البريطانية العراق وحتى انتهاء فترة الانتداب البريطاني التزمت الحكومة البريطانية تمامًا بكل ما تعهدت به. ولكن لسوء الحظ أنه عندما حصل العراق على استقلاله، رفض التقيد بالوعود البريطانية التي سبق تقديمها للشيخ مبارك، وعاد لفرض الضريبة على بساتين النخيل في شط العرب، وإثارة النزاع حول ملكيتها أمام القضاء، بل وبلغ الأمر أن أخذت الدعايات تتردد في الصحافة والمنتديات والمجالس الخاصة حول ملكية العراق للكويت نفسها.

وبعبارة أخرى، فبالرغم من صداقة بريطانيا العظمى وتحالفها، وبالرغم من أن العراق حصل على استقلال كهبة من صديقته وحليفته بريطانيا، إلا أن العراق تنكر للجميل وبدأ في التعامل مع دولة الكويت الصغيرة ومع كل من سبق أن أحسن إليه، وكأنه لايزال جزءًا من تركيا، ولم يعبر عن عزمه فحسب على إحراج بريطانيا إزاء حليفتها الصغيرة، بل وأيضًا على إجبارها على التخلي عن مكانتها في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وفى الخليج على وجه الخصوص.

ولكن لحسن الحظ أن الحكومة !البريطانية حرصًا على مكانتها وغيرةً على اسمها، لم تقر موقف العراق من هذه القضية وأبدت عزمها على الالتزام بوعودها.

ابن سعود يساند بريطانيا:

في عام ١٩١٤ كان الكابتن و.هـ أ. شكسبير هو الذي يتولى منصب الوكيل السياسي في الكويت. وفى شهر نوفمبر، وبينما قواتنا لاتزال في سيحان Saihan في مواجهة المحمرة، قام بزيارة للسير برسي كوكس وكان هو المسئول السياسي الأول في المنطقة في ذلك الوقت، والسير آرثر باريت، في مقر قيادة الجيش، وتلقى منهما الأمر بالتوجه إلى نجد سعيًا لكسب ود ابن سعود ومساندته ضد الأتراك. وكان اللورد هاردنج، نائب الملك بالهند، على وشك زيارة الكويت بعد أن تفقد القوات في البصرة، ولذلك حاول الشيخ مبارك أن يثنى شكسبير عن التوجه إلى الرياض وتأجيل هذه المهمة إلى أن يغادر اللورد هاردنج الكويت. ولكن شكسبير رفض ذلك، وخرج إلى نجد قبل وصول نائب الملك.

ووعد ابن سعود بتقديم مساعداته الإيجابية، وشرع في خوض العمليات الحربية ضد ابن الرشيد الذي دخل الحرب إلى جانب الأتراك. والتقت قوات الغريمين في يناير ١٩١٥م عند المجمعة (واسمها الشائع جراب) في السدير. ودان النصر لابن سعود، ولكن قبيلة عجمان، وكانت تشكل جناحه الأيسر، غدرت به

وانسحبت من الميدان دون قتال، فتمخض الموقف في نهاية الأمر عن التعادل بين الطرفين وقتل الكابتن شكسبير وهو يحاول تشغيل أحد المواقع في نجد.

وهنا كان من حق الشيخ مبارك، الذي سبق له أن بذل كل جهد من أجل دفع ابن سعود إلى المجيء إلى الكويت للتعبير عن احترامه لنائب الملك، أن يقول بملء فمه: "لقد سبق أن قلت لك كل ذلك، ولكنك لم تأخذ بنصيحتي، ولم ترفض زيارة نائب الملك فحسب، بل وخسرت أيضًا المعركة، وتسببت في فقداني لوكيلي السياسي".

وبصرف النظر عن إبرام معاهدة للصداقة مع ابن سعود، تخلت الحكومة البريطانية في ذلك الوقت عن فكرة التعاون معه.

وفي صيف ١٩١٥ أرسل شريف مكة ابنه عبدالله، الذي أصبح ملكًا للأردن فيما بعد، على رأس قوة كبيرة متظاهرًا بالوساطة بين ابن سعود وابن الرشيد، بينما هو يعمل على فرض أحكام اتفاقية عام ١٩١٠ وخاصة فيما يتعلق بالجوانب المالية، وأبرمت الهدنة بين الطرفين، ولكن دون أن يلتزم أي طرف بها، وعاد عبدالله مُخلفًا وراءه الكثير من الشائعات.

وفاة الشيخ مبارك:

وأعقبت ثورة قامت بها عجمان في الإحساء في شهر نوفمبر، وعندما حاول ابن سعود إخمادها دارت عليه الدوائر، ووجد نفسه محاصرًا في مدينة الهفوف. وهنا تبدّى مدى وفاء مبارك واهتمامه البالغ بأحوال جاره الشاب الجسور المتوثب، فأرسل جيشًا لمساعدته ونجحت القوة الكويتية التي خرج معها اثنان ممن تولوا حكم الكويت فيما بعد وهما الشيخ سالم، الابن الثاني لمبارك والشيخ أحمد حفيد مبارك، نجاحًا كاملا في تحقيق هدفها، فبعد رفع الحصار قامت القوة، مع قوات ابن سعود، بدحر حشود عجمان في موقعة ريضه Ridah بالقرب من القطيف، وقفلت القوة الكويتية راجعة إلى الكويت بعد أن منحت الأمان لعجمان. ولكن هذا الموقف لم يكن على هوى ابن سعود الطموح المتحفز دومًا للنزال، وكان بداية لحزازات استمرت طويلا وتفجرت فيما بعد بينه وبين الشيخ سالم أمير الكويت، وبينما الجيش الظافر لايزال على مسيرة ثلاثة أيام من العاصمة، بلغه نبأ الوفاة المفاجئة لمبارك وتولى ابنه الأكبر "جابر" مكانه.

وأرسل اللورد هاردنج الذي زار الكويت في شهر فبراير السابق، رسالة تهنئة لجابر مؤكدًا له أنه طالما استمر على التزامه بالاتفاقات المبرمة مع الحكومة البريطانية، فعليه أن يتوقع الحصول على نفس المساندة التي حظي بها والده.

والحق أن مبارك الكبير هو الذي نهض بالكويت وانتقل بها من مصاف الكيانات قليلة الأهمية لتتحول إلى إمارة مزدهرة. وفي ظل حكمه القوى تحولت بالنسبة لأبناء شبه الجزيرة العربية جميعًا إلى بقعة جذابة يطيب العيش فيها، وتضاعف عدد سكان المدينة على وجه التقريب. أما عن ولائه للحكومة البريطانية، فليس في حاجة لأن نخوض فيه الآن.

وكان الشيخ جابر بشوشًا ليّن العشرة، فأحبه الناس طوال فترة حكمه التي لم تتجاوز العام الواحد إلا قليلاً.

زعيم الإخوان:

في أواخر ١٩١٥ أو أوائل ١٩١٦ وجد ابن سعود أن دعوة الإخوان تسيطر بكل تأكيد على الأوضاع في نجد. وإن كان عليه أن يختار بين طريقين: إما أن يكون حاكمًا دنيويًا فيسحق هذه الدعوة، أو أن يكون هو الزعيم الروحي لهذه الحركة الوهابية الجديدة. والأرجح أنه فكر أول ما فكر في الاستفادة منها لتدعيم مركزه، ولكنه اضطر في خاتمة المطاف إلى إعلان موافقته على تعاليمها ليصبح زعيمًا لها، وإلا خسر كل شئ.

ويقول البعض أنه عندما اختار ابن سعود هذا الطريق حذره عبدالله ابن جلوى بن سعود، أمير الإحساء، تحذيرًا شديدًا، وطلب منه ألا تكون له أي علاقة بتلك الحركة التي شبهها بالنار التي تأكل ما يقف في طريقها. ولكن ليس هناك شك في أن ابن سعود تمكن من دعم قوته كثيرًا، ونجح في توحيد العديد من العناصر المعادية والمثيرة للقلاقل التي ظلت ترتع في نجد منذ القدم.

والآن، وبعد أن تبنى دعوة الإخوان، رأى ابن سعود أنه لابد من وضع أعضاء الحركة الجديدة تحت السيطرة التامة، خاصة عندما لاحت في الأفق احتمالات إقدامهم على أعمال متهورة تصل إلى حد القتل وإراقة الدماء في الشوارع في كل من الحجاز والعراق. وبناء على ذلك، أصدر أمره الشهير في عام ١٩١٦ الذي يلزم فيه جميع القبائل البدوية في شبه الجزيرة العربية بالانضمام إلى حركة

الإخوان، شاءوا ذلك أم أبوا، وأن يؤدوا له الزكاة بصفته إمامهم المعترف به، وأما إذا رفضوا فسوف يكون عرضة للهجوم.

وكان الأسلوب الذي اتبعه لتحويل أي قبيلة غير متحمسة لأن تكون من النخبة المتميزة يجرى على النحو الآتي: يبدأ بإرسال مبعوث من قِبَله إلى شيخها ليخبره بكل صراحة أنه هو وقبيلته لا دين لهم وأنهم مازالوا يعيشون بعقلية أهل الجاهلية، ثم يأمره بالمواظبة على حضور الدروس بالمدرسة المحلية للعلماء، الملحقة بالمسجد الكبير بالرياض، حيث يتلقى منهجًا في تعاليم الدين. ورغم ما كان يتميز به هؤلاء العلماء من نزعة إلى العنف إلى حدٍ ما، إلا أنهم لم يكونوا يختلفون إلا قليلا عن الدعاة الوهابيين المتشددين من الطراز القديم.

وكان المطلوب من كل أخ أن يضع نصب عينيه شيئين قبل أي شئ آخر:

أ) عبادة إله واحد.

ب) التآخي بين جميع المؤمنين الصادقين.

وتندرج تحت المبدأ الأول العناصر الآتية:

١) الإيمان بوحدانية الله.

٢) أداء الزكاة.

٣) صوم رمضان.

٤) إقامة الصلاة خمس مرات كل يوم.

٥) أداء فريضة الحج.

وتندرج تحت المبدأ الثاني العناصر الآتية:

١) أن يحب بلده.

٢) أن يطيع الإمام (ابن سعود)، طاعة مطلقة.

٣) أن يساعد أخاه في الجماعة سواء ماليًا أو عند أي مشكلة من أي نوع.

وعلى كل شخص أن يردد دائمًا: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ولكن مع حظر التفكير في اسم محمد أو استخدامه كوسيط بين الله والناس. وليس محمد إلا رجلا يعرف المؤمن بما يريد الله، ولقد انتهى محمد وقضى الأمر، ولم يعد له من مغزىً، بالطبع إلا أن يذكر اسمه دائمًا، وأن تظل ذكراه حية عرفانـًا له بالجميل.

وكان الربط بين اسم الله وأي اسم آخر، حسين أو حسن ...الخ، خطيئة لا تُغتفر يصبح كل من يقدم عليها في عداد الكفار والمشركين، تُستحل حياته، وأمواله، ونساؤه. وكان الشيعة يُصنفون ضمن هذه الفئة. وأما النذور، على النحو الذي يمارسه الشيعة وبعض أهل السنة فهو رجس كبير هو الآخر، ومن هنا كان من واجب الأخ في كل وقت أن يوفر أي نذور حيثما وجدها.

وكان تدخين التبغ من الخطايا الكبرى، وكذلك تدخين الحشيش والأفيون، الخ. وفي الأيام الأولى كان الأخ صادق العقيدة حقًا لا يتورع عن الاعتداء على أي شخص يراه وهو يدخن، بل وربما قتله. وقد تم حظر التدخين رسميًا في جميع أنحاء مملكة ابن سعود، ومازال هذا الحظر ساريًا حتى الآن، باستثناء الإحساء التي يمكن للشيعة من سكانها أن يدخنوا في مجالسهم الخاصة أو على انفراد. كما حظر شرب الخمر، ويعامل كل من يقدم على ذلك نفس معاملة المدخن. وكان محرمًا ارتداء الملابس المصنوعة من الحرير أو التي يستخدم الذهب لتزيينها، وكذلك حلاقة الشارب أو اللحية، إلا على النحو الذي كان يفعله النبي. أما الميسر والسحر، والتنبؤ بالغيب، فكانت جميعًا من الآثام التي يُصب عليها وعلى من يقترفها اللعنات.

والزكاة تقضي بأن يدفع كل فرد للإمام في كل عام ١ : ٤٠ من قيمة كل ما يملك. ووفقا للأحكام الواردة بالقرآن الكريم (٩ : ٦٠) يقوم الإمام بتوزيع حصيلة الزكاة في ثمانية أوجه: الفقراء، والمساكين، والمدينين، والأسرى، وأبناء السبيل، والموظفين المعينين لجمع الزكاة وتوزيعها، والذين يتجه من يستمع إليهم إلى الحق، وفي سبيل الله.

وإذا فقد أحد الإخوان مواشيه ودوابه نتيجة لغارة أو مرض، ..الخ، فما عليه إلا أن يُخطر زملاءه فيقومون على الفور بجمع المال اللازم ليقف على قدميه من جديد، أو يسددون ما عليه من ديون.

هذه كانت عقيدة الإخوان.

وبينما كان شيخ القبيلة يتلقى الدروس في الرياض، يوجه عدد من العلماء الذين يتولى رعايتهم بعض زعماء الإخوان من غلاة المتشددين من أمثال فيصل الدويش شيخ مطير الشهير، للذهاب إلى القبيلة نفسها في عقر دارها، وكان ابن سعود يقوم باختيار هؤلاء العلماء الجوالين بكل دقة وعناية بالطبع، بحيث

يكونون من الموالين له تمامًا. وكان من بين ما يعلمونه للناس، أن الإخوان، والإخوان وحدهم، هم المسلمون الحقيقيون، وأن بقية المسلمين من الكفار والملحدين. وكانوا يعقدون حلقات الدرس كل يوم، ويعلمون الناس كل ما يتعلق بالإسلام في بساطته الأولى كما جاء به النبي. وكانت هناك أفكار غريبة تُبث في العقول فيما يتعلق بالإمام ابن سعود الذي سنراه بعد حين وقد أصبح في آن واحد، الأب الذي يستظل بأبوته الجميع، والزعيم الروحي للمؤمنين الحقيقيين، وأيضًا الشيخ الحاكم الذي يقبض على ناصية الأمور، وعلى هذا النحو كانت القبيلة تشحن فتتأجج حماسًا، ويقال للمتدينين إنهم غدوا الآن أعضاء في الجماعة، ومن ثم انتشر اسم الإخوان في كل حدبٍ وصوب، وأصبح يتردد في كل مكان.

وكان المعلمون يصرون على أن يرتدى المهتدون الجدد عمامة بيضاء مميزة فوق غطاء الرأس، بدلاً من العقال. وكانت بساطة الملبس والمعيشة من الجوانب التي يتعين الالتزام بها، ولذلك كان الإخوان يبدون في مظهر مزري للغاية. وكان السلام لا يُرد إلا إذا كان من يلقيه من الإخوان، وإذا حدث أن التقت جماعة من الإخوان في شوارع المدينة بأوروبي أو عربي بأوروبي أو عربي من العراق أو من إحدى الدول الساحلية المطلة على الخليج، كان من المفروض أن يخفوا وجوههم وراء أيديهم حتى لا تتلوث أبصارهم بمشهدهم.

وعندما يتقرر أن شيخ القبيلة قد حصل على القدر الملائم من الإعداد والتأهيل الديني كان يُمنح، وخاصة إذا كان من الشخصيات القوية ذات الشأن، مسكنًا في الرياض ويطلب منه مداومة الاتصال بالإمام. وكان هذا الإجراء أيضًا جزءًا من نظام الرقابة والسيطرة. وإذا أراد ابن سعود في أي وقت من الأوقات أن يحشد قوات الإخوان التابعة له، فما عليه إلا أن يبلّغ حارسه الخاص وحاشيته من الشيوخ، وفى خلال ستٍ وتسعين ساعة، تسري النار في جميع أنحاء البلاد - إذا جاز هذا التعبير - صدوعًا للأمر. ولم يكن مسموحًا لأي شيخ بالعودة إلى قبيلته إلا بإذن من الإمام، وقليلا ما كان يؤذن للشيوخ بالعودة.

وكانت الصلاة تولى اهتمامًا خاصًا أثناء تعليم القبيلة، وأصبح من أساسيات عقيدة الإخوان أن تكون الصلاة دائمًا جامعة، فيضعون أسلحتهم أمامهم في صف طويل استعدادًا لاستخدامها في أي لحظة. وكان التأثير واضحًا وملموسًا،

فما أن يصل إلى الأسماع صوت الآذان حتى يهب البعض هاتفين: "هيا أيها الكسالى، انهضوا للصلاة". ثم تتشكل جماعة المصلين وتتخذ لها إمامًا، وتوضع المسدسات أمامهم، وتؤدى الصلاة في خطوات منتظمة موحدة أقرب ما تكون إلى الانضباط العسكري الصارم. وعندما يكون عدد المصلين كبيرًا يصل المشهد إلى ذروة التأثير والإثارة. ولقد رأيت الحارس الخاص لابن سعود أكثر من مرة وهو يؤم أكثر من ثلاثمائة شخص للصلاة، وكانوا يرددون الكلمات التي تقال أثناء الركوع والسجود، ويرتلون بعض الآيات، في خشوع عميق، بينما تجرى حركاتهم في دقة وتوافق لا تدانيه دقة وتوافق الخطوات العسكرية. ولم يحدث أن اعترض ابن سعود أو أي من الإخوان عندما قمت بالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية لهذه الحشود من المصلين، وأعتقد أنهم كانوا فخورين بما يمارسون، ويرون أن صوري الفوتوغرافية ستكون دعاية طيبة لهم.

وفى الأيام الأولى للحركة، كان إجبار الناس على الدخول في صفوفها ضرب من ضروب الإيمان لدى الإخوان، وكانت الأساليب التي يلجأون إليها تثير الكثير من الامتعاض والتوتر بين أهل الحجاز والبلدان المجاورة، ومن الثابت أنهم عندما توجهوا إلى الهفوف لأول مرة، كانوا يضربون كل امرأة يلتقون بها في الطريق، ويطلقون الرصاص بكل بساطة وفى برود على أشخاص ليس لهم من جريرة إلا أنهم كانوا يدخنون التبغ. ولكن ابن سعود وعبدالله بن جلوى بادرا بإعدام عدد من الغلاة المتعصبين الذين يمارسون هذه الأساليب حتى يرتدع الآخرون.

ولسنا في حاجة إلى القول بأن الأمر الصادر في عام ١٩١٦ أدى إلى الكثير من الصدام بل والقتال وخاصةً مع عجمان في الإحساء. بل ويمكننا القول ونحن لا نعدو الحقيقة أن ابن سعود انهمك طوال عامي ١٩١٦ و ١٩١٧ في سلسلة طويلة متصلة من الحروب مع القبائل التي لم تتحمس لدعوة الإخوان، ونادرًا ما كان يتمكن من الذهاب إلى الرياض للحصول على قسط من الراحة التي كان في أمس الحاجة إليها.

حسين يصبح ملكًا على الحجاز:

في شهر يوليو ١٩١٦ أسفر حسين، شريف مكة، عن رفضه للحكم العثماني وأعلن استقلال شبه الجزيرة العربية، وألقى بكل ثقله إلى جانب الحلفاء

ضدٍ الأتراك، ثم استولى على ينبع، ثغر المدينة، في نفس الشهر، وأعلن نفسه ملكًا على البلدانِ العربية في شهر أكتوبر، ولكن الحلفاء لم يوافقوا على ذلك، واعترفوا به ملكًا على الحجاز فحسب. وكان ابن سعود يترقب هذا الذي يجرى في قلق وتوجس، ولكنه لم يقدم على أي إجراء مباشر ضد حسين أو ضد الأعداء التقليديين لأسرته آل الرشيد.

الفصل السابع
سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩١٦

قبائل جنوب العراق العربية – بنو أسد – الظفير – المنتفق – قبائل المزارعين والقبائل الرُّحَّل - قبائل الرعاة – أسرة آل سعدون – أصبحت مديرًا لسوق الشيوخ – محمد الحيال بيّض وجهي – ناصح حكيم – المضيف – حفل استقبال مدني – عدالة فظة – قاصد الناهي يدفع الدية – الفارس الملثّم.

حان الوقت الآن لأن نترك شبه الجزيرة العربية الأصلية، لبعض الوقت، ونتحول باهتمامنا إلى العراق الذي عملت فيه لعدة سنوات تحت رئاسة السير بيرسي كوكس أثناء توليه منصب رئيس الإدارة السياسية في شمال العراق.

وأرى أنه من الأفضل أن أبدأ ببعض الملاحظات حول السكان العرب في القطاع الأدنى من العراق، وخاصة في سوق الشيوخ والناصرية، حيث مارست مهام وظيفتي.

بنو أسد:

قبيلة قوية من غير المنتفق من القبائل التي تتخذ مواطنها بالقرب من السبخات والمستنقعات المنتشرة جنوب العراق. وشيخها هو سالم الخيون ALKHAYUN، وقصره في الجبايش Chuba'ish .

الظفير:

قبيلة بدوية تقع مواطنها بين سماوة Samawah والزبير جنوب الفرات. وتنقسم هذه القبيلة إلى عدة أفرع، ومنها على سبيل المثال:

بنو حسين، وآل عريف Al'ARAIF وأما اسمها فيعنى "مجموعة من البقايا،" وهو مشتق من نفس الجزء الذي اشتقت منه كلمة ضفار (بمعنى الضفيرة – والفعل يجدل أو يُضفر). وقد ذاعت شهرة الظفير بين قبائل البدو نظرًا للطريقة التي تستخدمها في حماية من ينزل بجوارها من القبائل الأخرى والدفاع عنها أيًا كانت انتماءاتهم، وحتى لو أدى ذلك إلى إنزال العقاب بأبناء الظفير أنفسهم. ويقال إن أحد شيوخهم أمر ذات مرة بقتل ابنه أمام عينيه لإدانته بقتل أحد النازلين بجوار القبيلة في مشاجرة حمقاء.

والبيت الذي يحتكر المشيخة هم آل السويط Al Suwait وأكبر شيوخهم الآن هو عجمي السويط Ajaimi al Suwai .

المنتفق:

تشغل عصبة القبائل العربية التي تُعرف في مجموعها بالمنتفق، ففي القطاع الجنوبي من الفرات، في مناطق بحيرة الحمّار Hamar والشطرة Al Shatra وقلعة سكر Sikar والناصرية، وبلدة سوق الشيوخ، وهناك ثلاثة فروع رئيسية لا يجمع بينها أي رابط إلا اعترافها جميعًا بسلطة وسيادة آل سعدون. وهذه الأقسام الثلاثة ليست محددة تعرف بالاجود، وبنى مالك، وبنى سعيد.

مجموعة قبلية:

وبنو سعيد، هم أصغر هذه المجموعات وأكثرها تلاحماً، وتعيش في المنطقة الصحراوية الممتدة بين نهر دجلة بالقرب من مدينة العمارة وشط الحي عند الشطرة. وأما الاجود فهي أقلها تماسكا، وتعيش في الغرّاف Al Gharraf وهو الاسم الذي يُطلق على المنطقة الزراعية أو الإقليم الصالح للزراعة على ضفتي شط العرب، كما تسكن أيضًا في المناطق الواقعة على ضفتي الفرات شمال وجنوب الناصرية. وهى قبيلة شبه مستقرة تتكون من مزارعين وأشباه للبدو ممن يملكون قطعان الماشية. والأسرة التي تحتكر المشيخة هي المناع Al Mann'ah وأبرز شيوخها اليوم هو فيصل الزامل المانع. وتنتمى إلى الاجود القبائل الأساسية الآتية:

العبودة Al 'Abuda:

وهى قبيلة من المزارعين في منطقة الغراف Gharraf المتاخمة لمدينة الشطرة. وشيخها هو خيون العبيد Khayun al 'Ubaid .

الأزيرق Al 'Azairij :

وهى قبيلة من المزارعين في المنطقة الممتدة بين الشطرة والناصرية، وشيخها هو محمد القاطع البوطي al Qata al Buti.

الغزّى Al Ghazzi :

وهى قبيلة قوية من المزارعين على الضفة الشرقية من الفرات بين البطحاء Bathaa والناصرية. وشيخها هو محمد حبيب Habaiyib ويعيش قسم صغير من آل غزى في الغليض Al Ghalid .

الحسونة: Al Hasu'na

قبيلة من الأشراف المزارعين تعيش في المنطقة الممتدة بين الشطرة والناصرية وشيخاها هما السيد حمود ابن عبدالحسين، والسيد محمد بن عبدالحسين.

الحسينات:

قبيلة من المزارعين على الضفة اليمنى للفرات في مواجهة الناصرية، وشيخها هو عجيل الخضيرى al Khadhairi.

الإبراهيم:

قبيلة من المزارعين تقيم شرقيّ الحسونة، وشيخاها هما بلبول الشايد Cha'id وجبار المطشر Al Mutashar .

الخفاجه Al-Khfa'ja

قبيلة قوية من المزارعين في منطقة الغراف Gharraf بين الشطرة والناصرية وشيخها هو صكبان Saqban العلي.

آل محينة: Al Mahaina

قبيلة صغيرة من المزارعين على الضفة اليمنى للفرات في مواجهة العساكره Asachira وشيخها هو قيطان Gaitan العجيل الشوايد Al Chuwayi .

قبائل ارتبطت حياتها بالنهر:

أما بنو مالك وهم الفرع الثالث للمنتفق، فيمتد أصلهم إلى المعدان Ma'ad'an [1] ويعيشون في دلتا الفرات عندما يصب في بحيرة الحمّار، وتعتبر قبيلة البوصالح وشيوخها هم القبيلة التي ترأس بنى مالك، والتي تنتمي إليها القبائل الأساسية التالية:

العساكرة Al 'Asachira :

قبيلة من المزارعين من منطقة سوق الشيوخ، على الضفة اليسرى للفرات وشيخها هو صبرو الدوغى Sibru al Dughi.

---

(١) اسم يُطلق على قبائل العراق الرُحّل.

الحكّام:

قبيلة من المزارعين على جانبي المجرى الرئيسي للفرات، بالقرب من سوق الشيوخ وهي قبيلة قوية، كانت تسبب الكثير من الإزعاج للأتراك فيما مضى، وكان لها - في وقت من الأوقات - أربعة من الشيوخ الكبار هم الحاج مزبان Mizban وقاصد الناهي، وفرهود آل فندى، والحاج ناصر الحيّال Al 'Ayail الذي سترد قصته على صفحات تالية من هذا الكتاب. وأبرز شيوخ الضفة اليمنى للفرات في الوقت الراهن هو مزهر Mizhir القاصد الناهي، وأما في الضفة اليسرى فهو فرهود الفندي. ويشكل آلبوحميدى امتدادًا فرعيًا من الحكّام.

الحسن:

قبيلة من العرب الذين ارتبطت حياتهم بالنهر في منطقة دلتا سوق الشيوخ. وأبرز شيوخهم اليوم هو حمودة ابن مزعل البشارة Muza'al al Bishara وهم يعيشون على الضفة اليمنى للنهر وشيخهم هو مريهج Muraihij الفيصل الياسر، ولكنه تحت هيمنة حمودة بن مزعل آلبشارة.

الجويبر:

قبيلة من الرُحّل غرب بحيرة الحمّار. وشيخها هو حاتم الموزان Almauzan.

بنو خيقان:

قبيلة من الرُحّل في دلتا سوق الشيوخ، وشيخها الآن هو الحاج شويد المغشغش، شقيق المرحوم فرهود المغشغش.

النواشي:

قبيلة صغيرة من الرُحل بالقرب من سوق الشيوخ.

البوصالح:

قبيلة قوية شمال بحيرة الحمّار، جزء منها يمارس الزراعة وجزء منها من الرُحل، وكان من أبرز شيوخ هذه القبيلة المتميزة بين بنى مالك - في وقت من الأوقات - بدر الرميض، أما زعيمها اليوم فهو محسن الرميض .Al Rumaiyadh وينتمى لهذه القبيلة السليمان تحت زعامة الشيخ محمد النصر الله.

الشدّود Al Shaddud :

قبيلة صغيرة من المزارعين في منطقة سوق الشيوخ، على الضفة اليسرى للفرات.

البوشامة:

قبيلة من الرُحّل شمال بحيرة الحمّار.

وهناك مجموعة ضخمة من القبائل المهاجرة، أو قبائل الرعاة تشكل جزءًا من قبيلة المنتفق الكبرى، والذين ينتقلون في فصليّ الشتاء والربيع إلى الكويت والحدود الجنوبية للعراق عند التقائها بحدود العربية السعودية، وفيما يلي قائمة بأسماء القبائل الأساسية:

العبودة	بنو مالك
العنان	الأجود
البدور	الأجود
الغليض (الغزّي)	الأجود
الهندال	بنو مالك
الجميعان	بنو مالك
الجوارين	بنو مالك
الرفاعيات	الأجود
آل الشريفات	الأجود
الزايد	قبيلة السماوة
الزوبع	من شمر
الزهيرية	قبيلة من الزبير

وهناك ثلاثة أسماء عامة تطلق على القبائل العربية في العراق، وهي:

أهل الجزيرة:

اسم عام يُطلق على القبائل التي تقطن المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات، من الموصل جنوبًا حتى الخليج العربي.

أهل الشامية:

وهو اسم عام على قبائل منطقة سوق الشيوخ، التي تقييم على الضفة اليمنى للفرات بين الناصرية وسوق الشيوخ.

المجرّة:

وهو اسم عام يُطلق على قبائل منطقة سوق الشيوخ التي تقيم على الضفة اليمنى للفرات بين سوق الشيوخ وبحيرة الحمّار.

وجميع نساء هذه القبائل التي تنتمي للمنتفق من غير المحجبات، ويزيّن وجوههن وأذرعهن ورسغ القدم بالكثير من النقوش والوشم.

أسرة آل سعدون

يرتبط تاريخ مجموعة قبائل المنتفق بتاريخ آل سعدون ارتباطًا لا ينفصم. وآل سعدون يزعمون أنهم من سلالة النبي، ومن ثم فهم من أقارب أشراف مكة، ولكنهم هاجروا من الحجاز إلى بلاد ما بين النهرين في أوائل القرن السادس عشر. وتحت رئاستهم، ظلت قبائل المنتفق محتفظة باستقلالها الكامل تقريبًا عن تركيا حتى عام ١٨٦٣م عندما حاول والي بغداد أن يحدّ من قوة القبائل بالاستيلاء على بعض أراضي المنتفق وتحويل كبير آل سعدون إلى مجرد قائمقام، مع تقليص سلطاته وحصر نفوذه في سوق الشيوخ.

كان كبير شيوخ آل سعدون في ذلك الوقت هو منصور بك السعدون، الذي ثار ضد هذه الإجراءات وحاول أن ينظم هبة عربية عامة ضد الأتراك. واضطر الوالي إلى التراجع عن سياسته الجديدة، ولكن كان من الواضح للمقيم البريطاني في بغداد أنه لو كانت لدى الأتراك القدرة والإصرار على تنفيذ تلك السياسة، لوافقت قبائل المنتفق نظرًا لما كانت تكابده من قهر على أيدي شيوخها.

وفي عامي ١٨٦٤ و ١٨٦٥ كان منصور بك وشيخ آخر من شيوخ المنتفق البارزين هو فيصل آل سعدون، لايزالان يرفعان لواء الثورة، وإن كان ذلك في الخفاء، نظرًا لما يبذله الأتراك من محاولات لتحطيم النظام القبلي. وأخيرًا لجأ منصور بك لدى قبيلة الضفير، بينما مُنحت المشيخة لأخيه ناصر في عام ١٨٦٦ متخطيًا في ذلك الشيخ فهد. واستقبل الأتراك الشيخ ناصر استقبالاً وديًا حارًا، ويبدو أنه وقع تحت تأثير مدحت باشا الكبير الذي أقنعه في حوالي عام ١٨٧١ بالتخلي عن المركز الذي شغله أخوه والشيخ فهد، وأن يرحب بنشر الاتجاهات العثمانية بين المنتفق. وكانت هذه هي أول خطوات التردي، وأصبح الشيخ ناصر صاحب الاسم الكبير (هو الذي أسس الناصرية)، في نظر الجميع، هو الخائن الذي غدر بالمنتفق لحساب الأتراك.

وحاول الأتراك التوصل إلى تسوية دائمة لمسألة الأرض، وعمدوا إلى إغراء

آل سعدون ورشوتهم لقبولهم بتحويلهم من شيوخ يقومون بجباية الجزية إلى ملاّك للأرض. وفقدت القبائل وضعها كمالكة للأرض وأصبحت من المستأجرين. وقسمت كل الأراضي الصالحة للزراعة في الناصرية وسوق الشيوخ بين آل سعدون والتاج التركي.

وفي عام ١٨٧٢ استخدم الأتراك الشيخ ناصر في تسوية الأوضاع في المناطق التي قاموا باحتلالها منذ قليل في الإحساء والقطيف، وكانت المكافأة التي حصل عليها مقابل ما قدمه لهم من خدمات هي تعيينه حاكمًا لولاية البصرة التي أُنشئت عام ١٨٧٥ مع الإنعام عليه بالباشوية. ونتيجة لجمعه بين مشيخة المنتفق ومنصبه الحكومي، تجاوزت قوته الحدود التي يمكن قبولها، فنُفي إلى القسطنطينية في حوالي عام ١٨٧٧.

وفي عام ١٨٨١ وبينما هو في سجنه هبّت جميع قبائل المنتفق ثائرة نتيجة لما وقع من صدام بينها وبين القوات التركية التي اتخذت مواقعها في المعسكرات الجديدة التي شُيدت حديثًا في الناصرية، ومن ناحية أخرى ونتيجة لما بذله الأتراك من محاولات لفرض التسوية الجديدة لمسألة الأرض وإجبار الفلاحين على دفع الضرائب للتاج التركي وآل سعدون، من ناحية أخرى. ولم يتم القضاء على هذه الهبّة الثورية تمامًا بأي حال فظلت شرارتها كامنة مهيأة للتأجج مرة أخرى في أي وقت. ويبدو أن الأتراك اضطروا أمام هذا الوضع الجديد إلى التخلي عن جباية ضريبة الأرض الجديدة، ومن ثم تزايدت هيبة وقوة فالح باشا، الابن الأكبر لناصر باشا، والذي بدأ منذ ذلك الحين العودة إلى حدٍ ما، إلى سياسة إشاعة الاتجاهات العثمانية التي سبق أن أنتهجها والده.

وفي هذه الأثناء توزع ولاء المنتفق بين فالح باشا وسعدون باشا ابن الشيخ منصور، على اعتبار أن سعدون هو حامي حمى المبادئ القبلية القديمة. واحتل الفريق الموالي لفالح المنطقة الممتدة بين دجلة والفرات بينما احتلت المجموعات القليلة التي يتزعمها سعدون باشا الضفة اليمنى للفرات.

وفي ربيع ١٩٠٨ توفى فالح باشا وأصبح سعدون باشا هو الشخصية التي تتجمع في يدها كل الخيوط، وبدأ في ممارسة أساليب القهر الشديد ضد المنتفق، وقتل العديد من الشيوخ الأدنى مرتبة، وتمادى في تطبيق نظامه القائم على الابتزاز والبطش، وما أن حل عام ١٩١١ حتى كان التوتر يجتاح المنطقة كلها.

وفي شهر يوليو من نفس العام، توقف الأتراك عن تقديم أي دعم رسمي لسعدون باشا، ثم أرسلوه إلى بغداد حيث حددوا إقامته، ثم نقل بعد شهر إلى حلب وبها مات فجأة في ٢٥ نوفمبر "نتيجة لإصابته بالسكتة وهبوط في القلب" كما جاء في التقارير الرسمية، وإن كان الاعتقاد السائد هو أنه قتل بالسم، أما ابنه عجمي بك، فظل الجانب الأكبر من حياته مطاردًا تتعقبه السلطات المتاخمة للناصرية.

وأثناء الفترة التي انقضت بين القبض على سعدون باشا ووفاته، بدا واضحًا أن قبيلة المنتفق كلها (بما في ذلك أعداؤه من فرع فالح) تتعاطف معه، لأنه لم يعد موظفًا عثمانيًا رسميًا، ولم يعد يحظى برضا الأتراك ومساندتهم.

ولم تكن القبائل قد قبلت بأي حال من الأحوال أن يتدنى وضعها من ملاك للأرض إلى مستأجرين لها، كما عجز آل سعدون عن الحصول، ولو باستخدام القوة على المزايا التي أسبغتها عليهم الحكومة العثمانية. ومع ضعف السلطة المركزية منذ بداية الحقبة الدستورية عام ١٩٠٨ وتحلل الإدارة المحلية الذي أعقب الحرب الإيطالية وحرب البلقان، تبددت الآمال التي كانت تراود آل سعدون وظلت القبائل ترفض دفع الإيجار لعدة سنوات قبل الاحتلال البريطاني في عام ١٩١٥م. وبالرغم من كل ذلك، أدت المكانة التي كانت لاتزال لشيوخ آل سعدون، مقترنة بالأفكار سريعة التأثير التي يروج لها كثير من رجال الدين الموالين للأتراك حول الجهاد، والإغراءات القوية المتمثلة فيما يمكن أن يحققه هذا الجهاد لهم من مغانم سواء بما يحصل له المجاهدون من أفعال وأسلاب أو ما يسبغه عليهم الأتراك من إعانات مالية، أدى كل ذلك إلى وقوف مجموعة قبائل المنتفق ضدها في عام ١٩١٤م.

وإذا أردت أن أقدم صورة كاملة لشجرة أسرة آل سعدون، فسوف يتطلب ذلك ذكر عدة مئات من الأسماء، ولذلك سأقتصر على فرع واحد من الأسرة، لتتبين من خلاله الانقسام الحديث الذي تمخض عن ظهور فريق سعدون من جانب وفريق فالح من الجانب الآخر، كما سأذكر بعض الملاحظات المتعلقة بعدد من الشخصيات التي يرد ذكرها في القصص التي وجدت أنه يجب عليّ أن أسجلها:

عبدالعزيز الراشد آل سعدون (غير وارد بالشجرة): كبير جماعة الراشد في سوق الشيوخ. توفي.



الشيخ عبدالله الجابر الصباح



الشيخ صباح السالم الصباح


الشيخ صباح الأحمد الصباح


الشيخ جابر الأحمد الصباح

- عبدالمحسن آل سعدون (غير موجود بالشجرة): تولى رئاسة الوزارة أربع مرات بالعراق. انتحر أثناء ولايته الرابعة في ١٣ نوفمبر ١٩٢٩م.
- عبدالله بك آل فالح باشا آل سعدون (انظر الشجرة): من أشهر شيوخ جميع مجموعات قبيلة المنتفق المقيمة بين نهري دجلة والفرات. توفي.
- عجمي Ajaimi بك آل سعدون (انظر الشجرة): الرئيس السابق لمجموعات قبيلة المنتفق المقيمة على الضفة اليمنى للفرات. يعيش الآن في تركيا.
- عجيل بك آل سعدون (غير وارد بالشجرة): زعيم بارز، تعيش عائلته بالقرب من الناصرية.
- بندر آل سعدون (انظر الشجرة): والد علي بن بندر آل سعدون ومحمد ابن بندر آل سعدون. توفي.
- ضاري Dh'ari بك آل فهد آل سعدون (غير وارد بالشجرة): عضو بارز في فرع آل محمد من الأسرة، كان يقيم فيما مضى في الناصرية. توفي.
- فهد بك آل سليمان آل سعدون (انظر الشجرة): كان يقيم في الضفة اليمنى للفرات. توفي.
- فالح باشا آل سعدون (انظر الشجرة): كان فيما مضى رئيسًا للمجموعات القبلية المقيمة بين دجلة والفرات. والد عبدالله بك آل فالح باشا آل سعدون، الذي خلفه بعد وفاته كشيخ كبير لتلك المجموعات.
- حزام بك Haz'am آل سعدون (غير وارد بالخريطة): عضو بارز في الأسرة، كان يقيم فيما مضى بالقرب من الناصرية. توفي.
- إبراهيم بك بن مزعل Miza'al (انظر الشجرة). عضو بارز في الأسرة، ويقيم الآن بالبصرة.
- مزعل باشا آل سعدون (انظر الشجرة): والد إبراهيم بك ابن مزعل باشا آل سعدون. توفي.
- محمد بن بندر آل سعدون (انظر الشجرة): ابن بندر آل سعدون.
- ناصر باشا آل سعدون (انظر الشجرة) آخر والي للبصرة من آل سعدون.
- سعود بك آل سعدون (انظر الشجرة): الأخ الأصغر لعجمي بك وثامر بك.
- ثامر بك آل سعدون (انظر الشجرة): يقيم الآن في سوق الشيوخ.
- يوسف بك آل عبدالله آل منصور آل سعدون (انظر الشجرة): ابن عم عجمي بك، وثامر بك، وسعود بك.

توليت أمر العناية بسوق الشيوخ:

عندما بدأت الحرب مع ألمانيا، أرسلت فصيلتي إلى فرنسا، ولكن نظرًا لإتقاني اللغة العربية التي تعلمتها منذ صباي، توجهت من الهند إلى بلاد ما بين النهرين في نوفمبر ١٩١٤ على الفرقة الثالثة والثلاثين فرسان خفيفة، وشاركت في كل الخطوات التي انتهت بالاستيلاء على البصرة، والقرنة والناصرية، بما في ذلك معركة الشعيبة بالقرب من الزبير.

وفور استيلاء الجنرال كورنج (والذي كانت القوات تحبه وتطلق عليه تسمية البرتقال الأحمر) على الناصرية في يوليو ١٩١٥ كلفت بالعمل كضابط مخابرات في سوق الشيوخ، تلك البلدة العريقة في عروبتها المطلة على الفرات في قلب ديار قبيلة المنتفق. وحتى في أيام الأتراك قبل عام ١٩١٤ لم يكن للقانون وجود في تلك الربوع. وكان المنتفق يتميزون بالعناد والتمرد، حتى أجبرتني حالة الفوضى الشاملة التي خيمت على المنطقة إلى الإلحاح على الإدارة السياسية، وكان يرأسها السير بيرسي كوكس، بسرعة تنظيم إدارة مدينة جنوب العراق، وإرسال ضابط لتولي إدارتها، ولكم أن تدركوا مدى المفاجأة التي واجهتها عندما وصلتني برقية من السيد بيرسي يخطرنى فيها بتعييني مساعدًا سياسيًا في سوق الشيوخ، إلى جانب واجباتي الأخرى.

ورغم ابتهاجي، إلا أنني توقعت مواجهة العديد من المشكلات، لأن قبيلتي خيقان والمجرة الكبيرتين، والنازلتين - على التوالي - على الضفتين اليسرى واليمنى للمجرى الرئيسي للفرات، وينتشر أفرادهما بشكل ينذر بالخطر في الدلتا الواقعة بين السوق وبحيرة الحمّار Ham'ar كانتا على شفا القتال، وبلغ الأمر بهما أن راحت كل منهما تستولي على كل ما يقع تحت أيديها وهما تنزعان النهر صعودًا وهبوطًا أثناء ممارستهما لنشاطهما المشروع. ومما زاد الطين بلة أنه لم تكن هناك قوات للشرطة، أو الشرطة النهرية (الشبانة) Shaba'na أو من السواري (وهى الشرطة الراكبة المخصصة للعمل في الصحراء)، ولا أي جنود بريطانيين أو هنود.

وهكذا كنت الإنجليزي الوحيد الذي يعيش في هذا المكان، وكنت أقيم بمفردي رغم كل ما يحيط بي من أبهة وصولجان، بينما الجيش البريطاني يقاتل ليشق طريقه أعلى نهر دجلة، وكان كل يوم يجلب معه المزيد من الإثارة، وما كان بقدرة أحد أن يتنبأ بما سيأتي به الليل أو الغد.

وأنا مدين باستمراري على قيد الحياة، لدرجة أو أخرى، لحسن نوايا الحاج حسن حمداني، وهو من الرجال الأقوياء في البلدة، وكانت تحت إمرته مجموعة من المسلحين يبلغ تعدادها مائتي شخص يتولون فرض إرادته من ناحية، والمحافظة على شيء من المشروعية والنظام من ناحية أخرى. أما خارج حدود البلدة فلم يكن له أي نفوذ على الإطلاق.

كنت قانعًا بالوضع الذي صرت إليه طالما كنت مجرد ضابط مخابرات فحسب، أعيش في ظل الذراع القوية للشيخ حسن، وأقيم في منزله أغلب الوقت. ولا يسعني الآن إلا أن أبتسم عندما أتذكر أنه كان عليّ أن أقوم بتشكيل قوة صغيرة للعمل على البر وفى النهر. وأن أقوم بتكوين جهاز شرطة للبلدة، وأن أبدأ إدارتها. وكان ذلك يعنى، في المقام الأول، أن أحصل على الأموال من قبائل لم يسبق أن دفعت سنتًا واحدًا للأتراك طوال العشرين عامًا السابقة. وكنت أعرف أنه سيتعين عليّ أن أخوض عدة صراعات، ليس أقلها تقليم أظافر الحاج حسن والحد من سطوته الكبيرة، وفرض احترام القانون والنظام بين بنى خيقان والمجرة.

وانتقلت إلى منزل عربي صغير يواجه النهر ويفصله عنه فراغ يبلغ عرضه مائتي ياردة. وكان بالمنزل ردهة تتوسطه، ويتكون الطابق الأرضي من أربع حجرات، استخدمنا ثلاثـًا منها كمكاتب، والرابعة كمطبخ، وأما الغرفتان اللتان يتكون منهما الطابق العلوي فخصصت إحداهما لنومي، والأخرى كغرفة معيشة. وكانت الطريقة الوحيدة لدخول المنزل هي العبور من خلال باب صغير متين الصرح، مدرع بالحديد، ويحتاج لجهد كبير لفتحه. ولم تكن هناك أي فتحات أخرى تطل على الخارج سوى هذا الباب، فجميع النوافذ تطل على البهو الداخلي. وكان السطح المواجه للغرفتين العلويتين محاطًا بسياج يبلغ سمكه تسع بوصات. وارتفاعه أربعة أقدام وست بوصات. والواقع أن المبنى كان مثاليًا فيما يتعلق بالدفاع عنه إذا تعرض للهجوم، وكان متينـًا جدًا، ولا يحيط به أي مبنى آخر من ثلاث جوانب.

وسرعان ما انحاز الحاج حسين إلى جانبي بعد أن عرضت عليه أن أتولى أمر رجاله وألحقهم بخدمتي، وأزودهم بالسلاح وأدفع لكل منهم مرتبًا. كما قمت أيضًا بتعيين شقيقه الأصغر - كاظم حمداني - مساعدًا عُربيًا لي، وسالم، ابنه

الأكبر، ليتولى أمر جباية الضرائب في البلدة. ثم أنعمت على كبيرهم نفسه بلقب شرفي غير رسمي هو مستشار مكتب الإدارة السياسية، ثم أنعمت بنفس اللقب على الحاج عباس السنيط Al Sanait والحاج علي الدبوس، والحاج إبراهيم العماري، وهم جميعًا من أعلى مواطني السوق منزلة وقدرًا. ويمثل كل منهم قسمًا من الأقسام الأربعة للبلدة. وقد تعلقت جدًا بهؤلاءً المستشارين الأربعة، وكنت أقضي معهم ساعات طويلة في متاجرهم أو في منازلهم الخاصة، نتبادل الأحاديث في شتى الأمور إلى جانب دعوتهم كل يومين، أو نحو ذلك لتناول القهوة والمرطبات معي في منزلي الصغير. وبالطبع كانت هناك حزازات وضغائن بينهم، ولكن لم يجرؤ أي منهم أن يبدى ذلك، وفضلوا أن يعملوا معي على أن يعملوا ضد بعضهم بعضًا، مع حرص كل منهم على ألا يتميز أيهم بمكانة خاصة لديّ. وعملنا معًا كفريق، وأنجزنا الكثير، ولاشك أن نجاح إدارتنا الصغيرة في سوق الشيوخ، وكانت إدارة ناجحة بالفعل كلية، إلى حسن نوايا وتعاون هؤلاء المستشارين الأربعة.

وبعد أن سيطرت على البلدة، تحولت باهتمامي إلى القبائل المحيطة بها، وبدأت بتجنيد مائتي شخصًا للعمل كقوة للشرطة النهرية نصفهم من بنى خيقان ونصفهم من المجرة، وسلمتهم بنادق تركية وزيًا موحدًا أنيقا، وأقمت مراكز للشرطة يفصل بين كل منها والآخر حوالي ثمانية أميال على امتداد النهر جنوبًا حتى بحيرة الحمّار في الشرق، وحتى مضيف Mudhif وبرج الشيخ شويد بن مهينة، وكان ذلك هو الحد الذي تنتهي عنده مملكتي الصغيرة على منتصف الطريق إلى الناصرية.

واحتفظت بقوة ضاربة تتكون من مائة من رجال الشرطة النهرية بالقرب من مقر رئاستي. ومن أجل تسيير الدوريات في الصحراء في اتجاه الخميسية وما وراءها، خولت ثامر بك السعدون، وكان يعيش في أم البطوش Battush سلطة المدير وزودته بالأموال اللازمة لتعيين وتجهيز ثلاثين من السواري، على أن يتولى هو أمر توفير الجياد. ولم أقدم لهذا القطاع من المدينة أي أسلحة إلا بنادق مارتيني الهندية القصيرة، وهى عتيقة الطراز ولكنها كانت في حالة جيدة وأحبها هؤلاء البدو وأخذوا يطلقون عليها الأسماء مثل "أبو ميزر"، و "دكسان" (الغزال الصغير). ومن الطريف أن هذا الاسم الأخير أصبح يطلق عليّ أنا شخصيًا للتقارب في النطق بين الكلمة العربية واسمي.

وبعد أن قمت بتعيين مديرين آخرين في كرمة Gurmat بني سعيد والخميسية، والعكيكة، وشمال بحيرة الحمّار، وأصبح جهاز جباية الضرائب علي أهبة الاستعداد لبدء العمل. وأشار عليّ المستشارون الأربعة بالتدرّج، فأبدأ أولاً بالضريبة المفروضة على النخيل (روبية عن كل نخلة)، وأن أدع جانبًا ضريبة الأرز أو القمح أو الشعير، وأن أتغاضى – إلى حين – عن جباية الكودة - Koda - وهي الضريبة التي فرضها الأتراك على الأغنام. كما أخبروني أيضًا أن الأتراك لم يخلفوا وراءهم أي سجلات على الإطلاق، وأنني إذا أردت معرفة الأرقام الدقيقة، فلابد من إجراء حصر وتعداد للنخيل في كل مكانٍ، وهو ما ستقاومه القبائل. ونصحني المستشارون أن أطلب من كل قبيلة – بدلاً من ذلك – أن تدفع مبلغـاً معينًا في السنة الأولى، يتضاعف في السنة التالية ثم يتضاعف مرة أخرى في السنة الثالثة، على أن أعرض عليهم إذا كانت لديهم أي تظلمات أو شكاوى – أن أقوم بتعداد النخيل بنفسي. وقد توصلت إلى أن عدد الأشجار التي زرعت منذ جباية الأتراك لضريبة النخيل لآخر مرة منذ عشرين عامًا، بلغ حدًا من الضخامة بحيث لا يقبل أحد أن يجرى حصر وتعداد لنخيله إلى أن يستمر تطبيق نظام مضاعفة المبلغ مالا يقل عن خمسة أعوامٍ.

ووافقت على الاقتراح، خاصةً أنني لم أشأ أن أكون سببًا في وضع العراقيل أمام قيادة القوات البريطانية التي كانت تبذل قصارى جهدها في ذلك الوقت لمطاردة الأتراك على ضفاف نهر دجلة، بأن أتسبب في أي نوع من التذمر أو في وقوع أي أحداث في المنطقة نتيجة "لقصر نظر مساعد سياسي ملعون".

جباية الضريبة:

وكان من سخرية القدر حقًا أن أعمل على تحصيل ضريبة النخيل من قبائل مشكوك في ملكيتها القانونية لها، وهي في نفس الوقت قبائل مسلحة وعلى درجة فائقة من القوة في كل مكان. وكان عليّ أن أنجز هذه المهمة بمزيج من الحيلة والخداع بإقامة الولائم وتوجيه الدعوات "الخ"، مع استخدام القوة أحيانـاً وتوجيه ضربة قوية لأحد الأشخاص وردع كل من يتقدم لنجدته.

وكانت قبيلة الشدود Al Shaddud وموطنها بجوار بني خيقان على الفرات، على بعد اثني عشر ميلاً شمال غرب السوق، هي أول من استرعى انتباهي، كان شيخهم الحاج فيصل الشدود، رجلاً يبلغ طوله ستة أقدام وأربع

بوصات، وله خمسة أخوة يضارعونه في الطول والوساطة. وأخبرته أنني جئت من أجل التوصل إلى تسوية لمسألة ضريبة النخيل والتي أطالبه بها عن ذلك العام على وجه التحديد، وأجابني بدعوتي إلى مأدبة فاخرة أقامها تحت أشجار النخيل التي يملكها. وقبل تناول الطعام ذكرت أنني أقدر عدد نخيله بحوالي الستين ألفاً، وأنني على استعداد للقيام بتعدادها إن كان يفضل ذلك. واعترض الحاج فيصل في استياء وامتعاض، وأقسم أنني ألقى عبئًا فادحًا على كاهله وعلى كاهل القبيلة. وتمسكت بموقفي، وكان الوضع ينذر بالخطر، إذْ كان جمع من رجال القبيلة المسلحين يحيطون بمجموعتي الصغيرة من كل جانب.

وبعد حوالي ساعتين من النقاش والجدل، تنازلت عن ألف نخلة، وجلسنا لتناول الطعام، بعد أن استقر الرقم الذي تمسكت به عند الخمسة عشر ألفاً. ولم تحقق الوليمة نجاحًا كبيرًا، خاصة وأن الجميع كانوا يأكلون ومسدساتهم في أيديهم. وكان من الواضح أن هناك اعتراضات كثيرة على وجودي وأنه يمكن لأي شرارة أن تضرم النار في المكان كله. وكان الأخ الثالث لمضيفي – الحاج حمد الشدود، يضع بندقيته على ركبتيه وفوهتها مصوبة على بعد ست بوصات من ضلوعي. وطلبت أن أرى هذه البندقية فوجدتها مشحونة بالطلقات، وقد انتزع منها صمام الأمان، مع وجود أربعة خراطيش إضافية من الذخيرة داخل غرارة. وبسرعة أخرجت الطلقات. وبدت على الحاج فيصل علامات الضيق والبلاهة المفتعلة عندما قلت أنني – أنا ضيفه – لا يمكنني أن استمتع بالوليمة بينما بندقية أخيه تكاد تلامس ضلوعي، وعلى أي الأحوال، تغلب كرم الضيافة في ذلك اليوم، وافترقنا جميعًا كأصدقاء رغم إحساسي أنني أفلت بشق الأنفس.

ولعل من الطريف أن أذكر هنا أنني حصلت على الضريبة على ثلاثين ألف نخلة من الحاج فيصل دون أن ينبس أحد ببنت شفة، ثم حصلت عليها على ستين ألف نخلة في العام التالي، أما في العام الرابع، وعندما وصلت مطالبتي إلى مائة وعشرين ألف نخلة، فقد طلب الحاج إجراء التعداد، فقمت بذلك بنفسي، واتضح أن الرقم الدقيق أكثر قليلاً من مائتين وسبعة وأربعين ألفاً. ولاشك أن الشيخ الأريب كان يخشى أن أضاعف الرقم في العام الخامس، فرأى أن الوقت مناسب للتوصل إلى تسوية نهائية.

لم أشعر في أي وقت من الأوقات بأي ضغينة إزاء الحاج فيصل أو الحاج محمود، وأصبح الشدود من خيرةِ المواظبين على سداد الضرائب .وبعد أربعة وعشرين عامًا، عندما كنت وكيلا سياسيًا بالكويت، سعدت جدًا عندما زارني الحاج مغامس Maghamis الأخ الثاني للشيخ فيصل، وشيخ القبيلة في الوقت الراهن.

محمد الحيّل Al 'Ayail يبيض وجهي:

كان الحاج مري يشارك الحاج دوغي Dughi مشيخة قبيلة العساكر Asachira وهى جماعة مزعجة لا تخضع لأي نظام تقع أراضيها بجوار الشدود مباشرة أعلى النهر وتملك هذه القبيلة حوالي ثمانية أميال من الأرض المطلة على النهر، بالإضافة إلى حزام من النخيل الجيد بحذاء النهر، ومنطقة رائعة تزرع القمح والشعير وراء هذا الحزام، وكان الحاج مري يملك أيضًا عدة أفدنة من الأرض التي تزرع أرزًا وراء حزام القمح. وتقع قريته الرئيسية على بعد حوالي ميلين من المجرى الرئيسي للنهر، ويمكن رؤيتها بسهولة بحصونها الخمسة ذات الفتحات المحصنة لإطلاق النيران، والتي تحيط بها من جميع حجراتها، وكان الحاج دوغي يكره الحاج مري ويتمنى أن يعترف به في يوم من الأيام كشيخ أوحد للعساكرة كلها. وكان الشيخ مري سيئـًا من كافة الوجوه، ويتميز بعينين تشعان مكرًا وخبثـًا، وابتسامة صفراء باهتة لا توحي بأي ثقة أو اطمئنان.

في تلك الحقبة كان السفر بالنهر ليلاً محفوفًا دائمًا بالمخاطر، ولكن أخطر مراحل الرحلة كانت تلك التي تقطع فيها الشريط البالغ طوله ثمانية أميال الممتد على النهر في مواجهة موطن العساكرة، على الطريق إلى الناصرية.

ولم أكن قد حققت بعد السيطرة التي أسعى إليها، وكانت العساكرة تفرض إتاوة على أي قارب يمر بالنهرٍ، وتطلق النار وتستولي على أي سفينة بما تحمله، إذا حاولت التحدي والمرور ليلاً، ولم تكن الظروف لتسمح لي بأن أتذرع بالشجاعة فأقدِم على إنشاء مركز للشرطة النهرية في موطن العساكرة، خشية وقوع ما لا تُحمد عقباه. وتذرعت بالصبر إلى أن يحين الوقت المناسب.

وسريعًا حان الوقت المناسب:

وحان الوقت المناسب أسرع مما كنت أتوقع، وذلك عندما تلقيت من

السير أرنولد ويلسون – وكان يشغل منصب نائب المقيم بالبصرة أثناء وجود السير بيرسي كوكس مع القوات البريطانية على جهة دجلة – لنشًا قويًا جديدًا، فسنحت لي الفرصة للحركة على نطاق أوسع من ذي قبل، وتمكنت من أن أتواجد بنفسي في كافة المواقع النائية في دلتا سوق الشيوخ، وهكذا تعزز موقفي لدرجة ليست بالقليلة لأن ليس هناك ما يصدق على القبائل في تلك النواحي مثل قولهم المأثور "عقلهم في عيونهم"، وهاهم يرون الآن المسئول السياسي رأي العين بعد أن كان الخوف أو العجز يحول بينه وبين الظهور أمامهم.

وذات ليلة، والشمس توشك على المغيب، جاءت امرأة من البلدة لمقابلتي تصحبها ابنتها، وهي شابة رقيقة هجرها زوجها. وقالت المرأة أنها أرملة تاجر من نجد، وأن لديها ابنـاً راشدًا في الثانية والعشرين من عمره، وأن ابنتها في العشرين، وحدث ذات مرة أن أقرض زوجها الحاج مري مبلغـاً من المال، ولما فشل في استرداد الدَّين عندما حلّ موعد السداد تقدم بشكواه إلى الشيخ حسن حمداني. وعندما جاء الحاج مري لشراء بعض الاحتياجات من سوق المدينة قبض عليه الحاج حسن وألقى به في غرفة مغلقة تنقصها النظافة، واحتجزه بها إلى أن تم السداد، وأضافت أن زوجها توفى فأخذ ابنها يمارس التجارة بعده ولكن على نطاق ضيق.

وقبل عشرة أيام من زيارتها لي، كان ابنها في طريقه إلى الناصرية مستقلاً قاربًا صغيرًا (بلم Ballam) فتعرض للهجوم والاختطاف من جانب قبيلة العساكرة. وتوقعًا لأسوء الاحتمالات أرسلت المرأة عدة رجال ليتقصوا حقيقة الأمر، فعادوا بقصة تقول أن ابنها يقيم في قرية الحاج مري سجينـاً تحت الحراسة المشددة، وأنهم فقأوا عينيه، والأكثر من ذلك أن الحاج مري ظل يجبره طوال الأيام الخمسة الماضية على حرث أرضه التي يزرعها قمحًا وقد شُد وثاقه جنبًا إلى جنب مع حمار. وكانت القصة مروّعة تثير التقزز والاشمئزاز، وأحسست فعلا بالغثيان.

وبعد أن وعدتني المرأة بألا تحدّث أحدًا عن زيارتها لي، طلبت منها أن تنصرف، ووعدتها من جانبي ألا أقف مكتوف اليدين، لم أذكر على وجه التحديد ماذا سأفعل، لأنني لم أكن أعرف بعد كيف أتصرف، وبعد ساعة، قررت القيام بحملة مفاجئة ونبهت على محمد الحيّل، رئيس الشرطة النهرية

بضرورة القيام باستعراض للقوة على رأس عشرين من خيرة رجاله في الساعة العاشرة صباحًا، وكان محمد رجلا شجاعًا يُشع مرحًا وبهجة أينما ذهب.

وفى الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل، انطلقنا على ظهر اللنش الجديد متوجهين إلى موطن العساكرة. كان الظلام حالكًا، والسكون المطبق يخيم على المكان كله. وعندما وصلنا إلى نقطة في مواجهة قرية الحاج مِري في حوالي الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، خفضت سرعة اللنش إلى حوالي الربع حتى لا تحدث أي ضجيج على ضفة النهر حيث هيأ لنا ستار كثيف من أشجار الصفصاف مأوى نختبئ فيه أشبه بالنفق، ويحجبنا تمامًا عن أي عين متلصصة، ثم ناديت على محمد وشرحت له خطتي: أن نترك خمسة رجال في اللنش للحراسة، وأن نزحف وهو معي على رأس الخمسة عشر رجلا الآخرين حتى نصبح على مشارف قرية الحاج مِري مباشرة، ثم يتقدم محمد ومعه ثلاثة منتقين من الرجال – على طريقة الهنود الحمر – نحو حظائر مواشي الحاج مِري (حيث يرسف ابن المرأة – وفقا لروايتها – في الأغلال طوال الليل) ليطلق سراح السجين في صمت، ويعلن عن نجاح العملية بصيحة واحدة تشبه صوت البومة، ثم يبدأون العودة بأقصى سرعة، وبعد ثلاث صيحات متتالية من نفس النوع، نتوجه جميعًا نحو اللنش، ثم نقفل راجعين من حيث أتينا، إن شاء الله.

وكان نجاح الخطة يتوقف بالطبع على الالتزام الصارم بالصمت المطبق والتقدم خلسة. وكنت على يقين من تحقيق الهدف، لأن قوة الشرطة النهرية التي كانت معي كانت مختارة كلها من بين العناصر العربية التي تجيد أعمال البحر، ولديها مهارة التسلل ليلا كالأشباح.

وكان أول رد فعل لخطتي هو الرفض القاطع من جانب محمد الذي طلب ألا أرافقهم وعلل ذلك بأنني بطريقتي الإنجليزية الجافة سأبدد كل ما نريد أن نحيط به ركبنا من تستر، قبل نصف ساعة بعد نزولنا اللنش.

وقال محمد وهو يكاد يصرخ: "يا صاحب أنت لا تستطيع أن تتسلل في صمت مثلنا، ولا أن تسبح مثلما نسبح لاجتياز القنوات الثلاث العميقة التي تحمى قرية الحاج مري. ولا يمكنك أن تأتى حركات الكلب بالسير على القدمين والذراعين معًا مع رفع أحد الساقين ليبدو وكأنه الذيل، وهى طريقة يألفها رجالنا ويلجأون إليها عندما يصل إلى مسامعهم أي نذير بخطر. أنت تنتظر في

اللنش مع خمسة عشرة من الرجال، وسأذهب أنا مع خمسة أنتقيهم بنفسي. دع كل شيء لي – وسأبيض وجهك".

وكان يعني أن ما سيحققه من نجاح سوف يُنسب إليّ. وكنت مضطرًا للموافقة على ما أراد، ولكن ضد رغبتي تمامًا. وخلع محمد ومجموعته – خمسة من رجال الشرطة النهرية أشبه ما يكونون بثعابين بحيرة الحمّار – كل ثيابهم، وربط كل منهم حول خصره العاري حزامًا عريضًا ثبت فيه خناجره الطويلة المقوسة التي يستخدمها أبناء القبائل التي تقضي حياتها في أحضان النهر، وتركوا بنادقهم وذخيرتهم في اللنش، وكانت أخر توصيات محمد هي أنه في حالة عدم عودتهم فعلينا أن نرجع إلى سوق الشيوخ. وكان آخر ما لمحته منه، على ضوء ومضة خاطفة من بطاريتي الكهربائية الصغيرة هو جسمه العاري الممشوق، والبسمة على شفتيه تطفح بشرًا وتفاؤلاً توقعًا لما سيتحقق من نجاح في المغامرة المثيرة. وفي صمت مطبق اختفى الرجال الستة في عتمة الليل.

وكانت ليلة مشحونة بالقلق والترقب، وطلبت من جميع الرجال ألا يغادروا اللنش، وأنزلت اثنين منهما فقط للخوض في الأعشاب لمسافة حوالي خمسين ياردة لرصد أي بادرة للتحرك من جانب أي عدو متلصص. وفي الساعة الثالثة والربع سمعنا صوتـًا يأتي من بعيد، كانت كلاب القرية تنبح، واستمر النباح خمس دقائق، ثم ران السكون من جديد إلى أن سمعنا صوت طلقة بندقية أعقبها صوت عشرين أو ثلاثين طلقة متتالية وكثير من الصياح، وكان من الصعب أن نحدد ما إذا كان ذلك صوت إنذار، أم أن رجالي انكشف أمرهم وأحكم عليهم الحصار. وبلغ التوتر ذروته بين المجموعة التي تنتظر في اللنش، وبدأو يعدون بنادقهم لاستخدامها إذا واجهنا أي طارئ.

وبلغت الساعة الثالثة والنصف ولم يسمع محمد، ولا سمعنا نحن أي أصوات تأتي من اتجاه القرية، وفي الساعة الرابعة إلا الربع بدأت أخشى أن نواجه أسوأ التوقعات. كنت متوترًا ويائسًا إلى أقصى حد، وقررت الانتظار لفترة قصيرة، كان السكون المطبق يزداد وطأة، حتى يمكنك أن تسمع صوت أنفاس الرجال. وفي الساعة الرابعة إلا عشر دقائق أمرت – هامسًا – بأن نتحرك وفي نفس اللحظة، ومن مسافة قريبة، جاء صوت ثلاث صيحات كصوت البومة في تتابع سريع. وبعد ثانية أو ثانيتين، وبين سحب الظلام الكثيف، بدأ شبح

محمد يتراءى لنا ورجاله في أعقابه يحملون لفتّين يصعب تحديد شكلهما، سارعوا بإنزالهما على ضفة النهر بالقرب من اللنش، واقترب محمد منّي وقال في صوت خفيض: "لقد جئتك بشابّك الضرير على خير مايرام. كما جئتك أيضًا بالحاج مرّي!"

كان الاثنان مربوطين مع تكميم الفم حتى لا يصدر عنهما أي صوت، وحتى يسهل حملهما. ولم يتطلب الأمر وقتا طويلا لإنزال هذا الصيد الثمين إلى اللنش، وليندفع بحارتنا في صمت داخل المياه لنخرج من مخبأنا بين أغصان الصفصاف. ثم بدأنا طريق العودة، أولا برُبْع الحدّ الأقصى للسرعة، ثم بأقصى سرعة عندما ابتعدنا عن مواطن العساكرة.

وصلنا مع مطلع أول شعاع للشمس، وقبل أن يخرج أحد من منزله. ووضعنا الحاج مِري في سجنه القديم، وتمكنت بعد ساعة من تسليم الشاب الذي فقأوا عينيه بكل قسوة ووحشية لأمّه وأخته.

وأنكر الحاج مرّي بالطبع، أنه هو الذي ارتكب ما وقع من اعتداء على الشاب وقال أن أعداءً آخرين هم الذين اقترفوا هذا الإثم، وأمرت أن يظل سجينـًا في مكان مغلق محكم الحراسة إلى أن يدفع ثمانمائة روبية كدِيَة (فصل fasl) وهو المبلغ الذي يحدده القانون القبَلي السائد بين جماعات المنتفق، وأضفت من جانبي أربعمائة روبية أخرى كعقوبة لمحاولته تطبيق القانون بنفسه.

وظل السجين محتجزًا لدينا لمدة خمسة عشر يوما، عندما جاء إلى منزلي وفد صغير من سيدات العساكرة، على رأسهن زوجة الحاج مرّي، ورُحن يبكين، وأقسمن أن الحاج اللعين الوضيع لا يملك أي نقود لدفع الدّية والغرامة، وقلن أنني أخطأت في التدخل في عادات القبائل وما درجت عليه من تقاليد لإقامة العدل، وطالبن بإطلاق سراح شيخهن. وعندما رأين أنني لن أحيد عن موقفي، أذعنت زوجة الحاج مرّي الوسيمة، وأخرجت مجوهراتها وحليها من منديل قديم تفوح منه آثار رائحة كريهة، وكانت تتكون من رصيعة (ميدالية) كبيرة موشاة بالذهب والفيروز، وعقد من العملات المعدنية الذهبية، وزوج من الخواتم الذهبية الجميلة مثلثة الشكل يزين كلا منها خمس قطع من الفيروز. وقالت زوجة مَرّي أنها تقدم هذه المجوهرات والحليّ بدلاً من الغرامة التي فرضتها، أما الغرامة فسوف تدفع إذا أطلقت سراح زوجها، وسألتني في سذاجة: "كيف

يستطيع زوجي جمع المبلغ المطلوب من أبناء القبيلة إذا لم يطلق سراحه؟"، وأوضحت لها، وأنا أتذرع بالصبر، أنه يجب على الحاج مِرّي نفسه أن يدفع وليس أبناء القبيلة، وفي صبر أيضا شرحت لي المرأة الموقف وقالت إنني لا أفهم عادات القبائل، وأنه طالما لمَ يفرج عن رجلها، فلن يتحقق أي شيء. وتوصلت معها إلى حلَ وَسَط، فاحتفظت بالرجل في سجنه إلى أن حصلت على المبلغ المطلوب عن طريق الشيخ دوغي شريك الحاج مري في رئاسة القبيلة.

هكذا انتهت جولتي الخاطفة مع الحاج مِرّي. أماَ بالنسبةٍ لأم الشاب الذي فقد بصره، فقد أفسدت الأمور إلى حدٍ ما بزيارتها لي خِلسةً بعد حلول الظلام وقولها إن أبنتها تودّ التعبير عن امتنانها بالطريقة الوحيدة التي تملكها وهي أن تمضى ليلة معي كلما أردت، وهزّني هذا القول، ولكنىّ لم أعقب في نفس الوقت. ومن الواضح أن المرأة لم تفهم ما أقصده عندما أجبتها باللغة العربية، وبأفضل طريقة يمكنني أن أنطقها بها: "استغفر الله"، فكان كل ما تمكنت من قوله هو: "كان الأتراك يفعلون هذا الشيء دائما قبل أن تأتوا أنتم الإنجليز، إذن فلا شيء يشذ عن المألوف، وعلى أي حال فإن أحداً لن يعرف شيئاً.

وهنا لابد من حاشية إضافية: فبعد ستة أعوام، عندما كنت مسئولاً سياسيا في وسط وادي الفرات واتخذ من الحلة Hillah مقرًا لي، زارتني زوجة الحاج مِرّي أثناء مرورها بالمدينة وقد اعتزمت الحج وهي في طريقها إلى كربلاء. كانت قد تغيرت قليلا وبادرت بتذكيري بأنني لازلت احتفظ بمجوهراتها وحليّها وأخذت تلحّ مطالبة باستردادها، وقالت إن الحاج مِرّي توفىّ منذ سنتين دون أن يتمكن من تعويضها عَما ضحّت به. ولم يكن في وسعي أن استجيب لما تطلب، فالمجوهرات والحليّ تم بيعها منذ وقت بعيد، وأدرج ثمنها في إيرادات سوق الشيوخ. ومع ذلك، وإدراكا منّي لضرورة التصرف بلباقة وإثبات أن دكسان لا تنقصه الفروسية، دفعت لها أربعمائة روبية، وهو حجم الغرامة التي سبق فرضها على زوجها، فانصرفت راضية سعيدة إلى أبعد الحدود.

ناصِحٌ حكيم

كانت تسوية النزاعات القبلية من أهَم المصاعب التي واجهتها في سوق الشيوخ وسرعان ما اكتشفت أن شهادة الزور والكذب هما الزاد اليومي لهؤلاء الزمرة من المنتفق الذين ارتبطت حياتهم بالنهر. وذات يوم، وبعد أن يئست من التوصّل

إلى حقيقة ما وراء أحد النزاعات التي تفاقمت على نحو غير مألوف، طلبت من مساعدي، كاظم حمداني، أن يشور عليّ بما يراه، فأجاب قائلا: "لماذا لا ترسل الطرفين المتنازعين إلى مدينة النجف الأشرف المقدسة حيث يطلب السيد كاظم اليزدي من كل منهما أن يقسم باسم عباس تأكيدًا لدعواه، في مسجد علي الكبير، ومن المعروف أنه إذا أقسم أحد كذبًا باسم عباس في مسجد علي الكبيرِ بالنجف، قطعت رأسُه على الفور بواسطة قوة إلهية، لتحلق إلى أعلى داخل القبة الكبرى وتظلّ مدلاة من قمتها. إن رأس آخر من كذب وأقسم زورًا مازالت تتدلى هناك من سلسلة ربطت بها، تبث الرعب والهلع في قلب كل من رآها.

وكانت مشورة طيبة. وأرسلت إلى النجف، تحت الحراسة، كل الشهود الأكثر أهمية في القضية، ومعهم رسالتين لبقتين وجهتهما إلى السيد كاظم الكبير ملتمساً مساعدته، وبعد عشرة أيام وصلني منه ردّ أبهجني بالفعل: فقد تمكن من تسوية الأمر جيداً وبكل الصدق، وشرح لي في رسالته بالتفصيل كيف بتّ في القضاء وأي الطرفين هو الذي على حق.

ومنذ ذلك اليوم، جرت الأمور معي على مايرام، وتزايد عدد الحالات التي أحيلها إلى النجف للبتّ فيها. والواقع أن عملي أصبح أكثر سهولة عن ذي قبل بنسبة الرُبع، لأن جميع أصدقائي من رجال القبائل عرفوا أنني على استعداد لأن أُحيل إلى النجف، وعلى الفور، أي قضية تطرح عليّ، ولذلك أخذوا يتحسسون مواقع أقدامهم واضعين ما اعتزمته في الحسبان، وثمة حقيقة أخرى أغرتني بمواصلة التصرف على هذا النحو وهى القاعدة المستقرّة التي تقضى بأن الطرف الذي يعلن السيد كاظم اليزدي أنه هو المخطئ، عليه أن يتحمل كل نفقاتِ الرحلة إلى النجف ذهابا وإيابا، وهي رحلة يبلغ طولها مائتين وخمسين ميلاً، تقطع على ظهور الخيل أو على متن القوارب في النهر.

وكما يعرف كلُ علماء الشيعة في العراق وفارس، أصبح قداسة السيد كاظم اليزدي هو المجتهد (المُفَسِّر) الأول لطائفة الشيعة الإسلامية منذ حوالي عام ١٩٢٠. وكان رجلا يتمتع بشخصية متميزة، غزير العلم، وعلى معرفة مذهلة بكل ما يجري في العالم. ونظراً لإعجابه طوال حياته بالبريطانيين، وخاصة السير بيرسي كوكس، أصبح يحتل مركز الصدارة بين جميع الزعماء الدينيين في العراق وفارس، وأزاح كل من عداه، ونجح أثناء الحرب العالمية الأولى في الصمود في

مواجهة كل الجهود التي بذلها الأتراك، برئاسة أنور باشا وسادته الألمان، لتحويل النزاع إلى جهاد ديني أو حرب مقدسة بالنسبة للشيعة، واكتشف الجيش البريطاني في العراق أن أربعة أخماس السكان لا يعادون البريطانيين، بل وكانوا يحملون لهم مشاعر الودّ والصداقة ويتمنّون لهم أطيب الأمنيات؛ ويرجع كل ذلك إلى الطريقة البارعة التي تصدّى بها السيد كاظم اليزدي للموقف.

المضيف (دار الضيافة) MUDHIF :

ومن أجل أن أتمكن من استقبال ضيوفي ومن يأتي لزيارتي من رجال القبائل، حصلت على تصريح رسمي ببناء مضيف (دار للضيافة). وكان مشروعًا مهيبًا وجميلاً، تكلف ألفين وتسعمائة روبية، ويبلغ طوله سبعين قدمًا، وعرضه ثمانية عشر قدمًا، وارتفاعه تسعة أقدام، واستخدمْتُ في بنائه خبراء محنكين في هذه المهنة من قبيلة بنى أسد الكبيرة، أتينا بهم من الجبايش التي تقع في قلب أراضي السبخة المغلقة بالأسرار والتي تبعث الرعب في القلوب، وتمتد عشرات الأميال حول سوق الشيوخ.

وتم استخدام ستمائة حصيرة من القصب جلبناها من بحيرة الحمّار لبناء سقف المضيف وجوانبه وحدها، وُضِعت فوق هيكل من المداخل الكبيرة ذات النهايات المحدّبة والمشيدّة من حِزَم من القصب ربطت ببعضها البعض في إحكام شديد وثُبتت في وضع رأسي مع وضع قواعدها، البالغ نصف قطر كل منها قدمين وست بوصات، على مسافة مناسبة تحت سطح الأرض، فكان المكان، وهو على هذه الحال، سيء التهوية، ولذلك تعمدنا ترك فراغات بين النهايات العليا المدّببة، يبلغ ارتفاع كل فراغ منها قدمين، لتسمح بمرور الهواء. وكان من الممكن فتح المضيف من جميع جوانبه في الأيام الحارة، أمّا فيما عدا ذلك فكان يغلق بإسدال الحصر من خارجه، باستثناء فتحة أو فتحتين عند الطرف الأعلى، حيث يجرى استقبال الضيوف وتقديم القهوة.

وكانت الأرض عن هذا الطرف مغطاة بأنواع من السجاد زاهي الألوان الذي تصنعه القبائل. وأما الموقد المخصص لإعداد القهوة (الوِجار Wujar) فوضع عند الطرف الآخر، بالقرب من المدخل، وكان الخدم والحراس يجلسون حول الموقد، بينما يخترق الزوار الأكثر أهمية المضيف متجهين للجلوس في الجانب المخصص للاستقبال.

ونظراً لموقعه بجوار النهر وفي ظل عدد من أشجار النخيل المتناثرة، لم يكن هناك مكانـاً أكثر برودة من مضيفي عندما تلتهب حرارة الجو عند منتصف النهار في فصل الصيف. فعندما تدخل المضيف، لا يبهرك حجمه فحسب، وإنما يأسرك أيضا ذلك الضوء الخافت الذي يسرى في كل جوانبه. وكان المضيف، في هذا الجانب، أشبه ما يكون بالكاتدرائية. وفي هذا الجانب أيضًا كنت أمارس عملي، وأدعو ضيوفي لحضور مآدب عربية أو للعشاء، وأعقد مجلسي الأسبوعي مع شيوخ القبائل وعلية القوم من أهل المدينة، وفيه أيضًا كنت أتلقى المشورة من الحاج حسن حمداني، والحاج عباس السينط Sanait، والحاج على الدبّوس، والحاج إبراهيم العُمَرى.

حفل استقبال مدني:

لم يتبقَ إلاّ عشرة أيام ويحلّ موعد ميلاد الملك الإمبراطور. ووجدت أن خير ما أفعله للاحتفال به هو أن أقيم وليمة ضخمة على الطريقة العربية في دار ضيافتي، وبناءً على ذلك، أرسلت الدعوات إلى كبار الشيوخ من آل سعدون وعلى رأسهم ثامر بك السعدون، وإلى جميع شيوخ المجرّة وبنى خيقان، كما شملت الدعوة أبرز الشخصيات في سوق الشيوخ، ومستشاريّ الخصوصيين بالطبع، وكان لابدّ أن تكون مأدبة لائقة ومناسبة، فقدمّ فيها ثلاثون ضأنـاً كبيرًا مكتفا مشويًا بكامله، وكل منها يرقد فوق تلّ من الأرز، وحول هذه الخراف، رُصّت مائة وواحد من الصحون الأصغر حجمًا تحوى الدجاج، والسمك، والمرق، والكباب، والتمر، والمهلبية، وشرائح الشمّام والبطيخ، وعدد ضخم من أرغفة الخبز العربي، ثم طاسات اللبن المخيض الذي لا تكتمل بدونه مائدة عربية. وكانت هناك القهوة وأقداح شربت البيذان (شربت اللون) baidhan – (وتُصنع في الأغلب من عصير الفواكه المحلية المثلوج) لمن يرغب، ومن أجل أن يتمكن ضيوفي من غسل أيديهم، كان عليّ أن أستعير بعض الأحواض وأباريق المياه، إلى جانب توفير كمية مناسبة من قطع الصابون والمناشف. وقد أسدى لي كاظم حمداني خدمة جليلة بشراء جميع المواد الغذائية اللازمة وترتيبه أمر الطهي الذي تم في عِدة منازل. كما قمت بدوري أيضًا باستعارة العدد المناسب من السجاد والحصْر لتغطية أرضية الدار كلها، إلى جانب العدد الكافي من الوسائد ليتوفر لكل ضيف شيء يتكئ عليه.

وقَبل الجميعُ دعوتي باستثناء شخص واحد، هو الحاج مزبان، أحد الشيوخ الأربعة الذي يحتلون مركز الصدارة في قبيلة آل حكام، أما الثلاثة الآخرون فهم قاصد الناهي، وفرهود الفندي، وناصر الحيّل. وبعث إليّ الحاج مزبان رسالة يقول فيها إنه يخشى حضور هذه المناسبة الاجتماعية لأن الطريق الوحيد الذي عليه أن يسلكه يمرّ عبر أراض معادية، ولكنه أضاف أنه سيحضر إذا أعطته الحكومة أماناً (بخط مكتوب)، وثقةً منيّ في الأثر الإيجابي والفعّال الذي يمكن أن تحققه رسالة أوقعها بنفسي وأمهرها بالخاتم الرسمي لمكتبي، بعثت إليه بوثيقة تنص على أنه، هو الشيخ مزبان، ضيف على الحكومة، وأنه قادم لحضور مناسبة اجتماعية رسمية، وأنه لن يصادف أي عراقيل ولن يعترض طريقه أو يتحرش به أحد أثناء مسيرته إلينا؛ وأضفت أن المأدبة المذكورة تقام احتفالاً بعيد ميلاد الملك الإمبراطور، وان الحكومة ترغب وتأمل أن تُنسَى كل النزاعات والخصومات الشخصية لمدة ثلاثة أيام.

وأخيرا جاء اليوم المشهود، وبدأ ضيوفي في الوصول، بعضهم سيرًا على الأقدام وبعضهم على صهوة الجياد والبعض - وهم من أبناء القبائل التي ارتبطت حياتها بالنهر - في الزوارق الطويلة الخفيفة المطلية بالبيتومين، ذات المقدمة العالية، والمعروفة باسم المشوحف mashahif. وكان كلُ ضيف يقبل تحفّ به مجموعة من الأتباع والحرّاس، يتفاوت عددهم وفقا لما يتصوره كل منهم لنفسه من أهمية. ونظراً لأن الحرب بين الأتراك والبريطانيين لم تكن قد حسمت بعد على جهة دجلة، وصل كل شيخ وهو مسلح ببندقية أو قربينة (بندقية قصيرة) وهو في أبهى زينة وأناقة - وكأنه شجرة عيد الميلاد - بينما تتدلى من كتفه الأحزمة العريضة التي تحوى الذخيرة.

دخل الجميع دار ضيافتي، فألقوا عليّ السلام، ثم جلسوا في المكان المحدد لكل منهم وفقا لوضعه. وفى مثل هذه المناسبات، لا يرتكب أصحاب المقام الرفيع من آل سعدون، أو شيوخ القبائل العاديين، أي خطأ، ويعرفون على وجه الدقة أين يجلس، ولم يكن هناك أي تزاحم أو تدافع أو محاولة للجلوس في الموقع غير المخصص لكل فرد. وكان الجمعُ حقا رائعًا يأخذ بلب كل من يشهده فالرجال في أفخر ما لديهم من ثياب، والبنادق من خلفهم تستند إلى جدار الدار. وجلس ثامر بك آل سعدون إلى يميني، ويوسف بك آل سعدون إلى يساري، وعلى مسافة قليلة من صفّ الضيوف الممتد إلى اليمين، كان هناك الحاج مزبان، الذي

طلب الأمان، جالسا بين قاصد الناهي الكهل الذي فقد إحدى عينيه، وفرهود الفندي، ومن ورائهم جلس الحاج ناصر الحيّل، ذلك الرجل الوسيم صاحب الأنف المعقوف بجوار الشيخ فرهود المغشغش Mughashghash، الرئيس الشرفي لجماعة بني خيقان.

كانت وليمة فخمة، وأبدى الجميع، ولهم الحق، إعجابهم بأنواع الطعام الفاخر الذي راح يقدمها لهم حشد من الأتباع تحت إشراف كاظم حوراني المهيب، وقام الخدم ببسط قطع طويلة من القماش الأسود بين صفوف الشيوخ الجالسين. وبعد أن فرغ الضيوف الأساسيين من تناول الطعام وغسلوا أيديهم وعاد كل إلى حيث كان يجلس، اندفع الخدم وحَمَلة السيوف والرقيق السود وعدد كبير من البدو وغيرهم وأخذوا يلتهمون كل ما تبقى من طعام وشراب، في مشهد يجلّ عن الوصف.

ثم جاءت القهوة، وأُلقيَ العديدُ من كلمات المجاملة التي لا تخلو منها مثل هذه المناسبات، وكان أبرز الشيوخ وأعلاهم مكانة هم الذين ألقوا هذه الكلمات، وأخيرًا، ساد الصمت، وبدأ الضيوف ينصرفون، وكان أول من انصرف هو ثامر بك ويوسف بك؛ ثم بدأ بقية الضيوف يقفون تباعًا، وكل منهم يشدّ على يدي، ويقدم لي الشكر بعباراتهم المعتادة، فأرد عليه أنا الآخر بالردود التقليدية، ثم ينصرف. وعندما جاء دور الحاج مزبان ليودعّني، طلبت منه، مازحًا، أن يذكر لي من هو العدو الذي يخشى أن يوقع به أذى، فأجاب: "يا دكسان، إنه هذا الذي صافحك قبل آخر ثلاثة، بعد قاصد الناهي" وكنت أعرف أنه يقصد الحاج ناصر الحيّل، وقلت له: "لاتخشَ شيئًا ياصديقي".

وضحك مزبان – وكان طويل القامة وسيمًا على نحو غير عادى، في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، ويرتدى زبونـًا Zibun (عباءة) أزرق من الحرير الموشّى بالقصب يعرف في العراق باسم البوتّه Putta – وهو يجيب: "لا يمكن أن يلحق بي أي أذى وخط الحكومة بحمايتي في جيبي".

جريمة قتل:

وكانت هذه هي آخر ما سمعته ينطق بها من كلمات. فبعد ثلاثين ثانية فحسب، وبينما هو ينحني ليجتاز الباب، انطلقت خمس رصاصات سريعة متتالية، وخرّ مزبان قتيلا على الأرض.

كان الحاج ناصر متربصًا في انتظاره خارج باب دار الضيافة، بينما يقف خادمه ومعه جوادان مستترًا وراء أشجار النخيل القصيرة على بعد عشر ياردات وخرجت على الفور، ورأيت السيد وعبده، يركضان كل على جواده بمحاذاة ضفة النهر إلى أن تواريا عن الأنظار في أحد الأركان، وبذلت قصارى جهدي من أجل مطاردتهما وتتبعهما واللحاق بهما، ولكن جميع من كانوا يصطحبون جيادًا كانوا قد رحلوا.

واستبد الحزن بالعَبد الأسود المرافق لسيدّه مزبان، وألجَمَته الحيرة، فانحنى على جثته وهو يبكي ويئن بطريقة هستيرية خاصة عندما مدّ يده ليحلّ رباط العباءة. كان مزبان المسكين مصابًا بطلقتين بجوار القلب، وطلقة في الرقبة بينما طاشت الطلقتان الرابعة والخامسة.

في هذه الأثناء، أخذ بقية الضيوف يتجمعون في دائرة، بعضهم تعالى صوته في صخب وعويل، والبعض يكظم غيظه ويعبر في صمت عن غضبه لهذا الذي يجرى، ووضع الجميع بنادقهم على أهبة الاستعداد وهم يمسكون بها بطريقة أقرب إلى التهديد والوعيد، وعبرّ الشيخ قاصد، صاحب العين الواحدة، عمّا يجتاحهم من مشاعر وصاحَ وهو في ذروة الغضب والانفعال ليقول أنه ما لم أفعل شيئًا على وجه السرعة، وأطبق حدّ العدالة على القاتل، فلن يتمكن أيٍ شيخ قبيلة من زيارتي مرة أخرى؛ ألَم أعطِ الأمان لمزبان؟، فما هو الضمان ألاّ يلقى أي شيخ مصرعه فور مجيئه إلى سوق الشيوخ للقاء الحاكم؟

وبعد ساعة، حذرني الحاج الكهل حسن حمداني، وقد ارتسمت كل أمارات الحزن على وجهه، من أن ما وراء هذه الجريمة أكبر مما يبدو للعين للوهلة الأولى، وأنه من المرجّح جدًا أن يكون المقصود بها هي أن تكون إشارة البدء لثورة تقوم بها القبائل في سوق الشيوخ، وهي الثورة التي يبذل الأتراك جهدهم منذ وقت طويل لإشعال نيرانها. وربما كان ذلك صحيحًا أو غير صحيح؛ ولكن من المؤكد أن قبائل سوق الشيوخ الموالية للأتراك كانت أكثر من قبائلها الموالية للبريطانيين في ذلك الوقت، ومن المؤكد أيضًا، أنني كنت أثير المشاعر ضدّي - وهذا أقلّ ما يمكنني قوله - عندما رحت أبذل المحاولات لفرض وجباية الضرائب على النخيل، والقمح، والشعير، والأرز. ولا جدال في أن هذه الإجراءات كان من المحتّم أن تُفضي إلى زوال سلطتي خارج البلدة مَا لم أُبادر باتخاذ خطوات محددة، وعلى وجه السرعة، وسوف يَنتشر نبأ الحادث بعد ساعات

قليلة بين جميع مجموعات المنتفق. وكان أشدّ ما أخشاه هو أن تسود الفوضى في المنطقة من جديد، وأن تقطع المواصلات، ويبدأ التدهور على أوسع نطاق.

وكنت أخشى، قبل كل شيء أن تفشل خططي لتحصيل الضرائب وتذروها الرياح، خاصة وأنه ليس لديّ قوة اعتمد عليها إلاّ الجيش الصغير المكوّن من مائتي جندي من الشرطة النهرية، وثلاثين من قوة الفرسان، الذي يتولى أمره ثامر بك. وكان الجيش البريطاني بعيدًا جدًا في ذلك الوقت، وما كانت القيادة العامة في الناصرية لتوجّه ليّ الشكر بالطبع إذا طلبت منها أي مساعدة عسكرية، كما أنه من الواضح للجميع أن هذه القيادة لم يكن في متناولها ما يكفي من قوات للدفاع عن مواقعها في الناصرية.

وأخذت أقدح زناد فكرى، وبعد ساعة واحدة، اتخذت قراري. وأصدرت بيانات وزّعت في البلدة، وبعثت رسائل لكل الأطراف، أعرض فيها مكافأة فورية مقدارها عشرة آلاف روبية لمن يأتي بالحاج ناصر حيًا أو ميتًا. وأبرقت إلى السير بيرسى كوكس أنبئه بما اتخذت من خطوات؛ ولم يكن في رده الفوري بالموافقة في برقيته التي كان نصّها "على الفور" إلاّ القليل من العزاء ولكنه كان ردًا مشجعًا على أي الأحوال.

عدالة فظّة:

وكما توقعت، تدهورت الأوضاع في المنطقة، ولم أعد أستطيع أن ابتعد عن البلدة في أمان، وحدث مرتين، عندما جازفت بالابتعاد عنها، أن أطلقت عليّ النيران من رجال يكمنون بين الأحراش، ولحسن حظي لم أصب بسوء، وفى مرة ثالثة، عندما ابتعدت عن سوق الشيوخ لمسافة ميلين على ظهر جواد، كان من المؤكد أن ألقى مصرعي لو لم يكن الحاج حسن حمداني قد أرسل، دون أن أعلم، أربعة من قوات الشرطة النهرية من ورائي مع تكليفهم مشددًا بحراستي ومراقبتي عن كثب دون أن يظهروا للعيان، وعندما اندفع نحوي ثلاثة رجال أغراب من وراء أجمة من شجيرات الصفصاف وهم يطلقون نيران بنادقهم إلى مدى يناهز المائة ياردة، دُهشت - وأحسست بالرضا والإمتنان في نفس الوقت - عندما رأيت أربعة من رجالي، يقودهم محمد الحيّل الجسور، يحاصرونهم، ويقتلون أحدهم، ويجبرون الآخران على الفرار، وبفحص جثة القتيل تبين أن المهاجمين من قبيلة الحاج ناصر الحكام.

كنت حزينـًا ومحبطًا، ولكنني كنت أعرف أنه ليس هناك من يمكنني أن أطلب منه المساعدة، وعلى الأقل السير بيرسى كوكس الذي لم يكن يستطيع التخليّ عن جندي واحد من جنوده. وكنت على وعي كامل بأنه يتعين عليّ أن أعمل بمفردي للخروج من هذا المأزق. وكانت المشكلةً هي: كيف يمكنني ذلك بعد أن تبددت هيبتي، وأخذت نغمة جديدة من المقاومة السلبية تسرى في كل مكان بين القبائل المجاورة، وحتى قوات الشرطة النهرية التي تعمل تحت إمرتي، لم تعد سهلة القياد، وبدأ أفرادها ينصرفون عنّي متذرّعين بما لديهم من التزامات ومسئوليات في مواطنهم تستدعى عودتهم على الفور، بل وبلغ الأمر ببعضهم أن قدّم استقالته.

ومرّ شهران، شهران مشحونان بالقلق والأسى، وبدون أي موارد مالية أحصل عليها، بينما أصدقائي يتناقص عددهم يومًا بعد يوم في كل مكان.

وذات يوم، لاح في الأفق، قبيل الظهر، زورق مسلح يرفع الراية البيضاء يرافقه قارب بخاري لحمل الجنود، ويشق طريقه في جهد كبير، ثم يستدير متجهًا إلى الشمال من سوق الشيوخ ،ثم اتجه الزورق والقارب الذي يصاحبه في سرعة كبيرة نحو منزلي، وخلال دقيقتين، كنت أرحّب بقائد الزورق على الشاطئ، وأرتبّ وليمة له ولمن معه، وأخبرني أنه جاء لشراء بعض المؤن والإمدادات، وأن بصحبته فصيلة صغيرة من فرقة كنت الشهيرة وأربعة مدافع آلية.

تناولت عشائي في تلك الليلة على متن الزورق، وبعد العشاء، عرضت على مضيفي كل ما أواجهه من متاعب وشرحت له مدى الأهمية المطلقة لعمل أي شيء لإنزال العقاب بالحاج ناصر من أجل استعادة هيبة الحكومة وهيبتي وكيف أنه ليس لدىّ إلاّ عدد ضئيل من رجال الشرطة النهرية الذين لا يمكن الاعتماد عليهم والموزعين في مراكز متباعدة أعلى وأسفل النهر وليس من السهل تجميعهم في مكان واحد، بينما الحاج ناصر متحصن في قريته ومن حوله حوالي سبعمائة من رجال القبائل المسلحين تسليحًا جيدًا، وعلى بعد خمسة أميال فحسب من سوق الشيوخ، وأضفت أن الحاج ناصر يتحدّى الشرطة النهرية أن تذهب إليه وتعاقبه، وأنهيت حديثي بسؤال هذا الضابط البحري الشاب عمّا إذا كان مستعدًا للمشاركة في جولةٍ خاطفة يمكن أن تعيد لي هيبتي، وإنني مازلت قادرًا على أن "أستخدم أنيابي".

وكانت خطتي هي أن أحرق حصن الشيخ ناصر، ودار ضيافته، وقريته التي تقع على بُعد نصف ميل من ضفة النهر وراء حزام النخيل، ثم أشعل النار بعد ذلك في زراعاته التي لم تحصد بعد في الحقول والتي تبلغ مساحتها عدة مئات من الأفدنة، ثم زدت الخطة توضيحًا فذكرت أنني أقترح أن أقوم بعملية إشعال النيران بنفسي، وأن كل ما أطلبه منه والقوة التي تصاحبه هو التعاون في تنفيذ خدعة عسكرية تضمن ألا أُهَاجَم أثناء إشعال النيران، وتمكنني من الإفلات سالمًا من موطن قبيلة الحكام.

وبكل حماس، وافق قائد الزورق المسلح على مساعدتي، فانتقلت إلى شرح الخدعة العسكرية التي جالت خيوطها بمخيلتي: بعد يومين، في الساعة السابعة والنصف صباحًا، يتجه بي أنا وزورقه المسلح والقارب المرافق على امتداد الضفة اليمنى إلى النهر إلى أن نصل إلى نقطة مقابلة مباشرة لقرية الحاج ناصر بالقرب من شجرة سدر كبيرة من المفترض - إن لم أخطئ التقدير - أن يتجمع عندها الشيوخ الثلاثة والأربعين من قبيلة الحاج ناصر القوية. وعندما أقفز إلى الشاطئ تستعد جميع المدافع والبنادق التي على متن الزورق وقارب الجنود في وضع إطلاق النار لمسافة قريبة جدًا حيث ينتظر الشيوخ، وكان كل أملي أن أتمكن، تحت ستار هذه النار - من نزع سلاح زعماء القبيلة، وأن أسوقهم أسرى إلى القارب، واحتفظ بهم كرهائن إلى أن أنتهي من تنفيذ كل ما عزمت عليه من خطوات. كانت الخطة بغيضة ولا تخلو من الغدر والخسّة، لاشك، وتشبه بعض الأساليب البالية التي دَرَج عليها الأتراك، ولكن نظرًا لأنني لم أكن اعتزم إلحاق أي أذىً بهؤلاء الشيوخ، ونظرا لأن الحكم على خطتي ينبغي أن يستند إلى ما تحققه من نتائج، أحسست أن لدىّ ما يكفي من المبررات للإقدام على تنفيذ ما استقر تفكيري عليه. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا أعرف رجال هذه القبيلة جيدًا، وأدرك أنهم سيكونون - في حالة نجاحي - أول من يكيل لي المديح لاتباعي نفس أساليبهم للتوصل إلى أفضل النتائج معهم. ومن أجل تخفيف مرارة وقسوة الوضع إلى حدّ ما، اقترحت أن نقيم مأدبة عربية فاخرة على سطح القارب لهؤلاء الضيوف المدعوين رغم أنفهم، ثم نصحبهم بعدها إلى سوق الشيوخ، ثم نطلق سراحهم جميعًا صباح اليوم التالي مع تقديم عباءة هدية لكل منهم.

وفي اليوم التالي، ووراء ستار كثيف من السرية، أبحت بتفاصيل خطتي لكاظم حمداني، وكلفته بمهمة إعداد مأدبة لثلاثة وأربعين من شيوخ القبيلة

وزعمائها، وشراء ثلاث وأربعين عباءة جديدة، وجلب كل شئ إلى الزورق المسلح في الساعة السابعة والنصف صباح اليوم التالي، ثم أرسلت صديقي، صاحب العين الواحدة، الشيخ قاصد الناهي، وهو مشهور بنجاحه في قيادة عدّة حركات للتمرد والعصيان ضد الأتراك فيما مضى، إلى قرية الحاج ناصر مع تكليفه بإبلاغ سكانها بأنه في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، سيصل حاكم الإقليم ترافقه سفينتين مسلحتين، ويرسو بجوار شجرة السدر الكبيرة، وأن هدفه التوصّل إلى هدنة بين قبيلة مزبان وقبيلة الحاج ناصر، وتحديد مقدار الدّية التي يجب على الحاج ناصر أن يدفعها.

كما أصدرت تعليماتي لقاصد الناهي، وهو من أبرز شيوخ قبيلة الحكّام على الضفة اليمنى للفرات، أن يحذرّ كل صغار الشيوخ من قبيلته من التوجّه إلى المكان المحدد، وتهديدهم بما يمكن أن يحيق بهم من عقاب إذا لم يذعنوا لهذا التحذير. وكنت أعرف تمامًا أن الحاج ناصر لن يظهر على الساحة بأي حال، وكانت هناك شائعات قوية تقول أنه ذهب إلى الأتراك في الشطرة للحصول على الأموال اللازمة لتنظيم حركة تمرد بين قبائل سوق الشيوخ، وكنت على يقين من أن قاصد سيساندني بكل قوته، نظراً لما بينه وبين الحاج ناصر من ضغائن وأحقاد قديمة، وأنه يسعده كل السعادة أن تلحق الهزيمة بالحاج ناصر عن طريق إقناع خليفته بالتوصّل إلى اتفاق مع الحكومة. ورغم ذلك، كانت لاتزال هناك عقبات، ولم تكن بالعقبات الهيّنة، لأن شقيق الحاج ناصر هو الذي يتولى شئون القبيلة، ويبذل كل ما في وسعه من أجل إحباط ما يسعى إليه قاصد بلسانه المعسول، وكلماته الناعمة.

كان الأمر كلّه مقامرة ضخمة، ولكنني قررت أن أمضي فيها إلى النهاية مهما كان الثمن. وكان الاحتمال الوحيد الذي أخشاه هو أن يواجه الزورق والقارب نيران البنادق وهما يقتربان من موطن قبيلة الحكّام المعروفة بتحدّيها لأي سلطة، هذا التحدّي الذي كان من الواضح أنه هو السائد بين الجميع.

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، انطلق الزورق المسلح والقارب المرافق له وفقًا للخطة، كان جنود البحرية في ذروة الاستعداد والتأهب، وقائدهم في حالة معنوية رائعة عندما وقفت إلى جواره على الجسر. وأودّ أن أعترف بأنني لم أكن دمويًا بأي حال، لأنني أعرف طبيعة المخاطرة التي نحن مقبلون عليها

أكثر مما يعرفها أي شخص آخر، ولإدراكي أننا ربما أصبحنا، وبكل سهولة، السبب في قيام تمرّد عام يشمل كافة الجماعات القوية للمجرّة، وعندئذ فربما أفلت الأمر من أيدينا، مع كل ما يمكن أن يعنيه ذلك من عواقب وخيمة. ولكنني لم أشأ أن يشعر القائد بما يساورني من قلق، فلم أَبُح له بأي شيء.

موعد ولقاء:

وعلى أي الأحوال، كانت الأوضاع تبدو على خير مايرام عندما استدرنا حول منحنى للنهر بعد عشرين دقيقة ورأينا جمعًا من العرب يلتفون عند شجرة السدر وفقًا للموعد المحدد، وكان بينهم قاصد الناهي الذي نجح في مهمته. وهكذا احتشد في مكان واحد جميع الشيوخ الثلاثة والأربعين من الحكام.

وصل الزورق والقارب إلى الشاطئ، وأنزلنا المجاديف لاستخدامها ونحن نحث الخطى على صفحة النهر، وقفزت إلى البرّ ومعي أربعة من جنود البحرية المسلحين ومعهم حرابهم مثبتّة في أماكنها. وألقيت التحية على الشيوخ قائلا: "السلام عليكم"، ثم دعوتهم إلى الجلوس.

وجلسوا. وعلى الفور، أخذت مواسير المدافع الآلية، ومن ورائها جنود البحرية الذين وصل حماسهم إلى الذروة، تتحرك صوبنا من فوق متن الزورق المسلح لتغطيتنا جميعًا وتضعنا داخل المجال المؤثر لنيرانها، وصحت فيهم أن أحداً لن يصيبه أذى بشرط أن يسلمّوا بنادقهم ويتوجهون لركوب القارب.

واعتقدت للحظة أنهم سيسارعون لتنفيذ ما طلبته، ثم سمعت صوت قاصد يتعالى وهو يمتدح الحكومة ويمتدحني، ويهدّئ من خاطرهم بكلامه المعسول، ويعدهم أن يقدم نفسه كرهينة ضمانـاً لسلامتهم، وهنا كان لابْد أن أدلي بدلوي في الحديث فقلت أن وليمة ساخنة في انتظارهم على سطح القارب، وأن عليهم أن يعتبروا أنفسهم ضيوفًا عليّ حتى الغد، وعندئذ سيعود الجميع سالمين معافين إلى منازلهم وعائلاتهم.

وتنفيذا لإشارة منّي، دار قاصد حول المجموعة التي تجلس على الأرض وأخذ كل بنادقهم بعد إخلائها من الطلَقات وناولها لجنود البحرية الذين حملوها إلى سطح زورقهم وقاربهم. وطلبت من أصحاب هذه البنادق أن يتبعوني. كان الموقف دقيقا وخطيراً، ولكن الخدعة حققت أغراضها.

وعندما صرت بصحبة قاصد وحدنا على الشاطئ، أمرت الركب أن يتوقف في منتصف النهر إلى أن ألحق به.

كنت أعرف أن هناك عدة مئات من رجال القبيلة يتربّصون في قنوات المياه وبين الأحراش على بعد مائة ياردة فحسب، بل ورأيت بعضهم بالفعل، بكل وضوح، وهم يتواثبون من ساتر إلى ساتر، وقد سيطرت عليهم حالة من التوتر والتوثب، ربما استعدادًا للهجوم. وهنا، ولمصلحتهم، صحت أخاطب ضيوفنا باللغة العربية وقلت إنني سأضرم النار في قرية الحاج ناصر ودار ضيافته، وأنه إذا تصدى أحد لمقاومتي أو لم أرجع من مهمتي خلال ثلاث ساعات، فسوف يقتلهم القائد البريطاني الشرس جميعًا. وعندما تحرك ركبنا، أقبل عليّ القائد يحييني ويتمنّى لي التوفيق. فرددت عليه مشجعًا، وفي نبرة أقرب إلى الغناء: "انتهى الفصل الأول. والآن، إلى الفصل الثاني الأقل خطورة."

وبدت علامات الدهشة على وجه قاصد الكهل عندما أعلنت تفاصيل خطتي بعد أن كنت أحجبها عنه. ولكن ها هو الآن يضحك بينه وبين نفسه ويطلب منّي أن نتصالح.

"إن شاء الله لن يكون هناك أي خطر علينا الآن، يادكسان. أما بالنسبة للمستقبل، فالله كريم. وذكريات العرب طويلة. يالله، هيّا نتمشى."

كان قاصد الناهي رجلاً شجاعًا.

وسرت في إثره ونحن نبتعد عن النهر. فاخترنا في بادئ الأمر أرضًا تكسوها الحشائش. ثم عبرنا حزامًا من أشجار النخيل يمتد لمسافة ربع الميل. ووصلنا، على الطرف الآخر، إلى حقول واسعة من المحاصيل التي حان قطافها، وإلى الخلف منها، وعلى مسافة ميل واحد تقريبا، قرية كبيرة مشيدة من القصب والحصير، يحيط بها سور مهيب، وينتصب عند أحد طرفيها حصن منيع (مفتول)، وقال قاصد: "هذه هي قرية الحاج ناصر. وهذه هي قلعته. ودار ضيافته هناك إلى اليسار."

كانت دار ضيافته قريبة منّا، تحتجب وراء بعض أشجار الصفصاف، وتطل على ترعة صغيرة، وكانت أنيقة من طراز حديث أشبه ما تكون بدار ضيافتي في سوق الشيوخ، ولكنها أصغر حجمًا. وإلى جوارها مباشرة تكاد تلامسها دار أخرى قديمة قال قاصد أن الحاج ناصر يستخدمها الآن كمخزن (شونة) للغلال.

دار الضيافة تحترق:

وواصلنا تقدمنا، وبدون إبطاء، أشعلت عودًا من الثقاب وأضرمت النار في داري الضيافة الجديدة والقديمة معًا، وخلال بضع دقائق تحولتا إلى كتلة مشتعلة ليتصاعد منها اللهب. وبدا قاصد وكأن شيئًا من خشية الله مسّ قلبه، ولكنه سرعان ما تضاحك بينه وبين نفسه متذكرًا بلاشك ما تكبّده على يد الحاج ناصر، ذلك المغرور محدث النعمة، وناداني لكي أتبعه وهو يقول: "تعالى" - وانطلق بخطى سريعة نحو القرية.

فرار النساء:

في هذا الوقت، كانت أعمدة ضخمة كثيفة من الدخان تتصاعد فوق أشجار النخيل، ورأيت على مقربةٍ منّا حشدًا من الرجال يتجمع وبنادقهم في أيديهم. ولكنهم لم يقتربوا من موقعنا، وظلت المسافة التي تفصل بيننا وبينهم لا تقلّ عن الخمسمائة ياردة. وعندما أصبحنا على مشارف القرية، أشار قاصد إلى مجموعات من النساء والأطفال بدأوا النزوح من القرية والجلاء عنها من طرفها البعيد. وقال قاصد: "إنهم عيال الشيخ ناصر. وهن يعرفن أن العقاب الذي سيحيق به جزاءً لقتل مزبان آتٍ لا ريب فيه، ولذلك كنّ على أهبة الاستعداد منذ فترة للفرار، وقد جمعت كل منهن حليهًا وذهبها وجميع ما تملكه من نفائس".

لم أكن سعيدًا بهذا الذي يجرى أمامي، بل وكنت أشعر بالأسى لحرق مساكن هؤلاء البسطاء من القوم الذين أحببتهم. وأغلب الظن أن قاصد لمحنى وأنا أرتعش، لأنه اندفع فجأة يركض إلى أن وصل إلى القرية متقدمًا أمامي بعض الشيء، وأخذ صوته يتعالى بالسباب وبأشياء أخرى لم أتمكن من سماعها، وعندما لحقت به، كان قد أشعل حزمة من الحطب وأخذ يضرم النار في أول كوخ وصل إليه، وسرعان ما التهبت القرية كلها، وكان إضرام النار في الحصن أكثر صعوبة، ولكن قاصد وجد سُلّمًا صعد عليه وتمكن من إشعال النار في عوارض السقف.

لم يكن هناك وقت لنضيعهَ؛ لقد انقضت ساعتان من الساعات الثلاث ولازال أمامنا أن نحرق المحاصيل وأن نعود أدراجنا سالمين إلى النهر، على بعد ميلٍ ونصف الميل. وهبت رياح ساعدتنا على إشعال النار في المحاصيل. وأعتقد

أن النيران التهمتها تمامًا، وإن كنت غير متأكد تمامًا، لأن الرياح كانت تهب في اتجاه النهر الذي كان علينا أن نصل إليه والنيران تزحف من ورائنا. وعندما اقتربنا من حزام النخيل، كان الدخان الأسود الكثيف يغطيّ المنطقة كلها من ورائنا، وشعرت بالمأساة بكل فداحتها، ولكن قاصد كان يكاد يترنح طَرَبًا وفَرَحًا، بل وكان يقهقه ويطلق صيحة الحرب ونحن ندنو من النهر.

وأخيرًا وصلنا إلى شجرة السدر. وعندما أطلقنا الإشارة المتفق عليها، أقبل قارب ليحملنا، وانطلقنا في طريقنا إلى سوق الشيوخ في خطى وئيدة، وكانت المأدبة قد بدأت، وِاعتقد أن الرهائن الثلاثة والأربعين استمتعوا كل الاستمتاع. والواقع أن كاظم حمادي تفوق على نفسه في ذلك اليوم.

وبعد المأدبة وما تلاها من تقديم القهوة، أعطينا كلاً منهم العباءة التي وعدنا بها، ثم سمحنا لهم جميعا بمغادرة القارب والتوجه إلى سوق الشيوخ بكامل حريتهم، فودّعونا في صمت وهم في حالة أقرب إلى الخجل والارتباك. وأعتقد أنهم أحسّوا بالرضا والاطمئنان لما تمخضت عنه كل هذه الأحداث.

وطوال الأيام التالية لم يكن للناس من حديث إلاّ انتقام دكسان لقتل ضيفه. وبالنسبة لي، كانت المسألة مقامرة فرضتها الضرورة، وانتهت. وفى اليوم التالي ودّعت قائد الزورق المسلح، هذا القائد الجسور العملاق، ومشاعر متناقضة تتزاحم في صدري، لأنه ليس هناك من يدرك مثلى مدى المخاطرة التي أقدمنا عليها، ولولا دوره، هو على وجه التحديد، لما أمكن لمغامرتنا أن تنجح. وحصل الكهل قاصد على الجزاء الأوفى والمناسب، واتفقنا جميعا على التزام الصمت وعدم الخوض فيما جرى من أحداث. ومع ذلك، فثمة شك يساورني بأن السير بيرسى كوكس عرف بما حدث، بطريقة أو أخرى، لأنه بعد بضعة أشهر، في صيف ١٩١٧، أنعم عليّ بوسام C.I.E. ولكن القصّة لم تتم بعد فصولها.

قاصد الناهي يدفع الدِيّة

الآن، ساد الأمن والنظام والقانون في منطقة سوق الشيوخ، وأخذت الأقوال تتردد بأن الوكيل السياسي المساعد له طريقته الخاصة لإنزال العقوبات، وقرر الجميع أن خير وسيلة للتصرف هي دفع ما يُفرض عليهم من أموال، والمثول بين يديه عندِ أي استدعاء. وكان الحاج ناصر قد اختفى. قال البعض أنه فرّ إلى الصحراء وتوفى هناك، وقال آخرون أنه توجّه إلى الشطرة وانضم إلى مظهر باشا

المسئول السياسي التركي، الذي اتخذ منها مقرًا لقيادته، بينما راح فريق ثالث يردد القول بأنه على علاقة وثيقة بعجيمى بك آل سعدون الذي يعسكر الآن مع القوة التركية المتمركزة في سَمَاوَة، على الفرات.

ومضت أربعة أشهر، وبدأت بعض الهمسات تتواتر بأن عملاء الأتراك ظهروا بين قبائل بحيرة الحمّار، وأنهم يلعبون دورهم تحت ستار كثيف من السرية ويتخذون من الأحراش والسبخات مأوى لهم، ويسعون إلى إثارة القلاقل في منطقة سوق الشيوخ من أجل تهديد خطوط المواصلات البريطانية مع الناصرية، ولم يكن في مقدرتنا التحقق من مدى صحة هذه الشائعات، ولكن كان من المؤكد أن الحاج ناصر كان على علاقة بهؤلاء العملاء الذين يظهرون بمظهر أبناء القبائل المرتبطة بالنهر.

أخذ الحاج حسن حمداني وإبراهيم العمري هذه الأنباء مأخذ الجدّ، وطالبا بضرورة اليقظة والحذر. وكانت تصرفاتهما يلفها الغموض لدرجة مزعجة، وكان الدليل الأساسي الذي يستندان إليه لتأكيد ظنونهما هو هذا القول الذي بدأ يسرى بين أهل الأحراش والسبخات من أن "رياح الشمال تهبّ"، وعمّا قريب سوف تزداد قوّة إلى أن تتحول إلى عاصفة محلية"، وكان الرجلان يفسّران ذلك بأنهم يقصدون بهذا القول أن الأتراك سوف يشنّون هجومًا عما قريب، وأن القلاقل سوف تتفجر في منطقة سوق الشيوخ.

في هذا الوقت تقريبًا، تلقيت دعوة من الشيخ الكهل مزعل البشارة MuzaalAl Bishara من قبيلة الحسن، لحضور مأدبة بمناسبة زواج ابنه حمودة. ويقع مركز هذه القبيلة بالقرب من بحيرة الحمّار، على ترعة أم نخلة، وهي إحدى الفروع الثلاثة للفرات التي تصبّ في البحيرة. وكان ذلك يعنى أن أقطع رحلة يبلغ طولها عشرين ميلا باللنش في النهر، ثم أبدأ بعدها رحلة بريّة أخرى مرهقة نحو مركز القبيلة. ومع ذلك، قبلت الدعوة، بالرغم مما أبداه الحاج حسن وإبراهيم العمري والحاج على الدبّوس من مخاوف جديّة، بل ولقد بلغ الأمر بالحاج حسن أن حضر بمفرده للقائي في جنح الظلام ليحاول منعي بكل إصرار من الذهاب إلى هذه الوليمة.

قال: "هناك خطر في الجو، لا أستطيع أن أحدد طبيعته أو متى سيكون، ولكننا نحن العرب لنا طريقتنا في الإحساس بالأشياء، استمع لنصيحتي. لا تذهب".

وأجبت بأنني لا أجد أي مبرر يمكن أن أستند إليه للرجوع عن موافقتي على دعوة الشيخ مزعل، وقلت إنه إذا كان مكتوبًا عليّ أن يصيبني شيء في اليوم التالي، فلن أستطيع لذلك منعًا، سواء ذهبت أو لم أذهب. وعندئذ نصحني الحاج حسن أن أصطحب معي ثلاثة شيوخ على الأقل ممن تنزل قبائلها على ضفاف الأنهار التي سيتعين عليّ السير فيها أثناء رحلتي؛ فوفقا للعادة السائدة بين القبائل، إذا اتخذت أحد الرجال مرشدًا أو رفيقا - ويسمى التسيار في العراق - ليصاحبك أثناء عبورك لموطن القبيلة التي ينتمي إليها هذا الرجل، فأنت آمن، ولا يمكن لأي فرد من أفراد هذه القبيلة أن يتعرض لك بسوء؛ ولما كان هذا هو القانون الذي تلتزم به القبائل، فإذا اصطحبت ثلاثة من أعلى الشيوخ مكانة، فمن المؤكد أنك ستكون في أمان كامل. وكان هذا اقتراحًا جيدًا من الحاج حسن، ولذلك طلبت منه أن يدبّر أمر اشتراك الحاج فيصل الياسر من آل حسن، وفرهود الفندي من الحكام - من الضفة اليسرى - وقاصد الناهي من الحكام - من الضفة اليمنى؛ في الرحلة، على أن يفهم كل منهم على وجه الدقة لماذا وقع اختياري عليه.

وإلى جانب هؤلاء الشيوخ الثلاثة، اصطحبت معي ثمانية من رجال الشرطة النهرية كحرّاس. ومضت رحلتي على لنشي الخاص إلى أم نخلة دون أن أواجه أية مشاكل. وكان حفل الزفاف موفقا إلى أبعد الحدود. ورغم أن الشيخ مزعل كان يتجاوز المائة من عمره، إلا إنه كان كله كياسة ولباقة ولطف، كما بدا ابنه حموده في أروع صورة، وعندما انتهى الحفل، بدأنا رحلة العودة عن طريق النهر. وكان اللنش كبيراً ومتيناً وله مظلة كبيرة قوية مصنوعة من الخشب يمكنها أن تحمل فوقها ثقلا ليس بالقليل، ولذا، فعندما تنخفض درجة الحرارة بعد الظهر، كنت أطلب مدّ السجّاد والحواشي على السطح العلوي فوق مقصورة النوخذة (قائد السفينة) وأدعو أصدقائي الثلاثة للانضمام إليّ.

هكذا اتخذنا طريقنا عائدين إلى ديارنا ونحن نحتسي القهوة وندخن السجاير ونتبادل رواية الحكايات والأقاصيص. وعندما اجتزنا أراضي آل حسن بالقرب من النقطة التي تتفرع منها أم نخلة من المجرى الرئيسي للفرات إلى اليمين، أمرت برسوّ اللنش ودعوت فيصل الياسر إلى النزول والتوجه إلى منزله حيث لم يعد لوجوده أي جدوى بالنسبة لحمايتي طالما أننا خرجنا من نطاق

قبيلته. ووافق على الفور، وشكرني على اصطحابي له إلى المأدبة، ثم انصرف بعد تحيات الوداع المعتادة.

وعلى نفس النحو تصرفت مع فرهود الفندي. فبعد اجتياز مواطن قبيلته بسلام، أنزلناه على الشاطئ عند الحدود الغربية، وأصبحنا الآن في أرض قبيلة قاصد التي تمتد إلى يمين سوق الشيوخ في اتجاه الشمال. ونظراً لإحساسي بالأمان جلست أثرثر مع قاصد فوق سطح المظلة إلى أن اقترب اللنش، على بعد أربعة أميال من السوق، من منحنى حادّ في النهر يضيق عنده مجراه حتى لا يتجاوز المائة وخمسين ياردة، ويشتد به اندفاع التيار حتى اضطررنا إلى خفض سرعتنا إلى حوالي خمس عُقد، كانت الضفتان مزدحمتين بالأعشاب الكثيفة، وتكسوهما الأحراش، وعندما اقتربنا من منحنى النهر لمحت على حين غرّة وميض سلاح يلمع بين الأحراش القريبة من ماء النهر. وبعد ذلك مباشرة، هبّ رجل منتصباً بطول قامته وأخذ يلوّح بعباءته في بطء؛ وكان من الواضح أنه يعطى إشارة لشخص أو لأشخاص يختبئون هنا أو هناك على مقربة منه. وبعد عشر ثوان، أطلقت علينا النيران من داخل الأحراش الكثيفة على الضفة، وعلى مدى يبلغ حوالي ثمان ياردات. وكالبرق، دفعني قاصد إلى الوراء من حيث كنت أجلس، وإن كان ذلك لم يمنع إصابتي بجرح في ساقي، وقطع مثل الشق الذي تحدثه شفرة الحلاقة في شفتي.

ثم ألقى قاصد بنفسه، بكل طوله، من فوقي، وغطّاني بعباءته حتى لا يمكن لأحد أن يراني، وبدأ في إطلاق سيل من الشتائم طالباً من الله أن تنزل لعنته على أولئك المتربصين على الشاطئ الذين يحاولون الإساءة وإنزال الضرر برفيق اتخذه تسياراً له. وأخذ يصرخ: "ألا تعرفونني أيها الكلاب وأبناء الكلاب، إنني أنا، قاصد، قاصد شيخكم! قضِيَ الأمر! قضِيَ الأمر!".

كنت أشعر به وهو يلوّح بعصاه في اتجاه العدوّ المستتر. وعندما رأوا شيخهم يغطيني بعباءته، لم يجرؤ أي منهم على إطلاق النار عليَّ مرة أخرى، وركزوا اهتمامهم على النوخذه وطاقم تشغيل اللنش، وقد عقدوا آمالهم على أن يتثبتوا من وقوع ما يؤدى إلى اندفاع اللنش نحو الشاطئ. كان هناك ضجيج هائل، وكان الثمانية من رجال الشرطة النهرية يردّون بطلقات سريعة على أهداف لا يرونها، بينما النوخذه يصدر أوامره بزيادة السرعة والانطلاق بعيداً،

وكان من الممكن أن يشكل كل هذا الذي يجرى مشهدا يثير الضحك، لولا هذه الطلقات التي تتطاير في كل مكان.

واجتزنا الأجزاء الضيقة من المجرى دون أي خسائر أخرى. وعندما وصلنا بسرعة اللنش إلى ذروتها، واستدرنا حول المنحنى، توقف إطلاق النيران علينا من الضفتين فجأة، كما سبق أن بدأ فجأة، فأتيحت لي الفرصة لأعبرّ لقاصد عن شكري وامتناني لإنقاذي بهذه الطريقة التي تنم عما يتميز به من شهامة وجسارة، وكان اللنش قد أصيب في حوالي خمسين موضعًا حول كابينة القيادة وفوق خط الغاطس. وفى حدود علمي، كانت الخسارة الوحيدة التي لحقت بركبنا، هي بقرة كانت تقف على حافة السطح أصابتها طلقة فتهاوت في ماء النهر.

وكان صوت النيران مسموعًا بكل وضوح في سوق الشيوخ، التي لا نبعد عنها إلا بمسافة أربعة أميال، ولذلك تجمع حشد كبير من الرجال والنساء انتظارًا لوصولنا عند المرسى. كانت شفتي تنزف بغزارة، وقميصي ملطخًا بالدماء، الأمر الذي أثار انزعاجًا ليس بالقليل بين هؤلاء القوم. وتعالت أصوات نحيب وأنّات باكية من بين مئات النساء اللاتي تجمعن على الضفة، ولكنها سرعان ما تحولت إلى صيحات ابتهاج عندما قفزت إلى الشاطئ وقلت لهم أنني بخير.

وقد هزّتني هذه الصورة الواضحة للمشاعر الودّية التي أبداها أهل سوق الشيوخ نحوي، كما هزّني ما بدا عليهم من ابتهاج عندما عرفوا أن إصابتي لم تكن خطيرة، لأنني كنت الشخص الإنجليزي الوحيد بينهم، وقلت لهم في كلمة قصيرة وجهتها إليهم أنني لنِ أنسى ما حييت ترحيبهم بي عند عودتي. والواقع أنني لن أنسى ذلك أبدًا حقا، ومازالت مشاعري نحو هؤلاء القوم الطيبين باقية وحية حتى اليوم.

ولازمت فراشي ثلاثة أو أربعة أيام وساقي ملتهبة، زارني خلالها قاصد الذي سيطر عليه الغضب والإحساس بالإهانة.

وقال لي: "يا صاحب: هناك الآن دم بينك وبيني؛ فقد أريق دمك في أرض قبيلتي وبينما كنت تحت حمايتي الخاصة، إن العار كبير. وإلى أن أتمكن من محو هذا العار لابدّ أن ترفع هذه الراية السوداء فوق سطح منزلك حتى يعلم الجميع". ثم بَسَط أمامي راية سوداء تبلغ مساحتها حوالي قدمين مربعين، مثبته في عصا قصيرة،

ورغم محاولتي التقليل من أهمية ما حدث، إلاّ أن قاصد قطع الحديث غاضبًا وانصرف، وعيناه تترقرقان بالدموع، ليحاول التعرف على المسئول من أعضاء قبيلته عن تلك الواقعة، وعاد بعد خمسة أيام وألقى على المنضدة في مكتبي حقيبة بها ثمانمائة روبية، وقال أن أربعمائة منها مقابل ما أريق من دمي، وأربعمائة هي الحشم مقابل مهاجمتي وأنا تحت حمايته. ولم يقبل أن يستمع لأي رد من جانبي وقال إن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه معها أن يرفع رأسه بين قومه.

ثم اتجه إلى الخارج، ودعا مجموعة من النساء اللاتي أحضرهن معه، فدخلن، ووسط شيء من الثرثرة والطقوس التي اعتدنها في احتفالاتهن، قدمنّ لي - بكل مهابة وإجلال - ابنة أخ قاصد، وهي فتاة جميلة في حوالي الرابعة عشرة من عمرها. وقال قاصد أن هذه هي وسيلة القبيلة لتهدئة غضبي، وأنها ستكون لى لأتخذها زوجة. وشرح لي الأمر فقال إنه وفقا لعادة الحكَام[1]، فإذا أصاب أحد أعضاء القبيلة عضوًا من قبيلة أخرى بجرح خطير، ورأى الحكام أن رجلها هو المخطئ، فإلى جانب التعويض المالي، تُقدّم فتاة عذراء من أسرة المخطئ للجانب المعتدى عليه؛ أما إذا توفي المعتدى عليه، فيجب أن تكون الفتاة على صلة قرابة وثيقة بالمعتدى؛ وذلك استنادًا إلى أن النسل الذي ينتج عن مثل هذا الزواج سيكون وسيلة لإزالة مشاعر السخط والتربص التي ربما ظلت كامنة بين الطرفين.

وأغلب قبائل سوق الشيوخ ممن ارتبطت حياتهم بالنهر، ومازالوا ينتهجون في حياتهم أساليب تنتمي لعصور ما قبل التاريخ. وكنت أول إنجليزي يراه أحد منهم على امتداد تاريخهم، ولذلك لم يجل بخاطرهم أن لنا أساليبنا ولهم أساليبهم، وكان قاصد شخصية بدائية لا تعرف الخضوع للقانون، ولكنني أحببته لما بذله من جهد للتعويض عمّا أصابني. ومن أجل ألا أغضبه، أخذت النقود وقمت بتوزيعها على الفقراء، وراعيت أن أقدّم له في مقابل ذلك زبونين وعباءة من أفضل ما أمكنني الحصول عليه، حتى أهدّئ من روعه. وأمّا بالنسبة للفتاة الصغيرة، فبعد استشارة الحاج حسن حمداني، أعدتها إلى قومها وقدّمت لها ثوبين جديدين ملونين وقلت - تنفيذًا لِمَا طَلِبَ مني أن أفعل: "قبلناها، ورددناها لكم"، وسيظل مشهد النساء اللاتي أحضرن الفتاة ثم أعدتها لهن على هذا النحو ماثلاً في مخيلتي لا يفارقها أبدًا.

---

(١) جد القبيلة وهو آل حكّام.

والآن، وبعد أن سُوّيت المسألة بما يرضي جميع الأطراف، بدأ قاصد يعرض عليّ ما أسفرت عنه تحرياته من معلومات؛ وقال إن الهجوم بدأ من أرض البوحميدي، وهم فرع من فروع النصف الذي ينتمي إليه قاصد من الحكام. ولكن شيخ البوحميدي المدعو ياسر الشولان، أنكر معرفته بأي شيء مما جرى وقال إن غرباء دخلوا أراضي قاصد وارتكبوا الجريمة للإساءة إليه، لما عرف عنه من صداقته للحكومة، وقال قاصد إن ياسر يكذب، وأنه يعرف تمامًا أن مرتكبي الحادث من أبناء قبيلة الحكام، بل وإنهم من أتباع الحاج ناصر الذي وعده سادته الأتراك بمنحه خمسمائة جنيهًا تركيًا إذا تمكن من تصفية القائد البريطاني في سوق الشيوخ. (ولكنني أشك في ذلك)، وأضاف قاصد أن الكمين كان يتكون من اثني عشر رجلا تحت قيادة شخص موتور قتل البريطانيون والده في معركة الشعيبة، بالقرب من الزبير، منذ ما يزيد عن عامين، ومن ثمّ كان من السهل على الحاج ناصر أن يتلاعب بمشاعره ويوجهه كيف يشاء. ولم يكن الحاج ناصر بالقرب من الكمين، ولكنه كان لايزال متربصًا بين الأحراش شمال بحيرة الحمّار، ينتظر نبأ مصرعي، والذي كان من المقرر أن يكون عندما يبلغه، إشارة البدء لثورة تقوم بها قبائل النهر وجيرانها ومجموعة قبائل المجرّة، والأرجح أن هذه المعلومات كانت صحيحة.

والآن، أخذ قاصد يلح على إنزال العقاب بالجماعة القبلية التي ينتمي إليها البوحميدي، فأرسلت تقريرًا يتضمن كافة التفاصيل إلى القيادة البريطانية في الناصرية، فبادرتْ بإرسال كتيبة من المشاة يساندها عدد من الزوارق المسلحة، وقامت القوة بقطع حوالي ثلاثمائة نخلة من نخيل ياسر الشالون، وهي عقوبة قاسية حقا بالنسبة لمثل هؤلاء القوم، وعادت إلى الناصرية دون أن تواجه أي أحداث بعد أن دبرّ قاصد الأمر حتى لا يتعرض أحد لها بمقاومة.

هكذا انتهى الحادث. ولكن كانت لاتزال له تكملة مثيرة، فبعد شهرين، كان المجلس الأسبوعي الذي أدعوه كل ثلاثاء منعقدًا، وكنت أجلس وأنا أشعر بالسعادة والنشوة لكل ما يدور – بعد أن شربت في الطابق العلوي قبل أن يبدأ انعقاد المجلس زجاجة الجعة (البيرة) الإنجليزية الجيدة وصلني صندوق منها للتو من البصرة، وكان من بين الشيوخ الذين حضروا المجلس مجموعة قوية من شيوخ آل سعدون على رأسهم ثامر بك، ويوسف بك المنصور، والكهل ياسر الصقر، وكان يتميز بقامته الطويلة وندبة طويلة نتجت عن جرحٍ غائر في خدّه؛

وكنت قد أنقذت وساعدت ابنه الجريح في ميدان القتال أثناء معركة الشعيبة التي حارب فيها ضدّي.

وسرعان ما اقتحمت المجلس صيحات صخب وضجيج شديدة صادرة من خارج دار الضيافة؛ ثم دخلت ثلة من رجال الشرطة النهرية العاملين تحت إمرتي يجرّون رجلاً محكم الوثاق وألقوا به عند قدميّ. وقد استقبل هذا التصرف المقرع نوعًا ما بالدهشة والفضول من الحشد الكبير من الناس.

واندفع محمد الحيّل، رئيس الشرطة النهرية يفسّر الأمر وكأنه يزيح عن صدره عبء غيظٍ مكتوم، فقال إن هذا الأسير كان هو الشخص الرئيسي في العصابة التي حاولت أن تهاجمني من الكمين، وأنهم ألقوا القبض عليه في أراضي الحسن بناءً على طلب الصديق المخلص قاصد. وأخذت الهمهمات تتكاثر بين الجمع المترقب، وكلهم ينتظرون ليروا ماذا أنا فاعل به.

أُوقِفَ الأسير على قدميه، ولكنه لم يتمكن من التماسك إلاّ بصعوبة بالغة بعد أن ضُرب ضربًا مبرحًا. واعترف صراحة، ودون أي ضغط، بالتهم الموجهة إليه، وقال إنه يأسف لأنه فشل في قتلي، وعندما سألته عمّا دفعه إلى هذا المسلك، كانت إجابته الجريئة هي أن والدي قُتل على يد البريطانيين في معركة الشعيبة، ولذلك شعر أن من واجبه أن يقتل أي إنجليزيّ يلتقي به. وعندما سألته عمّا هو فاعل إذا أطلقت سراحه، أجاب أنه سيحاول مرة أخرى، وإن شاء الله سينجح في المحاولة التالية، وأخيراً اعترف بلا مواربة بأن الحاج ناصر هو الذي شحن رأسه بهذه الأفكار، ووعده بمكافأة إذا نجح.

كانت القضية واضحة كل الوضوح، ولكنني كنت أشعر بالأسف لهذا الرجل، خاصة عندما لمست أنني أتعامل مع شخصية فطرية وبدائية لدرجة غير عادية، تشعر أن الحق إلى جانبها. واتخذت قرارًا سريعًا، وأمرت بفك وثاقه، والسماح له بالانصراف، دون قيد أو شرط.

وقلت له: "اذهب، ولا ترتكب أخطاء أخرى، وإلاّ فلتتحمل مسئولية ما سوف ينزل بك من عقاب".

لست أدرى ما الذي دفعني لأن أتصرف على هذا النحو، ربما كان الجعة، وعلى الفور سمعت همهمات الاحتجاج من كل جانب. أما راشد الصقر فبلغ به الأمر أن تغيّر لون الندبة على وجهه إلى الأزرق والأحمر لفرط ما يكظم من

غيظ، وصاح هو والعديد ممن كانوا بجانبه: "لا يمكن أن تتصرف بهذه البلاهة، يا حضرة الصاحب".

ورغم أنني كنت أحبّ هذا الكهل، إلاّ أنني تشددت في موقفي وتمسكت بتنفيذ ما أمرت به. وكم كانت دهشتي أنه ما أن فُكّت الحبال التي كانت تقيد الأسير حتى انخرط في بكاء حار، ثم اندفع نحوي، وخرّ على ركبتيه أمامي، وبدأ يقبّل ساقيّ وركبتيّ. كان الموقف بالغ القسوة، ولكنى تأكدت مما كنت أومن به من أن هذا المسكين ينطوي على جوانب طيبّة كثيرة في أعماقه.

وبعد يومين جاء إلى منزلي وتوسلّ إليّ أن يعمل كسائس مساعد نظراً لخبرته في التعامل مع الجياد، ولرغبته في خدمتي، ومنحته الفرصة التي طلبها؛ وإلى أن توفّي بعد ستة أعوام، لم يكن لدىّ خادم في مثل إخلاصه وعطائه، هل يمكن أن نتخيل لماذا نحبّ هؤلاء الرجال البدائيين، الأشبه بالأطفال، من قبيلة المنتفق؟

وبالطبع، غضب قاصد منّى أشد الغضب. وبعد نقاش صاخب وحاد، تركني وخرج عابسًا ليقضى بقية الشهر بين قومه.

الفارس الملثم:

بعد هذه الأحداث، جرت الأحوال على ما يرام في سوق الشيوخ، وبدأت تطبيق نظام جديد للإعانات المالية أتعامل وفقه مع جميع شيوخي، كبيرهم وصغيرهم، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في المحافظة على الاستقرار والهدوء في المنطقة، ووصلتني أنباء تؤكد أن الحاج ناصر الحيّل توجه إلى الشمال وألقى بكل ثقله مع الأتراك. وهى أنباء بدت محتملة تمامًا نظرًا لعدم إقدامه على أي عمل يعكرّ صفو الأمن منذ ذلكِ الحين، وساد الهدوء جميع نواحي سوق الشيوخ وفى جميع أراضى بنى الحكام وبني خيقان والمجرّة. أما ذلك الكهل المتذمّر دائما، قاصد الناهي، فكان يرى أن الحاج ناصر لن ينسى حرق منزله، أو الدور الذي لعبه (قاصد) في هذا الأمر. وكان قاصد يردد – وهو مؤمن كل الإيمان بما يردد – أن الحاج ناصر يحصل على راتب كبير من الأتراك، وأنه يتفاخر أمامهم دائمًا بأنه يستطيع مواجهة المسئول البريطاني في سوق الشيوخ وأن يبدأ بها على الفور تمردًا ضد البريطانيين.

وانقضت ثمانية أشهر. وذات يوم، امتطيت جوادي بعد الظهيرة

وخرجت في جولة بمفردي وبدون أي سلاح، ومعي اثنان من كلاب الصيد، ورحت أتجوّل في الأرض المنبسطة الممتدة على بعد حوالي ثلاثة أميال من سوق الشيوخ، ولمحت على البعد فارسًا يتحرك في اتجاهي، ولم يكن هناك أحد غيره في مجال رؤيتي، كان بطئ الخطى في بادئ الأمر فلم يسترع انتباهي. أما عندما اقترب منيّ، فرأيت أنه يحمل على سرجه بندقية قصيرة من النوع الذي يستخدمه الفرسان الأتراك، وأن وجهه كله ملثم، وهي بادرة توحي بالشك والتوجس في عالم القبائل. وحاولت أن أبدو غير مكترث، وواصلت حث جوادي في مسيرته. وهنا أقبل الفارس حتى أصبح إلى جانبي، وتوقفَ بالقرب منيّ. وتوقفت أنا الآخر وألقيت عليه السلام قائلا "السلام عليكم" وسألته عمّا يريد. وبدون أن يردّ، أزاح المنديل من على وجهه وتركه ليسقط، لتظهر الأنف المعقوفة والوجه الوسيم الشرير للحاج ناصر. قال مكشرًا عن أنيابه: "هل تعرفني يادكسان؟" وأجبت: "نعم، مرحبًا بك يا حاج ناصر. إن الله الذي يدبرّ كل شئ، ألقى بك بين يديّ". قلت ذلك دون أن أعرف على الإطلاق لماذا تصرفت على هذا النحو، وكان كل ما أشعر به هو إحساس كريه يكاد أن يكون هو الرعب بعينه.

وأجاب: "بالعكس يا دكسان. لقد أوقعك القَدَر بين يديّ ولم يوقعني بين يديك قُلْ لي: ما الذي يمنعني الآن من أن أثأر لما أصابني وأقتلك بطلقة واحدة؟. ألم تحرق منزلي ودار ضيافتي، ومحاصيلي، وألَمْ تتسبب أنت، ومعك قاصد الناهي، فيما عانته وتكبدته قبيلتي وأسرتي؟".

وبينما هو يتكلم، أخذ يشدّ خزانة بندقيته في بطء إلى الخلف ليدخل الطلقات في الماسورة، وهو قابع في هدوء فوق صهوة جواده. وتوقف عقلي عن العمل على النحو الذي أريده، واستولى عليّ الخوف من كل جانب، ولكنى تمكنت من أن أقول، وأنا أحاول أن أبدو رابط الجأش:

"يا حاج ناصر. الحق أن الله ساقك إليّ كما هو مكتوب أن يحدث اليوم. ومازال هناك ذلك المبلغ الضئيل، الألف روبية الذي عليك أن تدفعه، حيًا أو ميتًا. أليس من المناسب أن تدفع المبلغ أنت بنفسك مقابل أن تحصل على العفو من الحكومة؟ أليس من الأفضل أن تسير الأمور على هذا النحو بدلاً من قتلك والحصول على المال؟"

وضحك الحاج ناصر متهكمًا وقال:

"كلاّ! كلاّ! لقد جئت لآخذ حقي. لقد حان دورك أخيرًا."

ولكن يبدو أن هذياني أصاب وترًا منه في مكان ما، لأن الجديّة اعترته فجأة ومال نحوي وهو يسأل:

"ماذا تعنى؟ لا أفهم، أنت تتكلم بالأحاجي والطلاسم يا دكسان"

وتحت تهديد الماسورة المسددّة نحو بطني بدأ عقلي يعمل الآن بأقصى سرعة.

وقلت في هدوء: "يا حاج ناصر. ما أعنيه هو أنك لو دفعت لي مبلغ العشرة آلاف روبية واستسلمت دون قيد أو شرط، فسوف تسعد الحكومة وترضى بهذه التسوية، كما سأتعهد أنا، من جانبي، نظراً لميلها للأخذ بنصائحي، بأن تحكم في قضيتك بالطريقة التي درجت عليها القبيلة، وسأراعى أن يخصص الجانب الأكبر من هذا المبلغ لتغطية الديّة المطلوبة منك لأسرة الشيخ مزبان، وأن يعتبر الباقي غرامة تدفع للحكومة بعد استقطاع الحشم المستحق لي نظرًا لقتلك ضيفا لي وهو لايزال تحت سقفي، افعل كما أنصحك يا حاج ناصر، وثق بي، وبأنني أستطيع الحصول على العفو عنك، مع السماح لك بالعودة مرة أخرى إلى قبيلتك وأرضك" والتمعت في عيني الحاج ناصر اللتين تشعّان بالقسوة نظرة غريبة امتزج فيها الشك والأمل.

وسألني: "كيف أدفع المبلغ المطلوب؟ أنا لا أحمل معي مثل هذا القدر الكبير".

وأجبت: "أنت تعلم أكثر من أي شخص آخر كيف وأين تجده. اذهب، وأحضره وقابلني عند غروب الشمس بعد يومين عند الباب الجنوبي للبلدة. ويجب أن تحجب وجهك جيدًا. وسوف أحضر بنفسي إلى هناك لأصطحبك حتى يتركك الحراس تمرّ في أمان، وأعدك بأنني لا أنصب لك أي شرك"

وران الصمت لفترة طويلة، ثم أحسست بارتياح غامر عندما أعلن موافقته أخيراً واستدار نحوي بوجه يخلو من أي تعبير وهو يقول:

"لابد أن هذا مكتوب بكل الحكمة في كتاب الله، سوف أكون عند الباب يا دكسان، عند غروب الشمس بعد غد، إن شاء الله، ولكن أولاً، أريد أن أطمئن بأن تقول، بوجهك، أنك ستصدق فيما وعدت"

وقدمت له التأكيد الذي يطمئنه على الطريقة القبلية قائلا:

"بوجهي يا حاج ناصر، تيجي سالم إن شاء الله، بعد أن تسلّم الفصل والحشم، على موجب قواعد العشاير".

ومن الواضح أن الحاج ناصر قَنَع بما توصلّنا إليه، لأنه، ودون أن ينبس بكلمة، استدار بجواده، وراح يركض في اتجاه الشمال الغربي.

والتزم بكلمته، وقابلني عند غروب الشمس وهو ملثّم تمامًا خارج الباب الجنوبي بعد يومين، وصحبته في أمان لنمرّ أمام الحراس الذين استبدت بهم الدهشة، وذهبت به مباشرة إلى منزلي، كان المبلغ المطلوب معه، وأغلبه بالعملات الورقية لحكومة الهند، ومازال أحد لا يعرف من أين جاء به. ولأسباب تتعلق بالأمن أبقيته في منزلي إلى أن تمكنت من دعوة مجلس قبلي للانعقاد يضمّ كلّ شيوخ الحكام، تحت رعاية ثامر بك آل سعدون وسيد عودة.

وهنا يجب أن أقدّم صديقي صاحب العمامة الزرقاء، سيد عودة، يعيش هذا الصديق على مقربة من سوق الشيوخ في مكان منعزل أشبه بصومعة الناسك. وهو من أبناء أحد الفروع الصغيرة للقبيلة، وهم النواشي. وكنت أعتمد عليه كثيرًا في القضايا القبلية التي تتطلب حلف اليمين، لأن مكانته كانت من السموّ والرفعة بحيث كان كل السكان المحليين يؤمنون أعمق الإيمان بأن من يحلف كذبًا أمام سيد عودة فلابد أن تصيبه كارثة: مرض، أو فشل للمحصول، أو وباء للماشية، وغير ذلك من الويلات؛ ولا تقتصر الكارثة على من حلف كذبًا وحده، وإنما تمتد إلى سائر أفراد أسرته، ومهما تباعدت صلة القرابة.

ونظراً لما كانت عليه هذه القضية من أهمية، كان لابد أن أضرب مثلاً. وتمسكت كل التمسك بأن يحصل أقارب مزبان على ضعف الفصل المعتاد الذي يدفع عند مقتل شيخ من الشيوخ، وأن يدفع مبلغ مماثل كحشم لي أنا شخصيًا، أما فارق العشرة آلاف روبية فيذهب للحكومة كغرامة.

وساعد نفوذ ثامر بك لدى مجموعة المجرة، والتي يشكل الحكّام فرعًا منها، إلى درجة كبيرة، على التوصل إلى تسوية مُرضيه لهذه القضية المحلية التي شغلت الجميع، ولا يمكنني أن أنسى سيد عوده الذي قدم لي مساعدة كبرى أثناء إجراءات المحاكمة، وقد تم تخصيص جزء من الحشم، يبلغ ألفين وأربعمائة روبية، لبناء المدرسة الصغيرة التي كنت أسعى لإنشائها، والبقية لفقراء المدينة. فاغتبط الجميع لما انتهينا إليه.

وأخطرت السير بيرسي كوكس على الفور بكل ما جرى، فأبرق لي ببعض الملاحظات اللاذعة إلى حدٍ ما فيما يتعلق بقبولي عشرة آلاف روبية كفدية لحياة الحاج ناصر، ولكنه لم يكن يدرك قطعًا طبيعة المأزق الذي عشته لحظة بلحظة. ورغم ذلك، أيدّ السير بيرسي كوكس التسوية النهائية التي توصلنا إليها، ومن الغريب أن أسجل أن مكانتي ارتفعت محليًا لدرجة كبيرة؛ فما أكثر ما أحبَّ العالم وضيعًا، ولقد كان للحاج ناصر شعبيته.

الفصل الثامن
سوق الشيوخ ١٩١٧-١٩١٨

هدم سد الموجاشية - في أعقاب حفل عيد الميلاد - حسين القبيح والحصن- تعويذة ميرزا عناية.

هدم سدّ الموجاشية MUJASHIYH:

أثناء موسم الفيضان عام ١٩١٧، واجهت موقفًا شديد الخطورة. فسوق الشيوخ تقع في وسط الدلتا التي يشكلها نهر الفرات عندما يصب في الجانب الغربي من بحيرة الحمّار. ويتفرع النهر شمال البلدة وجنوبها مباشرة إلى ثلاثة فروع هي على التوالي ترعة العكيكة Hakaika، وترعة أم نخلة، وترعة مزلق Mazlak، بينما تتفرع منه على الجانبين أربع أو خمس قنوات أكثر اتساعًا من الفرع ولكن لا يمكن تسميتها بالأنهار، تخرج من جانب الفرات وتمتد عبر مساحات كبيرة من الأراضي التي تعتمد عليها في الريّ، وتواصل طريقها إلى أن تصب في بحيرة الحمّار مرورًا بالعديد من المستنقعات. وتسمى أكبر هذه القنوات الجانبية الموجاشية، وكانت - في الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور - تزداد اتساعًا بمرور الوقت نظرًا لخروجها من النهر عند مركز منحنى واسع أشبه بالقمر، ومن المؤكد أنها ستصبح في يوم من الأيام أحد الفروع الرئيسية للفرات.

وفى تلك الأيام، لم تكن لدينا إدارة للريّ. وكانت القبائل تتصرف وفقًا لما يروق لها، بدرجة أو أخرى، فيما يتعلق بإقامة السدود في المواقع التي تناسبها وعند تنفيذ الأساليب التي درجت عليها لريّ أراضيها. وكانت الدورة الزراعية التي اعتادت القبائل اتباعها تتركز في زراعة محصولين كل عام: محصول القمح أو الشعير ومحصول الأرز، وكان القمح أو الشعير يزرع في الخريف ويحصد في شهر مايو؛ وبعد ذلك يرتفع منسوب المياه في الفرات نتيجة لذوبان الجليد عند منابعه البعيدة في تركيا، فتغمر الأراضي المخصصة لزراعة الأرز بمياه الفيضان، لأنه من المحاصيل التي تُزرع في الماء وتنضج وتحصد وهى لا تزال في الماء.

وكان الأرز يعتبر، إلى حدٍ بعيد، المحصول الأعلى قيمة من المحصولين الآخرين، وكان الأسلوب السائد بين القبائل عند ممارستها للزراعة يجرى على

النحو الآتي: يزرع القمح أو الشعير وينمو اعتمادًا على أمطار الشتاء، وعندما ينضج المحصول يروى بمياه النهر في الوقت الذي يكون منسوب المياه فيه قد وصل إلى حدّه الأدنى؛ ومن هنا، كانت الجهود تبذل في كل مكان، سواء في تعاون بين القبائل المختلفة أو في تنافس وتحدٍ بين بعضها البعض، لإقامة السدود على مختلف القنوات الكبرى التي تُفضي إلى المجارى الرئيسية للمياه، من أجل رفع منسوب المياه في هذه المجارى وتوجيهها لري الأراضي المنخفضة المخصصة لزراعة الأرز بطريقة الغَمْر.

فيضان الربيع:

ويحل موسم الفيضان السنوى مع نضج المحصول الأول، وعندئذ يُهدم العدد الأكبر من السدود التي أقامتها القبائل من أجل إطلاق العنان لتدفق مياه المجرى الرئيسي للنهر، ولو لم تكن القبائل تتصرف على هذا النحو لبلغت مياه الفيضان درجة من العمق لا تؤدى إلى استحالة زراعة الأرز فحسب، بل وأيضا إلى غرق القرى والمناطق الآهلة بالسكان وتشريد سكانها.

وكان الفاصل الزمني بين نضج المحصول الشتوي وموسم الفيضان قصيرًا وكانت القبائل تحتسبه بكل دقة ,ولكن الريح تأتى، أحيانـًا، بما لا تشتهي السفن، فربما تساقط الجليد بمعدلات عالية أكثر من المعتاد على الجبال الشمالية البعيدة، ويعقبه انصهار مبكر غير معتاد أيضًا لهذا الجليد، وعندئذ، وقبل حصاد القمح أو الشعير يرتفع منسوب المياه في الفرات إلى حدٍ غير مألوف .ولكن نظرًا لوجود السدود، تمنع المياه الناتجة عن هذا الانصهار المبكر للجليد من التدفق عبر القنوات إلى بحيرة الحمار؛ الأمر الذي يهدد المنطقة كلها والمساحات الواسعة من المحاصيل التي أوشكت على النضج، بأفدح الأخطار. وكانت القبائل التي تنزل أسفل النهر وتعيش في الأراضي المتاخمة لبحيرة الحمّار هي الأكثر تعرضًا لهذه الأخطار؛ ولذلك كانت تشعر بضرورة التوصل إلى حلّ لهذه المشكلة أكثر من أولئك الذين يعيشون شمال سوق الشيوخ حيث تتميز ضفتا النهر بالارتفاع.

وكانت الطريقة الوحيدة التي تستخدم لمواجهة مثل هذه الحالات الاستثنائية الطارئة هي فتح الطريق أمام مياه النهر لتتدفق داخل بحيرة الحمار. ومن أجل تحقيق ذلك، كان لابدّ من هدم سدٍ أو اكثر من تلك السدود التي بذلت القبائل جهودًا مضنية لإقامتها. وهنا تبرز المشكلة؛ فكل قبيلة تأبى أن يهدم

سدّها، وتفضل أن يُهدم سد القبيلة المجاورة أولاً، وبناء على ذلك، ففي مثل هذه الأحوال، وعندما تتسم الحكومة المحلية بالضعف أو لا يكون لمثل هذه الحكومة وجود أصلاً، كما كان الوضع في منطقة السوق طوال الخمسين عامًا التي سبقت مقدم الإنجليز - كانت القبائل تسعى لهدم سدودٍ بعضها البعض، وكان من المحتم أن ينشب القتال بينها، وتكون الغلبة فيه عادة للأقوى.

وكان عام ١٩١٧ من الأعوام التي شهدت فيضانـًا غير عادى، ففي أواخر أبريل، بلغ ارتفاع منسوب المياه في الفرات حدّ الخطورة، وكان القمح في عديد من المناطق لم يكتمل نضجه بعد، ومازال في حاجة إلى الريّ، ولذلك بقيت جميع السدود دون أن تُمسّ، وهرعت القبائل وأصحاب البساتين من كل مكان إلى النهر لتدخل في سباق عارم من أجل زيادة ارتفاع الحواجز الوقائية، يحدوهم الأمل في أن ينخفض منسوب المياه قبل أن تهلّ بشائر الفيضان الرئيسي.

الأخطار تهدد البلدة:

وفى سوق الشيوخ، كانت المطالب والالتماسات تقدم كل ساعة من أجل أن تتدخل السلطات، ولو لم أُقْدِم على اتخاذ عدد من الخطوات ولو لم أمارس سلطتي فلن تنتهي الأزمة بضياع المحاصيل التي تنتجها المنطقة فحسب، بل وتتعرّض بلدة السوق نفسها للدمار ولم يقدّم لي المستشارون المحليّون الذين أعتمد عليهم إلاّ نصائح وآراء متناقضة وكلٌ على هواه فجميعهم لهم أصدقاء من أبناء القبائل المختلفة، ومن ثمّ أخذ كل منهم يسعى لزيادة نفوذه بإقناع الحاكم بهدم سدّ قبيلة أخرى بدلاً من السدّ الذي يهمّه أمر القبيلة التي تملكه، ورأيت أن اللائمة سوف تقع عليّ وحدي مهما حدث. كانت أيامًا عصيبة، ولا أحد إلى جانبي ليساعدني، والمنطقة في أشدّ حالات التردّي.

كان منسوب مياه النهر الصفراء العكرة يتصاعد في بطء، ولكن في إصرار لا يصدّه شيء إلى أن تجاوز العشرة أقدام فوق مستوى سطح الأرض المجاورة، وكان حدوث صدع في أي مكان يعنى تدفق مياه الفيضان لتغطيّ المنطقة بأسرها وتدمرّ كل المحاصيل، ومما زاد الوضع تدهورًا أن روح المغامرة العربية كانت هي المسيطرة، وكان من الممكن أن يؤدى هدم أي سدّ إلى غمر مئات الأفدنة من الأراضي المزروعة بالقمح على الفور. ولذلك كان من يملكون السدود على استعداد للدفاع عنها حتى الرمق الأخير، وكانت دوريات الحرس المسلح لا تتوقف عن

المرور على هذه السدود ليلاً ونهارًا، وكان الرأي الذي انتهى إليه القوم وأصرّوا عليه هو: أن يعاني الجميع معًا ولا تتحمل قبيلة بمفردها كل الغرم.

كان لابد من اتخاذ خطوة ما، كان لابدّ من قرار، على أن يكون القرار سرًا لا يعرفه أحد، وعندما استبدّ بي اليأس، كان قراري هو هدم سدّ الموجاشية الكبير، والذي يبلغ عرضه حوالي الخمسين ياردة، ولا يبعد عن البلدة إلا أقل من خمسة أميال. وكنت أعرف أنه يكفي فتح ثغرة صغيرة تخترق قمة السدّ فتأتي مياه النهر المتدفقة لتكمل المهمة. وكانت المشكلة هي كيف يمكن فتح هذه الثغرة بينما الحراسة مشددّة على السدّ. وقمت بجولة باللنش، وراعيت أن تشمل هذه الجولة أكثر من سد حتى لا ألفت الأنظار إلى السدّ الذي وقع عليه اختياري ليهدم. واكتشفت أنه ليس هناك حول السد المستهدف إلا أربعة من الحراس، وأنهم يتخذون مواقعهم جميعًا على الجانب الشرقي للموجاشية، ويؤدون مهمتهم في لامبالاة وإهمال شديد.

وكان هذا يكفيني، وعدت إلى السوق ورسمت خطتي، ونظراً لإدراكي لمدى التوتر الذي يسيطر على أصحاب سدّ الموجاشية، كنت على يقين من أنهم سيرفضون إطاعة أي أمر يؤدىّ إلى المساس بالسد، وأن محاولة لفتح الثغرة باستخدام القوة ووراء ستار الظلام بالليل، سوف تواجه بالمقاومة على الفور، مهما بلغ حجم القوة التي تكلف باتخاذ هذه المهّمة، وكان لابدّ من انتهاج أسلوب اكثر تسترًا واحتيالاً.

في تلك الليلة، أخذت معولاً وجاروفًا، واصطحبت محمد الحيّال واثنين آخرين من رجال الشرطة النهرية، وغادرنا المرسى في مشحوف mash'huf (قارب يتحرك بالمجاديف) ورحنا نجدّف صعودًا في النهر إلى أن وصلنا إلى مدخل قناة الموجاشية من جانبه الأيمن، كان السد على بعد ثلاثين ياردة من هذا المدخل، وكان الظلام دامسًا عندما سارعنا بالتوجه إليه بالقرب من الضفة الغربية للقناة، ومن الواضح أن الحراس على الضفة الشرقية كانوا يغطون في سبات عميق.

زحفت أنا ومحمد إلى قمة السد، والتي يبلغ عرضها اثني عشر قدمًا، وبدأنا نفتح ثغرة بسعة قدمين، بادئين من الجانب السفلي، لم يكن العمل صعبًا وكان في مقدرتنا إنجاز المهمة باستخدام اليدين، لأن هذه السدود مشيدة جميعًا بنفس الطريقة؛ كميات من حطب الأرز تكبس بشدة فوق طبقة من الطمي، وهكذا

بالتناوب. وكانت الطبقة التي تغطي قمةّ السد، والمشيدة من قوالب الطمي المجفف، هي أشق المراحل التي واجهناها، ولكننا تمكنّا من إزالتها باستخدام المعول مع مراعاة الحرص لعدم صدور أصوات عالية تسترعي الانتباه.

ثغرة في السد:

واصلنا عملنا في بطء وصمت لمدة ساعة تقريبًا، وأخذت الثغرة تزداد طولاً حتى لم تعد هناك إلا ثلاثة أقدام من جسم السد لمواجهة الضغط الهائل لمياه النهر، وعندما أنجزنا العمق المناسب، سارعنا بهدم الياردة الأخيرة المتبقية، وهرعنا إلى قاربنا، وأخذنا نجِدّف بكل قوة لمسافة مائة ياردة، ثم توقفنا لنرى النتيجة، جرى كل شيء وفقًا للخطة؛ فبعد أن اندفعت المياه في بادئ الأمر عبر الثغرة التي فتحناها، بدأتَ المياه تتدفق كالسيل الجارف وهى تزمجر وتفيض خارج القناة. وأدركنا أن كل شيء يجرى على مايرام، وأنه ليس هناك من شيء يستطيع وقف مياه النهر الهادرة أو منعها من توسيع الثغرة أكثر واكثر إلى أن تكتسح السدّ بأكمله. وانصرفنا قبل أن يبلغ التيار الناتج عن فتح الثغرة درجة من الشدّة لا نستطيع مواجهتها.

وجاء النذير الذي أطلقه الحرّاس الغافلون متأخرًا، وكان آخر ما سمعناه هو صيحات تتعالى من أبناء القبيلة على البعد، وعويل نساء القرية المجاورة، والجميع يحاولون في يأس وقف المياه المتدفقة كالسيل.

وعدنا إلى السوق حوالي الثالثة صباحا، وتوجّه كل منا إلى منزله، ولكن بعد أن شددت على محمد ورجلي الشرطة النهرية الآخرين بضرورة الالتزام بأقصى قدر من التكتم والسرية فيما يتعلق بما أنجزناه في تلك الليلة الليلاء.

وأفلتت سوق الشيوخ من الدمار. وعندما أشرقت الشمس، كان منسوب المياه في النهر قد انخفض قدمين، وفى الصباح الباكر، جاءني الحاج حسن حمداني بالأنباء التي تقول أن سدّ الموجاشية حدثت به ثغرة في المساء، وأن المياه اكتسحته تماما في طريقها.

وقال وهو يبتسم: "كان الله رحيمًا، الحمدُللّه."

كنت في فراشي في ذلك الوقت، وتظاهرت بأنني ما زلت في حاجة إلى النوم، وأنني توترت لإزعاجي، ولكن سرعان ما نهضت لأتلقى التهنئة من

الشخصيات البارزة في البلدة، التي أقبلت لمناقشة الأنباء وتناول قهوة الصباح معي في المجلس.

مناطق تغمرها الفيضانات:

ومثّلت دوري حتى النهاية. وحتى اليوم الذي غادرت فيه سوق الشيوخ، لم يعرف أحد شيئًا عن هذا الدور الذي قمت به. وحافظ رجال الشرطة النهرية على السر بكل ولاء وصدق، ومع ذلك، ورغم أنني أنقذت البلدة وعدة آلافٍ من الأفدنة المزروعة بالقمح والتي تمتد لعدّة أميال على الضفة اليمنى للفرات، إلاّ أن المساحة الشاسعة الواقعة أعلى الموجاشية على الضفة اليسرى غمرتها المياه، ودُمرت المحاصيل تمامًا حتى بحيرة الحمّار. ولم أتمكن بأي حال من حصر عدد أفدنة القمح التي دمرت، ولكن من المؤكد أن الدمار كان فادحًا إلى أبعد الحدود. ولم أحاول على الإطلاق أن أحصل على أي تعويضات من الحكومة، لأن أحدًا لم يكن يسمع عن مثل هذه الأشياء في ذلك الوقت.

وكم مرة شعرت فيها أنني أكره نفسي للدور الذي قمت به، حيث إنني لم استطع أن اكفَّ عن التفكير في هؤلاء القوم الذين أصبتهم بالدمار والإفلاس. كانت مهمة كريهة بلاشك، ولكن كان حتمًا أن أُلحق الأذى بالقليلين لأنقذ الكثيرين. هل كِنت على حق؟ لو أن هذا السؤال وجّه إلى القبائل لكان ردّها، قطعًا، هو: "كلا!".

في أعقاب حفل عيد الميلاد:

تلقى العديد من مساعدي المسئول السياسي بمنطقة الفرات، وأنا منهم، دعوة للعشاء بمناسبة عيد الميلاد، عام ١٩١٧ يقيمها الماجور (السير هربرت فيما بعد) يونج مساعد المسئول السياسي بالناصرية.

وحتى ذلك الوقت، كنّا جميعًا نمارس مسئولياتنا كُلاً على حدة في مناطق لا رابط بينها، ونتعامل مع كبير المسئولين السياسيين بالبصرة، السير بيرسي كوكس، أو كوكاس كما كان العرب يسمّونه، وكانت للميجر يونج طموحاته. وبعد أمسية تشع بالبهجة والمرح، قدمت فيها الشمبانيا بكميات وافرة وفي سخاء، أخبرنا مضيفنا أنه سوف يقترح على كبير المسئولين السياسيين، من أجل تحقيق مستوى أعلى من الكفاءة الإدارية والتسهيلات المالية، أن يُعين (أي الماجور يونج)

مسئولا سياسيًا لمنطقة الفرات، على أن نعمل نحن تحت رئاسته، ونظرا لما كنّا فيه من نشوة، ونتيجة لتأثير يونج وكلامه المعسول، رحبنا باقتراحه دون تردد، غير مدركين لما يعنيه من الناحية العملية.

وحتى لا أظلم الماجور يونج، ينبغي أن أضيف أن الناصرية كانت تشكل أيام الاحتلال التركي المركز الإداري للواء المنتفق. ولم يكن الأتراك بالمثال السيئ الذي لا يُحتذى في هذا الصدد، لأنهم كانوا يسعون دائمًا لإدخال جميع الفروع التي تشكل أحد القبائل الكبيرة في إطار سلطة إدارية واحدة. وأما خطأهم الأساسي فيتمثل في الأساليب التي كان ينتهجها ممثلوهم وليس في المخطط الذي يسعون إلى تنفيذه. وإلى جانب ذلك، كان كبير المسئولين السياسيين بمنطقة الفرات يتخذ من الناصرية مقرًا ومركزًا له، والأرجح أن الماجور يونج تصوّر، وله مبرراته بالطبع، أن إدارة منطقة معروفة بكثرة مشاكلها، وتقع على مسافة بعيدة عن البصرة، يمكن أن تمارس على نحو أكثر فعالية من مركز يتخذه كبير المسئولين السياسيين مقرًا ومركزًا له، لأنه، بعد كل شيء، هو المسئول عن المنطقة كلها، وكذلك عن خطوط مواصلاته حتى القرية.

النقل من الشيوخ:

ولكل هذه الأسباب، لم نتصّور عندما عدنا في اليوم التالي إلى مقارّ عملنا، بعد أن استمتعنا بليلة عيد الميلاد، أن الماجور يونج كان جادًا في اقتراحه، أو أن التهور يبلغ به أن ينفذّه. ولكنه نفذّ اقتراحه بالفعل، وعلى حسابنا.

واستشاط السير بيرسي كوكس غضبًا، وبعد أسبوع وجدنا أنفسنا جميعًا وقد تم نقلنا إلى مواقع أخرى، وشمِل النقل ستة منّا، بما في ذلك الماجور يونج الذي صدر له الأمر بأن يحلّ محلي في سوق الشيوخ، وكان ذلك، من وجهة نظره، خفضًا شديدًا لمكانته، وشعرت بالأسف العميق ينتابني عندما تلقيت برقية تحيطني علمًا، دون إبداء أي أسباب، بعودتي إلى الجيش، وتطلب مني التوجه للعمل بإدارة المشتريات المحلية في العمارة، كنت أحِب عملي، والناس الذين تعاملت معهم طويلاً، وما كان بوسعي، بالطبع، إلاّ أن أشعر أن السلطات المسئولة تِراني غير جدير وغير أهل لتولى مسئولياتي، ولم أعلم بكل هذا الذي يجرى إلاّ بعد أن وصل الماجور يونج بالفعل إلى سوق الشيوخ، وأدركت كيف أدّى تصرفه الأهوج إلى كل هذه التطورات المؤسفة، وإلى انهيار الأحلام التي

كانت تراودني. وألقيت عليه باللائمة لما أصاب مستقبلي الوظيفي في الإدارة السياسية من دمار على يديه.

ولكن الأوامر هي الأوامر، وبعد أن سلّمت الماجور يونج كل خيوط العمل، وقلبي يتفطر حزنـاً، جمعت حاجاتي ونقلتها إلى سفينة شراعية للنقل، وودّعت جميع الشيوخ، وخرجت متجهًا إلى البصرة حيث كان عليّ أن أقدم تقريرًا قبل مواصلة الطريق إلى العمارة.

استغرقت رحلة السفينة "سفينة نوح" – وكانت حمولتها كبيرة – خمسة أيام حتى وصلت إلى البصرة، وعطلتنا الرياح والأمطار في بحيرة الحمّار، فاضطررنا للتوقف لمدّة يومين فوق الطمي خارج ترعة مزلاق. ولم يتمكن صديقي حاتم الموزان، شيخ قبيلة الجوابر التي تنزل على جانبي هذه الترعة، من تحريك سفينتنا ولو لبوصة واحدة، رغم كل ما تحت إمرته من جيادٍ ممتازة ورجال على أعلى مستوى من الخبرة، ولم نتمكن من الإقلاع إلا عندما هبت رياح من الجنوب ودفعت المياه ليرتفع منسوبها في البحيرة إلى المستوى الذي سمح لنا بالتحرك.

وعندما وصلت إلى البصرة، توجهت إلى مكتب كبير المسئولين السياسيين لتقديم تقريري وتلقي الأوامر. واعترتني الدهشة وقدر غير قليل من الضيق عندما وجدت جميع شيوخ سوق الشيوخ تقريبًا في البهو، تحيط بهم أمتعتهم وأدوات إعداد القهوة وغير ذلك من المنقولات، لأنه كان من الطبيعي أن أُتهم بأنني أنا المدبّر لكل هذا الذي يجرى، ولم يذكر هؤلاء الأوغاد أي شيء عمّا يعتزمون، وانصرفوا قبْلي، بعضهم على صهوة جواده والبعض في قوارب خفيفة عن طريق أم نخلة والغابشية، على مسافة مائة ميل، كانوا خمسين شيخًا، من بينهم ثامر بك، وعجيل بك، ويوسف بك، وعبدالعزيز الرشيد (وجميعهم من آل سعدون)، وجميع شيوخ بنى خيقان والمجرّة، وعلى رأسهم الكهل قاصد الناهي، صاحب العين الواحدة.

كانوا جميعا في البهو عندما دخلت. واندفعوا نحوي لتحيتي، وصافحوني بكل حرارة مع ما يعقب المصافحة من قبلات على الخدين، وعندما استفسرت، في لهفة، عمّا أتى بهم إلى البصرة، صاح قاصد، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة لم أشهده يبتسم مثلها من قبل، قائلاً إنهم جاءوا ليعودوا بي إلى سوق الشيوخ، و "إن شاء الله كوكاس ما يقصّر" – أي أن السير بيرسى كوكس لن يرد لهم طلبًا.

مطلب الشيوخ:

وما أن تمكنت من الإفلات من حصارهم حتى سارعت بالنزول إلى الطابق السفلي حيث التقيت المس جيرترود بيل في مكتبها فحذّرتني مرة أخرى وأبلغتني أن شيوخي جاءوا بالأمس وتقدموا بالتماس مسهب يطالبون فيه بعودتي، وأنهم رفضوا الرجوع إلى منازلهم أو مغادرة المكتب إلى أن يحصلوا على ردّ يرضيهم؛ وأنها بذلت كافة المحاولات واتبعت كل الأساليب لإقناعهم بالانصراف ولكنهم لم يتزحزحوا عن موقفهم حتى عندما طلبت منهم - على الأقل - أن يتوجهوا إلى فنادق العشار ومحلات القهوة المحلية والانتظار لحين استدعائهم. وقالت لي مس (الآنسة) بيل بكل صراحة أن كبير المسئولين السياسيين انزعج أشد الانزعاج لهذه التصرفات، وأن الشكوك تساوره بأنك أنت المحرّك لكل هذه الأحداث، وأنه أمر بأن تتوجّه لمقابلته فور وصولك.

ووجدته في حالة بالغة التوتر، وفى برود شديد، سألني عمّا أعنيه بالسماح لجميع شيوخي بمغادرة سوق الشيوخ والمجيء إلى البصرة دون استئذان، وقال أن عليّ أن أعيدهم على الفور، وأنه يرفض لقاءهم أو حتى مناقشة التماسهم، وأنه من الأفضل لي أن أطيع الأوامر. وعندما تمالكت مشاعري المضطرمة وتمكنت من الكلام، توسلت إليه أن يصدقني، وأنا أقسم بشرفي، عندما أقول أنني لا أعرف شيئًا البتّة عمّا اعتزمه هؤلاء الناس، وأنني تعطلت في الطريق، وأنني سلمت كل خيوط عملي للميجر لانج، وكان عليه هو أن يمنعهم من الحضور، وأنني كنت جنديًا يعرف واجباته جيدًا وأعرف كيف أطيع الأوامر، ولكنني أريد أن أعرف ما هو الفشل الذي يمكن أن ينسب إليّ في سوق الشيوخ بحيث يتطلب الأمر أن يتم نقلي برقيًا من الإدارة السياسية وإعادتي إلى الجيش دون كلمة تفسير واحدة، وأنه يجب عليه أن يدرك أن تصرفه هذا يعنى نهاية كل آمالي وطموحي، الخ. وأخيراً، توسلت إليه ألا يصب جام غضبه على شيوخي، هؤلاء البسطاء البدائيين القريبين إلى قلب كل من يتعامل معهم، والذين أقدموا على ما أقدموا عليه لجهلهم بأساليب العمل والعادات البريطانية. وتوسلت إليه أيضا أن يقابلهم مجتمعين دفعة واحدة، في غرفة معيشته، وأن يستمع لما يريدون قوله.

وأمام هذا الإلحاح، خفف السير بيرسى من تشدده وأمرني أن أذهب

لإحضارهم جميعًا من الدور العلوي، في نفس الوقت الذي طلب فيه تقديم القهوة لهم في غرفته، واندفع شيوخى جميعًا في ارتباك وعجل، وأعدّت المقاعد لآل سعدون بينما جلس الآخرون متقاربين في دائرة على الأرض، وهم يحاولون التماسك وارتشاف القهوة التي قدمت على الفور، كان الوضع شاقًا إلى حدٍ ما، لأنني كنت أقوم بالترجمة في نفس الوقت الذي كان عليّ فيه أن اشرح وجهة نظر السير بيرسى الذي كان لايزال متوترًا، وأخيرًا، وعندما بدا وكأنه من المتعذر التوفيق بين الطرفين، قفز الكهل قاصد فجأة، والدموع تسيل من عينه السليمة ومن عينه الكفيفة معًا، وأمسك بكوفيته وعقاله واندفع إلى الأمام ليلفها حول رقبة السير بيرسى.

وصاح: "نحن داخلين على الله وعليك! عطينا داكسان - نحن نتوسل إلى الله وإليك، أرجع لنا داكسان. إنه يعرفنا ويعرف أخيارنا وأشرارنا، وهو وحده الذي يفهم كيف يتعامل معنا ويحافظ على النظام".

وأعقب ذلك هرج ومرج، وجرى أمامي مشهد بالغ الغرابة، رأيت فيه كبير المسئولين السياسيين في بلاد ما بين النهرين يلتفَ من حوله حشد من رجال القبائل البدائيين، وكل منهم يحاول أن يربط غطاء رأسه وعقاله حول رأس هذا المسئول الكبير أو حول ذراعيه. أو حتى حول ساقيه وذابت الثلوج، وبدأ السير بيرسى كوكس يضحك. وبينما هو يقاوم ما يحاوله هذا الحشد من الأطفال كبار السن، طلب منيّ أن أتقدم لحمايته، وبعد جهد غير قليل، تمكنت من إقناع قاصد وبقية الشيوخ بالجلوس مرة أخرى؛ وكان منظرًا هزليًا حقًا، وكل منهم يعيد كوفيته إلى موقعها كيفما اتفق، ويثبت عقاله في اضطراب وزوايا غريبة، بينما ترتسم على وجوههم الكالحة نظرة تطلع وأمل وترقب.

ودعاهم السير بيرسى كوكس لتناول القهوة والتدخين في جو أكثر هدوءًا وأخبرهم أنه لابد من منحه متسعًا من الوقت ليتدبر الأمر، وأنه على استعداد لبحث التماسهم والتعاطف معهم، وأنه سيبذل كل ما في وسعه لتلبية رغباتهم، ولكن هناك صعوبات؛ وأضاف أنهم إذا انصرفوا وتوجهوا إلى البلدة وعادوا في اليوم التالي، فسوف يكون في استقبالهم ليقدم لهم ردّه. ثم أضاف، بعد أن رأى القلق واضحًا على وجوه البعض منهم، أنه يأمل أن يكون في ردّه ما يرضيهم ويسعدهم.

وهكذا انتهى اللقاء. وكُلفت بإخراج الشيوخ من البهو، فنفذت ما كلفت به، ثم عدت إلى غرفة السير بيرسي كوكس بناء على استدعائه لي، وعلى الفور بادرني بسؤال محير: "لا بأس حتى الآن يا ديكسون، ولكن كيف أتراجع عنٍ أوامري التي أصدرتها ليونج؟ لقد استقر الآن في سوق الشيوخ وأصبح مسئولاً عنها".

وأجبت في لباقة بأنني أعرف أن يونج لا يحبذ فكرة الاستمرار في سوق الشيوخ، وأنه سيوافق بكل ترحيب بتبادل موقعه معي والرحيل إلى العمارة ليعمل بها في إدارة المشتريات المحلية.

وقال السير بيرسي: "حسن جدًا. إذا أمكنك التوصّل إلى ذلك فسوف أوافق على التبادل، ولكن يجب أن تقوم أنت بتقديم الاقتراح ليونج، لأني لا أستطيع التراجع عن أمر أصدرته وتم إبلاغه بالفعل لقيادة الجيش"، ثم استأذن لينصرف لبرهة ثم عاد وقدّم إليّ ورقة وهو يقول: "اعتقد أن هذا سيسوّى كل شيء.

كانت مسودة برقية موجهة إلى يونج، كتبت وكأنها صادرة منّى، جاء بها أنه عند وصولي إلى البصرة، تحدثت مع كبير المسئولين السياسيين ونتيجة لذلك أتجاسر فأقترح عليه أن يخاطبه هو أيضًا، ومباشرة، لإجراء التبادل معي، وأن هناك العديد من الأسباب التي تدعوني إلى الاعتقاد إلى أنه سيفكر في الأمر بروح التعاطف معنا، ولكن مع ضرورة التصرف بسرعة، وأرسلت البرقية "عاجلة جدا"، وفى اليوم التالي، عندما تجمّع الشيوخ مرة أخرى في غرفة السير بيرسى ليخطرهم بقراره، بدأ بإطلاعي على برقية مسطور عليها عبارة "عاجل" يطلب يونج فيها السماح له بالالتحاق بالجيش كمسئول عن المشتريات المحلية بدلاً من ديكسون، الذي فهم منه أنه يوافق على العودة إلى سوق الشيوخ، كما أطلعني السير بيرسى أيضًا على ردّه بالموافقة، ثم استدار ليخاطب الشيوخ وعلى شفتيه ابتسامة غامضة. وبعد السؤال عن صحتهم والتعبير عن أمله في أن يكونوا قد أمضوا ليلة هادئة ومريحة في الفنادق التي نزلوا بها، قال في هدوء إنه فكر في طلبهم الخاص بالكابتن ديكسون، وأنه قرر أن يعيده إلى سوق الشيوخ مرة أخرى. أمّا الحماس الذي استقبل به الشيوخ هذا القرار، فهو أمر لا تصفه الكلمات وإنما علينا أن نتخيله.

كان السير بيرسى كوكس رجلاً عظيمًا. ومن السهل أن نفهم الأسباب

التي حققت كل هذه الشعبية والمكانة بين شعب بلاد ما بين النهرين، والمهابة التي لاتزل تحيط باسمه حتى اليوم، وان الأمر ليحتاج لسنوات عديدة حتى يمكن نسيان مثل هذا الرجل.

كانت عودتي إلى سوق الشيوخ انتصارًا سأظل أذكره على الدوام، ولقد حاولت أن أجعل هذه العودة هادئة وغير ملفتة للأنظار، ولكن ما كان لذلك أن يحدث، كان يوم عودتي هو اليوم الذي ينتظره قاصد.

وظللت في السوق قرابة العام، ولم يحفل أحد بالأمر فيما بعد عندما أصبحت مسئولاً سياسيًا لجميع المناطق التي ينزل بها عرب المنتفق واتخذت من الناصرية، على بعد عشرين ميلا فحسب مقراً لي.

حسين القبيح والقلعة AL GUBAIH :

كان حسين القبيح المسنّ شيخ الجوارين Jawarin وهم قبيلة شبه رعوية تعيش على تربية الأغنام والحمير في سوق الشيوخ، وتنزل في الصيف بالقرب من أم البطوش، ثم ينتقلون في فصل الخريف إلى الصحراء جنوبي العراق والكويت ويظلون بها لمدة ستة أشهر، وكان الجوارين من أصل عربي عريق، ويفخرون بأنهم من فرع الأجود بين المنتفق، كانوا فقراء، وفى فصل الصيف، كان حسين القبيح يبذل جهدًا كبيرًا كادحًا في زراعة الأرض لحساب ثامر بك آل سعدون في العادة، في المنطقة الممتدة بين أم البطوش وسوق الشيوخ، كان رجلاً محبوبًا تقدمت به السنّ، بدائيًا في تصرفاته مثل سائر قومه، ولم يكن ليتورّع بأي حال عن الاعتداء على ملكية الغير إذا رأى له مصلحة في ذلك. وكان أتباعه كثيرين، ومسلحين تسليحًا جيدًا.

وفى يوم بديع من أيام الصيف عام ١٩١٨، أقبل ثامر بك مسرعًا لمقابلتي ومعه كاتبه الكردي، مُلا أحمد، وأخذ يجأر بالشكوى، وهو في ثورة عارمة، من أن حسين القبيح استولى على أحد الحصون التي تحمى أراضيه، وهو حصن يشرف على مساحة واسعة من الأرض كان حسين يزرعها أرزًا لحساب ثامر بك. ورفض حسين أن يخلى المفتول (الحصن) وأكدّ عزمه على أن يصبح من ملاك الأراضي كما فعل الكثيرون في تلك الأيام التي لم تكن الأوضاع قد استقرت عندها بعد. وردًا على احتجاجات ثامر، أعلن حسين أنه يعمل في خدمة الأتراك وأخبر أتباع ثامر بك الذين أرسلهم لبحث الأمر معه أنه لا يعرف ثامر بك، ولا الكابتن

ديكسون، ولا حكومة الإنجليز، وأنه يتحدّى أي قوة تحاول أن تنتزع منه ما صار ملكا له.

وينبغي أن أذكر هنا أنني كنت متعاطفًا مع حسين أكثر من تعاطفي مع ثامر بينما كنت استمع لهذا الأخير وهو يصبّ جام غضبه على سركال sarkal السابق: أفَلم يسبق لثامر نفسه أن اغتصب أرضاً لم تكن ملكاً له أثناء الفوضى التي أعقبت رحيل الأتراك ومقدم الإنجليز؟ وبذلت كل ما في وسعي لتهدئته هو والملا أحمد المراوغ، ووعدتهما بالتدخل لتسوية المسألة.

وكان الحصن الذي استولى عليه حسين مشيدًا على بعد ثلاثة أميال من سوق الشيوخ، على الطريق إلى الخميسية، ويمكن رؤيته بوضوح، بالعين المجردة، من أعلى منزلي.

وأرسلت استدعاء رسميًا إلى حسين القبيح ليحضر إلى مكتبي، وحضَرَ على الفور. كانت عيناه تشعان ببريق غريب ينم عن الدهاء، وبشرته كالحة لفحتها الشمس، في حوالي السبعين من عمره، ويرتدي ثيابًا رثّة. وكان من الواضح أيضًا أنه لم ينتعل صندلاً أو أي نوع من الأحذية، طوال حياته، في قدميه الحافيتين، إن صورة قدميه لا تفارق ذاكرتي أبدًا، وكانتا أشبه ما تكونان بخفي الجمل، وتؤكدان – أكثر من أي شيء آخر – أنه من أبناء البادية، وأنه أمضى أغلب سنوات حياته سائراً حافي القدمين على الرمال الساخنة.

كان جريئًا لا يبالي بشيء لدرجة تبعث على الضحك. ولم أتمالك نفسي إلاّ أن أحبه، وبدأ حديثه فقال إن والده من قبيلة كان يزرع المحصولات كل عام في الأراضي التي وضع يده عليها، وأن ثامر بك آل سعدون حاول طرده منها ليعطيها لسركال آخر، وأنه نظراً لأن العديد من الناس وضعوا أيديهم على أراض ليست ملكهم، مستفيدين من الأوضاع الناجمة عن الحرب، رأى أن الفرصة مواتية لأن يتصرف على نفس النحو، ولما كان المقتول في موقع يجعل المنطقة كلها في إطار تأثيره وتحت سيطرته، رأى أن يضع يده عليه حماية لنفسه.

وبعد أن استمعت لكل ما كان يريد قوله،ذكرّت حسين، وفي نبرة جادة، أن هناك حكومة تمارس سلطاتها، وأنني أنا الذي يمثلها، وأن من واجبي أن أمنع أي شخص من أن ينَصب نفسه مفسرًا أو حاميًا للقانون، وأن عليه أن يُخْلي الحصن على وجه السرعة ثم يأتي بعد ذلك إلى المجلس ليقدم أي

شكوى يريد تقديمها ضد ثامر بك. وشكرني الرجل الكهل، ونظرة ماكرة في عينيه، ووعد بتنفيذ ما نصحته به؛ وطلب منحه ثلاثة أيام ليقنع قومه بالالتزام بنداء العقل.

وانصرف حسين، وتصوّرت أن المسألة تمت تسويتها. ولكن هذا لم يحدث، ففي اليوم الثالث بعد زيارته لي، تلقيت منه رسالة غاية في الجفاف يذكر فيها أن قومه لم يوافقوا على قراري، وأنه نتيجة لسيادة الأوضاع التي لم يُلتَزم فيها بأي قانون، لم يعد قادرًا على فرض سلطته عليهم؛ وأما إذا تمكّنت من أن أثبت لهم أن سلطة الحكومة قائمة ووطيدة، فسوف يسلمّ الجوارين الحصن بلاشك دون أية مشاكل. واقترح، في رسالة شفوية، أن أتوجه مع جنودي، مسلحًا بعدد من المدافع، لأهدد قومه بقصف الحصن، وعندئذ فسوف يجرى كل شيء على مايرام. وكان هذا الوغد يعلم تمامًا أنه ليس لدى جنودٌ أو مدافع، مما يعنى أنه سيظل واضعًا يده على الأرض حتى يصبح تحت إمرتي ما يتحدث عنه من جنود ومدافع.

في هذه الأثناء، جاء ثامر بك مرة أخرى وسألني عمّا أنا فاعل في هذا الصدد، وأكدّ أن عددًا من رجاله تعرضوا لإطلاق النار عليهم من الحصن في اليوم السابق مباشرة فسقط منهم قتيلان، وأضاف ثامر بك أنه إذا لم أواجه الموقف بكل حزم وأثبت أنني قابض حقًا على مقاليد السلطة، فسوف تزداد الأوضاع تدهورًا، وسوف يتصور جميع سكان البلاد، الذين يراقبون الأحداث عن كثب، أنه ليس هناك حكومة حقيقية تساندني، ومن ثم فسوف يبدأون في محاكاة حسين وقومه من الجوارين في كل مكان.

وأمام هذا التهديد السافر من جانب ثامر بك، أخذت أقدح زناد فكرى بحثًا عن مخرج، لقد جعل من تهديده اختبارًا محددًا لي، ومن الواضح أنه يحاول تقييد حركتي، الأمر الذي يردد ما كنت أحمله له من مشاعر وديّة؛ إذ كان من السهل عليه أن يصبر لبعض الوقت إلى أن تهدأ الأوضاع، ولو إلى حدٍ ما، ثم يتقدم بشكواه رسميًا. وكان من الواضح أيضًا أنه بدون مدفعية، لن تستطيع أي قوة من الشرطة النهرية، تحقيق أي نتيجة في مواجهة حصن جيد البناء من ثلاثة طوابق، وأن أي محاولة لفرض الحصار عليه لن تؤدى إلاّ إلى تعرض رجال الشرطة النهرية العاملين معي إلى الهجوم من جانب الجوارين من

الخارج. وكان من المُحال أن أتراجع، رغم أنه لم يكن لدى أمل في الحصول على أي مساعدة من القيادة العامة في الناصرية التي كانت منهمكة تمامًا في مراقبة نشاط قبائل الغراف في اتجاه الشطرة.

وفي محاولة لكسب الوقت، أرسلت إلى حسين أطلب منه الحضور لمقابلتي مرة أخرى، ولكنه رفض، وأجاب بأن قومه لن يسمحوا له بزيارتي خشية أن أغدر به وألقي به في السجن. وكان هذا عذرًا واهيًا إلى أبعد الحدود؛ فالقبائل كلها تعلم أن حسين لم يكن ليقبل في يوم من الأيام أي انتقاص لسلطته وهيمنته على قبيلته، لأنه كان في واقع الأمر، من أقوى الشخصيات في المنطقة.

وكتبت له مرة أخرى وأرسلت الحاج حسن حمداني ليحاول إقناع هذا الكهل بالتذرع بالحكمة وأن يأتي بضمانتي لمناقشة المسائل المختلفة، ولكن بدون طائل حيث عاد الحاج حسن حمداني ليقول إنه وجد حسين القبيح في حالة شديدة التوتر، وأنه رفض الانصياع لصوت العقل، بل وإن تسليمه رسالتي كانت مخاطرة كبرى بالنسبة له كادت تعرضّه للإيذاء.

الأسطول يقدم مساعداته مرة أخرى:

وتحولت المسألة كلها إلى اختبار كان عليّ أن أجتازه. وكنت أبذل جهدًا خارقًا لأتحسس طريقي وأحدد خطوتي التالية، ولم أكن قد فكرت بعد في الاعتماد على الأسطول الملكي في دجلة والفرات، والذي ظهر على مسرح الأحداث مرة أخرى لينقذني وليحلّ مشكلة معقدة، ففي خضمّ متاعبي، والتوتر العام الذي يحاصرني من كل جانب، أقبل زورقان نهريان صغيران في طريقهما من الناصرية إلى البصرة وألقيا مراسيهما بالقرب من مقر ضيافتي بسوق الشيوخ. وكان القاربان مزودين بمدفعين ٤ بوصات، ومظهرهما العام ينمّ عن القدرة والكفاءة.

ولعبت بآخر رقة في يدي؛ وقلت في مذكرة أرسلتها لحسين القبيح على وجه السرعة أن الحكومة أرسلت سفنًا حربية لأعتمد عليها لفرض سلطتي بالقوة، وأن قصف أراضيه وتدمير الحصن سيبدأ عما قريب؛ وأن الحكومة، رغبة منها في تجنيبه هو وقومه هذا المصير المؤلم، تمنحه فرصة أخيرة: فإذا حضر في غضون أربع ساعات وأعلن تسليم الحصن رسميًا وخضوع قومه للسلطات، فسوف تمتنع السفن المسلحة عن إطلاق نيرانها.

لم أكن على يقين من أن القوة البحرية ستتمكن من إنجاز أي شيء، ولكن الحيلة نجحت، ففي خلال ثلاث ساعات، أقبل الكهل حسين طالبًا الصفح، وعندما رآني جرى نحوي ورأسه عارية ولفّ كوفيته حول رقبتي – مما يعني التماس العفو والمغفرة. وصاح: "كفى! كفى! لقد أثبت أن هناك حكومة في الأرض، هذا يكفيني.

احتلال الحصن:

ثم ذكر أن رجاله أخلوا الحصن ويلتمسون أن أصدر أوامري للشرطة النهرية للتوجه لاستلامه على الفور. وهذا ما حدث بالفعل. واحتل جنودي البواسل الموقع خلال ساعة واحدة، وظلّ حسين تحت المراقبة المشددة في مكتبي إلى أن تم إنجاز هذه المهمة.

وهكذا انتهى كل شيء على خير مايرام. ولكن الجانب الطريف من المسألة أن سفن الأسطول لم تكن تعرف شيئًا البتة عن هذا الذي يجرى، ولم يتم إخطار قائديّ الزورقين بمساعدتي إلا عندما كانا على وشك مغادرة سوق الشيوخ بعد انتهاء المأدبة التي أقمتها تكريما لهما.

أما بالنسبة للكهل حسين القبيح، فقد أدّى دوره جيدًا، وما لبث أن أطلق سراحه بعد أن قبلّ يد ثامر بك أمام الجميع في المجلس، وطلب الصفح، بعد تحذيره من العودة إلى مثل هذه التصرفات في المستقبل. ثم أخذ يزورني من وقت لآخر، وأصبح من خيرة أصدقائي عندما نقلت إلى الناصرية، ثم توفى بعد ثمانية أعوام، ومنذ ذلك الحين تولىّ ابنه ناصر رياسة الجوارين بدلاً منه، وعندما قامت الحكومة العربية برئاسة فيصل بعد قليل، أثبت أنه عنصر له مكانته واحترامه في المجتمع القبلي، وأبلى بلاءً حسنًا. وكثيراً ما كان يزورني في الكويت عندما تنتقل قبائل الرعاة من المنتفق إليها كل خريف.

تعويذة ميرزا عناية:

كان يعيش في المنطقة المحصورة بين ترعتي أم نخلة ومزلاق أحد رجال الدين من الشيعة يدعى ميرزا عناية، وكان يتمتع بنفوذ كبير بين الحسن، والجوابير، وبنى سعيد وغيرهم من القبائل التي تتبع فريق الأخباريةAkhbariyah من الشيعة، والذي يقف على طرف نقيض من فريق الأصولية الذي يشكل الكتلة

الأساسية من أتباع المذهب الشيعي. وكان يقيم في النتوء الذي تشكله الترعتان المذكورتان، ولكن على مسافة بعيدة من كل منهما، مع مجموعة صغيرة من أتباعه تتكون من ستّة من العُلَمَاء الآخرين، يديرون نوعًا من المجمع الديني القبلي الذي يفيد إليه الكثيرون لتلقى المشورة والنصح في المسألة المتعلقة بالعقيدة الدينية.

وكثيراً ما ساعدني ميرزا عناية في تسوية القضايا القبلية المعقدة المرتبطة بالنزاع حول الحدود، والطلاق، والمواريث، وما شابه ذلك، وكان الاتصال الوحيد يجرى بيننا عن طريق المراسلات؛ لأن زيارة زعيم ديني لوكيل سياسي بريطاني تعنى تدهور مكانته وتدنيها في أعين أتباعه، ولذلك لم أطلب منهُ أن يزورني.

ولكنني قررت في خريف ١٩١٨ أن أتوجه لزيارته لأنني كنت في أمس الحاجة لأن يقف إلى جانبي حيث قررت الحكومة شق قناة صالحة للملاحة عبر بحيرة الحمّار وكذلك عبر شريط قصير من الأرض يمتد جنوب ترعة مزلاق مباشرة. وكان من المقرر أن تخرج هذه القناة مِن الفرات عند نقطة بالقرب من قرية بنى سعيد التي تبعد مسافة ضئيلة عن مقر إقامة ميرزا عناية، أو بعبارة أخرى عند نقطة تشعب أم نخلة ومزلاق.

وانزعج الجويبر وبنو سعيد وآل حسن لهذا الاقتراح، اعتقاداً منهم أن هذه القناة الجديدة العميقة سوف تسحب أغلب مياه النهر فتؤدى إلى جفاف أم نخلة ومزلاق، وهلاك زراعة الأرز الخاصة بهم؛ كما كانوا يعارضون وجودها خشية أن يؤدى فتحها المستمر إلى حرمانهم مما اعتادوا عليه كل عام من إقامة السدود المؤقتة على أم نخلة ومزلاق من أجل رفع منسوب المياه لتوفير ما يحتاجون إليه منها لري أراضى الأرز. وكانوا يعتقدون أن إقدام الحكومة، التي لا تفهم حقيقة الأوضاع في المنطقة، على شق القناة الجديدة سيحرمهم من ممارسة ما ألفوه من أساليب للزراعة والريّ.

ونتيجة لانتشار هذه الأنباء ترددت إشاعات كثيرة وبدأت الاجتماعات العادية تعقد كل يوم في مجمع ميرزا عناية. ومما زاد الطين بلة أن أحد الحفارات الحكومية الكبيرة أنهت عملها في بحيرة الحمّار وبُدئ في شق قناة واسعة تمر عبر أرض الجويبر، متحركًا في اتجاه قرية بنى سعيد. وأخذت عرائض الاحتجاج تنهال عليّ في سوق الشيوخ، وأعقبها وصول وفود غاضبة من القبائل. ولمست

مدى القلق الذي يسيطر على الجميع، وخشيت ما يمكن أن يتمخض عنه الموقف من عواقب وخيمة ما لم أبادر بمواجهة هذه التحركات. وكان اكثر ما يشغلني هو أن بعض العناصر غير المسئولة من القبائل قد تتصدّى بنفسها لتفسير القانون وتطبيقه وأن يبدأوا في تصيد طاقم العاملين على الحفار، الواحد بعد الآخر، تعبيرًا عن معارضتها.

وكان من الواضح تمامًا أن ميرزا عناية يتعاطف مع وجهة نظر القبائل، كما كان من الواضح تمامًا أيضا أن السبيل الوحيد لاستعادة الثقة وتجنب نشأة أي وضع خطير هو أن نقدم له الضمانات بأن القناة الجديدة لا هدف من ورائها إلا تسهيل مهمة سفن النقل العربية لعبور الحمّار والوصول إلى السوق والناصرية، وأنها ستغلق بواسطة سدّ مؤقت عندما يحلّ موسم الأرز كل عام.

ترتيب الزيارة:

وهكذا استقر رأيي على زيارة ميرزا عناية، واتخذت الإجراءات اللازمة لذلك. وأرسلت له خطابًا بهذا المعنى، فردّ عليّ بدعوتي إلى التوجه إليه قبل الظهر لحضور مأدبة عربية أعدّها لي. ووجدته رجلا متقدما في السن، قويّ الشخصية، حاد الذكاء، وكان من الواضح أنه يتميز بقدرات فكرية عالية، ويتمتع بنفوذ محليّ كبير. وأحسست أنني إذا تمكنت من كسبه ليقف بنفوذه بشكل دائم إلى جانب الحكومة في تلك المناطق صعبة المراس الواقعة بالقرب من بحيرة الحمّار، فسوف يساعدني ذلك كثيرا في عملي. ولذلك ركزت كل طاقتي من أجل أن أكون ودوداً ومن أجل كسب ثقته.

وفي حديث طويل جرى بيني وبينه قبل المأدبة، شرحت له وجهة نظر الحكومة والأسباب التي تحدوها للحصول على ممر مائي؛ وأكدت له أنه لن يحدث أي اعتراض إذا قامت القبائل، استعدادا للموسم السنوي لزراعة الأرز، ببناء سدّ مؤقت على القناة الجديدة بشرط إزالته فور انتهاء الحاجة إليه. وبينت له أنه يمكن لوسائل النقل النهري أن تسلك طريق مزلاق القديم أثناء الفترة التي تمنع فيها الملاحة في القناة الجديدة، رغم ما في ذلك من أخطار محتملة. وتفهم ميرزا عناية وجهة نظري، وأخبرني أنه سيستخدم نفوذه لدى القبائل، ووعد أن يكون كل شيء على مايرام. وكنت على يقين أنه ممن يوفون بعهدهم.

اسطوانة من الفضة:

وأعقبت ذلك مأدبة الغداء، وكانت فخمة حافلة زاخرة، قدمت فيها العديد من الأصناف الفارسية والعربية. ولما كان مضيفي يدعى ميرزا عنايه، فهذا يعنى أنه من أصل فارسي، ومن الواضح أن نساءه القديرات كنّ على دراية كاملة بأسرار وفنون المطبخ الفارسي. وبعد المأدبة وكلمات التوديع المهذبة المعتادة، بدأت أتهيأ للرحيل، ولكن ميرزا عنايه لم يدعني أنصرف إلا بعد أن قام بنفسه بربط تعويذة حول ذراعي تتكون من اسطوانة من الفضة يبلغ طولها بوصتين، قال أنها تحتوى على آيات من القرآن كتبها بيده، تمنع وقوع أي أذى لحاملها أثناء سفره بالبحر أو بالنهر. ولاشك أنه كان يعرف كل شيء عما جرى من طغيان من النهر عام ١٩١٦، عندما أنقذ قاصد الناهي حياتي، فأراد أن يطمئنني - بطيبة قلبه - ضد أي خيانة قد تقترفها القبائل في المستقبل. وأني لعلى يقين من أنه يعتقد بصدق أن تعويذته ستحمى مرتديها قطعًا ضد الغرق أو أي أضرار أخرى وهو يركب الماء.

وشكرته على كرمه ومودّته، وانصرفت راجعًا على متن اللنش، وأنا لا أزال أرتدي التعويذة مما أبهج كبير أتباع ميرزا وسائر رجال القبيلة الذين تجمعّوا على ضفة النهر لتوديعي.

واكتملت قصة هذه التعويذة بأسرع مما توقع أي أحد منّا، وكان مضيفي هو آخر من توقع ما حدث، فبعد شهرين على وجه التحديد، قررت أن أقوم بزيارة لقناة بني سعيد، وكان قد اكتمل شقها، وتوجهت للقاء قائد الجرار قبل عودته إلى البصرة، كان الجرار يلقى مراسيه على الجانب الجنوبي من القناة عند حافة بحيرة الحمّار، وكان القائد يتوقع مجيئي. كان الجو باردًا عندما بدأت رحلتي على ظهر اللنش في الصباح الباكر، ولذلك ارتديت البوشتين (معطف من جلد الماعز). وكانت التعويذة التي أعطاني ميرزا عناية إياها هناك في الجيب الداخلي للسترة الواقية التي أرتديها، وكنت أحملها معي دائمًا منذ مأدبة الغداء، ليس من الإيمان الفطري من ناحية، ولكن لدرجة أكبر لأنني كنت أعرف أن هذا يرضى ويسعد خَدَمي العرب، وفى هذا الصباح، لم تخطر لي هذه التعويذة على بالي بأي حال.

كان هناك غطاءً بُسِط فوق اللنش، وكانت هناك غرفة مغلقة تضم المحرك

وجناحًا للطاقم، وقمرة بها نافذة مربعة أعدّت لي، وكنت قد فرغت لتوّي من تناول الإفطار عندما دخلنا قناة بنى سعيد الجديدة، ولاحظت أن التيار يهدر بقوة شديدة، دافعًا اللنش بسرعة كبيرة، ولذلك كنت متأكدًا من أننا سنصل إلى الحفار خلال بضع دقائق.

وفجأة، وبدون أي خفض لسرعته، استدار اللنش ومال على جانبه الأيسر، كان قائد الجرار، لسبب لا يعرف أحد سواه، قد ألقى بسلك معدني بعرض المجرى أعلى سطح الماء بخمسة أقدام، لم يره السكونى Sukkani الهندي للنش الذي نركبه إلاّ عندما اصبح فوقه تقريبا. وتناثرت كل المأكولات التي وضعت لإفطاري على المنضدة، ووقعت الأواني على الأرض في اضطراب وفوضى، وعندما قفزت من مكاني، لمحت الجرار من النافذة، وبعد ثانية واحدة، واللنش مازال يشق طريقه بسرعة، اصطدم بالسلك وبدأ يترنّح على الفور. وكان كل ما استطعت أن أفعله هو أن أتوجه إلى النافذة وأمسك بالسلك لأجد نفسي وقد خرجت من القمرة من خلال النافذة، ومازال المعطف يحيط بجسدي. وفى اللحظة الثالثة، أدركت أن اللنش اختفى، وأنني أتدلّى في الهواء، وأقبض على السلك بكلتا يديّ، والجزء الأسفل من جسمي في الماء. ونتيجة لشدّة التيار، اتجهت ساقاي إلى الأمام لتشكلا زاوية مقدارها خمسًا وأربعين درجة. وكان الجهد الذي بذلته للقبض على السلك مضنيًا، وبدا وكأن يداي تجمدتا وأن جسمي ازداد وزنًا حتى أصبح كالحمل الثقيل.

وبعد ما بدا وكأنه ساعات، أنقذني طاقم الحفّار، ولكن بعد أن بلغ الإرهاق بي كل مبلغ، وأصبحت على وشك الانهيار عندما أقبل القارب ليحملني.

غرق اللنش:

وبعد أن تناولت جرعة من البراندي المركّز، سألت عن لنشي وعرفت أن كل شيء ضاع: السكوني، وطاقم من أربعة أشخاص!، وخادمي الخاص. كان اللنش قد لفّ حول نفسه ثم غرق دفعة واحدة وكأنه حجر ألقى به اليمّ، دون أن تتاح أي فرصة للنجاة أمام هؤلاء البؤساء. ولم أعثر من بين كل ما كان معي من أشياء إلاّ على غطاء الرأس والشارة السياسية والعلامة البيضاء.

كان قائد الجرار منزعجا ومهمومًا إلى أبعد الحدود، وأخذ يتأهب للعودة إلى سوق الشيوخ على متن لنشه الخاص. وأمّا ما قدمه من مبرر لمد السلك المعدني

بعرض القناة فهو أنه كان على وشك الاستدارة، ومن أجل تسهيل هذه الخطوة، تصور أن ربط السلك بنخلة على الجانب الآخر من مجرى الماء، مع الجذب بشدة، يمكن أن يفي بالغرض، وهو خطأ لا يغتفر، خاصة مع وجود العديد من وسائل النقل الأخرى في نفس المكان.

وبعد يومين، أرسل إلىّ ميرزا عناية، بعد أن سمع بما جرى، ابنه الأكبر ليستفسر عن صحتي، فحمد الله لأنني كنت أحمل التعويذة أثناء الحادث، رغم أنني لا أعرف حتى الآن كيف استنتج أنني كنت أحملها، لأنني لم أخطر أحدًا بذلك.

ومنذ ذلك الحين لم أعد أسخر من أي تعاويذ أو تمائم يقدمها لي السادة، أو الرجال المقدسون.

الفصل التاسع
الناصرية ١٩١٨-١٩١٩

خضوع عبدالله بك الفالح باشا السعدون — التغلب المراوغ — البنية — مأساة فتاة كردية — انتقام الحاج ناصر الحيّل.

خضع عبدالله بك الفالح باشا آل سعدون في شتاء ١٩١٨، وبعد الهدنة بفترة ليست بالطويلة، تمّ نقلي من سوق الشيوخ إلى الناصرية، حيث أصبحت المسئول السياسي عن لواء المنتفق بأكمله، والمجموعات القبلية التي تحمل نفس الاسم، وخَلَفني الكابتن ديتشبورن في السوق.

وتبدأ القصة التي سأرويها الآن وأنا لا أزال في السوق. كانت حوالي أربعة أعوام قد انقضت منذ نشوب الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك لم يستسلم عبدالله بك الفالح باشا آل سعدون ولا عجمي بك آل سعدون للبريطانيين، وكان عبدالله بك هو كبير أهل الجزيرة الذين يدين له الجميع بالولاء، بينما كان عجيمى بك هو كبير أهل الشامية. وانحاز الاثنان لأصدقائهما الأتراك في بداية الحرب، وهو موقف جدير بالاحترام والتقدير. ولكن رياح الحرب كانت تجرى الآن ضد الأتراك في كل مكان، وأصبح الموقف واضحًا كل الوضوح، وكان على عبدالله بك وعجمي بك أن يقررا ما إذا كانا سيستسلمانِ للبريطانيين أم سيرتدّان إلى أعلى الفرات مع فلول القوات التركية المدحورة، ثقةً منهما بأن حلفاءَهما سوف ينهضون بأعبائهما بعد الحرب. وكان كل منهما يملك مساحات شاسعة من الأراضي المطلّة على الفرات وفى منطقة البصرة، تجعل كل الموازين لصالحهما إذا قررا الكفَّ عن القتال والاستسلام للبريطانيين. وعلى أي الأحوال، فقد استقر رأى عجمي بك منذ البداية على أن يظلّ إلى جانب أصدقائه الأتراك، فظلّ متمسكا بموقعه حتى نهاية الحرب، وبعد هدنة مودروس Mudros في ٣٠ من أكتوبر ١٩١٨، كافأوه بمنحه معاشًا بالإضافة إلى مساحة من الأرض في ماردين، بتركيا.

أما عبدالله بك، الأكثر ترددًا بطبيعته، فحاول أن يساير الظروف وأن يتوصل إلى اتفاق مع السير بيرسى كوكس من خلال مراسلات سرية، ومطالبته بضمانات .. الخ، ولكن هذا النهج لم يحقق له نفعًا بل وأضرّ به عندما نفد صبر السير بيرسى

كوكس ورفض مواصلة المراسلات معه؛ وتم إخطاره، وبشكل قاطع، أن عليه إما أن يستسلم بلا قيد أو شرط أو أن يرحل مع أصدقائه الأتراك مشيعًا باللعنات.

ولم يَرُق هذا الوضع لعبدالله بك. واختفى لفترة ليتدبر خطوته التالية، مدركًا أنه استهلّ استهلالاً سيئًا بالتفاوض مع السير بيرسي كوكس وقائد الجيش دون أن يكسب أي شيء.

كان هذا هو الوضع في يناير ١٩١٩ بعد أن توليت منصبي الجديد في الناصرية بوقت قصير ونجاحي في احتلال الشطرة بحركة سريعة من فيلق فرسان المنتفق، وهو قوة محلية تبلغ تعدادها أربعمائة مقاتل تم تجنيدهم من أبناء الأزيرق والخفاجة، وعبوده. ولم أكن أعرف، بالطبع، أي شيء مما دار من مفاوضات سرية بين عبدالله والسير بيرسي كوكس في العام السابق. وكان كل ما يعنيني هو أن عبدالله بك وعجمي بك اختارا الرحيل مع سادتهم الأتراك، وهو أمر يؤسف له لما يمثله هذا الموقف دائما من احتمالات تأثيرهم السلبي على ولاء ومواقف قبائل المنتفق التي أصبحت مسئولاً عنها، وخلق المشكلات لنا في آخر لحظة يمكن أن نتوقعها. ولكن، كما اتضح لي، لم يكن هناك ما يمكن عمله لمنع تطور الأحداث على هذا النحو.

وذات يوم، تلقيت رسالة خطية سريّة من ضاري بك الفهد آل سعدون يقول فيها أنه يودّ زيارتي في جنح الظلام بالليل حتى لا يراه أحد. وكان ضاري بك دبلوماسيًا نموذجيًا من مدرسة آل سعدون القديمة، وعلى علم دقيق بخفايا الأمور. وكانت الأحلام تراوده بأن يستردّ آل سعدون مكانتهم تحت رعاية البريطانيين، وإقامة دولة لهم تحت الحماية البريطانية في القسم الأدنى من الفرات، على غرار الوضع في الكويت والبحرين، وعلى أن يشغل هو منصب رئيس الوزراء، أو أي منصب آخر يوازيه في الأهمية، ورددت على طلبه بالإيجاب، لأنه كان يسعدني دائمًا أن ألتقي بضاري بك وأن أستمع لتلخيصه الدقيق والذكي لآخر التطورات العسكرية والسياسية.

وبعد المقدمّات المعتادة، أبلغني ضاري بك أن عبدالله بك - الذي تتعلق به الآن آمال آل سعدون جميعًا - يختفي بالقرب من الناصرية وأنه يريد مناقشة مسألة استسلامه في لقاءٍ سرّي. وألحّ ضاري بك على ضرورة اغتنام هذه الفرصة التي أتاحها الله لجذب رئيسهم الكبير إلى معسكرهم وإبعاده عن الأتراك؛ وأوضح

كيف ستكون هذه الخطوة، إذا ما تحققت، هزيمة سياسية كبرى تحيق بهم، وكيف سأحقق أنا، إذا قمت بنفسي بجذب عبدالله بك إلى جانبنا، شهرة كبيرة وأحظى بتقدير السير بيرسي كوكس.

وأخبرت ضاري بك أنه يسعدني جدًا أن استقبل عبدالله بك، وأنه إذا ساوره أي قلق أو مخاوف فيما يتعلق بسلامته، فأنا على استعداد لأن أعطيه الأمان ليجيء ويذهب دون أن يتعرض لسوء. وأضفت أن نصف ساعة من الحديث تساوى كل ما يكتب من رسائل في العالم، وأنني إذا تمكنت من إقناع عبدالله بك بأن يلقى بكل ثقله مع البريطانيين، فسوف يكون ذلك أفضل. وبعد كل شيء، فلم يحدث أبداً أن حاربنا عبدالله بك حربًا حقيقية، ولم يتهم بأكثر من الوقوف إلى جانب الأتراك من موقع المتفرجين.

وابتهج الكهل الأريب ضاري بك أيما ابتهاج، ووعد بإحضار عبدالله بك إلى منزلي في الساعة العاشرة مساء اليوم التالي، ولكن مع إلحاحه على الإبقاء على هذا اللقاء سرًا مطلقًا عن خدمي وعن أي شخص آخر بالمدينة، وكان هذا يناسبني تمامًا، ونظراً لأن جميع العاملين معي، باستثناء طباخ هندي واحد، سيكونون نائمين، إذن فمن السهل تدبير الأمر، ويمكنني أن استقبل الضيفين بنفسي. كما اتخذت سائر الاحتياطات اللازمة، بما في ذلك الاستغناء عن القهوة التي جرت العادة على تقديمها في مثل هذه المناسبات.

وفى مساء اليوم التالي وفى صحبته شخص غريب فارع الطول واضح التميز، يخفى رأسه ووجهه بغطاء كثيف، استقبلتهما بنفسي وصحبتهما إلى غرفة معيشتي الصغيرة حيث قدّمني ضاري بك لعبدالله بك آل فالح باشا آل سعدون الكبير، الذي وجدناه رجلاً نحيل القوام، أنيقًا، تبدو عليه كل ملامح الرفعة والسموّ. وتمكنت من تفهم طبيعته على الفور، ورأيت أن الطريقة المثلى للتعامل معه هي أن أطريه وأن أشبع غروره. إن عِلية القوم من آل سعدون على هذه الشاكلة جميعًا، ولِمَ لا؟ أليسوا من سلالة النبيّ، كما يقولون، وألم يرفضوا، منذ أيامه، أن يزوجّوا بناتهم من أي شخص غريب عن عشيرتهم الخاصة؟.

وسرعان ما ساد جو من المودّة والصفاء عندما تبين أن عبدالله بك راغب حقًا في التوصل إلى تسوية. ولكنه كان يخشى أن يرسله السير بيرسى كوكس إلى الهند مقبوضًا عليه. وأبدى استعداده لدفع أي غرامة إذا كان في ذلك ما يسهل

الأمر بالنسبة له، ويساعد على تخفيف حدّة التوتر. ولاحظت أنه لا يتقدم بأي شروط، ولذلك وافقت، بعد لحظة تفكير، على أن أتوسط لدى المسئول السياسي العام ولكن بشرط أن يفوضّني عبدالله بك لأن أرسل برقية إلى بغداد أذكر فيها أنه جاء لزيارتي وأنه استسلم بلا قيد أو شرط، وأنه سلمّني عشرة آلاف روبية تعبيرًا عن حسن النية تبرعًا للمستشفى الذي تديره الإدارة السياسية في الناصرية، وأنه يأمل أن يُسمح له بالعودة إلى أرضه حيث يعد بالإقامة في هدوء.

وأيّدني ضاري بك بكل شدّة. وبعد برهة، أقنع عبدالله بك بالموافقة على إرسال البرقية التي اقترحتها. وكان هذا نجاحًا كبيرًا. ولكن ماذا عن النقود؟ في النهاية، وعد عبدالله أن يسلمّها صباح اليوم التالي، عن طريق ضاري بك؛ وبناء على ذلك وعدت بتسوية الأمر مع المسئول السياسي العام. وجرى كل شيء على مايرام. وتسلمت العشرة آلاف روبية، ووافق السير بيرسى، الذي كان يميل دائمًا إلى الأخذ بأي اقتراح معقول أتقدم به، على أن يقدم هذا المبلغ كمنحة للمستشفى. كما وافق أيضًا على اقتراحي الخاص بعودة عبدالله بك الكبير، شيخ المنتفق المبرّز الآن بعد انحياز عجمي بك للأتراك، إلى أملاكه في قطيبان، على بعد بضعة أميال من البصرة على الضفة اليسرى لشط العرب.

وإنه لرائع ومدهش حقًا هذا الذي يمكن لسياسي ناشيء، وحريص في نفس الوقت، أن يحققه.

الثعلب المراوغ:

وهناك شخص آخر لم يعترف بسلطة الحكومة البريطانية أو يخضع لها. وكان بدر الرميّض شيخ قبيلة البوصالح الهامة، التي تعيش في مناطق المستنقعات والسبخات شمال بحيرة الحمّار، نوعًا من الشخصية الغامضة، من المفترض أنه تجاوز الثمانين من عمره، ومتزوج من أربع وعشرين زوجة، وكان يتمتع بنفوذٍ كبير في أراضي المستنقعات والسبخات الشاسعة الممتدة من بحيرة الحمّار شمالاً حتى الشطرة والعمارة، وهناك العديد من القصص التي تروى عن براعته وبسالته الفائقة في القتال، وعن نزعته الاستقلالية ودهائه الشديد، وكيف أمكنه أن يتحدى الأتراك لسنوات عديدة قبل عام ١٩١٤م.

وكان أبناء قبيلته يقولون" "ولماذا لا يتحداهم؟" إن أحدًا لا يمكنه أن ينال منه بين المستنقعات والسبخات."

وهناك أقاويل متواترة جاء فيها أنه صرّح اكثر من مرة بقوله: "إنني لم أعرف الأتراك قط، ولا أنا أعرف الآن الإنجليز، وإذا كان كوكاس يريد أن يراني، فليحضر لزيارتي في منزلي المطل على ترعة البَدع بين الأحراش، أما أنا فلن أذهب إليه".

وأثناء عملي في سوق الشيوخ، بذلت عدّة محاولات، وبالدرجة الأولى من خلال الحاج حسن حمداني، لترتيب لقاء مع بدر الرميض، ولكنها فشلت جميعًا، رغم أنني كنت على وشك النجاح في إحداهما. وكم من مرّة عرضت عليه أن أمنحه الأمان إذا جاء لزيارتي وأعلن خضوعه، ولكن كان ردّه دائما على كل ما أقترحه عليه هو أنه لا يمكن أن يثق بالإنجليز الذين ربما حنثوا بوعدهم وألقوا به في السجن. وأعتقد أن موقفه هذا إنما ينمّ عن مدى ما كان عليه من دهاء ومكر شديد. فهو يتمتع بنفوذ كبير، وعندما يقول لقومه البدائيين من أبناء المستنقعات والسبخات وأبناء قبائل المنتفق التي تقيم على حدوده في البوصالح، أنه لم يلتق بإنجليزي طوال حياته، وأنه لم يقابل أي ممثل للبريطانيين منذ وصولهم إلى البلاد ما بين النهرين وأنه ليست لديه أي رغبة للاجتماع بأي شخص من هذا الجنس، عندما يقول ذلك، فسوف يكون لهذا القول صداه الذي يظهره في صورة القائد المغوار القادر على تحدّى الأجنبي، ومن ثمّ يتحقق له المكانة التي يسعى إليها.

وأنا لا أنكر أنه أرسل ابنه الأكبر حسن، لزيارتي في مناسبتين في الناصرية، بعد أن نُقلت إليها، ولكن هذا كان هو أقصى ما في جعبته من خطوات. وأثناء هاتين الزيارتين أخذ يردد الأكاذيب شارحًا كيف أن لوالده العديد من الأعداء، وأنه بلغ من العمر أرذله، وأن ظهره انحنى بشدة نتيجة لإصابته بالروماتيزم، الخ. وإلاّ لما تردد في زيارة الحكومة بنفسه منذ زمن بعيد. ورغم انني لم ألمس أي نبرة صدق فيما يقول، إلاّ أنني لم أشأ أن أدفع الأمور نحو المزيد من التأزم، متصورًا - بشكل أو بآخر - أنه ينبغي علىّ أن أنتصر على الثعلب الأب باستئناس حسن، الابن الجرو.

وأثناء زيارة أخرى قام بها حسن للناصرية ليسلمني رسالة من تلك الرسائل التي كان والده يبعث بها إلىّ من وقت لآخر ليعبر بها عن حسن نواياه، وصلتني الأنباء من سوق الشيوخ بأن هناك سفينة أطلقت عليها النيران بالقرب

من قرية بدر الرميض وهى في طريقها من الشطرة إلى البصرة مرورًا بالبدعة، وأن نصف بحارتها لاقوا حتفهم، وأن بدر الرميض استولى على السفينة وكل ما تحمل. واستدعيت حسن على الفور، فادّعى جهله تمامًا بالحادث، وأقسم أن البوشامة وليس البوصالح هم الذين شنّوا هذا الهجوم.

وساورني الشك بأن حسن كانا ضالعًا في هذه المسألة مُلمًا بكل تفاصيلها، وأن أباه لا يهدف من إرساله لزيارتي في نفس الوقت إلاّ ذرّ الرماد في العيون، بحيث يمكنه أن يقول، فيما بعد، عندما ينتشر نبأ هذه القرينة، وهو مطمئن كل الاطمئنان: "كيف يمكن أن تكون لي أي علاقة بهذه الجريمة النكراء بينما ابني الحبيب في الناصرية في ذلك الوقت في زيارة للتعبير عن حسن النيّة لمثل بريطانيا؟ كيف يمكنني أن أعرّض ابني للخطر على هذا النحو؟".

كان الخداع والغش من الأمور الشائعة في تلك الأيام، وأصبح من المعتاد مواجهتها كل يوم. وألقيت القبض على حسن وأودعته السجن. وبعد أن ظل محتجزًا به لمدّة أسبوع، جاء ثامر بك آل سعدون وبصحبته الحاج حسن حمداني من سوق الشيوخ يلتمسان إطلاق سراحه، على أن يتعهد بعدم مغادرة الناصرية إلاّ إذا أذنت له بذلك. وقالا إن حسن ابن شيخ كبير، وأن الحط من مكانته في أعين رجاله بحبسه في مركز للشرطة لا يعني إلاّ ممارسة نفس الأساليب القديمة التي درج عليها الأتراك، والتي يحرّمها الله على الحكومة السامية أن تحاكيها، وانضم إليهما ضاري بك الفهد آل سعدون في الاحتجاج إلى أن تمكنّوا من إقناعي بإطلاق سراح حسن.

إطلاق سراح الجاني:

وأرسلت في استدعائه، وشرحت له كيف توسطّ أصدقاؤه من أجله،وأنه إذا ارتبط معي بكلمة شرف بألا يغادر الناصرية إلاّ بإذن منى، فسوف يطلق سراحه من السجن ليقيم في منزل ضاري بك. وقدمّ حسن الضمان المطلوب على الفور، وعلى الفور أيضا دفع ضاري بك الكفالة المطلوبة، والتي بلغ مقدارها خمسمائة روبية.

ورحل حسن بعد ليلتين:

وكثيرا ما كانت تراودني الشكوك حول أن بدر الرميض كان هو المخطط

لهذه الزيارة التي قام بها أصدقائي الثلاثة، وأن ضاري بك قد أحكم تدبير الأمر بحصوله على الخمسمائة روبية من حسن قبل أن يختفي من الساحة، لأن ضاري سلم لي المبلغ على الفور وهو يزمجر غاضبًا ضد "القذر ابن الكلب، ربيب المستنقعات وسليل الشيطان". الذي كذّبَ عليه. ولعلّي أحاول ألاّ أسيء الظنِ كثيرا بضاري العجوز الذي توفىّ منذ فترة، فلقد كان رجلاً طيب القلب وصديقاً حميمًا للبريطانيين.

ولم تسفر جهودنا عن أي تسوية مُرْضية لمسألة الاستيلاء على السفينة، وكان كل ما اتخذ من خطوات حتى ذلك الحين هو القصف المفاجئ لقرية بدر الرميض وحصنه. ولكن نظرًا لتصاعد ما يسببه لنا هو وقبيلته من متاعب، وإيوائهم لكل خارج على القانون تسعى الحكومة للقبض عليه، رأيت أن الوقت قد حان لطلب العون من الجيش.

وقدم لي السير أرنولد ويلسون في بغداد مساعدات جليلة بترتيب الأمر مع القيادة العامة؛ وفى ٢٦ من فبراير ١٩١٩، هوجمت قرية بدر الرميض وتم احتلالها بواسطة طابور زحف إليها من الناصرية، وأحرقت كل محاصيله التي كانت على وشك الحصاد في الحقول. ولكن الثعلب المراوغ تمكن من الإفلات من قبضتنا رغم إغلاق كافة المسالك والمنافذ التي كان يمكنه استخدامها على الطريق إلى الشطرة والعمارة، واحتلالها بواسطة مجموعات من المجندين المحليين والشرطة النهرية التي تعمل تحت قيادة الكابتن برتراند توماس، المسئول السياسي للشطرة، والميجر روبرت مارس، المسئول السياسي للعمارة.

وكان بدر الرميض قد تمكن من الوصول إلى ملجأه المفضّل بين السبخِات والمستنقعات، وقيل أنه يخطط لإثارة المتاعب بشن الغارات في اتجاه الغراف، حيث الأرض منبسطة وتسهل عليها الحركة. وكانت هناك تحت إمرته، بالإضافة إلى رجال قبيلته، قوة مؤثرة متحركة تتكون من حوالي المائتين من راكبي الجمال والخيل؛ ومن وراء كل ذلك مكانة بدر الرميض التي تمكنّهم بلاريب من إثارة الكثير من القلاقل.

وبعد احتلال قرية بدر الرميض والاستيلاء على منزله وأراضيه، تقرر أن يشيّدَ بالقرب منها حصن يمكن أن يتولى أمره مؤقتًا بعض المجندين التابعين للحكومة، كما تقرر - كإجراء وقائي - ترك قوة عسكرية صغيرة لاستمرار

الاحتلال أثناء أعمال البناء التي كانت تجرى على قدم وساق تحت إشراف الكابتن ديتشيورن، المسئول السياسي بالسوق، وفي هذه الأثناء، ظللت مقيمًا في مخيمي بالقرب من قرية بدر مع قائد القوة العسكرية، الذي استخدم الخيمة الكبيرة التي كان بدر يعقد فيها مجلسه كمكتب وغرفة للاجتماعات.

وبعد احتلال قريته بعشرة أيام على وجه التحديد، بعث بدر برسالة شفوية يقول فيها إنه يرغب في الاستسلام، ولكنه يريد، أولاً، أن يقابلني بصفتي المسئول السياسي المرافق للقوة العسكرية، من أجل التعرف على ما تريده الحكومة. والشروط العملية للاستسلام. ورددت عليه برسالة شفوية أيضًا أبلغته فيها أنني على استعداد للقائه في المكان والزمان المناسبين له، وأننا نضمن له أن يأتي ويناقش المسائل المطروحة ثم يعود آمنـًا بعد المقابلة، كما بعث إليه الحاج حسن حمداني، وكان يعمل في ذلك الوقت مساعدًا عربيًا لي، برسالة من جانبه يحثّه فيها على الاستسلام ويبلغه بموافقتي على لقائه، وبعد يومين، بعث بدر برسالة، باللغة العربية، يقول فيها أنه يريد مني نصب خيمة صغيرة في وسط وادٍ مكشوف فسيح على بعد ثلاثة أميال من قريته بالقرب من شجرة نحيلة الأغصان تقف بمفردها – حددَ موقعها – وأن عليَّ أن أقابله وبصحبتي اثنين من الرجال فقط، وعلى أن يكون ثلاثتنا مجرّدين من السلاح تمامًا، وقال إنه سيأتي مجردًا من السلاح، هو الآخر، وبرفقته اثنان فقط من أتباعه، وأضاف أنه في حالة موافقتي، فالموعد المناسب هو عند الظهيرة من اليوم التالي.

مكان اللقاء:

ورحبت بالاقتراح على الفور، ورتبت – بموافقة الدوائر المسئولة – على نصب الخيمة في تلك الليلة في المكان الذي تحدد للقاء. وعندما كنت أتأهب صباح اليوم التالي للخروج لمواجهة بدر الرميض، زارني في خيمتي كل من حزام بك المشاري آل سعدون القائد العربي لفرقة فرسان المنتفق، وفهد بك السليمان آل سعدون، وألحا عليَّ بعدم الذهاب لهذا اللقاء دون أن أصطحب حراسة، وقالا إنهما يخشيان الخيانة والغدر لسابق معرفتهما ببدر وسجله الحافل. وعندما لمسوا إصراري على تنفيذ ما سبق أن وعدت به، والالتزام بكلمتي، أصرّا بكل شدّة على أن أسمح لهما بمرافقتي، أو على الأقل أن أقبل وجود قوة تختفي في المنطقة المجاورة للاستنجاد بها إذا حاول بدر أن يخطفني.

الخوف من الخيانة:

وقالا لي: "إنه لا يتورع عن ارتكاب أبشع أنواع الخيانة، ويعرف كافة الألاعيب والحيَل. لا تذهب وحدك. نستحلفك".

واعترضت على ما يدعوني إليه هذان الصديقان الحميمان، وقلت لهما إنني لا أستطيع أن أغير ما خططت له. وبعد قليل، خرجت متجهًا إلى الموقع المتفق عليه ومعي الكابتن ديتشبورن وحسن حمداني. وكنّا ثلاثتنا نمتطي الجياد ولا نحمل أي سلاح. واعترفت بأنني كنت أرتعش ويسيطر عليّ شيء من الذعر بعد ما سمعته من تحذيرات حزامٍ بك وفهد بك، وكلاهما من بواسل الرجال ولم يعرف عنهما سرعة التأثر أو التسرّع في الحكم على الأمور.

ووصلنا إلى الشجرة التي تقف بمفردها والخيمة التي نصبت بالقرب منها، قبل الموعدِ المحدد بربع ساعة، لم يكن هناك مخلوق على امتداد البصر، ولم نكن نرى إلاّ السراب الذي تحسبه بحيرة فسيحة من المياه تكتنفها الأشجار الباسقة في الشمال الشرقي، وهو الاتجاه المتوقع أن يأتي منه بدرٍ الرميض. ولكن، بالطبع، لم يكن هناك ماء، ولم تكن تلك الأشجار الباسقة إلاّ أحراشًا لا يزيد ارتفاعها عن قدم واحد.

كان الجو حارًا، فربطنا جيادنا بحبال الخيمة وآوينا بداخلها. وكنت قد جلبت معي سجادة، حوالي ستة أقدام في خمس أقدام، حتى يكون لدينا ما نجلس عليه وانتصف النهار دون أن تبدو أي بادرة تنبئ بمجيء بدر. ثم بلغت الساعة الثانية عشر والنصف، ثم الواحدة. وبدأت أتشكك وأتصوّر أننا خُدعنا، وأخذ الحاج حسن أيضاً يتململ وتعتريه سحابة من التوجس، ولكنه تذرّع بالصبر: أليس بدر رجلاً مغرقًا في البدائية ولا يعرف شيئًا عن قيمة الزمن واحترام الموعد؟. وبعد لمتى؟ والساعة تقترب من الثالثة بعد الظهر، لمحت نوعًا من الحركة المضطربة وسط السراب الذي يتراءى على البعد، وبدا الجسم المتحرك وكأنه تل مخروطي شاهق وقد انقلب رأسًا على عقب. وعندما دققت النظر في هذا الشيء الذي يتقدم صوبنا من خلال منظاري، تصورت أنه عامود من الرمال يتحرك بسرعة وكأنه مارد عملاق يدور حول نفسه. وسرعان ما أخذ هذا المارد يتحرك صوبنا مباشرة. وأخيراً، اكتشفت أنه جيش من الفرسان يخرج من بحر السراب الممتد على البعد، بلغ عدده حوالي مائتين وخمسين رجلا، يركضون في

اتجاهنا، وأخذنا نرقبهم وهم يقتربون منا بالتدريج، إلى أن وصلوا، وكانوا مدججين بالسلاح، وعلى رأسهم رجل مديد القامة عريض المنكبين له لحية طويلة يداعبها الهواء. وتوقفوا على بعد حوالي عشرين ياردة، وفي رشاقة تدعو إلى الدهشة، نزل قائدهم عن جواده، وأقبل نحونا في خطى سريعة، وعلى شفتيه ابتسامة.

اللحية المخضبة بالحنّاء:

إذن فهذا هو بدر الرميض، الثعلب المراوغ، والكهل البالغ من العمر ثمانين عامًا! وانعقد لساني فلمٍ أنبس ببنت شفة. فعلى خلاف الصورة التي تخيلتها له، رأيت أمامي رجلاً قوى البنيان ممتلئ الجسم يبلغ طوله حوالِي الستة أقدام، ويرتدى ملابس فاخرة، وعلى رأسه عقال موشّى بالذهب، ويتدلى إلى جانبه سيف جميل داخل غمدٍ من ذهب، وكان يحمل بندقية قصيرة من طراز ميزر في يساره، بينما يغطي صدره وخصره الأشرطة الجلدية للذخيرة، وكانت مشيته ونشاطه يوحيان بأنه رجلٍ منعم بالحيوية وفي ذروة فتوته. ولم يكن هناك ما يكشف عن سنّه المتقدمة إلا تلك اللحية الطويلة الكثيفة التي تكاد تصل إلى خصره، والتي لم أر مثلها على كثرة من عرفت من العرب. وكان لونها برتقالي فاتح نتيجة لصباغتها بالحناء. وكان هو الوحيد الذي يرتدى عباءة تغطى ملابسه الثمينة؛ أما مرافقوه فكانوا يرتدون الدشاديش البيضاء البسيطة، وكانوا يبدون، ومعهم ما يحملون من ذخيرة، وكأنهم يتأهبون للقتال اكثر مما هم متهيئون للسلام.

وأقبل بدر نحونا في خطى سريعة واثقة، وبرفقته ابنه الأكبر حسن، وابنه الأصغر حميدي، وكان غلامًا في الثامنة، وعندما وصل إلى حيث أقف، بسط ذراعيه وقبلني على كلا الخدين وهو يقول في صوت جهير"السلام عليكم"، ثم صافح الكابتن ديتشيورن والحاج حسن، بينما حرسه الشخصي يراقب ما يجرى في إمعان ومن مسافة لا تتجاوز بضع ياردات.

ويمكن تصوّر ما كانت عليه مشاعري. كنت مستاءً بالفعل لإصراري للانتظار طوال تلك الساعات، وانزعجت لما بدا واضحًا من أنني خدعت وأصبحت تحت رحمة هذا الرجل؛ ولكن كان ما أثار غضبي هو حنث هذا الثعلب العجوز بوعده. وسألته ثائرًا، لماذا جاء مسلحًا وبرفقته كل هذه الحراسة

المشددة بينما كان الاتفاق الذي توصلنا إليه هو أن يأتي مثلنا، مجردًا من السلاح، وبصحبة رفيقين اثنين فحسب، ورحت أهذي بكلمات مبهمة تتهمه بالخيانة والغدر والحنث باليمين، إلى جانب العديد من الاتهامات الأخرى التي لم أعد أتذكرها. ومن المحتمل أنني تصرفت على هذا النحو لأنني أدركت اتجاه الريح وتفهمت دقائق الموقف، وأحسست - بعقلي الباطن - أن الهجوم هو خير وسيلة للتعامل معه. واستمع بدر لي في صمت، ثم أقدم على تصرفٍ آخر غريب، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وعلى خلاف ما لمسته من سائر من عرفت من العرب. قال لي: "هل انتهيت؟".

وأمسك بيدي واقتادني قسرًا إلى داخل الخيمة، وأجلسني، وجلس هو الآخر في مواجهتي، ثم قبلني في فمي وهو يقول: "والله أنت رجل، والله أحبك:. ثم نادى أحد حرّاسه وأمره أن يطلب من رجاله الابتعاد لمسافة مائتي ياردة. وقال له: "داكسان لا يحب أن يرى هذا الحشد الكبير من الرجال المسلحين، ويقول إنه كان عليّ أن أحضر بمفردي. الحق معه".

وكان هذا يعنى أن يسلمّ بأنني على صواب في كل ما ذكرته، وكان هذا كفيلا بأن تذوب الثلوج. وبدأ الحاج حسن حمداني الحديث، وبكل ما يتصف به من ذكاء، أخذ يهدئ من روعي. ونجح بالفعل في تبديد غضبي وتهدئة ثائرتي، وساعده بدر على ذلك بالطريقة المرحة والودودة التي كان يتصرف بها. وقبل مضى وقت طويل كنّا نحن الخمسة نضحك ونروى الأقاصيص لبعضنا البعض، ولكن بعد أن امسكني بدر مرّة أخرى من رقبتي بقبضتيه وقبلني على كلا الخدين، وهو يقسم بأنه يحبني. وكان لقاء غريبًا حقا.

وعندما انتقلنا أخيرًا لمواجهة ما قدمنا من أجله، شعرت أنني اقف على أرض أشد صلابة، وبيّنت لبدر أنِ اللائمة تقع عليه أولاً وأخيرًا لوقوع ما بينه وبين الحكومة من مشكلات؛ وذكرته بما بذلته من جهود طوال الأعوام الأربعة السابقة لإقناعه بالحضور لدىّ وإعلان خضوعه، وعددت له الرسائل التي كنت أبعث بها إليه والتي كنت أقسم له فيها بشرفي بألا يحيق به أي ضرر؛ وأخبرته أن الحكومة لا تريد منه أي شيء سوى الاعتراف الرسمي بالخضوع لها، وأنه إذا جاء معي بعد الظهر من نفس ذلك اليوم، ليقدم احترامه ويعلن خضوعه للسلطات العليا، فسوف أقدم له الضمان بنفسي بأن أعيده في نفس الليلة وأوصله إلى حرسه آمنا سليمًا.

ولكن الرجل الكهل كان له ثأر. فقد دُمرّ منزله وخربت محاصيله. وكنت أعرف أنه ما أن يحضر وتنشأ العلاقات بيننا، فسوف يسعد حكومة صاحب الجلالة أن تتخلص منه، ولذلك أخذت أسرف له في الوعود، والواقع أنني كنت على استعداد لأن أبذل كل ما في وسعي لدفع الحكومة للصفح عن هذا الطفل كبير السنّ، وإلى تناسي الماضي، لأنني كنت ألتمس له بعض العذر وأدرك الأسباب الكامنة وراء مسلكه السابق تجاه البريطانيين.

وتردد بدر بعض الوقت. وعندما رأيت ذلك، عرضت عليه أن أبقى مع رجاله كرهينة، بينما يذهب هو مع الكابتن ديتشبورن والحاج حسن للقاء المسئول الأول في المخيم. ورفض بدر، ولكنه وعد بأن يستسلم دون قيد أو شرط من أي نوع إذا قابلته مرة أخرى في الخيمة في اليوم التالي قبل منتصف النهار وصحبته إلى المسئول الأول. ولما كنت حريصًا على أن أحظى بتقدير السير أرنولد ويلسون، وافقت على ذلك. وبعد مصافحة ودّية، وعناق – ويبدو أن بدر يحب هذه الطريقة للتحية – عدت إلى المخيم لمناقشة الأمر مع المسئول ومع الحاج حسن وقد هدأت أعصاب الجميع.

وبعد أن أرسلت تقريرًا عن هذه الخطوات إلى الدوائر المعنية، انتظرت إلى اليوم التالي وأنا على ثقة بالنجاح، وفى ساعة متأخرة من تلك الليلة، وصلتني رسالة خطية قصيرة، ولكنها ودّية للغاية، من بدر تحدث فيها عن سعادته للتعرف بي، وأكد لي حبّه الدائم ومشاعره العميقة، وأبلغني أنني إذا سلمته أمانـًا مكتوبا، فسوف يتوجه معي إلى الناصرية على الفور ليعلن خضوعه التام للحكومة. وأرسلت إليه الوثيقة المطلوبة مبكرًا صباح اليوم التالي، ١٢ من مارس ١٩١٩.

ولم أرَ بدر الرميض بعد ذلك أبدًا، وعلمت فيما بعد، أنه عندما تسلّم رسالتي، امتطى صهوة جواده واتجه إلى ديار بني سعيد. ولاشك أن ما أثار انزعاجه عندئذ سيظلّ لغزًا إلى الأبد؛ وربما وصلته أنباء بأن توماس يزحف قادمًا من الشطرة وأن مارس يقوم بمناورة لقطع الطريق عليه من اتجاه العمارة.

ومن بين جميع العرب الذين التقيت بهم كان بدر الرميض، في اعتقادي، أبرزهم وأكثرهم غرابة، كما أعتقد أن الكابتن ديتشيورن وأنا كنّا أول إنجليزيين يلتقي بهما، ولا أتخيل أن مواطنـًا من بلادي رآه بعد ذلك. وبعد

أربعة وعشرين عاما، زارني ابنه الأصغر، حميدي، في الكويت، وأخبرني أن والده توفى منذ وقت بعيد، وطلب مني أن أتبرع بمبلغ من المال لأنه كان يستعد للزواج. وبحق كل هذه الذكريات القديمة، لم أتردد في تلبية طلبه.

بنَيّة:

في يوم حار أوائل صيف عام ١٩١٩، عدت إلى بيت الحكومة من مهمة خارجية كنت أؤديها في الصباح. وبعد أن تناولت إفطاري في الطابق العلوي توجهت إلى مكتبي في الطابق الأرضي في الجانب البارد من البهو المركزي بالمنزل. ونظراً لشدة الحرارة وتوهج الضوء كنّا نبقى على الغرفة مظلمة بقدر المستطاع بإسدال ستارة من الخيزران الهندي، هي من أثمن مقتنياتي، تتعلق بالباب؛ وتغطية النافذتين بستارتين سميكتين من الأغصان الخضراء، نصبّ عليها الماء من وقت لآخر للمحافظة على برودة الغرفة. ولم يكن موظفو الدار قد وصلوا بعد.

ونظرًا لدخولي إلى الغرفة من الخارج حيث تسطع الشمس، كنت أكاد ألا أرى شيئًا لفترة من الوقت .وجلست وراء منضدة مكتبي منتظرًا أن تتكيف عينايّ على الضوء الخافت. ومكثت على هذه الحال لمدة ثلاث دقائق، ثم شعرت بقبضتين تمسكان بركبتي بكل قوة. قفزت فزعًا، ونظرت أسفل المنضدة فرأيت ملامح أنثى تربض في مذلة وتحاول أن تخفي رأسها ووجهها بعباءة. وأخرجتها من تحت المنضدة، فرأيت أنها فتاة شابة بلغ بها الرعب حد فقدان القدرة على الكلام. وظلت جاثمة ترتعد بالقرب من مقعدي عندما حاولت أن أهدئ من روعها مستخدمًا أرق نبرة من صوتي يمكن استخدامها. وقالت لي الفتاة وهى في أشد حالات الاضطراب والتوتر، وشبه باكية، وفى عبارات متقطعة، أن اسمها بنية، وأنها من قبيلة الغزي التي يترأسها الشيخ منشد الحبيب، وهو رجل أعرفه جيدًا ويحظى بسمعة طيبة بين شيوخ المنتفق، وأنها لجأت إلى مكتبي لأنها تخشى القتل.

وأمكنني الآن أن أميز وجهها في الضوء الخافت. كانت فتاة رقيقة في حوالي السادسة عشرة من عمرها، أقرب إلى الطفلة منها إلى الأنثى المكتملة. ولاحظت أن بشرتها ناصعة البياض، وأن بوجهها بعض الندوب المتخلفة عن إصابة بالجدري، وعندما نظرت إلى وجهها الذي ارتسمت عليه كل علامات الرعب، وعينيها المستديرتين الواسعتين اللتين تنساب منهما الدموع في بطء،

تأثرت لمنظرها تأثرًا غريبًا لأني كنت أعلم تمامًا أنه لا يمكن إلا لضرورة ملحة كل الإلحاح أن تدفعها إلى المجيء إلى منزلي بمفردها لعرض قضيتها بهذه الطريقة غير المألوفة.

وشيئًا فشيئًا تمكنت من إقناعها بأن تروى لي قصتها، كان قومها يعيشون في البطحاء، وهي قرية على بعد حوالي العشرين ميلا عن الناصرية، وكانت سعيدة في كنف أبيها وأمها في خيمتهم السوداء حتى وقت قريب عندما أبلغوها أنها ستتزوج من ابن عمها، وأن الزفاف سيحتفل به من مطلع الشهر القمري الجديد، وكان هذا النبأ ضربة قاصمة بالنسبة لها، فهي تحب فتى آخر من قبيلتها، يبادلها الحب، وباح لها بحبه، وأخبرت فتاها والأسى يعتصرها بما يعتزمه أبوها من تزويجها من ابن عمها، فطلبت منه المشورة والمساعدة، وقالت له أنها تفضل الموت على أن تكون زوجة لأي شخص سواه. وتلقى الفتى النبأ في هدوء، ولكنه غضب غضبة شديدة، وأحس أن طعنة توجه إلى قلبه، وطلب من بنية منحه مهلة من الوقت ليتدبر الأمر، ويفكر في رسم خطة، وقال إنه سيعود بعد يومين ليخبرها بما انتهى إليه، واتفقا على اللقاء على ضفة النهر حيث اعتادت أن تذهب لجلب الماء كل يوم، وحيث تسنح له الفرصة للحديث معها.

وعاشت بنية ثلاثة أيام طوال أسيرة الحزن والإحباط، فما هي الفرصة المتاحة لحبيبها؟ وأين هو الأمل الذي يمكنها أن تتعلق به للإفلات من الزواج الذي استقر رأي والدها، القوى العنيد على إتمامه؟

وبالإضافة إلى كل ذلك، ووفقًا للعادة المستقرة بين العرب، فلابن عمها الحق في أن يتزوجها، ولا يمكن لها أن تتزوج شخصًا آخر غيره في هذا العالم ما لم يتنازل هو عن حقه. وكانت تعرف أيضا أنها إذا تحدّت الجميع وتزوجت من شخص آخر غير ابن عمها، فسوف تصبح حياتها في خطر، وسيسعى ابن عمها لقتلها بنفسه. وكانت فرصتها الوحيدة، وهي فرصة صعبة إلى أقصى حدّ، هي أن تهرب مع من أحبته؛ ولكن يصبح عليها في هذه الحالة أن تهرب بعيدًا عن دارها وأهلها وأن تتخلى عن أي أمل في أن تراهم مرّة أخرى. وكانت تعلم أيضًا أن قومها سيتعقبونها عندما تهرب، وسيكون مصيرها القتل هي وفتاها إذا تمكن المطاردون من القبض عليها؛ فقانون القبيلة لا يعرف صفحًا في مثل هذه المسائل.

وبعد ثلاثة أيام التقت بفتاها على ضفة النهر وفقًا لاتفاقهما السابق، كانت هناك نساء أخريات يجلبن الماء أيضًا، ولكنِ حبيبها تمكن من الحديث معها وهى في طريقها إلى منزلها، ولم تكن لديه إلا خطة واحدة: الهرب، وفى نفس الليلة، واتفق معها على أن يقبل عند منتصف الليل ليقف وراء الخيمة ومعه ناقة سريعة، وعندما يطلق صيحة معينة ثلاث مرات، عليها أن تتسلل من تحت ستار الخيمة، وأن تنضم إليه وتركب على الناقة من خلفه، ليهربا معًا إلى سوق الشيوخ حيث يجدان الملجأ لدى قبائل المجرّة، ويتزوجان، أما إذا لم يجدا الأمان في سوق الشيوخ، فيمكنهما مواصلة رحلة الهرب إلى البصرة.

قصة قديمة ومتكررة:

ثم نفس القصة القديمة المكررة؛ فكان البديلِ الوحيد أمام بنية إذا لم تهرب وتتعرض للمطاردة بل وربما للموت، هو أن تتخلى عن حبيبها وأن ترضى بالمصير الذي اختطه لها أبوها وأمها، ولم تتردد في اختيارها، ووافقت على الهرب كما خطط فتاها، وكان الأمر جديراً بأن تقدم من أجله على مثل هذه المغامرة. وكانت سعادتها هي الأمل إذا نجحت، والموت هو العقاب المنتظر عند الفشل. كانت تدرك كل ذلك، ولكن ماذا يهمّ؟ وكأي فتاة من فتيات القبائل، فهي لا تتردد عن أن تقامر عندما تكون سعادتها في خطر.

وبعد أن اتفقا، انصرف الفتى والفتاة كلٌ إلى سبيله، وأخذت تستعد إلى الهرب سرًا، بينما رتّب هو أمر الناقة والتفاصيل الأخرى. وربطت بنية كل حاجاتها في لفة واحدة دون أن تثير التفات أحد، بينما أعدّ حبيبها غدّارته وخنجره لأنه رأى ألا يحمل بندقية حتى لا تعوق حركته، ولم ينس أمر الناقة، فقدّم لها وجبة إضافية من الطعام، وحمل لها معه غرارة من الحبوب للتغذي عليها أثناء الرحلة.

وانتصف الليل، وزحفت بنية في هدوء إلى مؤخرة الخيمة عندما سمعت الإشارة المتفق عليها، وفى صمت، خرجت من المخيم وأهلها جميعا نائمون فلم يلحظها أحد، ثم ركبت وراء فتاها، وانطلقا في الأرض الواسعة الممتدة، وهدفهما هو الوصول إلى نتوء النخيل المواجه للناصرية، ولكن للأسف، يبدو أن شخصًا أو كلبًا أحس بهما وأطلق صيحة تنبيه. لم تستطع بنية أن تخبرني كيف حدث

ذلك، ويكفي أن أقول أنه عندما أسفر الفجر رأى الفتى والفتاة على البعد من ورائهما مجموعة من راكبي الجياد، تنهب الأرض نهبًا للحاق بهما.

كان المطاردون لايزالون على بعد حوالي ثلاثة أميال، ولكنهم كانوا يحثون الخطى بسرعة أكبر من سرعة الفتى والفتاة، اللذين تركز أملهما في الوصول إلى بساتين التمر قبل القوة التي تطاردهما، حيث يمكنهما الترجل عن الناقة، وكسب الوقت بمحاولة الخوض في ترع الري وصولاً إلى ضفة النهر المواجهة للناصرية، ثم عبور النهر تحت جُنح الظلام، واللجوء داخل البلدة.

ونجحت الخطة وجرى كل شيء على ما يرام إلى أن وصلا إلى ضفة النهر. كانت النجاة قاب قوسين أو أدنى رغم إدراكهما أن صيحات البحث عنهما مازالت تتردد قوية مدوية من بعيد، وأن المطاردين ازدادوا إصرارًا في سعيهم بعد تعرفهم على آثار أقدامهما على الأرض الموحلة، وأصبحت المسألة مجرد مسألة وقت حتى يلحقوا بهما. وهنا أدرك الفتى والفتاة أن الفرصة الوحيدة أمامهما للنجاة هي تجنب الوقوع في أيدي المطاردين إلى أن يرخي الليل سدوله، ولذلك غيرا اتجاههما وشرعا في التحرك نحو مصب النهر إلى أن وصلا إلى حي الصابئة في البلدة حيث تنمو أشجار الصفصاف كثافة شديدة، واختبئا بين هذه الأشجار.

والآن كانت الشمس قد غربت وأوشك الظلام أن يسترهما عن الأعين. وأفلتا من المطاردة لفترة وبدأت بنية تشعر بشيء من السعادة، ولكن يا للإحباط الذي أعقب ذلك! فمن الواضح أن الفتى عندما أحس بأن بنية تعوقه من الانطلاق بأقصى سرعته، قرر أن يواصل الهرب وأن يمضي لحال سبيله بمفرده. وفجأة أخبرها أنه سيتركها متعللاً بأنه لا جدوى من أن يُقتلا معًا إذا كان في استطاعته أن ينجو بنفسه، وأن يهرب إلى السوق ثم يصل إلى البصرة عن طريق بحيرة الحمّار. ولم يتح لبنية أي فرصة لمناقشته أو للتوسل إليه، وإنما اختفى في الظلمة على الفور. الحياة حلوة .. فلماذا يضحي بحياته من أجل "بنت"؟.

وما أن وصلت الفتاة الصغيرة إلى هذا الجزء من قصتها حتى انهارت وغلبتها العبرات، وأخذت تتنهد وكأن قلبها يتمزق. كانت مأساة مؤلمة، وعندما استعادت هدوئها بعد فترة وصفت كيف اختبأت طوال الليل بين الأحراش ثم كيف تمكنت أن تشق طريقها عند الفجر دون أن يشعر بها أحد إلى أن وصلت إلى مشحوف أقلها إلى حي الصابئة، ومنه اتجهت لبيت الحكومة لأنها سمعت أن

الإنجليز طيبون وأن داكسان سوف يحميها. وعندما وصلت أمام مسكني طلبت مقابلة الحاكم السياسي فسمح لها الفراش بالدخول، وأشفق عليها عندما رأى ما هي عليه من حزن وفزع، وطلب منها أن تنتظر في هدوء في ذلك القسم من الشرفة المخصصة للنساء اللائى يتقدمن بالشكاوى، إلى أن يأتي الصاحب. ولما كانت لاتزال تخشى أن يتعقبها المطاردون حتى بيت الحكومة ويقتحمونه للقبض عليها، تسللت إلى غرفة مكتبي فور أن استدار الفراش، واختبأت تحت المنضدة.

واعترف فراشي الذي استولت عليه الدهشة، والذي استدعيته في ذلك الوقت أنه هو الذي قادها إلى غرفتي، وقال إنه عندما لاحظ اختفاءها من الموقع الذي طلب منها ألا تبرحه تصور أنها انصرفت على أنٍ ترجع فيما بعد. وقلت له إنها فتاة قبلية برح بها الحب ولجأت إلى مكتبي خوفًا من الموت، وأنه لابد من إقامتها مع أسرة السايس الخاص بي إلى أن أتخذ قرارًا بشأنها.

وما أن أصدرت تعليماتي، والفتاة لاتزال في غرفتي حتى أعلن فراش آخر أن الشيخ منشد الحبيب وصل لطرح مسألة عاجلة. وبسرعة، أدخلت اللاجئة التي استولى عليها الرعب تمامًا الآن، إلى غرفة داخلية أحتفظ فيها بأوراقي السرية، وأغلقت الباب، ثم أمرت بإدخال الزائر.

وكنت أحب منشد أكثر من أي شيخ آخر نظرًا لأخلاقه المهذبة ووداعته والطريقة التركية والهادئة التي يتناول بها أصعب القضايا. وبعد التحيات المعتادة، وقدح من القهوة، انتقل إلى الموضوع الذي أقبل من أجله، فحكى لي كيف أن فتاة صغيرة من قبيلته ارتكبت حماقة فهربت من بيتها الليلة السابقة، بعد أن خدعها شاب تافه، وأن مجموعة من المطاردين ألقت القبض على الشاب بين أشجار النخيل، أما الفتاة فتمكنت من الفرار وعبرت النهر إلى بلدة الناصرية، والاعتقاد السائد هو أنها لجأت إلى منزلي، وناشدني إن كانت لاتزال تختبئ لديّ، أن أسلمها له بصفته شيخ قبيلة الغزي وكبيرها، وتعهد بأنه سيبقيها في منزله بين نسائه إلى أن يتمكن من إعادتها آمنة إلى أهلها. وأكد لي أنه لن يحيق بالفتاة أي ضرر، لأنها ليست بالجانية وإنما هي مجني عليها ... الخ. وكان يتكلم بنبرة مؤثرة، ويطرح القضية بشكل صريح ومهذب، ولكنني كنت لا أزال متشككا. وردًا عليه، اعترفت بأن بنية جاءت إليّ في ذلك الصباح. ثم سألته ما إذا سيعدني بشرفه بألا ينزل بها أي عقاب إذا سلمتها له،

واقترحت عليه أن يسأل الفتاة ما إذا كانت على استعداد لأن تضع نفسها تحت رعايته، ووافق منشد، فتوجهت إلى الغرفة المجاورة، وأغلقت الباب من خلفي، وتشبثت الطفلة المسكينة بكفي بكل عنف وقالت لي، شبه باكية والعبرات تكاد تخنقها، أنه إذا سلمتها فلن يكون لذلك من معنى إلاّ الموت لا محالة.

وتوسلت إليّ قائلة: "يجب ألا تثق بمنشد أو بكلامه المعسول، إن كل ما يعنيه هو أن يستخلصني من بين يديك ومن حماية الحكومة، وبعد ذلك سيسلمني لابن عمي ليطبِّق عليّ شرع القبيلة".

وكنت أعلم تمامًا ماذا يعنيه ذلك، واصطحبتها إلى مكتبي مرة أخرى وقلت لها: "يا ابنتي لقد جاء منشد، شيخكم، ليأخذك إلى دارك وقبيلتك، ووعدني أن يستضيفك مع نسائه إلى أن يتمكن من تسوية الأمر مع والدك وإخوانك، وقال لي إنه سيرعى مصالحك دون تفريط، ولكنني طلبت منه أن يسألك بنفسه لأنه من حقك أنتِ القبول أو الرفض، ولن يجبرك أحد على اتخاذ أي خطوة لا تنبع من إرادتك".

وانعقد لسان الفتاة هلعًا فلم تحر جوابًا، وإنما تهاوت على الأرض بين منشد وبيني، ووجه منشد حديثه لها بكل رقة وتعاطف وسألها عما إذا كانت تريد العودة معه إلى أسرتها، وطمأنها بألا تخشى شيئًا لأنه يضمن سلامتها، وقال لها إنها ستكون سعيدة بين أهله وستشعر وكأنها في بيتها من جديد، أما في الناصرية فما هو المصير الذي ينتظرها؟ في أحسن الحالات لن ترعاها الحكومة، وحتى داكسان لن يستطيع أن يدعها تقيم في داره إلى الأبد".

ومرت بضع دقائق قبل أن ترد بنية: "لا أستطيع .. أنا لا أجرؤ على العودة معك يا منشد"، وأخذت تنتحب بطريقة مست شغاف قلبي، وأضافت: "أنت تعرف شرع القبيلة، فهو أمر لا يمكن الصفح عنه في حالة فتاة آثمة مثلي، وأنت تعرف تمامًا أنه لابد لك من تسليمي لوالدي وإخواني لأنهم سيطلبونني منك، إنني أخشى الموت، فأنا لازلت في مقتبل العمر".

وقلت: "يا بنية، لن يسلمك أحد إلا إذا كانت هذه هي رغبتك لأنك في ذمة الحكومة، ولكن هناك سؤالٌ واحد أود أن تجيبيني عليه في حضور شيخكم، هل حدث أي شيء مشين بينك وبين الفتى سواء قبل هروبكما أو بعده؟ استغفري الله، وأخبريني بالحقيقة يا صغيرتي".

وكان ردها: "ألست فتاة من الغزي؟ كيف يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل؟ نحن لم نرتكب إثمًا، والله على ما أقول شهيد."

وصدقتها.

وهز منشد كتفيه بطريقة ذات معني، وهمهم ببضع كلمات حول عقل الحرمة الذي يستحيل فهمه، ووعدته أن أرسل إليه إذا تمكنت من إقناع بنية بتغيير موقفها، وأنه إلى أن يتحقق ذلك، فسوف تظل مقيمة لديّ في أمان محاطة بكل الاحترام والرعاية. وتركني منشد، ولكنه لم يكن سعيدًا تمامًا لما انتهينا إليه. وأما بالنسبة لبنية فلم تغير رأيها بأي حال، بل وظلت تكرر مرارًا أثناء ما دار بيني وبينها من أحاديث بعد ذلك إقناعها بأنها سوف تُقتل لا محالة إذا أُعيدت إلى أهلها".

وقالت: "يجب ألا أغادر الناصرية أبدًا، لأن العيون ستظل ترقبني وتلاحقني منذ ذلك اليوم."

وبعد أن قلبت الأمر على جميع أوجهه، استشرت العديد من نوى المكانة من العرب في الناصرية، وطلبت منهم، دون ذكر لمسألة بنية على وجه التحديد بالطبع، أن يحيطوني علمًا بما يحدث عادة لفتاة القبيلة إذا وجدت في مثل هذا الموقف. وأكد الجميع أنه لا مفر من قتلها. ودفعني هذا الرد بالإضافة إلى عدم حصولي على أي إجابة شافية من منشد أو من أي شيخ آخر من شيوخ الغزي حول ما كان من مصير الفتى الذي أحب بنية، إلى أن أقرر عدم إرجاعها إلى أهلها.

وبينما كنت أتدبر ماذا أنا فاعل بها، طلبت المساعدة والمشورة من ضاري بك الفهد آل سعدون، وأخبرته بالقصة كلها، فنصحني بأن الأمل الوحيد للفتاة هو أن تتزوج من شخصية محترمة من أبناء الناصرية، وقال إنها إذا تزوجت واستقرت بالبلدة، فسوف تكف القبيلة عن محاولة الإيقاع بها، وسوف يصفح عنها ابن عمها ووالداها بعد حين، خاصة إذا دفع زوجها مبلغًا من المال على سبيل التعويض لابن عمها الذي يتصور أنه جُرح. ورحبت بنية بهذه الخطوة، ولذلك أخذت بنصيحة ضاري بك، وبعد عدة أيام، وجدنا رجلا محترمًا جدًا يدير محلاً للقهوة على بعد خطوات من منزلي، وافق على الزواج من بنية. وكان حفل العرس هادئًا، ولكن السعادة كانت تظله وتشع من أوجه الجميع.

وكمساهمة منى في هذه المناسبة السعيدة، أعطيت الفتاة مائة روبية لتدفعها لابن عمها. ويا لمشقة التعامل مع هؤلاء القوم!

مأساة فتاة كردية:

وإليكم قصة أخرى، ولكن خاتمتها أكثر مدعاة للحزن والأسى.

فهناك بين الناصرية والشطرة، وعلى بعد حوالي العشرين ميلاً، قرية صغيرة تدعى سويج Suwa'ij في منتصف الطريق بينهما. وهى موقع ملائم يمكن للمسافرين على ظهور الجياد أن يمضوا به الليل. وقبل أن تشق طرق السيارات إلى الشطرة، كان من عادتي أن أمتطي جوادي وأن أتوجه إلى هذه القرية بعد الظهر، وأقضي الليل مع الحاج صكبان Saqba'n ثم أواصل رحلتي إلى الشطرة عندما تنخفض درجة الحرارة صباح اليوم التالي.

وكان الحاج صكبان كرديًا كهلاً، استقر في القرية منذ عدة سنوات، يكسب رزقه بالعمل في خدمة المسافرين. وخاصة بتوفير ما يحتاج إليه أبناء قبيلتي عبودة والخفاجة المجاورين من الأرز، ومواد البقالة والسجاير. وغير ذلك من البضائع التي لا تتوافر إلا في المدن. وبعبارة أخرى كان يدير شاي خانة (متجرًا للشاي)، بالإضافة إلى متجر عام لكافة ما يحتاج إليه الوافدون من سلع ومأكولات. وكانت أسرته تعيش خلف المتجر. وكانوا يستقبلونني دائمًا ويرحبون بي كضيف وليس كمجرد مسافر عابر.

وكانت الأسرة تتكون من الحاجة زوجته البشوشة المضيافة. وابنة يافعة في غاية الرقة والرشاقة في الثامنة عشرة من عمرها، وحسون، وهو شاب رائع في الحادية والعشرين. وكان هناك ابن آخر يعيش بعيدًا في كردستان، ولكنني لم ألتق به أبدًا، وكنت أمضي مع هؤلاء القوم البسطاء المتواضعين أوقاتًا ممتعة، حيث يعاملونني كفرد من أفراد الأسرة كلما نزلت عندهم، وتجلس الأم والابنة معي سافرتين دون حجاب بعد تناول الطعام، وتشاركان فيما يجرى من حديث وتتعاملان معي كما لو كنت واحدًا منهم حقًا. وكان الحاج صكبان مضيفًا جيدًا، وقصاصًا بارعًا، وكثيرًا ما كان يطلب من زوجته أن تقدم لنا أفضل ما تبرع في إعداده من أنواع الطعام والذي يتكون عادة من الأرز والدجاج، أو الأرز والمرق (حساء يتكون من الكمون وعصير الطماطم والتوابل)، عندما أنزل لديهم أثناء جولاتي التفتيشية، والتي كنت أقوم بها مرتين في الشهر عادةً. ولم أكن أشغل

نفسي كثيرًا بأن أحضر معي أي شراشف أو أغطية لاستخدامها عند النوم، وكنت أستطيع دائمًا أن أعتمد على ما يوفرونه هم في هذا الصدد صيفًا وشتاءً، وكان ما يوفرونه دائمًا نظيفًا وملائمًا.

وكانت هذه ميزة بلا جدال. ونظرًا لخفة ما أحمله من أوزان، كنت أستطيع أن أتحرك بسرعة، ومعي مرافق واحد. وكانت الأمسيات التي أقضيها في جو عائلي مع الأب والأم والابن والابنة من أسعد ذكريات جولاتي في الناصرية عندما كنت مسئولاً سياسيًا للمنتفق.

وكان سكان القرية والقبائل المجاورة يكنون احترامًا شديدًا للحاج صكبان، وكان هناك إحساسًا غير بالقليل بالخوف منه بصفته كرديًا. وبصرف النظر عن طبيعة عمله، كان من الواضح أنه يعيش من أجل هدف واحد دون سواه، هو شرفه وصيانته من أن يُمس بين جيرانه العرب. وكان حديثه عن هذا الأمر لا يكاد يتوقف، ولدرجة تبعث على الضجر بين مستمعيه.

وكان الابن يساعد أباه في عمله، ويتوجه إلى سوق الشيوخ في أوقات محددة لشراء اللوازم والاحتياجات. أما الأم والابنة فكانتا تعملان أغلب الوقت في إنجاز الواجبات المنزلية، وتقومان في وقت الفراغ بصناعة الجوارب والكنزات (البلوفرات) أو تقومان بحياكة الملابس، تمامًا كما تفعل عائلاتنا في بيوتنا، وربما كان هذا الجو المميز هو الذي شدني إلى هذه الأسرة الكردية المقيمة في أرض عربية غريبة عليها، وكان أفراد الأسرة جميعًا يرتدون الملابس العربية المعتادة.

كانت الابنة هي أقرب أفراد الأسرة إليّ، وكانت هي الأثيرة عندي، لأنها كانت مزيجا من الرشاقة والبشاشة والجدية التي تروق لي وتذكرني بالفتاة الإنجليزية. وكانت تحب أن أعلمها الأسماء الإنجليزية للأشياء، وأن أحدثها عن إنجلترا وعن لندن. ثم جاءت المأساة كالمفاجأة المذهلة، ويا لها من مأساة! لقد لعب ما شهدته من أحداث مفجعة دورًا كبيرًا في تغيير نظرتي إلى الحياة، وجعلني أدرك كيف يتحول الإنسان الشرقي في لمح البصر إلى كائن غبي يتصرف بعيدًا عن أي منطق عندما ينتابه ولو بصيص من الشك بأن إحدى نسائه خاصة إذا كانت شقيقته، قد تلوثت سمعتها.

كنت منكبًا على العمل في مكتبي في الناصرية عندما أسرع الكابتن هول، مساعدي الذي يتولى قيادة فرقة فرسان المنتفق، بالدخول ليبلغني أن أحد رجاله جاء من

القرية بقصة تقول أن ابن الحاج صكبان أطلق الرصاص على أخته في اليوم السابق، وأنها ترقد ملقاة تحت لفح الشمس الحارقة، مصابة بجرح خطير، إن لم تكن قد لفظت أنفاسها بعد، فوق كومة من القانورات خارج القرية، دون أن يجرؤ أحد على التقدم لمساعدتها.

وبعد أن حصلت على المزيد من التفاصيل، أرسلت هول على وجه السرعة إلى القرية وأمرته أن يصطحب معه مساعد الجراح الهندي الذي يعمل لديّ وعشرين رجلا ونقالة، وأن يأتوا بالفتاة إلى المستشفى إذا كانت على قيد الحياة. كما أمرت بضرورة القبض على شقيقها.

حدث كل ذلك حوالي الساعة التاسعة صباحًا، وفى الساعة الخامسة بعد الظهر أبلغني الكابتن هول، وهو في ذروة الإرهاق، أنه أحضر الفتاة، وأدخلها المستشفى الصغير الذي تشرف عليه الإدارة السياسية، وأنه ألقى القبض على حسون الذي يرسف الآن في قيوده داخل غرفة مغلقة تحت حراسة مشددة. وأكد الكابتن هول القصة التي تقول أن الفتاة ظلت ملقاة فوق كوم القانورات لمدة خمس عشر ساعة قبل أن ينقذها. كان فخذها الأيمن متهتكا نتيجة لإصابته بطلقة نارية شديدة التأثير، ورغم أنها كانت لاتزال على قيد الحياة، إلا أن حالتها كانت شديدة التدهور، وأضاف أن والد الفتاة ووالدتها وقد هدهما الحزن - طلبا الحضور معهم، وأنهما مع ابنتهما الآن، وبذل مساعد الجراح الهندي كل ما في وسعه ونجح في التخفيف من آلام المصابة إلى أقصى درجة ممكنة.

وعلى الفور كتبت تقريرًا حول هذه المسألة وأرسلته إلى مدير المستشفى العسكري بالناصرية، وسألته ما إذا كان يستطيع مساعدتي في مواجهة هذه القضية المحلية، وطلبت منه أن يرسل إلىّ تقريرًا في نفس الليلة عن حالة الفتاة، ثم جاء لمقابلتي في حوالي الساعة السابعة والنصف، وكنت ممتنًا تمامًا لهذه المقابلة. وقال أن الجرح خطير، ونتيجة لعدم التدخل بأي إسعافات أو علاج لعدة ساعات، أصيبت ساقها بالغرغرينة، وكان الأمل الوحيد لإنقاذها هو بتر الساق كلها، ولكن حالة الفتاة متردية لدرجة أن العملية ستؤدي إلى وفاتها. وأضاف أن المصابة أفاقت لتوها، وأنها تلح مطالبة برؤيتي. كانت تحت تأثير المخدر، ولكن كان بمقدورها أن تفهم ما يقال لها.

ودون إبطاء اصطحبت الماجور هول إلى المبنى الصغير للمستشفى المتواضع، وعلى ضوء بطارية - حيث لم تكن هناك إضاءة كهربائية في تلك الأيام

– اقتادني إلى العنبر الخلفي ثم إلى غرفة صغيرة بها سرير واحد ترقد عليه الفتاة المسكينة، كان نائب الجراح هو الذي يبين لنا الطريق، وإني لأذكر جيدًا تفسيره للرائحة الكريهة التي كانت تملأ المبنى بأنها صادرة عن المصابة، وأن هذا هو ما يحدث عند الإصابة بالغرغرينة.

وتعرفت الفتاة عليّ على الفور، وكان وجهها الرقيق قد تغيرت ملامحه بصورة مؤسفة، وبدا عليه التشويه، وفي وهن، أشارت إليّ لأجلس بجوارها وطلبت من الطبيب أن يعطيها كمية إضافية قليلة من المخدر. وكانت أمها التي تنتحب في صمت ترتمي على الأرض في ركن الغرفة، وأعطى مدير المستشفى الفتاة الكمية المناسبة من المخدر وانصرف هو ومساعد الجراح ليتركنا وحدنا. وكان هذا تصرفًا مهذبًا منه.

وأخذت يد الفتاة بين يديّ، وسألتها إن كانت تشعر بألم شديد فأجابت بأن الألم ليس شديدًا ولكنها تعرف أنها ستموت، وتريد أن تقول لي شيئًا. وطلبت منى ألا أقلق أو أحزن من أهلها لأنها لم ترتكب وزرًا، وأن كل ما هنالك أن سيدة من القرية أعمتها نار الغيرة عندما توهمت أن مشاعر رجل كانت تتمناه لنفسها أصابه البرود بعد أن رأى هذه الفتاة الكردية، فأخذت تروج الشائعات مدّعية أن ابنة الحاج صكبان تدبر مؤامرة في الخفاء. وكان ذلك كله كذبًا وافتراء. ولكنه مع الأسف كان يكفى لأن يندفع أخوها، عندما بلغته الشائعة، فيقتحم غرفتها ويطلق عليها الرصاص بينما هي جالسة على الأرض مع أمها تحيك بعض الثياب. وأصابتها طلقة أعلى الفخذ، فانهارت تمامًا، وبعد ذلك، سحبها أخوها والشرر لازال يقدح في عينيه إلى الخارج وطرحها فوق كوم من القانورات مهددًا بإطلاق النار على كل من يحاول الاقتراب منها. ولم يكن أبوها هناك في ذلك الوقت نظرًا لتوجهه إلى الشطرة في اليوم السابق.

روت لي قصتها في بطء وعبارات متقطعة، مع زفرات من الألم من وقتٍ لآخر، كان مشهدًا يدعو إلى الشفقة، والجو المحيط بها يثير نوعًا من الوجوم والرهبة، لأنه لم تكن هناك أي إضاءة سوى بصيص من مصباح هزيل، والرطوبة تنزل من الجدران والأرضية، والرائحة المنبعثة من المصابة تزكم الأنوف. وبعد ما بذلته الفتاة من جهد لتتكلم، أسكتها الإرهاق لفترة، وهي لاتزال تمسك بيدي وتتشبث بهما بقوة. ثم تكلمت من جديد، وطلبت منى هامسة، أن أعدها بأداء

شيء من أجلها قبل أن تموت. وعندما سألتها عما تريد، تنهدت وهي تقول: "أوه! أريد وعدًا! أريد وعدًا! لا توجه إلي أي أسئلة".

وقدمت لها كل ما تريد من تأكيدات - وماذا كان عساي أن أفعل؟ فطلبت مني أن أمد يدي تحت الخشبة التي تسند إليها رأسها فوجدت كتابًا: كان هو القرآن وناولته لي وهي تقول: "احلف بهذا الكتاب الشريف أنك ستفي بوعدك"، وحلفت، فواصلت حديثها في صوت لا يكاد يُسمع، والدموع تنهمر من عينيها لتسيل على وجهها الذي ارتسمت عليه أعمق علامات الإرهاق"، أريد منك يا دكسان أن تطلق سراح أخي فور أن أرحل. إنه لم يفعل ما فعل إلا لأنه يحبني ولم يكن يفكر إلا في شرف أخته. وعندما تطلق سراحه، أبلغه أن أخته طلبت، وهي تلفظ آخر أنفاسها، إبلاغه أنها كانت فتاة لم تفرط في شرفها أبدًا، وأنها ماتت وقد صفحت عنه".

وأخيرًا، جاءت الخاتمة المؤسفة.

فعندما انتهت من حديثها، دخل الماجور وأشار بالكف عن إرهاق المصابة، ولكن كان الوقت متأخرًا جدًا، فقد أفلتت يدي من قبضتها فجأة، وكانت تضمهما في ذلك الوقت بالقرب من قلبها، وبدا وكأن جسدها كله يرتعش، ثم راحت في غيبوبة وبسرعة، انحنى الماجور عليها، وأخذ يسمع لدقات قلبها.

وقال: "أخشى أن يكون كل شيء قد انتهى."

ويبدو أن الأم التي اعتصرها الحزن أدركت على الفور ما حدث، فقد قفزت من مكانها واندفعت إلى جوار ابنتها وصرخاتها تتعالى متعاقبة. كان الموقف رهيبًا، وتسللت إلى الخارج ينتابني أقسى ما يمكن أن ينتابني من أحاسيس. وتم دفنها في نفس الليلة، فالأشياء تتحرك بسرعة في الشرق.

كان اليوم التالي هو يوم الخميس، يوم انعقاد مجلسي، والذي وفد لحضوره حشد كبير من الشيوخ، وأبناء قبيلة آل سعدون، وفي مقدمتهم ضاري بك، وكذلك إبراهيم بك بن مزعل. وكان هناك أيضًا الحاج صكبان، وقد بدت عليه علامات الحزن الشديد، ولكنه كان رافع الرأس وملتزمًا الصمت. وبعد أن بحثنا أهم النقاط المطروحة على المجلس طلبت من الحاضرين أن ينصتوا وأن يعيروني انتباههم، وأخبرتهم بما طلبته ابنة الحاج صكبان، وهي تحتضر، وقلت

في ختام حديثي: "أيها المجتمعونٍ هنا، هل سبق أن سمعتم عما هو أبشع من هذه الجريمة، أو عن طلب أكثر نبلاً من طلب هذه الفتاة وهي في النزع الأخير.

وران الصمت لفترة طويلة، ثم نهض ضاري بك ووجه إلى حديثه قائلاً: "يا دكسان! لا مفر من وقوع ما هو مكتوب. وهذا الفتى لم يفعل إلا ما رأى أنه من واجبه، وليس من الصواب أن تنزل به أي عقاب."

وقلت: "لا تخش شيئًا، سوف يطلق سراحه، ولكن ليس بالطريقة التي تتصورها". وبعد ربع ساعة كان الشاب حسون يقف أمامي مكبل اليدين والقدمين، كان شاحبًا شحوب الموت، دون أن تبدى أي ملامح تنم عن حقيقة مشاعره. وفي بطء شديد، أخبرته بالحديث الذي جرى بيني وبين أخته الليلة السابقة، ومطلبها الأخير.

"يا ابن الحاج صكبان، سوف أفي بما وعدتها به، رغم أنك مجرم أثيم ولا تستحق أي شفقة، سيُطلق سراحك، لأنني وعدت، ولكن إذا سمعت في غضون ثلاثة أيام، أنك لازلت في أي ركن من أركان لواء المنتفق، فسوف أقبض عليك، وأعدمك رميًا بالرصاص، فهذا هو المصير الجدير بجبان مثلك.

وفكت قيوده، فاستدار وهو في ذروة الدهشة والارتباك، وخرج يجرجر قدميه من الغرفة، دون أن ينطق. ثم خيم الصمت على المجلس مرة أخرى، ولفترة ليست بالقصيرة، وطلبت تقديم القهوة، ثم أعلنت رفع الجلسة، وكان ضاري بك آخر من انصرف، وأقبل عليّ وصافحني وهو يقول: يا دكسان! لقد كنت قاسيًا مع ابن الحاج صكبان، وأيضًا مع الوالد، فيما أعتقد، ولكن ما فعلته هو عين الصواب. وعليك أن تتذكر دائمًا يا دكسان، أن كل ما يجرى من أحداث إنما يجرى بأمر الله وما نحن إلا مجرد آلات ووسائل. وهذه هي نصيحة الأقدمين.

يا للفتاة الكردية المسكينة، لقد كانت نهايتك نبيلة وشامخة، وسوف أظل أذكرك إلى الأبد.

انتقام الحاج ناصر الحيّل:

في صيف عام ١٩١٩ عدت إلى إنجلترا، وسمعت هناك من السير بيرسى كوكس، أن صديقي القديم، الشيخ قاصد الناهي، لقي مصرعه على يد عدوه

الحاج ناصر. لم أحصل علي أي تفصيلات في ذلك الوقت، أما عندما تم تعييني في خريف نفس العام وكيلا سياسيًا في البحرين، فقد توفر لي كل المعلومات حول مصرع الشيخ قاصد، واستقيتها من عدة شيوخ من شيوخ المنتفق وعلية القوم عندما جاءوا لزيارتي.

وكانت قصة تدعو إلى الحزن والأسى، وذكرتني بما قاله لي قاصد يوم أن ساعدني على حرق دار ضيافة الحاج ناصر، من أن العربي لا ينسى ثأره أبدًا.

كان الحاج ناصر قد ركن إلى الهدوء والعيش في سلام، وظل على هذه الحال لمدة عامين. ورغم ذلك، فهو لم يغفر أبدًا لقاصد الناهي الدور الذي قام به، كان يتربص منتظرًا إلى أن أغادر لواء المنتفق لينتقم. ولاشك أن قاصد كان يبادل الحاج ناصر نفس الكراهية، ولكن لم يحدث في ذلك الحين أي صدام سافر بين الطرفين.

وحدث أن وجه الحاج ناصر الدعوة في توقيت مناسب إلى قاصد لحضور وليمة أقامها احتفالاً ببناء دار ضيافته الجديدة. وقبل قاصد الذي لا يهاب شيئًا الدعوة، وكان هذا خطأ فادحًا، فبينما الضيف يهم بوضع شريحة من اللحم في فمه، أطلقت عليه النار من الخلف، وكان الفاعل وهو من عبيد الحاج ناصر – قد أدخل ماسورة غدارته من ثقب في جانب دار الضيافة ثم أحكم التسديد، وأطلق الرصاص على قمة رأس الشيخ الكهل.

وحدث هرج ومرج، ولكن الحاج ناصر كان قد أحكم تدبير خطته، فاختفى الرجل الذي ارتكب الجريمة عن الأنظار تمامًا لفترة، وثارت ثائرة قبيلة الحكام عن بكرة أبيها لهذه الخيانة الفظة التي تتنافى مع كل التقاليد العربية، وأعلنت أنها لن تمر دون عقاب. وعلى الفور نشب قتال عنيف بين أتباع قاصد وأتباع الحاج ناصر، ألقى فيه قوم المرحوم الشيخ مزبان بكل ثقلهم إلى جانب قبيلة قاصد.

وبمساعدة الحكومة، تمكن الشيخ فرهود الفندى، كبير قبيلة الحكّام على الضفة اليسرى من النهر، من التوصل إلى هدنة بين الطرفين. ولكن الحاج ناصر أصبح رجلا مقضيًا عليه بالموت منذ ذلك الحين.

وعقد مزهر وريزان، ابنا قاصد العزم على الإيقاع به، وأخذا يقتفيان أثره ليلاً ونهارًا. وبالفعل، وفي غضون بضعة أسابيع، انتهت المطاردة عندما أطلقا

الرصاص على الحاج ناصر فأردياه قتيلا بين الأحراش أثناء عودته إلى دار ضيافته.

واعتُبر هذا العملُ نوعًا من الجزاء المستحق والتطبيق للعدالة في جميع أركان المنطقة. فكان الجميع يتعاطفون مع ابنيّ قاصد. وكان من رأيي أن تلقى الحكومة القبض على الشابين لبعض الوقت حتى يتخذ القانون مجراه؛ والأمر انتهى في خاتمة المطاف بأن أصبح مزهر شيخًا للقسم الأكبر من قبيلة الحكام المقيم بالضفة اليمني للنهر. وفي عام ١٩٤٣ التقيت به، وقد غدا رجلاً قويًا ورائعًا، وأسعدني كثيرًا أن استرجع معه ذكرى الأيام الخوالي وما كان بيني وبين والده من صداقة، كما حدثته عمّا نشعر به من إعزاز وتقدير لولاء قاصد الناهي للحكومة البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى، وعن تعريضه حياته للتهلكة ذات يوم من أجل إنقاذي.

وأعتقد أن حديثي سيكون له شيء من الجدوى، في المستقبل، بالنسبة للشيخ مزهر وأخيه. ومزهر اليوم (١٩٥٣) هو النائب القبَلي الذي يمثل دائرة سوق الشيوخ في البرلمان العراقي، بينما يتولى ريزان إدارة شئون القبيلة.

الفصل العاشر
الإخوان يشنوّن الحرب على الكويت ١٩١٧-١٩٢١

وفاة الشيخ جابر - تولّي الشيخ سالم - رحلة فيلبي إلى الرياض - الأسطول البريطاني يحاصر الكويت - ابن سعود يستأنف القتال ضد ابن رشيد - مستشفي للنساء في الكويت - "مايرلاى" - زيارتي للهفوف - مسألة الحدود مرة أخرى - معركة الجهرة - الحكومة البريطانية تتدخل - حاكم جديد للكويت - حب سعود العرافة لنورا - ابن سعود يستولى على حائل ويضمّ جبل شمر.

قبل أن أواصل سرد قصصي الشخصية، أجدُ لزامًا على أن أتعرض باختصار لبعض الأحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية أثناء ممارستي لمهام منصبي بلواء المنتفق.

في ٥ فبراير ١٩١٧ توفي الشيخ جابر بن مبارك آل صباح بعد أن تولّى الحكم لمدة تزيد قليلا عن العام. وخلفهٍ أخوه سالم، والد الحاكم الحالي، وكان سالم بن مبارك آل صباح نسيجًا مختلفًا جدا من الرجال عن أخيه. فهو مسلم متشدد وعنيد في التمسك بعقيدته. وقبل أن يتولى الإمارة، أمضى كلّ حياته في البيداء، وكان يمقت كل المخترعات الحديثة، وكانت شجاعته من نوعٍ نادر، وهو المسئول الأول عن كلّ ما وقع من صدام بينه وبين ابن سعود[١].

في أواخر عام ١٩١٧، قام مستر هـ.س.ب.ب. فيلبى، من وزارة الهند وكان في ذلك الوقت في مهمة خاصة في بغداد، بزيارة سرية إلى نجد من أجل لقاء ابن سعود وإقناعه باستئناف القتال ضد ابن رشيد. قبيل هذا اللقاء، كان اثنان من المسئولين البريطانيين قد توجها إلى الرياض من البصرة، وهما الكولونيل ر.ا.ا.هاملتون والليفتانت كولونيل ت. كانليف أوين، الأول ممثلا للسير بيرسي كوكس والثاني ممثلا للمندوب السامي بالعراق، ولكنهما غادرا الرياض عند مقدم مستر فيلبي.

وفي شهر فبراير ١٩١٨، وجد الأسطول البريطاني أنه لا مفرّ من فرض الحصار البحري على الكويت نظرًا لما ثبت من وصول الإمدادات إلى الأتراك في

---

(١) لسنا معه في هذا الرأي، وهو رأي المسئولين البريطانيين المنحازين لابن سعود.

دمشق من الكويت عبر الصحراء، وفي شهر يوليو من نفس العام تم توجيه إنذار للشيخ سالم جاء فيه أن الضمانات التي قدمت له ولوالده والصداقة والحماية اللتين كفلتهما الحكومة البريطانية لوالده، لن تستمر إلاّ بشرط أن يكون هو شخصيًا المسئول عن كل ما يجرى في بلاده من أعمال، وأن يمنع أي تصرف يقدم عليه رعاياه أو أي شخص آخر يمكن أن يمسّ مصالح الحكومة البريطانية.

وفي ذلك العام، كان ابن سعود قد تمكنّ من إجبار أغلب بدو نجد – باستثناء العجمان – على اتباع دعوة الإخوان والاعتراف به إمامًا لهم، ومن أجل ضمان ولاء القبائل التي انضمت لهذه الدعوة منذ قريب والإبقاء عليها تحت سيطرته، دفع الزعماء الدينيين الوهابيين في الرياض إلى إصدار فتوى تحتّم على جميع الإخوان الذين صدقت عقيدتهم أن يشيدّوا لأنفسهم مستوطنات وقرى يستقرون فيها وأن يزرعوا الأرض لأن هذا هو ما يفرضه عليهم الدين. وكان هذا الإجراء هو الذي يميزّ "الصفوة" عن "الجهلّ" – وهي التسمية التي تطلق على البدو الذين لم يعتنقوا الدين الجديد، وكان من المقرر ألاّ يزيد ارتفاع أي مسكن في هذه المستوطنات الجديدة عن طابق واحد، ربما ليسهل تحويلها إلى حصون إذا اقتضى الأمر في وقت لاحق.

ونتيجة لزيارة مستر فيلبي للرياض، استأنف ابن سعود القتال ضد ابن الرشيد في خريف ١٩١٨، وزحف إلى جبل شمرّ، ولكن عجزه عن الاستيلاء على حائل أجهض الحملة فلم تحقق أي هدف من أهدافها.

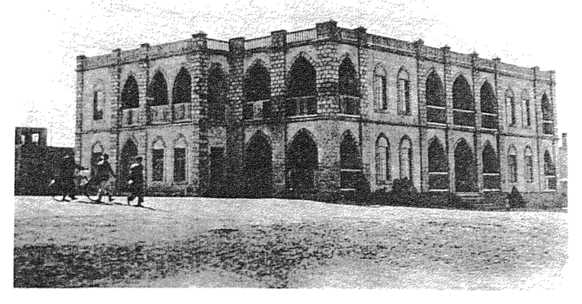
وفي هذه الأثناء كان عبدالله بن الحسين، شريف مكة، يحاول التدخّل في شئون نجد من جديد، وادّعى ملكيته لبلدتي تربه TURABA وخرمة KHURMA وفجأة، وعلى رأس قوة كبيرة من المشاة وحَمَلة البنادق، ظهر أمام خرمة واحتلها بعد معركة ضارية، وبعد ثلاثة ليالي، واجه هجومًا مكثفًا شنّه عليه الإخوان تحت قيادة الأمير خالد بن لؤي، فقضى على قواته قضاءً مبرما، ووقع كل ما في معسكره من إمدادات وبنادق وذخيرة ومواد تموينية في أيدي ابن مسعود. ولم يتمكن عبدالله الشريف من الإفلات من الموت إلاّ بشق الأنفس. وبعد ذلك، تركز اهتمام بريطانيا لعدة سنوات في المحافظة على السلام ومنع الصدام بين الملك حسين وابن سعود.

وفي ٢٦ من ديسمبر ١٩١٩ أبرم ابن سعود اتفاقًا مع حكومة صاحب الجلالة حول مسألة الاتفاقية البريطانية - التركية لعام ١٩١٣؛ ووفقًا للمادة الرابعة من الاتفاقية الجديدة، تُركت مسألة الحدود بين الكويت وأراضي ابن سعود لتحديدها فيما بعد.

مستشفي للنساء في الكويت

تقول السيدة إليانور تايلور كالفرلي في إحدى رسائلها: "وبمرور الوقت تنامت الثقة، وكذلك تنامت أسرة كالفرلي بوصول ثلاث فتيات من بنات الأسرة للمعيشة معنا في المنزل الجديد الذي شُيدّ في أول عطلة سنوية لنا، وكان هذا المنزل، بموقعه بالقرب من شاطئ البحر في منطقة مكشوفة نظيفة في طرف المدينة، ونوافذه العديدة وشرفاته الواسعة، ملاذًا مريحًا عندما تلتهب درجة الحرارة في الصيف. وكان هناك مقرٌ آخر من مقارّ البعثة يشغله الدكتور س.س.ج. ميلرى وحرمه، اللذين تم تعيينهما في الكويت عند نقل د. هاملتون إلى موقع آخر. وكان هناك أيضًا مستشفي جديد. شاركتني السيدة مايلريا العمل فيه لعدة سنوات. وأثناء إجازاتنا، كانت السيدة مايلريا تساعد زوجها في علاج المرضى من النساء. ونادرًا ما كان يسمح لهما بالكشف على أي شيء سوى النبض واللسان الذي يبرز من خلال ثقب في النقاب.

وفي عام ١٩١٩، قمنا بتشييد مستشفي من طابق واحد للنساء، إلى جانب المستشفي الخاص بالرجال. ثم أنشأنا بعد ذلك "جناحين أسريين" في منتصف المسافة بين المستشفيين لاستقبال المرضى الذين يفدون إلينا من مسافات بعيدة وفي صحبتهم أسرهم. وكان قليل جدًا من سكان المدينة هم الذين يوافقون على إقامة نسائهم في المستشفي، وكان المرضى الذين نتولى علاجهم في العادة ممن بلغ بهم الضعف والوهن حدًا لا يستطيعون معه التردد على العيادة، ولذلك كان لابدّ من علاجهم في منازلهم، هم والحالات التي تحتاج إلى ما هو أكثر من الجراحات البسيطة، وكانت السيدة الطبيبة تُشَاهد كثيرًا في الطرقات وهي تمتطي حمارها الأبيض. وكانت بعض العمليات تجرى فوق أسطح المنازل حيث تتوفر إضاءة، وتعدل درجة الحرارة، وتتيح أشعة الشمس القدر المناسب من النظافة والتطهير. وكنا نصطحب معنا بعض المساعدين الذين تسمح الأوضاع في المستشفي بتخصيصهم لنا. ولا يمكن أن أنسى أبدًا أننا أجرينا عملية ناصور فوق سطح



المستشفى التذكاري للنساء في الكويت

CHARLES STANLEY GARLAND
MYLREA
PIONEER MEDICAL MISSIONARY
BORN IN LONDON, ENGLAND OCT. 18, 1876
DIED IN KUWAIT JAN. 3, 1952
MEMBER OF THE ARABIAN MISSION
OF THE REFORMED CHURCH IN AMERICA
The son of man came not to be ministered unto, but to minister and to give his life a ransom for many.
Matt. 20:28.

قبر في المقبرة المسيحية بالكويت

منزل، كما قمت مرة أخرى، بإجراء عملية إزالة سحابة من عيني عريس وعروس كادا أن يفقدا البصر، في الطابق العلوي لمنزلهما. كما حدث ذات ليلة شديدة الحرارة، وفي وسط ردهة منزل، وعلى ضوء مصباح، أن تمكنّا من إنقاذ حياة أم تعانى من التشنج أثناء الوضع، باستخدام أدوات الجراحة، ولم يحدث أن أصيبت أي حالة من هذه الحالات التي تطلبت التدخل الجراحي بأي عدوى، ولكن الوضع يختلف تمامًا بالنسبة للحوامل اللاتي كنّا نلتقي بهن ملقيات علـى الأرض فوق أكمة من الرمال بعد أن استخدمت معهن كل الوسائل المعروفة للقابلات المحليات، قبل أن تصل حالتهم إلى درجة اليأس فيضطر ذووهم إلى اللجوء إلى الطبيب.

"ونظرًا لموقع المستشفي على مقربة من مقر إقامتنا، كنت أتمكن من تلبية نداء العائلات المقيمة في المنطقة المجاورة أثناء ساعات العمل بالعيادة. وكان ما يزيد على المائة مريضة يتزاحمن من أجل الكشف عليهن كل صباح. وكان من بين العاملين في المنزل طباخ ماهر أتينا به من جوا، وخادم فارسي، وممرضة عربية، وفي حالات الطوارئ كانت السيدة مايلريا وغيرها من السيدات يحضرن لرعاية الأطفال عندما يتطلب الأمر عزلهم عن أمهاتهم. وكان الدكتور مايلريا – شأنه شأن الدكتور هاريسون من قبله – على استعداد دائم لمعاونتي بكل طاقته. ولقد كان تعاطف وتعاون زوج السيدة الطبيبة، أولاً وقبل أي شيء آخر، هما اللذان مكنّاها من الجميع بين نشاطها المهني وحياتها الأسرية.

"وكان يوم وصول الممرضة رافامونى يومًا رائعًا. بعد أن أنهت تدريبها بمستشفي الإرسالية في مدانبالى في جنوب الهند. وبعد وصولها بوقت قصير حصلنا على سيارة فورد لاستخدامها في تحركاتنا بدلاً من الحمار. وتم تعيين الآنسة جان أ. سكارد فيلد لتعيش معنا ولتساعدنا في العمل في مستشفي النساء. ولاشك أن العمل الطبيّ، في كافة فروعه، خطى خطوات واضحة إلى الأمام منذ أن حضرت الآنسة مارى.ك. فان بليت، لتتولى الإشراف على المستشفيين.

ميريلاى:

وُلد شارل ستانلى جارلاند ميلرى في لندن في ١٨ نوفمبر ١٨٧٦، ودرس الطب في أمريكا، وبعد أن حصل على درجة الدكتوراه من جامعة فيلادلفيا، انضم إلى الإرسالية الأمريكية العربية وحضر إلى البحرين ومعه زوجته بيتسى

أوجسيتا، وهى أمريكية، في عام ١٩٠٧ . وبعد أن أمضيا أربعة أعوام بالبحرين، تعلمًا أثناءها اللغة العربية، تم نقلهما إلى الكويت في عام ١٩١١ .

وكان اسمه الشائع بين جميع العرب في الخليج هو "ميريلاى"، وقد حظي بمحبة خاصة في الكويت حيث قام ببناء أول مستشفي بها. وكانت زوجته تشاركه حياته طوال تلك السنوات الشاقة في أوائل فترات ممارسته لوظيفته، واكتسبا معًا محبة كل العائلات التي تسكن بجوارهما.

وفيما يلي قصة كان ميريلاى يرددها كثيرًا:-

في عام ١٩١٦، وأثناء خروج الشيخ سالم في رحلة للصيد، استدعى ميلرياى فجأة للتوجه للكشف على ابن الشيخ لمرضه. وعلى الفور، امتطى صهوة جواده ونهب إلى المريض وبذل كل ما في وسعه من أجل علاجه. وقبل أن ينصرف، أصدر تعليماته المشددة الخاصة برعاية المريض وإعطائه الدواء، وعندما عاد إلى القصر في اليوم التالي، اكتشف أنهم لم يعطوا المريض أي دواء ولم يلتزموا بما اصدر من تعليمات. فاستشاط غضبا. ورفض أن يواصل العلاج.

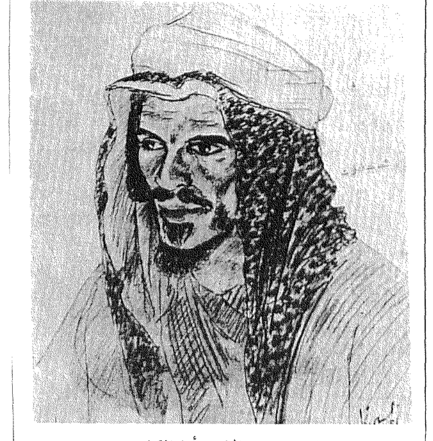
وعند عودته إلى منزله، أخبر زوجته بأنه تسرّع في موقفه، وانتابهما الخوف تحسبًا لغضب الشيخ سالم عندما يرجع ويحاط علمًا بكل ما جرى في غيبته. وبعد عدة أيام. رأى مايلريا موكبًا يقترب من منزله، فتوجسّ خيفة واعتقد أنهم قادمون لذبحه هو وأسرته. ولكنه فوجئ بأن الشيخ جاء ليعتذر عمّا ارتكبه خدمه من حماقة وعن عدم تنفيذهم لتعليمات "الحكيم"، ويقول أنه أنزل العقاب بهم جميعًا. وكان الشيخ يحمل معه بعض الهدايا الصغيرة: هل يقبل الحكيم سجّادة فارسية وعقد صغير من اللؤلؤ لزوجته؟ ولم يكن في استطاعة مايلريا أن يرفض. وشفي الغلام بعد فترة، واستقرت العلاقات الطيبة وتوطدّت من جديد.

زيارتي للهفوف:

كان أول اتصال لي بالإخوان في عام ١٩٢٠، عندما قمت بصفتي وكيلاً سياسيا في البحرين، بزيارة الهفوف ممثلا لحكومة صاحب الجلالة، ونزلت ضيفا على ابن سعود. كنت أتحرق شوقا لمعرفة اكبر قدر من المعلومات عن الحركة، وكانت تلك مهمة شاقة لأنني كنت أجد نفسي، أينما قمت بتحرياتي، في مواجهة جدار صلب من الصمت. ومن الواضح أن ثمة تعليمات صدرت للجميع بألا يفصحوا



فيصل بن سلطان الدويش
الشيخ الأعلى في مطير



نايف بن هذلان (أبا الكلاب)
الشيخ الأعلى في عجمان

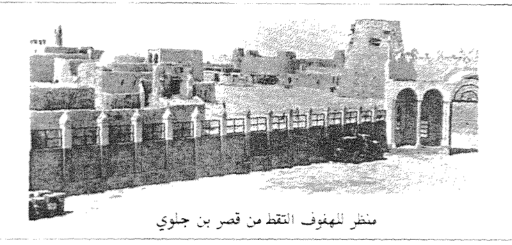
رسمت هاتين الصورتين بمعرفة قائد في السلاح الجوي الملكي البريطاني (هـ. ستيوارت) إثر استسلامهما للبريطانيين في الجهراء



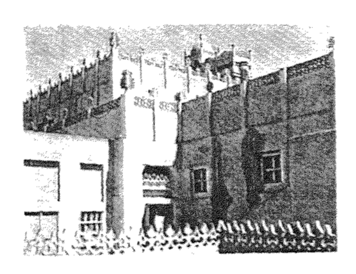
أسرى الحرب

ثلاثة من قادة تمرد الإخوان سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠م. وهم:

من اليمين صاهود بن لامي (مطير). والوسط فيصل الدويش (مطير). ومن اليسار نايف الحثلين (عجمان).



منظر للهفوف التقط من قصر بن جلوي



منظر من الداخل لقصر بن جلوي في الهفوف

عن أي شيء إلاّ في أضيق الحدود. ولم يكن في وسعي إلاّ أن استنتج أن ابن سعود أصدر أوامره بعدم إفشاء أي سر يتعلق بالدين الجديد للأجانب.

أول لقاء مع ابن سعود:

ولم يكن من الصعب التوصلّ إلى الأسباب الكامنة وراء هذا الموقف، فأولا، أعتقد أن ابن سعود الذي ارتبط بالفعل بجماعة الإخوان، كان يشعر بنذر الخطر للصورة التي أصبح يتبدى عليها في العالم الخارجي؛ وثانيًا، انزعاجه للدعايات الكثيرة التي زادت عن الحدّ التي راجت حول الحركة والتقارير المبالغ فيها التي تنشرها مصادر شديدة التحيز ضدها حول سلوك الإخوان؛ وثالثاً، إدراكه لأن الحركة ينظر إليها في بعض الدوائر، وخاصة في القاهرة وبغداد ولندن، بعين الشك والتوجّس؛ وأخيرًا، لأنه لم يكن يريد أن يعرف أحدُ أنه هو المحرّك لكل ما يجرى، فانه هو الذي يدعم الحركة ويقودها من أجل تحقيق أهدافه الخاصة، وعندما التقيت به في الهفوف أصرّ على أن الإخوان ما هم إلا نفس الوهابيين القدامى.

وقال لي ابن سعود: "واليوم، فالوهابية القديمة، مع قوة الدفع الجديدة لدعوة الإخوان، هي أكثر الأديان نقاءً في العالم".

وبشكل عام، ومن واقع ما شهدت وسمعت من ابن سعود ومن مساعده المخلص فيصل الدويش، شيخ مطير الشهير(ناهينا عن زعماء الإخوان الآخرين ممن أعرفهم شخصيًا) لا يسعني إلاّ أن أستنتج أن دعوة الإخوان ليست بالحركة السيئة كلية على النحو الذي تصوّر به في بعض الأحيان. ومن المؤكد، أولاً وقبل أي شيء آخر، أنها حركة إحياء دين على غرار الوهابية القديمة، ومحاولة من جانب جماهير وسط شبه الجزيرة العربية للنهوض بأوضاعهم أخلاقيًا ودينيًا؛ ومن الواضح على وجه الخصوص أنها محاولة جديدة لتطهير الإسلام من الشوائب التي وفدت إليهم نتيجة للاتصال بما يسمى المؤثرات الأوروبية. ومما لاشك فيه أيضًا أن الحركة حركة دفاعية وقومية بطبيعتها، ولكنها - أساسًا — لا تثق بالأجانب، وقد عقدت العزم بكل إصرار على استرداد العرب لكل سواحل شبه الجزيرة العربية، ونجد على وجه الخصوص.

ومهما كانت الأفكار السياسية والطموحات العقلية التي راودت رجالاً من أمثال ابن سعود فيما مضي، فمن المؤكد أن الجماهير كانت متأثرة بشكل عام بمشاعر شديدة العمق ضد الأجانب.

وكانت الجماهير العادية للإخوان تتكون أساسًا في الأيام الأولى للحركة، كما سبق أن ذكرت، من الفئات التي يشيع فيها الجهل من سكان القرى في نجد. ثم انتشرت الحركة بين القبائل البدوية داخل شبه الجزيرة العربية وفي البلدان المجاورة. وكانت الفئات الأكثر تعليما مثل سكان المدن والتجّار، من أكثر اتباع الدعوة الوهابية تشددا رغم عدم تقبلهم لبعض ما نادى به الإخوان من تعاليم، وخاصة ما يتعلق بتعصبهم الذي يعتبر نقطة البداية في كل مواقفهم، ولكنهم، رغم ذلك، كانوا يرون أن الإخوان حركة جديرة بالمساندة خاصة وأنها تمثل قوة دفع جديدة للوهابية القديمة، وكذلك للإسلام الحقيقي، وأيضا لأنها ستحكم قبضة ابن سعود على سكان نجد من البدو بأعدادهم الكبيرة، والذين كانت الحاجة ملحّة كل الإلحاح في ذلك الوقت لكبح جماحهم.

أنا الإخوان:

ولا يمكن لأي شخص عرف ابن سعود عن كثب أن يتهمه بأنه من غلاة الوهابيين. أو أنه كان من أصحاب الهوَس الديني الذي يحاول هو نفسه غرسه في أتباعه من الإخوان. ففي عديد من المناسبات، ومن أجل تحقيق ما يسعى إليه من أهداف، كان يتظاهر باعتناقه لنفس أفكارهم خاصة عند وجوده بين القوات في عشية حملة، أو عندما يريد أحداث أثر معين لدى أعضاء بعض البعثات الإنجليزية أو الأجنبية. وبعد كل شيء. فلقد كان أوليفر كرومويل ينتهج نفس هذه الأساليب.

وليس أدل على أن ابن سعود لم يكن متعصبا حقًا، من تلك الواقعة الطريفة التي حدثت أثناء زيارتي للهفوف. كانت حركة الإخوان في عنفوانها، وعندما كانت القبائل تتجمع، وحتى في وجوده كان ابن سعود يبذل جهدا كبيرًا لنشر التعاليم المعادية للأجانب، فمثلا، كان يصف الإعانة الشهرية، البالغ قدرها خمسة وسبعين ألف روبية، التي تقدمها الحكومة البريطانية، وكنت أحمل قسطًا منها معي، بأنها الجزية التي يدفعها المسيحيون للأئمة القدامى للإسلام مقابل إعفائهم من الجهاد (الخدمة العسكرية). كما كان يحذّرني أيضًا عند حضور مجلسه من التدخين ويصفه بأنه من المحرمّات وخطيئة لا تغتفر، وأن أي شخص يمارس التدخين في نجد إنما هو خارج على القانون ويتعرض لأشد أنواع العقاب. ومع ذلك، وفي كرم عربي حقيقي، ومن أجل راحة ضيوفه،

أرسل لي ابن سعود اللّبق المهذّب - بعد أن ساد الظلام، عن طريق د.عبدالله سعيد الدملوجي، علبتين من أفخر السجاير المصرية، وطلب منّي أن أدخّن على انفراد في غرفتي.

وتمكن ابن سعود من قيادة حركة الإخوان ودفعها إلى الأمام خطوة خطوة بكل حنكة وذكاء، وأبدى عبقرية فذة في تنفيذ مخططاته. وما أن حلّ عام ١٩٢٠ حتى أصبح في إمكانه أن يثير بين البدو ذلك الحماس المدهش للدين الجديد، حتى أصبح أغلبهم يتحرقون شوقا للانضمام إليه. وقد استجاب البدو، بكل طواعية في أغلب الأحيان، لأمره ببناء المستوطنات وأصبح مما يفخر به البدوي أن يصف نفسه بأنه حضري، أي من سكان المدن، وليس جاهلا.

وأخبرني ابن سعود أن هناك اثنين وخمسين بلدة في نجد خرجت جميعا إلى الوجود تلبية لأمره الشهير. وتؤكد المهارة التي تمّ بها تجميع القبائل ودفعها في رفق وأناة للاستقرار أو ممارسة الزراعة دون اعتراض على هذا التغيير، أن ابن سعود لم يكن زعيمًا عاديًا بأي حال. إنه يزهو الآن بأنه أعطى قبائل الرعاة فرصة جديرة بأن يتنازلوا عن أي شيء آخر من أجلها، وجعل منهم قبائل مستقرة، في نفس الوقت الذي اسبغ فيه على هذا النظام درجة من المرونة تسمح لكل قبيلة بأن تظل في البادية طوال العام لرعى جمالها وأغنامها والعمل على تكاثرها.

وكان ابن سعود يتولى بنفسه تحديد الموقع الذي يستقر فيه البدو لإقامة البلدان الإخوانية "الهجر"، وراعى أن تكون قريبة من الرياض، عاصمته، أو بعيدة عنها وفقا لسهولة أو صعوبة التعامل مع القبيلة ومدى تجاوبها معه.

وكانت عجمان من القبائل التي أبت أن تنضم إلى الركب؛ ولا يرجع ذلك أساسا إلى اعترافهم على أن يكونوا من الإخوان، بقدر ما كان يرجع إلى ما يعرفونه من عزم ابن سعود على إخضاعهم وإذلالهم، وبطريقته الخاصة. وكان من المقرر أن يتخذ هذا الإخضاع - وهو عقوبة صارمة حقا لا يدرك مغزاها إلا من يعرف البدو عن كثب - الشكل الآتي: ترحيل العجمان من موطنهم في الإقليم الساحلي للإحساء، إلى داخل نجد، حتى يتم تفتيتهم، وتوزيع الأقسام العشرين التي تتكوّن منها القبيلة على المستوطنات الجديدة للإخوان؛ وعلى هذا النحو يقضى ابن سعود قضاء مبرمًا، وإلى الأبد، على أي قدرة لهم على إثارة القلائل

أو الاضطرابات. فلقد سبق أن غَدَر به العجمان مرتين، مرّة في القتال ضد ابن رشيد عند المجمعة (جراب) في يناير ١٩١٥، ومرة أخرى في شهر نوفمبر من نفس العام عندما هاجموه في الإحساء وكادوا أن يتغلبوا عليه. وقال ابن سعود إنهم من ذلك الوقت نجحوا في مراوغته والإفلات منه مرّة بالإقامة في الكويت لبعض الوقت. والتوجه إلى العراق في أحيان أخرى، إلى أن نزلوا بعد ذلك بالقرب من الزبير، وأوشكوا على التوصّل إلى اتفاق معه.

وأدركت من خلال ما دار بيني وبينه من أحاديث لاحقة. أنه على استعداد لتخفيف العقوبة التي سبق أن ذكرتها. إدراكًا منه، بلا شك، أنها ربما موغلة في قسوتها.

مسألة الحدود مرة أخرى:

شهد عام ١٩٢٠ تدهورا شديدًا في العلاقات بين ابن سعود والشيخ سالم. شيخ الكويت. وكان الأخير يرى أن ابن سعود هو المسئول كلية عن الحصار البحري للكويت الذي فرضته عليها بريطانيا بكل صرامة إلى أن تم توقيع الهدنة مع تركيا. وأحسّ سالم أن ابن سعود كان أكثر منه فطنة وذكاء في التعامل مع الحكومة البريطانية التي تمكن ابن سعود من خداعها. بإرادتها، وأن ما عانته الكويت من متاعب وانهيار التجارة وتداعى المكانة. لا يمكن تفسيره إلا بأن بريطانيا تعتقد أن ابن سعود صديقها. وأنها ابتلعت الطعم عندما قال لها إن الشيخ سالم من الموالين للأتراك. وكان الشيخ سالم يرى أنه ليس من المستبعد أن تكون الخطوة التالية لابن سعود هي مهاجمة الكويت أو على الأقل محاولة إلغاء اتفاقية ١٩١٣ الموقعة بين بريطانيا وتركيا. وكانت هذه المعاهدة تعترف بسيطرته الإدارية على مساحة صغيرة من الأرض تقع حول مدينة الكويت مباشرة، وسيطرة غير مباشرة، ولكن مع حق فرض الضرائب على القبائل، على منطقة أوسع مساحة في الغرب أعلى وادي الباطن في مواجهة جبل سنام، الخ، في الشمال. وكان من المفروض أن تشمل هذه المساحة الأكبر حجمًا كلا من انطاع والجريتين، واللصافة، واللهابة Haba ووبره، الخ.

وأخذ الشيخ سالم يتأهب لمواجهة أسوأ الاحتمالات نظرًا لتخوفه من المطامح المتزايدة لعبدالعزيز آل سعود وتابعه الأمين فيصل الدويش، القائد الفعلي لحركة الإخوان المتعصبة. وقرر سالم أن يشيدّ حصنا في دوحة بلبول، على

الساحل شمال جبل منيفة مباشرة، ليكون علامة مميزة لحدوده في اتجاه أقصى الجنوب. واعترض ابن سعود، زاعمًا أن دوحة بلبول تقع ضمن أراضيه، وردّ على الخطوة التي يزمع سالم إتخاذها بإصدار أوامره للزعيم المطيرى، ابن شقير، بالاستيلاء على جرية العليا، التي يدّعى الشيخ سالم ملكيتها. وشرع ابن شقير في بناء قرية إخوانية في جرية العليا. فما كان من الشيخ سالم إلا أن أرسل الشيخ دعيج بن سلمان بن صباح الفاضل - قائد القوات الكويتية، رافعًا راية الحرب، إلى حَمْض (أو حَمَض)، على بعد خمسة عشر ميلا شرقي جارية العليا من أجل إرهاب بنى مطير.

وبينما دعيج يعسكر في حمض على رأس قوة كبيرة، شن الدويش هجومًا فجائيا ضدّه عند الفجر، حشد له فصيلة قوية من إخوان المطير. وهزم الجيش الكويتى، واستولى الدويش على المعسكر، ووقعت أعداد كبيرة من الجمال في أيدي الإخوان. وكانت الخسائر في الأرواح فادحة بين قوات دعيج، ولم يتمكن هو نفسه ومعه الشيخ عبدالله الجابر الصباح، من الإفلات من الأسر أو الموت إلا بشقّ الأنفس.

وعندما عادت فلول جيش دعيج إلى الكويت، أمر الشيخ سالم، مدركًا ما آل إليه الوضع من خطورة، بناء السور الدفاعي الشهير حول مدينة الكويت على وجه السرعة. وتم البناء خلال شهرين، وشارك فيه جميع الأهالي، في ورديات عمل جماعية.

وفي هذه الأثناء، راح الشيخ سالم يسعى للحصول على مساندة الحكومة البريطانية مدعيًا أنه لم يقدم على الإطلاق على أي خطوة من شأنها أن تستفز ابن سعود فيأمر بما فعله فيصل الدويش في حمض. وأنكر ابن سعود كل ما وُجّه إليه من اتهامات، وأنحى بكل اللائمة على الشيخ سالم، وبعث برأيه هذا إلى الحكومة البريطانية من خلال عد رسائل، وعندما طلب منه تحديد الأراضي التي يدعّى ملكيتها، أكدّ حقه في تملك كل أراضى البلاد وصولاً إلى أسوار مدينة الكويت. وتم إبلاغه بأن حكومة صاحب الجلالة تعترف بأن الأراضي الواقعة ضمن الحدود الداخلية الواردة في الاتفاقية البريطانية التركية لعام ١٩١٣، تتبع الكويت دون منازع.

وفي أول يونيو، أرسل الشيخ سالم وفدًا إلى الرياض ليقدّم تقريرًا عما

حدث في حمض، ويطالب ابن سعود باسترداد جماله وممتلكاته، وتعويض عائلات القتلى. وفي ٢ يوليو، عاد هذا الوفد إلى الكويت يصاحبه السيد ناصر ابن سعود الفرحان، حاملا رسالة مطوّلة من ابن سعود إلى الشيخ سالم يعدد فيها سلسلة طويلة من الأخطاء التي ارتكبها الشيخ سالم ضد ابن سعود وقومه، مؤكدًا أن الشيخ سالم لا يملك أي سلطة على الإطلاق على جرية العليا أو جزء آخر من البلاد التي يدعَى ملكيتها. كما أرسل ابن سعود وثيقة أخرى طلب من الشيخ سالم أن يوقعها، تتضمن تخليه عن جميع الأراضي التي يدّعى ملكيتها شرقي وغربي جريه "قرية".

ولما وجد الشيخ سالم أنه لا سبيل إلى التوصلّ إلى تفاهم مشرّف مع ابن سعود إلا بمساعدة بريطانيا، طلب المشورة على الفور من حكومة صاحب الجلالة فيما يتعلق بكيفية الردّ على ابن سعود، مؤكدًا أن الأراضي محلّ النزاع هي من أملاكه بلا منازع وفقا لأحكام اتفاقية ١٩١٣. وردّا عليه، أحيط علمًا بعدم التوقيع على الوثيقة التي بعث بها ابن سعود إليه، وأن يطلب رسميًا قيام الحكومة البريطانية بالتحكيم الودّي. وفي نفس الوقت تم تذكيره بأنه لم يشارك بدور فعال في التوصل إلى إبرام الاتفاقية التركية - البريطانية، وان هذه الاتفاقية، على أي الأحوال، تم تجاوزها وفقا للبند الرابع من الاتفاقية المبرمة بين حكومة صاحب الجلالة وابن سعود في ٢٦ ديسمبر ١٩١٩ . وأحسّ الشيخ سالم بمرارة شديدة.

وبعد العديد من المراسلات التي أعقبت ذلك بين الكويت وابن سعود وممثل الحكومة البريطانية المدني بالعراق، وافقت الحكومة البريطانية على تعيين مُحَكّم، بشرط أن يقدم كل من ابن سعود والشيخ سالم تعهدًا كتابيًا يلتزمان فيها سلفًا بالامتثال لقرار المحكم، والعمل بمقتضاه طوال حياته، هو وقومه جميعا، كما اشترط أيضًا أن يلتزم الجانبان بالهدوء والامتناع عن أي صدام. وبعد تبادل بعض المراسلات، وافق الشيخ سالم على هذه الشروط، وأعاد طرح مطالبه. وفعل ابن سعود نفس الشيء في رسالته المؤرخة في ٥ سبتمبر (وصلت في ١٧ سبتمبر) التي أعلن فيها أن الشيخ سالم لا يملك أي سلطة إلا داخل السور الجديد الذي شيّد حول مدينة الكويت.

وفي هذه الأثناء، تمكن الشيخ سالم من الحصول، بوسائله الخاصة، على رسالة موجهة من ابن سعود إلى ابن شقير في جارية العليا، يأمره فيها ببناء

حصن. وأثارت هذه الرسالة غضبا شديدًا في الكويت نظرًا لكتابتها بعد موافقة ابن سعود على شروط التحكيم.

معركة الجهرة:

وبلغت الشيخ سالم أيضًا معلومات وثيقة تفيد أن فيصل الدويش يزحف في اتجاه الشمال نحو الصبيحية، جنوب غرب تلال برقان، تنفيذًا، بالطبع، لأوامر من ابن سعود.. وخوفًا من أن يكون ذلك مقدمة لهجوم خاطف على الجهرة، وهى موقع يتميز بأهميته الاستراتيجية الكبيرة، توجه الشيخ سالم إليها رافعًا راية الحرب، ومعه كل ما توفر من قوات، وبدا وضع الموقع في حالة دفاع.

وفي ٩ من سبتمبر وصل فيصل الدويش إلى الصبيحية، فأمر سالم على الفور بإعداد السور الجديد للكويت لمواجهة كافة الاحتمالات وتزويده بالرجال، وامتدت التعبئة لتشمل تجنيد جميع القادرين جسمانيًا من رجال المدينة.

وكان السير بيرسي كوكس قد عين في ذلك الوقت في منصب المندوب السامي بالعراق. وفي طريقه إلى الخليج، التقى بابن سعود في عقير وناقش معه، في محادثات حضرتها بنفسي، عدة قضايا على درجة عالية من الأهمية، وأنعم عليه بنوط، ثم توجه إلى بغداد ووصل إليها في ١٠ من أكتوبر.

وفي صباح ذلك اليوم، هاجم الإخوان الجهرة تحت قيادة فيصل الدويش، وكانت قوات الشيخ سالم تسيطر على الجانب الجنوبي الغربي من القرية بينما صعد ابن طواله مع خيالة شمر في الجهة اليمنى واتخذ قوة الفرسان بقيادة دعيج الفاضل موقعها على الجناح الأيسر. وشن الإخوان هجومهم على الطرف الغربي للجهرة، وبعد اجتياح شمر، غيروا مسارهم من الشمال الغربي. وما أن حلت الساعة التاسعة حتى أصبحت القرية بأكملها في قبضتهم. وحوصر الشيخ سالم مع الشيوخ الآخرين وحوالي ستمائة من رجاله في الحصن في الجنوب الغربي من القرية، وتشتتت بقية قواته.

وبعد الظهر، بعث فيصل الدويش برسالة إلى الشيخ سالم يعرض عليه الأمان إذا ما أخلى الحصن على الفور وتخلى عن مطالبته بالجمال، التي استولى عليها الإخوان، ورفض الشيخ سالم. وأثناء الليل، شن الإخوان ثلاث هجمات مكثفة على الحصن، ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليه.

وكان التوتر الشديد واضحًا في مدينة الكويت، وانتشرت كافة أنواع الشائعات، وخيمّ الخوف توقعا لهجوم فوري على المدينة، ولذلك احتشد كل القادرين من الرجال صباح ١١ أكتوبر للدفاع عن السور. ونظم الشيخ أحمد الجابر الصباح، الذي كان يتولى الأمر في المدينة في غيبة الشيخ، قوة للإنقاذ ودفع بها إلى الجهرة؛ كما أرسل حوالي ستمائة رجل عن طريق البحر يحملهم اللنش التجاري مشرف وعدة قوارب شراعية. بينما خرج ابن طوالة ومجموعة الرجال الراكبين عن طريق البرّ.

وقبل وصول هذه التعزيزات. أرسل فيصل الدويش أحد العلماء. ويدعى ابن سليمان، إلى الشيخ سالم يحمل اقتراحات محددة للكف عن القتال، ويطالب بأن يمنع الشيخ سالم التدخين وشرب الخمر والميسر والدعارة في الكويت. وأجاب الشيخ سالم بأنه هو أيضًا لا يقرّ هذه الرذائل. وأنه على استعداد تام لمنع رعاياه من ممارستها عَلَنًا. ولكن لا يستطيع أن يجيب فيما يتعلق بما يمارسه الناس داخل منازلهم. ولا أن يكون مسئولاً عن تصرفات الأجانب الذين لا يدخلون تحت سلطته.

ثم أثار مسألة الجمال وغيرها من الأسلاب. وقال إنه لو كان الإخوان على استعداد للانسحاب تاركين وراءهم كل ما أخذوه من أشياء، فسوف لا يتعرض لهم. وأجاب ابن سليمان بأن منِ حق الإخوان أن يحتفظوا بأسلاب المعركة. وأنه لا يمكن أن يوافق على التخلي عن أي شيء قبل أن يرجع إلى فيصل الدويش ليستمع إلى رأيه بعد أن يعرض عليه الأمر. ثم قفل راجعا إلى خيمة الدويش في الطرف الأقصى غربًا.

وبعد ذلك بفترة وجيزة، انسحب الإخوان دون قتال، ولكنهم أخذوا كل شيء معهم. وساروا لمدّة ثلاث ساعات في ذلك اليوم، ثم تحركوا في اتجاه الصبيحية في ١٢ من أكتوبر.

كانت خسائر الكويت في الأرواح ضئيلة نسبيًا، وتبلغ في مجموعها حوالي المائتي قتيل، أما الإخوان، الذين شنوا هجومهم في أرض مكشوفة وفي تهوّر شديد غير مبالين بأرواحهم، فكانت خسائرهم فادحة. وقد أخبرني الميجر ج.س. مور، الوكيل السياسي بالكويت في ذلك الوقت، أنهم خلفوا وراءهم ثمانمائة قتيل خارج الجهرة. ويقال أن عدد جرحاهم كان أكثر من هذا الرقم،

وأن حوالي أربعمائة منهم لقوا حتفهم قبل الوصول إلى الصبيحية، ثم لحق بهم مائة آخرون.

هكذا انتهت معركة الجهرة التي كانت نصرًا كبيرا للكويت، تحقق في عهد الشيخ سالم، في صراعها الطويل الممتد مع ابن سعود.

تدخل الحكومة البريطانية:

من الصبيحية، بعث فيصل الدويش برسالة إلى الشيخ سالم في ١٤ من أكتوبر يطلب فيها إيفاد هلال المطيري، وهو من أقرب أصدقاء الشيخ وأكبر تجار الكويت، للتفاوض معه من أجل تسوية النزاع. ورفض الشيخ سالم وأجاب بأنه إذا كان الدويش يريد أن يناقش أي شيء معه فعليه أن يرسل مندوبين من جانبه. وبناء على ذلك، وصل إلى الكويت وفد يمثل الدويش، تحت رياسة جفران الفقم، في ١٨ من أكتوبر ولكن كان من الواضح منذ البداية أنه من المحال الموافقة على شروطهم والتي تركزت باختصار، في المطالبة بانضمام جميع سكان مدينة الكويت إلى جماعة الإخوان، وامتنع الشيخ سالم عن مقابلة المندوبين لمدة أسبوع، في نفس الوقت الذي كان يسعى فيه للحصول على مساندة بريطانيا، ثم استقبل الوفد في صباح ١٤ من أكتوبر، حيث قدم لهم الميجر مور – الذي حضر بداية اللقاء – شفاهة وكتابة، بيانا سبق توزيعه جوا بواسطة الطائرات.

وجاء في هذا البيان أن الحكومة البريطانية لم تَرَ أن هناك ما يدعو لأن يتجاوز دورها استخدام الجهود الودّية من اجل السلام، طالما كان القتال قاصرًا على الصحراء والجهرة. وأما عندما بدأت الأخطار تهدد المدينة، بما في ذلك من يقيم بها من رعايا بريطانيين، فهي لا يسعها أن تقف موقف المتفرج، وأنه استنادًا إلى ما ورد في البيانات المتعددة التي أصدرها ابن سعود مؤخرًا، فالحكومة البريطانية على يقين من أن ما يشنه الإخوان من حرب يتعارض كل التعارض مع رغباته وأوامره، وأنه سوف يعبر عن ذلك بلا مواربة، ودون شك، فور أن يسمع بما جرى من محاولات لاحتلال الجهرة. وأما إذا قام الإخوان بأي محاولة لمهاجمة الكويت فسوف يضعون أنفسهم في موقف المتهم بمعاداة السلطات البريطانية، بالإضافة إلى معاداة شيخ الكويت، وسوف لا تجد الحكومة البريطانية أنه ليس أمامها من بديل إلا معارضة هذه الأعمال العدائية بكل الوسائل الممكنة. وأجاب جفران الفقم بأن الإخوان عندما قاموا بعملياتهم ضد

الشيخ سالم، كانوا يعملون تنفيذًا لأوامر مباشرة من ابن سعود. وقال الماجور مور: إنه لا يستطيع أن يصدق ذلك، لأن ابن سعود صديق لبريطانيا وسبق أن قدم لها تأكيداته منذ وقت قريب بعدم التحرش بالكويت، وأضاف إنه يعرف أن ابن سعود رجل شريف ويلتزم بما وعد به.

ثم كرر الماجور مور التحذير بأننا سوف نتصدى لهم إذا هاجموا الكويت، وغادروا الاجتماع. وبعد أن رفض طلب الشيخ سالم برد الأسلاب قام بطرد المندوبين، فغادروا الكويت في نفس اليوم وعادوا إلى الصبيحية بما فيهم ممثل الشيخ سالم. ورجع هذا الرجل إلى الكويت يوم ٢ من نفس الشهر يحمل رسالة من فيصل الدويش جاء فيها أنه صدق الوعود التي قدمها الشيخ سالم لابن سليمان في الجهرة، وأنه - بناء على ذلك - كف عن القتال بل وحاول أيضًا وقف قوات ابن سعود. أما الآن، فهو يرى أن الشيخ سالم خدعه ولم يلتزم بما وعد به. وبالتالي فقد انتهت الهدنة. وقال الرجل الذي أحضر الرسالة أنه عندما غادر الصبيحية كان الإخوان يملأون قِرَب الماء ويضعونها على ظهور الدواب عازمين على الخروج في الصباح في اتجاه اللصافة ثم التوقف بها انتظارًا لوصول الذخيرة والإمدادات. وأثبتت الأحداث صحة هذه المعلومات، وعلى الأقل فيما يتعلق بتحرك الإخوان في اتجاه اللصافة. ومن الواضح أن ظهور الطائرات البريطانية وسفن الأسطول البريطاني في خليج الكويت كان له أثره على قرار الدويش بالانسحاب.

وفي ٣٠ من أكتوبر تم إبلاغ الشيخ سالم أن السير بيرس كوكس يرى ضرورة منع أي مزيد من إراقة الدماء أثناء الفترة التي تنقضي قبل التوصل إلى تسوية مرضية للقضايا محل النزاع بين الشيخ سالم وابن سعود، وبناء على ذلك، طُلب منه أيضًا عدم احتلال أي من الجانبين لآبار الصبيحية، مع التهديد بتدخل الطائرات البريطانية ضد أي محاولة للخروج على هذا الالتزام. وتم إرسال نفس البيان إلى ابن سعود عن طريق البحرين.

وعلى بعد حوالي الثلاثين ميلاً جنوب شرق وشرق البصرة، تقع مدينة المحمرة الفارسية، وفي شهر يناير ١٩٢١ عرض خزعل خان - شيخ هذه المدينة - أن يرسل أكبر أبنائه (كاسب Ch'asib) إلى نجد بصحبة الشيخ أحمد ابن شقيق الشيخ سالم، لمحاولة التوصل إلى هدنة بين الطرفين. ووافق الشيخ سالم على هذا

العرض، فغادرت البعثة متوجهة إلى البحرين في طريقها إلى نجد في شهر فبراير، حتى وصلت إلى مخيم ابن سعود في الخفس Khafs Al إلى الشمال من الرياض، في ٢ مارس، وبعد يومين بلغ البعثة نبأ وفاة الشيخ سالم، الذي توفي في ٢٧ من فبراير بعد أن داهمه المرض فجأة في الجهرة يوم، ٢٣ وعلى الفور أعلن ابن سعود أنه لم يعد هناك أي نزاع يتطلب التسوية أو أي حاجة لحدود بين أراضيه والكويت.

حاكم جديد للكويت:

كان من عادة شيوخ الكويت دائمًا أن يحكموا بأنفسهم وبشكل مباشر، مع تجنب أي مساس بسلطتهم. ولكنهم كانوا يعتزون أيضًا أن أبوابهم مفتوحة أمام جميع رعاياهم، حتى أشدهم فقرًا وتواضعًا. كما كان من عادتهم عقد جلسات للاستماع تستمر لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات كل صباح، في ساحة السوق، وأن يصدروا أحكامًا نهائية في مختلف القضايا، كبيرها وصغيرها.

وعندما توفي الشيخ سالم، أخذ سكان المدينة الذين عانوا الكثير في حروب لا ضرورة لها كانوا يساقون إليها دون إرادتهم، أن يكون لهم رأيهم ولو إلى حدٍ ما، في شئون الدولة، وأبلغوا أعضاء أسرة آل صباح أنهم لن يقبلوا حاكمًا عليهم إلا من يوافق على وجود مجلس استشاري.

ووضع الاختيار على أحمد الجابر الصباح، أكبر أبناء المرحوم الشيخ جابر بن مبارك الصباح، وصاحب الشعبية الكبيرة والمكانة الأثيرة أيضًا لدى عبدالعزيز آل سعود، تولى أحمد الجابر الإمارة في ٢٩ من مارس عند عودته من نجد. وتم الإتفاق بينه وبين أهل الكويت على أن يكون الحكم في جميع القضايا الجنائية وفقًا للشريعة، وهي القانون الديني للإسلام، على أن تقدم العرائض من الجانبين عند نظر الدعوى، وأن يعرض الحكم الذي يصدره القاضي، كتابيًا، على العلماء الذين يكون لهم القرار الأخير، أما إذا اتفق طرفا النزاع على عرض القضية على طرف ثالث للتحكيم، فيؤخذ بالحكم الذي يصدره المحكم. ويجب على الحاكم أن يحصل على الشورى في كافة المسائل ذات الأهمية بالنسبة للمدينة، داخلية كانت أم خارجية، كما يمكن لأي شخص أن يطرح على الحاكم ما لديه من اقتراحات لمصلحة المدينة، وعلى الحاكم بدوره أن يعرض هذه الاقتراحات على مستشاريه للأخذ بها إذا لاقت القبول.

وجرى انتخاب مجلس برئاسة أحد كبار التجار، وهو حمد بن عبدالله الصقر، يتكون من أثني عشر عضوًا، ستة من النصف الشرقي للمدينة، وستة من النصف الغربي. ولكن هذا المجلس كان نادرًا ما ينعقد، فظل الشيخ أحمد ينتهج من الناحية العملية نفس النظام القديم الذي لازال قومه يحبونه، ويحكم بنفس الأسلوب المتوارث تقريبًا.

وكان الشيخ أحمد رجلاً قويًا بهي الطلعة بشوشًا على غرار والده، وقد جعلت منه بنيته القوية وقامته الممتلئة الأقرب إلى القصر منها للطول، وبشاشته، وأسلوبه المرح الأخاذ وابتسامته المشرقة على وجه الخصوص، جعلت منه كل هذه السمات الشخص المناسب لشغل مركزه فيما يتعلق بالجانب الشكلي لواجباته. وفي بعض الأحيان كانت الانتقادات توجه إليه وتصفه بأنه لا يملك قدرات حقيقية، وإنما هو حاكم يتميز بالعناد أكثر مما يتميز بالقوة. وأما بالنسبة لي، وقد عرفته عن كثب لمدة إحدى وعشرين عامًا، وتعاملتُ معه كثيرًا في مواقف كانت السحب السوداء أثناءها تخيم على الأفق السياسي، فلابد أن أرفض بشدة مثل هذه الاتهامات: لقد وجدت فيه رجلاً يتمتع بشخصية حازمة، ويستطيع في كثير من الأحيان أن يتخذ القرار السليم، وعلى الفور. وكان مطمحه في الحياة هو أن يقتفي أثر جده الشهير، ثم أثر الملك عبدالعزيز بن سعود فيما بعد.

ومن المؤكد أنه كان رجلاً سوى التفكير وجديرًا بأن يعتمد عليه وأن تثق بأنه سيضع الشيء المناسب في المكان المناسب. ومن الناحية الأخرى، وكأي عربي عريق المنبت والنسب، كان يعتز بنفسه إلى أبعد الحدود، تأسره المعاملة الطيبة واللينة، ولكنه لا يطيق صبرًا على أي إهانة ولا يمكن أن ينسى ما أصابه من خدش، بل وهو عند من يسيئون فهمه، رجل يصعب التعامل معه.

كان محبوبًا ويتمتع بشعبية كبيرة بين أهل الكويت، رغم وصفه بالبخل، وخاصة من جانب العناصر البدوية، أثناء الصراع الطويل من أجل إرساء مالية البلاد على أسس سليمة، والذي بلغ ذروته في الفترة من ١٩٢٣ حتى ١٩٣٧ عندما فرض ابن سعود الحظر على أي نشاط تجارى بين نجد والكويت. ولم يكن هذا الوصف حقيقيًا بأي حال.

وبصفته مسلمًا شديد التمسك بعقيدته، بذل جهدًا كبيرًا من أجل منع الخمور، وأيضًا من أجل القضاء على البغاء، وكان هو نفسه من غير المدخنين.

ومما لاشك فيه أنه كان يسعى لإقامة علاقات طيبة مع البريطانيين الذين قدموا له عند توليه نفس التأكيدات التي سبق أن قدموها لأسلافه، ومن المعروف عنه ولعه بنمط الحياة الإنجليزي، ففي قصره في دسمان، كانت هناك مجموعة من الغرف المؤثثة على غرار المنزل الإنجليزي. كما كان مولعًا بالأسلحة النارية من غدارات وبنادق، وبأجهزة العرض السينمائي وآلات التصوير والسيارات وغيرها من المخترعات الحديثة. وكثيرًا ما كان يقود سيارته بنفسه. وكان من الرماة البارعين بالغدارة أو بالبندقية القصيرة. ويمكننا إدراك ما كان يتسم به من تفهم للرياضة بالروح الأوروبية من حظره استخدام السيارات في صيد الغزلان.

وقد ولد الشيخ أحمد في عام ١٨٨٥ وتولى الإمارة وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وظل يشغلها حتى وفاته عام ١٩٥٠م.

حب سعود العرافة لنورا:

كانت السيدة نورا امرأة غير عادية، تكاد تشبه تمامًا في شخصيتها وطبيعتها وكرمها، وجاذبيتها الشخصية قبل أي شيء آخر، أخاها العظيم، ابن سعود، الذي كان يولي اهتمامًا كبيرًا لأفكارها وآرائها السياسية. وعندما كانت قضايا الدولة تلح عليه وتؤرق مضجعه كان يختلي بها لساعات طويلة ليستمد منها الإلهام والمشورة.

أما زوجها فهو سعود العرافة آل سعود، حفيد سعودٍ بن فيصل آل سعود، الأمير الثاني عشر لنجد، ويقال إن هذا الزواج جاء تتويجا لقصة حب من جانب سعود آل عرافة، ولكنه كان خطوة لها أهميتها السياسية الكبرى بالنسبة لابن سعود. ألم يكن فرع عرافة من آل سعود مصدر خطر دائم؟ وألم يكونوا هم أيضًا من أبناء البيت الملكي السعودي؟ وأخيرًا وليس أخرًا، ألم يكونوا على علاقة بقبيلة عجمان التي كانت على الدوام شوكة في حلق الحاكم؟ ولما كانت والدته وضحة تنتمي لبيت من بيوت شيوخ عجمان، وأبوها هو الشيخ حزم الحثلين، كان سعود العرافة يحظى بمكانة خاصة لدى قبيلتي عجمان والمرة الكبيرتين، وكانوا يسمونه شيخهم ويبدون استعدادًا للسير وراءه عن بكرة أبيهم إذا تفجرت أي نزاعات داخل صفوف الأسرة المالكة، وكانوا حريصين طوال حياة ابن

سعود، على عدم التضخيم كثيرًا من صورة سعود العرافة لأن الملك يعرف كل شيء ولا تخفي عليه خافية. ومع ذلك كانوا يسمونه دائمًا سعود الكبير، ومازلوا يطلقون عليه نفس اللقب حتى اليوم.

وكان حب سعود آل عرافة لنورا حبًا عميقًا، لا سبيل إلى مقاومته، وكثيرًا ما كان يقول لأصدقائه من عجمان: "نورا؟ أنا لا أطيق العيش طويلاً بعيدًا عنها، إنها نور عيني والنسمة التي أتنفسها".

وفي صيف ١٩٢١ كان ابن سعود يتأهب لوضع جميع أراضي وسط شبه الجزيرة العربية تحت سيطرته بالاستيلاء على حائل والقضاء على قوات آل رشيد إلى الأبد. وقد روى لي زنيفر Zunaifir بن حويلة، وهو من عجمان، قصة ترتبط بهذا الموضوع، بعد عدة سنوات.

يقول زنيفر: "عندما خرج ابن سعود للإغارة على ابن الرشيد في حائل، أمر قومه بالتجمع على بعد بضعة أميال من الرياض استعدادًا لخوض الحرب الجديدة، وكان سعود آل عرافة من بين من خرجوا معه. وودع سعود نورا وانصرف للمشاركة فيما ينتظر القوم من عمل جاد.

وشاءت إرادة الله ألا تتمكن القوة من التحرك، وتأخرت بضعة أسابيع. وقبل بدء الزحف مباشرة، تسلل سعود آل عرافة الذي برح به الشوق ليلقى نظرة أخيرة على السيدة نورا، وعاد خفية إلى الرياض فقطع ثلاثين ميلاً دون أن يتعرف عليه أحد. ووصل إلى المدينة قبيل غروب الشمس. وكان لابد له أن يتنكر حتى لا يكتشف حراس بوابات المدينة أمره، ولذلك ترك جواده بين أشجار النخيل خارج المدينة ثم جمع بعض فروع الأشجار وحملها فوق رأسه ودخل المدينة بكل جسارة، وكأنه حطاب يسعى وراء رزقه. ومر أمام الحراس في أمان بعد أن وضع لثامًا على وجهه، ولكن تنامي إلى سمعه وهو في الطريق صوت رجل مسن يقول لآخر: يا إلهي، إن هذا الرجل يمشي كما يمشي الإمام (أي سعود آل عرافة)..

وحث سعود خطاه متجهًا صوب قصر نورا، فبلغه والظلام قد بدأ يرخى سدوله، فاستقبل بالترحاب، وكانت نورا هي أكثر من سعد لهذا اللقاء، ولكنها تماسكت وسيطرت على مشاعرها، وقبل أن تسأل زوجها عما أتى به، أمرت بإغلاق جميع الأبواب والنوافذ حتى لا يعرف أحد بحضور زوجها. وبعد أن

طلبت من جواريها التكتم على هذه الزيارة السرية، سألت سعود عما دعاه للعودة.

فقال: "يا نورا لا أستطيع الذهاب قبل أن أقضي ليلة أخيرة معك". وناما معًا تلك الليلة، وعندما بزغ الفجر، استعد سعود آل عرافة للرحيل، ولكن نورا نادت اثنين من خدمها المخلصين، وطلبت منهما قبل أن تسمح له بالانصراف أن يكونا شاهدين على أن زوجها عاد ونام معها. ثم طلبت من سعود آل عرافة أن يوقع وأن يمهر بخاتمه ورقة تفيد أنه في ذلك التاريخ المحدد الوارد بها، عاد من الجيش، دون أن يتعرف عليه أحد. وأمضى ليلة بكاملها معها.

وسوف يثبت ذلك يا سعود، لأخي عبدالعزيز وللعالم كله، في حالة حملي، إنك أبو طفلي وأنني لست بغيا، ورجع سعود آل عرافة وانضم لقوات ابن سعود، ولكنه وقع في الأسر في شهر أغسطس، وتمكن ابن سعود من ضم إمارة جبل شمر. وأرسل من بقى على قيد الحياة من أسرة آل رشيد أسرى إلى الرياض.

الفصل الحادي عشر
رسم الحدود ١٩٢١-١٩٢٣

عودتي إلى العراق - قصف مسجد الإمام علي - معاهدة المحمرة - أدميرال القطيف الأسود - مؤتمر العقير - ردود الفعل في الكويت.

عودتى إلى العراق:

بعد انتهاء فترة عملي في البحرين، أعدت إلى العراق لأتولى منصب المسئول السياسي في لواء الحلة. وكانت معي في هذه المرة زوجتي (فيوليت بنيلوب لوكاس - كالكرافت) التي عقدت قراني عليها في بومباي في ديسمبر ١٩٢٠م. وصلنا إلى البصرة في أول يناير، ١٩٢١ وبعد أن مكثنا عشرة أيام مع أسرة فيلبى في بغداد، بدأت ممارسة مهام وظيفتي في الحلة. وكانت المهمتان الأساسيتان اللتين تصديت لهما في ذلك الوقت هما إعادة تنظيم الإدارة المحلية التي شاعت فيها الفوضى والتسيب نتيجة للتمرد الذي وقع ضد البريطانيين في عام، ١٩٢٠ ومحاولة لأم الجراح وتبديد مشاعر الكراهية التي تولدت بين البريطانيين والعرب بعد القسوة الشديدة التي واجه بها الجيش البريطاني القبائل المقيمة في الأراضي المجاورة للحلة.

ومنذ البداية أخذت أبحث عن موظفين أكفاء من العرب لمساعدتي في شغل المناصب الإدارية المختلفة. وكان من بين من توصلت إليهم عبدالله بن أحمد باشا الصانع، الذي كان والده، أحمد باشا، وهو نجدي النشأة، أول متصرف للبصرة يعين بعد الاحتلال البريطاني في أواخر عام ١٩١٥م. وقد بعث لي أحمد باشا، الذي ظل على صداقته وولايته لبريطانيا إلى أن توفي، برسالة يزكى فيها ابنه ويقول: إنه يتركه أمانة بين يديّ لأتصرف معه كيفما أشاء.

وتم تعيين عبدالله الصانع قائمقامًا للحلة، وأثبت منذ البداية قدرته الممتازة، وحظيت الطريقة التي تصدى بها لعدد من النزاعات القبلية المعقدة والخطيرة بكل التقدير والإعجاب من جانب المندوب السامي والحكومة المركزية، وكنت أدفع به دائمًا ليحصل على ما هو جدير به.

قصف مسجد الإمام علي:

توجهت ذات يوم إلى بغداد لمقابلة المندوب السامي، السير بيرسي كوكس، لمناقشة بعض المسائل المتعلقة بعملي، وفوجئت به يسألني عما إذا كنت أعرف السيد كاظم اليزدي الذي كنت كثيرًا ما أسعى لاستشارته أثناء عملي في سوق الشيوخ. وأجبت بأنه لم يحدث أن التقيت به على الإطلاق، ولكن كانت هناك مراسلات عديدة بيننا استمرت لفترة طويلة، فقال المندوب السامي: "سوف تلتقى به"، وناولني رسالة شخصية موجهة منه إلى المجتهد الكهل، وأمر بأن أوصلها على وجه السرعة إلى النجف الأشرف، وأن أسلمها للسيد كاظم يدًا بيد.

وشرح لي ما وراء هذا التصرف الذي أقدم عليه فقال: إن حادثًا بالغ الخطورة وقع عندما خرج أحد الطيارين التابعين لسلاح الطيران الملكي في مهمة تأديبية على نطاق ضيق عند فرع مشخب، الذي يخرج من الفرات جنوب قرية أبو شقير، فألقي، عن غير عمد، قنبلة على الكوفة، المطلة على النهر على بعد اثنى عشر ميلا من النجف، فأصابت الجدار الخارجي لمسجد الإمام على وأحدثت به فجوة كبيرة، وقد وقع هذا الحادث نتيجة لخطأ في التسديد، ولم يكن مقصودًا بأى حال، ولكنه أثار بالفعل حالة من التمرد والعصيان بين الشيعة في ولاية أود Oude الهندية، وربما أدى إلى إثارة الكتلة الأساسية من الشيعة ضدنا. وانتشرت الاضطرابات في أماكن متعددة وكانت فارس على وجه الخصوص على وشك الانفجار.

وشرحت رسالة السير بيرسي كوكس إلى السيد كاظم كيف ألقيت القنبلة دون أي تعمد، وأن الضابط المسئول لقى جزاءه المناسب. وأن السير بيرسي يقدم اعتذاره، باسمه وباسم حكومة صاحب الجلالة، لهذا الحادث المؤسف ...الخ. وأخذت الرسالة وتوجهت بها إلى النجف على الفور، وقمت بزيارة المتصرف، حامد خان، وطلبت منه أن يرافقني لمقابلة السيد كاظم اليزدي على وجه السرعة. ولم يُضيع وقتًا، وخلال نصف الساعة كنا في غرفة استقبال المجتهد الكبير الذي لم يظهر بعد. كانت الغرفة أوسع قليلاً من الزنزانة، وليس بها أية مقاعد أو حشيات، وإنما مجرد قطعة من حصير خشن تغطى الأرض. وكان لهذا المسكن الشبيه بصوامع النساك، والذي يقيم به الزعيم الديني لنصف العالم الإسلامي، أبلغ الأثر في نفسي.

جلسنا أنا وحامد خان نتبادل الحديث حوالي العشر دقائق مع سكرتير شاب قبل أن ينضم إلينا الرجل الكبير، كان ضئيل الجسم، في حوالي السبعين من عمره، ويرتدى عباءة فضفاضة داكنة اللون تشوبها الزرقة. وكانت لحيته كثة طويلة مخضبة بالحناء، وحيّانا نحن الاثنين بكل ود وترحاب، وعيناه تشعان حيوية ومرحًا، ودعانا للجلوس. وبعد تقديم الشاي (على الطريقة الفارسية)، استأذنت لأتكلم وقلت إنني أحضرت معي رسالة من صديقه المندوب السامي البريطاني في العراق، وأنني مُكلف بتسليمها له مشفوعة بكل الاحترام والتقدير، وأخذ السيد كاظم الرسالة وضعها على الأرض دون أن يفضها. وسألني: "ولكن من أنت يا مَنْ تجيد اللغة العربية على هذا النحو؟".

فأجبت: "سيدنا. أنا تلميذك الوفي في سوق الشيوخ الذي يطلق عليه الأهالي اسم دكسان الإنجليزي الذي ساعدته قداستكم أكثر من مرة في مواجهة القضايا القبلية الشاقة منذ عدة سنوات".

فابتسم الرجل ابتسامة مشرقة وهو يقول: "يا بنى، يا بنى إن هذا ليسعدني". ثم انطلق يتحدث باللغة الفارسية بكل طلاقة، واستمر على ذلك حوالي ثلاث دقائق، وأنا لا أفهم كلمة واحدة مما يقول. وعندما انتهى من كلامه تجاسرت وقلت له: "يا سليل النبي، سامحني، ولكنني لا أعرف الفارسية، هل تسمح بإعادة ما قلت باللغة العربية؟"، وضحك الرجل طويلاً من كل قلبه، وفي عينيه ومضة مرحة، وكرر ما سبق أن قاله في لغة عربية فصحى رفيعة مثل لغة القرآن، وعندما انتهى قلت له وأنا أشعر بشيء من الارتباك: "معذرة يا سيدنا، ولكنني لازلت لا أفهم شيئًا، هل تتكرم بالحديث باللغة الدارجة مع تلميذك وصفيك؟"، ومرة أخرى انطلق الرجل الكهل يضحك ضحكة طويلة مدوية، وأجاب: "سأبذل كل جهدي يا بني، ولكن يجب عليك أن تتعلم أجمل لغتين في العالم، الفارسية والعربية الفصحى"، وبكل مودة وبشاشة أعاد ما سبق أن قاله، مستخدمًا اللغة الدارجة الشائعة في سوق الشيوخ ونواحي بحيرة الحمّار، بل والأكثر من ذلك أنه تكلم بنفس الألفاظ والتعبيرات التي تستخدمها المراتب الدنيا من نساء القبائل المرتبطة بالبحر، وكان حديثه واضحًا ومفهومًا هذه المرة، واكتشفت بعد فترة أنه كان يتصرف على هذا النحو كنوع من الاختبار لي، وعلى أي الأحوال فقد انتهى الأمر باطمئنانه، فطلب منى أن أتصرف على سجيتي، وتملكني إحساس جارف بالزهو، وشعرت بالأمان منذ هذه اللحظة.

ثم تناول السيد كاظم رسالة السير بيرسي وفضها وقرأها، وكنت أراقب التعبيرات التي ترتسم على وجهه وهو يتأمل في عمق ولفترة طويلة، وأخيرًا التفت إليّ وقال وعيناه تشعان ودًا: "لم يحدث على الإطلاق أن ألقيت قنبلة على مسجد الإمام علي بالكوفة، من قال ذلك؟ إنها فرية يقصد بها الإساءة إلى الإنجليز وتشويه صورتهم". وبكل تواضع أكدت له أن الواقعة صحيحة لسوء الحظ، وأن السير بيرسي كوكس ما كان ليكتب ما كتب ما لم يكن على يقين بأنها صحيحة.

فقال: لا، لا، إنها فرية خبيثة، هذا الشيء لم يحدث على الإطلاق، وسوف أرد على السير بيرسي كوكس مؤكدًا ذلك".

ومرة أخرى تجاسرتُ وقلت له: "إذًا لماذا لا تصدر أيضًا فتوى تعلن فيها أن القصة كلها مفتعلة من بدايتها إلى نهايتها، وأن على المسلمين ألا يخشوا أي هجوم على دينهم؟".

وضحك من جديد، وأصدر توجيهاته لسكرتيره لصياغة الفتوى وكتابتها، ثم التفت إليّ وقال إن السير بيرسي كوكس رجل عظيم جدًا يفهم كيف يتعامل مع المواقف الصعبة.

قل له إنني أشكره لأنه تصرف وفقًا لما ورد في القرآن عندما يقول الله لعباده: ﴿أدخلوا البيوت من أبوابها﴾، ولقد فهم السير بيرسي كوكس، في حالتنا هذه، وعرف حقًا من هو باب البيت. ولذلك أكرر أنه لم يحدث إطلاقًا أن ألقيت قنبلة على الكوفة، سواء عمدًا أو عن غير عمد.

وانصرفت مزودًا بالرسالة التي رد بها على السير بيرسي كوكس والفتوى. وسارعت بالعودة إلى بغداد، وأعجب السير بيرسي كوكس بالفتوى أشد الإعجاب، وأمر بطباعة عدة مئات من النسخ منها، وتوزيعها على أوسع نطاق، وأرسل جزءًا منها إلى لوكناو وغيرها من المدن الهندية، وإلى طهران، والمدن الرئيسية بالعراق. وكان وجود اسم السيد كاظم اليزدي وخاتمه المعروف في ذيل الفتوى كفيلاً بإنهاء كل الاضطرابات والقلاقل.

وتظل الحقيقة هي أن القنبلة ألقيت بالفعل، وأنها دمرت الركن الشمالي الغربي من الجدار الخارجي لمسجد الإمام علي بالكوفة. ولكن هكذا كانت الحكمة التي واجه بها السير بيرسي كوكس الموقف، وهكذا كانت العظمة التي أبداها السيد كاظم اليزدي صديق بريطانيا.

معاهدة المحمرة:

في ربيع ١٩٢٢ شنت قبائل نجد سلسلة من الغارات داخل الأراضي العراقية. كما شهدت نفس الفترة عددًا مماثلاً من الغارات المضادة التي شنتها قبائل شمر التي أبت الخضوع لابن سعود ولجأت إلى لواء الحلة، وأصبح الوضع يتطلب التوصل إلى نوع من التسوية المؤقتة. وكانت الغارات والغارات المضادة وما أعقبها من دعاية معادية لابن سعود في العراق تكاد تتطابق في شكلها وأسلوبها مع تلك التي رأيناها فيما بعد في خريف وصيف ٢٧-١٩٢٨م.

وأعتقد أن أغلب الأطراف المعنية. وخاصةً بعض المسئولين البريطانيين والعرب في العراق. لم تكن تدرك أن المشكلة هي مشكلة اقتصادية في جوهرها، وإن كانت قد ازدادت حدّة بالطبع. نتيجة للعداء الشخصي المؤسف بين الملك فيصل الأول وابن سعود. فمن المعروف أن قبائل البدو في شمال وشمال شرق نجد. وخاصة عجمان. وحرب. ومطير. وشمر. والعوازم، ثم ظفير الأقرب إلى العراق. لا تتوفر لها سبل العيش داخل مواطنها. وأنها ظلت لعدة قرون تهاجر كل عام في أشهر الخريف متجهة إلى الفرات والكويت من أجل الحصول على ضرورات الحياة التي تتركز في ثلاثة أشياء: التمر، والأرز، ثم الرعي في آخر الصيف في المنطقة الخصيبة الممتدة جنوب الفرات من كربلاء إلى الخليج العربي. وينطبق ذلك أيضًا على قبائل عنزة الشرقية - العمارات والدهامشة، ولكن نظرًا لامتلاك بعض شيوخهم لمساحات من الأرض حول كربلاء منذ أمد بعيد، فهم يدخلون في عداد القبائل العراقية الأصلية، ولذلك فلا مجال هنا لدراسة أوضاعهم.

وكانت الطرق الموصلة إلى الفرات التي تسلكها قبائل شمر وغيرها، والمناطق المختلفة المطلة على النهر التي تتجه إليها على النحو الآتي تقريبًا، ومنذ قديم الأزل:

- ظفير: نحو سماوة، والناصرية، وسوق الشيوخ.
- مطير، نحو الكويت والزبير.
- عجمان والعوازم، نحو الكويت.

وكانت الأساليب المتبعة واحدة لا تتغير، فكان البدو يبدأون بإرسال الهدايا إلى القبائل القوية النازلة بجوار النهر (شيوخ المنتفق من آل سعدون عندما

كانوا أقوياء). طالبين السماح لهم بالمجيء وضرب خيامهم بالقرب من النهر – بعد رحلة يقطعون خلالها ثلاثين ميلاً تقريبًا، في أرض تصلح مياه آبارها للشرب. ثم يتخذون سبيلهم من هذه المضارب في تيار متدفق متصل حتى يصلون إلى المدن والقرى القبلية الواقعة على امتداد الفرات، ليشتروا احتياجاتهم. ولم يحدث أبدًا أن رفض طلبهم لأن كلا الجانبين يستفيد من هذه الهجرة الموسمية، فالبدو يأتون معهم بالمال والجمال، بينما يتخلص العربي الذي يعيش على ضفاف الفرات من فائض التمر، والشعير، والأرز، ويشترى المزيد والجديد من البنادق والذخيرة.

وكانت مدن الفرات وقبائله، وأيضًا الكويت ترحب دائمًا بهؤلاء المهاجرين، وكانت العراق والكويت هما المركز الطبيعي الذي يفد إليه بدو شمال نجد لشراء احتياجاتهم في نهاية الصيف وأوائل الشتاء، عندما يتعذر الرعي في مواطنهم ولا يصبح أمامهم من بديل إلا الخروج منها. وكان رفض القبائل النازلة بجوار النهر السماح للبدو بالمرور إلى الفرات من أجل المسابلة يعنى إعلان الحرب، ومن المحتم أن يؤدى إلى إثارة القلاقل والاضطرابات .. ولكن هذا نادرًا ما كان يحدث، ولم تشهده المنطقة إلا عندما كان العداء يسود بين الرؤوس الكبيرة للدولة من أمراء حائل وآل سعود، وشيوخ المنتفق من آل سعدون.

جاء عام ١٩٢٢ وهذه الظروف هي السائدة، مما أدى إلى شن الغارات والغارات المضادة التي سبقت الإشارة إليها. وفي ٥ مايو تم توقيع معاهدة في المحمرة بين ممثلين لبريطانيا العظمى ونجد تنص على معاقبة القبائل المغيرة وتأمين طرق الحج. كما حُلت أيضًا مشكلة الحدود بين العراق ونجد، ولكن كان لابد من تصديق المندوب السامي بالعراق وابن سعود على هذه المعاهدة.

أميرة الفراش السوداء في القطيف:

في شهر سبتمبر من ذلك العام ١٩٢٢ كلفني السير بيرسي كوكس بالتوجه إلى البحرين في مهمة خاصة، وكانت التعليمات الصادرة لي تقضى بأن أتصل بابن سعود لإقناعه بالحضور إلى عقير، على الساحل، في مؤتمر يدعو إليه السيد بيرسي كوكس لتسوية مسألة الحدود، وقال أنه لن يغادر العراق متجهًا إلى عقير إلا إذا أرسلت له برقية تفيد أن ابن سعود غادر الرياض بالفعل متوجهًا إلى الساحل.

وكان الميجر رالى الذي خلفني في منصب الوكيل السياسي بالبحرين في إجازة يقضيها في الهند، ولذلك أقمت أنا وزوجتي في دار ضيافة عبد العزيز القصيبي، الممثل التجاري لابن سعود بالبحرين. كانت الدار تطل على البحر شرقي مبنى الجمارك مباشرة. ورحب بنا عبدالعزيز القصيبي ترحيبًا حارًا وكان على علم بسبب زيارتنا. ونزلنا أنا وزوجتي في غرفتين فسيحتين تتوفر بهما كل وسائل الراحة بالطابق العلوي. ولما كنا قد اصطحبنا جوادينا معنا إلى البحرين، كنا نخرج أنا وزوجتي بعد أن أفرغ من كتابة التقارير، في جولات طويلة نتجاوز فيها المنامة والبديع.

وشرعت في إنجاز مهمتي، وبدأت المراسلات مع ابن سعود، وشيئًا فشيئًا تمكنا من إقناعه بجدوى فكرة عقد المؤتمر في عقير. وكانت المشكلة التي تواجهني كيف ألزمه بالارتباط بموعد محدد. وأود أن أسجل هنا أنني تمكنت من الحصول على موافقته مبكرًا بفضل الدور الرائع الذي قامت به زوجتي التي كانت تعمل كسكرتيرة خاصة لي، وكعاملة طباعة على الآلة الكاتبة، حيث تعاملت مع الجانب الطيب في ابن سعود، وأخذت تترجم يوميًا إلى اللغة الفرنسية، جميع البرقيات التي تصل إلىّ من وكالة رويتر للأنباء، ثم ترسلها بواسطة الجمال السريعة إلى الرياض حيث يترجمها الدكتور عبدالله الدملوجي إلى اللغة العربية، وكان يعمل في ذلك الوقت سكرتيرًا للشئون القانونية لدى ابن سعود.

وبعد شهر من وصولنا إلى البحرين جاءني عبدالعزيز القصيبى ليخبرنى أن المدعو الميجر فرانك هولمز، وهو مهندس مناجم، والدكتور مان، وكلاهما من العاملين في شركة "إيسترن آند جنرال سنديكات ليمتد"، ومقرها لندن، على وشك مغادرة البحرين، وأنه سيكون ممتنًا لو أن زوجتي استضافتهما ووفرت لهما الطعام أثناء وجودهما بالبحرين، وكانا قد جاءا تنفيذًا لتعليمات من ابن سعود، على أن يتوجها إلى المناطق الداخلية عندما يعطيهما إشارة البدء.

وساورتني الشكوك على الفور، فمنذ سنوات، عندما كنت وكيلاً سياسيًا بالبحرين، انتشرت الشائعات والهمهمات التي تتحدث عن وجود نبع نفطي وراء واحة القطيف على بعد حوالي ستة أميال شمال شرق مدينة القطيف نفسها. وقمت في ذلك الوقت بعد زيارات لتلك المنطقة بحثًا عن النشع، ولكن دون

جدوى. كما تجولت أيضًا بعد استئذان ابن سعود على ظهور الجمال والحمير في جميع أنحاء جبل ظهران معتقدًا أن الإشاعات التي يتداولها البدو أخطأت في تحديد الموقع، وعلمت بعد فترة أنني بددت جهدي في هذه الجولات بلا مبرر لأنني توجهت لزيارة دارين، عاصمة جزيرة تاروت، فأطلعني الشيخ جاسم عبدالوهاب باشا، المقيم بها، على صورة من تقرير تركي لموقع النبع النفطي وراء القطيف. أما أصل هذا التقرير فهو في اسطمبول، وكان المتصرف التركي لإحساء قد أرسله إلى المسئولين هناك أثناء احتلال الأتراك لتلك المقاطعة منذ سنوات.

وأصبح من الواضح أن ابن سعود، بعد أن علم بفحوى التقرير التركي، أرسل تعليماته إلى الميجر هولمز للتعرف على حقيقة الأمر، وأنه كان يرجيء تحديد موعد المؤتمر لأنه يريد أن يلتقي قبله بالميجر هولمز، كما تبين لي أيضًا أنه من المرجح أن هولمز سوف يحصل على امتياز للتنقيب على المعادن أو النفط من ابن سعود إذا أسفرت استكشافاته الأولية عن نتائج مبشرة.

وأثناء مفاوضاتي مع ابن سعود لدفعه للمجيء إلى عقير، كنت أشغل وقت فراغي أحيانًا بالكتابة إلى السير بيرسي عن نظرياتي النفطية وعن الزيارات المتعددة التي قمت بها للمناطق الداخلية بحثًا عن النبع النفطي. وكانت زوجتي هي التي تتولى طباعة كل هذه التقارير بالآلة الكاتبة ولذلك كانت تعرف كل شيء عن المسألة، ومن ثم شاركتني شكوكي عندما أُخبرنا بهذا الشكل المفاجئ بنبأ الزيارة المتوقعة لمندوبي شركة "إيسترن آند جنرال سنديكات".

وأرسلت برقية بالشفرة إلى السير بيرسي لأحيطه علمًا بأمر الميجر هولمز، وبما يساورني من شكوك لاعتقادي أنه جاء لتقديم مشورته لابن سعود حول احتمالات وجود النفط في المناطق المتاخمة للقطيف وجبل ظهران، وأنه ربما أثار هذه المسألة عند مجيء ابن سعود لحضور مؤتمر عقير. ولعبت تقاريري السابقة دورًا مفيدًا للغاية كخلفية لهذا التطور الجديد.

ووصل الميجر فرانك هولمز والدكتور مان مع القافلة التالية للبريد البطيء فأتى بهما القصيبي على الفور إلى منزلنا حيث أقاما معنا كضيفين. وثمة شيئان آثارا انتباهنا أنا وزوجتي، بل وكانا مثارًا للضحك أحيانًا، أولهما هو مظهر الميجر هولمز الذي كان يحمل مظلة كبيرة بيضاء اللون وعليها خطوط خضراء، ويضع على رأسه خوذة بيضاء مثل تلك التي تُصرف للقوات الفرنسية في أفريقيا،

ويسدل فوق خوذته ووجهه خمارًا من الشاش أخضر اللون يشبه تمامًا الصورة الشائعة لسائح يزور الأهرامات، وثانيهما ذلك العدد الكبير والمثير للدهشة من الهدايا التي أحضرها هولمز ليقدمها لابن سعود، حيث كانت معه أكثر من خمسين علبة، وحقائب جلدية، وصناديق، وبنادق.

وسرعان ما بدأ الضيفان الجديدان يتصرفان على سجيتهما، وكان الميجر هولمز رفيقا ممتعًا حقا، كثير النوادر. وكان يبدو قوى البنيان رشيق القوام، ولكنى اكتشفت بعد حين أنه مريض ويعانى من مشكلات في المثانة، حتى بلغ به الأمر أنه كان لا يتصور كيفٍ سيتمكن من الوصول إلى الهفوف وربما إلى ما هو أبعد من الهفوف، ممتطيًا جملاً. وتمكنت من تزويده ببعض المعلومات المفيدة لأنه سبق لي أن قمت بهذه الرحلة وأبعد منها أثناء عملي كوكيل سياسي بالبحرين.

وبعد أسبوع حل يوم رحيلهما، وكانت داوتان كبيرتان مزودتان بمحركين آليين في انتظارهما على الشاطيء أمام منزلنا. وأثناء الإفطار سألت ميجر هولمز عما يدعوه إلى استخدام قاربين، فأجاب: "أحدهما للدكتور مان الذي سيذهب عن طريق عقير، والآخر لي، لأن رحلتي ستكون عن طريق القطيف"، فقلت معترضًا: "ولكنك مريضٍ، فلماذا تقطع مائة ميل على ظهر جمل بينما المسافة لا تزيد عن الخمسين ميلا إذا سلكت طريق العقير؟!"، وعلى الفور اكتست ملامحه بالغموض ورد قائلا: يا ديكسون، إنني من هواة جمع الفراشات، وقيل لي إن هناك نوع أسودَ رائع، لا وجود لمثيل له في أي مكان آخر في العالم، يمكن العثور عليه في واحة القطيف، ولقد أطلقت عليها بالفعل اسم أميرة الفراش السوداء بالقطيف، وسوف أتوجه للحصول على عينة منها، وبذلك سيكتسب اسمي شهرة واسعة.

وبينما هو يتناول طعامه من البيض واللحم المقدد ألقت زوجتي قنبلتها عندما قالت بكل هدوء: "ميجر هولمز، هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن نشع نفطي يطلق عليه اسم فراشة". وكان الأثر مباشرًا وعنيفاً، فقفز هولمز من مقعده وهو يقول: ماذا تعنين بحق السماء يا مسز ديكسون؟!. وكان ردها: "ما ذكرته على وجه التحديد".

وفوجئ الرجل فهرع يدور حول المنضدة إلى أن وصل إلى زوجتي فأمسك بيدها مصافحًا ويقول وقد اعترته الدهشة: "يا إلهي، أنتِ سيدة رائعة، وسوف

أبرق اليوم إلى أمين حديقة الحيوان في لندن وأطلب منه منحك لقب زميل حديقة الحيوان". وكان هولمز صادقاً فيما يقول، فبعد فترة سمعت أن زوجتي مُنحت زمالة حديقة الحيوان، ورحل هولمز والدكتور مان، ولكن الظروف جمعتنا مرة أخرى بهولمز.

مؤتمر عقير:

في حوالي ١٠ من نوفمبر ١٩٢٢ أبلغني ابن سعود في رسالة بعث بها إليّ أنه سيصل إلى العقير يوم ٢١ فأبرقت إلى السير بيرسي كوكس لأحيطه علماً بذلك، فأجاب بأنه سيحضر إلى البحرين على أحد سفن السلاح البحري. وطلب مني أن أرتب رحلته من البحرين إلى العقير عن طريق البحر، وقال إنه سيكون برفقته وزير المواصلات والأشغال العراقي (صبيح بك). ومجموعة تضم الميجر ج. مور الوكيل السياسي بالكويت الذي سيمثل الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت، والشيخ فهد بك آل الهذال رئيس مجموعة العمارات من العنزة. والمساعد الخاص له (أي السير بيرسي)، وضابط سابق بالقوات البحرية إلى جانب عدد من الموظفين الكتابيين من العرب.

وصلت هذه المجموعة في الموعد المحدد. فتوجهنا جميعًا إلى عقير على متن إحدى داوات عبدالعزيز القصيبي ذات المحرك الآلي. فوجدنا أن ابن سعود وصل بالفعل. ونزل في مخيم مهيب يضم خياماً بيضاء من مختلف الأحجام والأشكال. على بعد حوالي نصف الميل إلى الشرق من الحصن القديم ومبنى الجمارك. وكان بصحبته سعود العرافة آل سعود، الذي كان من المتمردين على سلطته في وقت من الأوقات وأصبح الآن زوجًا لأخته. ومدير بنك البصرة، والشاعر المؤرخ اللبناني أمين الريحاني. وعدد آخر من المسئولين منهم الدكتور عبدالله سعيد، د. ملوجي. وحرس خاص يتكون من حوالي ثلاثمائة رجل. وكان هناك أيضًا الميجر هولمز الذي التقى بابن سعود في الهفوف ثم جاء معه إلى الساحل.

ونزلنا في خيام مريحة، وكانت هناك خيمة من الطراز الأوروبي تصلح لأن تكون مكانًا لانعقاد المؤتمر وغرفة للطعام في نفس الوقت. وخُصصت لابن سعود خيمتان فاخرتان بيضاويتان اللون. إحداهما للاستقبال والأخرى للنوم والاستجمام. واستُقبلنا جميعًا استقبالاً ملكيًا لائقًا باستثناء شخص واحد هو فهد

بك الهذال الذي كان من الواضح أنه زائر غير مرغوب فيه، بل وبلغ الأمر أن ألمح إليه بأنه لا حاجة لآرائه ومشورته، ولذلك اعتكف في خيمته، وظل قابعًا فيها، ورفض أن يبرحها طوال الأيام السبعة التي شهدت أعمال المؤتمر.

ولا جدال في أن السيد بيرسي كوكس أخطأ بإحضاره معه، لأنه هو ونوري آل شعلان من الرولة من عنزة، وكانا على قناعة بأنهما أكبر رؤوس عنزة، ويدّعون أنهم أعلى شأنًا حتى من آل صباح في الكويت وابن سعود نفسه. وكان من الطبيعي ألا يسعد عبدالعزيز آل سعود، وهو الآن سيد شبه الجزيرة العربية، أن يرى في مخيمه أو في المؤتمر رجلا من قبيلة يدّعى - مهما بلغ شأنها - أنه أعلى منه منزلة وأشرف نسبًا.

وكانت المهمة الأساسية للمؤتمر هي تسوية النزاع على الحدود بين العراق ونجد. وكان يمثل العراق صبيح بك، ويمثل نجد ابن سعود، بينما يقوم السيد بيرسي كوكس بدور المحكم في النزاع. ملتزمًا الصمت طوال الوقت وكأنه أبو الهول متذرعًا بالصبر والهدوء دائمًا. وإن كان من الواضح أنه عقد العزم على ألا يرجع إلى العراق إلا وفي جعبته التسوية المستهدفة.

حجج يتعذر قبولها:

وكانت المحادثات مثالاً عجيبًا لأساليب المساومة التي يستخدمها ممثلو دولتين شرقيتين كبيرتين التقوا معًا في محاولة لتسوية مشكلة. فلم يكن هناك أخذ وعطاء بأي حال، وإنما راح كل من الجانبين يتقدم بمطالب سخيفة ومضحكة طوال الوقت. وكمثال لمدى سماجة مسلك المفاوضين الرئيسيين سأذكر واقعة جرت فور انعقاد المؤتمر، فبعد أن ألقى كل من الجانبين، والسير بيرسي كوكس كلمة افتتاحية مهذبة، أوضح السير بيرسي مدى اهتمام حكومة صاحب الجلالة، صديقة الطرفين، بالتوصل إلى تسوية ودية يرضى عنها الجميع، وطلب السيد بيرسي من صبيح بك أن يطرح ما يعتبره العراق خطأ للحدود يعطى كل ذى حق حقه، ولا يمكن لأحد أن ينازع فيه، فنهض صبيح بك وقال: "منذ أن خلق الله الدنيا، وبدأت كتابة التاريخ، كانت حدود العراق تمتد جنوبًا لتنتهي على بعد أثنى عشر ميلاً من الرياض، عاصمة ابن سعود، وهى تمتد إلى الغرب حتى البحر الأحمر بحيث تضم حائل والمدينة، وينبع، وتمتد شرقًا بحيث تضم الهفوف والقطيف على الخليج. والله يشهد أن هذه - وهذه وحدها - هي الحدود الحقيقية التي لا يمكن أن ينازع فيها أحد".

وكان ابن سعود يتلمظ غيظًا ويجلس على أحر من الجمر ويبذل جهدًا جهيدًا للسيطرة على مشاعره منتظرًا دوره ليعقب، وما أن أعطيت له الكلمة حتى أخذ يصيح هادرًا: "أنا لا أعرف شيئًا عن الخلق، ولكنى أعرف تمامًا أنه منذ أيام إبراهيم، جدّي الأعلى، كانت أراض نجد والبحرين تمتد شمالاً حتى حلب ونهر العاصي في شمال سوريا، وتشمل جميع الأراضي الواقعة على الضفة اليمنى للفرات، ثم تمتد منها إلى الجنوب حتى البصرة على الخليج".

وبدءًا من هذا النوع من الاستهلال، واستمرارًا له، ظل الجانبان يتبادلان الحجج لمدة خمسة أيام كاملة، تخللها العديد من الوقائع المماثلة لما سبق أن ذكرت، وكان بعضها يتسم بالاعتدال بينما يتسم بعضها الآخر بالمغالاة المفرطة.

وبالرغم من العلاقات الودية الرسمية بين ابن سعود وبريطانيا العظمى، إلا أنه كان يشعر أنه محاصر من كل جانب بدويلات صنعتها حليفته وتحركها كالدمى. وكان تعاطفه الحقيقي مع شعبه الذي كان يصبو إلى طرد الملك حسين من الحجاز في الغرب. واجتياح شرق الأردن في الشمال الغربي. وشن الغارات على نحو ما كان يجرى فيما مضى داخل أراضى الكويت والعراق في الشمال، ولكن كان يدرك تمام الإدراك أن تحديه لبريطانيا من المحتم أن يفضي إلى كارثة. وصرّح ابن سعود في مؤتمر عقير بأن ممثليه في المحمرة لم يلتزموا بتعليماته بل ونفذوا نقيضها عندما وافقوا على إمكانية رسم أي حدود ثابتة بين العراق ونجد. وناضل بكل ضراوة من أجل الاعتراف بحدود قبلية بدلاً من الخط التعسفي الذي يرسم على خريطة، في الوقت الذي تتوجه فيه العديد من القبائل - وعن بكرة أبيها - إلى نجد، ويتوجه البعض الآخر، عن بكرة أبيه أيضًا، إلى الكويت والعراق. وبدأ ابن سعود طرحه للقضية بالإصرار على أن ظفير - وهى قبيلة من بدو العراق - تابعة له، وأن حدوده لابد أن تمتد حتى تصل إلى الفرات، ليس لأنه يريد السيطرة على هذا النهر، وإنما لأن ظفير وقبائله البدوية الكبيرة أيضًا، تنتقل كل عام إلى الفرات ولا يمكن بأى حال منعها من الوصول إليه لأن المسألة هنا مسألة حياة أو موت بالنسبة لأي بدوي.

وعندما رد السير بيرسي كوكس بأن هذا المطلب لا يسانده أي منطق ولا يمكن مناقشته، تنازل ابن سعود عن قبيلة الظفير واتخذ موقفًا أكثر مرونة فيما يتعلق بالحدود القبلية التي يمكن أن تحمى حقوق القبائل التابعة له، وتحول

دون وقوع أي اضطرابات أو قلاقل في المستقبل. وقال أنه سيكون من السهل التوصل إلى نظام تمتلك كل قبيلة بمقتضاه عددًا من الآبار والمراعى، لأنه منذ أيام إبراهيم. كانت كل قبيلة تعرف أي الآبار والمراعى آبارها ومراعيها، وأيها التي تملكها القبائل الأخرى. وذكر على سبيل المثال أن الآبار الواقعة في أقصى الشمال، والتي قد تطالب بملكيتها قبيلتا عنزة وظفير، وقبائل الكويت (باستثناء مطير والعوازم وعجمان التي أصر على خضوعها لسلطته)، يجب أن تشكل الحدود. على أن يعلن حياد الآبار التي يعرف الكافة أنها ملكية عامة، تلك الواقعة بين عنزة وظفير وبين ظفير ومطير.

وعندما سُئل عن كيفية إثبات حقوق تملك هذه الآبار أجاب بأن العالم كله يعرف ذلك. بشكل واضح وضوح شمس النهار، وأنه من السهل وضع الوسم (علامات القبائل) القديمة على جدرانها الداخلية لها جميعًا، وأضاف أنه إذا شجر أي نزاع، وهو أمر مستبعد. فيمكن لأهل الخبرة أن يضعوا الأمور في نصابها.

وإلى جانب كل هذه المسائل دافع ابن سعود عن حق قبائل نجد في التوجه إلى الفرات لشراء احتياجاتها.

وعندما سُئل صبيح بك. عند هذه المرحلة من المحادثات، عن آرائه، أعلن أن العراق لن تقبل إلا حدودًا تفتح على بعد مائتي ميلاً على الأقل جنوب الفرات.

وفي اليوم السادس أخذ السير بِيرسي الكلمة فوجه حديثه لكلا الطرفين وقال إنه لو استمر العمل في المؤتمر وفقا لمعدل الإنجاز السائد حتى ذلك الوقت فسوف ينقضي عام كامل دون أن تتم تسوية المسألة. ثم نفد صبره في اجتماع خاص لم يحضره إلا هو وابن سعود، وحضرته أنا أيضًا، نتيجة لما وصفه بالموقف الذي يتخذه ابن سعود فيما يتعلق بفكرته عن الحدود القبلية. ولم يكن السير بيرسي يتقن اللغة العربية، ولذلك كنت أقوم بالترجمة بينهما. وقال بكل حدة أنه، أي السير بيرسي كوكس، سوف يتولى بنفسه رسم الخط العام للحدود. وهكذا انفتحت الطرق المسدودة، وكاد ابن سعود يعلن موافقته لما يراه بيرسي كوكس.

وعلى قدر ما تسعفني الذاكرة، لم يشارك ابن سعود بعد ذلك إلا بدور

ضئيل في المناقشات التي وردت حول الحدود، وترك للسير بيرسي أن يحسم له هذه المسألة الشائكة. وأثناء جلسة عامة للمؤتمر، تناول السير بيرسي قلمًا أحمرًا ورسم بكل دقة على خريطة لشبه الجزيرة العربية خطًا للحدود يمتد من الخليج الفارسي (العربي) حتى جبل عنيزان بالقرب من حدود شرق الأردن. وكان هذا الخط يعطى العراق مساحة كبيرة من الأراضي التي تدّعى نجد ملكيتها. ومن الواضح أن السير بيرسي حاول ترضية ابن سعود فاقتطع من الكويت - عنوة واقتدارًا - حوالي ثلثي أراضيها وأعطاها لنجد متذرعًا بأن نفوذ ابن صباح في الصحراء أقل كثيرًا مما كان عليه عند توقيع الاتفاقية البريطانية التركية. ثم حدد منطقتين شمال مدينة الكويت وغربها وقال بضرورة اعتبارهما أرضًا محايدة، مثل المنطقة المحايدة الكويتية والمنطقة المحايدة العراقية. وردًا على الاعتراض المستكين الذي أبداه عبداللطيف باشا المنديل على ضرورة وجود منطقة كويتية محايدة. قال السير بيرسي كوكس أن قبائل الكويت الأصلية لابد أن يكون لها مجالاً للرعي. وعندما ألح الباشا. امتعض السير بيرسي كوكس وقال بجفاء: "لماذا بحق السماء! هل تخشى أن تذهب هذا المنطقة لنجد؟". وأجاب الباشا: "بكل صراحة. بل لأننا نعتقد أن هذه المنطقة يوجد بها نفط". ورد السير بيرسي فقال: "ولهذا السبب على وجه التحديد جعلت منها منطقة محايدة. وسوف يحصل كل جانب على نصيب يعادل النصف".

وفي حوالي الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم. شهد المؤتمر واقعة أخرى تدعو إلى العجب. فقد طلب ابن سعود أن يلتقي بالسير بيرسي على انفراد. واصطحبني السير بيرسي كوكس معه. كان ابن سعود يقف بمفرده وسط خيمة استقباله الكبيرة. وعلامات التوتر الشديد بادية عليه.

قال في نبرة أقرب إلى الأنين: "يا صديقي. لقد حرمتني من نصف مملكتي. من الأفضل أن تأخذها كلها ودعني أنا أرحل وأتوارى عن الأنظار". وفجأة انفجر هذا المارد الكبير الذي استبد به الحزن في بكاء وعويل، وهو مازال واقفا مكانه. وانزعج السير بيرسي كوكس انزعاجًا شديدًا. فأمسك بيده، وأخذ في البكاء هو الآخر. كانت الدموع تتساقط على وجنتيه، ولم يحضر هذا المشهد إلا ثلاثتنا. وأنا أروى ما رأيت بكل دقة.

ولكن العاصفة العاطفية لم تستمر طويلاً، وقال السير بيرسي وهو مازال

ممسكًا بيد ابن سعود، "يا صديقي، أنا أدرك حقيقة مشاعرك، ولذلك أعطيتك ثلثي أراض الكويت، ولست أدرى كيف سيواجه ابن صباح هذه اللطمة".

وكما سبق أن أشرت، كان السير بيرسي رجلاً عظيمًا جدًا، كما كان عبدالعزيز بن سعود أيضًا رجلا عظيمًا جدًا، وكان ممثلاً بارعًا بالإضافة إلى ذلك. وقد توفي الاثنان عليهما رحمة الله.

وصمد خط الحدود الذي رسمه السير بيرسي أمام الاعتراضات وتم فرضه، ومازال قائمًا دون أي تعديل حتى الآن.

وتكرارًا لما سبق أن ذكرت في الفصل الأول، تبدأ الحدود الجديدة للكويت في الغرب عند ملتقى وادي العوجة بوادي الباطن، ثم تمتد من هذه النقطة، مع ترك الرقعي Riq'ai تحت سيطرة نجد، في خط مستقيم حتى ملتقى الخط المطابق لخط عرض ٢٩ بشبه الدائرة الحمراء المشار إليها في الاتفاقية البريطانية التركية، ثم تتبع شبه الدائرة الحمراء حتى نقطة على الساحل جنوب رأس القليعة (أو الجليعة) مباشرة. وتقع المنطقة المحايدة الكويتية جنوب هذا الخط الفاصل، يحدها من جهة الغرب المنخفض الفسيح الضحل المسمى الشق، والبحر من جهة الغرب، أما من جهة الجنوب فيحدها الخط الموصل من الشق، عبر عين العبد، حتى نقطة على الساحل شمال رأس المشعاب مباشرة.

وكان السير بيرسي هو الذي تولى بمفرده رسم خط الحدود بين العراق ونجد، مع الأخذ ببعض الاقتراحات التي تقدم بها كل من الدكتور عبدالله دملوجي والميجر مور. وأما الاتفاقية التي تم توقيعها "بسم الله الرحمن الرحيم" بين نجد والكويت، فهي مؤرخة في ٢ ديسمبر ١٩٢٢ ووقعها كل من الدكتور عبدالله دملوجي نائبًا عن ابن سعود، والميجور مور نائبًا عن شيخ الكويت، وأكد ابن سعود موافقته عليها بمهرها بخاتمه.

وبمقتضى هذه الاتفاقية الغريبة إلى حدٍ ما، والتي تفوح منها رائحة التسليم الكامل بمطالب دولة قوية على حساب دولة صغيرة ضعيفة، والتي لا يخفي أن الهدف منها كان هو الرغبة في تهدئة وتقليم أظافر ابن سعود الذي يملك القوة والقدرة على إثارة المتاعب، وقعت الحدود الجنوبية للأراضي المعترف بتبعيتها للكويت إلى الخلف لمسافة مائة وخمسين ميلا لتتقلص مساحة الإمارة فتصبح ستة آلاف ميلا مربعًا فحسب.

وطوال المحادثات لم ينبس الميجر مور والذي كان من المفترض أن يدافع عن مصالح شيخ الكويت، ببنت شفة. وفرض السير بيرسي كل شيء، وعلى الجميع، وحقق كل ما كان يصبو إليه، وأشك أن هناك أي شخص آخر في العالم كان يستطيع أن ينجح فيما نجح فيه، ولكنه أصاب ما سبق أن اكتسبه من سمعة طيبة بين العرب، على امتداد سنوات عديدة، إصابة فادحة وفي مقتل، وأحس الشيخ أحمد الجابر أن طعنة نجلاء سددت إليه، ومن ظهره، ولم يكن قد مضي أكثر من عام واحد على توليه الحكم، واهتزت ثقته ببريطانيا اهتزازًا عنيفا، وكانت بالفعل طعنة لم يبرأ منها أبدًا.

وفي ٢ ديسمبر أيضًا، تم توقيع البروتوكول (الملحق) العراقي النجدي الذي وردت به التفاصيل الدقيقة للحدود، والمنطقة المحايدة العراقية، والذي ينص على حرية الحركة لقبائل البدو عبر الحدود، واستخدام كل من البلدين للآبار الواقعة قرب الحدود. ومن أجل التغلب على المصاعب التي توقع ابن سعود مواجهتها بعد كل هذا الجهد الذي بُذل لرسم وتثبيت الحدود بين البلدين، حظرت المادة الثالثة من البروتوكول بناء حصون أو حشد القوات في منطقة الحدود. ولكن انعدام الدقة في الصياغة أسفر عن العديد من المشكلات بعد خمسة أعوام.

وكانت الحدود التعسفية التي تقررت بين العراق ونجد وفقًا للطريقة الأوربية خطأ فادحًا في رأييّ، وأدت في خاتمة المطاف، وربما لأول مرة في التاريخ، إلى أن يحد ابن سعود من الهجرة السنوية الطبيعية لقبائل نجد إلى الشمال. ونظرًا لإحساسه بلاشك بتفوق الوفد العراقي والسير بيرسي عليه في أساليب الجدل وطرح الأفكارِ والدفاع عنها، ونظرًا لأن المشكلة سويت وفقا للمعايير الأوروبية، وليس وفقا للمعايير العربية التي يمكن فهمها في العالم العربي، قرر ابن سعود انتهاج سياسة، أخذ يطبقها في بطه وأناة ولكن بكل إصرار، تهدف إلى تحويلٍ قومه عن اتصالهم القديم بالكويت والعراق رغم كل ما يمثله بالنسبة لهم، محاولاً أن يجبرهم على الحصول على احتياجاتهم وضرورات حياتهم من عقير، والقطيف، وجبيل، وهى موانيه المطلة على الخليج.

ولا شك أن ثمة فكرة أخرى كانت تحدوه عندما انتهج هذا الخط، فلأسباب سياسية، ومن أجل تجنب أي مؤامرات قد تُدبّر ضده، كان يفضل منع قبائله

من أن يكون لها أي اتصال مباشر مع دول لا يشعر أنها تحمل له ودًا. ولكن الطرق الطبيعية للتجارة لا يمكن التعامل معها بمثل هذه الخفة والاستهانة، ولذلك لم يتمخض هذا الخط الجديد الذي انتهجه ابن سعود إلا عن المزيد من المتاعب. ولو أننا تركنا ابن سعود وشأنه، فربما كان من المحتمل ألا يقع التمرد الذي قام به الإخوان في ٢٩-١٩٣٠ أو الصدام الذي أعقبه بين العراق ونجد، أو المأساة المؤلمة لحصار الكويت الذي استمر خمسة عشر يومًا.

ولو أننا أخذنا باقتراح ابنٍ سعود بتقرير الحدود وفقًا للمعايير التي درجت عليها القبائل في هذا الشأن بدلاً من ذلك الخط الطويل المتصل الذي يشكل منطقة محايدة بين العراق ونجد، لأمكننا التوصل في عقير إلى حل أفضل. وعندما كنت أتولى المسئولية السياسية في لواء المنتفق، مررت بتجربة مريرة نتيجة لما شاب الحدود التعسفية التركية القديمة بين اللواءات المختلفة من أخطاء فادحة، ولم أتمكن من وقف القتال بين القبائل أو اللواءات المختلفة إلا عندما تمكنت من إقناع السير بيرسي كوكس بالسماح لي بحل هذه المشكلات وفقًا للعرف السائد بين القبائل في مسألة الحدود. وكان من الأفضل كثيرًا أن نسير على نفس المنوال في عقير.

ولم يشارك الماجور هولمز بأى دور في المؤتمر إلا في يومه الأخير، وكان ابن سعود قد أثار في حديث خاص بينه وبين السير بيرسي، لم يحضره غيرهما سواى، مسألة منح امتياز النفط لشركة "ايسترن آند جنرال سنديكات"، وأخبر السير بيرسي بكل تفاصيل زيارة الميجر هولمز للأحساء، وبفحوى التقرير الذي كتبه والذي يتوقع فيه تحقيق نتائج إيجابية، وقال أن هولمز يسعى للحصول على امتياز في أقرب وقت ممكن، ثم تساءل عما إذا كانت لدى حكومة صاحب الجلالة أي اعتراض على منح هذا الامتياز. وقال السير بيرسي: "كلا استمر في هذا الطريق، أحذرك من أن شركة اسيترن آند جنرال سنديكات ليست شركة للنفط، والأرجح أنها ستبيع الامتياز لشركات أخرى".

وشكره ابن سعود، وقال إنه يفهم كل شيء، وهنا تم استدعاء هولمز ليعرض قضيته والآمال التي يعلنها على التنقيب عن النفط، كما أشار إلى احتمالات العثور على النحاس فيما بعد، وبيَن على الخريطة موقع ومساحة النفط التي يسعى على امتياز التنقيب فيها وكانت تمثل على وجه التحديد مستطيلا

طويلاً يحدّه المنطقة المحايدة الكويتية الجديدة من الشمال وسلوى من الجنوب، وهي تقع داخل أراضى قطر، بينما يحده من الغرب خط مستقيم على بعد ستين ميلا من الساحل ومواز له، بحيث يشمل وادي المياه وظليعات الكبريت في منطقة الجوف على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً جنوب غرب المنطقة المحايدة الكويتية.

ولم يشعر السير بيرسي بأى ارتياح للميجر هولمز ولم تنشأ بينهما أي مودة بل وكان يعتقد أن وجوده لا يتمشى مع مصالح حكومة صاحب الجلالة، ويبدو أن هولمز كان يجرى محاولاته من خلال الأبواب الخلفية، إن جاز التعبير، ولاشك أن السير بيرسي لم يكن ليتورع عن التشكيك فيه وإدانة ما يمارسه من نشاط لدى ابن سعود لو أنه (السير بيرسي) أمن العواقب التي يمكن أن تنجم عن هذا المسلك. وعلى أي الأحوال، ونظرًا لإعجاب السير بيرسي الشديد بابن سعود، وعدم رغبته في الصدام معه بعد تسوية مسألة الحدود، فقد عمل على تهدئته بدفعه إلى الاقتناع بأن حكومة صاحب الجلالة سوف تسعى لمساعدته من أجل تطور بلاده وتقدمها، ومن أجل زيادة ما يحققه من دخل.

وبعد عدة سنوات علمت لماذا لم أتمكن من العثور على أثر لنشع نفطى، فقد تمت تغطيته بكثيب ضخم من الرمال شبيه بالكثبان العديدة الأخرى التي تلتقي بها في كل مكان غرب حزام النخيل في القطيف. وبعد أن بدأت أرامكو عملها بالفعل في الأراضي الداخلية واكتشافها خزان النفط الضخم على جبل ظهران، اكتشف حقل آخر أصغر حجمًا وراء القطيف، في نفس الموقع الذي ظهر فيه النشع الذي تحدثت عنه. وأعتقد أن هذا الحقل الجديد يشمل الآن ستة آبار.

ردود الفعل في الكويت:

عدنا إلى البحرين، ومنها توجه السير بيرسي والميجر مور إلى الكويت على متن السفينة لوبان، أما أنا وزوجتي فقد رحلنا في أعقابهما مع قافلة البريد البطيء، يصاحبنا على نفس السفينة الشيخ فهد بك الهذال والوفد العراقي. وأذكر أنه نظرًا لهبوب عاصفة في ذلك الوقت، واجهنا مصاعب كثيرة، وعانى فهد بك – وكان متقدمًا في السن – معاناة شديدة لأنه كان علينا أن نصعد إلى متن السفينة باستخدام سلم من الحبال، وحول خصر كل منا طوق النجاة.

وعند وصولنا إلى الكويت، وكان ذلك بعد وصول السير بيرسي والميجر مور بيوم واحد، نزلنا إلى البر أنا وزوجتي بينما واصل فهد بك والوفد العراقي طريقهم إلى البصرة.

وعندما أخطر السير بيرسي حاكم الكويت بأنباء المؤتمر وما أسفر عنه من نتائج، واضطراره لأن يتخلى لابن سعود عن حوالي ثلثي أراضي الإمارة التي يطالب الشيخ أحمد بتبعيتها له، تساءل الشيخ، وقد ران عليه الحزن والأسى، عمّا دفع السير بيرسي على الإقدام على هذا التصرّف دون العودة إليه أو مجرّد استشارته. وأجاب السير بيرسي بأن السيف، في تلك المناسبة المشئومة، كان أقوى من القلم، وأنه لو لم يتنازل عن هذه الأراضي لكان من المؤكد أن يفتعل ابن سعود معركة على الفور ويستولي عليها، إن لم يكن أكثر منها، بقوة السلاح، وأن كل ما في الأمر أنه (السير بيرسي) قام بترضية هذا الجار القوى للشيخ أحمد ودَفعه لاتخاذ موقف ودّي مسالم من الكويت. وهنا تساءل الشيخ أحمد: ألم تدخل بريطانيا العظمى الحرب دفاعًا عن حقوق الأمم الصغيرة، فلم يسع السير بيرسي إلا أن يردّ بالإيجاب.

وقال الشيخ أحمد: "لو توفي ابن سعود في يوم من الأيام، وأصبحت أنا على نفس القوّة التي كان عليها جدّي مبارك، فهل ستعترض الحكومة البريطانية إذا رفضت الالتزام بخط الحدود غير العادل واستعدت أرضي السليبة؟"

فضحك السير بيرسي وقال: "كلا. وليبارك الله جهودك".

وهكذا، وأمام الأمر الواقع، وافق الشيخ أحمد أن يوقّع الاتفاقية؛ ولكنه ظل على يقين، إلى آخر يوم في حياته، أنه عومل معاملة ظالمة، وكان يصوّر الوضع للمقربين إليه على النحو الآتي:

"لم أكن حاضرا أثناء المناقشات في عقير، التي تقع على بعد ثلاثمائة ميل، ولا أخطرت بما يجرى هناك. كنت أضع ثقتي في السير بيرسي وأضعه من نفسي في مقام الوالد، وما كنت لأهتم بكل تأكيد لو أن بضعة أميال من الأرض أخذت منّي، ولكن أن يسلب ثلثا مملكتي دون السماع لكلمة واحدة منّي حول هذا الأمر، وأن أرى هذه الأرض تعطى لغيري، فهذا أمر شاق حقا".

وكثيرا ما كان الشيخ أحمد يردد في السنوات الأخيرة أنه يعتبر المنطقة

المحايدة الكويتية كلها جزءا من أراضيه، وأنه لن يوافق بأي حال على أن يقتسم مع ابن سعود عوائد امتيازات النفط.

وعلى أي الأحوال، ففي شهر مايو ١٩٢٢، منح ابن سعود امتيازا لشركة استرن آند جنرال سنديكات، ليمتد، يغطي مقاطعة الأحساء. ونظرًا لعدم وفاء الشركة بالتزامها ببدء واستمرار العمليات خلال ثلاثة أعوام من التوقيع، أعلن ابن سعود من جانبه إلغاء الامتياز. وقبيل وفاة الشيخ أحمد، اتفق الشيخ أحمد مع ابن سعود في عام ١٩٥٠، على منح امتياز لشركة أمريكان إندبندانت أويل كومباني ولشركة باسيفيك ويسترن أويل كومباني، وقال إنه أقدم على هذه الخطوة رغبة منه في إقامة علاقات ودّية مع ابن سعود الذي أصبحت مساندته له أكثر أهمية لديه من مساندة بريطانيا التي اصبحت تعادى العالم العربي والعالم الإسلامي، بما في ذلك هو نفسه، بسياستها الممالئة لإسرائيل والمعادية للعرب.

جزر الكويت:

وفي شهر إبريل ١٩٢٣ تم إخطار الشيخ أحمد بأن حكومة صاحب الجلالة تعترف بالحدود الكويتية - العراقية على النحو الذي يطالب به، بما في ذلك جزر وربة، وبوبيان، ومسكان، وفيلكة، وعوهه، وكُبر، وقارو، وأم المرادم، وغيرها من الجزر الصغيرة التابعة.

وعندما أصدر السير بيرسي كوكس تعليماته للميجر مور لإبلاغ الشيخ أحمد بهذا القرار، وجّه إليه رسالة يقول فيها: "وهذه الحدود تتطابق تمامًا مع الحدود التي يوضحّها الخط الأخضر الوارد بالاتفاقية الموقعة بين بريطانيا وتركيا في ٢٩ يوليو ١٩١٣، ولكن من الواضح أنه لا ضرورة لأي إشارة خاصة لهذه الوثيقة في مراسلاتك للشيخ".

الفصل الثاني عشر
مقدمات التمرد ١٩٢٣-١٩٢٨

مستوطنات الإخوان - تنازل الملك حسين عن العرش - معاهدة الهدا ومعاهدة بحرة - المناداة بابن سعود ملكاً على الحجاز - علامات السخط بين الإخوان - غارات مكثفة للإخوان - مهاجمة مخفر شرطة عراقي في بصيّة - فيصل الدويش يعبر الحدود العراقية - القوات الكويتية تهزم المغيرين - محادثات جدّة - الملك يقرر - مؤتمر مع الإخوان - ترتيب اجتماع.

كان الإخوان الأشدّ تطرفًا لازالوا يثيرون الكثير من الذعر والانزعاج بمحاولتهم ضمّ الناس إلى دعوتهم بالقوّة، وفي لقاء على انفراد في عقير في نوفمبر ١٩٢٢، أخبرني ابن سعود أنه لم يؤيد أو يشجع هذا المسلك منهم في أي مرحلة من المراحل ولكنه ظل عاجزا عن وقفهم حتى عهد قريب؛ وأضاف أنه أصدر أوامر مشددة في صيف ١٩٢٢ حول هذا الموضوع، وأنه صرّح أكثر من مرة، وعَلَنًا، أن مثل هذا المسلك يغضب الله والدول الصديقة، وأنه اضطر إلى الحكم بإعدام عدد من الإخوان نتيجة لعصيانهم لأوامره في هذا الصدد.

وقال إنه حتى عام ١٩٢٢، كان من المحظور على سكان الأحساء والقطيف من الشيعة أن يدخنوا، حتى ولو كان ذلك داخل بيوتهم، كما لم يكن مسموحًا لهم بعقد اللقاءات الدينية في حُسينياتهم؛ وكانت أقصى العقوبات توقع على كل من يعصى هذه الأوامر؛ كما قام الإخوان باعتقال عدد من الشيعة من طائفة البحارنة في القطيف عندما حاولوا الخروج على القانون؛ أما الآن، فالموقف تحت سيطرته بحيث يسمح له بالتخفيف من تشدده. ومن المسموح به للشيعة الآن أن يؤدوا صلواتهم، وأن يدخنوا على انفراد، بشرط الالتزام بالقانون في سلوكهم العام. وأشار إلى أن جمهرة الشيعة أصبحوا أحسن حالاً بكثير مما كانوا عليه في ظل الأتراك، فالشيعي آنذاك كان لايملك حتى حق الحياة، أما في ظل نظام ابن سعود فهم آمنون تمامًا، وتحسنت أوضاعهم لدرجة لا تُصدق في المجال التجاري، وتحقيق الثروات بشكل عام.

وأعتقد أن ابن سعود أخبرني بكل ذلك من قبيل الدعاية، حيث يتوقع منّي أن ابلغ السير بيرسي كوكس أن الاضطهاد ليس جزءا من تعاليم الإخوان أو من سياسته هو.

قرى:

ونجحت السياسة التي اختطّها ابن سعود لبناء مستوطنات للإخوان في نجد والإحساء. وما أن حلّ عام ١٩٢٢ حتى كانت هذه المستوطنات قد استوعبت العديد من الهجرات التي نعرضها في القائمة التالية، وإن كانت غير كاملة بأي حال. وقد فضلت خفض أعداد المقاتلين المقيمين في كل مستوطنة بنسبة الثلثين في أغلب الحالات. وهو تصرف قد يكون فيه شئٌ من المبالغة من جانبي.

اسم القبيلة	الهجرة	عدد الرجال
مطير	الأرطاوية	١٠٠٠
	فريثان	٦٠٠
	مقيظ	٩٠٠
	مليح	٧٠٠
	العمار	٧٠٠
	الأثله	٦٠٠
	قرية العليا	١٨٠٠
	قرية السفلى	١٦٠٠
	نقير	١٢٠٠
	الشعب	٣٠٠
	ضرية	٦٠٠
	مسيكة	٤٠٠
العوازم	ثاج	١٦٠٠
	الحنات	١٠٠٠
	الحسي	٧٠٠
	العتيق	٨٠٠
عتيبة	غطغط(*)	٧٠٠

(*) دمرها ابن سعود بعد معركة سبيلة ١٩٢٩م

	الداهنا	٨٠٠
	الصوح	٣٠٠
	ساجر	٧٠٠
	عرجا	١٠٠٠
	عسيلة	٣٠٠
	نفي	٩٠٠
	هجرة خالد بن لؤي	٤٠٠
	عروة	٧٠٠
	الغبة	٢٠٠
	الروضة	٧٠٠
	العرق	١٠٠٠
حرب	قبة (أجبة)	١٠٠٠
	دخنة	٦٠٠
	الشبيكة	٩٠٠
	الدليمية	٧٠٠
	الساقية	٦٠٠
	القرين	٤٠٠
	حنيظل	٥٠٠
	البرود	٨٠٠
	أبو حليفة	٩٠٠
عجمان	صرار	١٦٠٠
	شافي	٥٠٠
	حنيذ	٨٠٠
	عوينه	١٢٠٠
	عريرة	١٠٠٠
	عقير	٥٠٠
قحطان	الهياتم	١٨٠٠
	الجفير	٨٠٠

	الحصاة	٧٠٠
	الغل	٥٠٠
	هجرة ابن غنام	٥٠٠
	هيف زهران	٤٠٠
	الصبحة	٥٠٠
	العبرة	٦٠٠
	الربن العليا	١٢٠٠
	الربن السفلى	١٠٠٠
آل مرة	عمبق	٩٠٠
	أبيرق	١٠٠٠
بني هاجر	الظهر	٧٠٠
دواسر	مشيرقه	١٥٠٠
	الوسيطة	٨٠٠
بني يام	أهل نجران	٤٠٠٠
عمار (عتيبة)	الجفر	٢٠٠٠
	روض العيون	١٠٠٠
حطيم	بنوان	١٥٠٠
منطقة الخرج	المنيصف	٥٠٠
	الضبيعة	٦٠٠
	البدع	٥٠٠
	الأخضر	٥٠٠
	طيبسم	٤٠٠
	الرويضة	٤٠٠

العودة إلى الخليج:

منذ عام ١٩٢٣، وحتى تعييني سكرتيرا للمقيم السياسي بالخليج في عام ١٩٢٨، كنت في الهند، ولذلك لم أكن على اتصال بما يجرى من أحداث في شبه الجزيرة العربية، وفي هذه الفترة أنجبنا طفلينا: ابننا هانماريورك وارنجتون

سعود، في ترَيدَيت بسويسرا في ١٢ يونيو ١٩٢٣، وابنتنا إيرين زهرة، في بيكانير بالهند في ١١ يناير ١٩٢٥م. ولم تنقض إلاّ فترة وجيزة بعد عودتنا إلى شبة الجزيرة العربية حتى صاروا يعرفوننا هناك أنا وزوجتي بأبي سعود وأم سعود.

ترسخَّ اقتناع ابن سعود بمغبّة تحدّى بريطانيا العظمى وما يمكن أن يسفر عنه من كوارث عندما رأى المصير الذي انتهت إليه تلك المجموعة من الإخوان التي ضمت ألف وخمسمائة فردًا وشنّت غارة في منتصف أغسطس ١٩٢٤ توغلت فيها حتى أصبحت على بعد خمسة عشر ميلا من عمّان، عاصمة شرق الأردن، حيث يقال إن الجميع لاقوا حتفهم باستثناء مائة منهم فحسب، نتيجة لتصدى الطائرات البريطانية لهم، وقصفهم بالمدافع من عمان، والدور الذي قامت به قبيلة بنى صخر ضدّهم.

في هذه الأثناء، كان الملك حسين ملك الحجاز يتصرف بكل غطرسة وحماقة وهو لا يدرى أنه إنما يمضى إلى حتفه بظلفه، فعندما زار شرق الأردن ونادى بنفسه خليفة، أي رئيسا أعلى للعالم الإسلامي، أعلن ابن سعود الحرب عليه، وبسرعة أكبر مما كان ابن سعود نفسه يأمل أو يتوقع، استولت قوات الإخوان على الطائف في سبتمبر ١٩٢٤. وفي ٥ أكتوبر تنازل الملك حسين عن العرش لأكبر أبنائه، عليّ، وتوجه للإقامة بالعقبة. وانسحب عليّ من مكة، وارتدّ إلى جدة. واحتلت القوات الوهابية مكة في ديسمبر وأحكمت الحصار على جدّة والمدينة.

وزحف جيش آخر من قوات ابن سعود إلى ما وراء وادي سرحان حتى وصل إلى الحدود السورية وتمكن من عزل شرق الأردن عن العراق، وأرسلت حكومة صاحب الجلالة السير جلبرت كلايتون إلى الحجاز ليبيّن لابن سعود أنه لا يمكن السكوت عليه أو التغاضي عن مدّه لحدوده التي أصبحت تتقاطع مع خط الأنابيب عابر الصحراء وطرق السيارات ومهابط الطائرات التي أنشئت منذ وقت قريب والموصّلة إلى بغداد والشرق. وأذعن ابن سعود تحت الضغط البريطاني وأبدى، مرة أخرى حكمته وتعقله وهما ما يرجع إليهما نجاحه إلى حد كبير. وتم إبرام معاهدة جدّة ومعاهدة بحرة. وتنص معاهدة بحرة، الموقعة في ١٥ نوفمبر ١٩٢٥، على تشكيل محكمة خاصة لنظر كافة الدعاوى التي تقيمها قبائل نجد ضد قبائل العراق، والعكس بالعكس.

كان الملك على بن الحسين يخوض حربًا خاسرة، رغم نجاحه في الصمود في مواجهة الحصار في جدَة، ولكن استيلاء الإخوان على المدينة في ديسمبر ١٩٢٥ تحت قيادة فيصل الدويش أدّى إلى تنازله عن العرش هو الآخر. وفي ٨ يناير ١٩٢٦ نُودِي في المسجد الكبير بمكة بابن سعود ملكًا على الحجاز ونجد وتوابعهما.

وفي عام ١٩٢٦ أيضًا فرض ابن سعود سيطرته على إقليم عسير، غربي شبه الجزيرة العربية، الذي تحدّه من الشمال والشرق والجنوب كلٌ من الحجاز ونجد واليمن على التوالي. وكان هذا الإقليم حتى عام ١٩٢٠ تحت حكم الإدريسي، ولكن الإخوان احتلوا أبها وكل المرتفعات المنتشرة في الإقليم ولم يتركوا لسعيد بن محمد الإدريسي إلا شريحة ضيقة من الأرض. وفي عام ١٩٢٢ توفي سعيد بن محمد وخلفه ابنه محمد الذي خلعه عمه حسن في عام ١٩٢٥. ووجد الحاكم الجديد أنه على درجة من الضعف اضطر معها إلى أن يضع بلاده في عام ١٩٢٦ تحت سيادة ابن سعود، مع تعيينه هو حاكما لعسير مدى الحياة.

علامات السخط بين الإخوان:

في الفترة من ١٩٢٥ حتى ١٩٢٧، تفرّغ ابن سعود للقضاء على قطّاع الطرق في الحجاز ونجد، من أجل تأمين سلامة طرق الحجاز وكبح الطبيعة الجامحة لقبائله التي بدأ الكثير منها يشعر بأن سياسته إنما هي سياسة تمليها بريطانيا. وكانت موافقته، على إدخال المخترعات الحديثة مثل السيارة والهاتف واللاسلكي - من وجهة نظر هذه القبائل - دليلا على عدم ولائه لعقيدة الإخوان وبدأت علامات السخط والتذمر تتضح أكثر فاكثر بين صفوفهم.

وعندما عاد زعماء الإخوان إلى نجد بعد سقوط جدّة، استاء البعض منهم أشدّ الاستياء لأن حملة الحجاز لم توفر فرصًا أفضل للسلب والنهب، كما لم ترُق لهم فكرة ابن سعود الخاصة بإقامة نظام حديث متحضر للحكم في الحجاز، وحظره لما يقومون به من إغارات عبر الحدود.

و"الغارات" - كما ذكرت في موقع آخر- " هي نسمة الحياة بالنسبة للبدويّ، وإذا منعته عنها أصابه الإحباط والكمد. وإن كان لابد للرجل الغربي أن يمارس مختلف أنواع الرياضة مثل كرة القدم، والكريكيت، والتنس، والهوكي، والرماية، الخ، ليحافظ على لياقته البدنية ويستمتع بحياته، فالبدوي البدائي في شبه الجزيرة العربية لابدّ له أيضًا من شن الغارات؛ بل وهذه الممارسات هي عنده الدليل على الرجولة والفتوّة...

"…. والغارات التي نشهدها في الصحراء لا تؤدى بالضرورة إلى إراقة الكثير من الدماء، لأن الهدف الأساسي للمغيرين هو إشباع نهمهم إلى الجمال".

وكان أبرز من أصابهم الإحباط وبدأت عوامل السخط تختمر في صدورهم فيصل الدويش، فاتح المدينة، والشيخ الشهير لقبيلة مطير القوية، والذي كان – حتى ذلك الوقت – من أقرب أصدقاء ابن سعود، واكثر معاونيه عزيمة ومضاءً، ولكن ها هو الآن يسعى لإغراء سلطان بن حميد، شيخ عتيبة الكبير، وضيدان الحثلين، شيخ عجمان الشهير، بأن يقسموا معا على مساندة كل منهم الآخر إذا ما اقدم ابن سعود على إنزال العقاب بأي منهم.

هكذا كان الوضع عندما طُرح الاقتراح الخاص باستخدام الساحل العربي للخليج لإنشاء مراكز الخدمات اللازمة للخطوط الجوية البريطانية على الطريق إلى الهند، بدلاً من الساحل الجنوبي لفارس، بعد رفض الحكومة الفارسية إقامتها هناك. وكما كان متوقعًا، كان مجرد التفكير في مثل هذا الموضوع جريمة نكراء بالنسبة للإخوان، ولذلك قال ابن سعود إنه لا يستطيع الموافقة على هذا الاقتراح، وكان ذلك استجابة لما مارسه عليه عبدالله بن جلوى آل سعود، أمير الأحساء، من ضغوط

مخفر بصيّة:

وأعقبت ذلك مسألة إقامة مخفر للشرطة في بصوة (أو بصيّه كما تسمى عادةً) في صحراء العراق الجنوبية. ويبدو أن هذه المسألة ارتبطت في ذهن الإخوان بمشروع الطريق الجوّى معتقدين أن المقصود بإقامة المخفر هو أن يتحوّل إلى مجمع للصناعات النفطية وقاعدة لنشر الاتجاهات والنزعات الأوروبية في بلادهم. وبلغت معارضة الإخوان درجة من الشدّة اضطر معها ابن سعود إلى تقديم احتجاج على إقامة المخفر استنادا إلى أنه يعتبر خروجًا على حكم المادة الثالثة من بروتوكول عقير، وهو زعم ما كان ليخطر لابن سعود على بال لو أنه يفكر بعيدا عن ضغوط الإخوان، لأن المخفر يقع على بعد خمسة وخمسين ميلا عن أقرب نقطةٍ من المنطقة المحايدة العراقية، وبالرغم من تصّرف ابن سعود على هذا النحو، إلاّ أن وجود المخفر ساعد على توسيع الهوّة التي تباعد بينه وبين زعماء الإخوان، وأخذ فيصل الدويش، الذي شرع الآن في شن حملة دعائية ضد ابن سعود، يؤكد أن هذه المسألة هي الدليل على أن ابن سعود باع حقوق بلاده للبريطانيين،

وبتحريض من فيصل، بدأت القبائل تلحّ على ضرورة إعلان الجهاد ضد العراق الذي يقال إنه يتحالف مع نفس الصديق البريطاني غير الجدير بالثقة، ويمارس هو نفسه العديد من السياسات التي تتعارض مع الشريعة.

مؤامرة فاشلة:

ولم تقتصر مشاعر السخط التي بدأت تتراكم ضد ابن سعود عند قبائل الإخوان وحدها، بل كان من بين أعضاء أسرته نفسها من وقف منه موقف المعارضة، كما كان مكروها في الحجاز كغاز أجنبي يدين بعقيدة معادية، وفي صيف ١٩٢٧، اكتشفت مؤامرة لاغتيال ابن سعود في الرياض واغتيال قريبه عبدالله بن جلوى في الإحساء، ولم يتم القضاء عليها إلاّ في اللحظة الأخيرة، وانتشرت شائعات تقول إن أخاه محمداً، وخالد بن محمد، هما اللذان دبّرا هذه المؤامرة.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة مساء ٥ من نوفمبر ١٩٢٧، هاجمت مجموعة تتكون من حوالي الخمسين فردا من مطير، تحت قيادة الشيخ مطلق السور، أحد نوابِ فيصل الدويش. مخفر الشرطة في بصيّة وهو لا يزال قيد البناء ولا يوجد به إلاّ ستة من رجال الشرطة وموظف مدني واحد واثنا عشرة من العمال وسيدّة واحدة. باغتهم المغيرون تحت جنح الظلام فقتلوهم جميعًا ماعدا أحد رجال الشرطة أصيب بجراح. كما أفلت من الموت رجل شرطة آخر تصادف تكليفه بالعمل في موقع آخر في ذلك اليوم، وكان هو أول من أخبرني بهذا النبأ المزعج في أبوغار. وفي صباح ٦ نوفمبر خرجت طائرات الاستكشاف في عدّة طلعات فوق بصيّة وجنوب غرب المنطقة المحايدة العراقية لاكتشاف مكان المغيرين. ولكنها لم تنجح في مهمتها، وتمكن المغيرون من الهروب واجتازوا حدود نجد. وكان فيصل الدويش هو الرأس المدبّرة لهذه الغارة رغم محاولته – في حديث بيني وبينه في عام ١٩٢٩ – أن يلقي باللائمة على ابن سعود.

وتمخض هذا الهجوم الذي لم يكن له أي مبرر عن عدة نتائج منها تأجيل المؤتمر الذي كان من المقرر انعقاده في الكويت في ٢٠ نوفمبر ويحضره وفد من العراق ووفد من نجد – ويترأسه الميجر مور، الوكيل السياسي، ونظرًا لتعدد الدعاوى التي أثارتها القبائل الكبيرة في البلدين ضد بعضها الآخر، تبيّن عدم جدوى المحكمة الخاصة التي نصت معاهدة بحرة على تشكيلها، ووافقت كل من العراق ونجد على التخلي عن جميع الدعاوى التي أثارتها القبائل على أن

يتولى مؤتمر الكويت البتّ فيها بدلاً من المحكمة الخاصة، وكان الهدف من هذا المؤتمر هو التوصل إلى اتفاق يلزم الطرفين بالتخلي عن الدعاوى القائمة ومناقشة الإجراءات التي تتبع عند معالجة ما يثار من دعاوى مماثلة في المستقبل.

وصل الشيخ حافظ وهبه، وهو مصري على جانب كبير من الكفاءة والحنكة (سفير العربية السعودية في لندن فيما بعد) إلى الكويت في ١٨ نوفمبر ليمثل نجد في المؤتمر. وكان ابن سعود قد أبلغ بريطانيا في ذلك الوقت بضرورة تأجيل المؤتمر إلى أن ينتهي من معاقبة المسئولين عن الغارة وحصول الجرحى وأهالي القتلى على ما يستحقّون من تعويضات، وتوفير الضمانات اللازمة لمنع وقوع غارات أخرى في المستقبل داخل أراضي العراق.

وفي ٢٦ نوفمبر، وصل إلى الكويت تقرير يقول أن مخيما صغيرا للعوازم بالقرب من الحدود الجنوبية للأراضي الكويتية صدرت له التعليمات سرًا ليتحرك لمسافة أبعد في اتجاه الجنوب بعيداً عن الطرق نظرًا لما يعتزم الإخوان شنّه من إغارات داخل أراضي الكويت، وعلى الفور، تم تحذير جميع البدو النازلين بالقرب من هذا الموقع، وأخذت دوريات السيارات تخفر الطرق لمراقبة الموقف عن كثب. وبالرغم من كل الاحتياطات، نجحت مجموعة من الإخوان يبلغ عددها أربعة آلاف شخص، يقودهم تراحب بن شقير الدويش وأحد أبناء سعود بن لامي، في صباح ٤ ديسمبر، في شن غارة على برّ الكويت في أم الرمم، على بعد حوالي سبعة أميال شمال شرق الجهرة. وما أن بلغ هذا النبأ الكويت حتى تمت تعبئة الرجال وهرعوا إلى أم الرمم راكبين السيارات ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان، فقد أفلت المغيرون الذين سلبوا عددا كبيرا من الجمال.

وبعث الشيخ أحمد، شيخ الكويت، عدة رسل يحملون خطابات منه إلى ابن سعود للشكوى ضد هذا الهجوم الذي تعرض له رعاياه.

وأدّى الوضع غير المستقر في البادية، والشائعات التي أخذت تتردد كل يوم منذرة بأفدح الأخطار، إلى قلق وتوتر شديدين في مدينة الكويت؛ فأعيد بناء السور في الأماكن المحتمل تعرضها للإغارة مع فرض الحراسة عليه طوال الليل – واستمر هذا الوضع حتى نهاية العام. كما استخدم الجنود المرتزقة أيضًا لتشكيل حامية للجهرة، بلغ عددها ما يزيد على الثلاثمائة جندي، بالإضافة إلى البدو الذين ينزلون بالقرب منها.

وفي صباح ٨ ديسمبر، قام الشيخ حافظ وهبة بزيارة للميجر مور أبلغه

فيها أنه تلقّى رسالة من ابن سعود، وردت طيّ برقية صادرة من البحرين، يطلب منه فيها أن يبلغ الميجر مور بضرورة إحاطة فخامة المندوب السامي بالعراق بأن قلاقل واضطرابات شديدة الخطورة بدأت في نجد، وأنه (أي ابن سعود) سمع، للأسف، أن قوة من الإخوان تزحف متجهة إلى الشمال ضاربة عرض الحائط بأوامره. كما وجه ابن سعود تحذيراً مماثلا لشيخ الكويت.

وفي صباح اليوم التالي تعرضت ثلاث طائرات بريطانية كانت تقوم بدورية فوق المنطقة المحايدة العراقية للضرب بالنيران المكثفة من جانب مجموعة من راكبي الجمال يبلغ عددها ثلاثمائة مقاتل، عند مشارف أم العبيد، فأصيب أحد الأخصائيين القائمين بتشغيل أجهزة اللاسلكي بجراح. وعلى الفور هاجمت مدفعيتنا هذه القوة المعادية.

وتمكنت الطائرات التي أرسلت في نفس اليوم من بوصيّة من اكتشاف قوة يبلغ تعدادها ستمائة، ومعهم الجمال، عند الرخيمية وأيضا بالقرب من جليدة (المنطقة المحايدة العراقية) تتحرك بسرعة صوب الجنوب، فهاجمتها وأوقعت بها خسائر فادحة، وكانت هذه المجموعة قد هاجمت قبل بضع ساعات مخيمات آل خالد، وهم رعاة المنتفق بالعراق، وقبيلة ظفير البدوية شمال شعيب الأمة، وكان المغيرون من مطير كما كانت الحال في المرات السابقة.

وعبر فيصل الدويش الحدود العراقية على رأس قوة في ٢٢ ديسمبر، وأغار على قبيلة آل الزياد، وهم من الرعاة، وبعض فروع من شمرّ في الجوخة على بعد ٣٥ ميلا شمال غرب بير أنصاب في الركن الغربي من المنطقة المحايدة العراقية، وكان عدد القتلى كبيرا، خاصة من آل الزياد، وبعد ذلك اتجه صوب الشمال الغربي لمهاجمة الدهامشة الذين ولوا الأدبار أمامه وتمكنوا من الإفلات، ثم اتجه أخيرا صوب الجنوب مرة أخرى، وظلت كل تحركاته اللاحقة حتى نهاية العام في طيّ الكتمان.

وكان من الطبيعي أن يؤدى شن هذه الغارات، وعلى هذا النطاق الواسع، تحت قيادة فيصل الدويش وبمشاركة رجال من مطير، وليس فقط بدون إذن من ابن سعود بل وفي تحدٍ سافر لأوامره، كان من الطبيعي أن يؤدى كل ذلك إلى انتشار الشائعات والأقاويل المبالغ فيها حول حقيقة الأوضاع في نجد. ويبدو أن البعض تصوّر أن ثمة قبائل أخرى أيضًا، وعتيبة على وجه الخصوص، تتحدّى سلطة الملك، ولكن استنادا إلى أكثر مصادر المعلومات المتاحة في أواخر ١٩٢٧ جدارة

بالثقة، كانت مطير وحدها هي التي شقت عصا الطاعة، أما القبائل الأخرى فالتزمت الهدوء. وكانت الفكرة العامة السائدة بين القادرين على وزن الأمور في أناة والحكم عليها حكمًا صائبا هي أن ابن سعود سيتمكن عمّا قريب من ترسيخ أقدامه في البادية، لكنه سيسعى لتحقيق ذلك بالطرق السلمية لأنه ليس من الفطنة أن ينزل أي عقاب بمطير.

وفي هذه الأثناء، أفادت الأنباء أن قوة خرجت من الأحساء تنفيذًا لأوامر ابن سعود لتتولى مهمة المحافظة على النظام بين القبائل، وأنها وصلت إلى المراغة، وهي منطقة معروفة بكثرة آبارها على بعد مائة وخمسةٍ وستين ميلا جنوب الكويت، حيث تتمركز الكتلة الأساسية من العوازم، كما ترددت الأقاويل أيضًا بأن طابورا آخر توجه إلى نفس الموقع من حائل.

وفي أوائل يناير ١٩٢٨ عاد الرسل الذين بعث بهم الشيخ أحمد، شيخ الكويت، إلى ابن سعود بعد غارة تراحب بن شقير ومعهم ردّ يعبرّ فيه ابن سعود عن أسفه ويعد بالسيطرة على الموقف; كما تم إبلاغ هؤلاء الرسل بأن هناك قوة صدر إليها الأمر، وخرجت بالفعل من الأحساء تحت قيادة فيصل بن عبدالله بن جلوى آل سعود، للتصدي لابن شقير، ولكن هذا الوعد لم ينفذ، إذ عَمَد ابن شقير إلى إخلاء قريته، جارية العليا، لفترة مؤقتة، ثم انسحب ابن جلوى في فبراير.

وفي مساء ٢٧ يناير، وصلت أنباء إلى الكويت بأن على بن عشوان، من أولاد واصل فرع البوريه من آل مطير، أغار على عرب برّ الكويت في أم رويسات على رأس قوة من ثلاثمائة وخمسين من راكبي الجمال وخمسين فارسًا، على بعد ثمانية وثلاثين ميلاً شمال غرب الجهرة، فقتل ثلاثة رجال واستولى على عدد كبير من الجمال والأغنام، وعلى الفور، تم حشد جميع السيارات المتوفرة في الكويت ليركبها الرجال متجهين إلى الجهرة في نفس الليلة، مع تكليفهم بالسير إلى الرقعي، على بعد تسعين ميلا في اتجاه الغرب والجنوب الغربي، بمجرد أن تسمح الرؤية لهم بالتحرك من أجل قطع طريق التراجع على المغيرين. ونجح الكويتيون في تحقيق ذلك، وفي الساعة الرابعة والنصف من صباح يوم ٢٨ يناير، وصلت إلى الرقعي خمس عشرة سيارة سليمة لم تمسّ من السيارات الخمسة والعشرين التي خرجت من الكويت، وهو إنجاز رائع إذا وضعنا في اعتبارنا أنه

لم تكن هناك أي طرق معبدّة بعد الجهرة وأن السيارات كانت محمّلة بما يتجاوز طاقتها، ويركب كلاً منها ما لا يقل عن تسعة رجال. وعندما التقى الكويتيون بالمغيرين هاجموهم على الفور، ورغم أنه لم يكن في حوزتهم غير خمسة وسبعين بندقية، إلا أنهم كانوا أفضل تسليحًا من المغيرين الذين كانت السيارات بالنسبة لهم - بالإضافة إلى ذلك - عنصرا جديدا يستخدم في الحرب لأول مرة. وكانت النتيجة هي تمكن القوات الكويتية من إلحاق خسائر جسيمة في الأرواح بين المغيرين وإجبارهم على التخلي عن جزء كبير من عتادهم. أما خسائر الكويتيين فكانت طفيفة رغم إصابة قائدهم الشيخ على الخليفة الصباح بجراح خطيرة.

مصرع علي السالم:

وبعد انتهاء المعركة الرئيسية، وصل إلى ساحة القتال الشيخ علي السالم الصباح، ابن المرحوم الشيخ سالم والفارس المغوار صعب المراس، بعد أن تأخر نتيجة لعطل أصاب السيارة التي استقلها، فكاد أن يشتعل غيظا لعدم مشاركته في النزال. وفي تحدٍ مباشر لكل الأوامرِ والتعليمات، أصرّ على مواصلة القتال فانتهى الأمر به هو والمجموعة التي التفت حوله إلى الوقوع في شرك في الباطن حيث استمروا في القتال حتى نفدت ذخيرتهم فاستسلموا، فذبحهم المغيرون ذبح الشاة دون تردد. ولولا هذا الحادث المؤسف لكان نجاح القوة الكويتية نجاحًا لم يسبق له مثيل.

بلغت خسائر الكويت أحد عشر قتيلا وأحد عشر جريحًا، توفي أحدهم بعد فترة، بينما تكبدت مطير بكل تأكيد ما لا يقل عن خمسة وثلاثين قتيلا، واضطرت القوة الكويتية إلى التخلي مؤقتا عن أربع سياراتها ولكنها استعادتها فيما بعد، والجدير بالذكر هنا أن إحدى هذه السيارات وضعت في أيدي الإخوان، ورغم ذلك عُثِر عليها سليمة تمامًا رغم محاولاتهم لتخريبها، وذلك لجهلهم بمكوناتها وتركيبها بالطبع، ولم تصب إلا ببعض الدمار في هيكلها وأبوابها.

وحددت الطائرات البريطانية موقع المغيرين في يوم، ٢٩ وكان على بعد خمسة عشر ميلا شمال حفر الباطن، وفتح المغيرون نيرانهم على الطائرات، فردّت بقصفهم بقنابلها وإطلاق الرصاص عليهم من البنادق الآلية. ثم هاجمت

المغيرين مرّة أخرى على بعد ثمانية أميال جنوب حفر الباطن بعد ظهر يوم ٣٠، فسقط منهم قتلى في المرتين.

وفي ١٩ فبراير تعرضت بعض طرق الجوارين، من المنتفق، إلى جانب بعض القبائل الأخرى، للهجوم بالقرب من جريشان في الباطن على بعد حوالي الخمسين ميلاً جنوب غربِ الزبير. وكانت القوة التي شنت هذا الهجوم تتكون من ألف جمل يمتطي كلا منها اثنان من الإخوان بالإضافة إلى عدد كبير من الفرسان، حتى بلغ إجمالي حجم هذه القوة ألفين وثلاثمائة من المقاتلين على الأرجح، تحت قيادة فيصلٍ الدويش. وبلغت خسائر القبائل العراقية ستة وعشرين قتيلا وثمانين جريحاً، إلى جانب سلب مائة وعشرين حمارا وحمل ألف وثمانمائة من الأغنام.

وفي نفس اليوم، اكتشفت طائرة استطلاع موقعين تتجمع عندهما مجموعتان من المغيرين، إحداهما كبيرة على بعد عشرة أميال جنوب جريشان، والأخرى أقل عددا بالقرب من الرقعي. وبعد فترة، اكتشفت طائرة استطلاع أخرى مجموعات متناثرة من المغيرين على مساحة واسعة على مشارف جريشان، وهي لا تكفّ عن السلب والنهب. وهوجمت جميع المجموعات التي أمكن رصدها، فردَت على الطائرات المهاجمة بنيران مكثفة، وتمكنت من إسقاط طائرة اشتعلت فيها النيران وقتل قائدها. وكانت هذه هي الخسارة الوحيدة التي تكبدّها البريطانيون.

وأثناء تراجع المغيرين، هاجمتهم الطائرات مرتين؛ الأولى في ٢٠ فبراير والأخرى في ٢١ فبراير، وكان دويّ القصف مسموعًا بكل وضوح هذه المرة في مدينة الكويت. وفي صباح ٢٤، انطلقت الطائرات من المنطقة المحايدة العراقية عبر حفر الباطن إلى اللصافة، وكان إلى الشمال والشمال الشرقي منها، على بعد خمسة وعشرين ميلا، مخيم ضخم من الخيام البيضاء تتجول حوله الجمال والخيل وقطعان الأغنام. وألقت الطائرات قنابلها على هذا المخيمَ بينما توجه بعضها الآخر إلى اللصافة نفسها وقصفها. ولم تتحقق النتائج المرجوّة في أي مكان خاصة وقد تبين أن فيصل الدويش كان مقيما بالفعل باللصافة وغادرها صباح يوم القصف نفسه متجها إلى مسقط رأسه في الارطاويه قبل بدء الهجوم مباشرة.

سلطان بن حميد:

وبعد ذلك، أفادت التقارير أن سلطان بن حميد، شيخ قبيلة عتيبة الشهير، دعا زعماء الإخوان الآخرين للالتقاء به في ٧ مارس في شقرة، على بعد تسعين ميلا جنوبي الارطاويه، من أجل الإعداد لغارة مشتركة ضخمة، وأكدَ هذا النبأ أسير وقع في أيدي الكويتيين ينتمي لمطير كان ضمن مجموعة تطلق النيرانٍ على بعض السيارات البريطانية المسلحة في حفر الباطن، وكان من المفترض، وفقا لما ذكره هذا الأسير، أن يقود الدويش غارة مشتركة بعد شهر رمضان، الذي ينتهي في ٢٢ مارس، ولكن ابن حميد أصرَّ على البدء فورا. ويقال إنه كان من المقرر أن تكون الغارة على نطاق واسع للغاية، وأن تكون البصرة هي الهدف.

ومهما يكن من أمر، فهذه الغارة لم يقدَّر لها أن تتحقق، وتبين فيما بعدِ أنه بالرغم من مغادرة ابن حميد بالفعل لقريته الغطغط وفقًا للخطة المقررة، إلاَ أنه لم يصل إلاَ إلى شمس، على بعد سبعين ميلا شمال غرب الرياض، حيث باغته خالد بن لؤي، وهو من أسرة الشريف في الحجاز، وأحد كبار زعماء الإخوان وكان قد وصل إلى الرياض منذ عدة أيام ثم خرج الآن، ليتحدث باسم ابن سعود، لمحاولة إقناع ابن حميد بالعودة. ونجح مؤقتا، ورجع ابن حميد إلى قريته غطغط ولكن بعد أن ترك رايته في شمس.

وقام ابن حميد بزيارة الدويش في الارطاوية في ٢١ مارس واقترح عليه بدء الغارة المشتركة على الفور. ولكن مطير كانوا على غير استعداد للتعاون بعد كل هذا القتال الذي خاضوه حتى أصابهم الملل.وبناء على ذلك، وفي ٢٤ مارس، غادر ابن حميد جراب، على بعد خمسة أميال شمال غرب الارطاويه، عاقدا العزم على مهاجمة المخفر العراقي في السلمان. ومرة أخرى نجح ابن سعود في منع الغارة، وكان قد وافق في ذلك الوقت على دعوة بريطانيا له لمناقشة القضايا الهامة مع السير جلبرت كلايتون، عندما أرسل إلى ابن حميد كلا من سعود العرافة آل سعود والشيخ العنقرى - وهو من رجال الدين المشهورين، واللذين لحقا به في عجيبة واقنعاه بعد لأى بكفَّ يده والتفاهم مع ابن سعود.

وتحقيقا لهذا الغرض غادر ابن سعود الرياض في ١٠ أبريل متوجها إلى بريدة، وفي يوم ١٤ التقى فيصل الدويش بابن حميد في جالا، على بعد خمسة وعشرين ميلا شمال بريدة، وبصحبة كل منهما قوة ضخمة من رجال قبيلته،

ابن سعود للقائهم في البادية، وخشي هو الآخر أن يخرج على هذا النحو، ولذلك لم يتحقق اللقاء، ولكن أمكن التوصّل إلى اتفاق مؤقت بعد الجهود التي بذلها كلٌ من سعود العرافة آل سعود وعبدالعزيز بن مساعد الجلوى، حاكم حائل، الذى تعهدّ الإخوان بمقتضاه بالكفّ عن أي أعمال عدوانية ضد العراق في ذلك الوقت، وإطلاق يد ابن سعود للتفاوض مع السير جلبرت كلايتون، وغادر ابن سعود بريدة متجهًا إلى حائل، على الطريق إلى الحجاز، وفي ٢٠ أبريل عاد زعماء الإخوان كلٌ إلى مقرّ إقامته.

وفي هذه الأثناء، في يوم ١٤ أبريل، وقعت غارة على نطاق ضيق على بعد بضعة أميال جنوب غرب وفرة، في المنطقة المحايدة الكويتية، عندما هوجم مخيم للعوازم من جانب مجموعة من المغيرين الوافدين من العراق يعتقد أنهم كانوا تحت قيادة مدباج بن شويربات، سليل أسرة برزان الشهيرة فرع بورية، وهى من مطير، وكانت قد انشقت عن الإخوان ولجأت إلى العراق، ثم بدأت تثير المتاعب بشن الغارات داخل نجد إلى أن أبعدتها الحكومة العراقية عن منطقة الحدود في عام ١٩٢٥ . وحاول عضو آخر من أعضاء هذه الأسرة، وهو على بن شويربات، أن يثير المتاعب في الشهر السابق عندما ادعىّ أنه يتحدث باسم الملك فيصل واتصل بأحد شيوخ عجمان الأدنى مرتبة وكان يعمل في خدمة شيخ الكويت، لاقناعه بشن الغارات داخل نجد. وقد سبق أن نفاه الشيخ أحمد من بلاده لمارسته نفس هذا النوع من النشاط

محادثات جدة:

وصل ابن سعود إلى جدة في ٧ مايو، واستمرت المحادثات بينه وبين السير جلبرت كلايتون من ٩ إلى ٢٠ مايو. وكانت النقطة الأساسية مثار الجدل هي حق العراق في إقامة مخافر للشرطة في الصحراء في مواقع تبعد قليلا عن الحدود، وفي نفس الوقت الذي لم يدافع فيه ابن سعود عمّا فعله فيصل الدويش عندما هاجم مخفر البوصيّة ولم يبرر ما شنّه من غارات، كان يؤكد أن بناء الحصن في هذا الموقع يتعارض تمامًا مع المادة الثالثة من بروتوكول عقير، وقال إن هذا هو ما أثار مطير ودفعها إلى ما أقدمت عليه من أعمال، وأضاف أنه يعتبر مهاجمة الطائرات البريطانية للقبائل داخل أراضى نجد انتهاكا مباشرا لأحكام معاهدة المحمّرة وبروتوكول عقير؛ وأعلن، بالإضافة إلى ذلك، أن القوة التي

وجهها لمعاقبة مطير ومنعها من شن الغارات تعرضت هي نفسها للقصف بالقنابل من جانب الطائرات البريطانية.

وبكل لباقة، طرح السير جلبرت كلايتون وجهة النظر البريطانية، مؤكدًا أن حكومة صاحب الجلالة ملتزمة بالتمسك بالمبدأ القائل بأن كلا من الحكومتين لها الحق في اتخاذ ما تراه من إجراءات من أجل السيطرة على الصحراء والدفاع عنها داخل حدودها؛ ولكنه لم يتمكن من إقناع ابن سعود بتغيير رأيه الخاص بما يراه انتهاكا لحكم المادة الثالثة من البروتوكول. وطالب ابن سعود بإزالة المخافر التي شيدت في بوصيّة والسلمان وغيرهما من المواقع، وكان من الصعب تحويله عن موقعه سواء كانت المبررات التي يستند إليها مما يمكن قبوله أو مما يتعذر الأخذ به، وكانت القبائل التابعة له تشعر بقوة موقفها في مسألة هذه المخافر التي كانوا يعتبرونها راس الرمح التي تعد للتغلغل في نجد نفسها، إلى الدرجة التي ما كان ابن سعود ليضمن معها استمرار سيطرته عليها إذا سلم بالقول بأن من حق العراق بناء هذه المخافر.

وهكذا انتهى المؤتمر دون التوصل إلى اتفاق حول القضية الرئيسية، ولكن ابن سعود انتهز الفرصة ليؤكد من جديد استمرار مشاعره الطيبة نحو بريطانيا .

وفي أوائل أغسطس (من ٢ إلى ٩) جرت محادثات لاحقة بين الطرفين رفض خلالها ابن سعود مرة أخرى الموافقة على التفسير البريطاني للمادة الثالثة، وقال إنه أحاط قبائله علمًا بالأحكام التي تنصّ عليها هذه المادة وأنها – أي هذه القبائل – تعتمد عليه لإزالة المخافر محلّ النزاع. وأضاف ابن سعود أنه لو سلم بما يطالب به الجانب البريطاني فسوف يفقد أي سيطرة له على أهل بلده وعلى الإخوان، وأنه ليس أمامه إلاّ أن يختار بين مخاصمة الحكومة البريطانية، وهو ما لن يقدم عليه بأي حال، أو أن يخبر قبائله بأن الاتفاقية التي سبق أن وقعها وأحاطهم علمًا بها لا تساوى شيئا.

وطوال هذه المفاوضات، وبالرغم من الطريق المسدود الذي انتهت إليه، كان من الواضح أن موقف ابن سعود هو موقف الصداقة الحقه والاحترام للحكومة البريطانية. كما كان من الواضح أيضًا أنه مهتم كلّ الاهتمام بألاّ يؤدى إصراره وتشدده إلى أي مساس بالعلاقات الطيبة القائمة بين بلاده وبريطانيا ولكنه، على حدّ قوله، لا يرى أمامه إلا حلاً يؤدى، مع الأسف، إلى إضعاف قبضته على قبائله.



الملك عبدالعزيز وقد أشير إليه بالسهم

الملك عبدالعزيز يرقص في الوسط

الملك الحالي سعود بن عبدالعزيز آل سعود في الوسط إلى اليسار

الأمير محمد بن عبدالعزيز آل سعود في الوسط

مشاهد رقصة الحرب في الرياض

الملك يقرر:

لم يكن هناك من يعرف أكثر من الملك عبدالعزيز آل سعود أن ما شهده بيت آل سعود من صعود وانحدار إنما يرجع أساسا لسببين:

(أ) أن رؤوس الدولة كانوا قانعين بأن يظلّوا حكاما على الطريقة البدوية..

(ب) أن التطرف الديني لأهل نجد لم تُحكم السيطرةُ عليه بعد.

ولذلك قرر مواجهة السبب الأول (أ) بالإجراءات الآتية:

١- تشكيل حكومة من النمط الحديث، ومجلس للدولة، وزارات متعددة. وتعيين رؤساء للإدارات وسفراء معتمدين لدى الدول المجاورة، الخ.

٢- إقامة شبكة من المحطات اللاسلكية في جميع أنحاء الدولة من أجل إحكام السيطرة على الحكام المحليين والاتصال المستمر بينه وبينهم.

٣- إقامة جيش مدرّب، وخطوط للسكك الحديدية، والحصول على طائرات وسيارات. وإنشاء شبكة واسعة للنقل بالسيارات في جميع أنحاء الدولة، جنبا إلى جنب مع مدّ الطرق المعبدّة ومهابط الطائرات حتى يتمكن من السيطرة على العدد الضخم من سكان نجد من البدو، والذين كانوا دائما بمثابة كعب أخيل بالنسبة لأي حاكم.

ومن أجل مواجهة السبب الثاني (ب)، عقد العزم في عام ١٩٢٨ على تقليم أظافر الإخوان والحدّ من قوتهم، رغم نصيحة أقرب أصدقائه بألاّ يسلك هذا السبيل؛ وهو سلاح كان هو أول من استخدمه عندما صممّ على أن يصبح سيد شبه الجزيرة العربية الذي لا ينازعه أحد. وعندما كانت هناك مناطق لازال من المستهدف غزوها، كان في إمكانه أن يحكم قبضته على مقاتليه وأن يشغلهم بمهام تستنفد كل طاقتهم؛ أما الآن، فقد تم ضم عسير وجبل شمرّ والحجاز وواحة الجوف ولم يعد هناك جديدٌ في هذا المجال، ولذلك كان حتمًا عليه أن يتصدّى لإخماد نار كان أغلب الظن أنها أعتى من أن تنطفئ.

والأرجح أن هذه المشكلة كان من الممكن مواجهتها بنجاح في تاريخ سابق لولا ما فرضته واقعة بوصيّة على مجرى الأحداث وما أسفرت عنه التطورات آنذاك من ازدياد خروج الإخوان عن سيطرته واندفاعهم لشن غاراتهم المكثّفة داخل العراق والكويت، وحتى وقتنا الراهن، مازال زعماؤهم يصرّون على ادعائهم

بأن ابن سعود نفسه هو الذي أصدر الأمر بتنفيذ أغلب هذه الأعمال العدوانية، وأنه كان لا يزال في ذلك الوقت زعيمهم الديني والعسكري الذي يدين له الجميع بالولاء ويعترفون بقيادته، ومهما يكن من أمر، فقد بدأت المشاعر المعادية لابن سعود تتراكم وتتخمّر بين قبائل الإخوان في نجد، كما امتعضت مطير إزاء السياسة التي ينتهجها لمنع الإغارات المتبادلة بين القبائل، أو عبور حدود الكويت والعراق لشن الغارات داخلها. ثم اعترضوا بشكل أكثر حدّه على استخدامه للاسلكي والسيارات، الخ، وحنقوا أشد الحنق عندما قصفتهم الطائرات البريطانية وقالوا أن إمامهم السابق تحولّ إلى أداة في يد البريطانيين وأنه هو الذي طلب منهم، لخوفه من الإخوان، أن يضربوهم بطائراتهم؛ وأنه لم يتنكر لهم ويأمر بردّ كل الأسلاب لأصحابها إلاّ تحت ضغط البريطانيين واحتجاجهم .

وكانت نذر الخطر تتجمع لتؤكد احتمال نشوب ثورة عامة تشترك فيها قبائل نجد تحت قيادة فيصل الدويش وسلطان بن حميد، نظرًا لما كان يطالب به هذان الزعيمان من أنه على ابن سعود أن يثبت صدق إيمانه بالله بإعلان الجهاد ضد العراق.

وأخذ ابن سعود يتحسس موقع قدميه بكل حذر؛ فهو لا يستطيع أن يغامر فتحيق به الهزيمة إذا تعجّل الهجوم على مطير وعتيبة والعجمان، والتي توحدَت وضمت صفوفها تحت قيادة ضيدان الحثلين، في حركة متراصّة ضده. وبدأ يلعب بعامل الوقت.

مؤتمر الإخوان:

عندما عاد ابن سعود إلى الرياض قادمًا من جدّة في ٨ سبتمبر، بعث برسله إلى جميع الشخصيات البارزة في نجد، وإلى زعماء الإخوان وشيوخهم، يدعوهم لحضور مؤتمر في الرياض في أواخر سبتمبر، واستجاب الجميع لهذه الدعوة فيما عدا فيصل الدويش، وسلطان بن حميد، وضيدان الحثلين. واكتفي الدويش بإرسال إبنه الأكبر عبدالعزيز، أو عُزيّز كما كان يطلق عليه عادة، ليمثله، ولكن ابن سعود رفض أن يلتقي به في باديء الأمر، مطالبا أن يحضر الدويش بنفسه، كذلك ابن حميد والحثلين.

وتأجل انعقاد المؤتمر فترة طويلة على أمل إقناعهم بالحضور.، ولكنه

انعقد بدونهم في نهاية الأمر. وعقابا لهم على هذا التحدّي، أصدر ابن سعود أوامره بعزلهم من مشيخة قبائلهم وهو إجراء لم يكن يعنى شيئا من الناحية العملية، ولم يأخذه أحد مأخذ الجد في نجد.

وتقدم الإخوان بمطالب ثلاثة:

١- إلغاء الضرائب التي فرضها ابن سعود مؤخرا على القبائل، زيادة على الزكاة التي تتمشى هي وحدها مع الشريعة.

٢- منع استخدام السيارات والبرق واللاسلكي وغيرها من الاختراعات التي تتنافى مع الدين.

٣- إزالة المراكز الحدودية العراقية في سلمان وبصيّة.

ووافق ابن سعود على المطلب الأول، أما بالنسبة للمطلب الثاني فردّ بأنه يعتبر مثل هذه الأشياء أدوات نافعة حقًا لكل مؤمن، وأضاف أنه على استعداد، رغم ذلك، لتدمير كل السيارات وأجهزة الهاتف واللاسلكى، الخ التي يملكها وأن يستغني عنها في المستقبل ولكن بشرط أن يدمرّ الإخوان في نفس الوقت كل أسلحتهم وذخيرتهم التي هي بدورها من اختراع وصناعة من هم على غير دين المسلمين، وناقش الزعماء الدينيون المسألة وانتهوا إلى أن هذه الأشياء جميعا تتساوى في تعارضها مع الشريعة.

وأما المطلب الثالث، والذي كان من الواضح أنه لا يمكن لابن سعود أن يوافق عليه، فهو الذي أثار أغلب المشكلات، وكان خير ما يفعله ابن سعود لإقناع الإخوان بالمحافظة على السلام وعدم اتخاذ أي خطوات ضد مراكز الحدود العراقية لمدّة شهرين، هو تمكينهم من بذل محاولة أخيرة للحصول على احتياجاتهم عن طريق المفاوضات الودّية. وبالإضافة إلى ذلك، لم يكن أمامه إلاّ أن يعدهم بأنه إذا فشلت محاولتهم هذه، فسوف يقف إلى جانبهم قلبًا وروحا في أي هجوم على المراكز العراقية، وهو وعد لاشك أنه لم يكن يزمع الوفاء به بأي حال.

وطالب ابن سعود بدوره بأن يمارس الإخوان تجارتهم، بيعًا أو شراءً في الأماكن التي يحددها لهم بنفسه. ووافق الإخوان، وكان الهدف من هذه الخطوة، بالطبع، هو منع التجارة مع الكويت، والتي لم يكن على استعداد لأن يسمح بها

لأسباب مالية خاصة به. وكان عبدالله بن جلوى، أمير الأحساء، قد بادر بفرض القيود على التجارة مع جبيل والقطيف، من أجل إغراء القبائل بالمجيء إلى الهفوف، ولكن هذه الخطوة لم تسفر إلاّ عن تزايد توجههم صوب الكويت، وما أن حلّ شهر أكتوبر حتى كانت مطير وغيرها من القبائل تتجاهل هذا الحظر وتتوجه إلى مدينة الكويت علنًا ودون مواربة، ولكِن هذا المسلك توقف إلى حدٍ كبير بعد المؤتمر، وأعقب ذلك فرض الحظر عنوة بتخصيص قوة أرسلها ابن جلوى لهذا الغرض.

وبعد أن نجح ابن سعود في التغلب على جانب كبير من المعارضة الموجهّة ضده، أنهى أعمال المؤتمر وهو يدرك أنه اصبح يحظى بما يكفي من المساندة لإخضاع مطير وعتيبة والعجمان وإنزال العقاب بها، وتفرق عبدالعزيز الدويش وعدد من زعماء الإخوان بعدان خرجوا محملين بكميات وافرة، بل ومبالغ فيها، من الهدايا، والأموال، والأسلحة، والجمال، الخ.

ثم أبلغ الكولونيل لوتش، الوكيل السياسي بالبحرين، عن طريق ممثله هناك، أنه يودّ لقاءه في الأحساء. وقبل لوتش الدعوة، ولكن ابن سعود سرعان ما أرسل في ٥ ديسمبر يطلب منه عدم الحضور إلى الأحساء في ذلكِ الوقت، ولذلك لم يعقد أي لقاء بينهما، وفي ذلك الوقت على وجه التحديد، تلقى ابن سعود، عن طريق الوكيل البريطاني في جدّة، رسالة تتعلق بمفاوضاته مع السير جلبرت كلايتون، أُبلغ فيها أن الحكومة البريطانية وافقت، من ناحية المبدأ، على الاقتراح الخاص بطرح النقاط محل النزاع للتحكيم. وربما كان هذا هو الذي دفعه لإرجاء لقائه مع الكولونيل لوتش، أو ربما كان السبب هو بوادر التوتر والمواقف المناوئة التي أصبحت بادية للأعين بين قبائله القوية.

وفي بداية ديسمبر، انتشرت في الكويت شائعات تقول أن صاهود بن لامي، وهو من مطير، شق الطاعة على نحو ما منذ قريب، وأنه خرج من مؤتمر الرياض دون استئذان، وأنه طلب السماح له بشن غارة ولكن فيصل الدويش منعه من القيام بها طوال شهري الهدنة التي اتفق عليها. ثم وصل إلى الكويت رجلٌ سبق أن زار الرياض في ٩ ديسمبر وقال إنه سمع منذ بضعة أيام أن الدويش أبلغ ابن سعود أنه يستعد للخروج في غارة، وكان من المفترض أن يكون ذلك بعد انقضاء الشهرين. وفي ٣٠ ديسمبر، وصلت إلى الكويت أنباء تفيد أن الاستعدادات

تجرى لشن الغارة؛ وكان بن حثلين قد انضم الى جفران الفقم في جارية، بينما يزحف الدويش من الرطاوية، وقطع ابن لامى شوطا بعيدا على الطريق.

وأرسل الشيخ أحمد، شيخ الكويت، الدوريات لمراقبة الوضع على حدوده، رغم اعتقاده بأنه ليست هناك إلا مخاوف ضئيلة فيما يتعلق باتخاذ أي خطوة ضد قبائله، ولكن ربما باستثناء ما يمكن أن يقدم عليه بن حثلين إذا تصرّف منفردًا واعتبر المخافر العراقية في الصحراء هدفا يجب التصدّي له قبل سواه.

ووقعت بالفعل غارة على نطاق ضيق قادها ابن لامى ضد جماعة من شمر في منطقة الحجارة، غربي المنطقة المحايدة العراقية، ولكن لم تكن لها أي أهمية سياسية لأنه لم تعقبها أي خطوات أخرى. وربما وجدنا تفسيرا لذلك فيما ذكره رجل جدير بالثقة غادر الرياض في ٢١ ديسمبر عندما روى أنه كانت هناك مناقشات استمرت بعض الوقت حول شن الغارات، وأن ابن سعود أرسل إلى ابن حميد يطلب منه أن يلتقي به في قرية الغطغط، طالما أنه يرفض زيارة الرياض، وأجاب ابن حميد أنه لا يستطيع الموافقة على ذلك أيضًا، ولكنه على استعداد للالتقاء بابن سعود في البادية إذا أراد. وتم الاتفاق على عقد اللقاء في الشوقى، على بعد تسعة وثلاثين ميلا شمال غرب الرياض، ودعى ابن حميد الدويش وبن حثلين لحضور اللقاء معه.

ولم يكن من المحتمل أن تقع أي أحداث حتى انعقاد هذا اللقاء، ولكن لم يكن أحد يدرى ما إذا كان ابن سعود سيتمكن من إقناع الإخوان بالمحافظة على السلام فيما بعد، وكان الاعتقاد السائد هو أنه سيحاول إقناعهم بالتمسك بالسلام إلى أن ينتهي التحكيم.

الفصل الثالث عشر
تمرد الإخوان ١٩٢٩-١٩٣٠

الإخوان يغيرون على الكويت - الطائرات البريطانية تهاجم الإخوان - سبلة، معركة يكتنفها الغموض - مصرع ضيدان الحثلين - العجمان يرفعون راية الثورة - فيصل الدويش يلقي بكل ثقله إلى جانبهم - ابن سعود في موقف الدفاع - فيصل الدويش يتعهد لي - قتال حتى الموت من أجل الماء - الملك يهاجم - نهاية التمرد - فيصل الشبلان يتناول القهوة معي - شروط الاستسلام - وفاة مقاتل بدويّ عظيم - نهاية النزعة العسكرية الإخوانية - ابن سعود يدعّم مركزه.

في أوائل يناير ١٩٢٩، كان الوضع في نجد غامضًا إلى أبعد الحدود. وانتشرت الشائعات، واختلفت في مدلولها، حتى أصبح من العسير تحديد أيها الصحيح وأيها الزائف. ولكن مما لاشك فيه أن العلاقات بين ابن سعود وزعماء الإخوان كانت تزداد توترا بمرور الوقت، بينما تزداد المهمة التي تصدى لها لمنعهم من مهاجمة المخافر العراقية في الصحراء صعوبة يومًا بعد يوم. بل وبلغت به الحال أن وجد نفسه مضطرًا لأن يصدر أوامره للجبيل، والقطيف، وغيرهما من المدن بتدعيم دفاعاتها وتخزين المؤن، كإجراء وقائي تحسبًا لما قد تسفر عنه الأحداث، ومن الناحية الأخرى، كان هناك من المؤشرات ما يقطع بتعمق المشاعر غير الطيبة بين ابن حميد وابن ربيعان، وهما أقوى شيخين بين شيوخ قبيلة عتيبة الكبرى، وما كان ابن سعود ليدع هذه الفرصة تفلت منه دون أن يستفيد منها إلى آخر المدى.

وفي ٢١ من يناير، توجه ضيدان الحثلينن، شيخ عجمان الشهير والقدير، على رأس قوة من أصول شتّى فدخل أراضي الكويت، عاقدًا العزم على شن غارة على قبائل الرعاة من المنتفق التي تضرب خيامها في القطاع الشمالي من الكويت، وكان بصحبته صاهود Sahud بن لامي وعدة بطون من مطير والرشايدة؛ فشنوا هجومهم في اليوم التالي، واستولوا على عدة مئات من الأغنام والحمير، الخ، وقتلوا ستّة من الرعاة، ولسوء الحظ حقا، أنه في هذا الصباح على وجه التحديد، كان مستر هنرى بلكرت، عضو الإرسالية الأمريكية بالبصرة، يقود سيارته متجها إلى الكويت وبرفقته مستر تشارلز.ر. كرين، سفير الولايات المتحدة المفوض السابق

بالصين؛ فهاجمهم عدد من المغيرين، وأشعلوا النيران في السيارة ولقي مستر بلكرت مصرعه.

وفي أوائل فبراير أفادت الأنباء أن فيصل الدويش يسعى للوساطة بين ابن حميد وابن ربيعان، ثم جاء في تقرير وصل في ١٢ من فبراير أنه نجح في التوصل إلى حل يرضى عنه الطرفان، كما عُرف أيضًا أنه توجه إلى جَراب، حيث رفع رايته، انتظارا لانضمام ابن الحثلين والفقم وغيرهم إليه.

ونتيجة لعدم التيقن مما يخبئه الغد، والخوف من أن شيئا كبيرًا سوف يحدث من ناحية نجد، أصبحت الحياة في المناطق الداخلية من الكويت غير آمنة بالنسبة لكل من يلتزم بناصية القانون والنظام، وأخذت العناصر المنحرفة تطلّ برأسها في كل مكان وهي تتحين الفرصة للإغارة أو السرقة أو سلب كل ما يمكن أن تصل إليه أيديها، وأدى تدهور الوضع الداخلي في البلاد إلى إغلاق طريق الكويت - البصرة، وبدأ إرسال البريد وتلقيه عن طريق البحر.

وفي ليلة ١٥-١٦ من فبراير، سرق أربعة عشر جملاً وبعض الأغنام من مجموعة من الظفير تضرب خيامها على مسافة قريبة من الجهرة، وعلى الفور، أمر الشيخ عبدالله الجابر الصباح بمطاردة اللصوص باستخدام أربع سيارات، في صباح يوم ١٦، عاد رجاله يقتادون المغيرين بعد أن قبضوا عليهم واستردوا الدواب المسروقة.

المغيرون يقتربون من المدينة:

وفي يوم ٣ من مارس، استيقظت الكويت على صوت تراشق كثيف بالنيران على بعد بضعة أميال خارج سور المدينة، على طريق الجهرة؛ وتبين أن مخيمًا يتكون من أربعين خيمة لبنى مالك، وهي قبيلة عربية من الرعاة تصل في رحلة الصيف كل عام إلى مشارف البصرة والزبير، تعرضت للهجوم عند الفجر من جانب جماعة يبلغ عددهم حوالي ستمائة رجل من مطير تحت قيادة تريحيب ابن شقير والفقم، وقاتل الرعاة النازلين بالقرب من جليب الشيوخ، على بعد سبعة أميال من مدينة الكويت، قتال الأبطال وتمكنوا من التراجع إلى المدينة، بعد أن لقي سبعة وثلاثون منهم مصرعهم وجرح خمسة بجراح خطيرة، كما فقدوا كل دوابهم التي بلغ عددها ستة آلاف رأس من الأغنام وستمائة وخمسين حمارا، ولم يعد في حوزتهم إلاّ ألف رأس من الأغنام وبضعة حمير. وفقدت ثلاثة أسر منهم كل ممتلكاتها.

وكانت الخسائر في الأرواح بين المغيرين لا تقل، إن لم تكن أكثر، عما كانت عليه بين بنى مالك؛ كما مُنوا بالمزيد من الخسائر في الأرواح أثناء مطاردة الطائرات البريطانية لهم، رغم تمكنهم من الفرار ومع كل الأسلاب. وعامل أبناء مدينة الكويت ضحايا هذه الغارة بكل مودّة وتراحم، وفروا لهم الطعام وجمعوا الأموال لتوزيعها عليهم. وقد أعيد مائة وخمسون ممن ظلوا على قيد الحياة إلى الكويت في زوارق شراعية يوم من ١٣ مارس، أما بقيتهم فوصلوا إليها برًا، ترافقهم قوة للحراسة من سيارات الشرطة، في اليوم التالي.

إعادة الأسلاب:

وفي يوم ٩ تعرضت دورية من عربات الشرطة العراقية لهجوم مفاجئ بالقرب من الحدود الكويتية – النجدية عند الرقعي قام به أربعون من الفرسان، ولكنها تمكنت من دحر المهاجمين وكبدتهم خسائر كبيرة، وارتدت سيارات الشرطة متجهة صوب الشمال، بينما يتعقبها فرسان العدو لمسافة محدودة.

وفي يوم ١٤ من مارس، استولت مجموعة من الفرسان، من قبيلة الزياد العراقية، على قطيعين من الأغنام يبلغ عدد كل منهما خمسمائة رأسًا، من ممتلكات بعض أبناء القبائل الكويتية الذين ضربوا خيامهم على ممر المطلاع بالقرب من الجهرة. ولكن هذه الدواب سرعان ما أعيدت لأصحابها، وعوقب السالبون، نتيجة لتدخل الكابتن جون ب. جلوب، المفتش بصحراء العراق الجنوبية.

وتوضح هذه الأمثلة التي أوردتها فيما سبق مدى تردى الوضع في المناطق الداخلية للكويت في تلك الفترة؛ علمًا بأنني لم أذكر إلا الوقائع ذات الأهمية.

سبلة، معركة يكتنفها الغموض:

وفي ذلك الوقت تقريبًا، تبين أن ابن سعود انتقل إلى القصيم وقد عقد العزم على تسوية الأمر وتصفية الموقف مع قائديه المتمردين ابن حميد والدويش. وكان الأمر قد صدر لابن حميد بإعداد عدد كبير من الجمال سبق أن استولى عليه من عقيل، ولكنه رفض ذلك بكل صراحة، رغم أن الدويش لم يكن قد نزل بكل ثقله مع المتمردين بعد. ولم يقرّه على ما فعل. وعندما واصل الملك ضغوطه على ابن حميد – بعد أن حظي بمساندة الدويش – طالب بتسوية المسألة وفقًا لأحكام الشريعة.

وكانت خطة الرجلين هي أن يضعا ابن سعود في مأزق بطرح ما يثيرون من حجج خبيثة ماكرة، على النحو الآتي:

"أنت، بصفتك الإمام، ناديت بالجهاد ضد الكَفَرة وغير المؤمنين؛ وناديت مرارا بأن العراق، كدولة شيعية، ينبغي أن تدمّر نهائيا، وأن كلَ ما يؤخذ من أهلها حلال. ولقد استشهدت بالقرآن مرة بعد أخرى لتثبت أن أي إجراء تتخذه الصفوة إزاء غير المؤمنين إنما هو عملٍ يستحق كل التقدير. والآن، ها أنت تنصاع لمطالب الإنجليز، وهم من الكفار، وتقول لنا نحن مقاتليك المختارين وسيوف الإسلام أننا أخطأنا وأنه يتعيّن علينا ردّ الأسلاب أو دفع التعويضات. ونحن أمام أمرين: فإمّا أنك دَعِيّ دجّال لا تسعى إلاّ لمآربك الخاصة. أو أن القرآن ليس بالكتاب الصادق. فلندع علماء نجد يحكمون بيننا وبينك".

وقرر الملك مواجهتهما على نفس الأرضية. فدعي لعقد مؤتمر خارج مدينة الزلفي مباشرة شمال وسط نجد. ولكن يبدو أن مخاوفه تزايدت إزاء العواقب التي يمكن أن يتمخض عنها هذا المؤتمر فعدل تمامًا عن فكرة طرح القضية على أي هيئة من رجال الدين الوهابيين. وبدلاً من أن يتحفظ في علاقاته مع البريطانيين تجنبًا لما يوجه إليه من اتهامات في هذا الصدد قرر أن يقطع كل الحبال مع الإخوان. وأن يكون ذلك على وجه السرعة. وبلا رجعة. وربما راودته أيضًا فكرة ضرورة الحصول على المساندة البريطانية لإنجاز هذه العملية الحاسمة.

ونَصَبَ ابن سعود مخيمه ومخيم جيشه عند الزلفي. وأقبل فيصل الدويش الذي نزل إلى الساحة بعده. وبصحبته قوة حراسة محدودة العدد فضرب خيامه في سهل السبلة المكشوف بالقرب من الزلفي. حيث انضم إليه ابن حميد بعد ثلاثة أيام على رأس قوةٍ كبيرة. وضرب خيامه هو الآخر على مسافة لا تبعد كثيرًا عن الدويش. ووفقًا لاتفاق مسبق. ضرب زعيم الإخوان الثالث الكبير، ضيدان الحثلين، مخيمه ومخيم بن شقير وبن لامي بالقرب من جرية في الطرف الجنوبي لمنخفض الشق. على بعد حوالي مائة وثلاثين ميلاً جنوب مدينة الكويت ليتولى حماية الجناح الأيسر للإخوان ضد أي هجوم محتمل يقوم به فهد بن جلوى، ابن أمير الإحساء، الذي حشد قواته شمال هذه المقاطعة. وبكل براعة استخدم ابن سعود قدراته الدبلوماسية لمنع ضيدان الحثلين من الانضمام للشيخين

اللذين شقا عصا الطاعة، خاصةً وأنه قد سبق لابن الحثلين أن رفض حضور المؤتمر اعتقادًا منه أنه نوع من التحدى لسلطة الملك. وظل العوازم الأقوياء في الإحساء على ولائهم لابن سعود.

معركة السبلة:

وتناول فيصل الدويش الطعام مرتين على الأقل على مائدة ابن سعود قبل وصول بن حميد الذي رفض أن يبدى نفس الاحترام نحو الملك. وفي شهر أبريل وصلت الكويت تقارير تقول أنه بعد مناقشة أخيرة مع الدويش، وبعد محاولة فاشلة لإقناع بن حميد بالمجيء إلى الزلفي، دفع ابن سعود بجيشه فجر يوم ٢٩ مارس وهاجم الزعيمين الإخوانيين دون سابق إنذار عند سبلة، وألحق بهما خسائر فادحة. ويبدو أن الدويش كان في غفلة من أمره متوهمًا أن المفاوضات الأولية مازالت مستمرة وأنها ستستأنف في سبلة، بينما كانت المجموعة التي تصاحبه تعد طعام الإفطار، فقتلوا جميعًا دون أي قتال، وأصيب هو إصابة جسيمة في بطنه، أما ابن حميد الذي كان أكثر استعدادًا فتمكن من الهرب وهو يقاتل قتالاً منظمًا أثناء تراجعه.

وتفيد الروايات والأقاويل التي راجت حول هذه المعركة التي اكتنفها الكثير من الغموض، والتي فقد فيها المتمردون مائتين وخمسين قتيلاً، أن صورة ابن سعود اهتزت بعض الشيء في أعين قومه عندما تبين أن هجومه المباغت على الدويش وابن حميد قد جاء بعد تأكيدات مشددة قدمها في الليلة السابقة بأنه سيلتقي بالدويش مرة أخرى لتسوية الأمور وفقًا لأحكام الشريعة.

وتنفيذًا لأوامر ابن سعود، رُحِّل الدويش المصاب بجرح خطير، إلى قريته الأرطاوية، بينما توجه ابن حميد إلى غطغط، فتعقبه عبدالله بن عبدالرحمن شقيق الملك، فاستسلم له ابن حميد دون قتال، فرُحِّل إلى الرياض حيث أُلقي به في السجن، ودُمرت غطغط.

وبعد أن اطمأن ابن سعود لسحق التمرد، وأن فيصل الدويش يموت موتًا بطيئًا متأثرًا بجراحه، خرج إلى مكة ليؤدى فريضة الحج. ويقال أنه بعث قبل خروجه برسالة إلى ضيدان الحثلين يشكره فيها لرفضه الانضمام للدويش وابن حميد في سبلة، ويمنحه الأمان للتنقل حيثما شاء وفي أي مكان.

مصرع ضيدان الحثلين:

قمع ابن سعود الشيخين المتمردين وشتت أنصارهما وصفها أصدقاؤه بأنها الجزاء المستحق بينما وصفها أعداؤه بالخيانة. ويمكننا أن نضع يدنا على جذور التمرد اللاحق الذي قاده الدويش، والذي كبد ابن سعود ثمنًا باهظًا في هذه الخديعة التي لا تليق، خاصة وأن العربي لا ينسى ثأره أبدًا، وكان من المحتمل ألا يبلغ التمرد الجديد ما بلغه من قوة، لولا دخول قبيلة عجمان الساحة ضد الملك نتيجة للتصرفات الطائشة لفيصل بن جلوى، ابن حاكم الإحساء، الذي اشتهر بالغدر والقسوة.

فهد يتعهد بالكف عن العدوان:

ونيتجة لمؤامرات الأمير ابن جلوى، والد فهد، انحسر نفوذ ابن حثلين مؤقتًا بين العجمان، ولكنه استرد زعامته للقبيلة كلها بعد سبلة. وكانت لدى ابن جلوى قوة ضربت خيامها في عوينة، على بعد سبعة عشر ميلا من صرارة حيث تتواجد أيضًا قوات ابن حثلين وقومه من العجمان. ودعا فيصل ابن جلوى قائد القوة، ابن حثلين لمقابلته ومناقشته الرسالة التي يزمع توجيهها إلى ابن سعود، وتعهد له كتابة بالكف عن العدوان وأنه لن يصاب بسوء إذا قبل دعوته. واجتمع ضيدان بقبيلته وأطلعها على الرسالة، وكان رأى الجميع أنها زائفة، وتفوح منها رائحة الخيانة، ونصحوه بعدم الذهاب إلى عوينة، ولكن ضيدان ذهب، وبصحبته اثنا عشر رجلا، فاستقبله فهد مرحبًا، أما عندما أبدى رغبته في العودة، فأمسك به وقيده بالأغلال. وتمكن أحد مرافقى ضيدان من الفرار وهرع ينشر نبأ ما حدث، وبدأت قوة قوامها ألف وخمسمائة من العجمان زحفها على الفور تحت قيادة حزام الحثلين وهاجمت مخيم فيصل في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، أول مايو.

مقتل فهد:

وعندما رأى فهد بعينيه شبح الهزيمة، أمر عبده بن منصور الذي يتولى تنفيذ أحكام الإعدام، أن يقطع رأس ضيدان، ثم لقي هو نفسه حتفه على يشاب من عجمان، هو عبدالله بن عيد المخيال، الذي أمسك بلجام جواد فهد عندما حاول الهرب، وأطلق الرصاص على رأسه.

وكانت الخسائر في مخيم ابن جلوى فادحة للغاية، وكان كل رجاله، من الناحية العملية، من أبناء مدينة الهفوف، وقتلوا جميعًا، وكان هناك بعض البدو غير النظاميين والذين لم يشتركوا في القتال، قد أزعجهم منظر اغتيال ضيدان، ولم يمسهم أحد بسوء. وفي أعقاب ذلك، تم الاعتراف بنايف بن محمد الحثلين، ابن عم ضيدان، والمعروف باسم "أبا الكلاب" شيخًا لعجمان.

وانتشرت-أنباء هذه الجريمة المشينة انتشار النار في الهشيم وهزت المشاعر هزًا عنيفًا في جميع أنحاء شمال شرق الجزيرة العربية، وبدأ الرأي العام المحلى يتحول بقوة ضد ابن سعود منذ ذلك التاريخ، رغم أنه لم يكن هو المسئول عما حدث، وإنما كان المسئول هو عبدالله بن جلوى الذي كان فهد يتصرف تنفيذًا لأوامره.

وفي ٢ مايو وصل فرحان بن مشهور Mash'ur من آل شعلان، وهم الأسرة الحاكمة من الرولة إحدى فروع عنزة، إلى آبار الصبيحية عند الطرف الجنوبي للكويت، ومعه عدد كبير من الجمال التي سلبها من ابن مساعد، أمير حائل، إلى جانب أعداد أخرى سلبها من شمر، والدهامشة في غاراته الأخيرة. ثم تحرك صوب الشمال في ٤ مايو في طريقه إلى الجهرة حيث دار حديث بينه وبين الشيخ أحمد قال فيه إنه حصل على الأمان من ابن سعود، وأنه بعث برسالة إليه ليتعرف على الشروط التي يقدمها ابن سعود إذا وافق على الذهاب إليه.

وتنفيذًا لتعليمات حكومة صاحب الجلالة، أصدر الشيخ أحمد أمرًا لفرحان بمغادرة الجهرة في ١٢ مايو، بعد تزويده بالإمدادات اللازمة له ولجماعته إلى أن يصلوا إلى الرياض، فعبر الحدود عند القرين صباح يوم ١٤ ولكن بدلاً من التوجه إلى عاصمة بن سعود كما كان متفقًا عليه، يمم وجهه صوب الإحساء لينضم لعجمان، ولاشك أن هذا التحول في موقفه إنما جاء نتيجة لما حدث في عوينة.

العجمان يرفعون راية الثورة:

كان فيصل الدويش، الذي كف ابن سعود يده عنه وتصور الجميع أنه يموت موتًا بطيئًا منزويًا في قريته الأرطاوية، يسترد صحته شيئًا فشيئًا، وأن حاول الإيحاء في مكر ودهاء أنه لا أمل في شفائه وأن موته مجرد مسألة وقت. كما كان بن حميد لايزال سجينًا في الرياض.

وفور مصرع زعيمهم وقائدهم، رفع العجمان راية الثورة يساندهم فرحان

ابن مشهور وغيره من زعماء الإخوان، وسرعان ما أصبحت كل منطقة شمال نجد، من جبل شمر إلى الخليج تحت سيطرتهم.

وفي أوائل مايو، تحرك العجمان تحت قيادة نايف الحثلين وضربوا خيامهم عند الوفرة، في المنطقة المحايدة الكويتية، بجوار خيام فرحان بن مشهور، ونظرًا لحالة التمرد التي سادت بين العجمان، صدرت التعليمات إلى الشيخ أحمد، من حكومة صاحب الجلالة، بعدم السماح لهم أو لأي متمردين آخرين بالحصول على أي إمدادات. وعدم السماح لأي فرد من قواتهم بدخول مدينة الكويت، وأُخطر ابن سعود بكل ذلك.

وفي هذه المرحلة الحرجة التي آلت إليها الأحداث، وبعد عام من ممارستي لوظيفتي كسكرتير للمقيم السياسي بالخليج، عُينت وكيلا سياسيًا بالكويت، وبدأت عملي الجديد في ٢٢ مايو. وفي ٢ يونيو قدم ابن سعود احتجاجًا عنيفا يتهم فيه الكويت بتزويد العجمان وقوات فرحان بن مشهور بالطعام والذخيرة، على عكس ما تعهدت به حكومة صاحب الجلالة له. ولكن التحريات الدقيقة التي قمت بها أثبتت أن اتهامات ابن سعود لا أساس لها على الإطلاق، رغم اكتشاف بعض عمليات التهريب التي حدثت بالفعل من خلال الأقارب وبعض نوى النوايا الحسنة المقيمين في الكويت. كما أثبتت التحريات بكل وضوح أن الشيخ أحمد كان ينفذ رغبات حكومة صاحب الجلالة في هذا الصدد بكل إخلاص.

وفي ٤ يونيو شنت مجموعة من الظفير غارة سلبت أثناءها مائة جمل من ممتلكات حطابين كويتيين بالقرب من الجهرة، وألقي القبض على أحد المغيرين فأدلى بأسماء شركائه الذين ثبت أنهم جميعًا من العراق. وبعد تقديم الاحتجاجات إلى الحكومة العراقية، أعيدت الجمال في أوائل يوليو، وعوقب الجناة.

وفي ١٠ يونيو، احتج الشيخ أحمد رسميًا على تجول سيارات الشرطة العراقية داخل أراضيه دون العودة إليه واستئذانه وقد تزايدت هذه الجولات أثناء غارات الإخوان في العام السابق، ولكنها كانت أمرًا لا يمكن الموافقة عليه لأسباب عديدة. واتفق على إلزام الشرطة العراقية في المستقبل بعدم عبور الحدود إلا بعد الحصول عن طريقي على موافقة مسبقة من الشيخ أحمد.

وفي ١٤ يونيو خرجت قوة كبيرة من العجمان المتمردين تضرب خيامها

عند الوفرة متجهة نحو الشمال صوب هدف لا يعرفه أحد وبعد خمسة أيام استغل فيصل الدويش وجود بن سعود بعيدًا عن الساحة في مكة، فكشف عن حقيقة نواياه، وألقي بكل ثقله إلى جانب العجمان، وبعد أن حشد قوة كبيرة تتكون من خمسة آلاف رجل ومائة ألف جمل جمعها من مطير والعجمان وفرع ابن حميد من عتيبة، وصل إلى جرية العليا على بعد ثمانية أميال من الحدود الكويتية في نفس اليوم ١٩ يونيو ومن الواضح أن الانتقال إلى هذه المنطقة المعروفة بجودة ووفرة مراعيها جنوب الكويت كان من أجل تلبية احتياجات قوته الضخمة من الماء والكلأ.

وأدى هذا التحول في موقف هذا المقاتل الذي عرف مذاق الجراح ومرارتها إلى تزايد قوة ومكانة المتمردين في الإحساء. وما أن بلغ ابن سعود نبأ هذا التحول، حتى بادر بحشد كل ما توفر له من سيارات في مكة، وهرع راجعًا إلى الرياض، وتمكن من تعبئة قوة قوامها ثمانية آلاف رجل أغلبهم من منطقة القصيم. ولكنه لم يهاجم قبائله التي شقت عصا الطاعة على الفور، لإدراكه أن كل يوم يمر يحمل في طياته المزيد من المشكلات التي يصعب على الدويش وأصدقائه التغلب عليها فيما يتعلق بالمؤن والإمدادات، كما كان حريصًا أيضًا على أن يحصل من الحكومة البريطانية على تعهد بالتعاون معه على حدود العراق والكويت من أجل منع أي من المتمردين من الفرار عبرها عندما يشتد هجومه عليهم، وكانت كل هذه التدابير تتطلب وقتًا.

دعوة إلى الشيخ أحمد:

وكانت أول خطوة أقدم عليها الدويش عند وصوله إلى شمال الإحساء هي دعوته للشيخ أحمد للانضمام إلى المتمردين من أجل استرداد الأراضي التي اقتطعت من الكويت في عهد الشيخ سالم، ثم أعقب دعوته برسالة يطلب فيها السماح له بنصب مخيم عند الصبيحية وأن يتوجه إلى مدينة الكويت ليشرح خططه ويحصل على الإمدادات. وعلى الفور، صدرت تعليمات حكومة صاحب الجلالة لفخامة الشيخ بأن يتعامل مع مطير بنفس المعايير التي يتعامل بها مع العجمان، وأن يمنع الدويش أو أي فرد من الملتفين حوله من اجتياز الحدود، كما أحيط شيخ الكويت علمًا بأن كل من يحاول اجتياز الحدود سيتعرض للقصف الجوى بقنابل الطائرات.

ثم شنت القوات المشتركة للعجمان وابن مشهور التي اتجهت جنوبًا من الوفرة هجومًا على العوازم في الريضة بالقرب من جبيل في ٢٣ يونية (حزيران)، وكان العوازم مستعدين للمواجهة تساندهم قوات أمير الإحساء، وتلقي المغيرون ضربة ساحقة وبلغت خسائرهم خمسة وأربعين قتيلاً بينما لم يتجاوز خسائر العوازم خمسة عشر قتيلا، بينهم عدد من النساء. ولم تسفر المعركة عن مقتل أي زعيم أو قائد من الجانبين، ولكن عجمان فقدت بعض رايات الحرب. وانتشرت الروايات والأقاويل المبالغ فيها في كل مكان في الإحساء والحجاز لتصور المعركة وكأنها النصر المؤزر، لتبين مرة أخرى كيف يتناول القوم الأمور في شبه الجزيرة العربية.

أحمد يتخذ موقفاً متشددًا:

وفي ٢٨ يونيو جدد الدويش محاولاته لإقناع الشيخ أحمد بأن يدلى بدلوه مع المتمردين. وبعث إليه عدة رسائل مع عدد من كبار زعماء الإخوان ومن بينهم ابنه الأكبر، عزيّر. وكانت صياغة هذه الرسائل على مستوى رفيع من اللباقة والرصانة من أجل أن تحقق الأثر المنشود على حاكم الكويت وقومه. وكانت المساعي تُبذل لحض أحمد على التشبه بمبارك الصباح والتصدي للموقف والتصرف على النحو الذي كان لابد لذلك المقاتل العظيم أن يفعله. وقال الدويش أن المؤن والإمدادات هي كل ما يفتقر إليه المتمردون، وأنه إذا انضمت الكويت إليهم فسوف يتولى هو بقية الأمر. ولحسن الحظ أن الشيخ استمر على وفائه بالوعود التي قطعها على نفسه معي كوكيل سياسي لحكومة صاحب الجلالة رغم المحاولات التي بُذلت لإغرائه، والتي كان من العسير مقاومتها، لشن هجوم كبير ضد أسرة السعود واستعادة أراضيه السليبة في الجنوب، والقبائل التي خرجت من تحت سيطرته من العوازم والعجمان ومطير على وجه الخصوص. ولو أن شيخ الكويت انضم إلى المتمردين ونأتْ حكومة صاحب الجلالة بنفسها عما يجرى والتزمت الحياد، فالأرجح أن ابن سعود كان سيُطاح به لأن القوات النجدية المقاتلة سبق أن انضمت للمتمردين.

وقامت فصائل العجمان ومطير وابن مشهور بترحيل عائلاتها وجمالها من جنوب الوفرة في ١٥ يوليو، ويرجع ذلك أساسًا لما بذله الشيخ أحمد من جهود لا تكل طوال عدة أسابيع لإبعاد المتمردين عن الحدود ومقاومته ما تمثله الصبيحية من إغراء بما يتوفر بها من كلأ وماء.

وفي ١٨ يونيو، أفادت الأنباء أن مجموعات من المتمردين من العجمان توغلت حتى وصلت إلى أبوجيفان، بالقرب من الرياض، وقطعت طريق الرياض – الهفوف.

وفي تلك الفترة، بدأ تيار لا ينقطع من اللاجئين النجديين البارزين المقيمين بالعراق والذين يحصل أغلبهم على إعانات من الحكومة العراقية. يتدفق على الكويت، في طريقهم للانضمام إلى المتمردين. وكان التوصل إلى الأسلوب الأمثل للتعامل مع هذه الزمرة عريقة الأنساب، شريفة المحتد تسبب للشيخ أحمد شيئًا من الحيرة والارتباك، وثمة قصة (غير صحيحة على الأرجح)، أخذ الجميع يرددونها في ذلك الوقت تزعم أن جلالة الملك فيصل سمح لهم بالانضمام إلى المتمردين "ليجربوا حظهم"، ولكن عملاء ابن سعود في الكويت واصلوا إخطاره بأسماء كل من يصل منهم، وبتحركاته، حتى أصبح الأمر مثارًا للقلق الشديد لدى كل من له علاقة به في الكويت، وأخيرًا وبناء على الطلب المقدم إلى المقيم السياسي بالخليج صدر التصريح بالقبض على أي أشخاص يصلون من العراق ويُشتبه في رغبتهم في الانضمام إلى المتمردين، وإرجاعهم من حيث أتوا.

وكان من بين هؤلاء القادمين من العراق على بن شويربات من بورية Buraih مطير، والذي اشتهر على وجه الخصوص بتردده سرًا بين بغداد ومخيمات المتمردين. ولاشك أنه كان يمثل قوة معنوية ومادية لها وزنها لدى المتمردين الذين لم يكف عن تشجيعهم لمواصلة المقاومة، وكان منهم أيضًا عبيد بن حميد، من عتيبة، وكان يعمل كرسول بين فيصل الدويش ونايف الهندي ابن حميد، شيخ عتيبة السابق، الذي هرب من نجد منذ ثلاثة أعوام وأقام في بغداد.

انسحاب قوات ابن سعود:

وفي تلك المرحلة نصب فيصل الدويش ومعه قواته الأساسية من المتمردين في طوال الجنوبي، وهو المستطيل الممتد بين آبار اللصافة والوبرة، وقرعة، واللهابة. وانطلاقًا من هذا الموقع، كان يمكنه أن يسدد ضرباته كلما أراد داخل نجد والإحساء، وفي ٢ أغسطس شن إحدى غاراته الخاطفة على قاية (أو جيية)(Qa'ya (Ga'iyah بالقرب من الأرطاوية، وسحق قوة من قبيلتي سبيع وسهول Sahul.

وكانت تساندهما مجموعة صغيرة من قوات ابن سعود، ورغم عدم الاستيلاء على أي جمال، إلا أن هذه الغارة أشاعت التوتر في كل مكان وأدت إلى ارتداد قوات ابن سعود إلى الرياض، وكان يضرب خيامه في ذلك الوقت عند حفر

عتز Atz وكان من السمات المميزة لتلك الغارة ذلك الأسلوب الذي انتهجه المتمردون إزاء الأسرى، فكان سلوكًا نموذجيًا جديرًا أن يُحتذى، وتحولاً جديرًا بالترحيب عما سبق أن درجوا عليه من أساليب.

وفي ١٠ من أغسطس تلقي الشيخ أحمد، كما تلقيت أنا أيضًا، رسالة مطولة من ابن سعود يشكرنا فيهما على ما بذلناه من جهد لمنع وصول الإمدادات إلى المتمردين.

وفي نفس اليوم، تمكن محمد بن خالد الحثلين، وهو من أبرز زعماء عجمان من الشباب، من إبادة فصيلة نجدية عن بكرة أبيها بالقرب من انطاع Nta' في وسط الإحساء، ثم وصلت الكويت يوم ١٥ من أغسطس أنباء بأن قافلة تحمل أمتعة للأمير سعود، أكبر أبناء الملك، تعرضت لهجوم يوم ٥ من أغسطس أثناء توجهها من الرياض إلى الهفوف، وأن المهاجمين كانوا من عجمان تحت قيادة محمد الوذين Uthain' وأن الهجوم أسفر عن تدمير أربعة عشرة من سيارات النقل.

ومن أجل التأثير على القبائل بإبراز ما عليه المتمردون من قوة. وإقناع المتشككين بأن من الأفضل لهم أن يشاركوا في القتال ضد ابن سعود، أرسل الدويش ابنه عزيز، وهو شاب في الخامسة والعشرين من عمره، لشن غارة تستغرق وقتًا طويلا داخل أراضي حرب وشمر وعنزة الجنوبية، وخرج عزيز يوم ١٥ من أغسطس ومعه مجموعة منتقاة من الشباب راكبي الجمال من مطير والعجمان يبلغ عددها ستمائة وخمسين شابًا، يصحبهم فيصل الشبلان، الرجل الثاني بعد الدويش، وعدد آخر من ذوى الخبرة لتقديم المشورة والنصح لعزيز المعروف باندفاعه وتهوره.

واستولى المغيرون على قطعان كبيرة من جمال شمر والعمارات، بالإضافة إلى سلب قافلة سعودية تحمل عشرة آلاف ريال، حصيلة الزكاة في حائل، ثم قفلوا راجعين وهدفهم الأول هو آبار أم الرضمة Rudhma جنوب غرب المنطقة المحايدة العراقية، حتى يتسنى لجمالهم أن تشرب. وقبل أن استطرد في الحديث عما أعقب ذلك من تطورات، أجد لزامًا عليّ أن أشير إلى عدد من المسائل الأخرى.

فقد شهد شهر أغسطس المتمردين وهم يحققون النجاح في كل مكان،

بينما يتخذ ابن سعود موقف الدفاع، وسياسته المعلنة في تلك المرحلة هي الصمود في المدن إلى أن تبدأ درجة الحرارة في الانخفاض. ومن الواضح أن هذه كانت هي الاستراتيجية الصحيحة، وإن كانت تعني في نفس الوقت فقدان المزيد من أنصاره من البدو. وكان الروقة، وهم فرع من قبيلة عتيبة الكبرى، تحت زعامة شيخهم الشهير ابن ربيعان هم سادة الموقف حقاً في ذلك الوقت، وكان المتمردون والملك، على السواء، لا يدخرون جهدًا لكسبهم إلى جانبهم. وكانوا يشكلون - مع آل حميد - أكبر تحالف قَبَلي في شبه الجزيرة العربية. وقد سبق أن ألقي آل حميد بكل ثقلهم إلى جانب المتمردين فبات واضحًا أن الجانب الذي سينحاز إليه الروقة هو الذي سيحقق النصر.

وفي ٢٠ من أغسطس وصل إلى الكويت الربيعي، وهو ممثل ابن سعود السري، والحائز على ثقته، وبعد يومين توجه ابن مشهور أيضًا إلى الكويت وبصحبته محمد الوذين، ولكن لم يسمح لهما بدخول المدينة فذهبت للالتقاء بهما على بعد أربعة أميال. وطلب ابن مشهور الإذن بضرب خيامهم عند الصبيحية، ولكن طلبه قوبل بالرفض، بل وأُمر بأن يغادر أراضي الكويت على الفور، ثم طلب السماح له بزيارة بغداد فقوبل طلبه هذا أيضًا بالاعتراض.

وفي هذا اللقاء وما جرى فيه من حديث، أكد محمد الوذين، وهو رجل قصير القامة عريض المنكبين لا تغادر الابتسامة شفتيه ويتميز بلحية سوداء مدببة وأنف مستقيم، الأنباء التي ذكرت أنه هو الذي هاجم قافلة أمتعة الأمير سعود، وأخبرني أن جميع الشاحنات حُرقت وأبيد أفراد القافلة عن بكرة أبيهم، وكان يشعر بمتعة غامرة وهو يروى تفاصيل هذه المغامرة.

وفي نفس اليوم، ٢٢ من أغسطس، توجه فيصل الدويش إلى حفر الباطن وتمكن من أن يكسب إلى جانبه قطاعًا كبيرًا من مطير هم آل بوريه الذين انتقلوا على الفور ومعهم حوالي ثمانمائة خيمة إلى شمال الإحساء وانضموا إلى قوات المتمردين. وبعد أسبوع دخل عدد منهم أراضي الكويت وضربوا خيامهم بالجهرة، ولكنى عملت على إبعادهم.

فيصل الدويش يتعهد لي:

سبق أن تحدثت في موقع آخر عن لقائي الأول مع فيصل الدويش الذي ربما كان أعظم الاستراتيجيين من البدو الذين أنجبتهم شبه الجزيرة العربية بعد

ابن سعود، ومع ذلك، ونظرًا للدور الكبير الذي يُنسب إليه في الصراع من أجل السلطة بين هذين الغريمين، واللذين كانا في يوم من الأيام من أقرب الأصدقاء، أجد أنه لابد من إعادة التذكير بما سبق أن أوردت.

فتحت ضغط الحاجة الملحة للحصول على مرعى جديد لما يملكونه من أعداد هائلة من الجمال والأغنام، قام فيصل الدويش وأنصاره بهجوم مباغت على أراضي الكويت من الجنوب في ٣٠ من أغسطس، ووطدوا أقدامهم، وتجمعوا في حشد موحد ضخم حول الصبيحية والآبار القريبة منها، حتى بلغ حجم قوتهم حوالي خمسة آلاف مقاتل معهم ألفان من الخيام ومائة ألف جمل، ويا له من حشد رهيب حقًا.

وعندما أبلغت المسئولين بنبأ هذا الزحف الدافق، طلب مني أن أوجه إنذارًا لفيصل الدويش بأنه إذا لم ينسحب عبر الحدود خلال ٤٨ ساعة، فسوف تضربه الطائرات البريطانية هو وقوته بالقنابل انطلاقًا من قاعدتها في الشعيبة، بالبصرة.

أُستقبل الرسول الأول الذي بعثت به إلى الصبيحية استقبالاً مهينـًا، وتجنبًا لتدهور الموقف وتمخضه عن تطور ربما ندمنا عليها فيما بعد، خاصة إذا عرفنا أن هؤلاء المقاتلين كان يصحبهم عدة آلاف من النساء والأطفال يتجمعون معهم في نفس الموقع، دعوت فيصل لعقد لقاء بيننا في اليوم التالي بالقرب من ملح، على بعد خمسة عشر ميلاً من مدينة الكويت وثلاثة أميال شمال الموقع الذي تشغله الآن المستشفى الخاص لشركة نفط الكويت، ومعهد التدريب التابع لها في المقوع، وبالرغم مما أبداه الشيخ أحمد من اعتراض شديد على هذا اللقاء لخوفه من احتمالات الغدر بي، توجهت بسيارتي بمفردي إلى ملح مساء ٣١ من أغسطس، ثم لحق بي الشيخ أحمد في اللحظة الأخيرة ومعه أربعة من العبيد المسلحين، لأنه رأى أن من واجبه أن يشاطرني مصيري إذا حاق بي أي أذى. وسوف أشعر نحوه على الدوام بكل الامتنان لهذا الصنيع.

لقاء مع زعماء التمرد:

استقبلنا فيصل الدويش في الموعد المحدد على قمة تل يطل على الآبار ويمتد إلى الشرق منها وفي صحبته الزعماء الأساسيين للإخوان، الذين بلغ عددهم حوالي الأربعين شخصًا، وهم رجال متعصبون قساة، ولكنهم تحت السيطرة

الآن، وكان فيصل الدويش هذا الرجل القصير القامة عريض المنكبين والذي يتميز برأس وأنف كبيرين بشكل ملفت للأنظار، قد بذل من الجهد أكثر مما بذله أي عربي آخر من أجل مساعدة ابن سعود على الوصول إلى السلطة وتحقيق ما حققه من مكانة. وكان يمشي في خطى وئيدة ويطلع في سيره بشكل ملحوظ ويبدو وكأنه محدودب الظهر إلى حدٍ ما. وكان بطبيعته صارمًا ميالاً إلى الصمت، وينظر للأشياء كما يفعل ابن سعود بعين رجل السياسة المحترف.

وذكرت ما جئت من أجل أن أخطره به، وأضفت، حصلت على موافقة حكومة صاحب الجلالة لوقف عمليات الطائرات البريطانية لمدة يومين، نظرًا لوجود النساء والأطفال، الذين أناشد فيصل من أجلهم، أن يتعهد لي بالتراجع عبر الحدود خلال المهلة المقررة. وظل مترددًا لساعة كاملة، مدَّعيًا أنه لا نزاع بينه وبين البريطانيين، وأن قبيلته إنما هي من الأتباع القدامى لشيخ الكويت، ويريدون العودة إلى ديارهم وإعلان ولائهم، وأنهم في حاجة إلى الإمدادات والطعام، وقال أن جيشه ليتضور جوعًا وأنه يأمل أن يُسمح له بشراء الطعام من الكويت.

وعد من فيصل:

ورغم تأثري الشديد، تمسكت بموقفي بكل عناد، وتمكنت أخيرًا من إقناعه بأن يتعهد لي بتنفيذ ما طلبته منه. وعندما قدم وعده، كانت الشمس توشك على المغيب ويبدو قرصها وهو يتوارى شيئًا فشيئا وراء تلال المناقيش البعيدة، وهنا قال فيصل أن وقت الصلاة قد حان. وأذن للصلاة بنفسه، وأمَّ زعماءه وقادة قواته في صلاة المغرب، بعد أن طرح الجميع بنادقهم أمامهم على الأرض في وضع الاستعداد للتسديد على الهدف، على الطريقة الإخوانية المعروفة عنهم، وعندما أوشكت الصلاة على نهايتها، وبينما هم لازالوا راكعين، التفت هذا الزعيم البدوي العظيم نحو رفاقه، وألقي عليهم السلام، ثم، وبدون أن ينهض من مكانه، استدار نحوي، وقال أعدك بشرفي أن أنفذ ما تطلبه منى، اذهب في سلام. والتزم فيصل فعلا بما وعد.

وفي ٤ من سبتمبر وقع حادث غريب أذكره لأبيِّن مدى ما وصلت إليه الأوضاع من تدهور، ومدى الاستهانة بالقانون والنظام في كل مكان، شنت مجموعة من بنو حسين وآل عريف – وهما من بطون الظفير – من العراق، تحت

قيادة شليويح Shulaiwih ابن شريف هجومًا بالقرب من الجهرة استولت فيه على بعض الأغنام وعلى الفور أطلق فداوية الشيخ الذين يضربون خيامهم في نفس المنطقة صيحات الإنذار، وحزموا لمطاردة المهاجمين، ولحقوا بهم عند القضي، فاشتبكوا معهم وقتلوا أحدهم وأسروا ثلاثة واستردوا الأغنام، أما الفداوية فخسروا ست ناقات، وجملاً، وأصيب أحدهم بجراح. وبعد التحقيق مع الأسرى الثلاثة وما تبين خلاله من أدلة، تمكنت السلطات العراقية من القبض على بقية من اشتركوا في هذه العملية، وكان لابد من تهنئة فداوية الشيخ والشرطة العراقية للطريقة المتحفزة التي واجهوا بها هذه القضية.

قتال حتى الموت من أجل الماء:

نعود الآن إلى عزيِّر الدويش وقوته المغيرة وهم في على طريق العودة إلى ديارهم، فعندما اقتربوا من لينة شمال حائل، سمعوا أن مسعد الجلوي - أمير حائل - يحاول محاصرتهم بالاستيلاء على الآبار وقطع خط تراجعهم حتى يمنعهم من الوصول إلى الماء، وكانت هذه أنباء خطيرة، لأن حرارة شهر أغسطس تشوى الوجوه، والجمال التي يركبونها لم تتناول جرعة ماء طوال أربعة أيام، وامتدت مسيرتهم لمسافة طويلة كانت أعداد ضخمة من الجمال التي سلبوها تتساقط أثناءها وتتهاوى على جنبات الطريق نتيجة للإرهاق والعطش.

وأشار فيصل الدويش بتغيير خط السير على الفور بالاتجاه صوب الشمال الشرقي، أما عزيِّر فكان يرى التوجه إلى أم الرضمة، ثم جاء أربعة من الكشافين بأنباء تقول إن آبار أم الرضمة تتولى حراستها قوة كبيرة يبلغ تعدادها ثلاثة أمثال عدد المغيرين، وهنا أعلن فيصل الشبلان أنه سيتحرك صوب الشمال الشرقي، ودعا كل المتعقلين لمرافقته. أما عزيِّر، المعروف بتهوره وعناده، فأبى أن يأخذ بمشورة فيصل الشبلان ونُصْحِه، فاضطر فيصل لأن يمضى في طريقه ومعه حوالي مائة وخمسون عن أنصاره، وبضع مئات من الجمال المسلوبة.

والآن، ولم يتبق مع عزيِّر إلا خمسمائة من المقاتلين، اندفع مسرعًا إلى الأمام رغم ما أصاب الجمال من إرهاق حتى كادت تنفق، ووصل إلى مشارف آبار أم الرضمة عند منتصف النهار، وكانت الأنباء التي جاء بها الكشافون صحيحة تمامًا، حيث كان ألف وخمسمائة من بدو شمر وحرب وحضر، والذين لم يسبق

لهم الاشتراك في أي قتال، يحكمون قبضتهم على الآبار، وأخذوا يقيمون التحصينات حول المنطقة التي تتوفر بها المياه. كان الموقف ميئوسًا منه، وكان لابد للرجال والجمال من الحصول على جرعة ماء تشفي الغليل.

وقد أخبرني أحد الذين أفلتوا من الموت في هذا اليوم، فيما بعد، أن كل قرب الماء التي كانوا يحملونها فرغت تمامًا، وظل رجال قوة عزيِّر دون قطرة واحدة طوال ثمان ساعات، بينما درجة الحرارة تزيد على ١٧٠° ف.

وأمر عزيِّر بالتوقف على مرمى البصر من العدو؛ الذي كان يدرك تمامًا حقيقة قوة عزيِّر ويرقب الموقف ليرصد ما سوف يحدث. ثم طلب عزيِّر أن يؤذن للصلاة، وركعت القوة التي استبد بها الإرهاق، ولم يدفعهم الجوع أو العطش أو الاحتمالات الرهيبة المتوقعة للنزال، إلى التراجع ولو للحظة واحدة.

عزيِّر يموت عطشًا:

وصاح قائدهم: "ألسنا من الإخوان؟ ألسنا ممن اصطفاهم الله؟ لابد أن نشق طريقنا وأن نحصل على الماء، وسوف يكون الله في عون أبنائه".

ثم أصدر أمرًا أخيرًا للعبد الذي كان يقتاد ناقته ويرعاها أن يحميها بكل ما يمكنه من جهد، ثم بدأ الهجوم الرهيب الذي قام به هؤلاء الرجال الخمسمائة، وهم على حافة الجنون عطشًا. وقابل المدافعون الهجوم في برود ورباطة جأش، واستفاد المهاجمون من السراب المتلألئ الذي حال دون دقة التصويب عليهم، واندفعوا ليشتبكوا بالأيدي. ودارت رحى معركة ضارية اختلط فيها الحابل بالنابل، ولفترة ما، وكان النصر للإخوان لشجاعتهم الخارقة، ولكنهم شيئًا فشيئا أخذوا يتساقطون الواحد بعد الآخر، بينما ابن مسعد يجلب مجموعة بعد أخرى من القوات الاحتياطية الجديدة. وكانت النهاية عندما أوشكت الشمس التي لا ترحم على المغيب. وبعد أن فقد عزيِّر ثلاثة أرباع رجاله وشبح الهزيمة يطبق عليه ويأخذ بخناقه، أقتيد بعيدًا عن ساحة المعركة منهكا محطمًا يحمله خمسة من خدمه الخصوصيين المخلصين، ذوى العزيمة، الذين راحوا يبذلون آخر ما في وسعهم لإنقاذ قائدهم المحبوب، وكانت هذه هي اللحظات الأخيرة التي شوهدوا فيها وهم لايزالون على قيد الحياة. وبعد شهرين عُثر على جثثهم وجثث مطاياهم وقد تحولت هياكل مجففة في جوف صحراء الحجارة. لقد ماتوا جمعيًا من العطش.

ولقي أربعمائة وخمسين من الإخوان حتفهم وهم يقاتلون في مواقعهم. أما الخمسين الذين ولو الأدبار، فوصل منهم ثمانية وثلاثون سالمين وأدى سوء الحظ بثمانية آخرين بأن يلقوا مصرعهم في أنقير بعد شهر عندما هاجم فيصل الدويش العوازم. وخسرت قوة ابن مساعد أكثر من خمسمائة من رجالها في المعركة من أجل آبار أم الرضمة.

الناقة الجميلة:

وبعد شهر من انقضاء هذه المعركة، جلبوا لي ناقة عزيِّر التي شبت وترعرعت في جو من العناية والرعاية الفائقة، كانت مجرد جلد على عظم، وفي وسط ظهرها جرح غائر في اتساع الكف المنبسطة، وقمت برعايتها سرًا في منزل قريب من منزلي وتوليت أمرها أنا وزوجتي طوال ثلاثة أشهر إلى أن تحسنت حالها فأرسلتها إلى مكان آمن في البصرة حيث ماتت بعد أربعة أعوام، كانت من أجمل الحيوانات التي شهدتها عيناي طوال حياتي.

الملك يهاجم:

في شهر سبتمبر. وبعد طول انتظار. بدأت قوات ابن سعود تبدى بعض ما ينم عن أنها لازالت على قيد الحياة. بعد أن حصل العوازم على دعم كبير بوصول تعزيزات من المدينة. وصدر لهم الأمر بالتحرك صوب الشمال ومباغتة المتمردين عند الحدود الجنوبية للكويت. كما تشكل حشد قبلى آخر في حفر عتز Atz بينما جمع ابن مساعد قوة من ثلاثة آلاف مقاتل من حرب والقبائل الأخرى في عجيبة. جنوب غرب منطقة البشوك. واتخذت عدة طائرات مقاتلة يقودها طيارون بريطانيون سابقون. حصل عليها ابن سعود من حكومة صاحب الجلالة، مواقعها في جزيرة تاروت. في مواجهة القطيف جنوب الإحساء. وركز ابن سعود كل اهتمامه في هذه المرحلة على عتيبة نظرًا لما تمثله من أهمية، وكان قسم كبير منها قد رفع راية الثورة منذ قريب - وتصدى للوضع بكل مهارة حتى نجح في إثارة الشقاق بين خصومه.

وفي ٥ من أكتوبر داهم فيصل الدويش العوازم عند أنقير، في وسط الإحساء، وحقق نصرًا كاملاً وأن كان باهظ الثمن إلى حدٍ ما، وبلغ عدد القتلى من المتمردين أربعة وثمانين، بينما بلغ عدد القتلى من العوازم مائتين وخمسين، وهما

رقمان كبيرًان بالنسبة لمعركة داخلية بين قبائل عريقة. واستولى الدويش على ثمانية آلاف جمل والكثير من الأسلاب الأخرى. أما قائد قوات ابن سعود، محمد السهيلي، ففر من ميدان المعركة ومعه خمسة من معاونيه، وطلب العوازم إخطارهم بشروط وقف القتال، فقدمت لهم في ١٠ من أكتوبر، ووافق الدويش على دخولهم أراضي الكويت والبقاء هناك، وإن كان ابن سعود قد أنكر ذلك بكل شدة فيما بعد.

وضعت أنقير أيدي المتمردين على ثلاثة أرباع أراضي الإحساء، ولكن هذا النصر تضاءلت أهميته كثيرًا عندما حقق ابن سعود بدوره نصرًا ساحقًا في غرب نجد، وتمكن من إخراج عتيبة كليةً من المعركة. وكان هذا التطور في مجرى الأحداث أليمًا بالنسبة للمتمردين الذين كانوا على يقين حتى ذلك الحين من أن النصر معقود لوائه حتمًا لعتيبة. وفي ٣ من أكتوبر بعث الدويش برسالة يطلب فيها لقاء الشيخ أحمد ولقائي، ثم بعد طلبه هذا عَبَرَ بنفسه الحدود مع مجموعة صغيرة من أنصاره وضرب خيامه بالقرب من الجهرة. وتنفيذًا لتعليمات حكومة صاحب الجلالة، طلبت منه أن ينسحب على الفور، وتبين أنه جاء من أجل أن يوجه ثلاثة أسئلة، وصلتني في رسالة بعث بها إلي:

١) إذا انتقل إلى أراضي نجد، وترك تلك الأعداد من نسائه وقطعان جماله في شمال الإحساء، فهل تعده حكومة صاحب الجلالة بألا تضربهم بالقنابل أو تسمح للقبائل العراقية بمهاجمتهم؟
٢) إذا هاجم ابن سعود نساءه من الغرب، في غيبته، فهل يمكن لحكومة صاحب الجلالة أن تسمح لهن باللجوء إلى أراضي الكويت والإقامة بها تحت حماية شيخها؟
٣) إذا قام أي شخص من قومه بإسقاط طائرة من طائرات ابن سعود التي يقودها طيارون بريطانيون، فهل ستعتبر حكومة صاحب الجلالة أن المتمردين هم المسئولون عن ذلك؟

وعندما طرحت الأسئلة على حكومة صاحب الجلالة، أُخطرت بأن أرد عليه ردًا مبهمًا أقرب إلى السلب بالنسبة للسؤالين الأول والثاني، وأن أرد عليه بالإيجاب وبشكل قاطع، بالنسبة للسؤال الثالث. وامتعض الدويش أشد الامتعاض، وبعث برسالة يقول فيها أن من الواضح أن حكومة صاحب الجلالة تنحاز لابن سعود، وأنه نظرًا لأنه - أي الدويش - لا يستطيع أن يغزو أراضي

نجد نفسها في محاولة للتوصل إلى تسوية نهائية مع الملك، وليس أمامه، إذا وجد أن نساءه وعتاده وجماله وقاعدته بشكل عام، أصبحت تحت رحمة القبائل العراقية وبموافقة ضمنية من حكومة صاحب الجلالة إلا أن يسعى للتوصل إلى أفضل شروط يمكن أن يحصل عليها مع ابن سعود.

انهيار التمرد:

ولاشك أن الإجابات السابقة التي قدمتها حكومة صاحب الجلالة كانت هي نقطة البداية لانهيار التمرد. فمنذ ذلك اليوم لم يكتف فيصل الدويش، بعد أن تبددت كل أوهامه، بالامتناع عن بذل أي جهد لمحاربة قوات ابن سعود، بل وأخذ يواجه النصح دون مواربة لكل من يرغب في الانفصال عنه، وبالسعي لعقد صلح منفرد مع الملك. بألا يتردد في اتخاذ هذه الخطوة. ورغم ما كان في حوزة المتمردين من كميات من العتاد والمؤن والذخيرة تسمح لهم بخوض حرب طويلة إلا أن انهيار عتيبة جعل من المحتم غزو نجد وقهر ابن سعود على أرض المعركة، ثم ها هي حكومة صاحب الجلالة تعلن. في غير مواربة. أنها لن تتعهد بمنع القبائل العراقية من مهاجمة نسائه والاستيلاء على جماله ومؤنه في غيبته، مما يعنى أنها ستسمح بمثل هذه الأعمال من جانب القبائل العراقية، ولذلك كله أصبح من المحال بالنسبة للدويش القيام بأي عمليات أخرى ضد نجد.

وشهد يوم ١٠ من نوفمبر آخر ما تبقى من قوات المتمردين، وهي تتقهقر مرتدة إلى قلب هضبة قرعة، على بعد يتراوح بين سبعين وثمانين ميلا من الحدود الكويتية، وعددها يتضاءل بمرور الوقت.

جيش الملك يتقدم:

وفي يوم ١٩ من نوفمبر، وصل الشيخ حافظ وهبة ممثل الملك ابن سعود في لندن، إلى الكويت، وبدأت دعاية مكثفة ضد التمرد. وفي يوم ٢٣ كانت البركة التي خلفتها الأمطار في الصحراء قد جفت وبدأت جمال المتمردين اجتياز الحدود لتصل إلى الماء في الجهرة. واتخذت الإجراءات على الفور لطردها ومنعها من الإقدام على مثل هذا العمل في المستقبل. وفي يوم ٢٥ حاول نايف بن محمد الحثلين، أن يعبر الحدود لمقابلة الشيخ أحمد، ولكن رد على عقبيه. وكان الشيخ نفسه هو الذي رده. وفي يوم ٢٩ بدأت رسائل التهديد الصادرة من ابن سعود

تنهمر على الكويت، وكان فحواها أنه يتقدم على رأس جيش قوى، وأنه إذا سمح الشيخ لمتمرد واحد بعبور حدوده، فسوف يعتبره - أي الملك - مسئولاً بنفسه عن ذلك. وقام حافظ وهبة بتوزيع رسائل مماثلة على زعماء الكويت وكبار شخصياتها. وفي يوم ٢٦ تقدم الشيخ أحمد بشكوى رسمية جاء فيها أن حافظ يتجاوز حدود مهمته، ويتصرف وكأنه يمارس وظيفة القنصل، وطلب من حكومة صاحب الجلالة أن تأمره بالكف عن نشاطه على الفور. ووجه إليه بالفعل إنذار بهذا المعنى، فتحسنت الأوضاع.

وفي يوم ١٨ من ديسمبر، أفادت الأنباء أن طلائع الحرس الخاص لابن سعود وصلت إلى اللصافة، ثم وصلت في نفس اليوم خمس من سياراته إلى الكويت تحمل رسائل تؤكد تلك الأنباء. وفي هذه الأثناء كانت قوات المتمردين التي تضاءل عددها كثيرًا وأخذت قياداتها تتخلى عنها يومًا بعد يوم، وتنضم لابن سعود أو تتجه في هدوء إلى الجنوب، قد وصلت في تقهقرها إلى حفر الباطن، وعندئذ بدأ فيصل الدويش المفاوضات الرسمية مع ابن سعود، وبعث رسله إلى المخيم الملكي يحملون رسائل يطلب فيها الاستسلام ويتساءل عن شروط هذا الاستسلام.

هجوم محسن الفرم:

وضرب المتمردون خيامهم على جانبي منخفض الباطن من حفر الباطن حتى الرقعي شمالاً، عند نقطة التقاء الحدود الكويتية والحدود العراقية، ومع مغيب شمس يوم ٢٨ من ديسمبر زحف محسن الفرم، شيخ قبيلة حرب التي تشكل الجناح الأيسر لقوات ابن سعود، من شعيب فليج، على رأس قوة من أصول قبيلة متعددة من شمر الظفير، وباغت المتمردين عند الفجر.

وفوجئ فيصل الدويش تمامًا بهذا الهجوم غير المتوقع بينما هو ينتظر شروط ابن سعود للسلام. وحشد المتمردون قواتهم على وجه السرعة من أجل التصدي للمهاجمين وتمكنوا من وقفهم ولكن بعد أن فقد خمسين من القتلى، وحوالي أربعة آلاف من الجمال.

وكان محسن الفرم قد شن هذا الهجوم بدون إذن من الملك، فتم عزله، ومع ذلك يؤكد بعض المؤرخين أن هذه المعركة كانت من كبرى المعارك، وأنها كانت بمثابة النصر الحاسم والأخير. ولكن هذا ليس صحيحًا.

نهاية التمرد:

حشدت القوات البرية التابعة لسلاح الطيران البريطاني، والعربات المصفحة، الخ، المتواجدة بالعراق، في تشكيل قوى بالقرب من الرقعي من أجل منع المتمردين من اجتياز الحدود ودخول العراق أو الكويت.

وفي ٣٠ من ديسمبر انضمت مطير، وهي التي تحملت كل صدمة هجوم محسن الفرم، إلى عجمان عند أم عمارات المهزول، حيث التقوا جميعًا بقائد سلاح الطيران البريطاني بالعراق (المتوفي اللواء الجوى السير تشارلز سينوارت بيرينت)، الذي أمرهم جميعًا بالاستسلام حيث يجرى اعتقالهم، أو العودة من حيث أتوا. وبينما المفاوضات تشق مجراها، حاول الشيخ على بن عشوان ومجموعة البورية من فرع مطير الهروب يوم ٣١ من ديسمبر في اتجاه الجنوب الشرقي بالقرب من الجناح الأيمن لقوات ابن سعود، ولكن سرعان ما وقعوا في كمين جنوبي تلال موسِنات وأبيدوا جميعًا باستثناء على بن شويربات الذي توجه إلى خيمة الملك ليلا وطلب الحماية.

وبعد محادثات مطولة عند أم عمارات المهزول، رفض المتمردون الشروط التي عرضها قائد القوات الجوية البريطانية للاستسلام واتجهوا إلى الجنوب ليعبروا الحدود وهم لا يدركون قرب وصول الجيش السعودي، وعند هذه المرحلة قمت بزيارة لمخيم العجمان، وكانت خيامه مصطفة أعلى وادي الباطن، داخل أراضى الكويت، ودعوت نايف الحثلين وألححت عليه بكل شدة أن يطلب الصفح من ابن سعود.

وقلت له: إذا كنت على درجة من القوة تسمح لك بأن تقاتل، فلتفعل، أما إذا لم يكن الأمر كذلك، فلتكف عن الصراع من أجل نسائك وأطفالك. ولكنه أبى.

وفي ٥ من يناير ظهر ابن سعود عند الرقعي، فغير المتمردون اتجاه تحركهم ويمموا وجههم شطر الشمال الشرقي مرة أخرى نحو واحة الجهرة، مخلفين وراءهم بضعة آلاف من الجمال والأغنام لتنفق على الطريق. وتنكرت في هيئة أحد البدو، وسرت معهم طوال الليل ويرافقني بعض رجال الشيخ أحمد. وكنت أبلغ سلاح الطيران أولا بأول باتجاه تحركهم. وفي اليوم التالي، باغتت قوة مشتركة من الطائرات والعربات المصفحة المتمردين بالقرب من الأطراف، على بعد عشرة أميال غرب الجهرة، فوجدتهم في حالة ارتباك شامل يولون الأدبار في كل اتجاه.

وكان من الواضح أنهم يخشون هجومًا مباشرًا وشيكًا يشنه جيش ابن سعود، ولم يدر بخلدهم أنه لا يمكن لمثل هذا الجيش أن يعبر الحدود. وفي ٧ من يناير، انتقلوا إلى الجهرة، حيث تعرضوا لهجوم مفاجئ شنته عليهم الطائرات وقصفتهم بقنابل في طلعات متعاقبة، فأصيبوا بالشلل وتوقفوا بالقرب من القرية.

إطلاق النار على سيارتي:

وفي هذا المكان قمت بزيارة فيصل الدويش وتعرضت سيارتي لقصف مكثف من الطائرات البريطانية وأنا في طريقي إليه، وأخذت أناشد الدويش، طوال ساعتين، وألح عليه كي يستسلم للقوات الجوية البريطانية ولا يحاول اختراق الحدود - كما كان يزمع - وأن يحاول التوصل إلى تسوية مع قوات ابن سعود، التي تنتظره على الحدود الجنوبية للكويت. ولكنني تركته ولم يكن قد اقتنع بعد.

وفي نفس اليوم ٨ من يناير حاولت بعض مجموعات من جبلان والرشايدة فرع مطير يصاحبها بعض العجمان، الاندفاع بسرعة نحو الجنوب والوصول إلى جرية عند مؤخرة قوات الملك. ولكن قوة تحملها السيارات اعترضتهم عند الشق جنوبي المناقيش، تحت قيادة ابن سعود نفسه، وتمكنت من إبادتهم جميعًا تقريبًا.

وتمكن اثنان من أبرز زعماء الإخوان من الفرار من الجهرة مستغلين حالة الفوضى التي أثارها القصف الجوى، أحدهما - والأكثر أهمية - هو فيصل الشبلان، الشخص التالي في الترتيب بعد فيصل الدويش وكبير بطن جبلان من مطير. وأفادت الأنباء أنه في طريقه إلى مدينة الكويت حيث يأمل في الاختباء لدى بعض المتعاطفين معه، كما قيل أيضًا إنه ربما حاول الدخول تحت حماية حاكم الكويت، حيث سيمثل ذلك إحراجًا للشيخ أحمد الذي يلزمه ما جرت عليه عادات العرب بألا يقوم بتسليمه لابن سعود، واختفى الشبلان بعض الوقت.

الاستسلام:

وبعد كثير من المراسلات مع نايف الحثلين أقنعته بالاستسلام في ٩ من يناير لطابور من السيارات المصفحة التابعة لسلاح الطيران البريطاني، مما أدى إلى عدول فيصل الدويش عن محاولة اختراق قوات ابن سعود واحتلال نجد. وفي يوم

١٠ من استسلم هو وصاهود Sahud بن لامي. وفي موكب مؤثر ومهيب توجه فيصل الدويش معي إلى معسكر القوات الجوية البريطانية وسلم سيفه. وتم ترحيل الزعماء الثلاثة إلى البصرة جوًا، حيث نقلوا إلى متن السفينة الحربية البريطانية لوبان، وكانت تلقي مراسيها في شط العرب. أما بقية المتمردين من مطير من الدياحين والدياحين أساسًا، والقسم الأكبر من العجمان، فصدر إليهم الأمر بالتحرك صوب الشمال والتجمع في منطقة جاريشان - روضتين بالقرب من دولة الكويت، على بعد خمسة عشر ميلاً جنوب مخفر سفوان الحدودى، حيث ظلوا تحت حراسة السيارات المصفحة لسلاح الطيران البريطاني إلى أن يحين موعد الوقت لتسليمهم لابن سعود.

ورجعت إلى مقر عملي في الكويت، وبعد أن قدمت تقريرًا تفصيليًا للشيخ أحمد حول استسلام زعماء الإخوان والاقتراح الخاص بتجميع قطعان جمالهم في الطرف الشمالي للدولة، بدأت العمل من أجل توفير الطعام والملابس لنساء المتمردين وأطفالهم الذين يتضورون جوعًا، والذين خلفوهم وراءهم في ظروف بالغة المشقة بين بساتين النخيل في الجهرة، وكانت من بينهن عمشة، آخر زوجات فيصل الدويش، وشقيقاتها الثلاث، وفتاتان صغيرتان، وسبع وعشرون أخريات من أقاربهن، وكلهن من أسرة آل دويش، ويشكلن مجموعة رائعة من النساء عريقات النسب، وبلغ عدد هذه المجموعة سبعًا وثلاثين، بإضافة الخادمات، وقبل ترحيلهن إلى البصرة، حملني فيصل الدويش مسئولية الحفاظ على كل نسائه وممتلكاته، وكانت آخر كلماته: "أسلم حرمي إليك يا ديكسون، ومن ضيمتي إلى ضيمتك".

وتم ترحيل جميع السيدات إلى القصر الأحمر (الحصن الأحمر)، في الجهرة حيث اعتنت بهن زوجتي ووفرت لهن الملابس والطعام إلى أن يحين موعد انتقالهن إلى مدينة الكويت حيث ينزلن ضيفات عليّ. وإلى جانب إجراء الترتيبات الخاصة بهن، كان عليّ أن أكتب التقارير وأن أحيط حكومة صاحب الجلالة والملك علمًا أولاً بأول بتطور الأحداث بشكل عام. وعرفت أن ابن سعود سيبدأ قريبًا المطالبة بتسليم كل المتمردين المستسلمين له، ومعهم جمالهم، وكان هناك الكثير الذي لابد من عمله قبل أن توافق حكومة صاحب الجلالة على ذلك.

فيصل الشبلان يتناول القهوة معي:

بينما كنت منهمكاً في مكتبي للتصدي لهذه المشكلات بعد يومين من الاستسلام أعلن كبير الفراشين وصول شيخ غريب قال إنه جاء لأنه يريد أن يعبّر لي عن تقديره واحترامه. وأمرت باستقباله في الطابق العلوي، وكم كانت دهشتي عندما رأيت أمامي رجلاً متناسق البنية، فارع الطول، يرتدى فوق رأسه تلك العمامة البيضاء الضخمة التي كانت من العلامات المميزة لجماعة الإخوان. وبالغت في مديحه، وقلت له إنني أعرف أغلب شيوخ شمال شرق شبه الجزيرة العربية ولكنني لم أر مثيلاً له من قبل. وكان وجهه وأنفه مصابين بحروق شديدة نتيجة لوهج الشمس، وعلى خلاف أغلب البدو الذين يميل لون بشرتهم إلى السواد عندما يلفحهم قيظ الصيف، كانت بشرته حمراء تكسوها القشور حول شفتيه، وأنفه.

وقدمت له مقعداً، وطلبت القهوة، وانتظرته ليبدأ الحديث، ورفض أن يدخن وقال لي وهو يبتسم أنه وهابي، وكان ذلك واضحاً كل الوضوح. وبعد تناول القهوة قال زائري في هدوء أنه فيصل الشبلان، وأنه جاء لزيارتي ليستشيرني في أمر كل ما جرى من أحداث، وكان يعرف كل شيء عن الاستسلام في الجهرة، وأقر بأنه جاء إلى الكويت حتى لا تقبض عليه القوات الجوية البريطانية، وأنه يريد أن يعرف ما إذا كان الشيخ أحمد سيقوى على مقاومة البريطانيين ويرفض تسليمه إذا وضع نفسه تحت حمايته، وقال إنه يقترح إذا كنت أرى أن الشيخ أحمد لا يستطيع حمايته أن يغادر المدينة ويهرب إلى سوريا عبر مسالك وشعاب غير مطروقة.

رجل شجاع:

وأثار الرجل تحيتي وإعجابي لثقته بي على هذا النحو، وقدرت شجاعته التي لم تمنعه من المجيء عامداً متعمداً إلى ما يعتبر بالنسبة له عريناً لأسد. وشعرت بالرغبة في إنقاذه، وقررت أن أتخذ موقفاً جريئاً، ونصحته ألا يحاول طلب الأمان والحماية من الشيخ أحمد لأن مثل هذه الخطوة سوف تضع الشيخ أحمد في موقف بالغ الحرج. وقلت له أن عليه، بدلاً من ذلك، أن يتذرع بكل ما لديه من جسارة وأن يذهب رأساً إلى سيده الشرعي، الملك ابن سعود، وأنه إذا دبر الأمر بحيث يصل إلى مخيم الملك عندما يجن الليل، فعليه أن يدخل عليه خيمته بعد أن يخيم الظلام ليطلب الأمان والحماية، وقلت له أن الجميع يعرفون

أن الملك، وهو رجل شجاع، يعجب بكل من هو شجاع، وأن فرصة حصوله على العفو رغم الدور الكبير الذي قام به في التمرد لا تقل عن ١٠٠ : ١.

وأطرق ابن شبلان يتدبر الأمر مليًا لبعض الوقت، ثم شكرني على ما قدمته له من نصح، وقال إنه يبدو طيبًا، وطلبت تقديم القهوة مرة أخرى وأعطيته الفرصة ليفكر، والأمل يحدوني أن يتصرف وفقًا لرغبتي. وفي هذه اللحظة أحضر الفراش برقية واردة من برينت، قائد القوات الجوية، وكان ينزل في ذلك الوقت مع قواته البرية وطائراته في الجهرة، جاء فيها أن التقارير تؤكد أن فيصل الشبلان هرب إلى مدينة الكويت، وأنه من المستحسن إلقاء القبض على هذا الزعيم وترحيله إلى البصرة، كما جاء فيها أيضًا أن عليّ أن أطلب من الشيخ أحمد البحث عنه في جميع أركان المدينة والقبض عليه على الفور عند العثور عليه. وترحيله إلى مقر قيادة سلاح الطيران البريطاني في الجهرة، وأن قوة للحراسة سوف تأتي من الجهرة فور بلوغهم نبأ القبض عليه.

وكان ذلك مأزقًا حقيقيًا. وبعد شيء من التفكير قلت: "يا فيصل، سوف أتلو عليك البرقية التي تسلمتها لتوي من قائد القوات الجوية الذي استسلم له الدويش". اقرأ باسم الله".

ولم تهتز عضلة واحدة في وجه ابن شبلان مثلما حدث لي وأنا أتلو عليه الرسالة. ولم تبد عليه أي بادرة تنم عن الخوف أو التوتر، وكان الجهد الذي بذله للسيطرة على مشاعره جهدًا رائعًا حقًا. وسألته: ماذا عليّ أن أفعل في رأيك؟. فجاء الرد سريعًا: والله أنت أحسن النظر. وهنا كان الرجل قد كسب كل تعاطفي. فقلت: "لا تخش شيئًا يا فيصل. أنت في أمان. لقد تناولت قدحًا من القهوة في منزلي. وهذا يجعلك وفقًا لقوانين كرم الضيافة العربية في حصن حصين. ضد أي مكروه. وسوف تغادر منزلي آمنـًا، لأنني أعرف عاداتكم.

فابتسم في فتور، قائلاً: يا أبا سعود، كنت أعرف أنك ستقول ما قلت، لأنه ما كان في استطاعتك أن توافق على استضافة نساء الدويشان ورعايتهن على النحو الذي قمت به لو لم تعلم تمامًا حقيقة عاداتنا وفهمنا للفروسية. لقد أحسنت صنعًا وأبديت مشاعر جديرة بالثناء، وأن تصرفك هذا ليزيدني إصرارًا على أن أدخل في طاعة ملكي، كما اقترحت أنت، وإن شاء الله سوف أنجح وأنال عفوه، وسوف أخبره بما فعلته أنت اليوم.

وأثناء وجوده في مكتبي، أرسلت ردى باللاسلكي إلى قائد القوات الجوية لأخبره بتسلمي البرقية أثناء تناول ابن شبلان القهوة معي، وهو أمر لا يقل مغزى عن إقامة وليمة له، كما أنه من حق الشخص الذي يستقيل ويعامل على هذا النحو أن يكون تحت الحماية المطلقة طوال فترة تواجده تحت سقف مضيفه، ولذلك، فأنا على ثقة من أن قائد القوات الجوية سيتفهم وجهة نظري ويأمر باتخاذ الإجراء المناسب. وأرسلت صورة من هذا الرد إلى المقيم السياسي في بوشهر، وصورة أخرى إلى سفيرنا في بغداد.

وتنفيذًا لنصيحتي أمضى فيصل الشبلان الشطر الأول من الليل في منزل فرحان بن خضير، وهوٍ تاجر لؤلؤ في المدينة ينتمي لمطير، ورتبت الأمر بحيث يوفر فرحان لضيفه جملا سريعًا يلتقطه عند نقطة معينة خارج سور المدينة، على أن يخرج فيصل عند منتصف الليل على نحو ما فعل القديس بطرس ذات يوم، ليهرب. وقلت له، وهو ينصرف: وداعًا، وحظًا سعيدًا يا فيصل، ولعلنا نلتقي في يوم ما في ظروف أفضل. وأخبرني فرحان فيما بعد أن كل شيء جرى وفقًا لما خططناه.

أما بالنسبة لقائد القوات الجوية البريطانية وكان دمث الخلق وعلى جانب كبير من الرجولة، فتمكن من تقدير موقفي وتفهم الأسباب التي دفعتني إلى التصرف على هذا النحو. ولم يحدث على الإطلاق أن أشار إلى هذا الموضوع أمامي بعد ذلك.

شروط الاستسلام:

تقرر أن يتوجه وفد إلى مخيم ابن سعود، الذي لايزال الآن في خبرةٍ وضحة، على مسيرة تسعين ميلاً جنوب غرب الكويت، ومائة وثلاثين ميلا بطريق السيارات، لمناقشة كيفية تسليم زعماء التمرد وأنصارهم، وفي يوم ٢٠ من يناير غادر السير هيج بسكو، المقيم السياسي بالخليج منذ عام ١٩٢٩، وبيرينت قائد القوات الجوية، وأنا معهم، الكويت بطريق الجو، ثم جاء في أثرنا الشيخ أحمد ومعه بعض أعضاء أسرة آل صباح، وأيضًا بطريق الجو يوم ٢٢ للتعبير عن تقديرهم واحترامهم للملك ثم عادوا يوم ٢٣ وكان موقف ابن سعود أثناء المناقشات موقف من يرضى بحل وسط، كما عبر عن أسفه عن النبرة التي سادت الملاحظات التي أبداها وزير خارجيته، ولكن رغم ذلك جرت مسارات كثيرة قبل

أن يتمكن السير هيج من الحصول على الشروط التالي ذكرها من ابن سعود يوم ٢٦ مقابل استسلام فيصل الدويش، ونايف الحثلين، وصاهود بن لامي، الذين أعيدوا إلى الكويت مرة أخرى تحملهم السفينة لوبان، بينما تجمع رجال قبائلهم شمال دولة الكويت:

١) سوف يبقى على حياة الزعماء وأنصارهم.

٢) سوف تتسم أي عقوبة يوقعها بالرأفة، رغم احتفاظه بحقه في أن يسترد من المتمردين أي أسلاب استولوا عليها من الغير.

٣) وعد وعدًا قاطعًا بمنع الغارات في المستقبل، سواء على العراق أو على الكويت، من جانب عجمان، ومطير وغيرهما من قبائل نجد، وإذا حدث أن وقعت غارات من هذا النوع فسوف يتصدى للأمر دون إبطاء ويعيد على الفور أي أشياء سُلبت، وذلك وفقًا لأحكام معاهدة بحرة، بالنسبة للعراق، ووفقًا للعرف السائد في العلاقات بين بلاد الشيخ أحمد وبلاده، في حالة الكويت، وأبدى استعداده للتفاوض مع الكويت وفقًا لخطوط اتفاقية بحرة، إذا رغب الشيخ أحمد في ذلك.

٤) وعد بأن يسوى على نفس النحو جميع الدعاوى السابقة للعراق والكويت، بشرط عودة رجال العجمان ومطير الذين في قبضة القوات الجوية البريطانية، ومعهم أتباعهم وممتلكاتهم إلى أراضي نجد.

٥) وافق على دفع عشرة آلاف جنيهًا استرلينيًا كتعويض لقبائل العراق والكويت، كبداية للتسوية النهائية للحسابات.

٦) سوف يقوم بتعيين ممثلين في أي وقت في المحكمة التي تنص عليها اتفاقية بحرة، بعد أن يتلقى طلبًا بهذا المعنى.

وبعد أن وقع كل من ابن سعود والسير ليسكو شروط الاستسلام في ٢٧ من يناير، أنزل زعماء التمرد الثلاثة في اليوم التالي بعد أن ارتدى كل منهم طاقمًا جديدًا من الملابس زودتهم بها زوجتي، من على متن لوبان، ونقلوا بطريق الجو، وتحت إشرافي، إلى مخيم ابن سعود، ووجدت الملك جالسًا داخل سرادق ضخم قصير، يحيط به أقاربه وزعماء قبائله. وبينما الدموع تنهمر علي وجهه، سمح لكل من السجناء الثلاثة أن يقبله في أنفه على الطريقة البدوية، ثم أجلسني إلى جواره، وشكرني لكل ما بذلته من جهود باسمه، وخاصة لرعايتي لزوجة المرحوم زعيم

التمرد السابق. "حقًا يا ديكسون، نحن نقدر صنعك، لأنه بالرغم من أن الدويش تمرد ضد ملكه بالفعل وحاربنا إلا أن نساءه من عريقات النسب والمحتد، وهن جديرات بكل الاحترام والحماية، وسوف يكون من أولى واجباتنا أن نواصل رعايتهن فور أن نتمكن من إرسال السيارات إلى الكويت وتسلمهن منك".

وبينما هو يتكلم لمحت صديقي فيصل الشبلان جالسًا بين شيوخه ومستشاريه، ولاحظ الملك ذلك، فانفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة وقال: "نعم، لقد عفونا عنه، لقد جاء وطلب الأمان والحماية، وأخبرنا بكل شيء، ويبدو أننا مدينون لك بكل ما تحقق يا كولونيل ديكسون".

واغتنمت الفرصة لأبلغه رسالة شخصية من زوجتي تلتمس منه فيها كأم أن يبدى الرحمة والشفقة نحو أبناءه الذين أخطأوا، واستجاب في نُبل، وبدلاً من إعدام زعماء التمرد كما كان يتوقع أغلب قومه رغم تأكيداته لحكومة صاحب الجلالة بعكس ذلك، أنزلهم مقرًا خاصًا تحت حمايته، وهي خطوة كان لابد منها للحفاظ على هيبته.

أما ما أعقب ذلك من معاملة لنسائهم فكان مثالاً جديرًا بأن يحتذى.

تكبدت قوات المتمردين أثناء احتجازها شمال دولة الكويت الكثير، وعانت معاناة شديدة من الهجمات التي كانت تشنها ظفير وغيرها من القبائل العراقية عليها أثناء الليل، تلك القبائل التي تصورت أنه من العدل أن تتصرف على هذا النحو انتقامًا للغارات السابقة للمتمردين، وكان المهاجمون يبذلون أقصى جهد لسرقة جمالهم وما تبقى معهم من أغنام تحت سمع وبصر القوات الجوية البريطانية، وفي يوم ٩ من يناير، صدر لهم الأمر ببدء رحلة العودة إلى نجد، وفقا لأحكام الاتفاق. وكان طابور السيارات المصفحة الذي كانوا تحت سيطرته وهم يتحركون صوب الجنوب على الطريق الذي تحدد لهم، يوجههم نحو المناقيش على الحدود حيث تم تسليمهم لرسل ابن سعود في ٤ من فبراير.

وإن كان هذا ليس هو المكان المناسب للتعرض لتفاصيل العقوبات التي فرضت على مطير، إلا إنه لا بأس من تسجيل هذا التلخيص القصير لما حدث في هذا الصدد:

١) أخذ من فيصل الدويش كل ما يملكه من جمال، بما في ذلك ناقته الشروف الشهيرة، كما صودرت أيضًا كل خيله، ذكوراً وإناثاً.

٢) لم يؤخذ من الدوشان، البطن الحاكم، إلاّ الأسلاب التي سبق أن استولوا عليها من الغير،والتي بلغ مجموعها حوالي ثلثي ما في حوزتهم من ماشية وأغنام وأمتعه، أما ملكيتهم الخاصة فلم تُمس.

٣) أمّا المتمردون من عامّة القوم، فلم تؤخذ منهم إلاّ المطايا من الجمال والخيل، ذكوراً وإناثـاً، إلى جانب ما سبق أن سلبوه من الغير.

٤) لم يُطلب من فيصل الشبلان ولا من الزعيم الكبير الآخر عبدالعزيز الماجد الدويش، أن يسلمّوا أي شيء، مكافأة لهما على الاستسلام طواعية وليس عن طريق القوات الجوية البريطانية.

٥) لم تصادر أي غدّارات. "البنادق" وعوملت عجمان على نفس النحو.

وكنت سعيدًا جدًا وأنا أرى ابن شبلان لا يتعرض لأي مكروه رغم الدور الذي لعبه في التمرد، وبعد فترة، نال حظوة اكبر لدى ابن سعود وأصبح هو المسئول عن جماله (٧٠ ريّة) بما فيها الشروف الشهيرة. وكانت ابنته عمشة الوسيمة كثيرا ما تأتي لزيارتنا في الكويت وتذكرني بين حين وحين، وعلى وجهها ابتسامة ماكرة، كيف أن قدحًا من القهوة هو الذي أنقذ والدها. وقد تزوجت من هزاع Hazza بن بدر الدويش، وهو شاب مهذب، سبق أن رأيته أول مرة عندما جاء إلى الكويت مصابًا بطلق ناري في رقبته، وكنّا نعتبر عمشة من خيرة صديقاتنا العديدات من مطير - الله يحفظها.

وبعد اتخاذ الترتيبات اللازمة لترحيل الزعماء الثلاثة إلى الرياض، ومصادرة دوابّ المتمردين كما سبق أن ذكرنا، انتقل ابن سعود إلى رأس تنّورة، بالقرب من القطيف، ثم توجه منها يوم ٢٢ للقاء الملك فيصل ملك العراق على ظهر السفينة لوبان خارج رصيف الفاو. وتم الاتفاق في هذا اللقاء على مشروع معاهدة للصداقة بين البلدين.

اهتمت زوجتي، وأنا معها، بأمر سيدات آل دويش لمدة ستة أسابيع أقمن فيها في مدينة الكويت قبل أن يرسل ابن سعود السيارات للعودة بهن إلى مواطنهن. وطوال هذه الفترة، لم نقم فقط بتوفير الطعام والملابس لهن على نفقة الحكومة، بل وكنا نلتقي بهن ونتجاذب أطراف الحديث معهن كل يوم. وبعد ما عانين من مشاق رهيبة وتوتر شديد أثناء المراحل الأخيرة من التمرد، تولت زوجتي مهمة استردادهن لصحتهن. وكانت مهمة عسيرة. وتعاملنا معهن

كضيفات وصديقات وليس كلاجئات، وإني لأتذكر جيدًا كيف كانت عمشة وفيحة -ابنتا أخ فيصل، أكثرهن مودّة وأقلهن استحياءً، وعندما جاءتا إلينا أول مرة كان الهزال الشديد باديًا عليهما، وتكادان تموتان جوعًا، وملابسهما أسمال بالية؛ ولكنهما تحولتا - عند الرحيل - إلى فتاتين رائعتين، والتقينا بهما عدة مرات بعد ذلك.

وفي عام ١٩٣٠ أنعمت حكومة صاحب الجلالة على الشيخ أحمد بوسام رفيع، تقديرًا له، ولالتزامه موقف الحياد ورفضه الانضمام إلى المتمردين؛ كما وعدته حكومة صاحب الجلالة أيضًا باستخدام كل ما تملك من نفوذ من أجل إلغاء الحظر الذي فرضه ابن سعود على التجارة بين نجد والكويت. وكان الحصار قد استمر سبع سنوات، وكان سيستمر الحصار لسبع سنوات أخرى، لو أنه لم يُرفع نهائيًا.

وفاة محارب بدوي عظيم:

توفى فيصل الدويش في الرياض في ٣ من أكتوبر١٩٣١، وكان السبب المباشر للوفاة، في حدود ما بلغني من معلومات، هو تمدد في الأوعية الدموية للقلب. وكان أول من جاء بهذا النبأ إلى الكويت، في ٢٥ من أكتوبر، هو إبراهيم المزيّن الذي عمل لعدّة سنوات حاملا لعلم شيوخ الكويت، ثم انتقل ليعمل في خدمة ابن سعود في الرياض منذ ثلاثة أعوام؛ وكان قد جاء إلى الكويت لشراء صقور لمحمد آل سعود، شقيق الملك.

وروى لي إبراهيم بالتفصيل كيف كان الدويش يعانى طوال شهر من آلام نتجت عن تورّم واضح في الجانب السفلي من البلعوم. وفي ٣ من أكتوبر، وأثناء سيره في ساحة السجن مع ابن حثلين، سقط على الأرض فجأة والدماء تنزف من فمه عندما انفتح هذا التورم إلى الداخل، وظلّ فاقدًا الوعي حتى المساء، وعندما استردّ وعيه لفترة وجيزة، طلب أن يرى الملك، ورفض ابن سعود الحضور، وأرسل الدويش إليه تحيات الوداع ويقول له أنه غفر له كل ما ارتكبه نحوه من أخطاء، ولكن الحكم الأخير بينهما لن يتقرر إلى أن يقف الاثنان معًا أمام خالقهما، ثم انهار مرة أخرى، وأسلم الروح، وتم تغسيله ودفنه في نفس الليلة.

ثم واصل إبراهيم روايته فأوضح كيف أرسل الملك بعد ذلك، وعلامات الندم بادية عليه، إلى أرملة الدويش، عمشة، واثنتين من أخواته هما غالية

ووضحة؛ معلنًا لهن أنه يمكنهن اعتبار أنفسهن شقيقات له طوال حياتهن، وأنه خصص لكل منهن منحة سنوية مقدارها أربعمائة ريال لعمشة وغالية الأخت الكبيرة، وثلاثمائة ريال لوضحة والأخت الثالثة؛ والتي كانت في الكويت في ذلك الوقت. وبعد أن منح كلاً منهن أربعة جمال أيضًا، طلب منهن التوجه إلى الأرطاوية، وهناك مصادر أخرى تضيف أن ابن سعود أعطى كلاً منهن منزلاً بلا مقابل في الرياض.

وتؤكد أحداث الساعات القليلة التي سبقت الوفاة، والتي عرفت بالتفصيل، أن فيصل الدويش مات ميتة طبيعية، وذكر هلال المطيري - تاجر اللؤلؤ الشهير بالكويت من أقرب أصدقاء الدويش، فيما بعد، أنه يصدق ما قيل عن وفاة الدويش، كما يصدقه أيضًا الشيخ أحمد.

وكان لوفاة هذا الشيخ البدوي العظيم الذي كان في منزلة الملك بين سائر الشيوخ العرب، والزعيم القبلي الأوحد في شبه الجزيرة العربية الذي كانت مكانته تسمح له بأن يذبح رجالاً ينتمون لقبيلته نفسها إذا رأى أن الضرورة تحتم ذلك؛ كان لوفاته صدى عميق في جميع أنحاء البادية وعالمها. ويمكن تشبيهه هو وشيوخ دوشان من قبله بصنّاع الملوك في إنجلترا في العصور الوسطى، حيث كانت لديهم الجسارة والقدرة طوال تاريخهم على أن يصنعوا وأن يحطموا - وبنجاح في كثير من الأحيان - حكام آل سعود في نجد. ولم يتمكن إبراهيم باشا، المصري، من النجاح في هجومه وإلحاق الهزيمة بالمملكة الوهابية في أوائل القرن الماضي إلا لاعتماده الكامل على مساندة مطير تحت قيادة سميّة فيصل.

ولم يحدث أن أنجبت شبه الجزيرة العربية مقاتلاً أعظم من فيصل الدويش، ولا كان لابن سعود نصير أكثر ولاءً وإخلاصًا منه إلى أن دفعت السياسة أو عدم الاعتراف بالجميل فيصل إلى التمرد، وكانت مطير، قومه وعشيرته، تكاد تنزله منزل القديسين، ولا يمكن لأحد أن يذكر اسمه اليوم إلا والدموع في عينيه. ويقال أن مصرع ابنه عزيز كان نذير الشر بالنسبة له، فاستبد به اليأس، وأحس أنه لن يحقق النصر، ولم تعش أرملته - عمشة - طويلاً، وتوفيت وهي منزوية في هدوء في الأرطاوية بعد خمسة أعوام، فحزن عليها عدد كبير من الأصدقاء.

أما بقية زعماء التمرد فظلوا في السجن حتى عام ١٩٣٠ عندما اتهموا بمحاولة الهرب أثناء القتال بين ابن سعود ويحيى إمام اليمن، فتم ترحيلهم إلى

الهفوف، حيث سجنوا في سراديب وزنازين تحت الأرض على الطريقة التركية القديمة، ولم يسمع عنهم أحد شيئا منذ ذلك الحين.

نهاية النزعة العسكرية الإخوانية:

انتهي التمرد، ولكن بعد ثمن باهظ من الأموال والأرواح. وكان على ابن سعود أن يشكر الحكومة البريطانية لتخليصه من مأزقه. وليس هناك من شك أنه لولا جهودها للإبقاء على حياد العراق والكويت، ولولا دفعها بقوة كبيرة إلى الحدود الجنوبية للكويت هي التي أجبرت المتمردين على الاستسلام، لما نجح ابن سعود في سحق الثورة، ولتمخض الوضع عن عواقب بالغة الخطورة بالنسبة له ولبيت آل سعود.

وبانهيار التمرد ووفاة فيصل الدويش، يمكن القول بأن النزعة الإخوانية المقاتلة ماتت إلى الأبد. ولقد أدرك ابن سعود ذلك تمامًا، ولم يعد عليه الآن أن يواجه المزيد من العوائق. ونظراً لقيام تلك النزعة على الدين والتطرف، كانت الأداة العسكرية الإخوانية أشد خطرًا من أن يعتبرها مجرد دمية يمكنه أن يحركها وفقاً لما يهوى. لقد سبق لابن سعود أن أخطأ في هذا الصدد، وهو لن يكرر الخطأ مرة أخرى؛ ففضّل أن تقوم السيارات المصفحة واللاسلكي والمدافع الرشاشة بتحقيق أغراضه في المستقبل؛ والأرجح أنه كان على صواب.

استخدم ابن سعود في عملياته ضد المتمردين، ولأول مرة، وسيلة النقل بالسيارات، من أجل زيادة قدرته على الحركة وتسهيل وصول إمداداته لقواته طوال الوقت. ويرجع جانب كبير من نجاحه إلى أنه كان يجيد التأثير على القبائل التي تتردد في مواقفها قبل أن يستقر رأيها على الانضمام للمتمردين، وأنه كثيراً ما كان يباغت قبائل المتمردين وهي غير مستعدة، كما أدرك ابن سعود مدى المساعدة التي يمكن أن توفرها طرق المواصلات ووسائل الاتصال الحديثة لإحكام قبضته على مملكته الشاسعة المترامية الأطراف، ولذلك، فعندما أعلن ابن رفادة الثورة في عام ١٩٣٢، ومعه ستة آلاف من أبناء قبيلته بلي شمال الحجاز، سارع بتعبئة عشرة آلاف من رجاله في الطائف، وتمكن بهجوم خاطف استخدم فيه السيارات من إبادة قوات ابن رفادة عن بكرة أبيها عند ضبيه، وأخذت مواكب انتصاره تجوب جميع أنحاء الحجاز.

والآن، أدرك المنتمون لجماعة الإخوان من عامة القوم أن ابن سعود لم

يجأر بصيحة الدين في عام ١٩١٤ إلاّ تحقيقاً لمآربه الخاصة؛ فشعروا بالمرارة والامتعاض لتلاعبه بهم كدمية يحركها ويمسك بخيوطها، ولم يعد يربطهم به أي ولاء أو تحدوهم رغبة في النضال. كان كل ما يريدونه هو أن يتركوا لحالهم. ولم يعد الملك هو البطل الشعبي الذي ينزله قومه مقام الأب، وكان من السهل أن نلمس، حتى بين قبائل شمر، وحرب، وسبيع، وسهول، والعوازم، ناهينا عن تلك القبائل التي فشلت في الثورة ضده، روحا لا تفترق كثيرًا عن السخط العميق؛ وإذا عنّ لأحد أن يسألهم عن الأسباب الكامنة وراء هذا التحول، فهم لا يقدّمون إجابة محددة أو يمكن تفهمها، ولكن ربما كان فقدان الثقة وتبدد الأوهام هما السببان الحقيقيان لكل ما يحدث. ولاشك أن هذه الظاهرة ترجع إلى أحد العناصر الآتية أو لالتقاء هذه العناصر جميعا:

١) كان الشعور السائد في كل مكان هو أن ابن سعود لم يأخذ إخوانه مأخذ الجدّ. ولم يعاملهم بما هم جديرون به، ولم يقف إلى جانبهم كما كان ينبغي عليه أن يفعل. وبعد كلٍ شيء، فقد كانوا هم الذين صنعوا منه ما صار إليه. وهم أيضًا مسلمون حقا بكل ما في الكلمة من معنى.

٢) أنه دعا البريطانيين لمساندته. وبمساعدتهم، تمكن من سحق رعاياه من المسلمين.

٣) أنه عامل فيصل الدويش، ونايف الحثلين، وسلطان بن حميد العنيبي، وثلاثتهم من أعظم شيوخ شبه الجزيرة العربية، بغلظة وقسوة لم يسبق لهما مثيل. بينما كان في مقدوره أن يواجه الموقف مبديًا قدرًا أكبر من روح الفروسية.

وبمرور الوقت لم يعد أحد في عالم البادية شمال وشمال شرق منحنى الدهناء الرملي، أي في شمال شرق شبه الجزيرة العربية يطلق عليه لقب الإمام، وأصبح يعرف على أوسع نطاق باسم الوهّابي، وخاصة بين أولئك الذين تمردوا عليه ذات يوم، وكانت التسمية الجديدة تعبيرًا عن الازدراء والاحتقار أكثر من أي شيء آخر. ولعل المسّة الأكثر دلالة التي تبدّت للعيان هي أن العمامة البيضاء، التي كانت في وقتٍ من الأوقات تدلّ على انتماء مرتديها لعالم الإخوان الحق، لم يعد أحدٌ يراها إلاّ فيما ندر. وعاد أغلب مطير، والرشايدة، والعوازم، وعجمان، وشمر إلى ارتداء العقال القديم، وأما من واصلوا ارتداء العمامة البيضاء فكانوا يفعلون ذلك كنوع من النفاق أو من أجل التقرب لبطانة الملك.

ولكن هذا لا يعني أن حركة الإخوان أصبحت شيئاً في عداد الماضي، وإنما استمرت، في الجانب الأكبر، كامنة في الأحاسيس والمشاعر، وما أن حل عام ١٩٣١ حتى كانت قد تخلصت من التعصب الأعمى الذي لا يستجيب لنداء العقل. وكانت القبائل الكبرى في شبه الجزيرة العربية لاتزال تحبّ تسمية الإخوان أو الوهابيين الصادقين، وظلت، كما كان الحال معها فيما مضى، لا تعرف التدخين أو الميسر أو شُرب الخمر.

وإن كان تعصبهم العدواني قد تبدد بشكل عام، إلاّ إنه استمر في بعض المناطق مثل شمال نجد وفي أماكن أخرى مثل الحوطة، جنوب الرياض، وفي وادي الدواسر، وأما في الأماكن الأخرى فوهب أصحاب النفوس المتحمسة كل حياتهم للصلاة والسمو الروحي، وهم الذين لم يكونوا ليؤمنوا من قبل إلاّ بفرض آرائهم بالقوة والتدخل في شئون الغير. ولقد عرفت بأن كل هذه التطورات من عديد من زعماء الإخوان، ومن ممثلين لكافة القبائل، ولذلك، فإن كان من غير الحكمة أن تتنبأ بما سيحدث في المستقبل في بلاد أعاد التاريخ فيها نفسه مرة بعد أخرى، إلا إنني لا أعتقد أن النزعة العسكرية الإخوانية ستقوم لها قائمة على امتداد سنوات حياتنا.

ابن سعود يوطّد مركزه:

والآن، أصبح ابن سعود يريد السلام ويسعى إليه، كان القتال المستمر يكلف كثيراً، وهو في حاجة إلى المال. ومن أجل زيادة دخله، منح امتيازًا في الاحساء لشركة استاندارد أويل أوف كاليفورنيا (أرامكو الآن)، وطلب منها دراسة مشروع لمد خط للسكك الحديدية من الدمام إلى الهفوف والرياض، مرورًا بالخرج، وبعد أن تمكن من إقناع العلماء بأن الإسلام لا يتعارض مع هذه التطورات الحديثة، بل وإنه يؤيد كل ما يعني التقدم الحق، لم يدخر جهدًا من أجل الربط بين جميع المراكز الهامة في بلاده بواسطة الطرق الصالحة للنقل بالسيارات ومن أجل إقامة شبكة ملائمة للاتصالات اللاسلكية، تم منح شركة هندية امتيازًا لإنشاء طريق مسفلت من مكة إلى جدّة، وشجع نشاط شركات النقل بالشركات، واتخذ الخطوات اللازمة لإنشاء محطات للبرق اللاسلكي في جميع أنحاء البلاد، وأبدى حماسه ورعايته لزراعة الأرض في كل مكان. وفي شهر سبتمبر ١٩٣٢ أصبحت مملكة نجد والحجاز وتوابعها تعرف باسم المملكة العربية السعودية.

وطوال عام ١٩٣٣، كانت العوامل تتراكم وتتخمر لتفجر النزاع حول الحدود في عسير، وبدأ الانفجار ضد ابن سعود بأزمة أبها التي انتهت بطرد سكان هذا الإقليم للحاكم الذي سبق أن عينه، حسن الإدريسي، ودخوله أرض اليمن. ودخل الإمام يحيى، إمام اليمن، بقواته، أراضي عسير، فأرسل ابن سعود ابنه، الأمير سعود، على رأس قوة للتفاوض معه، ولكن هذه المفاوضات قطعت في مارس ١٩٣٤، وكان ابن سعود قد انتهي في ذلك الوقت من حشد جيش كبير بالقرب من المنطقة المتنازع عليها.

ورغم عدم إعلان الحرب رسميًا، إلاّ أن القتال بدأ في شهر أبريل. وحققت قوة تحت قيادة الأمير سعود نجاحًا مبكرًا باحتلال نجران. واستولى الأمير فيصل على الحديدة، في أوائل مايو، وكان يقود قوة مساندة تتكون في أغلبها من وحدات ميكانيكية. ولم يتردد الإمام يحيى في الاستفادة من الفرصة التي سنحت لعقد هدنة بين الطرفين إدراكا منه لأن اقتراب الصيف يجعل الخط الأمثل الذي ينتهجه هو استمرار العمليات لأطول وقت ممكن. وكانت القوات السعودية، من جانبها، ورغم ثقتها الكاملة في نفسها بعد نجاحاتها الأولية، تعانى من التحلل في واقع الأمر، وكانت الأمراض، التي لم تتخذ أي احتياطات لمواجهتها، تهاجمها، إلى جانب ما كانت تعانيه من نقص الذخيرة وعدم دفع المرتبات. ونتيجة لذلك، شاعت الفوضى بين صفوفها. ورأى ابن سعود أن مواصلة الحرب يمكن أن ينتهي به إلى الهزيمة، ولذلك مدَّ أجل الهدنة وعدّل من مطالبه. وحققت مرونته الأثر المنشود، فوافق الإمام على شروطه الأولية، ثم وقع، في منتصف يونيو، معاهدة بين اليمن والعربية السعودية.

ونتيجة لهذه الحملة تدعمت مكانة ابن سعود وتزايدت هيبته، واستردَّ واحة نجران الخصبة، وأكد دعاواه بالنسبة لعسير، التي اندمجت في نفس العام في العربية السعودية. وانتهت الحرب بانتصاره، ولكنه دفع الثمن غاليا، فخرج منها بجيش منهك استبد به الإرهاق والتمزق. ولم تتحقق المخاوف التي راودت البعض باحتمال شن الغارات كنتيجة طبيعية لعودة القوات خاوية الوفاض دون أن تحصل على أي أسلاب، وهو مؤشر يؤكد مدى ما كان لهذا القائد العظيم من سلطة ونفوذ، والتي بدأ يبسطها بكل قدرة على العديد من قبائله صعبة القياد.

ولم تعد العلاقات الودية بين العربية السعودية والكويت من جديد إلاّ في

عام ١٩٣٧ عندما ألغى حظر النشاط التجاري لرعاياه مع الكويت. وينبغي أن نشير هنا أن اللائمة في هذا الصدد تقع على ابن سعود وليس على الحكومة البريطانية التي لم تكفّ، منذ عام ١٩٣٠، عن تنفيذ ما وعدت به الشيخ أحمد بإلغاء المقاطعة في مواجهة المراوغات الذكية لابن سعود.

الجزء الثالث

وهو جزء يعتمد أساسًا على الذكريات

يا ضيفنا، لو زرتنا لوجدتنا
نحن الضيوف وأنت رب المنزل

هذه هي التحية التي استقبلني بها ابن سعود
عندما زرته لأول مرة في الهفوف عام ١٩٢٠م

الفصل الرابع عشر

الكويت ١٩٣١ - ١٩٣٦

قتل له ما يبرره - القبور التسعة - اتفاقية الطيران في الشارقة - عمشة وفيحا - مأدبة غداء في الصحراء - ساحرة من الصلبة - دغيمة وجحر الثعلب - حلم امرأة من عتيبة.

قتل له ما يبرِّره:

في عام ١٩٣١ اهتزت العراق اهتزازًا عنيفًا عندما أعلن نبأ مقتل حاكم بغداد المحبوب، عبدالله بن احمد باشا الصانع، داخل مكتبه في البلاط الملكي، على يد عبدالله بك الفالح باشا آل سعدون، شيخ المنتفق. وكنت أعرف الرجلين رغم أنني لم ألتق بأي منهما منذ عدة سنوات. ففي يناير ١٩١٩، استسلم عبدالله بك لي في الناصرية، وسُمح له بالتوجه للإقامة في ضيعته في قطيبان على بعد عدة أميال شمال البصرة.، حيث عاش في هدوء، مبتعدًا عن ممارسة أي دور سياسي،

مع زيارته لبغداد في المناسبات لتقديم واجب الاحترام للملك فيصل أو لحضور القضايا الخاصة بأملاكه القديمة المطروحة أمام المحاكم. والتقيت به في إحدى هذه المناسبات، فوجدته على نفس ما كان عليه من هدوء واعتزاز بالنفس عندما جاءني تحت جنح الظلام في الناصرية ملتمسًا أن أسعى لتحسين العلاقات بينه وبين السير بيرسي كوكس.

أما عبدالله الصانع فكانت معرفتي به أكثر توثقًا، وهو ابن أحمد باشا متصرف البصرة في ظل الحكم البريطاني، وعمل تحت رئاستي قائمقامًا للحِلة، وعندما غادرت العراق وذهبت للعمل في الهند، علمت أنه أخذ يشق طريقه الوظيفي بكل جدارة إلى أن تولى منصب حاكم بغداد حيث حظي أثناء شغله له بالثقة الكاملة للملك فيصل، وكنت أشعر بالفخر كثيرًا لذلك، لإحساسي بأنني ساهمت بدور فيما حققه هذا الفتى من مكانة وشهرة ولما حصل عليه من تدريب على يدي في المراحل الأولى من عمله.

خطوبة عبدالله:

ثم جاء الخطأ الذي ارتكبه عبدالله الصانع، لقد تقدّم طالبًا يد ابنة رئيس الوزراء العراقي الأسبق، المرحوم عبدالمحسن السعدون، فبعد الانتحار المأساوي لوالدها الشهير في عام ١٩٢٩ رحلت هذه الفتاة الشابة مع أمها للإقامة في سوريا. وكان عبدالله الصانع، كما يتبيّن من اسمه، متواضع النشأة جدًا، والجميع يعرفون ذلك، وهو لم يصل إلى ما وصل إليه إلا نتيجة لمواهبه وقدراته الخاصة ومساندة الملك فيصل وتشجيعه له، وكان مجرد تفكيره في الزواج من فتاة من آل سعدون، صفوة الأرستقراطية العربية القبلية، جريمة لا تغتفر، إن لم تكن هي الجنون المطبق بعينه. وكانت أسرة الصانع تحتل مرتبة دنيا في السلم الاجتماعي للبدو، بحيث ما كان لأي قبيلة من الأشراف في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها أن تحلم بتزويج إحدى بناتها لشخص من هؤلاء الذين لم يكونوا يمارسون منذ القدم إلا أكثر المهن تواضعًا مثل صناعة الحوافر الحديدية للدواب أو صيانة البنادق أو المشغولات الحديدية، ولم تكن القبائل تعاملهم إلا كما تعامل الخدم. وكان أي خروج على هذا العرف يعني الموت للفتى والفتاة معًا، ولم تكن هناك أي ظروف يمكن أن تخفف هذا الحكم.

ولن يستطيع أحد أن يعرف ما إذا كان عبدالله أحسّ بأن مركزه أصبح

على درجة من القوة أو أن رياح التحضّر وصلت إلى بغداد بحيث يمكنه أن يتحدّى ما درجت عليه القبائل من عادات وتعصّب؛ ولكن يكفى أن نقول أنه تودد إلى الفتاة وتمكن من الحصول على موافقة الملك على الزواج. ويقال إن فيصل بارك هذا الزواج لرغبته في مكافأة صفيّه الأثير، وإن كان البعض يؤكدون، وهم مخطئون في رأيي، أن هذه الخطوة كانت سياسية من جانبه أراد بها عامِدًا أن ينال من اسم آل سعدون الرفيع في المجال العربي؛ فِهو لم يكن علىٍ وِفاق معهم في أي وقت من الأوقات، وكان ادعاؤهم بأنهم لا يقلون عنه منزلةً وشرفًا، وبالإضافة إلى ذلك كان تحدّيهم السافر له في كل مناسبة يزعجه ويثير غضبه وحفيظته.

الغضب يجتاح آل سعدون:

ولكن ثمة شيئًا واحدًا مؤكدًا، فلابدّ أن الملك فيصل، وهو نفسه من أنبل بيوتات نجد ونشأ وترعرع في جوّ القبائل وما يسوده من أعراف وتعصب منذ طفولته، كان يعلم علم اليقين مدى خطورة ردود الفعل التي ستتفجر في كل مكان، وخاصة بين آل سعدون؛ ومع ذلك، لم يعترض على هذا الزواج أو يعمل على عدم تشجيعه. كما كان واضحًا أن أحدًا من الجالية البريطانية في بغداد لم يكن يدرك حقيقة الموقف، وكان الإنجليز يفكّرون وفقا لعاداتهم في بلادهم ومن ثم شجعوا هذا الزواج وباركوه، بل ودعوا له بالتوفيق وقدّموا له التهنئة.

وبتشجيع من ملكه الذي يدين له بالولاء، لم يضيع عبدالله الصانع وقتًا، ونجح في الالتفاف حول أم الفتاة، وهي سيدة تركية النشأة والتربية، كانت تتصور دون شك أن موافقة الملك تمثل ما يكفي من ضمانات حتى لا تتعرض ابنتها لأي مكروه؛ ولما كانت تعيش في سوريا التي هبّت عليها رياح التغيير والتحضّر، فالأرجح أنها اعتقدت أن التعصب القبلي أصبح شيئًا مستبعدًا، ودخل في عداد الماضي.

وعندما وصلت الأنباء إلى البصرة، معقل آل سعدون، كان الذعر شديدًا، وعلى الفور، توجه وفد رفيع المستوى إلى بغداد وطلب من الملك أن يوقف هذا الارتباط وأن يمنع الزواج. وبالرغم من كل ما أبداه الوفد من أسباب ومبررات، فشلوا في تحقيق هدفهم. ثم جاء وفد آخر، وعلى رأسه ثامر بك السعدون، وضاري بك الفهد السعدون، وغيرهما لمقابلة الملك. ويقال أن هذا اللقاء تبودلت فيه كلمات قاسية ودون □موارية. وتقول الرواية التي وصلت إلينا في الكويت أن

الوفد أبلغ الملك أنه إذا تمّ هذا الزواج، فلن يكتفي بقتل العروس والعريس فحسب، بل وربما لقي الملك نفسه نفس المصير؛ وأنهم، آل سعدون، من أسرة لا تقلّ عراقة وشرفا عن أسرة الملك، وأنهم يكللونه بالعار لاستخدامه مركزه ليفرض بالقوة زواجًا هو يعلم علم اليقين أن لن يجلب إلاّ العار لبيتهم كله.

واستقبل الملك الوفدين، بالطبع، وراء ستار كثيف من السرية. وكان من المفترض ألاّ يعرف العالم الخارجي شيئـًا مما قيل أو ما ثار من مشاعر المرارة التي تبدّت أثناء اللقاءين. ولكن الأشياء تعرف دائما كيف تشق طريقها إلى العلانية. ويقال أيضًا كان في ذروة الغضب لما واجهه من تحدّ وما سمعه من تهديدات داخل قصره، وفي عقر داره من جانب خليط من رعاياه. واتهمهم الملك، دون مواربة، بالخيانة، ورفض أن ينظر في أي طلب يتقدمون به مهما بلغ شأنه.

وكان عبدالله بك الفالح باشا السعدون قد تخلّف عن الذهاب مع الوفد وفضّل البقاء بالبصرة انتظارًا لما تسفر عنه التطورات، وتلقي أنباء فشل المحاولة الثانية في أسى وسخط. كان شرف الأسرة الآن في مهبّ الريح، والحياة لا تساوى شيئـًا في مثل هذه المواقف. ومكث عدة أيام في مدينة البصرة دون أن يستقر على تحديد خطوته التالية.

وهنا ظهر عجمي بك السعدون على مسرح الأحداث، وتلبية لدعوة عاجلة من أسرته جاء إلى البصرة من ماردين، في تركيا. والتقى بعبدالله بك وبشقيقه (شقيق عجمي) سعود بك، الذي جاء من الناصرية وأخذ يلحّ على ضرورة التصرّف على الفور. وتقرر في اجتماع سرّى أن يتوجه عبدالله بك وسعود بك، كلٌ على حدة، إلى بغداد، لقتل عبدالله الصانع.

ويقال، بالإضافة إلى ذلك، أن الأنباء وصلت إلى البصرة بأن الزواج تم بالفعل وأن العروس تتأهب للسفر إلى سوريا، وأنها بدأت رحلتها بالفعل. وأنا لا أستطيع أن أقطع بمدى صحة هذه الأنباء، ولكن الجديد الذي طرأ على الموقف ليعجل بوقوع المأساة كان حادثة عائلية؛ فعندما رجع عبدالله آل سعدون إلى منزله في قطيبان بعد ظهر أحد الأيام، دخل خيمته ثم نادى على زوجته، ولكن السيدة لم تخرج من جناحها الخاص الذي أسدلت عليه الستائر وخاطبته من وراء حاجز الخيمة لتسأل من هو المتكلم، فأجاب في غضب: "أنا عبدالله، زوجك، لماذا لاتأتين ؟".

فردّت قائلة: "أنا لم أعد زوجتك الآن، ولن أكون زوجتك أبدًا إلى أن تذبح الصانع الذي تجاسر فطلب يد إحدى بناتنا".

ودون أن ينبس ببنت شفة، غادر عبدالله خيمته، وأخذ معه بندقية آلية محشوّة بالرصاص، وانطلق بمفرده متجها بالسيارة إلى بغداد. وما أن بلغها، حتى شق طريقه رأسًا إلى البلاط وطلب مقابلة الحاكم، وأُذِنَ له بالدخول، فالتقى بعبدالله الصانع الذي قدم له مقعدًا – بكل أدب – ليجلس، وسأله عن سبب تشريفه له بهذه الزيارة، ورفض عبدالله بك قدح القهوة الذي قدم إليه وقال لعبدالله الصانع – وفقا لرواية الفراش الذي أحضر القهوة – أنه رغم أنه لا يحمل له أي عداء شخصي، إلا أن من واجبه أن يمنع زواجه من فتاة تنتمي لعائلته، ثم أخرج غدارته وأطلق الرصاص على عبدالله الصانع عبر المنضدة، الذي سقط على الأرض، فما كان من عبدالله بك إلا أن أفرغ ما تبقى من طلقات في الخزانة، عامداً متعمدًا، في رأسه. ثم اتجه إلى الباب، ونادى الفراش، وطلب منه أن يستدعي رجال الشرطة، وعندما وصلوا، وجدوه جالسًا يدخن لفافة من التبغ، وفي هدوء، شرح لهم أسباب ما أقدم عليه.

وأثارت محاكمة عبدالله بك، التي تولّى رئاسة الدائرة التي نظرتها قاض بريطاني، العالم العربي كله وهزّته من أعماقه، وعندما صدر الحكم بالإعدام، كان ردَ الفعل المتعاطف مع القاتل قويًا للغاية، وتوالت البرقيات التي تطالب الملك فيصل بتخفيف الحكم، من شخصيات بارزة من أمثال ابن سعود، وحكام الكويت والبحرين وعمان واليمن، وعدد كبير من الأمراء والشيوخ في وسط شبه الجزيرة العربية والحجاز والعراق وغيرها. وأسفرت هذه الضغوط عن تخفيف الحكم إلى السجن البسيط لمدة عشرين عامًا، ثم عفا الملك فيصل عنه فيما بعد ليصبح الحكم بالسجن لعام واحد.

وتصادف أن كنت في البصرة عندما عاد إليها عبدالله بك بعد إطلاق سراحه من السجن، والحق أنني نادرًا ما شهدت مثل هذا الاستقبال الحافل لزعيم من زعماء الشرق، كان الآلاف يحتشدون في المحطة، وآلاف أكثر منهم يصطفون على جانبي شوارع البصرة والعشار. إنه مشهد لا يصدّقه إلا من رآه بنفسه، لم يكونوا يرحبّون برجل اقترف جريمة قتل، وإنما كانوا يرحبّون ببطل قومي.

وأرجو المعذرة أن كنت شققت طريقي عنوة بين الحشد الهائل الذي تجمع في حفل الاستقبال الذي أعقب ذلك، أو لأنني قدمت له التهنئة لإطلاق سراحه من السجن؛ فلقد كان - بعد كل شيء - رجلا شجاعًا فعل ما يؤمن بأنه الحق وفقًا للأعراف والتقاليد التي نشأ في إطارها.

القبور التسعة:

وهذه قصة أخرى من قصص التعصب القَبَلي.

في ختام يوم طويل أمضيناه في رحلة صيد على امتداد سلسلة تلال الظهر بالكويت - في عام ١٩٣١، رجعنا، أنا وزوجتي، إلى مخيمنا عند أول الليل وقد أخذ منّا الإرهاق كل مأخذ. كنت قد أمرت في الصباح بضرب خيمتنا السوداء وخيام مرافقنا، سالم المزيّن وأسرته، وإعدادها لنا في مكان اخترته كيفما اتفق في أرض فضاء عند منحدر لطيف في الطرف الغربي لسلسلة من التلال، في مواجهة تلال برقان. وفي هذه الليلة رأيت مصادفةً، وعلى بعد حوالي مائة ياردة من خيمتنا، صفا من الآكام المنخفضة تضم تسعة قبور متجاورة عند سفح تل صغير. وعندما سألت، علمت بما حدث في هذا الموقع في شهر فبراير ١٩٢٦.

أثناء الصيف وأوائل الخريف من كل عام، كان آل هندال - وهم فخذ صغير من بطن بنى مالك - يعيشون على ضفة ترعة الغريفية بالقرب من سوق الشيوخ، أما في فصل الشتاء والربيع فكانوا يهاجرون جنوبًا إلى الكويت مع غيرهم من قبائل الرعاة من المنتفق.

ويمكن لأي شخص قضى أي فترة من الزمن في الكويت أن يميز بسهولة بين هؤلاء المنتفق الشماليين وبدو الكويت والعربية السعودية. فهم يغطون رءوسهم عادة بكوفية زرقاءٍ داكنة ذات مربعات ومن فوقها عقال أسود سميك يضعونه بحيث يميل قليلاً نحو أحد الجانبين فوق الرأس، أما بدو هذا القسم من شبه الجزيرة العربية فيرتدون جميعا كوفية قرمزية اللون ذات مربعات أو بيضاء ومن فوقها عقال غير سميك أو مجرد قطعة من حبل تلتف حول الرأس. وكما سبق أن ذكرت، فكل نساء، هذه القبائل من المنتفق لا يستخدمن الحجاب، ووجوهن وأذرعهن، وكواحلهن مزدانة بنقوش الوشم.

وكان للهندال عديد من الأصدقاء بين عجمان الكويت والاحساء،

وكانوا على علاقة طيبة على وجه الخصوص مع أسرة مشوط المحفوظ من عجمان، التي تقيم في منطقتي أبوحليفة والوفرة بالكويت، والتي كان أبناؤها يخطرون الهندال أثناء تجوالهم بأراضي الكويت في تلك الأيام العصيبة بأنباء وتحركات المغيرين من الإخوان الذين يظهرون في المنطقة، حتى يمكنهم الانتقال إلى أماكن أخرى عندما يلوح أي خطر.

وكان كبير الهندال هو المدعو فزع Fiza، وهو من أقرب أصدقائنا وكنت قد تعرفت به أيام عملي في سوق الشيوخ. وكان هو وأحد أقاربه - عبدالعزيز السمير (المعروف بالمسمار) هما اللذان أخبراني بقصة المذبحة التي تعرضت لها هذه الأسرة.

(قالا لي): إنه في عام ١٩٢٥ هطلت الأمطار مبكرة في البادية فاستبشر الجميع بربيع يقيم فيه الرفاء، ولكن الأوضاع لم تكن مستقرة، وكان المغيرون من الإخوان لازالوا يقومون بمغامراتهم بالقرب من مدينة الكويت نفسها ويستولون على الأغنام والجمال، ولكن مهما كانت الأوضاع، كان من المحال منع رحلة الشمال التي درج عليها القوم كل عام منذ القِدَم؛ فقطعان الماشية وإناث الخيل لابدّ لها أن ترعى على أعشاب وأزهار الصحراء التي تنمو في فصل الربيع، وبالإضافة إلى ذلك، فمع بداية هطول الأمطار في أراضي المنتفق، تبدأ حراثة الأرض وزراعة المحاصيل الجديدة، مما يتطلب نقل الأغنام والحمير بعيدًا عن المساحات المخصصة للزراعة.

رعاة في الصحراء:

وكانت كل قبائل الرعاة من المنتفق تأتي من الفرات في العراق كالمعتاد، ولكن لم يحدث في أي وقت من الأوقات أن تجاوزت أي قبيلة منها المدى الذي ألفت أن تصل إليه في اتجاهها نحو الجنوب، وفي شهر فبراير ١٩٢٦، ضرب الهندال خيامهم على امتداد الجانب الغربي من سلسلة تلال الظهر المطلة على آبار عريفجان، على بعد حوالي الثمانية أميال جنوب شرق تلال برقان، ووفقا لعادة بدو العراق جميعًا، لم يضربوا خيامهم في صفوف، كما يفعل بدو العربية السعودية، ولكنهم وزّعوها متناثرة، فرادى أو كل خيمتين معًا، حتى يسهل على أغنامهم الوصول إليها أثناء تجوالها، ولكن بحيث لا تبعد المسافة بين كل خيمة وأخرى عن القدر الذي يسمح بوصول صوت النذير عندما يطلق رصاصة في الهواء.

وقبائل الرعاة من المنتفق لا يمكلون جمالاً، ولذلك كانت خيامهم، التي لا

وسيلة لديهم لنقلها إلاّ على ظهور الحمير الهزيلة، صغيرة الحجم قليلة الارتفاع. وكانت لخيمة فزاع أربعة أعمدة، ولكن من نوع أقل وزنـًا من تلك التي يستخدمها البدو. وكان بكل خيمة من خيام عشيرته سجادة واحدة زاهية الألوان، ومغزولة من الصوف، من ذلك النوع الذي تجيد نساؤهم صناعته في أشهر الصيف تحت أشجار النخيل استعدادًا للهجرة السنوية الكبرى من الصحراء الجنوبية والكويت والتي يترقبها الجميع عامًا بعد عام.

وكان الشباب من الهندال، شأنهم شأن الشباب من سائر قبائل المنتفق، يتميزون بالوسامة والصحة وقوة البنيان، وكان لأغلبهم فرس يركبها كل منهم وهو في الطريق إلى الكويت، وكثيرًا ما كنت تراهم في أسواق المدينة يعقدون صفقاتهم ويشترون احتياجاتهم تاركين الفرس لتأكل في إحدى الحظائر المجاورة.

وكان شريب بن مضرب الهندال أحد هؤلاء الشباب، وهو أكبر أبناء، عم فزاع، وكانت تجمعه منذ عدة أشهر قصة حب لا يعرف أحدٌ عنها شيئـًا مع فتاة تدعى رخيصة، من قبيلة العبادة الصغيرة التي تعيش على الزراعة. ولم ينتشر نبأ هذه القصة إلاّ عندما أبلغ الأب، مضرب الهندال، ابنه أنه سوف يعقد قرانه، عند العودة إلى مواطن المنتفق في الصيف، على ابنة عمّه. وغضب شريب وأحسّ بإهانة شديدة وأقسم أنه لن يتزوج مهما طال به الأجل إلاّ من أحبها، رخيصة، ولكن المتاعب بدأت تتوالى أمامه. وبالرغم من أن العبادة – وهم أيضًا من بني مالك – كانوا جيرانـًا لا يحملون لغيرهم إلاّ الودّ، وعلى استعداد لتزويج بناتهم من الهندال، إلا إنه، عمليًا، لم يحدث قط أن سُمح لرجل من الهندال أن يتزوج فتاة من العبادة.

وعندما توجه عبدالله الهندال، وهو من كبار شيوخ أسرته، إلى مدينة الكويت بعد بضعة أيام وبصحبته مجموعة من النساء جئن لشراء احتياجاتهن، أعدّ فزع القهوة في خيمته وجمع أغلب أعضاء أسرته لمناقشة الموقف. ونظرًا لحالة عدم الاستقرار السائدة في ذلك الوقت، جلس الرجال حول النار وكلٌ منهم يضع غدّارته المشحونة بالطلقات فوق ركبته، بينما خزانات الذخيرة تلتف حول خصره، وكانت رخيصة أيضًا بصحبة تلك المجموعة من النساء، واللاتي حاولن مراراً إقناعها باستحالة زواجها من شريب.

وبعد تناول القهوة، بدأ الجدل، وشرعت الدماء تغلي في عروق شريب

الذي رفض الانصياع لأي منطق. وفجأة، وفي سرعة البرق، ودون التوقف لحظة للتفكير في العواقب، أطلق أحد الشباب نار غدّارته من مسافة قريبة جدًا على شريب فأرداه قتيلاً في الحال. وفي نفس اللحظة لقي القاتل مصرعه هو الآخر، لتتحوّل الخيمة كلها إلى جمع أعماهم الغضب فراحوا يتبادلون إطلاق الرصاص في كل اتجاه. وبينما رخيصة تهرول لتغادر الخيمة وصوتها يعلو بالصراخ، أصابتها طلقة في ظهرها فلقيت مصرعها، وولت بقية النساء الأدبار فزعات، واتجهن إلى الصحراء لينخرطن في العويل والبكاء، وهن يمزقن ملابسهن ويضربن صدورهن بقبضات الأيدي.

ولم يفلت إلاّ أربعة أشخاص؛ فزاع، والشاب عبدالعزيز، وشقيقاه شديِّد ومزعل، وإن كانوا جميعًا أصيبوا بجراح، كانت جثث القتلى تتناثر من حولهم، واستوعب فزاع حقيقة الموقف قبل غيره، فأمر عبدالعزيز، وكانت إصابته أقل خطورة من الآخرين، بأن يتوجه إلى المدينة ليُحضِر عبدالله على وجه السرعة، وجرى عبدالعزيز إلى راحلته فحلّ قيدها الحديدي وألقي به على الأرض، وامتطاها ليشق طريقه بأقصى ما يستطيع من سرعة نحو المدينة، على بعد ستة وثلاثين ميلاً.

وعندما بلغ المدينة وجد عبدالله والنساء مجتمعات في ساحة السوق (الصفاة)، ومازال الكثيرون يذكرون ذلك اليوم وما شهده من أحداث عصيبة عندما وصل الفرسان الذين أثخنتهم الجراح واستبدّ بهم الإعياء، يحملون الأنباء التي تقشعرّ لها الأبدان. وعلى الفور، قفز عبدالله - وهو المعروف دائما بالهدوء وضبط النفس - فامتطى راحلته وانطلق بأقصى ما يستطيع من سرعة، أما النساء، وكنّ حوالي عشرًا، فخيمّ عليهن حزن عميق وانخرطن يولولن في نحيب وعويل ويمزقن شعورهن وثيابهن، ويَدُرْن حول أنفسهن جريًا في الساحة وكأنما أصابهن مسٌ من جنون، وانتشرت الأنباء انتشار النار في الهشيم لتصل إلى كل ركن من أركان المدينة، فهبّ الناس واندفعوا ليحتشدوا من حولهن، وأقبلت عليهن صديقاتهن مواسيات، وتنافست الأيدي لمساعدتهن في تحميل حميرهن، وبعد الظهر، غادرن المدينة وهنّ يجررن سيقانهم جرًا بعد أن كاد الحزن يشلّ حركتها، ومن ورائهن أغنامهن وحميرهن في طريق طويل كان عليهن أن يقطعنه ليلا نحو موطنهن. وكم كانت مسيرة حزينة تتفتت لها الضلوع. وكان عبدالعزيز في صحبتهن.

وقبل مغيب الشمس، حفرت تسعة قبور جنبًا إلى جنب، ووريت بها أجداث الرجال الثمانية والفتاة. وفي هذه المذبحة فقد فزع عمّه مضرب وابن عمّه شريب، وفقد عبدالله شقيقيه جاسم ومطر وابن أخته كريم مطشر، بينما فقد عبدالعزيز شقيقه داوود، وفقد الصغير فيصل - ذو العينين الزرقاوين - أباه حسن.

وعندما ساد الظلام، كانت المجموعة الصغيرة التي أفلتت من الموت تصطف لأداء صلاة العشاء، فحمدوا الله على رحمته رغم كل ما يعتصر قلوبهم من حزن وألم، واختتموا صلاتهم مرددين: "الحمد لله. الله يعطي، والله يأخذ".

حصلت على تفاصيل هذه القصة بشق الأنفس من فزع وغيره، لأن الهندال لا يحبون الحديث عنها. وأنا لا أعرف على وجه التحديد من الذي بدأ بإطلاق الرصاص، ولا أخبرني الهندال بذلك. ومازال المنتفق عازفين عن ترديد هذه القصة أو الخوض فيها حتى اليوم.

وفي ربيع ١٩٤٣، ضربنا خيامنا بالقرب من نفس المرتفع. وعندما بدأت الشمس تتوارى وراء الأفق أمكننا أن نطلّ من خيمتنا لنرى الظلّ الشاحب الذي تلقيه الآكام الصغيرة من الثرى التي تراكمت فوق القبور، وبشكل ما، كنا نحسّ كأن شيئًا ما يجذبنا نحو هؤلاء الأصدقاء من الهندال.

وكان فزاع وسمير وعبدالعزيز يقومون بزيارتنا بانتظام كلما جاءوا إلى الكويت، ما كنت أقوم، وزوجتي معي، بزيارة مضاربهم بانتظام حيث نستعيد معًا ذكرياتها القديمة، وكانت زوجة سمير سيدة شابة رشيقة وجميلة لدرجة ملفتة للنظر، وكانت من أعزّ صديقاتنا، وكان عبدالله، ذلك الطفل الجميل، هو وليدها الأول الذي أنجبته في ١٩٤٣م. وفي أوائل نفس العام أتهم فزاع زورًا بسرقة جمل، ليجد نفسه ملقي به في أحد سجون الكويت، ولحسن الحظ نجحت مساعينا لإثبات براءته والإفراج عنه، وفي الربيع التالي، ألقت الشرطة العراقية القبض على سمير - أو مسمار كما يحبّون أن يطلقوا عليه - وهو يتجوّل بالقرب من الرفاعية ثم قررت الإفراج عنه مقابل دفع كفالة مقدارها سبعمائة دينار، ولكن كلمة حق في المكان المناسب كانت هي المنقذ، خاصة ما شهدت به بأنني أعرفه معرفة شخصية منذ أيام عملي السابقة في سوق الشيوخ، وأنني كنت ألمس استقامته في كل مواقفه، وولاءه الشديد لبريطانيا.

وكانت صداقتنا الطويلة لأسرة الهندال مصدرًا كبيرًا لسعادة زوجتي، ولسعادتي، طوال السنوات العديدة التي أمضيناها في الكويت، أدعو الله أن يظلّوا أصدقاء لنا على الدوام.

اتفاقية الطيران في الشارقة:

نظراً لرفض الحكومة الفارسية تحليق طائرات الركاب فوق الجانب الفارسي من الخليج، ورفض ابن سعود - بتحريض من الإخوان المتعصبين - السماح بالتحليق فوق الساحِل العربي المقابل، أخذت الحكومتان البريطانية والهندية تبذلان جهودًا مكثفة من أجل التدابير اللازمة لهبوط طائرات الخطوط الجوية الإمبراطورية في الشارقة، على الساحل المتهادن، وهي في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، وأصبح من الأهمية القصوى التوصّل إلى اتفاق مع الشيخ سلطان بن صقر، حاكم الشارقة، حتى يمكن إنشاء مهبط للطائرات وتوفير سبل الراحة للمسافرين الذين يقضون الليل بها.

وتمت مفاتحة الشيخ عدة مرات، ولكنه رفض التعاون، وقام السير هيج بسكو، المقيم السياسي، بزيارة للشارقة، ولكنه وجد الحاكم عنيد مصرًا على الرفض، ويثير عقبة بعد أخرى، فعاد من زيارته صفر اليدين.

وفي ١٤ من يوليو ١٩٣٢، تلقيت برقية من السير هيج يكلّفني فيها بالتوجه بالسيارة إلى البصرة واللحاق بباخرة البريد السريع المتّجه إلى كراتشي للالتقاء به في بوشهر، مقر عمله. وقال إنه سيحاول خوض جولة أخرى حول امتياز الطيران في الشارقة الذي يأمل النجاح في الحصول عليه، وأنه نظرًا لإجادتي للغة العربية، كان لديه إحساس باطني بأن جهده سيكلل بالنجاح هذه المرّة، بمساعدتي. وكانت خطته هي أن نلحق بالسفينة بيدفورد (ويتولى قيادتها الكابتن دنيسون) وهي بالقرب من فنار جزيرة طنب، وتعديل مسارها لتصل إلى الشارقة صباح اليوم التالي.

وكنت أعرف أن السير هيج يعاني من مرض بالقلب وأن حالته الصحية لا تسمح له ببذل أي جهد شاق وخاصة أثناء الارتفاع الشديد لدرجة الحرارة في صيف الخليج؛ كما حذرّه الأطباء أثناء إجازته الأخيرة في المملكة المتحدة من العودة إلى الخليج؛ ولكنه وضع الواجب قبل مصالحه ومشاعره الخاصة، وعاد مرة أخرى.

وفي الليلة السابقة لمغادرتي بغداد، رأيت حُلمًا مفزعًا فنهضت من نومي وأيقظت زوجتي لأخبرها بأن ثمة هاجس خفي يراودني بأن كارثة سوف تقع أثناء الرحلة، وإن كنت لم أستطع أن أحددَ ما هي هذه الكارثة، إلا أن إحساسي بالكآبة والتشاؤم كان عميقًا وظلّ مسيطرًا عليّ طوال الرحلة بالسيارة إلى بغداد ثم على متن باخرة البريد التي غادرت البصرة يوم ١٦، ووصلت إلى بوشهر الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم التالي، وجاء السير هيج إلى السفينة وعلامات الصحة والبشر بادية عليه، وتناولنا عشاءنا تلك الليلة في جو يسوده المرح على المائدة الخاصة لقائد السفينة، وشيئا فشيئا، تخلصت من هواجسي، ولم يكن برفقة السير هيج إلا سكرتيره، الكابتن تشونسي – من الإدارة السياسية بالهند، وهو شخصية قديرة وجذّابة للغاية.

كانت الليلة شديدة الحرارة، يخيم عليها السكون المطبق، ووصلنا إلى فنار طنب عند منتصف الليل فوجدنا السفينة بيدفورد في انتظارنا وبعد بضع دقائق انتقلنا إليها على ظهر لنش. وبعد تناول شيء من الشراب مع الكابتن ونيسون، الذي استقبلنا استقبالاً حارًا مفعما بالودّ. توجه كل منّا إلى المكان المخصص له، ونمت أنا والسير هيج على سريرين صغيرين على السطح وبجانبنا (ترموس) كبيرة مليئة بالماء المثلج.

وأخذت بيدفورد تمخر العباب وهي تتهادى في بطء متجهة إلى الشارقة حتى يكون وصولنا إليها في ضوء النهار وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل أيقظتني هزّة خفيفة أحسست بها على كتفي: كان السير هيج يقف إلى جانبي، ووجهه يطفح بالألم. وقال: "احضرْ الطبيب بسرعة. أعتقد أنني أحتضر".

وتهاوى منهارًا فوق سريري، وخلال ثلاث دقائق كنت قد استدعيت جرّاح السفينة، فسَندَ السير هيج على كتفيّ، وحقَنه، وبذل كل ما في وسعه لإنقاذه، وهشم عدّة أنابيب زجاجية صغيرة تحت أنفه، ولكن، بلا جدوى؛ وبعد أن تقيّأ عدة مرات، غاب السير هيج عن وعيه تمامًا وأسلم الروح بين ذراعيّ خلال مالا يزيد عن نصف الساعة. ومازلت أتذكر أن رداء نومه كان مبللا بالعرق لشدة ما عانى من حرارة وألم.

وقرر الكابتن دينسون في الاجتماع القصير الذي أعقب الوفاة أن نتوجه إلى جزيرة هنجام عند مدخل الخليج حيث يرسو الزورق الشراعي الخاص لقائد

الأسطول إلى جانب عدد آخر من السفن الحربية، وبعد عدة مراسلات واتصالات مع حكومة الهند (وزير الخارجية، سيملا) والليدى "بسكو" فى بوشهر، استقر الرأي على دفن المقيم السياسي الراحل في البحر. وألقينا الجثمان إلى مقره الأخير في الساعة التاسعة صباحاً بالقرب من جزيرة هنجام، مشيعًا بطلقات المدافع تحية من سفن الأسطول. وكان مشهداً بالغ القسوة والتأثير.

كانت وفاة السير هيج، وهو في الثانية والخمسين من عمره، كارثة كبرى حقًا، كانت مواهبه وقدراته ترشحه لأن يكون أعظم مقيم سياسي شهده الخليج، باستثناء الساحر السير بيرسى كوكس.

وبعد أن انقضت مراسم الدفن، أخبرت قائد الأسطول والكابتن دنيسون أنني أقترح مواصلة رحلتي إلى الشارقة والتصّدي لحل مسألة اتفاقية الطيران بنفسي، على النحو الذي كان السير هيج يتمناه. وأيدّ الكابتن تشونسي اقتراحي، وكذلك الكابتن دنيسون، فأرسلت برقية بذلك إلى سيملا، وصورة منها إلى لندن.

ووصلنا إلى الشارقة في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، فنزلت إلى الشاطئ، وأبلغت الشيخ سلطان بنبأ وفاة السير هيج وقلت له أنني سأبدأ المفاوضات بنفسي. وقمت بذلك بالفعل بمساعدة الكابتن تشونسى، وطوال ثلاثة أيام بلياليها، وفي جو خانق شديد الحرارة على الشاطئ، أخذنا نعدّ وثائق الاتفاقية، نحذف فقرة أو كلمة هنا ونضيف فقرة أو كلمة هناك، ولكن مع الالتزام أساسًا بالمشروع الذي أعدّه المقيم السياسي. وفي اليوم الرابع، انتهيت من تسوية كل شيء بما يرضِي الشيخ ويرضيني في نفس الوقت، ولم يعد أمامي إلاّ أن أصعد إلى متن السفينة بيدفورد لتوقيع الاتفاقية، وأن أحصل على توقيع الكابتن دنيسون كشاهد. ووعد الشيخ سلطان في الساعة الرابعة بعد الظهر لينزل ضيفا على الكابتن دنيسون في حفل شاي رسمي، ثم ينتهي الأمر. ورجعت إلى السفينة منهكا لما بذلته من جهد ولشدّة الحرارة.

وصل الشيخ في الساعة الرابعة مستقلاً لنشه المتهالك، وكنت في استقباله مع الكابتن دنيسون على سطح مؤخر السفينة، واصطحبناه إلى غرفة القيادة حيث وضعت مائدة اكتظت بكميات يسيل لها اللعاب من المأكولات والشيكولاتة والبسكويت والفطائر، الخ.

وكان بصحبة الشيخ سلطان وزيره الذي لم أعد أتذكر اسمه الآن، ولم يكفّ الشيخ عن ترديد أنه قام ذات مرّة بزيارة باريز (باريس) عندما ذهب لبيع اللؤلؤ ولذلك استنتجت أنه يمارس التجارة في حياته العادية؛ وأنه لاشك يعرف فيكتور روزنتال، وهو من أكبر الشخصيات في عالم اللؤلؤ، وكان يزور الخليج كثيراً في وقت من الأوقات وكان روزنتال يهوديًا فرنسيًا من أصل روسي، ويتميز بشخصية جذابة جدًا، وكان من أصدقائي وأصدقاء زوجتي القدامى، كما كان العرب في كل مكان يحبونه ويعرف بينهم بأنه أبو صناعة اللؤلؤ الحديثة في الخليج.

وتناولنا الشاي، ثم بدأ الشيخ سلطان يتصرف تصرفات سمجة بعيدة كل البعد عن اللياقة، كانت هناك في الغرفة صورة فوتوغرافية كبيرة، صُنع إطارها من الفضة، للملك جورج الخامس، وعليها توقيع جلالته، قال الشيخ سلطان أنه يريدها. وردّ الكابتن دنيسون بأنه لا يمكنه أن يأخذها لأنها هدية شخصية من الملك. وبدا الامتعاض على الشيخ، فراح يتطلع إلى صورة فوتوغرافية كبيرة أخرى لمسز دنيسون، إطارها من الفضة أيضاً، وقال أنه لابدّ أن يأخذها. ومرة أخرى اعترض الكابتن دنيسون موضحًا، بكل أدب، كيف أن السيدة التي تبدو في الصورة إنما هي زوجته، ولم يتوقف الشيخ، وما كان لشيء أن يوقفه، فأمسك بصندوق كبير صنع من الفضة ويستخدم لتوضع داخله لفائف التبغ، وكان هدية قدمتها جلالة الملكة ماري للكابتن دنيسون أثناء عمله باليخت الملكي، وهنا قال دنيسون – وأعتقد أنه أخطأ فيما قال – أنه يمكن للشيخ سلطان أن يأخذ أي شيء آخر باستثناء هذه الأشياء الثلاثة؛ وعلى الفور، التقط الشيخ سلطان قداحتين من الفضة، وصورة فوتوغرافية للسفينة بيدفورد، وصندوق فضي للفائف التبغ، وست ملاعق شاي، وأمر عبده الأسود الذي يرافقه بأن يأخذ معه صندوقاً معيناً كبيرًا مليئاً بالفطائر والبسكويت لم يُفتح بعد، ونظرًا لأن الاتفاقية كانت هي شغلي الشاغل والوحيد طوال الوقت، ولم يكن الشيخ قد وقعها بعد، تمالكت أعصابي واكتفيت بأن أهمس في أذن الكابتن دنيسون بكلمات مثل: "دعه يأخذها. لا تبدد سعادته. هذا هو الشيء الرئيسي".

ولم يوافق الكابتن دنيسون على ذلك فيما يتعلق بملاعق الشاي، ولكنني وعدته بإهدائه طاقم جديد. كان الأمر كله مزعجًا ومثيرًا للتوتر إلى أقصى حدّ، ولكن ما أكثر ما اشتمل عليه من دروس وعِبرَ.

وبعد ذلك، انتقلنا لما جئنا من أجله، وأخرجت أوراق الاتفاقية ووضعتها على المنضدة بعد أن أخليتها من كل ما عليها، كما وضعت المحبرة والمنشفة كلاً في مكانه.

وقلت: "فخامة الشيخ، حان الوقت لتسوية المسألة العزيزة على قلوبنا، والتي سبق أن وافقتم فخامتكم عليها. وإذا وقعت هنا، فسوف أوقع تحت اسمك، ثم يضع صديق الجميع (الكابتن دنيسون) توقيعه أسفل توقيعي، كما سيوقع السكرتير المحترم للمقيم السياسي بعد توقيع الكابتن المبجّل".

فأجاب الشيخ سلطان: "ليس بهذه السرعة يا صديقي، ليس بهذه السرعة، لقد وافقت بكل تأكيد على محتويات الوثيقة ووعدت بالتوقيع، ولكن قبل التوقيع، يجب أن أنتظر مغيب الشمس حتى أؤدي صلاة المغرب، فربما ألهمني الله شيئا حينذاك"، ورغم كل توسلاتنا، لم يتزحزح عن موقفه.

ثم تساءل: "هل هناك ما هو خير من مباركة التوقيع بالسجود بين يدي الله وأداء الصلاة؟".

وكانت حجة لا رادّ لها.

وبعد فترة من الانتظار الطويل والملل، كان الشيخ يجلس أثناءها على سجادّة بسطها خدمه على سطح السفينة. يحتسى القهوة ويتحدث في مرح مع وزيره، غابت الشمس، وبدأ الشيخ سلطان صلاته، واستغرقت الصلاة خمس عشرة دقيقة ثم نهض، وأعلن أنه على استعداد لتوقيع الاتفاقية ولكن بشرط أن يَعِدَه الكابتن دنيسون بتحيته بطلقات من مدفع عند مغادرته السفينة، فوعدته بذلك، وأضفت أن أي سفينة تأتي إلى مينائه ويصعد إلى متنها سوف تقدم له نفس التحية، وعلق الشيخ قائلا إنه أحسّ أثناء صلاته أن الله سيذكره بشيء قد نسيه، وها هو ذا إحساسه يتحقق،

ولكن الكابتن دنيسون لم يقتنع بهذا الحوار الذي يجرى فهدد قائلا: "لا أستطيع حتى ولو كان الملك جورج نفسه هو الذي يطلب هذا الشرف، ألا يعرف الشيخ أن قواعد العمل في الأسطول تمنع أداء هذا النوع من التحية بعد مغيب الشمس؟". فقلت له: "بحق السماء، لا تبدأ إثارة العراقيل الآن، أطلق جميع المدافع التي في حوزتك، وبالذخيرة الحيّة إذا لزم الأمر"، ولكن دعنا نحصل على توقيع الشيخ".

كان النقاش بيننا سريعًا وحادًا، وبعد جهد، تمكنت من إقناعه بإطلاق مدفع واحد عند مغادرة الشيخ للسفينة.

وزمجر دنيسون وهو يقول: "سوف أسدد عليه دانة حية من مدفعي عيار أربع بوصات".

ولما كانت بوادر النصر تلوح أمام ناظري، قدمت للشيخ كل الضمانات التي طلبها، واكتملت الوثيقة، أخيراً وقع الشيخ.

كانت ساعة كاملة قد انقضت منذ مغيب الشمس، وبدأت الظلمة تزحف. ودرجة الحرارة أشد قسوة من أي شيء خبرناه من قبل. وكان السكون خانقا مُطبقا كالموت،

وعندما هبط الشيخ ليعبر المَمر الموصّل إلى لنشه المتهالك (بالمناسبة، كان الشيخ قد التقط قلم الحبر الخاص للكابتن دنيسون خِلسةً ودسّه في جيبه) سمعنا دويًا وهديراً كالرعد ينطلق من المدفع عيار ٢٤ بوصة المصوبَة فوهته فوق اللنش. فترنحت السفينة حتى كاد طرفها الخلفي أن ينشطر. تلاطمت المياه في عنف حتى خلناها ستبتلع اللنش في جوفها.

يالها من تجربة! وحمدنا الله وعدنا إلى غرفة القيادة مرة أخرى. فتناول كل منا كأسًا من الويسكي بالصودا.

وأخرج الكابتن دنيسون برقية لاسلكية من أحد الأدراج وقدّمها لي. كانت أربعة أيام قد مضت منذ وصولها، وكانت واردة من وزير الخارجية في سيملا، وموجهة إلى قائد بيدفورد. ليقوم بتسليمها لديكسون، وكانت التعليمات التي تضمنتها تطلب عدم الإقدام على أي خطوة فيما يتعلق باتفاقية الطيران إلى أن يصل المقيم السياسي الجديد. السير ترنتشارد فاول، إلى الخليج ويبدأ ممارسة مهام منصبه. واختتمت البرقية بنصيحة موجهة إليّ بأنه ليس من الملائم استمرار المفاوضات فور وفاة السير هيج بسكو. وأنه لابد أن الشيخ سلطان هو أول من يدرك ذلك.

وقال دنيسون وابتسامة عريضة على وجهه: "حجبت الرسالة عنك يا ديكسون لأني رأيت أن وقت العمل قد أزفَ. وأنه ما لم تتصرف على الفور، فلن يُقدر لاتفاقية الطيران أن ترى النور الآن، أو في أي وقت لاحق".

وأحسست كأن صاعقة حطّت عليّ. ولكنني لم أغضب، لإحساسي بأن

حكومة صاحب الجلالة لا يمكن أن تأمر بالاستغناء عن خدماتي بعد جهودنا الموفقة، وساورني الشك في أن الكابتن تشونسي كان ضالعًا في مؤامرة حجب البرقية إلى أن ينتهي الأمر. وبعثت، بالاشتراك مع دنيسون، برقية للردّ إلى سيملا شرحنا فيها ما حققناه من نجاح، وكيف أن عاصفة هوجاء هبت لتعزلني لمدة ثلاثة أيام كاملة على الشاطئ لم أتمكن خلالها من إجراء أي اتصال على السفينة – وكانت كذبة لابدّ منها.

ولكن استخدام طلقات المدافع للتحية في المستقبل أصابني بالفزع حقًا، وبينما نحن نناقش المسألة، أقبل علينا ملاح السفينة ليبلغنا أن شيئا كالإعصار يقترب منّا، وأن مقياس الضغط الجوى هبط إلى الصفر، وأننا نرسو عند منطقة من الشاطئ لاتصل إليها الرياح ولابد لنا أن نخرج إلى البحر على الفور.

كان البخار يتصاعد. وغادرنا ذلك الشاطئ الذي تكتنفه الأخطار بعد أن ضاعفنا من سرعتنا، واتخذنا طريقنا صوب البصرة. وهبت العاصفة بعد ساعة واستمرت تهدر في عنف طوال الطريق حتى مدخل شط العرب. ولما كنت لا أعرف عن العواصف وما ينجم عنها إلا القليل، انصرفت لأنام وأنا في حالة عجز كامل نظرًا لإصابتي بدوار البحر. إلى أن لمحنا فنار الفاو في ٢٦ من يوليو. إنني أسوأ بحار في العالم، وجاءت هذه الرحلة لتزيدني يقينـًا بهذه الحقيقة التي لا نزاع فيها.

وبعد حوالي ستة أشهر، بعث لي الشيخ سلطان بن صقر برسالة ودّية رقيقة يذكرنّي فيها ببندقيتين للصيد وعدته بإحضارهما له من لندن ولكن الواقع أنني لم أعد هذا الوغد Rascal الهرِم بأي شيء من هذا النوع، ولم يسبق أن دار بيننا أي حديث عن بنادق الصيد.

عمشه وفَيحاء:

بعد أن غادرت نساء أسرة الراحل فيصل الدويش الكويت ورجعن إلى الرياض، كان ابن سعود يسمح لبعضهن بالمجيء لزيارتنا من وقت لآخر، ومع ذلك، لم يحدث أن التقينا مرة أخرى بعمشة وفيحاء إلا بعد ثلاث سنوات.

عندما كانت زوجتي في إنجلترا في عام ١٩٣٥ ومعها ابننا وابنتنا، وصلت فيحاء ذات يوم إلى الكويت بصحبة زوجها، عبدالعزيز بن عبدالله الماجد

الدويش، من دوشان من مطير، ولم تشأ أن تأتي إلى منزلنا بمفردها ولذلك بعثت تطلب منّي زيارتها في المبنى الصغير المكوّن من غرفتين الذي استأجرتاه بالقرب من مستشفى الإرسالية الأمريكية، ووجدت فيحاء وقد شبّت عن الطوق وأصبحت سيدة جذابة ممشوقة القدّ، ورغم ذلك لايزال واضحًا عليها بعضًا من سمات الفتاة الصغيرة التي لم تتزوج بعد. كانت بمفردها وأخبرتني أنها على وشك أن تضع أول وليد لها، وأنها أرادت أن تتواجد بالمدينة عند الولادة حتى تكون على مقربة من المستشفى إذا واجهت أي تعقيدات. وبنات البادية إذا عرفنك ووثقن بك ليس لديهن ما يمنعهن من الحديث معك حول هذه المسائل الخاصة والدقيقة، وفي الوقت المناسب، أعطيتها بعض النقود لمساعدتها على شراء بعض الأشياء الضرورية والثمينة بالنسبة للنساء العربيات، عند استقبالها لابنتها خزنه.

وبعد ثلاثة أيام، تركت فيحاء منزلها وانتقلت للإقامة في خيمة صغيرة استأجرها زوجها في ساحة سوق الصفاة بالقرب من مخيم لنساء أخريات من نفس القبيلة جئن لشراء لوازمهن فور علمهن بوجود أحد شيوخهن وزوجته بالمدينة. واستقرت فيما بين صديقاتها وطلبت منّي مرة أخرى أن أتوجه لزيارتها. وبكل زهو واعتزاز، كشفت لي عن وجه الصغيرة خزنه، وكانت تلفها بإحكام في قماطها على طريقة البدو، وكانت عيناها سوداوين يجللهما الكحل، ووضعت في راحة يدها الصغيرة روبية لتجلب الحظ، فأطبقت عليها أصابعها على الفور، وقالت لي فيحاء أنها تشعر بالأسى لأن زوجها كان يريد ولدًا، ثم أضافت أن خزنه سوف تعوضّها وتنجب ولدًا لابني سعود عندما تكبر.

وبعد أسبوع، اختفت الأم وطفلتها في جوف الصحراء ولكن بعد أن أتيحت لي الفرصة لأعطي فيحاء ثوبًا وعباءة جديدتين، وأقدم لزوجها غرارتين من الأرز وكمية من البن كهدية خاصة له.

الشقيقتان:

وما لبثت عمشة أن وصلت، بعد أن سمعت بلاشك عن الأشياء الطريفة التي أعطيتها لأختها. كانت أقلّ تحفظًا فيما يتعلق بالمجيء إلى منزلي، فاصطحبت بخيتة، مرضعة فيصل الدويش: وهي زنجية تعيش الآن في الكويت، لتأتي معها. كانت عمشة أقصر قامة من فيحاء وأضعف بنيانـًا، وقالت بخيتة إنها أكثر جمالاً من شقيقتها ولكن برقعها، ذلك الحجاب الكثيف الأسود الذي

يخفي وجهها، لا يعطيني الفرصة لأتأكد من صحة ما تقول. وطالما أنني وُضعت في موقف من يُطلب منه أن يصدر حكمًا، فيمكنني أن أقول أن أكثر سماتها جاذبية هو شعرها الأسود الطويل، وبناءً على طلبي، أبرزت من تحت الثوب الذي يغطي جسمها كله، ضفيرتين (جديلتين) رائعتين تكادان لطولهما، أن تصلا إلى ركبتيها، وبسطت الجديلتين في زهو وخيلاء وقالت في دلالٍ أنثوي لعوب: "فيحاء ليس لديها قرونـًا مثل قروني".

كانت بكل تأكيد، أكثر حيوية وانطلاقًا من شقيقتها، وتثرثر بلا تحفظ وتروى لي الأقاصيص عن حياتها في البادية، وقالت إنها جاءت إلى الكويت دون أن يصحبها زوجها سعود بن مزيد الماجد الدويش، ابن العم التالي لزوج شقيقتها، وأنها تأمل أن أكون كريمًا معها كما كنت مع فيحاء، وأضافت إن فيحاء بخير وتبعث بالسلامات للجميع، وأنهما ستأتيان معًا في المرّة القادمة؛ ولكن زوجها سعود رجل غيور ولذلك فلن يتمكنا من زيارتي بمنزلي. وقلت لها إنني سألتقي بهما في خيمة زيد الصانع، خارج سور المدينة، وكان زيد وزوجته، من أعزّ أصدقائنا.

ومَكَثت في الكويت لمدة أسبوع، عرفت منها أثناءها كل الأنباء، بما في ذلك آخر أنباء الملك ابن سعود وأسرته، وسألت عن بندر الدويش، ابن فيصل؛ ومطلق بن شقير الدويش؛ وهزاع بن بدر الدويش وأخيه محمد؛ ومحمد بن وطبان الدويش وابن أخته مخرِّب – وهم جميعا من آل دويش ومن كبار شيوخ مطير، فأجابت: " كلهم طيبِّين، وكلهم يسلمّون".

وقبل أن ترحل، وعدتني بالمجيء هي وفيحاء فور عودة زوجتي من إنجلترا. وسألتها: "كيف ستعرفين موعد وصولها؟": فكان ردّها: سوف نسمع على الفور، نحن نعرف كل ما يجرى في الكويت. وبمجرّد أن تعود أم سعود، سوف يصلنا النبأ، حتى ولو كنّا على مسافة تقطعها الجمال في عدّة أيام"، إن أهل البادية لا يفوتهم شيء.

وتركتني أقبلّ يدها وهي تهمّ بالانصراف، ورغم قذارتها، كانت حقًا يد أميرة، والحق أن النساء البدويات يفضن بهجة من حولهن، ولكن عندما يتعرفن بك عن كثب.

مرحبًا بزوجتي:

وعندما عادت زوجتي من إنجلترا، أنجزت عمشة ما وعدت، وفجأة وجدناها أمامنا هي وشقيقتها، وقد جاءتا من نواحي آبار اللهابة في الصمان، على مسيرة اثني عشر يومًا، يرافقهما رجل واحد من أبناء القبيلة؛ وقالتا أن زوجيهما سيحضران في أثرهما خلال أسبوع. وعندما سألتهما ما إذا كانتا لا تخشيان السفر طوال تلك الفترة، بمفردهما، ومعهما رجل لا تصحبه زوجته، ظهر عليهما شيء من الارتباك، وبعد قليل انفرجت أساريرهما وبَدَتا كأنهما أدركتا المعنى الذي أقصده.

وشرحتا لي الأمر فقالتا: "فيما يتعلق بالبادية، فليس هناك أي خطر، لان ابن سعود تكفل بذلك واستقر الأمن، وأمّا إن كنت تلمّح إلى أن سيدتين يصاحبهما رجل للحراسة أثناء سيرهما منفردتين، فهذا أمر طبيعي تمامًا في البادية، فالنساء آمنات دائمًا هناك، لأن البدو يتحلون بروح الفروسية، ولا يمكن أن يصيبوا أنثى بأذى حتى ولو كان ذلك مقابل كل ذهب العالم، وإلى جانب ذلك، ألسنا من الدوايشية وأميرات في مواطننا؟ وأما بالنسبة لحارسنا، فبعد أن يقوم بإعداد كل ما يلزمنا طوال الليلة، يضعه وراء حاجز الخيمة، ثم ينصرف لينام بعيداً بمفرده. ولاشك أن الرجال في بلادكم يفهمون أن لمس الأنثى حرام".

وتعجبت لهذا الردّ، ولتحررهما الكامل من أي مشاعر للخوف المرتبط بالجنس. وأمضيت وقتًا طويلاً أتأمّل ما سمعت.

كانت عمشة وفيحاء جميلتين إلى أبعد الحدود، ولكن الهزال كان قد أخذ منهما كل مأخذ، وإلى درجة تبعث على الرثاء، بعد رحلة الصيف الطويلة في اللهابة. وكانتا أيضًا قذرتين، وفي حاجة ماسّة إلى الثياب، يا للبائستين! إن الحياة التي تعيشانها هي أشق وأقسى ما يمكن لإنسان أن يتحمله: الحد الأدنى من الطعام، وهو طعام واحد لا يتنوّع، ولا وجود لأي رعاية صحية، أو ملابس نظيفة، وكل ذلك في مناخ تبلغ درجة الحرارة فيه، في الظل وداخل الخيام، ١٣٠ ف. والصيف ينهك هؤلاء الناس فيتحولون عند نهايته إلى كائنات هزيلة كالأشباح تفوح منها رائحة كريهة، وتجف بشرتهم، ويبدو عليهم الشحوب والوهن، كما هي الحال مع ما يصاحبها من إبل. ولا غرابة إذن إذا كان البدويُ أو البدوية يصاب بكل أعراض الشيخوخة المبكرة، ونادرًا ما يبلغ أو تبلغ

الخمسين، ومن الناحية الأخرى، وأيضًا كما هي الحال مع إبلهم، فهم سرعان ما يستردّون صحتهم وحيويتهم إذا هطلت الكميات المناسبَة من الأمطار في الصحراء أثناء الخريف والشتاء والربيع؛ وعندما يتوفر لهم القدر الملائم من لبن الإبل الذي يفيض نتيجة لتحسّن الأحوال، تمتلئ منهم الأجساد وتكتسي لحمًا بشكل ملفت للنظر.

وبعد أربعة أيام أقمنا حفلاً ساده المرح عندما جاءت الشقيقتان تصاحبهما عمشة أخرى، هي ابنة فيصل الشبلان الذي سبق أن جاء إليّ يستشيرني قبل أن يستسلم لابن سعود، ورحبت زوجتي بالضيفات الثلاث كل الترحيب، وأيضًا بعدد من السيدات من مطير، في مأدبة نسائية بحتة في غرفة الاستقبال بالطابق السفلي المخصصة للزائرات من نساء البدو، وكانت بخيتة هناك، وجارية أخرى تدعى مستورة وابنتها مبروكة، وهن من الجواري اللاتي أعتقهن الدوشان ويعملن الآن في إدارة ما يشبه الفندق الصغير في الكويت (هدية من الشيخ مبارك)، وكانت تنزل به قرينات شيوخ مطير عندما يجئن إلى المدينة.

واشتملت قائمة الطعام على خروف كامل، وبعض الدجاج المشوي، ومرق الطعام، وأكوام من الأرز، وبعد انتهاء المأدبة، انضممت إليهن بينما أقداح القهوة تدور عليهن. ولم أنسَ أن أطلب من فيحاء خاتمها لأحتفظ به كتذكار لهذه المناسبة، وكان خاتماً جميلاً من الفضة (وإن كان بيضاوي الشكل) مرصّع ببعض من الفيروز الأخضر في حجم نصف البنس. وأعطته لي وعلى وجهها ابتسامة جذابة تنمّ عن دلال أنثوي غامر، فأخذته وأضفته إلى مجموعة النفائس التي في حوزتي، وغالبًا ما كنت أدعها تراها كلما جاءت لزيارتنا.

وبعد يوم أو يومين حضَر الزوجان كما حضَر أيضًا هزاع بن بدر الدويش، ابن أخت فيصل الكبير والذي تزوج من عمشة بنت فيصل الشبلان، وكنّا نعرف هزاع من قبل، أما سعود وعبدالعزيز الماجد فكان هذا لقاؤنا الأول معهما؛ وكانا يتميزان بالغلظة والجفاء ويبدوان وكأنهما من ذلك النوع من الرجال الذي لا يتورّع عن ارتكاب أي شيء، ورحبنا بهم جميعًا بكل مظاهر ومراسم التبجيل الجديرة بأوضاعهم الاجتماعية، وقدمنا لهم القهوة المعتادة وبعض الهدايا النقدية، وبعد أن التقينا بالسيدات ومن بصحبتهن من الرجال مرّتين في خيمة زيد الصانع، غادرت عمشة وفيحاء الكويت يرافق كلاً منهما زوجها، أما عمشة بنت فيصل الشبلان فمكثت بعدهما بعض الوقت.

ويجب ألاّ ننسى بالطبع، أنه في مكان مثل الكويت، يؤدّى الزوّار من رجال القبائل ذوى المكانة واجبًا أكثر أهمية من مجرد زيارة الكولونيل ديكسون وحرمه؛ إذا يتعين عليهم أن يقوموا بتقديم فروض التبجيل والاحترام للحاكم وغيره من شيوخ الصباح، ويحصلون عندئذ على الكسوة والخواص (هدايا من الملابس والنقود) قبل أن يرحلوا. هذه عادة قديمة متوارثة تساعد على تدعيم العلاقات بين المدينة والبادية.

يقول النبي (ما معناه): "أعطوا الهدايا، فذلك أدعى لأن يحب بعضكم بعضًا".

وكان من العادات السيئة لهؤلاء الزعماء من البدو أنهم لا يخطرون أحدًا ولا يستأذنون عندما يقررون العودة من حيث أتوا، ولكن هناك حكامًا من أمثال ابن سعود وشيخ الكويت وغيرهما أنشأوا فرقًا نظامية من البدو تعمل تحت رياسة المضيفجى (المسئول الأول عن استقبال الزائرين) وتضطلع بمهمة الإبلاغ عن وصولِ الشخصيات الهامة إلى العاصمة، وتوفير ما يليق بها من حفاوة وطعام وفقا لأوضاعهم الاجتماعية، وإتاحة الفرصة لهم لمقابلة الحاكم، ثم بذل كل جهد حتى لا يرجع الزائر إلى موطنه خالي الوفاض صفر اليدين، ولكن هؤلاء الزوّار لا يُبدون أي تلهف زائد بطلب الهدايا أو الإسراع بقبولها، ومن ثم فمن واجبات المضيفجي أيضًا أن يسعى هو إلى الزوّار الجدد ودفعهم إلى حضور مجلس الحاكم.

وبعد مرور بعض الوقت على هذه الأحداث، تلقينا رسالة سرية من فيحاء وعمشة تقولان فيها أنهما واجهتا حظًا عاثرًا، فقد أقدم زوجاهما عبدالعزيز وسعود الماجد الدويش على إطلاق الرصاص على سعود الجبعة فأردياه قتيلا؛ وهو قطب قوى من قحطان المتحالفة مع الدمشان وترتبط بها بعلاقات المصاهرة؛ ثم فرّا إلى العراق هربًا من انتقام ابن سعود. وكان من الواضح أن هذه الجريمة ارتكبت للأخذ بثأر قديم، إذ سبق لوالد سعد الجبعة أن قتل أحد أسلاف عبدالعزيز سعود الماجد منذ عدّة سنوات. وكان الملك سعود، الذي ترمي سياسته في ذلك الوقت إلى منع التناحر الداخلي بين أسرة دوشان، قد أصدر أمرًا بالكفّ عنِ إراقة الدماء والأخذ بالثأر، على أن تعرض جرائم القتل للبحث والتحقيق وفقًا للشريعة الإسلامية ويبّت فيها استنادًا لأحكامها، كما حظر أيضًا إقدام أسرة الماجد على أي أعمال انتقامية. وهكذا استقرت الأوضاع على يد ابن سعود، ولكن

بمرور الوقت، رأى سعود وعبدالعزيز، مرة أخرى، أن شرفهما يحتّم عليهما تنفيذ عقوبة الدم بأيديهما، وجعلا من نفسيهما سلطة لتطبيق القانون.

وغضب الملك، وأمر بمصادرة ممتلكات القاتلين وجمالهما؛ وحظر عليهما العودة إلى العربية السعودية مدى الحياة. وكإجراء وقائي عاجل، منع أسرة القتيل من القيام بأي محاولة للثأر، وانتهت المسألة عند ذلك. وهكذا تُركت السيدتان وحيدتين، وليس في حوزتهما أي جمال، يكللهما الخزي، حتى أصبح من المحال بالنسبة لهما، ولوقت طويل، المجيء لزيارتنا.

ومكث سعود وعبدالعزيز ثلاثة أعوام في المنفى لم تحضر أثناءها عمشة وفيحاء لزيارتنا، ثم سمعنا ذات يوم أن ابن سعود أصدر قرارًا بالعفو الشامل عن القاتلين وأنهما وصلا إلى الرياض. أما الغرامة التي فرض عليهما دفعها فلست أدرى ما هي، ولكنني تأكدت أن سعود وعبدالعزيز أصبحا طليقا السراح فراودنا الأمل بلقاء صديقاتنا الشابات قبل مُضِيّ وقت طويل.

وتحقق أملنا، وجاءت فيحاء وعمشة لزيارتنا منذ أيام قليلة فسعدنا كل السعادة بلقائهما، وكانتا تصطحبان أطفالهما، لأن عمشة أصبحت الآن أمّا لغلامين. وكانت ملامحهما تنمّ عن علامات لا تخطئها العين تؤكد مدى قسوة الأيام التي عاشتاها، حتى ظهرتا وكأنهما اكبر سناً من الحقيقة بكثير، وأرتني عمشة المسكينة ماذا فعلت الأيام بشعرها الجميل وجديلتيها الرائعتين اللتين هزلتا وتقلصتا إلى ما يقرب من النصف غزارة وطولاً.

وحاولت أن أهدئ من روعها فقلت: "لا بأس. مع الطعام الجيد ولبن الإبل، ورجوع زوجك، سوف يستعيد شعرك بهاءه بكل تأكيد".

وبذلنا كل ما في وسعنا من أجلهما، فقدمنا لهما الطعام والملابس الجديدة وبعض النقود. وأعطت زوجتي عمشة دهاناً للوجه تفوح منه رائحة عطرة فأخذت تنشره على وجهها في بهجة طفولية وتقول أنه سيجعلها تبدو جميلة في أعين سعود. وأدركنا من قولها هذا كيف همدت مشاعر سعود نحو زوجته المطيرية بعد ما آلت إليه من حال، وربما كان السبب الكامن وراء ذلك هي تلك السنوات الثلاث التي أمضاها في العراق وما عُرِف عن نساء الشمال من جمال آسر جذّاب.

وفي عام ١٩٤٣ جاء سعود وعبدالعزيز، بعد العفو عنهما، لزيارة الكويت

مرة أخرى وبصحبة كل منهما زوجته، وفي هذه المرّة سُرقت بندقية سعود أثناء نزوله بخيمته في الشامية، وهي الموقع الذي ينصب فيه البدو مخيماتهم خارج سور المدينة، واتهم أحد الرعاة من المنتفق بالسرقة؛ وبعد محاكمة استمرت سبعة أيام، صدر الحكم بجلد اللص وتغريمه مبلغاً من المال. ولم يكن الرأي العام في صفّ سعود، وكانت زوجته تعي ذلك تماماً، فلم تحاول هي ولا فيحاء الاقتراب منّا بعد هذه الواقعة، ولذلك توجهنا نحن لزيارتهما في خيمتهما؛ وخُيلّ لنا أن عمشة تشعر بشيء من الخوف من زوجها، وتمنينا ألا يتمخض الموقف عن مأساة.

وقبل الرحيل بعد هذه الزيارة الأخيرة سألنا الزوجان وعلامات القلق الشديد بادية على وجهيهما عمّا إذا كانا يستطيعان المجيء لمشاهدة غرفة معيشتنا إنجليزية الطراز وقطعتي جلد النمر المعلقتين على الحائط وعندما وافقنا على طلبهما، جاءا دون أن ترافقهما زوجتاهما، ومع ذلك أحسنت زوجتي استقبالهما واستضافتهما، وبشكل ما، ليس من الغريب أو غير المألوف أن تقوم بواجب الضيافة نحو قاتل في شبه الجزيرة العربية. وأخذت أتأمل متى سيحين دورهما.

مأدبة غذاء في الصحراء:

سبق أن تحدثت عن حفل الشاي الذي أقمناه للسيدتين الصديقتين ومعهما عمشة الأخرى إبنة فيصل الشبلان. ورغم أن عمشة هذه لم تكن على نفس المكانة الاجتماعية لصديقتيها الكبيرتين. إلا أنها كانت شخصية جديرة بالتأملّ. وكانت لها صديقة لا تفارقها تدعى وسمية، هي زوجة الشيخ محمد بن بدر الدويش، شقيق هزاع، زوج عمشة. ولما كان الزوجان الشابان لا يَنتميان للدوايشية، كانت عمشة وفيحاء تتعاملان معهما في شيء من التعالي، ومع ذلك كانت علاقات الصداقة والمودَة هي السائدة بينهن جميعاً.

كانت عمشة بنت فيصل الشبلان تتدلّل كثيراً على زوجها، دائمة المرح عندما تتحدث، وتشبه أي فتاة إنجليزية في عديد من الجوانب، وكانت لها منزلة خاصة ومحبّة لدى زوجتي ولدىّ. وكانت تعرف بالطبع، كيف أنقذ قدح القهوة الذي كان بيدي والدها من أن يقبض عليه وكيف كان هو الوسيلة التي أمكننا بواسطتها إعادة الوفاق بينه وبين الملك. وكانت تتظاهر بأنها تعيش في رعب مميت خشية أن يتزوج هزاع من امرأة أخرى، ولذلك أصبحت طيعّة سهلة القيادة. ومن أساليبها الماكرة التي دأبت على استخدامها أيضاً أن تُبدى ملاحظة

لاذعة نابية لا تليق أن تصدر من أنثى، ثم تبسط يديها، عندما تدرك معنى ما قالت، وتصرخ: "يا ويلي! يا ويلي!".

وذات يوم، أقبلت لزيارتنا في منزلنا ومعها طفليها لتقول دونِ أن تدرك معنى كلماتها: يا أبوسعود. أشعر بألم شديد في صدري، وجسمي كله يتوجّع، هل تعتقد أنني مصابة بالبلاش balash ؟. والبلاش مرض اجتماعي لا يليق ذكره وعادة لا يتحدث عنه أحد. وطلبت منها، وأنا أضحك، أن أرى لسانها، ففعلت، وتبدّى من وراء برقعها فم صغير دقيق للغاية، وذقن رشيقة مدببة. وطمأنتها، وأعطيتها جرعة من الكيفين أعقبتها بست قطرات من مادة حمضية لاذعة. وكانت عيناها قد لمحت بعض الحلوى على منضدتي فأخذت تلاحقها بنظراتها طوال الوقت.

وفي مناسبة أخرى، تظاهرت بأنها حزينة أشدّ الحزنِ مدعيّةً أن والدها يعانى من مرض عضال، على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلا، وأنه يشرف على الموت. ويجب أن تأخذنى له في سيارتك يا ابوسعود. أرجوك. أرجوك خذني، لأنني أعلم أنه سيكون في انتظارنا".

وتصادف أنني كنت متوجهًا أنا وزوجتي إلى مخيمنا على بعد حوالي ثلاثين ميلاً من مدينة الكويت، ولذلك اصطحبنا عمشة معنا، وعندما وصلنا إلى المخيم، عرفنا أن فيصل الشبلان لا تفصلنا عنه إلاّ مسافة قصيرة في اتجاه الجنوب، وأنه استرد عافيته تمامًا، ولكن ابنته استمتعت بركوب السيارة على أي حال.

وكانت وسمية، صديقتها، من ذلك النوع الكسول واسع العينين. وكانت لها قصة حب مع محمد الدويش الذي فضلها على ابنة عمّه التي كانت، كما تزعم وسمية، دويشية دميمة ذات فم قبيح وشفاه غليظة، وكانت وسمية تتميز بنوع من الجاذبية، وتشعّ مرحًا عندما تشجعها عمشة، ولكن كانت بها نقيصتان مزعجتان؛ فهي لا تكفّ عن الكلام في صوت أجش جهير، وعادة ما تفوح منها رائحة غير مستساغة، فهي تترك طفليها يبولان على أطراف ثوبها ولا تعتقد أن هناك ضرورة لتغيير أو غسيل عباءتها، وربما كانت المسكينة لاتملك ثيابًا أخرى غير التي ترتديها، ولكن الرائحة كانت لا تطاق في بعض الأحيان. وعندما التقينا بها آخر مرة قالت لنا في زهو وخيلاء أن محمد مازال يحبها بجنون.

"هو يحبنّي، ويموت عليّ". وأعتقد أنها كانت صادقة فيما تقول.

وذات مرة، رأينا وسمية وعمشة وهما في أحسن حالاتهما عندما زرنا محمد بن بدر في الشق حيث كان يضرب خيامه بجوار شقير بن شقير. وكان هزاع بن بدر، الذي تلاصق خيمته خيمة محمد، متغيبًا في الرياض التي توجه إليها للقاء الملك، ولذلك قمنا بزيارتنا في خيمة محمد. وقبل الغداء، وبعد أن تناولنا القهوة مع محمد، تلقينا رسالة من عمشة بنت فيصل الشبلان تلح علينا فيها أن نزورها زيارة مجاملة في خيمة زوجها المتغيب حتى يمكنها أن تودعنًا بالشكل اللائق، ولأنها تريد أن تتشرف بتقديم القهوة لنا، ونفذنا ما طلبت. وقامت عمشة بدور المضيفة خير قيام، واستقبلتني أنا وزوجتي بكل حفاوة على نحو ما يفعل الرجال، وأصرّت على أن تُعِدّ القهوة بيدها.

وبعد أن انتهت هذه الزيارة، عرجنا على خيمة محمد الذي أقام لنا مأدبة غذاء رائعة اشتملت قائمة الطعام فيها على جمل وأرز مطهي بالطريقة البدوية البسيطة. وبعد أن تناولنا القهوة وأكل الجميع حتى امتلأت منهم البطون، سُمح لنا بدخول الجناح المخصص لوسمية من الخيمة لتناول قدح من الشاي أُعِدّ على الطريقة العربية، وكانت عمشة هناك بالطبع، وكانت الاثنتان في أبهى ثيابهما، ويبدوان في أرقّ صورة.

ثم حان وقت المرح والانطلاق، وأخذ محمد يروى الأقاصيص بينما المضيفتان تلهوان بحليّ زوجتي وتتحسسان ملابسها وقرطها وشعرها، ولا تكفان عن توجيه الأسئلة الغريبة والمحرجة التي يتعلق أغلبها بالزواج والجنس وإنجاب الأطفال وغير ذلك من المسائل التي تثير الارتباك. ولم أفلت منهما أنا الآخر، وعند أدنى تشجيع يبدر منّي، كانتا على استعداد لتبدآن في إظهار ألوان من الدلال الأنثوي الصارخ تحت سمع زوجتي وبصرها. وأعترف أنني اندمجت في هذا الجو، وقلت لهما أنه فور طلاق كل منهما من زوجها فسوف أستأذن الملك في عقد قراني عليهما معًا، وأنني حصلت على موافقة زوجتي على ذلك بالفعل، فصرختا محتجتين، وقالتا أن زوجيهما لن يطلقانهما أبداً!

وقلت: لا تكونا على يقين من ذلك إلى هذا الحدّ، فأنا أعرف أن هزاع معلق بامرأة في الرياض، أما بالنسبة لمحمد فالجميع يعرفون أنه يريد التغيير الخ.

كان يومًا مفعما بالبهجة، وسعدت زوجتي وسعدت معها عندما رأينا مدى ما عليه هاتين السيدتين العربيتين عريقتي النسب من رقة ومدى عمق مشاعرهما الإنسانية، والتي تختلف كثيرًا عمّا نراه بين قومنا في بلادنا. وكان مما يسترعي الانتباه أن محمد شارك في لعبة الإغراء والمزاح الحادّ، لإدراكه الواضح لما تحظى به قبيلته من مكانة بحيث لا يخشى أي تعليق يمكن أن يعترض على تصرفه أو يأبه لأي ألسنة قد تمسّه بسوء.

هكذا كان أصدقائي من أبناء البادية وقد أوردت هذه الأمثلة البسيطة والساذجة، اخترتها من بين العديد من أشباهها، لأبين مدى سماحة الحياة التي يعيشها هؤلاء القوم، ومدى ما يمكن أن تكون عليه المرأة البدوية من جاذبية وانطلاق بلا تكلف إذا أمكنك النفاذ إلى ما وراء الحجاب الكثيف من الشك الذي يباعد بينها، عادة، وبين الزائر الأجنبي.

ساحرة الصلبة:

سوف يظل علي بن شويربات، شيخ البرزان من مطير، يُذكر بأنه الرجل الذي بذل كل ما في وسعه بزيارته بغداد سرًا مرتين على الأقل، لمحاولته إقناع الملك فيصل بأن النصر للإخوان لا محالة، وذلك من أجل جرّ العراق إلى الحرب الأهلية ضد ابن سعود.

وبعد فشل التمرد، لجأ علي إلى العراق لبعض الوقت، وعندما عفا عنه ابن سعود، عاد إلى العربية السعودية. وقد التقيت به شخصيا في صيف ١٩٣٥، وهي السنة الأخيرة لي كوكيل سياسي لجلالة الملك في الكويت. وذات صباح، زارني وبرفقته عمّه فلاح بن شويربات، في الوكالة وعلامات المرض بادية عليه. وشرح لي العمّ، وكان هو المتحدث الوحيد طوال الوقت أن علي جاء لمقابلة الدكتور مايلرى، الطبيب بالإرسالية الأمريكية، لأنه يعانى من سحر رمته به زوجته، وأنه يعتقد أنه ربما كان لديه، وهو المشهور بقدرته وبراعته، سحر مضاد يفوق في تأثيره سحر الزوجة.

وواصل فلاح حديثه فقال أن زوجته تحبّه حبًا جارفًا، ولكنها سمعت ذات يوم أنه يفكر في الزواج من امرأة أخرى من قبيلة مجاورة، فكادت الغيرة أن تعصف بها، وانتهي بها التفكير إلى الذهاب إلى امرأة ذكية ماكرة من طائفة الصلبة التي تشتهر بإزالة السحر، وروت لها قصتها، وطلبت منها أن تعدّ لها

سحرًا مضادًا قويًا أو تعويذة للحب يمكنها أن تحتفظ بها بعواطف زوجها ومشاعره، وأن تمحو الآثار التي تحدثها غريمتها.

وقال فلاح أنها حصلت على ما تريد مقابل مبلغ من المال، وأنها بدأت في تنفيذ كل ما طلب منها أن تفعل حتى يحقق السحر المعتاد مفعوله. ولكن فلاح لم يستطع أن يقطع بنوع شراب السقوة (السكوة) السم السحري الذي وضع في قهوة علي، وإن كان يعتقد أن الأرجح أن شيئا يجلب الأذى تمت حياكته داخل الوسادة أو الحشيّة التي اعتاد علي أن يستند إليها أو يضعها تحت رأسه عندما يخلد إلى الراحة أو النوم؛ أو ربما كان هذا الشيء على شكل ورقة كتب عليها بكل دقة، ومعها تعويذات معينة، وبعض شعرات من لحية علي، وقطع من الحرير مختلفة الألوان، وعددًا من الإبرَ - الخ - وهو نوع من السحر، كما يقول الزوج، لا تفهمه إلا النساء اللاتي يختلطن بنساء الصلبة ويعاشرنهن، ومهما كان نوع السحر، فأثره مدمر؛ وها هو ذا شيخهم المحبوب، الذي كان في وقت من الأوقات يتأجج شجاعة وجسارة لا تعرف الخوف، وقد تحوّل إلى حطام هزيل وكأنه صورة ممسوخة مشوهة لما كان عليه من قبل، وكان لابدّ من عمل شيء ما.

وطوال هذه الخطبة الطنّانة التي أخذ الرجل الكهل يلقيها عليّ، كان علي بن شويربات ملتزمًا الصمت مكتفيًا بإيماءة من رأسه بين الحين والحين ليؤكد بها صحة ما يقال. وقلت: "يا شيخُ علي. ألا زلت تحب زوجتك؟

وكان الردّ: "نعم. وهي أيضًا تحبني كما لم تحب إنسانًا في العالم من قبل، ولكنها أصيبت بالجنون، ويسيطر عليها إحساس بأني لم أعد أحبها لمجرد أنني أريد أن أتزوج امرأة أخرى. إنها حمقاء ولا تحسن تقدير الأمور، ولكن ما العمل مع امرأة مجنونة؟ لقد أخبرتها مرارًا أن الرجل مسموح له بأن يقترن بزوجة أخرى، ولكنها لا تريد أن تقتنع بذلك أبدًا". وأنهي حديثه قائلا: "وأنت تعرف هذا مسلكنا حنا العرب.

وكتبت رسالة إلى الدكتور مايلرى طلبت منه فيها أن يفحص على بكل عناية، وأن يبذل كل ما في وسعه من أجله، وأن يدخله المستشفى إذا لزم الأمر، وألمحت إلى أنه شيخ له مكانته بين شيوخ شبه الجزيرة العربية، وأنني أريد أن أساعده لمواجهة أي نفقات أو رسوم تطلبها المستشفى، ولم أذكر شيئًا عن السحر، وأعطيت الرسالة لعلي وطلبت منه التوجه هو وفلاح إلى مستشفى الإرسالية.

وانقضى يومان، ثم جاءني الشيخ فلاح بمفرده في مكتبي، وبعد تناول القهوة، سألت عن أخبار علي بن شويربات، وردَّ عليّ، ناولني فلاح رسالة من الدكتور مايلرى يقول فيها أنه فحص المريض ووجد أنه يعاني من إصابة شديدة ومتقدمة بالدرن، وأنه ليس هناك ظل من الشك في هذا التشخيص، ولذلك أدخله المستشفى للعلاج، وأضاف أنه يخشى ألاّ تمرّ إلاّ بضعة أسابيع ويسلم الرجل الروح ما لم يتم ترحيله إلى مصحة حمانة في لبنان، وحتى في هذه الحالة فلن تنقذه إلا معجزة.

وبدأت في شرح ما ورد في رسالة د. مايلرى، وفلاح ينصت في صمت وأدب إلى أن انتهيت، ثم فاجأني بقوله:

"الطبيب مخطئ تمامًا. ونحن العرب نعرف ما هو السلّ، إن مرض علي ليس من هذا العالم، وإنما هو من فعل السحر، ومن النوع الذي يجلب الأذى من السحر على وجه التحديد. وإذا تمسك الطبيب برأيه، فسوف يتعين عليّ أن أقدم على خطوات أخرى رغم أن كل شيء، في نهاية الأمر، بيد الله".

وشعرت بشيء من الضيق والغيظ لهذا الرد، وقلت له أن الدكتور مايلرى معروف بين البدو بغزارة علمه، كما يحظى بثقة وتقدير كل من الملك عبدالعزيز آل سعود وفخامة الشيخ أحمد، شيخ الكويت. وقلت في إلحاح: "اعط الطبيب فرصته قبل أن تقدم على أي تصرّف متسرّع".

وقبل أن ينصرف فلاح، الذي كان الشر يتطاير من عينيه في ذلك الصباح ويتحدث بطريقة بعيدة عن الإحساس بالمسئولية، قال لي إنه إذا توفى الشيخ على فسوف يسارع بالعودة إلى حفر الباطن ليقتل الساحرة السفاحة، زوجة على. وقال: "لن تعيش إذا مات علي بن شويربات، وأقسم بالله على ذلك".

وأخذت أتأمل قول هذا؛ وبعد خمسة أيام، بعثت برسالة شفوية مع أحد الحرس إلى زوجة علي لأحذّرها، وأطلب منها ألا تجازف بالبقاء حيث هي، وأن تتوجه على الفور إلى مكان آمن. وأخذت بنصيحتي، وغادرت خيمتها سرًا ولجأت إلى خيمة قائد سرية الملك (حرس الحدود) الذي يضرب خيامه هو وأسرته في حفر الباطن، وحظيت بالحماية لديه، أو كما يقول العرب "زبّنوها"، وتصورّت أنها أصبحت في مأمن.

وبعد ذلك، وصلتني إشارة عاجلة من مايلرى يخبرني فيها: "أن الشيخ فلاح أخرج على بن شويربات من المستشفى واصطحبه في سيارته. وكان الانزعاج واضحاً في رسالة مايلرى، وكان هذا طبيعيًا، وعندما تحريت حقيقة الأمر، علمت أن فلاح أخذ المريض إلى امرأة عجوز تعرف في المدينة بأن لها قوى خاصة، وأنها تقوم بتلاوة آيات معينة من القرآن فوق المريض ليلا ونهاراً.

وقالت المرأة: "لا تدفعوا لي إلاّ إذا برأ شيخكم من مرضه. لا تعطوني شيئا إذا فشلت". وظل علي على قيد الحياة لمدة عشرة أيام، ثم "أتى أمر الله". وقالت المرأة العجوز: "ماذا يمكنني أن أفعل. لقد أراد الموت".

وطوال فترة العطلة لم يصل إلى مسامعي أي جديد عن هذه المسألة. ثم بلغتني أنباء مفجعة بأن عجيب بن شويربات، شقيق فلاح، تسلل إلى خيمة سرية الملك وأطلق الرصاص على أرملة علي فأرداها قتيلة. كانت عملية قذرة أحسست بالتقزز إزاءها. ويقول بعض البدو الذين يولعون بتنميق الأقاصيص والإضافة إليها، أن عجيب أيقظ المرأة في هدوء ولطف قبل أن يقتلها، وهمس في أذنها بأن جرائمها تجاوزت الحدّ، وحان الوقت لأن تدفع الثمن. ، وأنا لا أصدق هذا الجانب من القصة، ولكن من يدري، ربما كان صحيحاً.

وعاد الشيخ عجيب سالمًا رغم البحث عنه في كل مكان، ولكن لم يعثر له على أثر. كانت الحدود العراقية قريبة من مسرح الأحداث، وتمكن من أن يتوارى في منفاه الاختياري لمدّة عامين، ثم وضع خطة للعودة سرًا إلى العربية السعودية واللجوء إلى أحد ذوى النفوذ بها للتوسط من أجله بزعم أنه جاء يطلب الحماية، وشق طريقه خِلسة إلى الهفوف، ودخل بيت سعود بن عبدالله ابن جلوى آل سعود، أمير الإحساء، وطلب الحماية، وأبرق ابن جلوي بهذه الأنباء لابن سعود، فتلقي الردّ وكان يتضمن أن يقوم بلا تردد: "بقتل الآثم الذي اغتال امرأة جاءت تتوسل وتطلب المأوى في خيمة قائد حرسنا في حفر الباطن".

وبكل ذكاء، أرجأ سعود بن جلوى تنفيذ الأمر، مذكرًا بأن عجيب دخل تحت حمايته ويقيم بالفعل لاجئًا في بيته، وأنه سيكون لقتله أثره السياسي المدمرّ في كل مكان، وخاصة بين مطير. ،ألَم يسبق لفهد بن جلوى، شقيقة، أن قتل ضيدان الحثيلين شيخ عجمان بعد أن دعاه إلى خيمته وقدّم له القهوة، فثارت عجمان عن بكرة أبيها وانضمت إلى التمرَد عَلنًا عام ١٩٣٠؟ وألَم يصبّ الملك

عبدالعزيز جام غضبه لعام كامل بعد ذلك على عبدالله بن جلوى آل سعود، حاكم الإحساء في ذلك الوقت ووالد فهد وسعود؟

واستنادًا إلى هذه الحجة وأمثالها، تمكن سعود بن جلوى من إقناع الملك بالإبقاء على حياة عجيب، ولكن مع إصراره على إيداعه السجن لمدة ستة أشهر، مع معاملته معاملة كريمة لائقة، وفي نهاية تلك الفترة، وضع عجيب بما عرف به من ذكاء، بمساعدة فلاح الذي اشتهر بالمكر، والذي أصبح شيخًا لبرزان مكان الراحل علي بن شويربات، خطة يتم بمقتضاها زواج عبدالمحسن، شقيق سعود بن جلوى، من سُلفى الجميلة، ابنة علي، وابتهج الجميع لهذا الحلّ، وأبدوا استعدادهم للعفو عمّا سلف.

ومرت خمسة أعوام على هذه الأحداث، ثم جاء الشيخ عجيب إلى الكويت وضرب خيامه بالقرب من مخيّمي في أبرق خيطان؛ وزارني بعد الظهر، وهمس في أذني بأنه يصحب في خيمته سُلفى، زوجة عبدالمحسن بن جلوى آل سعود وقال إنها مريضة وتريد من زوجتي أن تزورها وأن تُحضِرْ معها، إن أمكن، الدكتورة روث كروز، طبيبة الإرسالية، لفحصها. وكان يعتقد أنها وقعت تحت تأثير نوع من السحر، وسألته: "ألست أنت عجيب الذي قتل زوجة علي شويربات البريئة دون أي سبب؟ "نعم، أنا قتلتها".

دار هذا الحوار في حضور حوالي خمسة عشرة من البدو كانوا يتناولون القهوة معي. ثم واصل حديثه فقال: "وقد اكتشفنا فيما بعد السحر الذي أصاب علي شيخنا، ولذلك كان لقتلها ما يبرره".

وسألت: "وأي نوع من السحر كان؟"

"آه – وثيقة مطوّلة مليئة بالكتابات الشريرة، وجدناها مطمورة بالقرب من أحد الأوتاد الخشبية الكبيرة التي تستخدم عند رفع الماء من آبار الحفر، وكان بالقرب منها عظمة فخذ جمل".

وأثارني هذا الردّ الهزيل. ولقنت عجيب والرجال الذين جلسوا من حولنا درسًا عن حماقة ما يردده البدو عن السقوة (السكوة) والسحر وغير ذلك من أقاصيص الساحرات وأفعالهن، وقلت لهم إنه منذ ثلاثة قرون، كان الإنجليز يؤمنون بأشياء من نفس النوع، أما اليوم فهم يخجلون لمجرّد ذكرها، وتحدثت عن أشياء كثيرة بهذا المعنى، ولكني كنت أشعر أنني أتحدث لآذان صمّاء، وأنه

لا حياة لمن تنادى. تحديت عجيب أن يثبت أن دم أحد أبناء قبيلة البرزانية الأصيلة إذا أعطى لرجل وجملاً أو فرسًا أو خروفًا عضة كلب مسعور أو ابن آوى سينقذ الضحية من داء الكلب. والإيمان بهذه الخرافة شائع كما سبق أن ذكرت. وردّ عجيب على كل تهكمي في هدوء قائلا أن العرب وحدهم هم الذين يفهمون هذه الأشياء". "نحن نعرف شيء، وأنتم تعرفون شيء".

وفي اليوم التالي، أحضرت زوجتي الدكتورة. كروز من الكويت، وكان تشخيصها هو أن سلفى مصابة بالدرن. وأنها ترجّح أن العدوى انتقلت إليها من والدها. وبعد عدة اشهر، عادت سلفى إلى الاحساء حيث توفت.

ويسعدني أن أسجل أن البدو ليسوا جميعًا على شاكلة البرزان الذين يعرفهم الجميع بغبائهم وضيق أفقهم، وهم لاشك يعيشون في عالم خاص من صنعهم.

دغيمة وجحر الثعلب:

دغيمة هي الابنة الصغرى اللطيفة لمزيد الظفيرى، أحد الأشخاص الذين كانوا يرافقوننا في رحلاتنا في الصحراء في المناطق المجاورة للكويت. وكانت هي وصديقتاها الأكبر سنـًا وضحة وضحية - ابنتا ضويحى الخرمت وهو أحد أتباعنا من العوازم - الرفيقة الملازمة لحصة، ابنة سالم المزين دليلنا البدوي، والمسئول عن كل ما يتعلق بإقامتنا في الصحراء.

وعندما وقعت أحداث هذه القصة كانت وضحة وحصه في الخامسة عشرة من عمريهما، وضحية في الثانية عشرة بينما كانت الصغيرة دغيمة في حوالي العاشرة. وكانت دغيمة يتيمة الأم وأبوها مزيد هو الذي يقوم برعايتها، فيطهو الطعام عند مغيب الشمس، ويعتني بجماله الستة طوال النهار. وكانت ضعيفة البنيان، ونادرًا ما تبتسم.

ومن وقت لآخر، في أيام الأعياد، كانت الفتيات الأربع يجئن إلى خيمتنا وبصحبة كل منهن أمها وخالاتها، ويقدّمن بعد مغيب الشمس رقصة بدوية، وتشدوا أصواتهن بالأغاني وهنّ في ثياب العيد بألوانها الزاهية وشعرهن ينساب فوق أكتافهن. وكان رقصهن من نوع خاص قائم بذاته، يتكون من عدة وثبات قصيرة ورؤوسهن تتراوح في حركة دائرية، أولا جهة اليمن ثم جهة اليسار، بحيث تتهدّل خصلات شعرهن إلى الوراء وإلى الأمام لترسم ما يشبه الرقم ٨

باللغات الأوروبية؛ ثم يصفقن ويضربن الأرض بأرجلهن؛ وفي الختام ينحنين أمامنا لتلقي كلمات التقدير والإعجاب. وكانت دغيمة هي أكثر الفتيات خجلاً.

وفي أواخر نوفمبر ١٩٣٥ كنّا في إحدى رحلاتنا الدورية ومعنا سالم، ومزيد، والضويحي وبصحبة كل منهم عائلته وكل متاعه وأغنامه، واتجهنا صوب منخفض الشق، على الحدود الغربية للكويت، ووصلنا إلى مشارف تل رحيّة حيث ضربنا خيامنا؛ وكان عددها ست خيام، بما فيها خيمتنا السوداء التي بدت في أزهي صورة بعد تجديدها.

وأمضينا النهار أنا وزوجتي، ومعنا سعود بن نمران كبير بزاة (الصائد الذي يستخدم الصقر) الشيخ احمد شيخ الكويت، في جولة للصيد بالقرب من سلسلة تلال أم القطاطين وخدّ السعدة. ورجعنا إلى المخيم قبل غروب الشمس بقليل، وناولت عمشة (أو عنشة كما يطلقون عليها) زوجة سالم سلة بها خمس حبّارات لتطهوها.

أمطار وبرد:

في تلك الليلة، انخفضت درجة الحرارة وشاعت البرودة فاستمتعنا بالجلوس أمام نيرانِ المخيم ونحن نتدثر بالفرو المصنوع من جلود الأغنام، نتناول أقداح القهوة التي قدمت لنا في جو مفعم بالودّ. وبعد قليل، غابت الشمس، وهي ظاهرة غير نادرة الحدوث في جوف الصحراء في أواخر نوفمبر، وفجأة أطبقت علينا سحب كثيفة زاحفة من الشمال أعقبتها ريح قارصة البرودة سرعان ما بدأت تهب وتكاد تشابه العاصفة في قوتها وعنفها.

وأضفنا كميّات من الحطب إلى النار، وأحكمنا تثبيت الجوانب الخلفية للخيام بطمر أطرافها السفلي تحت كميات كبيرة من الرمال، واستخدمنا أكثر من هلبٍ ثقيل لتأمين وضع الحبال. كان الظلام يخيّم تماما في ذلك الوقت، وأذكر أنني خرجت لأتفقد قرب المياه الخاصة بالمخيم والتي قيل أنها تجمدت خلال الفترة القصيرة التي تكاد ألاّ تُصدّق والتي لا تزيد عن الساعتين اللتين انقضتا منذ وصولنا إلى المخيم، وتمكنا من جمع الأغنام بصعوبة بالغة في الظلام، وها هي تحتشد الآن جنبًا إلى جنب طلبًا للمأوى ومعها جمال سالم، ونصفها داخل الخيام والنصف الآخر إلى جانبها في الناحية التي لا تهبّ عليها الريح. ومما زاد الطين بلةً، أن الأمطار بدأت تهطل - مزيجاً لاذعًا من الجليد والبَرَد، لتكتسي

تلك الليلة بالسواد الداكن، وليطبق عليها المزيد من الظلام، وهي المظلمة أصلاً، وبما فيه الكفاية، وعلى الفور سيطر هذا الجو القاتم على كل شيء وشل حركة كل من يحاول التصدي لمواجهة الموقف.

وفجأة تعالت صيحة تقول أن الصغيرة دغيمة لم ترجع إلى المخيم، كما لم يعد أي جمل من جمال أبيها. واجتمعنا على عَجَل، وتبين أنها خرجت بمفردها بعد ظهر ذلك اليوم لترعى الجمال، وليس عليها من ثياب سوى دشداشة حمراء من القطن، دقيقة النسيج، تعلوها القذارة، وحتى دون أن ترتدى من فوقها عباءة لتحميها؛ كما تبين أنها شوهدت لآخر مرة على بعد حوالي أربعة أميال. وكان والدها، مزيد، قد توجه إلى الكويت لشراء الإمدادات.

وتحولت الأمطار إلى سيل جارف، ورغم أننا ضربنا خيامنا فوق أرض مرتفعة نسبيًا، إلاّ أن المياه تدفقت إلى داخل الخيام وراحت تكتسح أرضيتها فتدخل من أحد الجوانب لتخرج من الجانب الآخر. وكان أقصى ما استطعنا أن نفعله هو أن كوّمنا أمتعتنا فوق بعضها البعض وجلسنا على قمة هذا الكوم والظلام يلفنا جميعًا.

ولكن دغيمة المسكينة كانت هي شاغلنا الشاغل. وبذل سالم واثنان من العوازم جهداً بطوليًا خارقًا من أجل الوصول إليها أثناء الليل، ولكنهم لم يتمكنوا من المضيّ في طريقهم إلا لمسافة قصيرة واضطروا إلى العودة عند منتصف الليل وقد خارت قواهم. وسيطر القلق على الجميع، وكنا على يقين من أن الفتاة الصغيرة فاضت روحها منذ وقت طويلة نتيجة للبرد القارس.

وتوقفت الأمطار في الساعة الرابعة صباحًا، مخلفةً وراءها أرضًا تغطيها البرك والمستنقعات يطبق عليها ضباب كثيف. وكان مدى الرؤية لا يتجاوز العشر ياردات، ومع ذلك خرجت فرقة أخرى للإنقاذ، اشتركت فيها بنفسي، ومعنا دليلنا سالم، لنرى ماذا يمكننا أن نفعله، وأخذنا نتحسس طريقنا في بطء على الطريق الذي تقطعه الجمال المتجهة إلى الكويت، ومررنا من المكان الذي شوهدت فيه دغيمة لآخر مرة. كانت الأكام تتناثر بغزارة على جانبي الطريق، وتتكون من كتل كبيرة من أعشاب الثندة الجافة تشكلت حول قواعدها أكوام من الرمال يبلغ ارتفاع البعض منها أربعة أقدام، ولذلك كان السير في هذه المواقع بالغ المشقة.

وعند الفجر، وصلنا إلى مرتفع حدده سالم، ولكننا لم نجد أي شيء ينم

عن وجود دغيمة أو جمالها، أو عن آثار لأقدامها هي والجمال. وتوزعت مجموعتنا للبحث في أكثر من اتجاه ونحن نتوقع العثور على جثة الطفلة وقد تجمدت لشدة البرودة. ولم تكن الجمال تعنينا في شيء في ذلك الوقت. وفجأة، سمعنا صرخة تتعالى، فهرع الجميع نحو الرجل الذي أطلقها، وكان يلوّح ببشته.

كانت دغيمة تجلس القرفصاء داخل جحر ثعلب. كانت على قيد الحياة، ولكنها كانت خائرة القوى وعاجزة عن الحركة نتيجة لشدة البرودة. وأخرجناها وعدنا بها إلى المخيّم، والبهجة تحيط بنا جميعًا. وبعد أن نالت قسطًا ملائمًا من التدفئة أمام النار، وبعد أن أعطيناها وجبة ساخنة وشرابًا دافئًا، أمكننا أن نستمع منها لقصتها، وفي لغة طفولية، راحت تحكى كيف تشتت جمالها في الظلام عندما بدأ هطول الأمطار، حتى غابت عن بصرها. ولما كانت، على حدّ قولها، فتاة بدوية ذكيّة موهوبة، قررت أن تحاول العودة إلى المخيم، ولكنها عجزت عن ذلك نتيجة للسيول الجارفة والبرد القارس. وقررت، بعد أن فاض بها الكيل وقهرتها شدة الريح أن تبحث عن مأوى أسفل أحد الآكام الرملية المنتشرة حولها، وأخذت تجرّ خطاها في محاولة للعثور على أكمة كبيرة.

وقالت: "لم أصرخ على الإطلاق. ولكنني شعرت بشيء من الخوف. وساعدني الله وهداني إلى جحرٍ ثعلب، فقمت بتوسيعه وتعميقه. لم يكن الأمر صعبًا، لسهولة رفع الرمال المبتلة. وغصت داخل الجحر بعيدًا عن تأثير الريح، التي كانت تدفع مياهِ الأمطار فوق قمة الجحر وداخل الجذور الكبيرة، ولذلك لم يكن يدخل الجحر إلاّ القليل من مياه الأمطار".

وأحطنا دغيمة بكل الرعاية في اليوم التالي، ليس فقط لما أبدته من جسارة وقدرة على التصرف في مواجهة الخطر، وإنما أيضًا لأنها كانت عضوًا عزيزًا جدًا في أسرة مخيمنا. ووصل والدها إلى مخيمنا بعد يومين، وهو يكاد يتجمد لشدة البرودة، ولكنه صمد، ولم يكن يشغله سوى جماله. وكانت ملاحظته الوحيدة عندما سمع قصة مغامرة ابنته هي: "الحمدلله، لقد فعلت خيرًا. وماذا يمكنكم أن تتوقعوا من ابنتي؟ أنها شيطانة صغيرة من البادية".

وبعد فترة، عثرنا على جمال مزيد سليمة بالقرب من واحة الجهرة؛ لم يصبها أي ضرر، ولكن العاصفة الثلجية العنيفة قتلت تسعة من أغنام سالم وجملا مريضا من جماله.

حُلم امرأة من عتيبة

روى لي هذه القصة الغريبة، أثناء وجودي في مخيم في ١٣ من فبراير ١٩٣٧، قطب كويتي بارز من عنزة، كان قد جاء لتوّه من الرياض، ولم يكن هناك ما يدعو إلى الشك على الإطلاق في شهادته؛ فهو مشهور بين قومه بأنه جدير بالثقة، كما أنه الرجل الأول في إحدى قرى القصيم، ويحظى بالاحترام العميق من جانب الشيخ ويتمتع بثقته، ولأساب لا تخفى على أحد، لن أذكر اسمه.

(قال): في آخر يومٍ من أيام شهر الصيام، شهر رمضان، حلمت امرأة شهيرة من عتيبة حلمًا معينـًا. وكانت هذه المرأة تعيش خارج الرياض منذ سنوات عديدة، وترى فيها الأحياء المجاورة سيدة أوتيت الحكمة والقدرة على تفسير الأحلام.

حلمت أنها كانت تجلس خارج خيِمتها والليل يوشك أن يرخي سِدوله، تغزل الصوف، عندما لمحت رجلا مقبلا نحوها من بعيد، كان طويلا ضخم البنية، ولكن ترتسم على وجهه علامات الطيبة والوقار. وعندما وصل إليها، ألقي عليها السلام وقال:

"يا امرأة، لم يتبق من عمر الملك عبدالعزيز آل سعود إلاّ ثلاثة أعوام، بدأت بصوم رمضان وقد دخل العام الأول منها بالفعل، وعندما يسلم الروح، سيكون هناك عويل وأسى عظيم في جميع أنحاء بلاد العرب، وسوف تهب القبائل للقتال ضد بعضها البعض، كما ستدور رحى الحرب بين أبناء الملك. انهضي أيتها المرأة، وحذِّري أبناءك الثلاثة، وأطلبي منهم أن يشتروا الأسلحة والذخيرة استعدادًا لملاقاة الأهوال القادمة على الطريق، لأن كل رجل سيرفع يده في ذلك الوقت ضد جاره، ولن يكون أحدٌ في مأمن وخلال خمسة أيام، أيتها المرأة، ستموتين، لأن الملك أمر مقاتليه بالبحث عنك وقتلك، لأن الملك سيستشيط غضبًا لأنني أتيت لك بهذه الأنباء المنذرة بالخطر".

وعندما استيقظت المرأة العتيبية من حلمها، أصابها انزعاج شديد، وأرسلت تطلب أبناءها الثلاثة الكبار وقالت لهم:

"أبنائي: لقد زارني وحي من الله أثناء نومي، وحلمت أن ملاكه جاء إلى وتحدث معي. ولذلك، يجب أن تُفيقوا، وأن تتوجهوا إلى المدينة لشراء أسلحة

الحرب، لأنه مكتوبٌ أن ابن سعود سوف يموت بالتأكيد في غضون ثلاثة أعوام، وأن كثيرا من الأهوال ستعمَ البلاد، وسوف تنال منكم أنتم وأبناءكم، وأما بالنسبة لي، أمكم العجوز، فقد حان أَجَلي، وكشِفَ لي أنني سأقتل بعد خمسة أيام من يومنا هذا".

واستبدت الدهشة بالأبناء الثلاثة، فتشاوروا في الأمر وقرروا أن يفعلوا ما يلزمهم به واجبهم حيال أمهم؛ وتعاهدوا على ألا يخبروا أحدا بما سمعوه. ومرت أربعة أيام، ولم يحدث شيء، ولكنهم رأوا في اليوم الخامس مجموعة من راكبي الجمال المسلحين تزحف بسرعة صوب خيمتهم؛ وعندما وصلوا، أناخوا جمالهم وتقدموا مباشرة. وصاح قائدهم: "أين راعية البيت"؟: وأجاب أبناؤها: "في الداخل، أيها الصديق، ماذا تريد منها؟"

وفي تلك اللحظة، خرجت أمهم من جناح النساء بالخيمة فأطلقت عليها النيران على الفور وخرّت صريعة، وكان كل ما تفوه به القائد ساخرًا وهو ينصرف على رأس قوته هو: "أن أوامر الملك صارمة، وذراعه طويلة عندما يتعلق الأمر بالساحرات".

كان محدّثي يروى هذه القصة في أسى، تحسبًا لما يمكن أن يتمخض عنها من آثار وخيمة في نجد، وأضاف أن السلطات السعودية كذبت كل ما يتردد حول هذه المسألة، وبكل حسم، ولكن الهمسات كانت تنتقل، رغم ذلك، من فم إلى فم بين قبائل البدو في شبه الجزيرة العربية. ترُى، كيف سمع الملك قصة حلم المرأة؟

الفصل الخامس عشر
الرياض – ١٩٣٧

منح امتياز لشركة نفط الكويت (١٩٣٤) – رحلتنا إلى الرياض بالسيارة – الملك يناقش القضية الفلسطينية – دعوة من سيدات الأسرة المالكة – اللقاء الثاني مع الملك - رقصة الحرب – وداعًا للرياض – رحلة العودة – ردود الفعل.

في ٢٣ من ديسمبر ١٩٣٤ منح الشيخ أحمد، بموافقة حكومة صاحب الجلالة، امتيازًا لشركة نفط الكويت، وهي مؤسسة إنجليزية أمريكية مشتركة. وفي صيف ١٩٣٥ قام الشيخ بزيارة خاصة إلى لندن فاستقبل استقبالاً حافلاً. وفي أول أبريل ١٩٣٧، منحته حكومة صاحب الجلالة لقب صاحب الفخامة، ثم أنعم عليه بعد قليل بوسام K.C.S.I.

ونظراً لبلوغي سن التقاعد من الجيش، وبالتالي من منصب الوكيل السياسي لجلالة الملك، في عام ١٩٣٦، تم تعييني ممثلاً محليًا أولاً لشركة نفط الكويت، وكان الوكيل السياسي الجديد هو الكابتن (كولونيل الآن) جيرالد دي جوري.

وفي شهر أكتوبر ١٩٣٧ قمت أنا وزوجتي بزيارة الرياض تلبية لدعوة من ابن سعود، فقطعنا مسافة تزيد على الخمسة آلاف ميلاً بالسيارة، ذهابًا وإيابًا. وعند عودتنا، سجلت زوجتي بعض انطباعاتها. أما أحاديثي الخاصة مع فخامة الملك عبدالعزيز آل سعود أثناء إقامتنا بالرياض، والتي سجلتها هي الأخرى في هذا الفصل، فكانت جياشة بالمشاعر وتسلط الأضواء على العديد من الحقائق خاصة عندما كان يناقش القضية الفلسطينية. والواقع أن كلمات هذا الرجل العظيم والرائع حقا، والصديق الأصيل للحكومة البريطانية بلا شك، كانت تستشرق آفاق المستقبل، ولازالت حيّة صادقة حتى اليوم. وكما وَعَدْته، فها أنا ذا أسجل بالتفصيل، وأولاً بأول بعد كل حديث، كل ما قاله لي في ثلاثة لقاءات طويلة. وقد أرسلت ما سجلت عند عودتي إلى الكويت، ومعه رسالة خاصة وسرية، إلى مستر ج.س. والتون، مساعد وكيل وزارة الهند، لإعلامه وإعلام حكومة صاحب الجلالة.

رحلتنا إلى الرياض بالسيارة، بقلم فيوليت ديكسون:

تقع الرياض عاصمة العربية السعودية، متوارية بين أخاديد النخيل في منخفض من الأرض تحيط به مساحات جافة صخرية، فيمكنها بتخطيطها الأنيق المحكم مواجهة العواصف والصمود أمامها.

وكان فخامة الملك عبدالعزيز آل سعود قد سبق له أن وجه الدعوة، أكثر من مرة، إلى صديقه ديكسون لزيارة الرياض. وفي هذا الصيف، وبينما كنت في لندن، حصلنا على تصريح من وزارة الخارجية ومن وزارة الهند للقيام بهذه الرحلة، كما لم تُبدِ شركة النفط أيضًا أي اعتراض. واقترح علينا الملك ابن سعود في رسالة بعث بها إلينا أن تكون زيارتنا للرياض إمّا قبل شهر رمضان – وكان يبدأ في ذلك العام في شهر نوفمبر – أو بعد العيد مباشرة. وكانت الرحلة تستغرق ليلة أو ليلتين في الصحراء ولذلك كان أفضل توقيت لها هو أن تسبق شهر رمضان، حيث الجو جميل، ليس شديد الحرارة أو شديد البرودة.

وصلت من إنجلترا في ١٢ من أكتوبر، وأُجريت كافة الاستعدادات للسفر في سيارتين فجر يوم ٢١، وأرسلنا إلى الملك خطابًا بهذا المعنى. وتم اختبار القِرَب، وأمرنا بتوفير خيمة صغيرة من النوع الذي يحمله الحجاج معهم وهم في طريقهم إلى مكة، إلى جانب اللوازم الضرورية فقط حتى لا يتجاوز حمولة أي من السيارتين الحدّ الذي يمكنها من اجتياز المنطقة الرملية الوعرة الممتدة المعروفة بالدهناء.

وفي صباح يوم ١٩، حضر عبدالله النفيسي، الوكيل التجاري لابن سعود بالكويت لزيارتنا بعد أن تلقى برقية من الملك يقول فيها أنه يقيم في مخيّم خارج العاصمة ويطلب إرجاء رحلتنا لمدة يومين لأنه يريد أن يكون في استقبالنا بنفسه في الرياض.

وفي يوم ٢٢ من أكتوبر، وقبل مغيب الشمس بساعة واحدة، جاءت السيارتين إلى الساحة الخلفية لمنزلنا فشحنّا عليها كل احتياجاتنا ومعاطفنا، بالإضافة إلى كمية احتياطية من الوقود (كانت كل سيارة مزوّدة بخزان ممتلىء بالنفط، وحملنا أيضًا خمس صفائح سعة كل منها أربعة جالونات)، والماء، الخ؛ أي كل شيء في الواقع ما عدا الطعام الذي وضعناه في السيارتين صباح اليوم التالي.، والذي تكون من سبع دجاجات (طهيت مع الأرز على الطريقة

العربية)، وأربعة أرطال من اللحم، وأربعين رغيفًا من الخبز العربي المستدير، وصندوق بسكويت مليء بالحلوى، وبعض التمر، وكمية من البيض المسلوق، وقليل من فطائر الكاري.

وقبل ساعة على بزوغ الشمس، وصل إلى منزلنا دليلنا، سالم الأذينة، وسعود بن نمران، كبير بزاة الشيخ أحمد، وبصحبتهما سائقا السيارتين، وبعد إفطار سريع كان كل شيء مهيئًا لبدء الرحلة، وكان من المقرر أن استقلّ أنا وهارولد، وكلانا يرتدى الزي العربي، سيارة واحدة على أن يجلس سعود ابن نمران في المقدمة إلى جوار السائق محمد القدفان، أما السيارة الأخرى فكان يقودها عبدالعزيز الفهد، وتجلس في مقدمتها خادمتي العربية حمده، بينما يجلس سالم الأذينة وغلام، الطباخ، في المؤخرة.

تحركنا والشمس تهمّ بِالشروق، والتقينا عند بوابة الجهرة بذلك الرجِل الكهل العظيم خان بهادور ملا صالح، وزير الشيخ أحمد، وابنه عبدالله الملا، وكانا في انتظارنا لتوديعنا والدعاء لنا برحلة موفقة. وبعد حوالي الأربعين دقيقة، وبينما نحن نقترب من كبد، لحق بنا الوكيل السياسي، الكابتن دي جوري، وكان في رحلة صيد في البادية طوال اليوم، وكان بصحبته عدس، البازي، وأحد الصيادين؛ فرافقونا حتى الحدود قرب المناقيش.

وبعد أن اجتزنا المنطقة الوعرة التي تغطيها أَجَمات العرفج حول المناقيش، وصلنا إلى خبرات جلهم ثم إلى ذلك المسطح الممتد من الأراضي التي تتميز برمالها الناعمة والمعروف باسم القرعة، والتي ليس بها نبتٌ على الإطلاق، ويغطيها العشب الجاف ونصيّ المتخلف عن الربيع الماضي. وكان الطريق إلى هذا المكان جيدًا جدًا ولذلك أخذنا نحث الخطى بسرعة كبيرة. وفي هذه المنطقة رأينا غزالين قطعا الطريق أمامنا ثم اختفيا عن أبصارنا جهة اليمين.

ومن أجل أن يتمكن هارولد من كتابة تقرير عن الطريق من الكويت إلى الرياض، أخذ يدوّن ملاحظات وفيرة وتفصيلية عن الأراضي الممتدة على الجانبين، مستخدما لوحة للرسم من النوع المستعملِ في سلاح الفرسان، وبوصلة مع قراءة درجات عداد السيارة. وكانت معه أيضًا نظارة ميدان وبندقية.

وواصلنا مسيرتنا مرورًا بخباري وضحة، في إقليم حمض - وهو المكان الذي نصب فيه الملك مخيمه في عام ١٩٣٠ حيث قام هارولد بتسليم فيصل

الدويش والزعيمين الآخرين للمتمردين – والذي تليه منطقة أكثر وعورة تسمى هضبة الوريعة، إلى أن رأينا فجأة على البعد، حصن جرية العليا الجديد الكبير، يطل بقامته داخل أحد التجاويف. وإلى اليمين من هذا الحصن، تراءت أمامنا بالتدريج المنازل المشيدة من الطين لقرية صغيرة، تتخللها أشجار الأثل؛ ثم ظهرت حوالي مائة وخمسين خيمة سوداء من خيام البدو في منخفض يمتد أمامنا.

ويممنا وجهنا صوب الحصن، كانت البوابات مفتوحة وإلى الداخل مباشرة يجلس عدد من الرجال.

"سلام عليكم"،

"وعليكم السلام"

ثم، وبسرعة فائقة، هرع رجلان من داخل الحصن وقاما بإغلاق الباب الكبير في وجوهنا!

وترجّل هارولد والدليلان من السيارتين، ثم ظهر الأمير ودعاهما للدخول لتناول القهوة. ودخلا معه الحصن، بينما مكثنا أنا وحمده في مكاننا بالسيارة.

وانتظرنا، ماذا يحدث، ولماذا التعطيل؟ ألم تصل من الملك أي أنباء عن رحلتنا؟ ألم نحصل على تصريح بالقيام بها؟ وبقدر ما استطعت أن استشفّ من الحراس، كان الردّ بالسلب، وأصبح من المحتمل أن نظلّ هناك حتى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، وكنّا في ذلك الوقت عند منتصف النهار.

وتأهب أحد سائقي السيارتين لإنزال خيمتنا لنستريح فيها، ولكنى منعته، فقدم لنا رجال الحصن خيمة وشرعوا لينصبونها في الظل إلى جانب السور الشرقي، وعندما انتهوا من إعدادها، طلبوا منّا أن ندخلها لنتناول قسطاً من الراحة، وابتهجنا لذلك، فالجلوس في السيارة والعباءة تغطى الجسم كله والبرقع ينسدل على الوجه، كان وضعا شاقا ويزيد الإحساس بحرارة الجو، ثم أمرنا السائقين بإنزال كل ما نحمله من السيارتين لعرضها على الجمرك. وكان لابد من فتح كافة الأربطة، وفحص محتوياتها، ثم إعادة ربطها من جديد.

وبعد فترة طويلة، خرج هارولد والدليلان من الحصن، بعد إقناع الأمير بإرسال برقية لاسلكية إلى الملك يطلب منه السماح لنا بمواصلة رحلتنا. ثم سمعنا أنهم ذبحوا شاة وبعض الدواجن لتقديمها لنا في الغداء، ولكننا اعترضنا على ذلك

لتلهفنا لمواصلة المسير على الفور. وأرسلنا سعود إليهم على وجه السرعة ليطلب منهم عدم إعداد أي طعام، وتذرعنا بأننا تناولنا وجبة جيدة قبل أن نصل إلى جرية.

وفي الساعة الثالثة أبلغنا الأمير، وهو باسم الأسارير، أنه تلقّى التصريح المطلوب، وتمنّى لنا رحلة سعيدة، وتحركنا على الفور، تغمرنا البهجة لتخطينا هذه العقبة.

وما كدنا نقطع مسافة لا تتجاوز الميل، حتى لاحظنا أن هناك سيارة مسرعة تأتي في أعقابنا، وتوقفنا، وخَشِيَ محمد القدفان وكان قد ارتكب مخالفة بإخفائه عُلبة من التبغ يريد أن يصل بها إلى الرياض - أن يكون الأمير قد أحيط علمًا بما فعل. وعندما وصلت السيارة الأخرى - بوكس فورد - وأصبحت بمحاذاتنا، انسلّ محمد إلى مؤخرة سيارتنا وألقى بربطة التبغ بين الأجمات على جانب الطريق. ولكن تبين أن المهمة التي كُلِّف بها سائق البوكس فورد هي تسليمنا برقية، وكانت معه ورقة وقلما لنوقع له بالاستلام. ورغم عجزنا عن قراءة ما ورد في البرقية بشكل دقيق، إلاّ أنه كان من الواضح أنها رسالة ترحيب من الملك.

واتخذنا طريقنا نحو الغرب، وظللنا نسير في هذا الاتجاه لبعض الوقت. كان مشهد الصحراء موحشا إلى أقصى حد، والتلال المنخفضة تتناثر هنا وهناك. وبالتدريج، تحوّل الطريق في اتجاه الجنوب الشرقي، وأصبحت الأرض من تحتنا أكثر صلابة بما تحتويه من صخور سوداء ضخمه أشبه بالصخور التي تنتشر في اللّيَاح بالقرب من الكويت وتطل برؤسها هنا وهناك. وهكذا وصلنا إلى الصمان، ديرة قبيلة مطير.

وبعد ساعتين فحسب من مغادرتنا جرية، نصبنا خيامنا لنقضي الليل. وكانت الأرض في تلك المنطقة حجرية صلبة، وجاء مخيمنا ملاصقاً لأكمة من أشجار السدر القصيرة تعرف بأم العصافير. وكان محمد القدفان يلح على استمرار مسيرتنا لمدة ساعتين أخريين حتى نقترب من الدهناء ونتمكن من اجتيازها في الصباح والجو مائل للبرودة، ولكننا لم نأخذ برأيه؛ كنا مرهقين، وأردنا أن نلتقط أنفاسنا بالتوقف وإقامة المخيّم.

وأعدّت خيمتنا على وجه السرعة، وبدأ إناء القهوة يغلي. وكانت الشمس

تغرب في تلك الأيام في حوالي الساعة الخامسة والثلث؛ وقبل أن يخيّم الظلام جمعنا ما يكفي من الحطب لتدفئة سعود وسالم السائقين طوال الليل. ثم جهزّنا ما كان معنا من دواجن وتناولناه مع الخبز والتمر والشاي، ثم شربنا قهوة سالم ونحن نجلس في الظلام حول النار المتأججة لأغصان الحمض، نروى الأقاصيص لمدة ساعتين قبل أن ننصرف للنوم.

وشهدت الساعة الأولى قبل الفجر مخيمنا وهو يعجّ بالحركة مرة أخرى. وبعد أن شربنا الشاي، وتناولنا بعض البيض والخبز، استأنفنا رحلتنا مع طلوع الشمس، فمررنا بجانب التلال المنخفضة مسطحة القمة واجتزنا المنخفض الذي تنبت فيه شجيرات السدر القصيرة التِي يحبهًا بدو مطير كل الحب، ورأينا أحد طيور الحباري ينهض من مكمنه ليحلق مبتعدًا عنّا بينما سيارتنا تقترب منه شيئا فشيئا. وأخذت التلال الصغيرة العديدة تتوارى من ورائنا إلى أن وصلنا إلى سهل صخري متوَج.

وقال سعود وهو يشير ناحية اليمين: "دحل dahal الفريح. هل تريدون مشاهدته".

وجاء ردّنا سريعا: "نعم، نعم"، ثم خرجت سيارتنا عن مسارها وقطعت حوالي الخمسمائة ياردة إلى أن توقفت عند فتحة شبه دائرية، أقرب في شكلها إلى فوهة البركان.

كان اتساع الفتحة حوالي الثمانين قدمًا؛ وبعد انحدار يبلغ عمقه حوالي الثلاثين قدمًا، كان هناك ثقب صغير عند المركز لا يزيد نصف قطره عن الخمسة أقدام على وجه التقريب.

قال سالم: "من هنا يحصل البدو على الماء، يا بوسعود"، والدحل، والذي يعرفه الجيولوجيون باسم الغور، بئر طبيعية لها كهوفها وسراديبها التي تمتد تحت الأرض، تشكلت بفعل المياه على مرّ العصور، وتنفتح من القاع في اتجاهات مختلفة. وتمتد بعض السراديب تحت الأرض كمسافة ثلاثمائة ياردة أو أكثر، وقبل الوصول إلى الماء، كان على من يسعى للحصول عليه أن يحبو على أربع أو أن يجتاز كهوفا ضخمة أشبه بقباب الكنائس. وكانت الأرضية الصخرية للسراديب متهرئة ملساء لكثرة ما احتّكت بها قرب المياه طوال قرون عديدة أثناء سحبها فوقها، ولا يمكن لأي شخص أن يحاول الدخول إلاّ إذا شُدّ جسمه إلى

رباط يمكن سحبه به عند الضرورة، خشية أن يضل الطريق ويلقى حتفه تحت الأرض، وبعض الدحول مظلم تمامًا، ولكن هناك في بعضها الآخر فتحات تسمح بدخول الضوء.

وأخذت أبحث عن أي أدوات حجرية فعثرت على قطعة أو قطعتين ربما استخدمت في وقت من الأوقات كمكشطة لإزالة الأتربة والوحل.

وبعد أن التقطت عدة صور فوتوغرافية لدحل الفريح، واصلنا طريقنا، ورأينا عن يميننا وعن يسارنا العديد من الدحول الصغيرة التي لم تطلق عليها أي أسماء، والتي يرجح أنها لا تحتوى على الماء إلاّ عندما تهطل الأمطار. وكانت الأرض من حولنا لاتزال صخرية ومتوجة.

وفجأة قال سعود وهو يشير ناحية اليمين:

"شوف - الدهناء يا أبوسعود"

وهناك على البعد، كان يبرز فوق سطح الأرض ما يشبه سلسلة من التلال الصخرية المنخفضة الممتدة لمسافة طويلة. وكان أول ما تبادر إلى ذهني عندئذ هو: كيف ستتمكن سيارتنا من تخطي ذلك، إذا كان كله من الرمال؟ وأردت أن أقترح على السائقين أن نترجل وأن نسير على الأقدام لنجتاز هذه العقبة، ولكنى لم أنطق بكلمة واحدة رغم أن مخاوفي لم تكن بالهيّنة.

وبدأت طبيعة المنطقة تتغير، ورأينا العرفج مرة أخرى متناثرا هنا وهناك في بادئ الأمر، ثم على مساحات أكثر كثافة وأفضل نبتًا كلمّا اقتربنا من رمال الدهناء الغامضة.

وعند هذه المرحلة ظهرت عبر الطريق طبقة سطحية رقيقة من الرمال الحمراء يبلغ سمكها بضع بوصات، وتمتد عن يميننا وعن يسارنا لمسافة تتراوح بين خمس وعشر ياردات في بعض النقاط، ولكن السيارتين لم تأبها لذلك، ومرّت من خلالها وكأنها مجرد طريق غطتّه الأتربة وأخذت سلسلة التلال الرملية الضخمة التي تتراءى إلى يميننا تقترب شيئا فشيئا ورأينا لونها الأحمر القاني في ضياء الشمس. وكنّا نتجه في ذلك الوقت صوب الجنوب الشرقي، وفي موازاة هذه السلسلة تقريبًا، وكلمّا مضينا قدمًا، كانت هذه السلسلة تتضاءل حجمًا إلى أن تلاشت تمامًا على البعد، وتنفست الصعداء، لأنني أدركت أن سلسلة التلال بلغت حدًا من الانخفاض يسمح للسيارتين باجتيازها.

وفي الساعة التاسعة والنصف، حوّلت سيارتنا اتجاهها إلى يمين الطريق واقتربت من الرمال الناتئة في انحدار شديد أمامنا، ثم توقفت. ونزل محمد القدفان وملأ الراديتور بالماء من إحدى القرب.

وقال: "من هنا كنت أعبر دائمًا يا أبوسعود. إنه درب أقصر كثيرًا من الطريق الرئيسي المحازي للرمال. ولقد فعلت ذلك مرات عديدة. تماسكوا جميعًا لأنه لابد أن أواصل السير بأقصى سرعة دون أي إبطاء أو توقف حتى يجتاز السلسلة الأولى، سلسلة عريق السرو، وهي إحدى اثنين يعلم الجميع أنها لأشد عنادًا وصعوبة. أما بعد ذلك، فكل شيء سهل.

وأجبنا: "كيفك" (أي كما تشاء).

ونظرًا لتسرب جزء من الهواء من إطارات السيارتين، اندفع السائقان بنا، في تهوّر، داخل الرمال الحمراء ثم صعودًا على المنحدر فوق القمة، وهما يبذلان كل الجهد لتفادى الأفرع الكبيرة لنبات أرطا arta – وبأقصى سرعة في الأغلب، ثم الإبطاء من وقت لآخر ثانية واحدة، ومع تلاطم أجسامنا بعنف، اندفعنا لنخرج من بحر الرمال، وهبطنا منحدر صغير أفضى بنا إلى أرض صلبة يغطيها الحصى على الجانب البعيد، كانت تفصلها عنّا ستة أميال على وجه التقريب، واجتزنا هذا الموقع ونحن نسير بأقصى سرعة، لنصل مرة أخرى إلى جوار جُرف أصغر حجمًا من الرمال.

وصاح محمد القدفان: "الحمد لله. الطريق من الآن جيّد إلى أن نصل إلى الجذر الثاني، عريق الرويشب.

وهناك ثمانية من هذه العروق تحمل أسماءً، رغم عدم تحديد معالمها بشكل قاطع، حيث يبدو أن بعضها له امتدادات أصغر حجمًا على الجانبين.

وتعالت الصيحات: "نحن الآن بجوار الثاني. أما الذي أمامنا فهو صغير الحجم".

كانت تجربة مثيرة، ولكنها لم تكن مزعجة بأي حال.

وفي الساعة الحادية عشرة توقفنا لتناول الطعام، وكنّا على مسافة قريبة جدا من آبار رماح Ramah، بعد أن قطعنا ساعة ونصف الساعة حتى وصلنا إلى رمال الدهناء الشهيرة. وهنا وضعت الكحل في عينّي، وأحكمت وضع برقعي لأكون على استعداد إذا التقينا بأحد في رماح.

وترامى إلى أسماعنا صوت محرك سيارة، ثم ظهرت بالفعل سيارة فورد عتيقة جدا مقبلة من الشمال الشرقي على نفس الطريق الذي قطعناه لتّونا، كان يستقلها بعض شيوخ دُبي جاءوا من الهفوف عاصمة الأحساء في ثلاث سيارات فقدوا اثنتين منها في الدهناء. ونظرا لقضائهم يومين كاملين على الطريق من الهفوف كانوا في حالة يرثى لها من الجوع والعطش، ولذلك فرحوا بتناول بقايا طعامنا - دواجن ولحوم طهيت في الكويت منذ يومين وبدأت رائحة غير مستساغة تفوح منها. وانصرفوا قبل أن نواصل نحن سيرنا، واتجهوا إلى الرمال، انتظارا لبقية الجماعة التي كانت ترافقهم.

ولم نضع وقتًا في الرماح. كان هناك عدد كبير من البدو ضربوا خيامهم استعدادا للتوغل في جوف الصحراء. واجتزنا في أمان بحرة (ممر مائي) رملية واسعة تمتد شمال هذا الموقع مباشرة.

ومرةٍ أخرى تغيرت طبيعة الأرض من حولنا، وبسرعة، وبعد فترة وجيزة، خلفنا وراءنا كل أثر للدهناء الحمراء وأفرع العرفج، ووصلنا إلى أرض صخرية تنتشر بها التلال الصخرية وقنوات المياه التي جفت، مع تناثر بعض الأشجار الأكاسيا هنا وهناك. وتبيّن أن هذه الأرض بها بئر صغيرة أو بئران، رأينا بجانبها بدويَ وزوجته يرفعان الماء ومعهما جملان، وأطلت علينا من جانبي التلال الصخرية كتل ضخمة من الحجارة السوداء الناتئة من خلفية من الصخور بُنّية اللون، فَبْدَتَ وكأن شخصًا فتح غرارة ضخمة ممتلئة بالفحم حتى قمتها فانسكبت محتوياتها متساقطة على الجانبين. وأخذ الدرب الذي سلكناه يلتف ويدور بين التلال المنخفضة إلى أن انتهى بنا إلى سهل فسيح يمتد أسفلها لعدة مئات من الأقدام، ويحيطه سياج من الصخور الشاهقة. ولم نرَ في باديء الأمر طريقا يمكننا استخدامه للهبوط، ولكننا رأينا بعد فترة، على اليسار منّا، مجموعة من الرجال كان من الواضح أنهم يعملون في رصف الطريق الممتد أسفلنا، واقتربنا منهم.

وصاحوا: "ليس من هذا الطريق. ليس من هذا الطريق. اتجهوا إلى هناك"، وأشاروا جهة اليسار، حيث كان يعمل عدد اكبر من رفاقهم.

وسأل سائقنا: "أين؟" - وعلى الفور قفز أحدهم إلى سلم السيارة الجانبي ليدّله على الطريق.

وبدأنا الآن نهبط القمة الصخرية الشاهقة المعروفة باسم البويب (تصغير البّوابة)، والتي لا يمكن أن يقلّ ارتفاعها عن الستمائة قدم بأي حال. وكان الدرب شديد الانحدار منحوتًا في الصخور الصلدة. وعند السفح، أشار لنا رجلٌ وجهّنا للتحول نحو اليسار، ولذلك، فما أن خرجنا عن الدرب حتى انطلقنا بأقصى سرعة إلى جوار الحجارة والصخور إلى أن رأينا مجموعة من الرجال يقفون إلى جوار سيارة وراء منحنى الصخري في أحد الشعاب تحت شجرة أكاسيا ضخمة وارقة الظلّ، وتوقفنا، ورحبَ بنا كلٌ من فخري أفندي شيخ الأرض، وهو منِ حاشية الملك، وهو شاب سوري من أسرة عريقة يعمل في مجال القضاء، سلمنا رسالتين من الملك ومن الأمير يتمنيان لنا فيهما رحلة موفقة.

كانت السجاجيد قد مدّت في الظل، والقهوة والشاي مُعدّة للتقديم، وقطعة من اللحم تتدلى من فرع شجرة وتحتها النار، وكنا جياعًا عطشى؛ وعلى الأقل كان هذا هو ما شعرنا به عندما انتشرت من حولنا رائحة الشواء. وبعد أن تناولنا القهوة، وهى أخف قوامًا وأضعف نكهة في نجدٍ عن القهوة التي تقدم في الكويت؛ ثم الشاي، ثم القهوة والشاي مرة أخرى، قدم لنا اللحم على صحن زاهي اللون مطليّ بالمينا المصقولة. وكان اللحم دون النضج الكامل قليلاً ولكنه كان لذيذاً حقاً. وقال لي سعود بن نمران فيما بعد:

"لم استطع تناول اللحم. كان بشعًا مقززاً، والدم الأحمر لازال يتخلله"

وأجبت: "ولكن هذه هي طريقة إنضاج اللحم التي نحبها نحن الإنجليز".

ولكنني استمتعت فعلاً بتلك الوجبة. وبعد أن أخذنا قسطًا من الراحة لمدة نصف الساعة، بدأ جَمعُ أواني وأقداح القهوة وأكواب الشاي وكل الأشياء الأخرى وربطها في مجموعاتٍ ونقلها إلى السيارة وعلى نفس النحو كان التصرف إزاء ما تبقي من اللحم المتدلي من الشجرة، وبعد أداء الصلاة، ركبنا سيارتنا من جديد لنبدأ المرحلة الأخيرة من رحلتنا.

قالوا: "لم يعد بيننا وبين الرياض إلاّ ساعة واحدة".

وعندما استدرنا وخرجنا من الشعيب متجهين إلى الطريق كانت صخرة شاهقة تطلّ علينا من عل، اتخذت شكل المنظر الجانبي (بروفيل) لوجه مارد زنجي عملاق وكأنه يقف في هذا المكان لحراسة المدخل المفضي إلى نجد. وعندما

اقتربنا، بدا وكأن ملامح هذا الوجه تتغير فأصبحت الشفتان والذقن والرقبة أكثر تحديدا. إلى أن أصبحنا على مستوىً واحد معها في موقع تلاشت فيه ملامح الحياة الإنسانية ولنكتشف مرة أخرى أنها ليست إلا جزءًا من قمة صخرية شاهقة تتلوّى في السراب نحو الأفق البعيد عن يميننا.

كان من العسير أن ندرك ذلك، ورغم هبوطنا من تلك القمة الصخرية الشاهقة شديدة الانحدار، إلا أننا كنا لا نزال على ارتفاع كبير. واستنادًا إلى ما انتهى إليه فيلبي في دراساته، فالرياض نفسها ترتفع ألفين وخمسمائة قدمًا فوق سطح البحر. وكان الجو المنعش معتدل الحرارة والليالي الأقرب إلى البرودة هي الأشياء الوحيدة التي جعلتنا ندرك هذه الحقيقة ونتيقن منها.

وابتداء من هذه النقطة، كان الدرب الذي سلكنّاه مقسمًا إلى مراحل عديدة، وفي كثير من الأماكن عن يميننا وعن يسارنا كانت هناك آثارًا لإطارات سيارات غاصت لمسافات عميقة في الطمي أثناء موسم الأمطار، وكانت بعض أجزاء هذا الدرب مغطى بالأتربة، والدرب نفسه يصعب السير عليه وتغطى مساحة كبيرة منه نباتات كثيفة خضراء الأوراق تشبه فروع الدفلي الصغيرة (نبتة سامة عطرة الزهر) وان كنت لم أعرف اسمها الصحيح بعد، وكنا نتطلع دائمًا للعثور على أي زهور أو نباتات غريبة، وكنت أجمع كل ما يمكننا العثور عليه منها كلما أتيحت الفرصة.

وكانت هناك بعيدًا إلى جوار السهل الصخري، بضعة تلال منخفضة على اليمين، بينما تتراءى في الأفق تلال جبل تويق التي تظهر واضحة الآن عندما تنعكس عليها أشعة الشمس.

وقال السائق: عندما نصل إلى هذه التلال المنخفضة، سترون الرياض".

ولكن سيارة فخري أفندي التي تسبقنا كانت تثير سحابة كثيفة من الغبار وراءها، تغطى مساحة كبيرة، فحجبت عنّا الرؤية. وبعد عدد من التعرجات والتحوّل في الاتجاه وصلنا إلى موقع بين التلال المنخفضة ومن أمامنا منحدر صغير يفضي إلى سهل داخلي أصغر حجما. وكان هناك على البعد ما تصورّت أنه لابدّ أن يكون مدينة الرياض: حصن ضخم يتكوّن من عدّة أبراج تطل برؤوسها من فوق الأسوار، والعديد من المباني التي تظهر من وراء الأسوار والأبراج. وإلى يسار هذه المباني كان هناك صاريين عاليين للاسلكي. ولم يكن هناك أي أثر لنخيل الرياض.

وأشار محمد القدفان إلى تل منخفض، كان موقعه ذلك الوقت إلى الوراء قليلاً منّا جهة اليسار، وقال لنا:

"المخرج. يمكن للسيارةِ أن تشق طريقها خلاله دون أي عائق، ثم نخرج من الجانب الآخر من خلال نَفق.

وكان لقمة المخرج فتحة تشبه العُرْوَة (في الملابس) بالغة الضخامة، كما كانت آثار سير العديد من السيارات التي طرقت هذا المكان بادية للعيان.

وبينما نحن على وشك الوصول إلى الحصن ظهرت إلى يسارنا فجأة قمم أخاديد نخيل الرياض، ولم يكن ما نراه أمامنا في ذلك الوقت هو ما توهمت أنه الرياض، ولكنه كان القصر الجديد للملك، قصر الشمسية، وكان لا يزال قيد البناء.

وهنا توقفت السيارة، وأُبلِغنا أن الملك يريد أن نتوجه مباشرة إلى أحد قصريه الصيفيين في البديِّع، على بعد بضعة مئات من الياردات، وعلى مسافة تقل قليلاً عن الخمسة أميال غربي العاصمة. أما الملك نفسه فكان مقيمًا في ذلك الوقت في قصره الشتوي، داخل أسوار المدينة.

وتركنا نخيل التمر على يسارنا واستدرنا حول الواحة من خلال درب كثيرة الصخور إلى أن هبطنا، بعد سبعة كيلومترات، إلى طريق متعرجًا شديد الانحدار بين الصخور انتهى بنا إلى ما يسمَى بالباطن، وهو السهل الرملي الكبير بوادي حنيفة، لنجد أنفسنا أمام قصرين يمتد وراءهما المزيد من أخاديد النخيل إلى أن تصل إلى جوار الجوانب الصخرية المنحدرة للوادي، والتي لا يقل عرضها بحال عن نصف الميل. وكان القصران وما يحيط بهما من بساتين يغطيان حوالي ثلثي المساحة، أما البقية فتركت للسيول الجارفة التي تندفع بعد هطول الأمطار. وشيدَ الملك، أسفل سور الحديقة أمام القصر الذي توجهنا إليه، قاعة خارجية صغيرة خاصة له، وإلى جانبها غرفة صغيرة لإعداد القهوة، يجلس بها في فصل الأمطار ليتناول قهوة المساء بجوار غدران المياه المنهمرة.

يقول المثل العربي القديم: "ثلاثة أشياء تدخل البهجة قلب الرجل: الخضرة، والماء، والوجه الحسنَ"، ولاشك أن هذا القول صحيح تمامًا.

وعلى الجانب الآخر من وادي حنيفة، عبرت سيارتنا مجرى جاف للمياه ثم استدارت بحدّة جهة اليمين لتمضى بنا في طريق ضيق جدًا تحاصره

الأسوار من الجانبين، وبعد استدارة حادة أخرى، ولكن إلى اليسار هذه المرّة، توقفنا أمام باب كبير مفتوح. وشهر الحرّاس سلاحهم، وبدأنا الصعود وأنا أتبع زوجي بكل حذر على الطريقة العربية فوق عتبة مرصوفة بالحجارة ثم ممر مغطى بالحصى، أولا نحو اليسار ثم نحو اليمين، وأخيرا صعودًا على درَج حتى دخلنا القصر.

كان المبنى حديثـًا، لأنه لم يكن قائمًا عند زيارة فخامة الشيخ أحمد شيخ الكويت للرياض في عام ١٩٣٤. ويتكون هذا القصر من مساحتين يحيط بكل منهما عدد من الغرف في الطابقين العلوي والسفلي، بالإضافة إلى ساحة أصغر حجمًا للخَدَم. ولا تستخدم الطابق الأعلى من المبنى الأول إلا السيدات، أو لنزول الضيوف ذوى الأهمية، وفي غيبة السيدات بالطبع، أما المبنى الثاني فيستخدمه الملك كجناح خاص له حيث يعمل ويستقبل الشيوخ والبدو عندما ينزل في هذه المنطقة أثناء أشهر الصيف.

وتحيط بالساحة من كل الجهات شرفة في الطابق العلوي يبلغ عرضها حوالي الاثنى عشرة قدمًا، تستند إلى عدد من الأعمدة المشيدة من الحجارة والمطلية بالجص. وهناك بين كل عامودين ثلاث عوارض من الخشب ذات اللون الأصفر الفاتح أو الصنوبري الشاحب رسمت عليها زخارف قرمزية وسوداء أخاذّه لم تستخدم في تشكيلها إلا الخطوط والنُقَط. ويطوّق الشرفة جِدار من الطين والجص، يبلغ ارتفاعه حوالي ستة أقدام، وتتخذ قمته شكلاً أشبه برؤوس وأكتاف صفٍ طويل من الرجال يقف كلٌ منهم على فتحة مثلثة بين أعمدة عالية مستديرة بنيت من الحجارة والجصّ، يستند إليها بدورها سقف الشرفة، وهناك على كل جانب فتحة إضافية كبيرة يستخدمها الخدم للمناداة علي صانع القهوة.

والعوارض كلها مصنوعة من خشب الصنوبر، ويثبت عادة كل ثلاثة منها بين كل عامودين، لتستند إليها فروع أصغر حجمًا مغطاة بالبوص والطين هي التي تشكل سقف الشرفة - وتُغَطى في أغلب الأحيان بنسيج أبيض يثبت بمسامير ليحجب السقف. والعوارض المستندة إلى الأعمدة مزخرفة على الطريقة النجدية التي تستخدم فيها الخطوط والنقط كما سبق أن ذكرنا، وأينما كان موقع هذه العوارض، فهي جميعًا مزخرفة، فوق النوافذ، وفوق الأبواب الصغيرة، الخ، بل وحتى في الحمّامات. أما داخل الغرف الكبيرة، فهناك عمودان كبيران في

وسط كل غرفة يستند إليها السقف. والجدران مطلية بالجصّ الأبيض، وتنتهي من أعلى على شكل قباب أو دوائر..

وهذه النماذج تُصنع على النحو الآتي: فأولاً تُكسى الجدران بطَفْل شديد الجفاف، بلونه البنّي الفاتح؛ ثم تضاف فوق هذه الطبقة طبقة أخرى من الجصّ يبلغ سمكها ثلثي البوصة، وقبل أن تجفّ طبقة الجصّ يقوم رئيس البنّائين بتفريغ أجزاء من الطبقة العليا بحيث يتخذ كل جزء شكل وحدة من وحدات الزخرفة، وعلى أن يؤدى هذا التفريغ إلى ظهور الخلفية بنية اللون، وفي أغلب الأحيان تترك مساحات كبيرة من الحائط دون أي معالجة بين كل سلسلة من الأعمدة والسلسة التي تليها. وتبدأ النماذج السفلى على ارتفاع حوالي ثلاثة أقدام من الأرضية، وتتنوع وحدات الزخرفة حول النوافذ والأرفف الضيقة الناتئة من الجدران، وتثبت دوائر زخرفية ضخمة، كل منها قائمة بذاتها، فوق المجموعات الأفقية من وحدات الزخرفة تتكون من تشكيلات هندسية مختلفة بحيث لا يتشابه منها اثنتان بأي حال. والأثر العام لكل هذه الزخارف يبعث على البهجة بلا جدال.

وتغطّى النوافذ ستائر من حرير صنعت من نسيج يستورد من أسواق الكويت؛ وتصطف حول الجدران مقاعد وأرائك خشبية مكسوة بالمخمل صنعت في بغداد. والأرضية مغطاة بسجاجيد فارسية شديدة السمك من مختلف الأحجام وأنواع الخيوط، بينما الغطاء الذي يكسو السقف في غرفة الاستقبال مزخرف بنقوش من خيوط الحرير تتخذ شكل الكواكب والنجوم والدوائر مختلفة الأحجام.

ويستخدم الجزء الأسفل من هذا المبنى للخدم، وهناك في أحد أركان البهو المفتوح (وجار) مستطيل الشكل خاص بصناعة القهوة العربية، وأرضية هذا الجزء من البهو مغطاة بالرمل الأبيض النظيف الذي يجلب من قاع الأنهار. وتحمل الأبواب التي تقع أسفل الشرفة، والموصّلة إلى الغرف، زخارف متعدد الأشكال استخدمت في رسمها أنواع من الطلاء الأحمر والأسود والأزرق والأصفر والأخضر والقرنفلي، وألوان الطلاء أشبه بالفسيفساء حيث يختلف كل مربع أو مثلث في لونه عمّا حوله من وحدات زخرفية أخرى أما الأطراف العليا للأبواب الضخمة، وكذلك القطاعات الوسطى والدنيا منها، فالزخرفة فيها أكثر بريقا وتتميز بوجود أجزاء بارزة من جسم الباب، أما الأبواب الأصغر حجما فلا توجد بها هذه

الأجزاء البارزة عادة ويكتفي في تجميلها ببعض أنواع الحفر والطلاء. وأفضل الأبواب هي ما يجلب من القصيم، ويشبه ما يطلى منها محليا الأنماط التي نشاهدها في العوارض، وتتناثر عليها نقط سوداء وقرمزية.. الخ. ولكل باب قفل؛ ويولج المفتاح الخشبي الشبيه بفرشاة الأسنان داخل القفل بأسنانه المتعددة، فيغلق الباب عندما يتحرك إلى أعلى ويفتحه عندما يتحرك في الاتجاه المضاد. والمصاريع الخشبية للنوافذ تفتح جميعًا على الداخل، وهى مطلية من الخارج بطلاء جميل شبيه بالطلاء الذي نراه على الأبواب؛ أما من الداخل فهي لا تحمل إلاّ نقوشا بسيطة.

وبعد اجتياز المر الموصّل إلى أعلى في المنزل الأول، تاركين بهو الخدم إلى اليسار، اتجهنا نحو اليمين لنجد أنفسنا في شرفة زُودت عند طرفها بعدد من المقاعد والأرائك وغطيت الأرضية بالسجاد الفارسي. وتتدلى من السقف مروحة شبيهة بالستار، وتثبت على الحائط ساعة ضخمة، صنعت في بومباي، في مواجهة مقعد الملك مباشرة. ثم نتجه إلى اليسار مرة أخرى لنجد الشرفة كلها مزوّدة بالأثاث على نفس الوتيرة. وهناك في الداخل غرفة صغيرة يستخدمها الملك لأداء الصلاة والراحة، وهى عربية الطراز، وبها أرائك عالية وعريضة اصطفت بجوار الجدران وتنتهي عند أحد أطرافها بما يشبه العرش وعليه حشيتان مربعتان صلبتان كبيرتا الحجم، تغطى كلا منها ثلاث حشيّات مماثلة ضُمّت لبعضها البعض داخل غرارة من الحرير. والنسيج الذي يغطى السقف في هذه الحجرة أكثر جمالاً وزخرفة مما نراه حتى في أجنحة النساء؛ وهو مزّين بصور لدلال القهوة، وأباريق الشاي، وأواني تسخين الماء، وكلها منقوشة بخيوط من حرير، جنبا إلى جنب مع الأقمار والنجوم والدوائر. وهناك سُلم طويل منحدر سهل المرتقى يفضي إلى مدخل خاص لا يستخدمه إلاّ الرجال، بحيث يعزل هذا المبنى عزلاً كاملاً عن القسم المخصص للنساء.

ورغم مغادرة الملك القصر متوجها إلى المدينة منذ عشرين يوما، كانت الساعة الضخمة في المجلس لازالت تعمل وتشير إلى الوقت بكل دقة، وكانت القهوة أيضًا لا يتوقف إعدادها وتقديمها للوافدين. وبينما نحن نتجول داخل الغرف، جلسنا بضع دقائق في الشرفة بجوّها المنعش وقدمت لنا القهوة، وهنا أخبرنا عبدالله المسفر، وهو أحد معاوني الملك فيصل في العراق، وكان قد انضمَ إلينا، وأخبرنا إنه زار نيويورك مع مستر كرين منذ عدّة أعوام، ثم انتقلنا إلى

السطح حيث يتناول الملك غداءه في الصيف في ركن مغطّى يستند إلى دعاميتن طويلتين؛ زال عنهما كل لون أو طلاء لمسافة ثلاثة أقدام ارتفاعًا عن سطح الأرض نتيجة لما جرت عليه عادة العديد من ضيوف الملك من مسح أيديهم بها، وبما عليها من دهون أو شحوم من آثار الطعام.

وعلى مسافة غير بعيدة كان هناك صار أو صاريتان تتدلى من قممها مصابيح كبيرة؛ بالإضافة إلى صاري ربطت به حبال تعلق بها قرب المياه حتى تتعرض للنسيم فتحتفظ ببرودة ما تحتويه من ماء.

والقصر الرئيسي الآخر مشيد بنفس الأسلوب إلى حدٍ ما، وإن كان أقدم عهدا، وهنا أيضًا يستقبل الملك الشيوخ وعلية القوم.

ومنازل الفئات العليا من سكان مدينة الرياض تبدو معتمة من الخارج يغلفها الغموض بالنسبة للزائر العادي، بجدرانها العالية المشيدة من الطمي على جانبي الطرق الضيقة الملتوية وأبوابها الخشبية المسطحة الصلدة. ولا تطلّ على الشارع أي نوافذ، باستثناء نافذة في الطابق العلوي أغلقت بأحكام بقضبان حديدية، ومع ذلك، فالأجنحة الداخلية لهذه المنازل، وهي من طابقين في العادة، مشيدة بحيث تفتح جميعًا على البهو الداخلي المركزي؛ وهي متعة للناظرين بزخارفها الفنية وطلائها الشبيه بطلاء غرف القصر الملكي البديع، حيث أقمنا أثناء زيارتنا.

وقد قمت بنفسي بإعداد هذه الرسوم المرفقة لما شهدته على الطبيعة.

الملك يناقش القضية الفلسطينية

قطعت سيارتنا المسافة من الكويت إلى الرياض، والتي يبلغ طولها حوالي الخمسمائة ميل، في سبعة عشر ساعة ونصف الساعة بالدقة، وكانت الأحوال الجوّية جيدة، واكتشفنا أن الليل يتميز بالبرودة بشكل واضح في قلب نجد. وكان مشهد الصحراء حولنا مدهشا إلى أقصى حد، وكانت الملامح الوحيدة للحياة خارج مخفر جرية ستة غزلان وطائر حبارى.

وكما سبق أن ذكرت زوجتي، كنت أسجل ملاحظات من المناطق التي نمرّ عبرها، واكتشفت عدّة أخطاء في الخريطة الرسمية لشبه الجزيرة العربية ١: ١,٠٠٠,٠٠٠ ؛ وتمكنت من وضع العديد من الأسماء في أماكنها الصحيحة،

كما حددت بكل دقة الطريق الأنسب للسيارات بين العاصمتين، وكانت معي أيضًا خريطة فيلبي للطرق ١ : ١,٥٠٠,٠٠٠ التي يظهر عليها الطريق الممتد من الرياض إلى الكويت الذي طبعها مكتب الحزب عام ١٩٣٣. ولكن نظرًا لتوقف هذا الطريق شمال المنحنى الرملي الكبير بالدهناء مباشرة، أي على بعد ثلث المسافة من الكويت، يساورني الاعتقاد بأن خريطة الطرق التي استكملتها بعد هذه الجولة ستكون لها فوائدها وإن كانت تنقصها الدّقة التي تتميز بها خريطة فيلبي. وقد أعادت قيادات الجيش بحكومة صاحب الجلالة في الهند طبع هذه الخريطة.

أمضينا في الرياض أربعة أيام ونصف اليوم كلها بهجة ومتعة، وأنجزنا برنامجا حافلا مليئا بالزيارات والمقابلات والمآدب والجولات الخارجية لمشاهدة المعالم الطبيعية، بالإضافة إلى حضور العرضة، أو رقصة الحرب، والتي قُدّمت، كما قيل، تحية لنا، وإن كان الواقع يقول أنها قدمت بمناسبة انتهاء أحد أبناء الملك الصغار من حفظ (ختم) القرآن كله. وهم يسمّون الغلام الذي ينهى هذه المهمة لأول مرة بالخاتم.

وفي صباح اليوم التالي لوصولنا، التقيت بالملك لقاءً رسميًا استمر لمدّة ساعتين. فبعد أن قدّمت نفسي في مكتب وزير الخارجية، السير فؤاد حمزة، في القصر الكبير، صحبني فخامته إلى مجلس الملك، فوجدت جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود يجلس على مقعد مرتفع في ركن من الغرفة يطلّ على الميدان الرئيسي أمام القصر، وإلى يمينه وإلى يساره جلس كبار الأمراء والمسئولين في الدولة، وإن كان بعضهم على مسافة بعيدة منه في الطرف الآخر من الغرفة، وكان الحاضرون هم:

- حاكم حائل: الأمير عبدالعزيز بن مسعد الجلوى آل سعود.
- وثلاثة من أعضاء بيت الرشيد الملكي وهم الأمير محمد بن طلال الرشيد، والأمير فيصل بن طلال الجابر الرشيد، والأمير عبدالله بن متعب الرشيد.
- ابن أخ الملك: فيصل بن سعد آل سعود.
- اثنان من أبناء الملك: محمد ومنصور آل سعود.
- حفيد الملك: عبدالله بن تركي آل سعود.
- واثنان من مستشاري الملك: السيد حمزة غوث والسيد شريف شرف
- ورئيس تحرير نشرة أخبار الإذاعة: محمد جسور

وكان ثلاثة من أبناء الملك الصغار يجلسون في أحد الأركان وهم طلال، ومشعل، ونواف آل سعود.

وبعد التحيات التقليدية المعتادة، قدّمني جلالته إلى الحاضرين ثم طلب منّي أن أجلس إلى جواره. وكان السير فؤاد حمزة يجلس بجوار السيد حمزة قوث. ثم سألني الملك بكل مودّة وبطريقة مهذبة عن صحة زوجتي وعن صحتي، وأمر بأن يصحب الخدم الأولاد الصغار طلال ومشعل ونواف إلى الخارج، فأقبلوا عليه وقبلوه مودّعين؛ فأجلس نواف الصغير وعمره ثلاث سنوات على ركبتيه دقيقة أو دقيقتين وهو يبتهج، ثم سأله عن الهدية التي يريدها فقال نواف: صقرًا؛ حتى يتمكن من الخروج للصيد.

وقال الملك: "لك ما تريد"، وقبّله مودعًا، ولكن بعد أن جذب الغلام لحية الملك وقال:

"أريد وعدًا منك، يا أبى".

وبكل جدّية وعده الملك بأنه سيحصل على الصقر، وأصدر أمره بالفعل في هذا الشأن. ثم أخرج الغلمان الثلاثة من الغرفة. وتحوّل الملك بناظريه نحوي وقال في بشر:

"يا ديكسون. أنت لست فقط صديقنا وصديق العرب، ولكنّى أراك جئت مرتديا ثيابًا مثل ثيابنا، كواحد منّا، ولذلك فالترحيب بك مضاعف".

وبسرعة، انتقل إلى الموضوع الذي كان من الواضح أنه هو القريب إلى قلبه، وهو المشكلة الفلسطينية، وظلّ يتحدث حوله لمدة ساعة ونصف الساعة. وكان من الطبيعي أن أوضّح بشكل لا يحيط به أي لبس أو غموض أن زيارتي لا تعدو أن تكون زيارة شخصية بحتة، وأنني حصلت على موافقة وزارة الهند ووزارة الخارجية قبل حضوري ورغم ذلك، ألمح الملك إلى أنه يأمل أن أقوم بإبلاغ الدوائر الرسمية بما سمعت، حتى وإن كان في ذلك ما يتعارض مع النظم المتبَعة.

كان يتكلم أغلب الوقت في نبرة خفيضة جادة، وكما لو كانت كلماته غير موجهة لمستشاريه الجالسين من حوله، وكان لا يكفّ عن تأكيد معنى ما يقول بالإمساك بذراعي بقبضة يده. وفور انتهاء اللقاء، سجلت كل ما قاله ودوّنته بنفس كلماته بقدر المستطاع، مستخدما ضمير المتكلم الجمْع عندما يتحدث عن نفسه.

"نحن نعرف يا ديكسون أنك لم تعد تشغل منصبا رسميا في الحكومة، ولكن نظرا لأنك توليت منصبًا رفيعا في ظل حكومة صاحب الجلالة لعدة سنوات، فنحن نعلم أنك محل ثقة حكومتك، ونحن لا نكتفي بالترحيب بك ترحيبا مضاعفا، بل ويمكننا أن نفتح قلبنا لك؛ ونحن سعداء لأنك تمكنت من زيارتنا في عاصمتنا.

"إننا نتطلع بكل تلّهف لأن ترسل إلينا الحكومة البريطانية كل ثمانية أشهر أو نحو ذلك مسئولاً من ذوى الخبرة يكون محل ثقتها، أو موظفا سابقا مثلك أنت، يمكنه أن يستمع بنفسه لما نفكرّ فيه، ولما يشغل قلوبنا من مشكلات لأننا نعيش مرحلة بالغة الأهمية ومفعمة بالأخطار هذه الأيام. ونحن نشعر أن الاتصال الشخصي من هذا النوع سيكون أكثر جدوى بكثير من أي كمية من الرسائل المكتوبة أو الاتصالات البرقية، والتي، رغم ما لها من فائدة في حدّ ذاتها، يعجز عن توصيل المعنى الكامل لأفكارنا ومشاعرنا، وسوف تؤدى، إن أدتّ إلى شيء، إلى غرس سوء التفاهم وسوء التفسير بدلاً من إزالتهما.

"ولكن مثل هذا الشخص إذا أُرسل لنا وعندما يرسل لنا، يجب أن يكون على دراية عميقة بلغتنا، ويفهم المعنى الواسع لكلامنا الجميل المليء بالجمل الرمزية والمعبّرة. وليس هناك أي جدوى من إرسال رجل يكتفي بالإصغاء لما نقوله ثم فهمه عن طريق المترجم، يجب أن يعرف وأن يتفهم نفسيتنا (سيكولوجيتنا) العربية، وأن يكون مُلِمًا إن أمكن بأخلاقنا وعاداتنا العربية، كما يجب، قبل أي شيء آخر، أن يكون علي دراية باعتزازنا بأنفسنا نحن العرب، وبما يحدونا من آمال، وأن يكون قد قرأ شيئا من كلام الله الذي تعطف فوهبه لنا في قرآننا الكريم.

"يا ديكسون. متى ستدرك حكومتك في لندن أننا نحن العرب يمكن لأي شخص أن يأسرنا، جسدًا وروحًا، بكلمة طيّبة أو صنيع جميل، ولكننا نتحول إلى أعداء لا نعرف الهدوء أو السكينة أبد الدهر لكل من يعاملنا بجفاء أو يحيد عن العدل في علاقته بنا؟

"إننا نشعر اليوم، ويشعر معنا كل قومنا، بالقلق العميق حول القضية الفلسطينية، وسبب قلقنا وانزعاجنا هو الموقف الغريب لحكومتكم البريطانية، والتأثير الأشبه بالتنويم المغناطيسي الذي يبدو أن اليهود – وهم جنس ملعون من

الله سبحانه وتعالى كما جاء في كتابه المقدس ومحكوم عليه بالدمار في خاتمة المطاف - يمارسونه عليها وعلى الشعب الإنجليزي عمومًا.

"القرآن يتضمن كلمة الله ومشيئته الإلهية، ونحن نوصي حكومة صاحب الجلالة أن تقرأ بكل عناية وأن تتبع ما جاء في الآيات التي تتناول اليهود وخاصة فيما يتعلق بمصيرهم النهائي المحتوم ;لأنه لا تبديل لكلمات الله ولابدّ لها أن تنفذ.

ونحن العرب نؤمن إيمانا مطلقة بكلمة الله الكاشفة، ونعلم أن الله صادق الوعد. ونحن لا يعنينا شيء في هذا العالم إلاّ إيماننا بربّنا ورسوله، ويشرفنا؛ أما كل ماعدا ذلك من أمور فهو لا شيء على الإطلاق، ولا حتى الموت. كما أننا لا نهاب المشاق، أو الجوع، أو النقص في متاع هذه الدنيا، الخ؛ ونحن قانعون تمامًا بأن نأكل لحم إبلنا وتمرنا حتى آخر يوم من حياتنا، بشرط ألا نتخلى عن تلك الأشياء الثلاثة.

"وترجع كراهيتنا لليهود منذ أدانهم الله لمطاردتهم ورفضهم لعيسى (المسيح)، وما أعقب ذلك فيما بعد من نبذهم لنبيّه المصطفي. ونحن لا نستطيع أن نفهم كيف يمكن لحكومتكم، التي تمثل أكبر دولة مسيحية في عالم اليوم، أن ترغب في مساندة ومكافأة نفس هؤلاء اليهود الذين عاملوا نبيكم عيسى بكل قسوة وفظاظة.

"لقد كنّا، نحن العرب، الأصدقاء المخلصين لبريطانيا العظمى لعديد من السنوات. وكان آل سعود، على وجه الخصوص، صديق حكومتكم الذي لا يحيد مدى الحياة، فأي جنون إذًا هذا الذي يقود حكومتكم إلى تدمير هذه الصداقة التي دامت قرونًا؛ وكل ذلك من أجل جنس ملعون متكبّر طارد أنبياءه ونبذهم منذ بداية العالم، وكان دائمًا يعقر اليد التي تمتد إليه بالمساعدة؟

"كان من الأفضل، من الأفضل كثيرًا، ومن كافة النواحي، لو أن بريطانيا العظمى ضمّت فلسطين إلى ممتلكاتها وحكمتها لعدة مئات من السنوات القادمة، بدلاً من تقسيمها على النحو الذي تقترحه. فهذا التقسيم لا يمكن أن يحل المشكلة، ولا يمكن أن يؤدى إلاّ إلى استمرارها إلى الأبد، وإلى الحرب والبؤس. ويبدو أن بعض الناس يعتقد أننا، آل سعود، لنا مطامعنا الخاصة في فلسطين وأننا نريد الاستفادة مما يسودها الآن من قلاقل واضطرابات لنتدّخل ونعرض

تولّى الأمر فيها. ومن المؤكد أن هذا يمكن أن يكون حلاً، ولكن الله يحرّم ذلك، لأن لدينا ما يكفي وزيادة من الأرض،

"ونحن الآن الإمام، الزعيم الروحي والحاكم الزمني للجانب الأكبر من شبه الجزيرة العربية، ونفوذنا أيضًا ليس بالقليل في جميع البلدان الإسلامية الكبرى في العالم. والحكومة البريطانية، صديقتنا، تضعنا في أكثر المواقف صعوبة وإحراجًا، فمن ناحية، تنهال علينا النداءات من خلال أعداد لا حصر لها من الرسائل والبرقيات، ليلاً ونهارا، من جميع أنحاء العالم، للتدخل واستنقاذ فلسطين للعرب، بل وهناك من يلحّ علينا من قومنا في نجد، ومن جميع المسلمين ممن حَسُنَ إسلامهم في العالم الخارجي، من أجل قطع علاقاتنا بالإنجليز واستنقاذ فلسطين لشعبها عن طريق الحرب. ومن الناحية الأخرى، فنحن نرى أنه من أفدح الأخطاء أن نقطع علاقاتنا بأصدقائنا القدامى، الإنجليز، لأن هذا يعنى جلب دمار شديد للعالم، ويمكن أن يكون لصالح اليهود أعداء العربية السعودية والإنجليز في نفس الوقت،

"ونحن، بالقطع، لن نشن حربًا ضدكم أيها الإنجليز. ولقد أحطنا قومنا علمًا بذلك، لأنني الشخص الوحيد بينهم الذي يمكنه أن يمتد بناظريه بعيدًا إلى المستقبل؛ ونحن نعلم أننا إذا تصرفنا على هذا النحو فلابدّ أن نخسر الحليف المحتمل الوحيد لنا الآن.

ألا تسعى ألمانيا وإيطاليا، وخاصة تركيا، اليوم، مثل الذئاب المسعورة، لالتهام يمكن التهامه؟ إنهم ينافقوننا جميعًا الآن، ولكننا نعلم أنهم يودّون افتراسنا فيما بعد. ونحن نؤمن بأن إنجلترا الصديقة سوف تمنعهم دائمًا من تحقيق مآربهم. ومن هنا، ورغم أنني كمسلم لا أحمل حبًا خاصًا لأي أمة مسيحية، إلا أن المصلحة السياسية تقتضي أن نكون على علاقة طيبة بأحسنها، وهي بريطانيا.

"والمشكلة الشاقة هي قومنا العرب وقبائل الإخوان في نجد؛ وبالنسبة للقضية الفلسطينية هم لا يرون إلاّ ما يظهر أمامهم وتراه عيونهم ولا يمكنهم أن ينظروا إلى الأمور نظرة أبعد مدى. وهم يلومونني، حتى في الوقت الراهن، ويتهمونني بالتردد والامتثال لأوامر الإنجليز؛ ومع ذلك تتوقع حكومتك أن أظل مسيطرا عليهم كابحا لجماحهم، ويجب على حكومتك ألا تنس أنني الزعيم

الديني للعرب، ومن ثم فأنا الذي يفسّر القرآن، إن كلمة الله بالنسبة لهم لا يمكن التلاعب بها.

"ونحن نتعلّم من كلمة الله بلا ريب، ونحن نؤمن إيمانًا صادقًا يا ديكسون بأنه إذا قتل المسلم يهوديًا، أو قتل هو على يد يهودي، فهو يدخل الجنة على الفور ويمضي إلى جوار الله جل جلاله. فماذا يمكن للمسلم أن يطمع فيه أكثر من ذلك في هذا العالم المليء بالمشاق؟ إن قومي لا يكفّون عن تذكيري بذلك. والأمر المؤكد أن حكومتكم تضعني في نفس المأزق الذي سبق أن وضعتني فيه في عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠، وهو الأمر الذي أدّى إلى تمردّ الإخوان ضدّي.

"والطبع، بالطبع، أعداؤكم كما هم أعداؤنا، رغم أنهم يستخدمونكم بذكاء في الوقت الراهن. وسوف ترى حكومتكم وتدرك فيما بعد كيف يمكنهم استخدام أنيابهم. واليهود يفضلون في الوقت الراهن أن يتربصّوا انتظارًا للفرصة المواتية. وألاَ تعلم حكومتكم أن اليهود لا يهدفون على المدى البعيد إلى مجرّد الاستيلاء على فلسطين كلها وإنما تمتد مطامعهم إلى الأراضي الممتدة جنوبها حتى المدينةَ؟ أما من جهة الشرق فهم يأملون في التوسع إلى أن يصلوا إلى الخليج. وهم يخدّرون عقول بعض الإنجليز الذين ليس لهم موقف محدد بترديد الأقاصيص التي تزعم أن وجود دولة صهيونية قوية وموالية لبريطانيا تمتد من البحر المتوسط إلى الخليج، يمكنها أن توفر الحماية لطرق مواصلات الإمبراطورية سواء في قناة السويس أو في معبر العراق، ويقولون أن العرب أعداء لإنجلترا وسيظلون أعداء لنا على الدوام.

"وهم يلعبون في نفس الوقت على عقول الجماهير البريطانية العاطفية بأن يزعموا لها أن أنبياء العهد القديم تنبأوا بأنهم، أي اليهود، سوف يرجعون بالفعل إلى أرض المِيعاد، أو أنهمِ، بنو إسرائيل، المطاردون الهائمون على وجوههم، ينبغي ألاّ يُحرموا من حقهم في أن يكون لهم مكان صغير في العالم يريحون فيه رؤوسهم المثقلة. كيف، يا ديسكون، ستكون الحال مع شعب استكِتلندا إذا أعطى الإنجليز أرضه فجأة لليهود؟ ولكن لا؛ إنه من الأسهل أن تتخلى عن بلاد شعوب أخرى.

"ومما يثبت أن يهود فلسطين يقومون الآن بأكبر قدر من الإثارة واللعب على الأعصاب لإحداث انقسام دائم بين الشعب الإنجليزي والعرب، هذه

الاغتيالات الأخيرة لعدد من المسئولين في فلسطين. فمن الواضح وضوح الشمس أن السفاحين الجناة من العرب الكفرة مأجورون جُلبوا من الخارج ليرتكبوا جرائمهم الدنيئة، وأن دوائر يهودية هي التي تموّل نشاطهم. ونحن نعلن أن هذه حقيقة مطلقة لا جدال فيها، وألم يقسم لنا مفتي القدس الأكبر في حرم مكة أمام الكعبة أنه ليس يلجأ إلا للأساليب الدستورية في معارضة المؤامرات الصهيونية في فلسطين؟إننا نحن آل سعود، مازلنا نصدّقه حتى اليوم.

"إن ما نخشاه أكثر من أي شيء آخر، والذي يجب على بريطانيا ألا تسمح به، هو تحويل شعب شبه الجزيرة العربية وشعوب البلدان العربية المجاورة إلى أعداء لكم، ولو أن ذلك حدث، لكان جريمة لا تغتفر ولا يمكن علاجها، لأن العرب، كما قلنا، لا ينسون جراحهم مهما طال الزمن، وسوف يتحينون الفرصة للثأر ولو بعد مئات الأعوام إذا لزم الأمر. ولن يتوانى أعداء إنجلترا عن الاستفادة من ذلك، وسوف تكون معاناة إنجلترا من بعض المشكلات أو انشغالها في حرب في مكان آخر، هي إشارة البدء للعرب ليتحركوا ويعملوا.

"أنني أكره مجرد التفكير في إمكانية حدوث ذلك، ولكنّى على يقين من أن تقسيم فلسطين سيفضي إليه، رغم كل جهودكم التي لا تسير في الاتجاه الصحيح، وأنا لا أستطيع أن أساعدكم إلى الأبد، لأني لن أعيش أكثر من خمسة أعوام.

"ولذلك، فنحن نكرر، أن الحل الوحيد الذي نراه هو أن تتولى بريطانيا العظمى بنفسها حكم فلسطين. ولن يكون ذلك، بالطبع، على هوى الصهاينة، ولكن ينبغي عدم الأخذ بآرائهم. وسوف يوافق العرب على هذا الحل، وأما الذين لا يوافقون فسوف يدفعهم إلى الموافقة أناس مثلي. والشيء الرئيسي هو منع اليهود، مهما كان الثمن، من أن تكون لهم دولة مستقلة خاصة بهم مقتطعة من الأراضي العربية، وبدون أن يكون هناك من يتحكم في أعمالهم وسياستهم في المستقبل. وسوف ينتج عن ذلك صراع أبدى مع العرب الذين يعيشون حولهم؛ أولاً، لأن اليهود، المصرّين على التوسع، سوف يتآمرون منذ اللحظة الأولى ولن يهدأ لهم بال حتى يرسخّوا العداء والصدام بين بريطانيا العظمى والعرب، وهو الوضع الذي يعقدون آمالهم على الاستفادة منه، وثانيا، فسوف يسعى اليهود، لأنهم يملكون المال، إلى إنشاء جيش ميكانيكي وقوات جوية على أعلى درجة من

الكفاءة، وإن كانت صغيرة الحجم، سوف تستخدم بلا شك في يوم من الأيام للأغراض العدوانية في شرق الأردن وفي معقلهم القديم، المدينة، وهي الأرض التي توجهوا إليها عندما طردوا من فلسطين وتشتتوا بعد أن دمّر الرومان القدس.

"ويجب على حكومتكم، على الفور وقبل أي شيء آخر، أن تزيد من الحدّ من هجرة اليهود إلى فلسطين، ولندع من جاءوا إليها يستقرّون بها، ولكن مع عدم السماح بمجيء المزيد من المهاجرين".

وهنا تحينت الفرصة التي تهيأت لي عندما توقف الملك عن إلقاء محاضرته الرنانّة، وربما عن غير إرادة منه، لأوضح وجهة نظر حكومة صاحب الجلالة، وقبل أن استرسل أوقفني بطريقة حادّة وقال: "يا آلهي. إن حكومتك ليس لها وجهة نظر إلا تعمد اقتراف الظلم، إن كل من يخاف الله، مسلمًا كان أم مسيحيا، يعلم أنه ليس من الصواب تعمد ارتكاب الخطأ مهما كانت البراعة التي يُصَوِّر بها هذا التصرف للناس. وإذا كنت أنا البدوي من شبه الجزيرة العربية أرى بشكل واضح وضوح الشمس أن تقسيم فلسطين شر وخطيئة عند الله، فهل هناك شك في أن الساسة البريطانيين الأكثر فطنة يمكنهم أن يروا ذلك إذا كانوا يخافون الله؟ الحمد لله أننا نؤمن به وبأن لا إله إلا هو، ونحن نعلم أن هذا الإيمان الذي يعمر قلوبنا هو الذي يجعلنا نرى الأشياء بهذه الدرجة من الوضوح. ونحن على يقين أننا على الحق، لأنه، سبحانه، سينزل عقابه بنا، آل سعود، إذا كذبنا عليه، ولذلك، فليس هناك جانب آخر لهذه المسألة، إلا إذا كان الأمر صفقة مع الشيطان".

وفجأة، بدا وكأن الملك أصابه الإرهاق، وأن الجهد الذي بذله طوال هذا الحديث أكبر من أن يتحمله، وبعد أن نادى على محمد جسور لقراءة آخر الأنباء التي وصلت بالراديو من جميع أنحاء العالم على الجمع الجالس من حوله، صرفني في مودّة، ولكن في حزم أيضًا.

وبعد أن انتهى لقائي بالملك، أوقفني رسولٌ في الممر وقال إن الأمير سعود يريد منّي زيارته في مجلسه. ووجدت مضيفي يرأس محكمة بين حشدٍ يضم عديدا من شيوخ البدو وغيرهم، واستقبلني مرحبًا في حفاوة ودعاني لتناول العشاء معه يوم الأربعاء ٢٧. ولم يثر أي مسائل ذات طبيعة خاصة كما تجنب أي إشارة لفلسطين. وتحدث سعود في استفاضة عن زيارته الأخيرة لإنجلترا وروح الودّ التي

استقبل بها في كل مكان، ورأى أنه من المناسب أن يذكر أن ثمة شيئًا أثّرا فيه أكثر من سواهما وهما الحب الذي يثير الدهشة الذي يكنّه الشعب الإنجليزي لملكه ولأسرته المالكة، والإحساس العميق بالقانون والنظام الذي لمسه في كل مكان، كما أشار إلى العادة الإنجليزية الملفتة للنظر بالانتظار في صفوفٍ أمامٍ المسارح ومحطات السكك الحديدية ..الخ، وكان يرى في ذلك تصرفًا مشوقًا للغاية.

وفي تلك الليلة، جاء السيد فؤاد حمزة لتناول العشاء معنا في قصر البدِّيع. وبعد تناول القهوة، سألني عمّا إذا كنت أعرف عن المشكلات القائمة بين بريطانيا وقطر والتي قال إنه ليس لها ما يبررها وأنه ما كان من الممكن أن توجد أيام السير بيرسي كوكس. وأجبت بأنني لا أعرف شيئا عن تلك المشكلات، وعندئذ عاد إلى المشكلة الفلسطينية وركز عليها كل تفكيره (كما لو كان ينفذ أمرا باستكمال حديث الملِك) وقال أن ما يجب على بريطانيا أن تفعله على الفور في فلسطين هو أن تتخلى عن مسألة التقسيم بكل أشكاله، وأن تتولى إدارة البلاد بنفسها؛ فمن شأن هذا الحل أن يجدّد الثقة ويتيح مهلة للالتقاط الأنفاس، وقال إنه يجب على إنجلترا، قبل أي شيء آخر أن تحدّ على الفور من أي هجرة جديدة لليهود إلى أن يتم التوصل إلى تسوية تضمن استمرار النسبة الراهنة بين السكان العرب والسكان اليهود.

ومن أجل دفع فؤاد حمزة إلى الإفصاح عن المزيد مما لديه في هذا الصدد اقترحت ما اعتقد أنه بديل أفضل، ولكن مع التأكيد على أن اقتراحي ليس إلا فكرة شخصية تولدت لدىّ نتيجة لأنني عشت في القدس أيام الشباب ورأيت كيف واجه الأتراك نفس المشكلة. فمنذ عام ١٨٩٣ كانوا (أي الأتراك) يخشون عودة اليهود إلى فلسطين وتحويلهم هم والعرب إلى أقلية تنوب بينهم، ولذلك أصدروا قانونا يقضى علي بمنع أي يهودي أو أوربي أو أمريكي من الإقامة في فلسطين أكثر من شهرين في المرة الواحدة، وقياسا على ذلك، قلت لفؤاد حمزة إن اليهود المستقرين اليوم في فلسطين ينبغي السماح لهم بالبقاء بها إلى الأبد، ولكن مع حظر أي استيطان جديد؛ وفي نفس الوقت ينبغي أن تظل فلسطين مفتوحة الأبواب أمام أي يهودي يودّ زيارتها للحجّ، بشرط أن يغادر البلاد بعد شهرين من إقامته بها. وقلت أن هذا يعني، بعبارة أخرى، ألا تعطى السلطات البريطانية في جميع أنحاء العالم تأشيرات لدخول فلسطين إلا لمدّة شهرين

فحسب، وأضفت أن هذا الإجراء يماثل ما ينطبق على المسلمين الذين يفدون إلى مكة لأداء فريضة الحج، فهم يستطيعون المجيء في أي وقت، ولكن لا يمكنهم الاستقرار الدائم إلا في حالات استثنائية جدا.

وقال فؤاد حمزة أن اقتراحي اقتراح جيد تمامًا، وأن هناك الكثير الذي يمكن قوله بصدده. ولكنه غيرّ الموضوع إلى حدّ ما، وفجأة، وكأنه شعر أنه ما كان عليه أن يخوض في مسألة على هذه الدرجة من الخطورة مع شخص ليست له أي صفة رسمية.

زيارة لسيدات الأسرة المالكة: بقلم فيوليت ديكسون

"سوف تستقبلك سيدات الأسرة المالكة الساعة الثالثة صباحًا، يوم الثلاثاء. كانت هذه هي الرسالة التي تلقيتها مساء يوم الاثنين.

والساعة الثالثة، تقابل الساعة التاسعة وفقًا لتوقيتنا. وغادرت قصر البديِّع بالسيارة ومعي حمده، خادمتي، في حوالي الساعة الثامنة والنصف. وفي المقدمة، جلس بجوار السائق كلٌ من سالم المزين وعبدٌ من قصر الرياض كان مكلفًا بمرافقتنا. وأخذنا نزحف في بطء عبر الطريق الصخري الذي يلتف حول المدينة مخلفين عن يسارنا قصر الشمسية الجديد وقصر نورا، قصر شقيقة الملك، ثم تحولنا إلى اليمين صوب المدينة. كانت بعض خيام البدو تتناثر هنا وهناك، والمقبرة الكبرى إلى يسارنا، إلى أن وصلنا إلى البوّابة الرئيسية الشرقية للمدينة.

وسرنا في شارع ضيق مستقيم لنجد أنفسنا فجأة أمام قصر الملك في ميدان السوق الكبير. وكانت ساحة السوق غاصّة بالبدو والجمال، بينما يجلس من جاءوا للقاء الملك في الانتظار على دجه في صفٍ طويل. وما أن ألقينا نظرة خاطفة على هذا المشهد حتى كانت سيارتنا تعبر الساحة لتسير إلى جوار القصر متجهة نحو الباب الكبير تحت جسر عريض. وهنا ترجّلنا، فاصطحبونا إلى الداخل عبر أكثر من بهو كانت الجياد تُجلب إليها ليركبها أطفال الأسرة المالكة، وارتقينا سُلّمًا مريحا يمرّ بجوار عدد من الممرات والشرفات، ثم دخلنا غرفة واسعة خالية.

ومرت حوالي خمس دقائق قبل أن يظهر أحد، ولذلك كان لدىّ ما يكفي من الوقت لألقي نظرة على كل ما حولي. كانت هناك أعمدة ضخمة وسط الغرفة يستند إليها السقف على عوارض ملوّنة بالطلاء، على غرار ما رأينا في قصر

البديع، بينما غطيت الأرضية بسجاجيد فارسية كبيرة، أغلبها من صنع كرمان، وكانت تملأ الفراغ بين الحائط والأعمدة بكل دقة. وفي دائرة كاملة رُصت أرائك ضخمة مكسوّة بنسيج من القطن أزرق اللون ومزينة بكشكشة صغيرة عند الأطراف، مستندة إلى الجدران. وفي ركن الغرفة ينتصب وجار لصناعة القهوة، وكانت به بعض قطع متقدّة من الفحم، وبالقرب منها إبريق للشاي وآخر للقهوة - أو كيتلي كما يقول العرب، وأعلى الوجار، على الحائط، عدد من الأرفف نُسقّ عليها جنبا إلى جنب صفان من دِلال القهوة النحاسية، أغلبها من نفس الحجم، وكلها تشعّ بريقا ولمعانًا. وأسفل هذين الرفّين كان هناك رفّان آخران عليهما عدد من أباريق الشاي الحديثة والمطلية بالمينا ذات الألوان الجذابة، وكانت هناك على الأرض مجموعة من فناجين القهوة وأكواب الشاي مُعَدّة للاستخدام، وفي أحد الأركان، تكومت مجوعة من البطاطين دون تنسيق كأن شخصا كان يستريح عليها أو يستخدمها للنوم. وكان لهذه الغرفة بابان، أحدهما عند أحد الأركان والآخر في مواجهته في المنتصف، إلى جانب ثلاث نوافذ ذات مصاريع خشبية أنيقة، قالوا لي فيما بعد إنها من الطراز الشائع في نجد.

واتخذنا مجلسنا أنا وحمده إلى جانب النار في الركن، وكنت مندهشة لطول الفترة التي نقضيها دون أن يستقبلنا أحد. ثم دخلت سيدة، وكانت غير محجبة، يتدلى على جانبيها كمّان واسعان من ثوبها الأسود، بينما تحيط برأسها قطعة سوداء من نسيج فاخر، ويكتسي ذراعاها، من الكوع حتى الرسغ برداء داخلي من الحرير القرمزي يحيط بذراعيها بكل إحكام.

ونهضت واقفة، وبعد أن قبلتها، ألقيت عليها التحيات العربية المعتادة. وعندما جلست، ظهرت سيدة أخرى دخلت من الباب الآخر. ونهضت واقفة وكررت ما سبق أن فعلته مع السيدة الأولى، ثم مرة ثالثة عندما دخلت سيدة أخرى. وراحت السيدات الثلاث تمطرنني بالأسئلة:

"كيف حالك؟ وكيف حال أطفالك؟ نأمل ألاّ تكوني مرهقة بعد رحلتك؟ متى وصلتِ ؟ومن أين جئت؟ وإلى أين أنت ذاهبة؟ ومَنْ هذه؟ "خادمتي".

واكتشفت أن أول من دخلت كانت منيرة، زوجة الملك المفضّلة المعروفة باسم أم منصور، وكانت الثانية فتاة رقيقة جدًا، مستديرة الوجه، لا تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها وترتدى ثوبًا أرجوانيا فوق رداء داخلي مزركش.

وسألت: "ما اسمك"؟.

وأجابت عنها الأخريات: "هي أم طلال، وأيضا أم نواف".

"هل كان ابنك إذن هو الذي جذب لحية الملك في المجلس بالأمس؟".

ولم تكن تعرف، لأنها لم تسمع عمّا حدث أثناء لقاء زوجي بالملك.

أما السيدة الثالثة فكانت تدعى بزه Beze ثم دخلت رابعة، وكانت من نوع مختلف عن الأخريات، بشوشة الوجه وشعرها بنيّ اللون تقريبًا، وتلتف في ثوب أسود فوق رداء داخلي يجمع بين اللونين الأرجواني والذهبي.

وسألت أمّ منصور: "ومن هذه؟".

"إنها موضي Mudhi، وشهرها رمضان" (أي ستضع مولودا في رمضان).

"أدعو الله أن يهبك ولدًا"، قلت ذلك هامسة بينما أخذت حمده تردد أكثر من الكلمات الجميلة والمهذبة لعدة دقائق.

وفي هذه الأثناء دخلت جارية أخذت تعدّ لنا القهوة والشاي في صمت وهدوء. وشربنا جميعًا. كان المكان هادئًا وبعيدًا عن تلك النسوة السائلات والمتوسلات اللاتي تراهن عند الأبواب والنوافذ. ومن بعيد، جاءنا صوت طفل يبكي، وهمست أم منصور بصوت خفيض في أذن بزه لتذهب لإسكاته، فنفذت ما طلبَ منها على الفور، ولم نعد نسمع أي بكاء.

ودار البخور وقُدّم لي أكثر من مرّة. وكانت الجارية تحمله في إناء تحت كمّي ثوبها العربي وملفعها.

وقالت السيدات: "يجب أن تجلسي القرفصاء فوقه. الرجال يحبّون ذلك. وسوف يحبّه زوجك إذا فعلتِه".

وسرّهن كل السرور أن امتثلت لما طلبن.

كانت الخطوة الصحيحة بالنسبة لي الآن هي أن أستأذن وأنصرف، ولكنني ترددت، كانت الساعة لا تتجاوز العاشرة وخمسة عشر دقيقة، وقيل لي إنه لو كان في استطاعتي أن أظلّ معهم حتى الساعة الحادية عشرة فربما أتيحت لي الفرصة، وقد تكون الفرصة الوحيدة، للقاء الملك، الذي يأتي إلى الحَرَم دائمًا في هذه الساعة؛ ولذلك شعرت بارتياح شديد عندما قالت أم منصور للجارية، هامسةً، أنها تعجّلت بإحضار البخور. وجلست، وكلّي إصرار على أن التقى

بالملك.

وبدا القلق على أم منصور، وأخذت تهمهم كما لو كانت تحدّث نفسها: "أين؟ أين منصور؟ لست أدرى، لم أره منذ صباح الأمس".

وجاء الرد: "إنه مريض بالحمّى في منزله".

"لا يمكنني أن أنتظر أكثر من ذلك، لابد أن أذهب إليه".

وفي صمت، نهضت وانصرفت، وسألت الأخريات عمن أخبرتني بأن منصور كان مريضًا منذ يومين.

وقلت، في محاولة لإجراء حوار معهن: "هل تذكرن الدكتور طومس. إنه الآن في الكويت".

وأجابت أم طلال: "نعم. نعم. إنه ولد لطيف. ولكنني سمعت أن الدكتور دامي توفي، فهل هذا صحيح؟.

"لا أعتقد ذلك، لأنه مرّ بالكويت منذ بضعة أيام. هل تعرفين زوجته، مسز دامي؟.

"نعم، تمام المعرفة. وفي آخر مرّة أحضرت معها طفلها الصغير، روب روى"

وقلت: "أنا أعرفها منذ فترة طويلة، إنها لطيفة جدًا".

وحدثنني عن رحلتهن إلى مكة كل عام، وكيف تغادرن الرياض في توقيت معين ثم ينزلن بالخيام للحصول على قسط من الراحة بعد عدة ساعات.. الخ، إلى جانب كافة التفاصيل الأخرى المتعلقة بالرحلة، ثم انتقلن إلى الحديث عن السائقين وكيف ينبغي عليهم قيادة سياراتهم ببطء شديد وفي حذر، وإلا تعرضوا للضرب إلى أن يقعوا على الأرض جزاء لهم للإسراع على هواهم.

وقالت أم طلال: "ونحن لا نقول لهم أي شيء، وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نصمد ونتماسك. وأطفالي يثيرون قلقي ومخاوفي دائمًا، فهم يجلسون، ويريدون دائمًا الوقوف على المقعد إلى جوار السائق".

وسألت: "هل جاءت سيدة إنجليزية لزيارتكن في العام الماضي؟" - وكنت أعنى كونتيسة أطلون.

"عندما خرجنا ونزلنا في مخيم في خفس Khafs جاءت سيدة لا تعرف العربية، وبدا عليها الأسف الشديد، واستخدمت الإشارات لتفهمنا أنها كانت

تفضّل أن يقطع لسانها لأنها لا تستطيع أن تتحدث معنا".

ودار الحديث بيننا دون كلفة، حول أمريكا، ثم سألتني عن "الأرض التي نهارها ليل. ووصفت لهم المناطق الشمالية بالقرب من القطب، ولكنني أدركت فيما بعد أنهن يقصدن استراليا حيث الوقت هناك ليلاً بينما وهو لدينا نهاراً.

وكان اللاسلكي مصدر بهجة كبرى بالنسبة لهن. ففي كل صباح، يسمعن دقّات الساعة الضخمة الشامخة فوق المجلس في لندن وهى تعلن الوقت. وكان الاستماع إلى الموسيقى التي تذاع من لندن في الساعة الرابعة بالتوقيت العربي (العاشرة صباحًا) متعة حقيقية بالنسبة لهن، وكذلك كان الاستماع لإذاعة القاهرة.

"ولكنهم عندما يتلون القرآن من هناك، لا نفهم لغتهم العربية جيدًا".

ثم جاءوا بصينية كبيرة عليها صحائف من الفواكه المعلّبة والبسكويت منسقة تنسيقًا غاية في الأناقة. والتففنا جميعًا حولها واستمتعنا بتناولها. وكنّا نستخدم الملاعق بينما تحمل الجارية إناءً وحوض من الفخار لغسل أيدينا قبل تناول الطعام وبعد تناوله.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، والسيدات رائحات غاديات حتى لم تعد معنا إلاّ واحدة منهن فقط تتولى ما يقتضيه واجب ضيافتنا. ثم دخلت أم طلال وسألتني: "هل تريدين لقاء الملك؟".

"هل هذا ممكن؟ كم أودّ ذلك".

واعتقدت أن اللحظة الكبرى قد حانت. وتركتنا أم طلال. وأخبرتني الأخريات بما عليّ أن أفعل عندما يدخل الملك.

قلن: "سوف يأتي هنا، يجب ألاّ تستري وجهك، وعليك أن تهبيّ واقفةً وتتجهين إليه وتقبلين يده. وعندئذ سيسألك عن أحوالك، وكيف كانت رحلتك، وسيعبرّ عن أمله في أن تكوني في أحسن حال وأن كل رغباتك تنفذ في قصر البديع. ويجب عليك أنت أيضًا أن تسأليه عن صحته وصحة أسرته، ثم سينصرف بعد ذلك".

وطلبت منهن تكرار هذه التعليمات على مسامعي خشية أن أرتكب أي خطأ. وفجأة، غطت السيدات وجوههن بالأحجبة عندما دخل أفندي سوري "أبيض" شديد البياض، اكتشفت فيما بعد أنه الدكتور مدحت، شيخ الأرض،

شقيق فخري أفندي شيخ الأرض الذي أقبل للقائنا ونحن نقترب من الرياض، كان الدكتور مدحت هو الطبيب الخاص للملك، وأخذ يكرر علينا، في لهجة سورية وكلماته تتابع في سرعة شديدة، ما ورد في رسالة وصلته من جلالته، لم أفهمها جيدًا، ولكنني استوعبت جوهر ما يقول، وكان يعنى أن الملك لم يعرف أنني في زيارة للسيدات في ذلك الصباح، وأنه أسف جدًا لعدم تمكنه من لقائي، وأنني إذا أردت زيارة نورا، شقيقة الملك، فسوف يمكنها استقبالي عند الظهر، ووعد الدكتور مدحت بأن يسعى لتحقيق ذلك.

ثم عادت السيدات فكررن ما سبق أن قاله ولكن في لغة عربية أكثر سهولة.

وقال: "سوف تستقبلك الشيخة نورا في قصرها بعد صلاة العصر. سيارتك في الانتظار". وقلت: "يجب أن أنصرف".

فصاحت السيدات: "القهوة – القهوة، لابدّ أن تتناولي المزيد من القهوة".

وبعد أن تناولت ثلاثة أقداح، قبلتّهن مودّعة. واصطحبني الدكتور مدحت ليهبط السلم وتولى أحد الخدم من الرجال مرافقتنا إلى أن وصلنا إلى السيارة. وركبنا، وعدنا إلى قصر البديّع، وأنا في حالة من الإحباط الشديد لضياع الفرصة الوحيدة للقاء الملك.

وما أن حلّ موعد صلاة العصر حتى خرجت متوجهة إلى قصر نورا بصحبتي أيضًا حمده وسالم المزين، وبعد حوالي نصف الساعة وصلنا إلى المنزل؛ ونظراً لما كان يجرى فيه في ذلك الوقت من تشييد لجناح جديد كبير استخدمت لبنائه قوالب اللبْن التي تناثرت هنا وهناك، كان المشهد يثير شيئًا من الارتباك والتعجب، وعلى أي الأحوال. فسرعان ما أقبل عبد صغير واقتاد سائقنا إلى المدخل، حيث ترجّلت، وحمده تتبعني، وبعد أن اجتزنا المدخل واتجهنا نحو اليسار، وجدنا أنفسنا أسفل شرفة تستند إلى أعمدة تحيط ببهو صغير.

كان عدد من النساء في الانتظار لاستقبالنا، وتبادلنا التحيات العربية المعتادة، وجلسنا أرضًا على السجاجيد، واستندت إلى حشيات ضخمة نسقت أسفل الجدران، وأخذت أفكر أين تكون نورا، هذه السيدة الرائعة التي سمعت عنها الكثير، والتي يقال إنها تزيد طولاً عن شقيقها، الملك عبدالعزيز، لابدّ أنها ستصل بعد قليل، أم أن كل ما سمعته إنما هو محض خيال وأن السيدة الفاتنة المهذبة الجالسة إلى جواري الآن وتتحدث وكأنها زوجة شيخ من كبار شيوخ

البادية. وتستخدم تلك اللغة العربية البدوية الجميلة والجذابة. هي نورا الشهيرة. وخطرت لي فكرة "يا حمده. إنني سعيدة للقائك. لقد سمعت عنك الكثير". وابتسمت. وهمهمت بكلمات رقيقة في صوت خفيض. وكان كل شيء على ما يرام. والآن. عرفت أين أكون. وبدأت تلقى على حمده وابلا من الأسئلة في صوت أكثر حدة.

"من أنت؟ ومن أين جئت؟ وما اسمك؟ وما اسم أمك واسم أبيك؟ ...الخ.

وأخذت حمده تجيب. فقالت: إنها أم أطفالي. وإنه لا جدوى من السؤال عن اسم أبيها أو أمها. أو متى جاءت.

وقالت: لن تعرفيهن.

وأخذت نورا تلح. وصوتها يزداد حدة وخشونة: خبريني. خبريني.

وقيل لها كل ما أرادت أن تعرفه عن حمده. وبعد أن رضيت عن هويتها. سألت: كيف الحال في الكويت؟ هل فلانة وفلانة لا يزالون على قيد الحياة؟.

وقلت: مضى وقت طويل منذ كنا هناك يا نورا.

وعندما استولى أخوك على الرياض. هل تركك في الكويت؟

"نعم. ثم أرسل لي بعد ذلك للمجيء إلى هنا".

ثم قدّمتني لفتاة لطيفة ممشوقة القوام تجلس في مواجهتنا: "هذه ابنتي الجوهرة. زوجة فيصل بن عبدالعزيز".

وتبادلنا الابتسامات.

وقلت صائحة: "ما شاء الله يا نورا، أنتِ مازلت بنتًا، كيف يكون لك ابنة في مثل هذه السن؟ إنكما تبدوان كالشقيقتين!".

فقالت نورا: "لقد كنت مريضة جدًا ولازمت الفراش لمدة أربعة أشهر بسبب الرحلة. ولكن الحمد لله استعدت صحتي".

وقلنا جميعًا في همهمة: "الحمد لله".

وسألت: "من تكون السيدتان الأخريان؟".

"إنهما زوجتا ابني محمد"، ثم أضافت، إنه خرج في رحلة للصيد لعدة

أيام مع زوجها، سعود آل عرفة، المعروف باسم سعود الكبير.

وقالت: "يجب أن تأتى معنا إلى مكة".

"كيف يتسنى لي ذلك وأنا من الكفار"؟.

"يجب أن تكوني واحدة منا وتصبحين مسلمة. يجب عليك أداء الصلاة كما نفعل حتى يمكنك الانتقال إلى جوار الله مباشرة عند وفاتك. أنني لا أطيق أن أتصور أنك ستخلدين في النار. قولي إنك ستفعلين. قولي إن شاء الله".

والتزمت الصمت وأنا لا أدرى على وجه الدقة ماذا عليّ أن أفعل. بينما تكاد تمسك بي وتهزني هزًا.

"هيا: قولي إن شاء الله".

وهمهمت: "إن شاء الله".

وتوجهت نورا بحديثها إلى حمده وطلبت منها أن تعمل على أن أكون من المؤمنات حقا.

وقلت: يا نورا. فلنجعل زوجي يسلم أولاً. رغم خوفي من أنه سوف يقدم في هذه الحالة على الزواج من فتاة أو فتاتين من جميلات البدو.

حسن لا تحملي همًا. إنهم جميعًا يفعلون ذلك. ولكننا لا نبالي. إنه شيء جيد أن يكون للرجل عديدٌ من النساء. ألم تتزوج ابنتك بعد؟

كلا: إنها في المدرسة تتعلم الكتابة.

لماذا عليها أن تتعلم؟

وهنا تدخلت الجوهرة. مازحة وقالت:

أنا أعرف. نساؤكم لسن مثل نسائنا. فإذا لم تتزوج المرأة عندكن، وجب عليها أن تسعى لكسب رزقها.

وقلت: هذا صحيح. إنه يكتب علينا أحيانًا أن نجلس في انتظار من يتقدم لطلبنا للزواج، وكم من فتاة يفوتها القطار وتظل بلا زواج.

واقترحت نورا، دعي ابنتك تتزوج واحدًا منا.

ثم أخبرتها عما حدث ذات يوم عندما جاء أحد شيوخ البدو ليطلب يدها، وكان قد قال: حددوا عدد الجمال، وسوف أعطيها لكم، وبعد أن فكرت

هنيهة. أجبته قائلة: أعطني كل الجمال الشرف. وكنت أعلم جيدًا أن الملك كان قد أخذها كلها لتوه من قبيلته مطير.

وانصرف حزينًا إلى حدٍ ما. ولكنه مازال يفكر فيها ويسأل عنها.

ورنت دقات الهاتف، ودخلت جارية وفتحت صندوقًا صغيرًا مدبب الغطاء. كان مثبتًا بالحائط فوق رأسي. وبدأت تتحدث وتضحك. ونقلت لسيدتها بعض ما سمعت. ثم أجابت بالرد.

وقالت معترفة. مازالت أعصابي لا تتحمل الهاتف.

وقالت نورا: لماذا؟ إنه جيد جدًا. ولست أدرى كيف يمكننا أن نتصرف بدونه.

وأثناء هذه المحادثات كانت تدور علينا فناجين القهوة. وأكواب الشاي.

وقالت: الشيوخ يأتون هنا دائمًا بعد الظهر. ولذلك أتوقع وصولهم بعد فترة وجيزة. فلنذهب إلى الجانب الآخر لنتناول بعض الفاكهة حتى ننتهي قبل حضورهم.

واصطحبتني لنختار بهوًا نظيفًا أرضيته من الطين الجاف. إلى ركن في الشرفة المواجهة. حيث وضعت على قطعة مربعة من النسيج الأمريكي المزخرف أطباق تحتوى على ثمرات الكمثرى. والخوخ. والأناناس. والبسكويت والفاكهة الدمشقية. ومددنا أيدينا وبدأنا نتناول قطع الفاكهة باستخدام الملاعق التي قدمت لنا. وغمرنا إحساس جميل بالانتعاش والبهجة.

وسألتني: لماذا لا تأتين عندما يكون لدينا فاكهة طازجة؟ منذ شهر فحسب كانت جميلة جدًا.

وقلت لهن: لقد عدت لتوي من إنجلترا، ولذلك لم أتمكن من الحضور قبل ذلك الموعد.

وما كدت أنتهي من تجفيف يديّ، حتى سرى في الجو شيء من التوتر ووصلت إلى مسامعي كلمة "الشيوخ".

وقالت لي نورا: "تعالى، تعالى"، ثم اندفعت لتعبر البهو لتحية شقيقها.

كان الملك يجلس الآن على مقعد كبير في نفس المكان الذي كنا نجلس فيه منذ قليل، وكان ابنه الأكبر، الأمير سعود يقف بالقرب من المدخل، ووقف

عبدالعزيز العظيم ليحييني، وعلى وجهه ابتسامة رقيقة.

وكرر عدة مرات باللغة العربية: كيف حالك؟

وبعد أن أجبت بالعربية وقلت: وكيف حالك؟ باللغة الإنجليزية موجهًا قولي للأمير سعود، دعاني الملك للجلوس. وجلست أرضًا على يمينه، بينما جلست شقيقته عن يساره، وبدأت نورا تروى له كل ما قلته لها وكيف جعلتني أعدها بأن أصبح من أتباع محمد وأن أتوجه إلى مكة.

وقلت: "يا عبدالعزيز: إنك ستقطع رقبتي إذا ذهبت، أنا الكافرة، إلى مكة. وضحك وضحكنا لهذه الملاحظة، وسألته نورا: من هو زوجها؟

ديكسون، صديقي منذ سنوات عديدة.

وقالت نورا: يبدو أنها تعرف كل شيء، وقد طلبت منى السماح لها بزيارة البوابة الكبيرة لقصر عجلان، والتي لازالت رأس الرمح مثبتة بها.

بالطبع يجب أن تزورها، ولكن من أين حصلت على كل ما لديها من معلومات؟.

وهنا نظر إلىّ الملك وضحك.

وأجبت: أنت تعلم خيرًا منى أيها الملك، وفهم ما أعنى.

ألم تقومي بزيارة قصري الجديد بعد؟ لابد لك من زيارته.

وهمهمت، أطال الله عمرك.

إنه شخصية عظيمة، أما سعود ابنه، الذي يقف هناك على بعد عدة ياردات منها، فيبدو لا شيء بالمقارنة به. وقالت نورا: لقد قالت لي أنني أبدو كفتاة صغيرة، وكأنني شقيقة ابنتي.

وصحت: حقا يا نورا، لو أن زوجي طلقني في يوم ما فسوف أحضر على الفور لأعيش معك دائمًا، أريد أن أظل شابة مثلك، إن سرعة الحياة وهديرها في الغرب يجعلنا نشيخ مبكرًا.

ومرة أخرى ضحك الملك من كل قلبه، ثم نهض وانصرف، وبعد أن فارقنا جاءني الأمير سعود واقترب منى، ولفت نورا ذراعها حول رقبته وسألتني وهى مزهوة كل الزهو :كيف ترين سعود؟ مثل والده؟

وأجبت: نعم، وكم هو ممشوق القوام!

وفي بطه، قال بالإنجليزية، كيف حالك؟

حسن جدًا، شكرًا، هذا رائع، أنني أرى كيف تعلمت شيئًا من الإنجليزية في لندن.

لم يفهم أي كلمة مما قلت، وبضحكة مرحة وهزة من ورأسه جرى مسرعًا ليلحق بوالده الملك.

وجلسنا مرة أخرى، وجاءت القهوة والشاي.

وأقبلت سيدة بدوية نحيلة القد فقمن جميعًا لتحيتها.

وقلن: هذه زوجة الملك.

وقالت محتجة، وهي تغطي وجهها في خجل، كلا! كلا!

وقالت نورا: بل هذا صحيح، وهي شقيقة الشيخ فواز من الرولة.

كان الوجه الصغير المستدير مغطى بالوشم، وكذلك يديها وقدميها، وبدت كما لو كانت غريبة بين هذه الوجوه الناعمة البيضاء كالحليب للسيدات الأخريات، كانت يدها متورمة وكان الجميع يقدمن لها النصائح لعلاجها.

وطلبت من نورا: هل تسمحين لي بالانصراف.

مسموح لك بذلك، وسوف تذهب جاريتي لتتجول معك في جميع أنحاء القصر الجديد لتشاهدي كل شيء، ولكن أسرعي قبل أن تغيب الشمس وتغلق البوابات.

وانصرفنا، واتجهنا صوب قصر الشمسية Shamsiyah.

اللقاء الرسمي الثاني مع الملك:

عندما كنا في الرياض، تجولت أنا وزوجتي في جميع أنحاء المدينة، وضواحيها، دون أي عائق، وقمنا بزيارات لمدينة الدرعية القديمة، العاصمة السابقة لنجد، ولمحطتي التلغراف والجراج الملكي، ومحطتي الطاقة، وقصر الشمسية الجديد المنيف، ومضمار السباق، وحصن عجلان الرشيدي الذي قبض عليه ابن سعود عندما احتل الرياض في انقلابه الشهير عند بداية تأسيسه لدولته، كما قمنا بجولة في الأسواق.

وعندما علم الملك أنني أتجول في الأسواق صباح يوم ٢٧ أرسل في

استدعائي ووجدته جالسًا في قاعة للمجلس شبيهة بالقاعة التي التقيت به فيها المرة السابقة. وبعد التحيات التقليدية والسؤال عن صحة زوجتي، سألني عما إذا كنت قد زرت الدرعية، وعندما رددت بالإيجاب، قال إنني أستطيع أن أذهب إلى أي مكان في عاصمته وأن ألتقط كل ما أشاء من صور فوتوغرافية.

أنت واحد منا يا ديكسون، ولك الحرية لأن تفعل كل ما تريد في بلادنا، تذهب وتجيء أينما شئت، وكلما رغبت.

وعندما شكرته، واصل حديثه فقال:

ولما كنت تريد بلا شك أن تتوجه إلى الهفوف والقطيف، بعد مغادرتك الرياض، لترى آبار النفط هناك، فقد أبرقت إلى ابن جلوى وطلبت منه اتخاذ كل الإجراءات اللازمة.

ووجدت بعض الصعوبة في أن أبين له أن إجازتي لا تمتد إلا لبضعة أيام، وأنني لن أتمكن من القيام بهذه الزيارة. وبعد أن تليت علينا الأنباء العالمية التي وردت من خلال الإذاعة، وباللغة العربية، انصرفت.

وكان من المقرر أن تبدأ رحلة العودة إلى الكويت بعد الغداء يوم الخميس، ٢٨ وفي الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم شهدنا العرضة الكبرى، أو رقصة الحرب، والتي استمرت لمدة أربع ساعات في الميدان الكبير أمام القصر، شهدتها زوجتي من جناح سيدات الأسرة المالكة حيث جلست مع نورا والأميرات، بينما شهدتها وأنا أجلس على مقعد أمام الطابق الأرضي بالقرب من مدخل القصر حيث تولى فؤاد حمزة العمل على راحتي، وفيما يلي وصف زوجتي لهذه الرقصة.

رقصة الحرب: بقلم فيوليت ديكسون

اتخذت الإجراءات لتقديم العرضة في اليوم الرابع لزيارتنا، ودعاني الأمير سعود لمشاهدتها من النوافذ العليا للقصر. وبعد ساعة من شروق الشمس، توجهت أنا وحمده إلى القصر في سيارة خاصة، ودخلنا من نفس البوابة التي دخلنا منها من قبل. كانت الساحات الصغيرة تزدحم بإناث الخيل، وكلها مغطاة بسروج مزركشة بهيجة من الصوف الملون. وشققنا طريقنا عبر هذا الحشد، ثم صعدنا درجًا يمتد إلى جانب العديد من الشرفات، وعبر العديد من الغرف الكبيرة منها والصغيرة، إلى أن وصلنا إلى غرفة صغيرة كانت نوافذها مزدحمة بعديد من

السيدات، تعرفت من بينهن على بعض ممن استضفنني ورحبن بي صباح الثلاثاء. وقلن لي: هنا مكان جيد.

ونظرت من النافذة الصغيرة فرأيت أسفلها مباشرة في الميدان الفسيح، مجموعة من الرجال المسلحين في ثيابهم البيضاء وجميعهم يذرعون المكان جيئة وذهابًا وهم ينشدون ويترنمون بالأغاني.

وكانت هناك قطعة طويلة من نسيج أبيض ثُبتت على امتداد هذه النوافذ لتغطيها تمامًا. وكانت النساء جميعًا متجمعات خلفها وكن قد قمن أيضًا بتغطية وجوههن بأحجبة كثيفة. وفجأة دُفعنا أنا وحمده دفعًا إلى الخارج. وقالت إحداهن، وكنت لا أعرفها: تعالى، تعالى.

ودون أن نعرف لماذا يدفع بنا لتغيير موقعنا أو إلى أين نتجه، تبعناها عبر الجسر الذي يمتد بطول البهو أمام المزيد من الغرف إلى أن وصلنا إلى غرفة بالغة الضخامة والاتساع. وهنا أيضًا كانت النوافذ تعج بالسيدات. وكانت الوسائد الكبيرة المنسقة أسفل الحائط قد جمعت في أكوام حتى يسهل على كل منا أن تركع عليها دون مشقة لنرى ما يجرى في الخارج. وكانت لكل نافذة قضبان حديدية وفوالج خشبية مطلية بطلاء مبهج، كما كانت الحال مع الأبواب الأكبر حجمًا، وعليها زخارف من النمط الشائع في القصيم. وكان السقف وجميع العوارض مغطاة بنسيج أبيض اللون، كما كانت جميع النوافذ مغطاة أيضًا بنفس النسيج. ولست في حاجة إلى القول بأننا عندما غادرنا ذلك المكان كانت كل هذه الأشياء تمزقت إربًا وألقى بها على الأرض!

كانت الساعة الآن حوالي الثامنة، وكانت الطبول تدق أسفل المبنى، والرجال يرقصون وهم يرفعون السيوف التي في أيديهم إلى أعلى، بينما تقابل صفوف أخرى من رجال آخرين في حركة لا تتوقف إلى الأمام وإلى الخلف، وأيديهم متشابكة وينشدون أغنية من أغاني الحرب تتحدث عن الحب والشجاعة، وعلى الفور، ظهر الأمير سعود أسفل الموقع الذي نطل منه، يرتدى زيًا من الحرير الأبيض، وخنجر ذهبي يتدلى من حزام يحيط بخصره، وعلى رأسه عقال ذهبي اللون فوق كوفية (أو غترة) من الحرير الأبيض. وكان معه حوالي سبعة وعشرون غلامًا، أبناء الملك نفسه، وأبناء الأمير سعود بن جلوي حاكم حائل، وإلى جانب عدد آخر من الصغار من أسرة آل سعود المالكة.

وأصبح الوضع يتطلب الآن نظامًا أدق وتسوية دقيقة للصفوف، وأخذ

سعود يدفع بالبعض إلى الوراء، ويطلب من البعض الآخر التقدم إلى الأمام، إلى أن شارك الجميع، ويتراوح عددهم بين السبعمائة والثمانمائة، في تكوين تشكيل جميل ومنسق، واستمرت الرقصة، واشترك فيها ابن سعود، يحيط به طوال الوقت رجال يدقون على طبول صغيرة بعصيّ قصيرة من الخيزران، وتميز أحد قارعي الطبول بشكل خاص بطربوشه الأحمر وزره الأسود، والمثبت فوق رأسه بشريط من نسيج يمتد أسفل ذقنه.

وأقبل الملك من القصر واتخذ مجلسه على دجّة عالية شيدت من الحجارة عند الطرف الشرقي من الميدان، يلتف من حوله المشايخ، الزعماء الروحيون لبلاد الوهابيين. وفي أناة أخذ الراقصون جميعًا يتحركون في اتجاه الملك، الذي انضم إليهم، هناك على بعد، والسيف في يده يرتفع عاليًا فوق الجميع، يرقص معهم لمدة لا تقل عن العشرين دقيقة. وكان من الصعب عليّ أن أراه من موضعي، وكان إلى يسارنا مباشرة، حيث تحول القضبان الحديدية للنوافذ دون الرؤية الواضحة. ولم أتمكن من مشاهدة ما يجرى إلا بعد أن أبعدت ملحفتي وأغمضت عيني اليسرى تمامًا.

وبعد فترة بدت طويلة للغاية، وكانت ركبتايّ كلّتا لطول ركوعي، رأينا الملك وأبناءه يتحركون في خطى بطيئة بين الراقصين متجهين إلى مدخل القصر، وهنا رأيناهم بكل وضوح وقد تجمعوا أسفل النافذة، ومكثت أطل عليهم إلى أن توارى الملك داخل القصر. وعندما بارحت النافذة لم يكن بالغرفة سوى حمده واحدى الجواري، بعد أن هرع الجميع إلى الخارج، وبدا وكأن الجارية تزمع الانصراف هي الأخرى، ولكن حمده التي اعتراها شيء من الخوف استوقفتها وتوسلت إليها: أرجوك لا تنصرفي، دلينا على الطريق إلى الخارج، لأننا لن نهتدي إليه بمفردنا بأي حال.

وسرنا في إثرها وهي تجتاز الممرات، وعندما وصلنا إلى الجسر رأينا رجلاً تركز كل اهتمامه في إرجاع جميع النساء إلى الأجنحة المخصصة لهن، وسألنا: هل أنتن آخرهن؟ أسرعن أرجوكن.

كان الوضع أشبه بما ورد في قصة أليس في بلاد الأعاجيب!

ومررنا أمام عيادة الدكتور مدحت فوق البوابة والرجل مازال يلح قائلاً: من هنا، من هنا، إلى أن وجدنا أنفسنا أخيرًا في غرفة استقبال أم منصور، وجلسنا

لبعض الوقت بينما إحدى الجواري تجيء لتطل علينا ثم تمضي، إلى أن انضمت إلينا أم طلال والسيدة التي تدعى بزه، ثم أقبلت نورا في إثرها، كن جميعًا رقيقات ودوداتٍ، وتمنين أنٍ أكون قد استمتعت بالعرضة، وتمكنت من مشاهدتها. وقلن لي إنها قدمت احتفالاً بإتمام أحد الأولاد الصغار حفظ القرآن، أي أنه أصبح خاتما للقرآن كما يسمونه. وقالت نورا، إنها بحثت عني ولم تجدني لأنها كانت تشاهد الرقصة من غرفة في الطرف الآخر بعيدًا عن الموقع الذي كنت فيه.

ثم تحولت نحو الأخريات وسألت عن اسم الشخص الأجنبي الذي قبل يد شقيقها في الميدان، وهل هو زوجي؟ وأجبتها: كلا إنه ابن شيخ دبي.

ولم تسأل من أين جئن بهذه المعلومات. وسألتها: ألم تر ديكسون؟

بالطبع رأيته، أبلغيه أفضل سلامي.

وهو أيضًا يبلغك المزيد من السلامات يا نورا.

وهنا أخذت تمعن النظر في قرطي وأبدت إعجابها به فنزعته وقدمته لها لتشاهده عن كثب.

وسألت: من أين جئت به؟

من القدس، منذ عدة سنوات، وهو من صنع بخاري. بعيدًا، بعيدًا فيما وراء فارس.

وكم تكلف؟؛

أعتقد ثلاثة جنيهات.

ليس غاليًا.

وبدأت تتفحص التطريز الموشى بخيوط الذهب الذي يزين عباءتي الحريرية السوداء، وأعجبتها الزخارف المشابهة لأوراق النباتات. وقلت لها إن هذا النوع من الأقمشة ورد حديثًا إلى أسواق الكويت، وإنني أستطيع أن أرسل إليها بعضًا منه عند عودتي، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث حول مسائل أخرى إلى أن ظهر د. مدحت عند الباب، وقال إن الملك سوف يستقبلني وطلب مني أن أتبعه، وسرت معه من ممر إلى ممر ثم استدرنا إلى اليمين حيث تركني عند مدخل شرفة أخرى.

كان هناك رجلاً يرتدى دشداشة بيضاء اللون من القطن وعلى رأسه كوفية

بدون عقال، يجلس على مقعد عند الطرف الآخر من الممرّ ووجهه في غير اتجاهي، وللحظة لم أدرك أن هذا هو الملك، ثم نهض واقفًا ورحب بي ودعاني إلى الجلوس على مقعد إلى جانبه، وبعد الأسئلة المهذبة المعتادة عن الصحة ...الخ، طلب ماءً، فأقبلت جارية وقدمت له زجاجة فشرّب كل ما فيها. وكان الإرهاق باديًا عليه، بعد مشاركته في رقصة الحرب لأننا كنا وقت الظهيرة تقريبًا، ولكنه تحامل على نفسه حتى يلتقي بي قبل أن أغادر عاصمته.

وأخذ يحدثني لبعض الوقت عن الأسرة وكيف يصر على أن يبدأ جميع الأولاد ركوب الخيل في سن مبكرة، وأن يتعلموا الرماية.

وقال: يجب أن يصبحوا جميعًا جنودًا.

وطلبت منه أن يسمح لي بزيارة الصمان في الربيع لأرى الزهور، فابتسم وأجاب، إن شاء الله، ولم أعرف إن كان عليّ أن أنتظر إلى أن يأذن لي بالانصراف أو أبادر أنا بالاستئذان، ثم رأيت الدكتور مدحت يسير في نهاية الممر، وبعد أن شكرت الملك مرة أخرى لكل ما أحطنا به من رعاية وعطف انصرفت، وعدت مع الطبيب إلى الغرفة التي ترك فيها السيدات.

وبدأ الدكتور مدحت يحدثني باللغة الفرنسية، وشاركت في الحديث طبيبة سورية كانت قد أقبلت إلى هناك. وتركتنا سيدات الأسرة المالكة مرة أخرى، وأخبرني الدكتور مدحت بأنه التقط عددًا من الصور الجيدة، للرقصة، وسألني ما إذا أستطيع أن أقوم بتحميض الفيلم في الكويت ثم أعيده إليه، وقال إنه يعتقد أن زوجي لم يلتقط أي صور وأنه يمكنني أن أحتفظ بنسخ خاصة لي إن أردت، ووافقته بكل سرور، وكانت هناك لقطتان متبقيتان في الفيلم، فكانت إحداهما من نصيبي وأنا أجلس مع حمده داخل الغرفة، بينما التقطت الأخرى في ضوء الشمس أمام أحد الأبواب الجميلة.

وأضاف د. مدحت: للأسف لم أتمكن من التقاط أي صورة للملكات.

وهناك دخلت موضي التي سبق أن عرفنا أن ستضع مولودها في شهر رمضان، واستأذنت منها للانصراف، وأمرت إحدى الجواري بدعوة بقية السيدات لتوديعي، وبعد بضع دقائق جاء الرد بأنهن مشغولات ولا يمكنهن الحضور، فتوجهنا إلى السيارة التي كانت في انتظارنا أسفل الدار.

وداعًا للرياض:

قبل اللقاء الأخير لزوجتي بابن سعود، كنت أنا قد التقيت به، فعندما أحس فؤاد حمزة أن العرضة تقترب من نهايتها، اصطحبني إلى غرفته بالقصر، وعندما جلسنا نتناول القهوة، ظهر الملك فجأة بمفرده، وقد ارتفعت درجة حرارته إلى حدٍ ما وتقطعت أنفاسه، نتيجة لما بذل من جهد أثناء الرقص، وبعد أن استراح لبضع دقائق، أخبرني أنه سمع أننا نعتزم الرحيل بعد الظهر فحرص على أن يأتي لتوديعي.

وحكى لي وهو يضحك كيف التقى بزوجتي في قصر شقيقته وكيف حاول هو ونورا أن يقنعاها باعتناق الإسلام، ولكنها ترددت لأنها كما قالت تخشى أن تفعل أنت أيضًا نفس الشيء يا ديكسون ثم تتزوج ثلاث زوجات أخريات.

وأخبرني وهو لايزال يضحك من أعماقه عن تأكيد زوجتي له بأنه إذا عنّ لي طلاقها في يوم من الأيام، فسوف تأتي لتقيم مع نورا في قصر الشمسية.

وبعد أن انتهى من هذه الدعابة عاد مرة أخرى إلى القضية الفلسطينية التي لا مفر من إثارتها في كل وقت، وظل يتحدث لمدة نصف الساعة مرددًا كل الحجج والنقاط التي سبق له أن أثارها، ولكن بشكل أكثر حدة هذه المرة، وكان من الواضح أن القلق يستبد به فعلا خشية وقوع انشقاق بين العرب جميعًا في جانب والإنجليز في جانب آخر.

إن حكومتكم تحفر هوة سحيقة بينها وبين العرب، وإذا لم تكف عن الحفر، فسوف تبتلع الهوة الطرفين معًا. ومازال هناك جسر يمكن أن نعبر عليه هذه الهوة، ولكن الحفر المستمر سيؤدى إلى انهياره، وهنا ستكون نهاية أي صداقة عربية مع إنجلترا، أليست هناك من وسيلة لدفع حكومتكم للإقلاع عما تفعل؟

وواصل حديثه موضحًا كيف أن الأتراك كانوا في وقت من الأوقات أمة عظيمة وعرفوا كيف يتعاملون مع الأمراء العرب في شبه الجزيرة العربية بكل التقدير والتكريم، ولم يكونوا يستمعون لمشورتهم فحسب، بل كانوا ينعمون عليهم بالألقاب الرفيعة ويغمرونهم بالهدايا. كان ذلك أيام كان لدى تركيا رجالها العظام الذين يديرون شئونها، وأما فيما بعد، فقد فشل الأتراك في إنجاب رجال من هذا النوع فانتهى الأمر بهم إلى العجز عن الاحتفاظ بشبه الجزيرة العربية أو حتى باحترام العربي. وظهر المسئولون من النوع الرديء في كل مكان، وأخذوا يسيئون

لحكومتهم المركزية ويهزون مكانتها ويشوهون اسمها. وماذا كانت النتيجة؟ تهاوت تركيا وأصابها الضعف من الداخل، وذلك كله نتيجة لأخطاء المسئولين المحليين التعساء الذين لم تكن تحركهم إلا مصالحهم الخاصة، ولا يبالون بما يلحقونه بدولتهم من أضرار طالما أن في إمكانهم الحصول على الترقية بأبخس الأثمان وتحقيق الثروات بتلقي الرشاوى.

وقال الملك: وحكومتكم تحث الخطى اليوم في نفس الاتجاه الذي اندفع إليه الأتراك من قبل. وها هم مسئولون في المواقع الهامة يقتفون أثر أتراك الأمس ولا يقومون بواجبهم تجاه حكومتهم المركزية.

وهنا أشار الملك إلى خلع الشيخ عيسى بن على آل خليفة، حاكم البحرين، في عام ١٩٢٣، والذي أساء لإنجلترا في شبه الجزيرة العربية أكثر من أي إجراء آخر على مدى مائة عام.

وقال الملك: لم يكن الشيخ عيسى أبًا للخليج فحسب، وإنما ولشبه الجزيرة العربية كلها أيضًا. ونحن العرب، وخاصةً نحن وبيتنا، ننظر إليه بكل الإعزاز والتقدير والمحبة، وكان من الممكن أن نضحي بأرواحنا من أجله لو أنه أشار لنا بإصبعه الصغير وطلب المساعدة. ولكن ماذا حدث؟ لقد طرد من مملكته الصغيرة وهو الكهل الواهن الذي أربى على التسعين من عمره، ليموت منزويًا مهانًا وقلبه ينفطر ألمًا. وما هو المقابل؟ مجرد إرضاء الطموح الشخصي لنفر من المسئولين. إن مثل هذه الأشياء لينبغي عدم السماح بحدوثها، ويجب أن تختار حكومتكم مسئوليها على نحو أفضل من ذلك.

وواصل حديثه فقال إنه لهذا السبب طلب أن ترسل إليه حكومة صاحب الجلالة مسئولين يجرى اختيارهم بكل دقة، من وقتٍ لآخر ليستمعوا إلى ما يريد أن يقوله "من الرأس للرأس"، أي من خلال الاتصال المباشر. وبعد أن استمعت إلى عدد آخر من الاتهامات الموجهة ضد بعض المسئولين البريطانيين الآخرين في الخليج، والذين لا داعي لذكرهم، انتهزت الفرصة لأشكر جلالته لما أبداه من روح المودة والكرم تجاه زوجتي وتجاهي، وتأهبت للانصراف، وكان آخر ما فعله هو أن طلب أن تتلى عليه آخر الأنباء الواردة عن طريق وكالة رويتر في حضوري.

وقال: "أنا أعيش على الأخبار الواردة بالبرق هذه الأيام، لأن العالم كله يغلى وتنفجر فيه الأزمات في كل مكان، ويجب أن أكون على اتصال بكل ما

يجرى.

وانصرفت، وأنا أقدم كل آيات الاحترام.

كانت السيارات في انتظارنا في قصر البديّع استعدادًا لرحلة العودة، وتناولنا طعامنا، ونفحنا الخدم بعض المبالغ النقدية (وكان عددهم تسعة وعشرين، وودعنا الجميع، وسرعان ما ضاع صوت خرير المياه في السواقي التي أقيمت في الحديقة وراء القصر بين ضجيج سياراتنا وهديرها وشعرنا بالحزن.

رحلة العودة: بقلم فيوليت ديكسون:

لما كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف مساءً عندما بدأنا رحلة العودِة، أقمنا مخيمنا تلك الليلة بجوار آبار رُماح Ru'mah على بعد اثنين وتسعين ميلا من الرياض، كانت ليلة جميلة، وبدت الأرض من حولنا مليئة بجحور الجربوع رغم إنه لم يسبق لي أن رأيت هذه القوارض، وخرجت أتجول بعد أن حل الظلام وفي يدي مصباح (بطارية)، ولكنى لم ألتق إلا بطائر صغير بنى اللون يجثم في جحر صغير حفره لنفسه.

وشهدت تلك الليلة حادثًا طريفًا عندما تحطمت إحدى الأسنان الأمامية لسائقنا وهو يحاول التعامل مع قطعة عسيرة المضغ من اللحم، وابتلعها.

وفي الصباح، زرنا آبار الرماح والتقطنا عددًا من الصور الفوتوغرافية، وكانت هناك خمس آبار، كل منها على قمة تل طبيعي، وكانت الآبار المستخدمة بالفعل مكسوة من الداخل، بغلاف مشيد من الحجارة ويبلغ اتساع فتحة كل منها حوالي العشرين قدمًا، بينما يبلغ عمق الماء فيها خمسة وثلاثين باعًا، أي على عمق مائتين وعشرة أقدام. وكانت هناك حول البئر التي توقفنا لمشاهدتها خمس عجلات دوارة مثبتة فوق أعمدة غير محكمة فأخذت تترنح، ورأينا خمسة جمال، تمتطى النساء أغلبها، ترفع المياه بالسير أسفل المنحدر الطبيعي للتل. وكانت هناك مئات من الإبل جاءت لتشرب، والمكان كله يضج بأصوات البدو، وهم ينادون على بعضهم البعض للمجيء للحصول على مياه الشرب.

وخرجت في جولة لألقى نظرة على الضلة، وهي محفة كبيرة توضع على ظهر الجمل وتستخدمها النساء، وكانت مزركشة بأسلوب يبعث البهجة في

النفس استخدمت فيه المحارات والأصداف وقطع النسيج الملون، ويتدلى عند أحد جانبيها خاتم الأنف الذهبي الخاص بصاحبة الجمل، وهي حلية جليلة الشأن يزينها طاقم من الفيروز عند طرفها الأسفل وتتدلى منها سلاسل دقيقة الصنع. وكانت المرأة صاحبة هذه الحلية قد أنزلتها من مكانها من أجل رفع الماء، وعرضت عليّ أن أشتريها، ولكن لم تكن معي أي نقود، وكن جميعًا من قبيلة سبيع.

واجتزنا الدهناء مرة أخرى بكل سهولة، ملتزمين طوال الوقت بالطريق الرئيسي. وكان الأمر أكثر يُسرًا حتى من ذلك الطريق الذي يفضله السائقون والذي يستخدمونه في رحلاتهم الخارجية. وتوقفنا عند دحل الشامي، وعنده يتجه طريق الجمال إلى الأحساء، وللدحل فتحة صغيرة جدًا لا يزيد اتساعها عن الأربعة أقدام، وتشبه جوانبه الرخام المصقول، وبه آثار غائرة للحبال يصل عمق البعض منها إلى العشر بوصات. ولابد أن تكوينه يرجع إلى زمن سحيق، وأما إذا اعتبرناه نفقا من الأنفاق، فهو من أكبرها.

وكان توقفنا لثاني مرة بجوار دحل قديم مهجور يُعرف باسم دحل النخل، نظرًا لنمو نخلتين داخله. وعندما لاحظنا أن هذا الموقع يتميز بتوفر شيء من الظل، قررنا أن نتناول طعامنا عنده. وعثرت في هذا المكان على عدد من الأشواك الحادة للقنافذ، وريشة بومة، وبعض ريش البط، مما يعنى أن هذا الدحل يمتلئ بالمياه عندما تهطل الأمطار وأن الطيور تهبط لتأوي إليه.

وقضينا ليلتنا الثانية في موقع ممتع جدًا شِمال جرية العليا مباشرة، مكان مخيم بدوي قديم، وجدنا به كمية كبيرة من الجلة وشجيرات الحمض، وغادرنا هذا الموقع في الساعة السادسة صباحًا لنصل إلى الكويت في الساعة الحادية عشرة.

كان عبدالله الملا في استقبالنا بالقرب من بوابة الجهرة. وتوقفنا بضع دقائق في السوق حتى نلتقي بالملا صالح، فتجمع حولنا حشد من الفضوليين لينظروا إليّ في ملابسي العربية.

ووفقًا لمقياس المسافة في السيارة، بلغ إجمال ما قطعناه في رحلتي الذهاب والعودة ألفا وخمسمائة وعشرين كيلو مترًا أي ما يقل قليلاً عن التسعمائة ميلا وأربعة وأربعين.

ردود الفعل:

يمكن تخليص ردود فعلي الشخصية إزاء كل ما سمعت ورأيت في الرياض على النحو التالي:

إذا كان من الواضح تمامًا أن القلق يسيطر على شعب العربية السعودية، وخاصةً زعمائه الدينيين، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، إلا أن الملك يسيطر قطعًا على الموقف ويمكنه أن يحكم قبضته على قومه، ورغم ما يشعر به هو نفسه من مرارة، ورفضه للاتجاه السياسي الذي نتبعه في فلسطين، وخاصةً مشروع التقسيم، إلا إنه عازم كل العزم على عدم الإقدام على أي خطوة يمكن أن تنال من العلاقات الودية القائمة بينه وبين الحكومة البريطانية، ولذلك فهو لن يتخذ أي موقف يتسم بمعاداة بريطانيا في شبه الجزيرة العربية، وسيقتصر على إسداء النصح وتقديم الاقتراحات.

ولكن التزامه بسياسة البقاء على الحياد ستنال من مكانته في شبه الجزيرة العربية، وهو يدرك ذلك تمامًا ويساورني إحساس بأنه لو تمكنت الحكومة البريطانية أن تضمن له نوعًا من التعويض لوقوفه بعيدًا في الأزمة الراهنة، وبحيث يكون لهذا التعويض مزاياه المباشرة والفورية بالنسبة لعرب شبه الجزيرة، فسوف يكون من الحكمة ألا تتوانى الحكومة البريطانية عن اتخاذ أي خطوة، وسوف تكون له وسائله الخاصة ليشرح لقومه هذه المزايا ويقنعهم بجدواها، ومن ثم فسوف يعنى ذلك سيادة مناخ أقل معاداة بين العرب. ولكن يجب أن يكون التعويض سخيًا، وإلا أفسدنا كل شيء.

ولقد فتنت زوجتي التي استقبلت استقبالاً وديًا حافلاً ثلاث مرات من جانب سيدات الأسرة المالكة - خاصة بالسيدة نورا؛ وقالت عنها إنها من أرق وأعذب من التقت بهن في حياتها من النساء، وأنها تشارك أخاها العظيم في كل ما يتميز به من جاذبية ونبل، وأنها بلا جدال، من أهم الشخصيات في شبه الجزيرة العربية كلها. وتشارك الملك في بحث أكثر المسائل حساسية ودقة. وكانت السيدة نورا تبدى اهتمامًا خاصًا بكل ما يتعلق بالبلدة الجديدة لشركة النفط التي أنشأتها في المقوع، واستنادًا لما صرحت به لزوجتي، فهي تعتقد أن هذه البلدة لا تعدو أن تكون حصنًا مسلحًا أو مخفرًا أماميًا من أجل الدفاع عن الحدود الجنوبية للكويت.

ولقد وجدت زوجتي شيئًا من المشقة لإقناعها بأنه ليست هناك أية مخاوف من هذا النوع، ولاشك أن نورا كانت تنظر إلى هذه المسألة وفي ذهنها تجربة المخفر العراقي في بصيّة في الصحراء الجنوبية، وما أثير بسببه من مشكلات عديدة.

عاشت نورا بنت عبدالرحمن الفيصل آل سعود حتى عام ١٩٥٠ عندما فاضت روحها في سلام في الرياض، والعجمانيون جميعًا يجلون ذكراها ليس من أجل شقيقها، ولكن من أجل سعود العرافة. وكانت بلاشك من أبرز وأعظم من أنجبتهن شبه الجزيرة العربية على مر العصور وأكثرهن شهرة، ولم يكن هناك من يضارعها مكانة ومنزلة إلا الملك القوى ابن سعود، وابنها أيضًا لم يكن شخصًا عاديًا، وإن كان اسمه محمد، إلا أن عجمان تسميه الشقران: "أي الرجل الأشيب"، وتكاد منزلته عندهم أن تبلغ حد التقديس.

الفصل السادس عشر
الكويت - ١٩٣٩

عرس في الكويت - سلوك نبيل - أسنان عبدالله بن حجى - المرأة التي عطست - الباشا التركي يشترى فرسًا - اليهود والنبي - شفاء سعود بن عَجَب - صوفي كويتي - طرد روحين شريرتين من البطحاء - مستشفي الكويت التذكاري.

عُرسٌ في الكويت: بقلم فيوليت ديكسون

كانت العروس المرتقبة هي موزة بنت فاطمة أخت حمده، خادمتي. وكان والدها خلف فقيرًا جدًا ومصابًا بضعف شديد في إحدى ساقيه، ربما نتيجة لحادث تعرض له منذ عدة سنوات. وكان يكسب رزقه بالعمل في قطعة صغيرة من الأرض أعطاها له الشيوخ، حيث يزرع الخس والسبانخ والفجل وغيرها من الخضروات، في موسمها، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من النباتات العطرية الطبية والقرنبيط والكرنب، مستخدمًا بذورًا أعطيتها له. وبضع شجيرات من زهرة الربيع وعباد الشمس. ولم تكن زوجته وضحة تبدى أي اهتمام بزراعة البستان، مفضلة أن تمضى وقتها في زيارة صديقاتها أو حضور أي حفل يقام في المنطقة المجاورة.

وكان قد سبق لخلف أن استخدم منذ عدة سنوات شابًا صغيرًا لمساعدته في بستانه، وبعد قليل، توفي والدا الشاب، وتركاه يتيمًا، والآن، وبعد أن شب عن الطوق، وهبت له - مثل يعقوب، ابنة خلف ليتخذ منها زوجة، كنوع من المكافأة لما أنجزه من عمل وما قدمه من مساعدة طوال السنوات القليلة الماضية.

والزواج والطلاق من أسهل الأمور في شبه الجزيرة العربية. ومراسم الزواج غاية في البساطة حقًا: مجرد أن يسأل الملا (رجل الدين)، الرجل ما إذا كان سيأخذ الفتاة ويرد العريس المرتقب "نعم" أمام الشهود، ثم يسأل وكيل الفتاة (والدها أو شقيقها) ما إذا كنت تقبل أن تتخذ من هذا الرجل زوجًا، وعندما يرد بالإيجاب ويقول "نعم" تنتهي المراسم. وفي بعض الأحيان تجلس الفتاة وراء حاجز الخيمة تستمع لكل ما يجرى، ولكن هذا نادرًا ما يحدث. أما الطلاق فلا يتطلب إلا أن يقول الرجل لزوجته أمام شهود أنه لم يعد يريدها، وعليه أن يردد قوله هذا ثلاث مرات حتى يكون متفقًا وأحكام الشريعة.

وتسبق الزواج فترة قصيرة من "الملجة" (عقد القران)، يستمر الاحتفال بها عدة ليال. وفي الليلة الثالثة من هذه الملجة وجهت الدعوة إلينا للمشاركة في الابتهاج والمتعة. كانت الساعة حوالي السابعة مساء يوم من أيام شهر يناير ١٩٣٩م عندما ذهبنا إلى منزل حمده. وكانت الردهة الصغيرة غاصة بالنساء، بعضهن محجبات وبعضهن سافرات. والمكان يلفه الضوء الصادر من مصباح يتدلى من قضيب معدني مثبت بالجدار. ودُعْينا لدخول غرفة حمده. حيث قدمت لنا القهوة. ثم جلسنا أمام بابها، وزوجي في الظل إلى حدٍ ما، بينما تؤدى جوقة من العايدوة (فرقة من المنشدين وقارعي الطبول المحترفين ويتكون عادة من العبيد السود)، يتكون أغلبها من زنجيات متقدمات في السن، رقصاتهن على دق الطبول ويترنمن بأغاني تتمشى مع المناسبة. مع ترديد بعضهن بالطبع، لاسم ابننا سعود واسم ابنتنا زهرة.

ومن وقتٍ لآخر، كانت إحدى الفتيات العربيات العديدات الحاضرات، والتي ربما ارتدت ثيابًا أكثر أناقة من غيرها. تفك ضفيرتيها في خفر واستحياء، وتتقدم إلى الساحة في الفراغ الصغير أمام الباب لتؤدى رقصتها. وإذا كانت الفتاة من بعض القبائل المجاورة. فهي تؤدى الرقصة المميزة لهذه القبيلة، أما إن كانت من فتيات المدينة اللاتي يرتدين الزي النسائي القصير والجوارب القطنية، فهي تؤدى رقصة نساء المدن. وهى أكثر رزانة. ولكنها لا تخلو من تمايل للأرداف والعنق. وسط عاصفة من الصياح والتصفيق. ولكن الراقصات المجيدات وحدهن هن اللاتي يؤدين الرقص على هذا النحو، وبعض الفتيات لا يترددن ولا يتهربن من الرقص. ولكن هناك أيضًا من يسيطر عليهن الخجل، ويحجمون عن الرقص متذرعات بأنهن لا يعرفن كيف يرقصن.

وكانت العروس المرتقبة مثار حديث الجميع وتساؤلهم نظرًا لاختفائها ولجوئها إلى منزل إحدى الجارات. وكانت أمها تتصرف وكأنها قهرمانة (كبيرة الخدم)، فتستقبل القادمات وتبعد من حاولن الحضور دون أن توجه إليهن الدعوة. ولم تهدأ هذه الأم أو تكل طوال الوقت. وبين الحين والحين، كانت تتناول حفنة من حبات الفول السوداني وبذور البطيخ الجافة وتنثرها فوق رؤوس الحاضرات، فيندفع الأطفال للحصول على شيء من الغنائم، غير مبالين بما يحدثونه من هرج وتصادم مع هذا الحشد من النساء.

وبعد حوالي ساعة ونصف الساعة من الاحتفال قررنا أن ننصرف، وكانت حمده خلال الحفل لا تكف عن دخول الغرفة بين الحين والحين والجلوس معنا لتثرثر وتخبرنا بأسماء هذه وتلك من الحاضرات والأغاني التي يترنمن بها.

وحان يوم عقد القران بعد ثمانية أيام أو نحو ذلك، ومرة أخرى وجهت الدعوة إلينا للحضور، وكان من المقرر أن يقام هذا الاحتفال أيضًا في منزل حمده. ونظرًا لما وعدت به من إعارة غرفة نومها الخاصة لمدة أسبوع لابن أختها وعريسها، لم تحضر لتعمل في هذا اليوم وانهمكت منذ الصباح الباكر في تنظيف الغرفة وإخلائها من حاجياتها وملابسها وإعدادها لتكون لائقة باستقبال العروس والعريس. وكان هناك حوالي عشرون إناءًا زجاجيًا (فازة) زرقاء تتراوح ألوانها بين الأزرق والأحمر الوردي رُصت في صفوف وكل منها في مشكاة بالحائط، وضعت بين هذه الأواني شموع في أقداح للقهوة بلا مقابض، لأنه ليس من اللائق - كما قالت حمده - أن تُضاء غرفة الزفاف بقنديل يستخدم فيه الزيت. ثم وضعت على الأرضية أسفل جدار الغرفة حشيات وطنافس مكسوة بالحرير، وأسدلت فوق سرير حمده الكبير ستائر جديدة من الحرير الوردي ربطت بأشرطة زرقاء اللون، وضعت على السرير فرشة جديدة، ومن فوقه لحاف جديد من القطن، أحمر اللون، هدية من الجارات وفقًا للعادة المتبعة، كما وضعت على السرير وسائد محكمة الحشو يحيط بكل منها كيس من الحرير الأزرق يحيط بها عند منتصفها كساء أبيض اللون من القطن.

ومنذ الصباح الباكر أيضًا انهمكت وضحة وإحدى الجارات في تهيئة موزة بنت فاطمة، فغسلتا شعرها بأوراق شجر السدر، وأشرفتا على استحمامها، ووضعتا الحنة في كفيها ورجليها، ثم أخيرًا استخدمتا دهن العود (زيت العود) لتمشيط شعرها وإكسابه البريق واللمعان. ثم قامتا بتعطير ملابسها بوضعها فوق إطار خشبي أشبه بالقبة يشتعل تحته موقد يضم فحمًا متأججًا وبخورًا تتصاعد رائحته. وكان والد العروس قد أحضر من بستانه، داخل سلة صغيرة من سعف النخيل الأطراف ذات العبير من نبات المشموم mushmu ذكي الرائحة، وقد نثر عليها قطرات من الماء حتى لا تذبل، وقبل أن يبدأ الاحتفال، رُشت هذه الأطراف تحت وأعلى اللحاف الأحمر المبسوط على سرير العروسين.

وفي حوالي الساعة السادسة مساءً توجهنا إلى المنزل، وكان البهو يسطع

بالضوء كما كانت الحال من قبل، ومزدحماً بالسيدات لدرجة الاختناق، ورحبت بنا أم العروس، واصطحبتنا مرة أخرى لندخل غرفة العروس والعريس لنشهد من هناك النساء اللاتي يرقصن خارج الباب مباشرة. واستمرت الراقصات في الغناء والرقص إلى أن انطلق صوت يعلن أن العريس يقترب. فبعد أن توضأ العريس وأدى الصلاة في المسجد في الساعة الواحدة والنصف (بالتوقيت العربي)، ها هو يُقبل الآن على رأس موكب يتراوح عدد أفراده بين الخمسين والستين من أصدقائه وجيرانه من الذكور. وكانت المصابيح المتلألئة بالضياء ترفع عالية أمام موكبه وهو يدنو من المنزل، بينما خمسة أو ستة رجال من حملة الطبول يرقصون وهم يشاركون في الركب.

وكان لابد أن يبدأ بزيارة الأسطى (كبير البنائين أو أهل الحرفة)، الفارسي الذي قدم له المساعدة على شكل هدية نقدية، ولذلك تجاوز الموكب منزل حمده وتوقف بعد قليل في نفس الشارع أمام منزل الأسطى أحمد، ورقص الرجال على دقات الطبول لمدة سبع أو ثمان دقائق. وهذه عادة قديمة، ويستغرق الموكب في حفلات الزفاف الكبيرة عدة ساعات قبل أن ينتهي إلى وجهته.

وأخيرًا وصلوا أمام باب منزل حمده، فكان هناك تزاحم وهرج في الداخل، والنساء تحاول كل منهن أن تحصل على عباءة لتستر وجهها ثم تنسحب مهرولة، بينما توجه بعضهن إلى غرفة أخرى. أما من مكثن في مكانهن، فكن من المحجبات، وظللن واقفات وظهورهن إلى الحائط في البهو.

والآن أُشعلت الشموع داخل الغرفة، وطُلب مني أن أخرج منها على وجه السرعة، وأن أتوجه إلى غرفة أخرى يمكنني أن أشهد منها كل ما يجرى من خلال نافذة مفتوحة. ووجد هارولد نفسه بمفرده داخل غرفة العروسين وأخذ يفكر فيما عليه أن يفعل. واقتيد العريس مباشرة إلى داخل هذه الغرفة فجلس إلى جانب زوجي على حشية حريرية زرقاء. وكان هذا هو الوقت الذي جرت العادة على أن يجلس فيه اثنان أو ثلاثة من أصدقاء العريس معه ليشرحوا له واجباته نحو عروسه ليلة الزفاف. ولكن نظرًا لوجود زوجي، لم ينفذ هذا الجزء من المراسم التقليدية وتركوا الشاب وحيدًا مع هارولد.

واستمر دق الطبول ورقص الرجال خارج البهو في حماس شديد، بينما يتناثر ماء الورد بغزارة فوق رؤوسهم جميعًا، وكانت العروس تجلس هاجعة على

سرير في الغرفة التي توجهت إليها بعد أن تدثرت على عجل بعباءة قديمة، كانت تتنهد بصوت كالنشيج أغلب الوقت، والتفت من حولها عدة فتيات من صديقاتها تحاولن التسرية عنها بإلقاء النكات والطرائف، بل وإبداء بعض الملاحظات الجنسية السافرة، والتي تبدو أنها جعلت العروس أشد ارتباكًا وتوترًا. وبين الحين والحين، كانت هذه الفتيات يسحبن العباءة ويضعن أكفهن على قلبها ثم يصرخن قائلات أنه يدق بعنف. وكانت العروس ترتدى رداءًا بسيطًا من الحرير، ومن فوقه ثوب أسود اللون مطرز بنقوش مذهبة حول فتحة العنق، وكان شعرها مصففًا بعناية ومضمخًا بالزيت بينما اكتست يديها وقدميها بالسواد بعد معالجتها بنوع من الجير والحنة برتقالية اللون.

وفي حوالي الساعة التاسعة، أدرك الراقصون وأصدقاؤهم أن الوقت حان للعودة من حيث أتوا، فانصرفوا جميعًا، وهنا سارعت حمده إلى العريس وهمست في أذنه بآخر الإشارات، ووقفت بجانبه انتظارًا لوصول العروس، وما أن أدخلت العروس، حتى اصطحب بعض الأقارب هارولد معهم إلى البهو.

كانت موزة تتدثر بعباءة، وتلتف من حولها أربع سيدات، كدن أن يحملنها حملاً وهى تسير لفرط خجلها وارتباكها، وكانت معهن أمها، وداخل الغرفة، رفعن العباءة من فوقها وألقين بها على الأرض. وأحضر العريس أيضًا ليقف في تجاه القبلة والعباءة التي بسطت على الأرض من أمامه استعدادًا لأن يؤدى الصلاة. وبعد دقائق قامت النساء أثناءها بتنسيق أدوات العروس وملابسها حولها، قبلنها وغادرن الغرفة، وأغلقن الباب من ورائهن. وانفجرت شقيقة موزة الصغرى باكية، وترقرقت عيناها بالدموع واندفعت نحو الباب وكأنها تود إنقاذها وسحبتها أمها بعيدًا في عنف، بينما عيونها، هي الأخرى غارقة في الدموع.

وكان على العريس أن يؤدى الصلاة على عباءة العروس أولاً وقبل أن يبدأ أي خطوة أخرى لإتمام الزواج. وهذه هي القاعدة. وجلس جميع الضيوف المدعوين ينظرون إلى البهو والغرف المجاورة لتنطلق بين الحين والآخر ضحكاتهن التي تنم عن الفرحة والمتعة.

ولما كنا لا نود البقاء حتى منتصف الليل، انصرفنا رغم حرص الجميع على ألا يفوتهم حضور هذا الجانب من الاحتفال.

وفي اليوم التالي، روت لي حمده ما حدث بعد انصرافنا فقالت: إنه عند

حوالي منتصف الليل، سمع صوت العروس وهي تصرخ، وكان ذلك بمثابة إشارة البدء لمزيدٍ من صيحات البهجة المدوية التي أطلقها الضيوف، وبعد قليل فتح الباب قليلاً، وألقيت منه قطعة صغيرة من القماش ملطخة بالدم. ثم أغلق مرة أخرى، وهرعت الأم لتلتقط قطعة القماش وترفعها ليشاهدها جميع الضيوف وهذه عادة من عاداتهم القديمة، تثبت لكل من حضر أن العروس كانت عذراء وأن أهلها أحسنوا تربيتها.

ثم انصرف الجيران والضيوف.

وقالت حمده أنه عند الفجر تقريبًا، خرج العريس فاغتسل من أم رأسه إلى أخمص قدميه ثم أدى الصلاة، وغادر المنزل ودخلت أم العريس، وصديقاتها إليها، وساعدنها لتستحم بصب الماء فوق شعرها. وبدلن كل ملابسها وهيأنها من جديد للقاء زوجها الذي سيعود إليها في الصباح بعد قليل.

وطوال هذا اليوم واليوم الذي تلاه، كانت هناك مواقيت محددة يدخل فيها العريس إلى زوجته، ولما كان اليوم الثالث تزينت بالحلي الذهبية وأقبلت كل صديقاتها لتهنئتها، وذهبنا إلى منزل حمده للمشاركة في تقديم التهاني قبل غروب شمس اليوم الثالث، أو ما يقارب ذلك. وأُدخلنا غرفة خاصة بالنساء اللاتي جئن للزيارة. وقدمت لنا القهوة، ورشت علينا قطرات من ماء الورد، وأشعل العود، ودار على الجميع.

ثم جاءوا بالعروس وقدموها لنا، فانحنت أمامي وأمام زوجي وهي تتلقى التهنئة. وكانت تبدو جميلة حقًا. وشخصية مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي رأيتها تنتحب في ركن في ليلة الزفاف. كانت ترتدى رداءً تحتانيًا من الحرير قرنفلي اللون مع شيء من الصفرة، ومن فوقه ثوب أزرق من الحرير مزركش زركشة جميلة بخيوط ذهب، وكان من فوق رأسها غطاء ذهبي مرصع بالفيروز، وتتدلى فوق جبينها عملة ذهبية هولندية، وكانت تضع في أذنيها قرطًا ذهبيًا، بينما يتولى من فوق صدرها عقد من السلاسل الذهبية، أما أسفل ظهرها فكانت تتدلى منه قطع سوداء من القماش مطرزة بزخارف مذهبة على شكل أوعية صغيرة مقلوبة، وكان رسغاها مزينان بالعديد من السوارات الذهبية، وبينما يحيط بأسفل ساقيها خلخال ضخم من الذهب.

ولسوء حظها كانت كل هذه الحلي مستعارة، حيث جرت العادة على أن

تقدم الموسرات من زوجات الشيوخ الحلي والمجوهرات لمدة ثلاث أو أربع ليال لأي أسرة تطلبها منهن، كسلفة تُرد عما قريب، بعد لفها في غطاء رأس قديم، أو منديل حرير.

وبعد ذلك تتحول العروس إلى شخصية عادية تمامًا. وبعد سبعة أيام عسل قضتها في منزل أمها (منزل خالتها في حالة موزة) تعود بصحبة زوجها إلى منزلها.

ولم تعمر الحياة الزوجية لموزة المسكينة طويلاً، ففي أواخر عام ١٩٤١ أصيب زوجها بمرض عضال بعد أن تناول وجبة من برغوت البحر (قُرَيْدِس "روبيان كبير")، وتوفي خلال أسبوع، وتركها ومعها غلام صغير.

سلوك نبيل:

سيظل الجميع يذكرون عبدالله بك الفالح باشا آل سعدون لأنه الرجل الذي اغتال عبدالله بن أحمد الصانع، والي بغداد، عام ١٩٣١، وبعد لقائنا في البصرة بمناسبة إطلاق سراحه كنت أواظب على إرسال بطاقتيّ تهنئة له كل عام، الأولى في عيد الفطر والثانية في عيد الأضحى. أما فيما عدا ذلك فلم يحدث أن التقيت به أو كتبت إليه. وكان يعيش في عزلة، ولا يخرج إلا ليتوجه إلى الصحراء الجنوبية جنوب غربي الزبير في فصل الربيع من كل عام، ومعه بعض الأصدقاء للاستمتاع بما يزدهر في البادية من مروج خضراء، والصيد.

وتبين القصة القصيرة التالية كيف ظل هذا الرجل معنيًا بأمر كل فرد من أفراد آل سعدون الذين يعمر بهم قلبه، وكيف كان جديرًا بأن يُعتمد عليه لمساعدة كل من يطلب العون منهم. وكان مما حببنا في هذا الرجل أن ظل متمسكاً بقيمه ومبادئه في وقت سادت فيه في العراق نزعات غريبة تمثلت في تقلب الأهواء وتغيير الولاءات والتنكر للأصدقاء ابتغاء تحقيق المطامع.

في عام ١٩٣٩م وصل إلى الكويت من الرياض المدعو بندر السعدون وبصحبته زوجته، وغلامان صغيران، وشاب وفتاة، دون أن أعرف. وكان بندر شابًا عنيدًا صعب المراس وسبق أن عمل مع الكولونيل لتشمان، الذي طبقت شهرته البادية، أثناء الحرب العالمية الأولى، ورافقه في العديد من رحلاته وغزواته. وبعد وفاة ليتشمان، قررت السلطات البريطانية صرف معاش متواضع له، ولكن الدفع توقف عندما تسلمت الحكومة العربية السلطة في العراق، وهو

إجراء أثار السخط في ذلك الوقت بين الذين عملوا مع البريطانيين، وحاربوا من أجلهم، وبلغ التهور والغرور ببندر أنه لم يحاول أن يسلك الطرق المشروعة للحصول على حقه، وإنما راح بدلاً من ذلك يصب اللعنات على الحكومة العراقية وعلى كل إنجليزي يتبوأ منصبًا رفيعًا في بغداد، متهما البعض بأنهم يحرمونه من معاشه لأنه سعدوني، والبعض الآخر بأنهم خانوا الأمانة وتخلوا عن الأصدقاء.

وفي خاتمة المطاف، انتقل بندر وعائلته من العراق إلى الرياض ليعيش في حمى جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود، النصير العظيم حقا لكل عربي تحاصره نوائب الدهر. وأقام بندر في الرياض لمدة عامين كان يعامل أثناءها المعاملة التي تتناسب مع وضعه الاجتماعي. والملك لا يرتكب أي أخطاء في مثل هذه الحالات. وبعد أن اكتمل عامان من النفي الاختياري، تصوّر بندر أن الفرصة مواتية للعودة إلى العراق وتصحيح ما ارتكب إزاءه من خطأ، وقرر أن يترك زوجته وأسرته في الكويت وتوجّه بمفرده إلى العراق ليتحسس موقع قدميه وليرى ما إذا كانت اللحظة المناسبة حانت ليتقدم بدعواه للحكومتين البريطانية والعراقية معًا. ولم يحدث أن التقى بي بأي حال قبل أن يغادر العراق، ولم أعرف على الإطلاق أن أسرته كانت بالمدينة، وأخشى أن يكون الآن ممن يعادون بريطانيا.

ولم تكد قدماه تطآن أرض العراق حتى بدأت المشكلات تلاحقه، وإن كنت لم أعلم بذلك إلاّ فيما بعد. ومن الواضح أنه توجه إلى سماوة في محاولة لاسترداد دين له وسيارة سبق أن صودرت عندما رحل إلى الرياض، فاصطدم بالقائمقام هناك، وأتهم بسبّ الحكومة وعدم الولاء، وقبض عليه لفترة غير محددة، ودون محاكمة، بل ولم يكن مسموحًا له بالكتابة لأي شخص ولا حتى لأسرته.

ولم تعد زوجة بندر، المقيمة بالكويت، تعلم أي شيء عن زوجها أو عن أحواله. وسرعان ما تراكمت عليها المصاعب المالية، وكان بندر قد ذكر لها أنه سيعود بعد أقل من الشهر ليرحلا معًا من الكويت، ولكن عندما مرّ شهران ولم يعد له من أثر، بدأت تحس بقسوة الأيام وما تحمله لها من مشاق. ولكنها فضلت، وهي ذات الإباء والشمم، أن تتخطى متاعبها ببيع مجوهراتها. وأقدمت على ذلك بالفعل، وعاشت اعتمادًا على الثمن الذي حصلت عليه لمدة شهر

ثالث، وما كان لأي شيء - كما أخبرني زوجها - أن يجبرها على التماس العون من أي شخص.

ولكن كان لابد للانهيار أن يقع، وخاصة عندما أخذ مالك المنزل الذي استأجره بندر يلح في طلب قيمة الإيجار المتأخر. وبعد أن استولى عليها اليأس وظلت دون طعام يقيم الأود لعدة أيام، قررت أخيرًا أن ترسل ابنيها الصغيرين، علي ومحمد، لمقابلة زوجتي ومقابلتي وطلب المساعدة منّا، كانا في العاشرة والثامنة من عمريهما على التوالي، ويتصرفان بشكل مهذب، ويرتديان ثيابًا نظيفة جميلة، ورويا لنا قصتها على استحياء، وصوتهما يتهدج، والمصير الذي آلت إليه أمهما، وقالا إن هناك أنباءً، مازالت في طيّ الكتمان، بلغتهم منذ قريب بأن أباهم ملقى به في السجن في سماوة، ثم سألا ما إذا كان في استطاعتنا إقراض أمهما ثلاثمائة روبية، على أن تسدها عندما يعود أبوهم. وأضاف علي الصغير، في شجاعة، إنه سوف يذهب بمائة من هذه الروبيات إلى بغداد لمقابلة الملك غازي، لأنه على يقين من قدرته على إقناعه بإطلاق سراح أبيه.

وهزّتني كما هزّت زوجتي، هذه الأنباء - وعلى الفور توجهنا لمقابلة أمهما. ومكثت في غرفة أخرى عندما دخلت زوجتي للالتقاء بهذه السيدة التي كانت في عنفوان الشباب تنمّ ملامحها عن قوة شخصيتها وقدراتها، ومنذ اللحظة الأولى، أحبتها زوجتي وتعاطفت معها، وأدركت كل أبعاد المأساة. وإلى جانب هذه السيدة وابنيها، كان هناك خادم وخادمة لابد من إعالتهما، في الوقت الذي لم يكن لديهم في المنزل أي شيء يقتاتون به.

وتركناهم بعد أن أعطيناهم ما يكفي من نقود لمواجهة نفقات شهر آخر. كما دفعت متأخر الإيجار، وأبلغت الشيخ احمد، حاكم الكويت، بوجود هذه الأسرة في بلده، فبادر على الفور، وهو لا يقل أسىً لحال هذه الأسرة، بإرسال غرارتين من الأرز، وغرارة من الدقيق، وعدة سلال من التمر لمواجهة احتياجاتهم العاجلة.

وفي اليوم التالي جاءنا محمد ليخبرنا بأن أخاه علي خرج متوجها إلى البصرة وبغداد ومعه جزء من النقود التي أعطيناها لهم، واصطحب الخادم معه. وكان هذا جهدا يتسم بالشجاعة والإقدام وجديراً بأن يحقق غايته. وبعد شهر، تلقينا رسالة من علي يقول فيها إن الخادم ولى الأدبار وهما في الطريق إلى بغداد،

وإنه قابل الملك الذي وعده ببحث المسألة. وتوقف علي في رحلة عودته في سماوة وزار والده لبضع دقائق؛ وفي انتظار لإطلاق سراح الأب، أقام لدى جدّه فهد بك السليمان آل سعدون في ضيعته بالقرب من الناصرية، وأبلغت زوجة بندر بهذه الأنباء وكان اليأس قد أخذ منها كل مأخذ لعدم تلقيها أي معلومات عن ابنها منذ رحيله، فتصورت أنه ألقى به في السجن مثل أبيه.

وبعد زيارتي الأولى لهذه الأسرة، بذلت جهدًا كبيرًا حتى عرفت من هم أدنى أقارب زوجها، وكتبت لثلاثة منهم، وكلهم من أبرز الشخصيات في البصرة، أطلب منهم إما المساهمة في توفير المبلغ اللازم لتمكن زوجه بندر من مواجهة مطالب الحياة هي وابنيها، أو أن يأخذوها إلى البصرة، ويضعونها تحت رعايتهم؛ وقلت إنه من غير المتصوّر أن تترك سيدة سعدونية لتتضور جوعًا في أرض غريبة.

لم أتلق أي رِدّ على هذه الرسائل. كانوا جميعًا ممن يسيرون في ركاب أي حاكم فلا يسعون إلا لتحقيق مآربهم الخاصة، والواقع أنهم كانوا يخشون مساعدة زوجة وابنيّ شخص، هم واحد منهم قبل كل شيء، لم يكن على علاقة طيبة بالحكومة. ومن المؤكد أنهم رأوا أنه من الأجدى لهم أن يتنكروا لقرابته لهم. ثم بذلت محاولة مع صديقي فرحان الرحمة، من حارثة، الذي عمل كمساعد عربي لي في البحرين، وطلبت منه أن يستخدم ما له من تأثير على أقارب بندر، وأن يشرح لهم حقيقة الوضع. وبذل الرجل قصارى جهده، والتقى بهم جميعًا، ولكنه أخبرني بفشله في مسعاه، وأعتقد أنه واجههم صراحة واتهمهم بالجبن والخيانة.

وأخيراً تذكرت عبدالله بك الفالح باشا آل سعدون المقيم في كتيبان. وكتبت له رسالة تئن بالشكوى وشرحت له الوضع بكل أبعاده، طالبًا منه بكل إلحاح، من أجل الحفاظ على شرف آل سعدون، أن يقدم المساعدة للزوجة المعدمة لأحد أبناء عشيرته.

وكان عبدالله بك على علاقة قرابة بعيدة جدًا مع بندر، ولم تكن له أي رابطة عائلية مع الزوجة، ومع ذلك، قوبلت رسالتي باستجابة فورية. وأرسل عبدالله بك خادمه الزنجي الخاص في سيارة استأجرها لهذا الغرض ومعه حقيبة بها ثمانمائة روبية نقدًا، سلمها لي ومعها رسالة من سيده، وفي عبارات قليلة

مهذبة شكرني عبدالله بك لما قامت بهِ زوجتي نحو زوجة بندر وطفليه، وقال إن زوجة بندر امرأة عظيمة ونبيلة حقا. وأن إدراكنا لذلك غمره بالسرور، لأننا بتكريمنا واحترامنا لها، فإنما نكرمه ونحترمه وهو كبير آل سعدون.

وجاء في رسالته: "ولو أن سائر الأوربيين في العراق فكروا وتعرفوا مثلما فعلت أنت ومسز ديكسون، لأمكننا تجنب العديد مما حدث من سوء الفهم وسوء التفسير فيما مضى".

وناشدني ألا أتردد في طلب المزيد من النقود في أي وقت إذا اقتضى الأمر، وألا ألجأ لأي شخص سواه في هذا الصدد. ثم أضاف النبأ السعيد بأن بندر سوف يطلق سراحه عما قريب، وأنه حصل على موافقة الملك الشخصية على هذه الخطوة.

وانقضى شهر، زرنا خلاله زوجة بندر عدة مرات، ثم جاء بندر نفسه ومعه ابنه، وكم كانت سعادة الأسرة التي التأم شملها من جديد، وترك بندر زوجته تحت رعايتنا وتوجه إلى الرياض للقيام بواجب الشكر والاحترام نحو الملك ابن سعود، وعندما عاد، اصطحب الأم وطفليها إلى الرياض مرة أخرى، وإن كنت أعتقد أنهما رجعا بعد ذلك إلى العراق ولكني لست متأكدًا من ذلك.

وجوهر هذه القضية هو بالطبع، أن عبدالله لم يتردد في مد يد العون على الفور في الوقت الذي رفض فيه الجميع، وهذا يوضح أي نوع من الرجال كان، كما يؤكد أن المسلك النبيل والشجاعة لم يكونا بالنسبة له مجرد كلمات تقال. وأما بالنسبة لي فسوف أظل على الدوام مديناً له بالجميل، وإني لعلى يقين من أن الآخرين، عندما يقرأون ما كتبت سيكوِّنون فكرة أفضل عن هذا الزعيم العظيم لآل سعدون.

أسنان عبدالله بن حجي:

عمل عبدالله بن حجي في خدمة أربعة من شيوخ الكويت، وفي الوقت الذي جرت فيه وقائع هذه القصة، كان هو المشرف على دروازة البريعصي (يطلق عليها الآن دروزة الشعب)، وهي ثانية أهم البوابات المؤدية إلى الكويت. وكان هو وزوجته فاطمة من أقرب أصدقائنا، وعندما كنا نخرج في جولة نمتطي فيها الجياد، كنا نرسلها إلى البريعصي ثم نتبعها بسياراتنا التي تقف خارج منزل

عبدالله انتظارًا لأن نستقلها عند العودة. وعند انتهاء جولتنا على ظهور الجياد، كنا نترجل داخل البوابة، ونرسل جيادنا إلى المنزل ونمضي نصف ساعة نتبادل فيها أطراف الحديث مع عبدالله وزوجته ونحن نجلس على بطانية داخل فناء يظله بيتهم الصغير.

كان عبدالله رجلاً مهيبًا يتسم بالشهامة والنخوة والمروءة، وكانت قهوته أفضل قهوة في الكويت بعد قهوة فخامة الشيخ أحمد نفسه. وكان له أسلوبه البشوش للغاية في التعامل مع الآخرين، وإذا ما شعر أي شخص بالضجر والتأفف لما يواجهه من تصاريف الزمان، فيكفيه أن يمضى ربع ساعة مع عبدالله لتتبدد كل أحزانه ويقبل على الحياة بكل تطلع وحماس.

وكان عبدالله يمتلك رصيدًا ضخمًا من المُلح والطرائف، ويتحدث بلهجة عربية نجدية جميلة، وقد ذكر لي الباحث الكبير الدكتور الراحل جون فان إس، الذي عاش فترة في البصرة، إن عربية عبدالله بن حجى متعة للسامعين وأنها أفضل ما يمكن سماعه. وكانت فاطمة أيضًا شخصية لا تقل مودة وبشاشة، وكانت تحب عبدالله حبًا جما، إلى جانب طفلين بالتبني، هما جاسر ومنيرة، ابن وابنة شقيقها وشقيقتها على التوالي، لأنها لم تنجب قط.

وكانت فاطمة تجلس دائمًا بجوار زوجتي بينما يروى لنا عبدالله بعض القصص بعد تناول القهوة، وعندما كان يريد مشاغبة فاطمة كان الموضوع الرئيسي الذي يختاره للحديث هو نوع الفتاة التي سيتخذ منها زوجة جديدة. وكانت فاطمة تقبل التحدي وتلقي بقفازها موضحة أن عبدالله يهذي ويخرف، وأنه هو المسئول عن عدم إنجابها.

كانت تقول: ألم تكن له زوجة لمدة ستة أعوام قبل أن يتزوجني؟ إذن خبروني هل حدث أن حملت منه في يوم من الأيام؟ كلا بالطبع، والجميع يعرفون أنه ما أن طلقها وتزوجت من رجل آخر، حتى أنجبت خمسة أطفال مكتملي الصحة والعافية، خلال بضعة أعوام. وإذا لم يكن في ذلك دليل على صدق ما أقول، فأين يكون الدليل؟

وفي عام ١٩٣٩ خرجت فاطمة وفي صحبتها الطفلان وشقيقها متوجهة إلى مكة لأداء فريضة الحج، وظلت بعيدة عن دارها لمدة أربعة أشهر أصيب زوجها أثناءها بمرض عضال. والواقع أنه لولا الدور الذي قام به د. ميلويا وزوجته – من

مستشفى الإرسالية الأمريكية - والذي قمت به أنا وزوجتي حيث كنّا نزور عبدالله يوميًا ونجبره على تناول الطعام الذي قرره له الطبيب، ونقوم برعاية شئونه عمومًا في غيبة زوجته، لكان من المشكوك فيه أن يفلت من هذه الأزمة. وشخصّ الدكتور ميلريا حالته بأنها إصابة بحمّى التيفود، ولكن عندما رحل د. ميلريا، وحلّ محله الدكتور توماس، قرر أن مرض عبدالله إنما يرجع كله لأسنانه، التي لابدّ من خلعها جميعًا.

وتمت العملية بشكل مفاجئ جدًا، وكم كانت فرحتنا عندما رأينا صديقنا يخرج من منزله الصغير للقائنا ويبدو وكأنه اكتسب كل سمات الحكمة والوقار مع فقدان كل أسنانه.

وقال لنا: "لا بأس. لقد طلبت من عباس الفارسي أن يصنع لي طاقمًا، وسوف أعود وَلَدًا من جديد عمّا قريب. وعندما تعود فاطمة إلى البيت ستعجب كل الإعجاب وأنا استعمل الطاقمين العلوي والسفلي الجديدين".

وفي الموعد المحدد، سلَم عباس طاقم الأسنان لعبدالله، وهو طاقم جاهز تكلّف خمسًا وثلاثين روبية. ولكن عبدالله لم يكن يستخدمه أثناء تناول الطعام. وكان يقول: "لماذا تعتقد فخامتكم أنه لابد من استخدامه عندما أتناول الطعام؟ إنه فقط ليجعلني أبدو شابًا، ولذلك أنزعه، بالطبع عندما أتناول طعامي".

وعبثًا حاولت أن أبيّن له أنه يمكن استخدام طاقم الأسنان الصناعية أثناء الأكل وأنه يؤدى نفس الدور الذي تؤديّه الأسنان الطبيعية. ولكن عبدالله كان يردّ دائمًا ويقول:

"لقد أتقن عباس عمله، والواقع أنه طبيب أسنان عظيم، ولم يطلب منّى إلاّ خمسة وثلاثين روبية ثمنًا لطاقم جديد كامل من الأسنان، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ ألَم يتوقف الشيخ بسيارته منذ أيام وقال لي على الملأ: مرحبًا يا عبدالله! إنك تبدو شابًا من جديد. ماذا فعلت بنفسك؟ وأنا أسأل سيادتكم، أليس هذا القول أثمن من أي شيء آخر يمكنني أن اسمعه؟

وعادت فاطمة من الحج وكان استقبالها حافلاً، وترقرقت عيناها بدموع الفرح. وزيّن عبدالله المنزل وأقام مآدب العشاء الواحدة بعد الأخرى تكريمًا لها وابتهاجًا بعودتها، ألم يَعُد إليه "نور عينيه" وابناه الصغيران بالتبني مرة أخرى، ليشيعوا الدفء والأمل في حياته؟

وعندما انقضت أيام الترحيب والاحتفال، وبدأت فاطمة ممارسة حياتها العادية ومواجهة متطلباتها، حتى أحيطت علمًا بما أصاب زوجها من مرض وما أعقب ذلك من خلع لكل أسنانه، وعندما واجهت فاطمة الصدمة الكبرى ورأت بعينها الأسنان الصناعية، تفجر سخطها وانهمرت لعناتها بلا حدود:

وقالت: "يالهم من حمقى هؤلاء الرجال؟ ويا لزوجي عبدالله من أحمق لا يباريه أحد في حماقته".

وكان يكتفي بالابتسام ويقول لنفسه هامسًا: "أنصت إليها، إنها تخشى أن أتخذ زوجة أخرى".

وعندما عدنا أنا وزوجتي من رحلة لزيارة سوريا في عام ١٩٤٢، توجهنا لزيارة عبدالله فاستقبلنا أمام منزله، وبعد تبادل التحية، قلت له مازحًا إن الفرصة مازالت متاحة أمامه، لأنني التقيت في شتورة برجل يقال إنه تجاوز المائة والثلاثين من عمره، وله أحفاد أحفاد، بدأت تظهر له أسنان لبنية، ولكن عقله عقل طفل شأنه شأن جميع الرجال الذين يبلغون من العمر أرذله.

وهمس عبدالله وهو يَغمز بعينه: "استحلفك بالله ألا تخبر فاطمة بذلك، لأني هالك لا محالة إذا فعلت".

ولسوء الحظ كانت فاطمة تقف وراء جدار وسمعت كل ما قلت، وبعد فترة، وعندما عدنا من جولة على ظهور الخيل ودخلت منزلها لتحيتها وتناول القهوة، قالت:

"ألَمْ أسمعك يا أبا سعود وأنت تقول إن الرجال عندما يتقدم بهم العمر يصبح لهم عقل طفل ولا يريدون طعامًا إلا لبن الأم مثل الطفل حديث الولادة؟ وألمْ أسمعك وأنت تقول إذا فقدِ الرجل أسنانه فما عليه إلا أن يتذرّع بالصبر إلى أن تنمو له أسنان جديدة محلها؟ متى تظن، يا أبا سعود - سيحصل عبدالله على أول سنّه لبنية؟إنه يدنو بلا ريب من مرحلة التخريف"؟

وكانت الضربة المضادة التي سددتها فاطمة مدويّة ومباشرة. وقال عبدالله وهو بادي الانزعاج والقلق:

"لا تستمع لما تقول امرأة حمقاء، ومن المؤكد أن حديث امرأة مزعجة لا تكف عن التذمر والشكوى يجعل الرجل يشيخ قبل الأوان، أكثر من أي شيء آخر. ألم تسمع عن قصة التاجرَين اللذين نشب بينهما نزاع ذات يوم فتوجها إلى

ثلاثة من العلماء لتسويته، وكان العلماء الثلاثة أشقاء يعيشون في منزل واحد؟ إذن دعني أرويها لك.

"شجر نزاع بين تاجرين حول بعض المعاملات، ولكن بدلاً من الصدام وتحولهما إلى مضغة في الأفواه، قررا طرح النزاع على أسرة السادة الثلاثة الذين عرفوا بتضلعّهم في العلم وفهم أحكامه الشريعة. وتوجّه التاجران لزيارتهم في منزلهم، واستأذنا للدخول، واصطحبهم الخادم إلى حيث يجلس أصغر الثلاثة، وكان متقدمًا في السن، أبيض اللحية؛ فطلب منهم طرح ما لديهم، فلما أخبروه بسبب مجيئهم قال في أدب:

"أنا أصغر الأشقاء الثلاثة سنـًا، وليس من اللائق أن أحل تسوية ما بينكما من نزاع؛ ومن الأفضل أن تذهبا لشقيقي الثاني".

"وانصاع التاجران لهذا الرأي، فوجدا أن العالم الثاني أكبر سنـًا وأكثر شيخوخة، وأجاب هو الآخر بأنه مازال هناك شقيق أكبر، ومن الأسلم أن يتوجها لاستشارته حول ما بينهما من نزاع، خاصة وأن هذا التصرف لن يسعده فحسب، بل ولأنهما سيحصلان أيضًا على أكثر القرارات صوابًا ودقة".

"وتوجه التاجران إلى غرفة الشقيق الأكبر وقد اعتراهما شيء من الدهشة وأخذا يتصوران كيف سيكون هذا الشقيق الثالث. وطرقا الباب، فنتحت لهما خادمة جميلة جذابة، طلبت منهما - بإشارة من أصبعها فوق الفم - أن يدخلا في هدوء دون أن يصدر عنهما أي صوت، لأن سيدّها ينعم بالنوم.

"وفي انبهار شديد، دخلا جناح العالم الهاجع في سكون وجلسا على أحد الأرائك، ثم شاهدا الخادمة الجميلة وهى تعود إلى مكانها إلى جوار سيدها وترفع رأسه في رفق لتضعه فوق حجرها، ثم تبدأ في تحريك مروحتها لترطيب الجو وإنعاش سيدّها، وكان أشد ما أثار دهشتهم هو وجه الرجل النائم نفسه، فبدلاً من الكهل المقعد الذي توقعوا رؤيته، رأوا رجلاً وسيمًا، أسود اللحية، في ذروة الحيوية.

"وهبّ العالم من سباته، وفتح عينيه، وجلس، وقال وعلى وجهه ابتسامة آسرة: أيها الأصدقاء، ماذا تريدون؟

فأجاب التاجران وهما في قمة الارتباك والحيرة، أنهما جاءا لتسوية نزاع بسيط على يد أحد الأشقاء الثلاثة الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وأنهما توجها في

البداية إلى أصغرهم سناً، وكان كهلاً أنهكته الشيخوخة، فأحالهما إلى شقيق آخر أكبر سناً وأغزر شيبًا، ثم جاءا إليه في خاتمة المطاف وهما يتصوران أنهما سيلتقيان بكهل مقعد تجاوز المائة عام من عمره، ولكنهما يريان أمامهم رجلا يافعًا، أنيقًا، عذب الحديث، تعمل على خدمته ورعايته شابة جميلة، من الواضح أنها مخلصة له كل الإخلاص. وقالا إن النزاع الذي ثار بينهما أصبح في طيّ النسيان الآن وأن كل ما يريدانه هو تفسير لهذا الذي يجرى أمام ناظريهما. وبكل ترحيب أجاب العالِم:

"أصدقائي، خذوا المثلَ الحي من رجل قانع تمامًا بما صار إليه بعد أن اكتشف أن الوسيلة المثلى للحفاظ على الشباب هي أن يكون برفقة زوجة جميلة شابّة، تتسِم بالحكمة قبل أي صفة أخرى، ثم ثانيًا بالإخلاص، وأن تكون — ثالثـاً – ممن يَسُرّ الآخرين حديثها.

"ولقد كانت لي زوجة لا تكفّ عن التذمر والشكوى، فتخلصت منها على وجه السرعة، أما شقيقاي، فها هما يوغلان في الشيخوخة قبل الأوان لأن زوجتيهما لا تباليان بشيء ولا تكفّان عن الشجار معهما ليلِ نهار. إن حياتهما لم تعد ملكًا لهما – هذين الشقيقين التعيسين – وإنما تحولاً إلى عبدين لشريكتي حياتهما المستبدتين، وانحدرا إلى أسوأ حال، حتى أصبحا يخشيان التخلص من الأصفاد التي تحيط برقبة كل منهما. ونصيحتي لكما، ولكل الرجال، هي أن تطلقوا المرأة في اللحظة التي تصبح فيها مشاكسة مولعة بالخصام وتبدأ التنمرَ لزوجها، انبذوها على الفور، وابحثوا عن الخلاص مع أخرى، تَخدم، وتُبهج، وتسعد، آناء الليل وأطراف النهار.

"وانصرف التاجران في صمت وقد انعقد منهما اللسان دهشة وعجبًا، ونسيا تمامًا ما بينهما من نزاع والأسباب التي أدّت إليه".

وهنا استدارت فاطمة نحو عبدالله واتهمته في ضراوة بأنه رجل شريرٌ أسود القلب لا يحبّ الخير للآخرين:

"يا أم سعود ويا أبا سعود، لا تصدّقا كلمة مما يقول. إن عبدالله يرنو بناظريه منذ فترة إلى فتاة جميلة من العوازم نزلت مع قومها في مخيّم بالقرب من النقرة، وهو يبحث عن حجّة للتخلص منّي".

فقلت: "لا تخشى شيئا يا فاطمة، لا يمكن لأي امرأة أن تتخذ من

عبدالله زوجًا وهو بلا أسنان. وأسنانه الصناعية لن تخدع أحدًا، وإلى جانب ذلك، فإذا أقدم على التخلص منكِ، فلن نحضر بعد اليوم أبدًا لتناول القهوة معكما. وأنت، ياعبدالله، انتظر إلى أن تظهر أسنانك اللبنية الجديدة قبل أن تفكر في الأشياء الشابة الجميلة والزواج من أخرى". وبدأ الجميع يضحكون..

المرأة التي عَطَست:

وكانت هذه القصة الحقيقية أيضًا مما رواه لنا عبدالله بن حجيّ. بائع سجائر يعيش مع زوجته في حي المرقاب بمدينة الكويت، وكان الزوجان يحظيان باحترام الجميع وتقديرهم. ولكن الزوجة كانت شغوفة بالعراك ولا تكف عن التذمّر والشكوى، الأمر الذي كان يشرف زوجها أحيانـًا على الجنون. ورغم ذلك كانا سعيدين ويتمتعان بمكانة طيبة بين أهل الحيّ. وكان بائع السجائر لبق الحديث، فزادت مبيعاته لأن الجميع يحبوَن التعامل مع شخص بشوش يستقبلهم باسمًا وينصرفون عنه راضين.

وذات يوم، أصيبت الزوجة بنزلة برد شديدة سببت لها صداعًا حادًا، فأخذِت تعطس وتعطس حتى كاد زوجها أن يفقد عقله. فتذرّع الرجل بالصبر وتجلد لبعض الوقت، ولكنه انفجر عندما تسللت زوجته وجاءت خلسة لتقف وراء ظهره ثم تعطس عطسة بالغة العنف وراء أذنه اليمنى.

وصاح الرجل بين مزيج من الضحك والضيق لما يحدث: "يا حُرمة – يرحمك رب الكلاب والقحَب".

وصرخت الزوجة التي أحست بأن إهانة لا تغتفر وجهت إليها، والتقطت عصا غليظة كانت بالقرب منها، وهوت بها على رأس زوجها بضربة قاصمة؛ ثم تركت المنزل وهي تقولY نها لن ترجع إليه أبدًا، ولن تكون زوجة لرجل يقرن اسم الله بأشياء نجسة مثل الكلاب والزواني.

وتطلّب الأمر كلّ براعة أسرة الزوجة لإقناعها بأن الله هو ربّ كل المخلوقات، بما في ذلك الكلاب، والمطلقات، والخنازير، وغيرها من الأشياء النجسة. وبصعوبة، اقتنعت المرأة بالعودة إلى زوجها الذي لم ينس الشج الذي أصاب رأسه أبدًا، فتعلمّ كيف يُحكم السيطرة على لسانه.

الباشا التركي يشترى فرسًا:

فيما مضى، عندما كانت العراق ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية، كان يعيش في البصرة (أو هكذا يؤكد عبدالله بن حجّى) باشا تركي يتولى حكم اللواء الذي يحمل نفس الاسم، وكان مولعًا بالجياد، ولا يتوانى عن تحيّن أي فرصة لضمّ أي فرس جميلة إلى مجموعته، وأما نقطة ضعف هذا الباشا فكانت تكمن في رغبته في الحصول على الجياد على شكل هدايا فهو أسلوب أقل تكلفة بلاشك من شرائها؛ وفي مقابل ذلك كان الباشا يبسط حمايته ويقدم مساندته لكل من يقدّم له هدية - وهى عادة تركية قديمة كان الجميع يلتزمون بها ولا يحيدون عنها.

وذات يوم، امتطى شيخ شاب من المنتفق فرسًا رائعة في مقتبل العمر وتوجه للقيام بواجب الاحترام نحو الباشا أثناء ترأسه مجلسه في الصباح. وعندما ترجل الشيخ الشاب وشدّ وثاق مطيته في المكان المخصص لذلك أمام السراي، رآه الباشا، وكان يطل من نافذة غرفته، وبعد أن انضمّ الشاب إلى المجلس، وعبّر عن احترامه، ودارت القهوة على جميع الحاضرين، ألمح الباشا إلى الفرس وسأل عمّا إذا كانت من سلالة عريقة.

وأجاب الشيخ الشاب: "أطال الله عمرك، إنها أصيلة من سلالة حمدانية، وقد تربّت أسرتها وأسلافها معنا طوال الأجيال العشرة الماضية".

وقال الباشا: وهل هي للبيع؟

وأُخِذَ الزائرُ إلى حدٍ ما، ولكن نظرًا لأن غرضه من المجيء إلى البصرة كان هو أن يطرح على الباشا قضية تتعلق بأرض متنازع عليها ويسعى بالطبع لأن يكسبها، ردّ بقوله:

"يا باشا، الفرس لك؛ رغم أنني كنت سأطلب ثلاثمائة جنيه تركي ثمنًا لها من أي شخص غيرك؛ وحتى لو عُرِض عليّ مثل هذا المبلغ، فأشكّ أنني كنت سأوافق على بيعها".

ومن العادات الشائعة بين العرب أنه عندما يقدّم رجلٌ هدية لشخصية هامة مثل شيخ آخر أو حاكم ولاية، فهو يحصل مقابلها على هدية أعلى قيمة. ولذلك غمر الشيخ الشاب إحساسٌ بالسعادة وهو يفكرُ فيما يتوقع أن يحصل عليه، وطلب من الباشا أن يرسل أحد خدمه ليسلّم الفرس، ثم نهض وانصرف"

وقال له الباشا وهو يحييه مودّعًا "عفارم، عفارم، عفارم

والعرب يعرفون أن هذا تعبير تركي يعنى أن الباشا يرى أن زائره شخصية رائعة ويتمنى لها كل النجاح.

وترك الشاب فرسه في رعاية خادم الباشا وعادٍ إلى الخان الذي ينزل به في العشار، وهي إحدى ضواحي مدينة البصرة، حاملا معه سرجه، وبعد أسبوع، ونظراً لأن شيئًا لم يحدث، قام بزيارة الباشا مرة أخرى أثناء انعقاد مجلسه الصباحي. فاستقبله بأقصى درجات المودّة والإعزاز، وطلب منه أن يجلس في الصدارة، ثم قدمت أقداح القهوة الثلاثة المعتادة. ولاحظ سائر الحاضرين مدى حرارة التحية التي استقبله بها الباشا، وتصوّروا أن الشاب لابد أن يكون شيخًا له أهميته الخاصة، وربما كان من قبيلة عنزة أو شمر التي تنزل في الصحراء الكبرى.

وعندما نهض الشاب لينصرف قال الباشا: "عُدْ لزيارتي يا صديقي".

وبعد أربعة أيام أخرى، قام الشاب بزيارة الباشا من جديد، ولكن شيئًا لم يحدث هذه المرة أيضًا. ولذلك أخذت زياراته تتتابع إلى أن بلغ عددها اثني عشرة زيارة لسراي الباشا، ومع ذلك لم تظهر أي بادرة توحي بمقدِم الهدية المرتقبة، فأخذ ينتحل كافة الذرائع ليثير اهتمام الباشا ويذكرّه بما كان بينهما بما في ذلك طرح القضية الخاصة بالأرض. وأيضًا لم يحدث أي شيء، ولم يقدم الباشا على أي خطوة سوى المبالغة في تحيته ومخاطبته بأقصى درجات الودّ.

وفي يأس، أخذ الشاب يفكرّ في خطة، فتوجه إلى سوق البصرة الكبير واشترى من أحد تجار الأقمشة المعروفين، كان يراه كثيرًا في مجلس الباشا، قطعًا من الحرير والأقمشة المطرزّة بالقصب، فبلغ قيمتها ثلاثمائة جنيه تركي. وعندما طلب أن ترسَل إليه في جناحه في الخان في العشار، وافق التاجر على الفور وعلى وجهه ابتسامة، فهو يعلم أن المشترى صديق للباشا الكبير وأنه، كما يبدو، شخصية على قدر غير قليل من الأهمية والشأن.

ومرّت عشرة أيام، وذهب التاجر إلى الخان ليطلب ثمن البضاعة بنفسه فاستقبله شيخنا الشاب في بشاشة قائلا: عفارم، عفارم، عفارم.

وسأله التاجر: "ماذا تعنى؟ أنا لا أفهم. جئتك أطلب ثمن البضائع التي اشتريتها فتجيبني بقولك عفارم، عفارم، عفارم"؟!

فقال الشيخ الشاب في شيء من السخرية: اذهب إلى الباشا واسأله عن معنى ذلك، وسوف يشرح لك، أطال الله عمره.

وذهب التاجر إلى الباشا وروى له هذه الواقعة، وقال: كل ما أريده هو نقودي. وأنا لا أفهم ماذا يعنيه صديقي بقوله عفارم، عفارم، عفارم.

وأطرق الباشا العجوز الأريب يفكرَ هنيهة ثم طلب من التاجر أن يعود إلى متجره، وقال: يا صديقي، واللهِ، سوف تسترد اليوم بضاعتك أو تحصل على ثلاثمائة جنيه تركي، اذهب في سلام.

وطلب الباشا إحضار المحاسبجي (الصرّاف) الخاص له وقال: "اذهب سريعًا إلى صديقنا الشيخ الشاب وسلمه ثلاثمائة دينار تركي، وبعد أن تدعو له بالصحة والعافية، قلّ له مرتين: عفارم، عفارم، عفارم؛ إنك أكثر ذكاءً مما كان يتصوّر صديقك الباشا العجوز. ونظراً لأنه لم ينس دينه لك، فلا تنس أنت أيضًا دينك لتاجر القماش، ولترجع إلى بلدك في سلام".

وأقرّ الشيخ الشاب في أدب بتسلّمه للنقود، وأعاد كل البضائع للتاجر على الفور، وقال إنه تبيّن له أنه ليس في حاجة إليها، والتمس منه أن يقبل اعتذاره، وأضاف: "ربما رأى الباشا أن يشتريها".

اليهوديّ والنبيّ:

قال عبدالله بن حجيّ ونحن نتناول القهوة في حديقته "ليكن معلومًا لك يا أبا سعود أنه ليس جميع اليهود في العالم أشرارًا، وقد رأى الله بحكمته أن يُلينَ قلوب البعض منهم وهدى، عن طريق رسوله أكثر من واحد منهم إلى طريق الحق ليدخلوا في زمرته مكرمين.

وسوف تبين القصة الثالثة، التي يعرفها المسلمون، الذين حَسُن إيمانهم، لفخامتكم، أنني أقول الصدق.

في أيام النبي، صلّى الله عليه وسلّم، كان يعيش في مكة، إلى جوار النبي مباشرة، يهودي يُدعى خير. وكان هذا اليهودي متكبرًا، عنيدا شديد التعصب، كما هي حال اليهود عمومًا، ولا يقيم أي وزن أو اعتبار لأي دين إلاّ ما يعتنقه. وتمادى هذا اليهودي في شططه فراح يبذل كل جهد من أجل توجيه الإهانات لأتباع الدين الجديد والتضييق عليهم، وتركزت مساعيه على وجه الخصوص لإيقاع الأذى بمؤسس هذا الدين نفسه.

ولّما كان يعرف أن رسول الله يخرج من داره كل يومٍ ساعة الصلاة ويمرّ أمام مسكنه - مسكن خير - وهو في طريقه إلى المسجد، تصوّر اليهودي أن خير وسيلة لإيذاء مشاعر النبي وإثارة البلبلة في عقول أتباعه، هي أن ينثر أمام باب دار النبي كل محتويات مرحاض أسرته، لدفع النبي - إن أمكن - لأن يطأها، فربما تلوثت ثيابه وهو يهمّ بدخول المسجد.

ولذلك أمر خدمه بأن يجمعوا كل يوم جميع الفَضَلات والقانورات التي يجدونها فوق سطح منزله ومن مرحاضه الخاص، وأن ينثروها على الطريق أمام دار النبي. وبعد أن نفذّ الخدم ما أمرهم به، أخذ يرقب ما يجري من وراء الشناشيل (نافذة شبكيةِ التكوين) في غرفة في الطابق العلوي، مزهوًا بخطته، ومنتظراً ليرى كيف سيتلقى النبي هذه الإهانة.

ولكن اليهودي خير لم يحقق مأربه، لأنه عندما كان النبيّ يخرج إلى الطريق كل مرّة، كان يرفع عباءته حتى لا تتلوث، ثم يخطو في حذر بين القاذورات المتناثرة، ويشق طريقه إلى المسجد ويؤدى الصلاة. ولم يستطع رفاق النبي، الذين راعتهم تلك المحاولات السافرة لمضايقة سيدهم والتحرش به، أن يكبحوا جماح أنفسهم، وبعد بضعة أيام، دخلوا في جدل عنيف مع رسول الله.

قالوا: لماذا لا تتكلم وتأمرنا بأن نذهب إلى بيت هذا اليهودي الملعون فنؤدبه، أو أن نطلب منه، على الأقل، أن يكف عن مسلكه المشين؟

فأنبهم النبي قائلا: يا أبنائي، إن خير اليهودي جاري. والله يقول إن أول واجبات المرء هو أن يحسن معاملة جاره. دعوه وشأنه، والله المستعان عليه، وهو الذي سيتولى حسابه.

وعندما استمرت احتجاجات الأتباع الذين بدءوا يتساءلون عمّا هو المقصود بالواجب الأول على المرء، قال النبي: يا أتباعي: بعد الامتثال لأوامر الله الواحد الحق، هناك ثلاثة واجبات لابد للمسلم أن يلتزم بأدائها، ويمكن تركيزها في الكلمات الآتية: "جارِهِم، ثم جارِهم وجارِهِم"

وكان يعنى بذلك أن الواجب لأي امرؤ هو واجبه تجاه جاره، وهو كذلك واجبه الثاني، والثالث. وتعجّب الأتباع لهذا القول من رسول الله وأخذوا يهمهمون فيما بينهم.

ودارت عجلة الزمن، ولم يكفّ اليهودي يومًا عن ممارسة أساليبه الكريهة

ولا أحسّ بالخجل مما يفعل. واستمر النبي من جانبه في التوجه كل يوم لأداء الصلاة، ولم يُبْدِ أبدًا، لا بالقول ولا بالفعل، أي ضيق أو تبرم لما يفعله اليهودي المتعصب.

ومرّ عام، وأصيب خير اليهودي بمرض عضال. ولاحظ النبي أنه لم تعد هناك أقذار توضع أمام بابه، فسأل أتباعه عن السبب، فأبلغوه أن خير يرقد صريع المرض في منزله المجاور لداره، وأنه أشرف على الموت. وانزعج النبي أشد الانزعاج لهذا النبأ، وقال:

مسكين هذا الرجل، مسكين هذا الرجل، يجب أن نذهب لنرى ماذا يمكننا عمله من أجله، أليس جارنا؟ اذهبوا أيها الأصدقاء، على الفور، وأبلغوه تحيات محمد وأطيب تمنياته، وسَلُوه ما إذا كان في مقدوري أن أفعل أي شيء من أجله.

ولم يقوَ النبي على الانتظار لحين عودتهم، فتوجه بنفسه هو الآخر إلى مسكن اليهودي خير، وطلب السماح له بدخول غرفة المريض دون إبطاء.

وعندما رأى المريض قال له: كل ما أملك وكل ما أنت في حاجة إليه في مرضك، لك يا جاري، أطلب منّي أي شيء تريده وسوف ألبيّ طلبك، وليعافيك الشفيع الرحيم. وتفرسّ الرجل المريض في وجه رسول الله وقد استبدّ به العجب، وسأله - بشفاهٍ واهنة ترتعش:

ألست أنت الدجال المدعو محمد الذي يعيش في المسكن المجاور لمسكني؟ ألست أنت الرجل الذي لم أكف، طوال الأشهر الماضية، عن محاولة إيذائه وتلويثه بتكليفي خدمي بوضع القانورات والمخلفات البشرية أمام بابك مباشرة؟

وقال النبي: نعم يا جاري، أنا هذا الرجل. ولكن الأشياء التي تذكرها لا وزن لها، ولقد نسيتها جميعًا. والحق، أنني جئت الآن لأخدمك ولأفعل كل ما أستطيع من أجلك في مرضك، أرجوك، قل لي ماذا تطلب:

وأغمض خير عينيه لمدة طويلة وهو يتعجب، وعندما فتحها، كانت الدموع تترقرق غزيرة فيهما، واكتسى وجهه بالسعادة وكأنه رأى السماء تفتح أبوابها أمامه لتكشف له عن مجد الله، وقال: أُدْنُ منيّ، يا من اصطفاك الله. ثم واصل حديثه في صوت جهيد تشيع نبرة سعادة وبهجة وصاح: "اشهد ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وهنا أسلم الروح، ونزلت ملائكة السماء فغسلّته وكفَنته في ثوب طاهر، وأخذوا جسده فدفنوه في مقابر المسلمين بمكة، حيث يحظى بالتبجيل حتى اليومَ

وهكذا، وبقدرة الله، آمن خير اليهودي بالدين الجديد، وأصبح اسمه يذكر بكل الإعزاز والاحترام بين المسلمين. وتكريمًا له، فعند نهاية صلاة الفجر، غالبا ما يقول المسلم لحق: "يا الله، صباح الخير"، كتخليد لذكرى اليهودي خير، الذي تحوّل إلى الإسلام".

شفاء سعود بن عقاب

وكان من بين أصدقائنا أيضًا سعودٍ بن عقاب، وهو بدويّ من عنزة، كان يعمل حارسًا في شركة النفط. كان رجلاً صالحا في حوالي الخامسة والثلاثين، قدّمه لنا فخامة الشيخ أحمد، وكان الموقع الذي كلّف بحراسته هو محطة الضخّ على بعد ميل جنوب الشعيبة، على الساحل. وفي أحد الأيام، كان الحراس تحت إشرافي المباشر وعندما قمنا أنا وزوجتي بزيارة نقطة الحراسة بمحطة الضخ، وهو ما أَلِفنا القيام به من وقت لآخر، تناولنا القهوة مع سعود الذي رفض تمامًا أن يكون لقاؤنا في كشك الحراسة وأصر أن يكون ذلك في خيمته التي نصبها على مقربة من نقطة حراسته، ليقيم بها هو وأسرته.

وفي يوم من أيام الربيع سنة ١٩٣٩م، بدأ الحارس سعود يشكو من صداع رهيب يعقبه تدنّي سريع في قوة الإبصار. ولما فشلت أقراص الأسبرين والمكمدّات الساخنة..الخ في علاجه، أحضرناه أنا وزوجتي إلى الكويت في سيارتنا وأدخلناه مستشفي الإرسالية الأمريكية. وبذل د. مايلرى كل ما في وسعه، وأحاط سعود بكل رعايته، ولكن دون جدوى، وبعد عشرة أيام، أبلغني أنه على يقين من أن مشكلة سعود هي ورم خبيث بالمخ.

واستمرت حالة سعود في التدهور يومًا بعد يوم إلى أن اضطر الدكتور مايلرى إلى وضعه تحت الملاحظة طوال الوقت تقريبًا، لتخفيف الآلام التي لا تحتمل التي يعانى منها، وذات صباح، توجهت إلى المستشفي، فعلمت أن الدكتور مايلرى أصدر تعليماته لأقارب سعود بأن يعودوا به إلى منزله في ذلك الصباح، لأنه لم يتبق أمامه سوى بضع ساعات ويسلم الروح، وأنه من الأفضل أن يموت بين أحبابه، وفي كنف أسرته، وهو إجراء إنساني درجت عليه السلطات المسئولة بالمستشفي، ويقدّره السكان العرب في الكويت كل التقدير.

وأكد لي مايلرى أن حالة سعود ميئوس منها تمامًا وأنه سيسلم الروح لا محالة خلال ساعة أو ساعتين، وعدت إلى منزلي وأبلغت هذا النبأ المؤسف لزوجتي ولفخامة الشيخ أحمد، ولم نكن نعرف إلى أين سيتوجه أقارب سعود به. والمرء يتعلم في الكويت كيف يواجه هذه المآسي المتعلقة بالموت بلا انفعال "فكل شيء من عند الله"، والتعليق الوحيد الذي تسمعه من الجميع هو: "الله أعطى، والله أخذ، ومن الخطأ أن نبكى أو ننتحب من أجل شخص رأى الله، بحكمته، أن يأخذه إلى جواره".

ومرت خمسة عشر يومًا، وخرجنا أنا وزوجتي في جولة على الجياد بين خيام البدو وأكواخهم المشيدّة من البوص في الشامية، وهى منطقة خارج المدينة يحافظ الجميع عليها جيدًا كموقع لضرب المخيمات التي ينزل بها بدو الصحراء في الصيف. وكنا كثيرًا ما نقوم بمثل هذه الجولات، كما كان لنا العديد من الأصدقاء بين هؤلاء القوم. وفجأة سمعت صوتًا يناديني باسمي: يا أباسعود، يا أباسعود!

وبدا كأن الصوت يأتي من صريفة (كوخ مبنى بالحصير)، وتوجهنا إليها، فرأينا أمامنا امرأة زنجية بشوشة على قدر من الوسامة والجمال، تجلس وهى تغزل بعض خيوط الصوف؛ وقلت: "من الذي يناديني باسمي؟

أواه ! إنه خادمك سعود بن عقاب، وأنا أقوم بعلاجه، إنه بالداخل يتماثل للشفاء ورآك من بعد على ظهر جوادك. أدخل لتراه.

وسلّمنا أنا وزوجتي جوادينا لبعض الشباب الذين تجمعّوا حولنا، ودخلنا الكوخ، وقد أخذ العجب منا كل مأخذ. ورأينا الرجل الذي تصورنا أنه مات ودُفن منذ أسبوعين. وجلسنا إلى جانبه واستمعنا لقصته.

قال: أرسلني الطبيب الإنجليزي إلى منزلي لأموت بين أهلي، ولم يكن يعلم أن الجنيّ الشرير تلبّسَني وأخذ يقتلني. ولكن بنت الحلال هذه أدركت حقيقة المرض بمجرد أن رفعت عيناها عليّ، وعلى الفور، أزالت كل شعر رأسي وكوَتني على شكل صليب عميق يمتد من الأذن إلى الأذن ومن الجبهة إلى مؤخر العنق، لتسمح للأرواح الشريرة بالخروج. ثم أمرت هذه الأرواح بأن تخرج من جسمي باسم الله. وعلى الفور، خرجت منى، وتركتني كالميّت. وعندما استيقظت، وجدت هذه الزنجية الطيبة تقوم برعايتي وتتلو عليّ القرآن. وظلت

تفعل ذلك طوال اليوم، فشكرًا لها؛ حتى تحسنت حالتي الآن واستعدت قدرتي على الإبصار، ولم أعد أعاني إلاّ من شيء من الضعف.

وطوال حديث سعود، كانت المرأة الزنجية تقف إلى جواره وهى تبتسم في حياء؛ ثم قالت في بساطة: لقد وهب الله لي هذه القدرة.

وشكرناها بحرارة وأعطيناها ثماني روبيات قال سعود إنه مازال مدينـًا لها بها. وشكرنا سعود نحن أيضًا وهو يقول الله هو الذي ساقنا إليه.

وتحسنت حالة سعود تمامًا، ولكنه استقال من عمله في الحراسة، وابتسم صديقى الدكتور مايلرى ابتسامة لا تخلوا من التجهمّ عندما أخبرته بهذه القصة، وأعتقد أنه لم يسعد بها كثيرًا. !

وبالرغم من عدم ذيوع شهرة الدكتور مايلرى في العالم الخارجي، إلاّ أن حياته العملية التي قضاها في الخليج، وفي الكويت في الجانب الأكبر منها، تسمح تمامًا بأن يُدرج اسمه في عداد أعظم البريطانيين في هذا القرن. وإن جولة قصيرة في الأسواق لتؤكد مدى ما كان يحظى به من حب واحترام، فالجميع يهرعون لمصافحته، والترحيب به، سواء من الشيوخ أو التجار، ومن أثرياء القوم أو من أشد المتسولين فقرًا. وما من أحد يلتقي به إلاّ ويتذكر مرضًا، شفاه منه، وغالبًا ما يكون قد مضى على ذلك العديد من السنوات.

وكانت لديه دائمًا الكلمة المشرقة التي يقولها لشخص، في السرّاء وفي الضرّاء، وكان يقتبس بعض فقرات من الإنجيل-أو ربما من كتاباتِ ديكنز - ليدخل الطمأنينة والبهجة على قلوب كل من يحيطون به. ونظرا لتضلعه في اللغة العربية، هو وزوجته بيسّي، كان يحفظ الإنجيل عن ظهر قلب باللغتين الإنجليزية والعربية، وكان الاستماع له مساء الأحدِ من كل أسبوع في كنيسة الإرسالية وهو يلقى الدروس دون أن يلقى نظرةً، إلاّ نادرًا، على الكتاب، أشبه ما يكون بالاستماع لقصة جديدة وليس لحديث رتيب ومُعَاد.

ومنذ بضعة أعوام، تقاعد ورحل ليعيش في جنوب الهند، وفي شهر ديسمبر ١٩٥١م جاء إلى الكويت في إجازة واستقبل بها العام الجديد معي ومع زوجتي، ثم توفي ٣ من يناير ١٩٥٢م. وفي كلمة رثاء له نشرتها زوجتي في جريدة التايمز، قالت زوجتي:

كان يحب كل شيء من حوله: مشهد شروق الشمس من منزله في الشتاء،

والنجوم في ليالي الصيف، والبحر، والقوارب ذات الشراع، وزهور الربيع في الصحراء وخاصة زهور النرجس الأرجوانية، التي يأتي بها إلى تله الرملي ومعها زهور الربيع الصفراء والبيضاء التي تنمو في الصحراء لتشكل بستان زهوره الوحيد. وفي البيت الذي شيدّه بنفسه وعاش فيه سنوات عدّة، أسلم الروح؛ ودفن في مقابر المسيحيين بجانب النصب التذكاري لصديقه الكابتن شكسبير، الذي تولى منصب الوكيل السياسي في وقت من الأوقات، وكان الإنجليزي الوحيد الذي لقي حتفه في الكويت في تلك الأيام في معركة جراب عام ١٩١٥.

وكانت جنازة د. مايلرى مؤثرة إلى أبعد الحدود، وتوجه عدة آلاف من العرب الي مقابر المسيحيين حيث ألقى الشيخ فهد السالم الصباح، شقيق الحاكم، كلمة رثاء مؤثرة.

وفي كل ربيع، تحاول زوجتي أن تزرع مجموعة جديدة من شجيرات النرجس على قبره، وها هي تنمو هذا العام ١٩٥٤، مزدهرة يانعة.

صُوفي كويتيّ:

ذكرّني شفاء سعود بن عقاب بحالتين عزيزتين أخريين أرى أنه من المناسب أن نعرضهما في هذا السياق. وتتعلق الأولى بسيد ياسين.

كانت الحياة في الكويت شديدة البدائية قبل نشأة شركة النفط؛ وكانت هناك جرائم القتل، والأحقاد العرقية، والغارات التي تشن من الصحراء، وجماعة الإخوان المتعصبة، والجن، والمعتقدات الساذجة وغيرها من أشكال الإيمان بالخزعبلات والخرافات. ووفقاً لنوع الوجود الذي يتحدث عنه العهد القديم، لم نكن نعدم ظهور أدعياء نبوّة بين الحين والحين.

وفي ذلك الوقت، كان نبي الكويت وقطبها الصوفي هو سيد ياسين وهو رجل صالح رقيق القلب من الرعيل القديم، وليس هناك من نقيصة يمكن أن تنسب إليه. وكان يعيش في فصلي الشتاء والربيع مع نفر من أتباعه في شبه جزيرة رأس عشيرج، على بعد حوالي الخمسة عشر ميلاً غربّي الكويت، وأما في ذروة الصيف، فكان يعيش في منزل في وسط مدينة الكويت، ليس بعيدًا عن البحر، ملاصق لبيت حمد الخالد، ذلك التاجر القديم صاحب النفوذ وصديق الأتراك.

وكانت لسيد ياسين ندرة فائقة على لأم الجراح وخاصة عضّة الثعابين أو لدغة العقرب. وكانت الإصابة بالسعال، أو نزلات البرد، أو الحمى، أو الدرن، أشياء متشابهة بالنسبة له، وكان البعض يصفون أسلوبه في التعامل مع الأمراض بأنه العلاج بالإيمان، أما هو فكان يقول إنها يد الله تعمل من خلاله.

وكان يقول دائمًا: أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا بنفسي، ولكنى أدعو الله أن يشفي المريض وهو، برحمته، يلبيّ ندائي.

وكان يضع كفّه فوق رأس المريض ويقول: آمن بالله وسوف يشفيك من مرضك، اذهب في سلام.

وكان يستخدم الماء كبديل للدواء؛ فيطلب قدحًا منه، ويبدو وكأنه يبصق فيه ولكنه لا يفعل ذلك في الواقع، ثم يقول للمريض إنه ليس عليه إلا أن يشرب الماء وسوف يصبح كل شيء على ما يرام. ولابدّ أن هذا الأسلوب حقق النجاح، وإلا فكيف تفسير هذا الحشد من الحالات التي يقبل عليه فيها من يعانون من المرض طلبًا للشفاء؟ ولم يحدث أبدًا أن حصل على أجر، أو قتل وحشًا أو أحد الزواحف الضارّة.

كان يقول: إنها مخلوقات الله، فلماذا نلحق بها الأذى؟

أما تعامله مع العقارب فكان مثيرًا للدهشة حقًا، فهي من جانبها لا تلدغه أبدًا، أما هو فكان يستطيع أن يمسك بها وكأنها أكثر المخلوقات وداعة، وكان يقول لأصدقائه إن العقرب لا يمكن أن يلحق بهم أي أذى إذا شعرت أن أحدًا لا يريد بها شرًا.

قل للعقرب أنا لا أريد بكِ شرًا، عندئذ لن تؤذكي، وسوف يمضى كل شيء في سلام.

وكان له عدد كبير من المريدين الذين يتبعون تعاليمه ويمكنهم أن يمسكوا الحشرات شديدة الخطورة، وأن يتعاملوا معها، ومن بين هؤلاء المريدين محمد الصانع الذي عمل في وقت من الأوقات سائقًا لسيارتي.

وربما كان أكثر ما يثير الدهشة من القدرات التي توفرت للسيد ياسين هي شفاء المرضى الذين تعرضوا لعضّات الحيّات السامة وخاصة الأفعى الخبيثة والكوبرا؛ ولكن بشرط أن يأتوا له بالمصاب على وجه السرعة، حيث تؤدى إقامة الصلاة وتلاوة الدعوات إلى جانب بعض التدليك لليدين، إلى زوال الألم على الفور

وشفاء المصاب. وبالرغم مما كان لدينا من أطباء يمارسون عملهم في الإرسالية وغيرها، وتوفر الأنواع المختلفة من الأمصال المضادة للسموم، كان العرب، بشكل عام، يفضلون الذهاب إلى سيد ياسين أولاً. وقد التقيت مرتين برجلين من البدو وكان كل منهما في شبه غيبوبة، ويكاد أن يسلم الروح نتيجة للدغة أفعى خبيثة، وفي المرتين، كان المصاب يتوسل ألا أذهب به إلى المستشفي، وإنما أذهب به إلى حيث يقيم سيد ياسين، وكنت ألبي طلبه.

ولعل أشد الأمثلة إثارة للدهشة والتي تبين قدرة سيد ياسين على علاج لدغة الحية هو ما شاهدته بنفسي والذي سأرويه الآن؛ وكنت أعرف جميع الأطراف ويمكنني أن أقسم بصدق القصة. ولكنى لا أزعم أنني أقدم تفسيرًا لما رأيت أو لما حدث بعد ذلك.

شفاء الشيخ لافي:

في أوائل صيف ١٩٤٥، كان صديقي الشيخ لافي بن معلث، من الدياحين من مطير، ينزل بمخيمَ يضمَ أربعين خيمة ومعه حوالي الأربعين من قومه، بالقرب من آبار الطويل على بعد حوالي الثلاثين ميلاً شمال الكويت. وبعد غروب الشمس بفترة وجيزة، رأى الشيخ لافي وهو يجلس بجوار نار أوقدها لإعداد القهوة، في الضوء الخافت، حيّة خبيثة ذات قرون، جذبهاً الضوء المنبعث من النار، فأخذت تزحف منسّلةً لتقترب منها، وفي رعب مفاجئ، ركلها ركلة شديدة بقدمه العارية، ولكن الحية كانت أسرع تحركًا منه، فأطبقت بأنيابها على مشط قدمه وتشبثت به وجسمها يتدلى ويتموّج على الأرض.

وصرخ الشيخ لافي يطلب النجدة، ولم تنقض بضع ثوان إلاّ وكان أصدقاؤه قد انتزعوا الحية وقتلوها. وكانت حية كاملة النمو ومن السهل التأكد من موتها. واستخدم أصدقاء لافي الجبائر لوقف النزيف، وربطوها أسفل الركبة على الطريقة البدوية، ولكن شقيقه كان أسرع تصرفًا من الجميع فقفز وامتطى جواده وهرع إلى الكويت عاقدًا العزم على لقاء سيد ياسين والتماس العون منه، وكان يعرف أن الشيخ لافي لن يستطيع الوصول إلى المدينة قبل الصباح، إذا قُدّر له أن يصل إليها أصلا. وشق طريقه دون إبطاء فوصل إلى الكويت عند منتصف الليل، وأيقظ سيد ياسين وأخبره بقصته على عجل.

لا أعتقد أن شقيقي يمكنه الوصول إلى الكويت خلال ثمان ساعات أو أكثر، وعندئذ سيكون السم قد أجهز عليه".

وأطرق سيد ياسين رأسه هنيهة وراح يتأمل، ثم قال في رزانة ووقارٍ: اذهب في سلام يا بُنيّ، وسوف تجد أن الشيخ لافي شفاه الله من عضّة الحية ابتداء من هذه الساعة، اركب مطيتك الآن وامض إلى حال سبيلك وسوف تجده معافى، ولم يعد يتهدده أي خطر.

وامتطى الشاب راحلته وخرج في طريق العودة في المساء، ومشاعره موزعة بين الفرحة والخوف، وعلى بعد خمسة عشر ميلا التقى بشقيقه وهو يمضى على الطريق في بطء، ويعاني من الصدمة، ولكن حالته كانت مطمئنة بشكل عام. قال لافي: "فجأة غادرتني آثار السم وشعرت أنى نجوت".

وعند مراجعة التوقيت الذي حدث فيه ذلك، تأكد أن المعجزة تحققت في نفس الساعة التي أخبر فيها سيد ياسين الشقيق الأصغر أن الشيخ لافي نجا بفضل الله.

وبعد ثماني ساعات، رأيت الشيخ لافي في مجلس الشيخ عبدالله الأحمد، أكبر أبناء شيخ الكويت، وكان يتحدث ليبين كيف كتبت له النجاة في الليلة الماضية، وبعد أن حمد الله أطلعني على آثار الإصابة في مشط قدمه، وأخبرني – أنا وكل الحاضرين الذين أنصتوا في اهتمام لما يقول – كيف ران عليه الخمول والكسل، وكيف غاب عن وعيه تمامًا بعد أن مضت به راحلته لمسافة ميلين خارج الكويت. وفي مواجهة هذا التطوّر، أحكم مرافقوه وثاقه إلى دابته، وكلفوا رجلا بامتطاء نفس الدابة معه لمساندته وقيادة الركب، وتباطأت الخطى حتى لا تكاد تتجاوز سرعة من يمشي على قدميه، وعند حوالي منتصف الليل، استرد الشيخ لافي وعيه وطلبٍ من أصدقائهٍ أن ينيخوا البعير، ونفذوا ما طلب، وبعد أن حلوا وثاقه، نهض واقفا؛ كان ضعيفا، ولكنه استرد جانبا كبيرًا من عافيته.

وقال: وبعد ساعة، شعرت أنني أحسن كثيرًا، فأزلت الجبائر التي كانت تؤلمني ألما شديداً، ووصلت إلى الكويت عند الفجر، والحمد لله على رحمته التي لا حدود لها، وتوجهت رأسًا إلى منزل سيد ياسين وعبّرت عن شكري وامتناني فقال لي: "الحمد لله وحده، ولا تذكرني أنا، فأنا لا أفعل شيئا بنفسي، وإنما أدعو الله فيلبّى دعائي. تبارك الله العظيم.

وفاة سيد ياسين:

لم ألتق بسيد ياسين إلاّ مرّة واحدة، وتأثرت به كثيرًا، وكنّا نراه أنا وزوجتي وهو يجلس على دكته (دجته) على شاطئ البحر، وتوفي عام ١٩٤٨ بعد أن تقدمت به السن، وليس لإصابته بأي مرض، ولم يخلف أطفالاً، وبكى عليه الجميع.

طرد روحين شريرتين من بطحاء:

وتدور قصتي الثانية حول بطحاء، زوجة معزي بن بيثل الجبيلي، المطيري الذي كان يعمل حارسًا مقيمًا لدينا، كما تدور أيضًا حول مطيري آخر هو محمد المرزوق، الذي كان يتولى العناية بأمر جيادنا في الكويت، وكان محمد متزوجا من (موضي) الزوجة السابقة لفلاح الأمير، وهي امرأة تتميز بشخصية قوية وتنتمي إلى الرخمان من مطير، وكانت تقيم في الجهرة، على رأس خليج الكويت، وقد استمرت علاقات الصداقة بيننا وبينها لمدة خمسة عشر عامًا، اعتادت أثناءها أن تأتي لزيارتنا، ومعها زوجها، بين الحين والحين.

حدثت الواقعة التي سأرويها في مارس ١٩٤٩، عندما استقال الدكتور مايلرى وحلّ محله الدكتور ج.هـ بايكرك كطبيب للإرسالية، وكانت بطحاء تعيش مع شقيقتين لها في الفحيحيل، بجوار خيمة خلف، الزوج المطيرى لابنة معزى. وكان خلف يعمل في خدمة فخامة الشيخ أحمد، وكنا نصرّح لمعزى بالذهاب إلى الفحيحيل كل أسبوع لقضاء يوم وليلة مع زوجته بطحاء وولديه الصغيرين فرج وعبدالله.

وذات يوم، أبلغنا معزى أن بطحاء أصيبت بمرض لا يستطيع له دفعًا، وأن حالتها تزداد تدهورًا بمرور الوقت. وبعد أسبوع، أبلغنا أن الهزال بلغ منها مبلغه، وأن ضرعها جف لبنها حتى اضطرت لإرسال صغيرها عبدالله إلى الصمان، على بعد مائة وخمسين ميلاً، لترعاه قبيلة أمه.

وبعد أسبوعين أو أكثر قليلاً من إصابة بطحاء بهذا المرض غير المعروف، أبلغنا معزى مرة أخرى أن حالتها بلغت حدًا من التدهور يتوقع معه وفاتها وشيكا، وأنها أصبحت هزيلة لدرجة مخيفة، ولا يمكنها أن تتناول أي طعام، أو أن تقف على قدميها. وكان ذلك بعد آخر زيارة قام بها لنا، وتوسلّ إليّ أن أذهب

لأرى بطحاء بنفسي أثناء جولتي التفتيشية التالية في ميناء الأحمدي الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من خيمة بطحاء. وكان اليأس قد بلغ بمعزى الحدّ الذي دفعه لشراء كفن لزوجته، ومن أجل رفع روحه المعنوية، غادرت ميناء الأحمدى في اليوم التالي عاقدًا العزم على زيارة بطحاء لأرى الوضع بنفسي، ولأحضرها إلى الكويت في سيارتي إذا لزم الأمر، وإدخالها مستشفي الإرسالية الأمريكية. وأخبرت معزى بكل ما انتويت عمله، فوافق تمامًا على كل الخطوات، وقال إنه لن يرافقني بنفسه لأنه لا يقوى على رؤية زوجته الشابة وهى تتألم.

وعندما وصلت إلى الصفّ الطويل من خيام البدو جنوب غرب ميناء الأحمدي، علمت أن بطحاء وشقيقتها يعشن في أقصى الغرب، فتوجهت إليهن، وأوقفت السيارة خارج الخيمة. لم تكن بطحاء داخلها، وإنما كانت ترقد وهى في أشد حالات المرض في عشة صغيرة شيدتها شقيقتاها لها بالقرب من الخيمة. واصطحبتاني إليها، فصدمت لرؤية هذا الهيكل الهزيل المتهاوي لبطحاء ممددًا فوق لحافٍ وسط قاذورات وأوساخ لا توصف، ومغطى ببعض الأوراق، كانت تئن في رقدتها، وعندما سألتها عن حالها، جلست بصعوبة وقالت وهى تلهث وتتنهد في إيقاع منقطع يمسّ شغاف القلب، أنها ستموت. كانت هزيلة وكأنها فرع شجرة أصابها الجفاف، وبدت أقرب إلى الهيكل العظمى منها إلى الإنسان الحي. وعندما أمسكت بذراعها للتعرّف على نبضها، كانت من الهزال بحيث أمكنني، بكل سهولة أن أقبض على رسغها كله بين سبابتي وإبهامي. وكانت درجة حرارتها مرتفعة.

وبصعوبة، تمكنت من أن توضح لي أنها لا تستطيع أن تأكل أو تشرب أي شيء دون تلفظه معدتها على الفور، وأنها بلغت من العنف الحدّ الذي لا تستطيع معه الآن إلاّ أن تزحف على يديها وركبتيها إذا أرادت الوصول إلى باب كوخها، وقالت أن سعالها جاف، ويصاحبه خروج الدم أحيانـًا، ولكنه ازداد كثيرًا الآن.

يا لبَطحاء المسكينة! وما أبشع التغيرّ الذي حاقَ بتلك الشابة المشرقة مكتملة الصحة التي نعرفها جيدًا! وكان من الواضح أن حالتها ميئوس منها تمامًا. إنه الدرن شديد العدوى، سريع الانتشار. وتصورت، نظرًا لكثرة ما رأيت من حالات الإصابة به بين البدو، رجالاً ونساءً، إنني على صواب فيما ذهبت

إليه من تشخيص لحالتها، وأخبرتها أنني اقترح، بعد استئذان زوجها، أن أنقلها إلى المستشفي، وسألتها عن جاراتها اللاتي يمكنهن مرافقتها. وتوسلت بطحاء، وعيناها تترقرقان بالدموع، ألاّ أفعل ذلك على الفور لأنها على درجة شديدة من الضعف والوهَن وتخشى أن تلفظ أنفاسها في سيارتي. وطلبت منّى أن استدعي طبيب الإرسالية ليكشف عليها بدلاً من أن تتوجه هي إليه، وقالت إنها ربما تمكنت من الذهاب فيما بعد. وأصّرت على موقفها، فلم يسعني إلاّ أن أوافق، وكنت أعلم أن الدكتور بايكرك سيرحب بالمجيء من الكويت، ولذلك فلن يغيرَ يومٌ أو يومان من الأمر شيئًا. وناولت بطحاء قدرا من بيكربونات الصوديوم مع قليل من الماء، وفرحت عندما وجدت معدتها لا تلفظها، وتركت لديها كمية من المسحوق، وطلبت من شقيقتاها أن يعطياها جرعة أربع مرات في اليوم، بالإضافة إلى كميات ضئيلة من اللبن الدافئ، بواسطة ملعقة شاي، كل ساعتين، وقبل أن أنصرف، رفعت الفتاة بذراعيّ لأرى ما إذا كانت تستطيع أن تقف، فتهاوت على الأرض فور أن أبعدت يديّ عنها، وكان مشهدا محزنا، هزّني من الأعماق.

وعدت إلى الكويت، وأبلغت زوجتي بكل ما رأيت، كما أبلغت زوجها معزى، الذي كاد أن يتمزق من القلق. وفي نفس المساء، وقبل أن أتمكن من التوجه إلى د. بايكرك لأطلب منه القيام برحلة قصيرة في الصحراء لزيارة بطحاء، وصل خَلَفْ من الفحاحيل، ومعه رسالة إلى معزى من زوجته تناشده فيها أن يأخذها إلى امرأة عجوز في الجهرة اشتهرت بالحكمة. لإحساسها، أي البطحاء، بأن الكيّ قد يجدي في حالتها، وربما أنقذها من الموت.

وفيما يلي عرض للأسلوب العربي في التصدي لمرض الدرن: كانت العملية تجرى عادة باستخدام الأوتاد المعدنية للخيام بعد تسخينها إلى درجة الاحمرار، ويثبت منهما على الرسغ الأيسر. وإذا لم يحقق ذلك أي تقدم خلال أسبوعين، تُكرر العملية ولكن على الرسغ الأيمن هذه المرّة. وإذا لم يطرأ أي تقدم رغم كل ذلك، يتم كيّ المريض أسفل اللسان، وهى خطوة تنتج عنها آلام رهيبة، وتؤدى إلى تورّم الفم، مع عجز المريض عن الكلام لعدة أيام.

وتوسلت بطحاء لمعزى أن يوافق على طلبها. ونظرًا لترددي في قراري، تقدم محمد المرزوق، الذي سمع كل شيء، واستأذن ليتكلم، فتطوع بأن يتوجه إلى

الفحيحيل صباح اليوم التالي، وأن يصحب بطحاء إلى الجهرة حيث تقيم زوجته موضي، وأبدى رغبته في عدم مصاحبة معزى لهم، لأنه لن يكون إلاّ عقبة تعرقل تحركهم، وأضاف أنه سيتولى أمر توفير سيارة، وكافة التفاصيل الأخرى.

كان محمد قويّ الحجة واثقًا من نفسه، بابتسامته ووجهه البشوش، واستجبنا أنا وزوجتي لما طَلب، وكذلك لم يبد معزى أي اعتراض. ولقد علمتني تجربتي الطويلة أنه في مثل هذه الحالات، وبين قومٍ يعولون كثيرًا على ما يؤمنون به، فغالبا ما تتحقق المعجزات.

وقلت لمحمد: اذهب. وليسبغ الله عليك من نعمائه، عسى أن تتجه إرادته إلى أن تشفي بطحاء.

وخرج محمد صباح اليوم التالي ولم تصلنا أي أنباء عنه لمدة أربعة أيام.

وهمس معزى يقول: عسى أن يكون الله قد رضى عنها وكتب لها الشفاء"، فرددنا أنا وزوجتي لي الفور، وبكل صدق: إن شاء الله" ثم أضفنا في حماس "الله كريم".

وفي اليوم الخامس، وقت الظهيرة، وصل محمد المرزوق عائدًا من حيث كان، تغمره الفرحة والبسمة تشرق على محيّاه.

وقال: سبق أن أخبرتكم بأن كل شيء سوف يكون على خير ما يرام، فالله قادر على كل شيء، ها هي بطحاء استردت صحتها وأصبحت في حالة جيدة وشفيت من مرضها. ولقد ذهبت بها لتوّي إلى حيث تقيم شقيقتاها في الفحيحيل وسارعت لأبشركم بالنبأ السعيد.

طرد روحين شريرتين من البطحاء:

وروى لنا كيف أخذ بطحاء إلى الجهرة وهى في حالة أقرب إلى الموت، وتوجه بها إلى المرأة العجوز الحكيمة التي تعيش هناك، وكانت برفقتها موضي، وبعد فحص المريضة، أعلنت المرأة العجوز أن حالة بطحاء ليست من الحالات التي يصلح لها الكيّ، ولكنها في حاجة إلى طرد روح شريرة، لأن الجنّ تلبّس جسدها وسوف يقتلها لا محالة إذا لم تطرده، ثم طلبت المرأة العجوز، باسم الله، من الجنّ أن يخرج.

وقال محمد: " ويا للعجب! لقد خرجت منها روحين شريرتان وليس

روحاً واحدة؛ وكانت كل منهما تعوي بصوت خفيض أشبه بصوت صرير خافت حاد، كما يفعل الجنّ، طالبةً السماح بالاستمرار في تلبّس الفتاة. ولكن العجوز الأريبة لم تأبه لما تهذيان به وأمرتهما بكل حسم وإصرار، باسم الله الرحيم القادر على كل شيء، أن تخرجا وتذهبا إلى مثواهما تحت الأرض.

ووصف لنا محمد كيف رقدت بطحاء وكأنها فارقت الحياة لفترة عندما غادرتها الروحان الشريرتان، وعندما استردت وعيها، اصطحبتها موضي إلى منزلها حيث تحسنت حالتها تحسناً ملموساً خلال يومين وليلتين، ولذلك قرر أن يعود بها إلى حيث تقيم في الفحيحيل.

وأضاف محمد وابتسامة مشرقة تعلو وجهه: والله، إنها تأكل الآن كالناقة، والحمد لله، كما سارت على قدميها اليوم ووصلت إلى ساحة سيارات النقل المتجهة إلى الجهرة، أي حوالي ربع الميل، وهي تحمل مكسرها (سرج البعير) فوق رأسها، وأنت تعرف مدى ثقل وزنه، يا أبا سعود، كما ركبتِ الشاحنة المرتفعة عن الأرض دون أي مساعدة.

كانت القصة مذهلة صعبة التصديق، ولذلك أخذت أروّض نفسي لمواجهة اسوأ الاحتمالات؛ فربما كانت هذه هي الطريقة التي يلجأ إليها محمد ليبلغنا بنبأ موت بطحاء. وقلت له، دون مواربة، إنني لا أصدق كلمة مما يقول، وإنني سأحتفظ بتقييمي لما حدث إلى أن أرى بطحاء بنفسي وهي على الحالة التي وصفتها: على قيد الحياة، وفي تحسن مستمر، وأرسلت معزى، بسرعة البرق، إلى الفحيحيل، وأخبرته بأنه إذا كان محمد صادقاً فيما يقول فعليه أن يُحضِرْ بطحاء إلى منزلنا بالكويت خلال خمسة أيام أو ستة، لنراها بأعيننا.

كان ذلك يوم الاثنين، وفي مساء الثلاثاء، تشكىّ محمد من الصداع والحمىّ فأعطيته بعض أقراص الأسبرين ومُلَيّن، وصباح الأربعاء، ازدادت حالته تدهوراً وطلب السماح له بالذهاب إلى منزله بالجهرة حيث يمكن لموضي أن تعنى بأمره. ووافقنا على ذلك، فركب شاحنة الظهر التي يقودها عبدالله بن خلف، ونظراً لشدة البرودة ذلك اليوم، حذرناه، وطلبنا منه أن يحكم ثيابه ويزيد من غطائه، وأن يجلس داخل الشاحنة خلف كابينة السائق.

ولكننا لم نرَ محمد بن مرزوق بعد ذلك أبداً، وفي يوم الجمعة، أحضر لي أحد البدو مسدسه وخزانة ذخائره وأبلغني أنه مات فجأة، وتبين من التفاصيل

التي حصلنا عليها من سعود بن ثويران، زوج شقيقة موضي، أن محمد وصل إلى المنزل وهو في حالة سيئة للغاية، ورغم كل ما بذلته موضى إلاّ أنه أسلم الروح في هدوء ودون أن يتألم ورأسه مسجّى فوق حجرها. وكانت شكواه الأخيرة أنه يشعر ببرودة شديدة في ساقيه وجسمه، وأنه يريد أن يرقد تحت أشعة الشمس، في اتجاه مكة.ثم أضاف من أبلغني هذا النبأ وفي صوته نبرة من غموض: "ولكن ماذا بوسعك أن تفعل يا أبو سعود، إن الجميع في الجهرة يعرفون أن محمد هو الذي أصرّ على أن يذهب ببطحاء إلى العجوز، وأنها أخرجت منها جنّين شريرين، وكان لابد لهذين الجنين أن يثأرا، فتلبسا جسد محمد المسكين؛ ولو كانت موضى أو محمد على علم بذلك، لطلب العون من العجوز.

أسفت أنا وزوجتي أشد الأسف، لأن محمد كان سائقًا رائعًا لا مثيل له، وجديراً بالثقة أكثر من المعتاد. وبعد انتهاء فترة الحداد، جاءت موضي لزيارتنا، وكانت في أشد حالات الحزن وخاصة وقد أصبحت تصدق ما انتهى إليه الأمر مع الجنيين الشريرين.

وبعد انقضاء أسبوع على وفاة محمد، بلغني أن فتاتين من البدو تريدان لقائي، ووجدتهما جالستين أسفل الدرجات الخلفية للسلم المؤدى إلى الحظيرة، ورأيت معزى يختبئ وراء أحد الأعمدة ووجهه عابس. وهبت الفتاتان واقفتين لتحيتي، ولم أتمكن من التعرف عليهما إلى أن قالت إحداهما من وراء برقعها:

إنها أنا بطحاء، وهذه شقيقتي؛ جئتك لترى أنني في أحسن حال مرة أخرى.

واعترتني الدهشة، وناديت على معزى الذي قال أنها بطحاء حقاً، وأن حالتها تحسنت بفضل رحمة الله التي تصنع المعجزات، وتجاوزت فرحتي كل الحدود، وتناولت يدها، ورفعت ثوبها عن ذراعها حتى الكوع؛ وكان ذراعها غضًا مكتنزًا وينبض بالحيوية، وعندما حاولت أن أحيط برسغها بين السبابة والإبهام، كما سبق أن فعلت أول مرة، بلغت المسافة التي تفصل بين طرفي الإصبعين حوالي البوصتين ونصف البوصة. وضحكت بطحاء الصغيرة لهذا الذي أفعله وقالت:

يا أبو سعود، إنها أنا حقاً وصدقًا، ومعزى لم يأتِ بفتاة أخرى لتحلّ محلّي، ويمكنك أن ترى أن جسمي امتلأ وعاد إلى ما كان عليه من قبل. والآن، لديّ ما يكفي من لبن، وسوف أرسل لأحضر صغيري عبدالله من لدن القبيلة.

ولم يتطلب الأمر وقتًا طويلا لتحضر زوجتي التي أخذت بطحاء إلى ركن منزو لا يمكن لأحد غيرهن فيه أن يرى ما يجرى بداخله. ورفعت برقعها، وأبلغتني على الفور إنها بطحاء حقاً، بوجهها الممتلئ المستدير، على نفس الشكل الذي اعتدنا أن نراه.

أي سرّ أو أي معجزة تلك التي تحققت؟ منذ عدة أيام فحسب رأيت هيكلاً عظميًا حيًا يتهاوى وتصورت أن هذا نتيجة لإصابته بالدرن، ولن أنس منظر هذا الهيكل وهو يترنح ويسقط على الأرض عندما رفعته بين يديّ.

وتصادف أن كانت الدكتورة جوثرى، وهى سيدة تمارس الطب، تزورنا في ذلك الوقت، فهرولتُ إلى الطابق العلوي واصطحبتها من غرفة المعيشة وهبطت معها إلى الطابق السفلي.

وقلت: تعالى لترى معجزةً وبعد أن فحصتها، أكدت الدكتورة جوثرى أن بطحاء في حالة جيدة، وأنه ليس هناك أي أثر لأي مشكلة بالرئتين.

وطوال هذا الوقت كان معزى ينتحي جانبًا، مبتسماً، تشع من وجهه الفرحة، وكان كل ما استطاع أن يقوله هو: الحمد لله، الحمدلله.

ولا جدال في أن شبه الجزيرة العربية يحدث بها الكثير مما يعجز الإنسان عن تفسيره، ولا يستطيع إدراكه.

مستشفي أولكوت التذكاري:

ينبغي أن نرجع إلى عام ١٩٣٩، ففي ذلك العام تم بناء مستشفي أولكوت التذكاري، في المكان الذي كان يشغله المستشفي الصغير لأمراض النساء، وافتتحه فخامة الشيخ أحمد رسميًا في أوائل الصيف.

كتبت مسز كالفرلى، التي عادت إلى أمريكا في ربيع عام ١٩٢٩، تقول: عملت مسز كيت فان سانت قورد أولكوت، التي شيد المستشفي تخليدًا لذكراها، لمدة طويلة سكرتيرة لشئون شبه الجزيرة العربية في مجلس إدارة إرساليتنا، وقامت مرة بزيارة للكويت، وكم كنا نودّ أن يمتد بها الأجل لترى ثمار ما حاولت أن تقدمه لنساء شبه الجزيرة العربية طوال سنوات! إن شعب الكويت لم يسبق له أن رأى مبنى يضارع هذا المستشفي المكوّن من طابقين والمشيّد من الأسمنت والصلب. وهناك أقواسًا فارسية الطراز تستند إليها الشرفات الواسعة، كما تربط

الممرات حسنة التهوية بين غرفه المختلفة. والمبنى مزوّد كله بالمصابيح الكهربائية والمياه الجارية، وكان عدد الأسرة المتاحة به عند افتتاحه أربعة وثلاثين، بالإضافة إلى الأسرة المخصصة للأطفال حديثي الولادة والأولاد.

وإلى جانب الدكتورة ماري بروينز أليسون، التي تتولى إدارة المستشفي في الوقت الراهن مارست كل من الدكتورة استر. أ. بارتي، ثم الدكتورة روث . ا. كروز، على التوالي، نفس المهمة في الكويت، ولمدة ستة أشهر بعد رحيلنا؛ وحتى وصول الدكتورة بارني، كانت الآنسة فان بليت تتحمل بمفردها كل عبْ العمل الطبّي. وخلال فترات متقطعة أخرى، عندما لا تتوفر بالمستشفي طبيبات، كان الدكتور مايلرى وخليفته الدكتور ل.ا. سكادر، ثم الدكتور ج. هـ . تايكرك يتولون علاج المرضى من النساء، بمساعدة زوجاتهن.

ومنذ أن تركت الآنسة فان بليت العمل في شبه الجزيرة العربية بعد افتتاح مستشفي أولكوت بفترة وجيزة، لم يكن هناك مشرفون للممرضات، وفي الوقت الراهن، هناك ثلاث من الممرضات الهنديات الحاصلات على مؤهلات علمية يعملن تحت رئاسة د. إليسون، بالإضافة إلى فتاة سورية مسيحية يقمن بتدريبها على أعمال التمريض، وحتى اليوم، ماتزال العادات الإسلامية للزواج المبكر وعدم مشاركة المرأة في الحياة العامة، تمنع إتاحة الفرصة لإعداد وتدريب ممرضة عربية واحدة في الكويت، ويعمل في المستشفي عشرُ من المساعدات والخادمات الأميّات، إلى جانب فتى في مقتبل العمر يمارس الأعمال الكتابية.

وقد أقيم حاجز حول المكان الذي يجلس فيه لصرف تذاكر الدخول، حمايةً له من مضايقات الوافدين الكثيرين الذين يأتون الآن إمّا في سيارات النقل العام أو سيراً على الأقدام.

وإنه لمن مصادر سعادتي أن أسجل أنه في عام ١٩٥٤ اعتمدت الإرسالية الأمريكية خطة لبناء مستشفي جديد رائع للرجال في الكويت، سيطلق عليه اسم مستشفي مايلرى التذكاري، سيتكلف مليونين ونصف المليون من الروبيات. ويرجع ارتفاع التكلفة إلى هذا الحد إلى ارتفاع أسعار المواد الخام المتوفرة في الوقت الراهن. وسوف يكون من الصعب على المسئولين في الإرسالية تدبير هذا المبلغ، ولكن فخامة الشيخ عبدالله السالم الصباح تقدم فضرب المثل بتخصيص مبلغ كبير جداً للمشروع، ولكن الوضع مازال في حاجة إلى المزيد والمزيد، والآمال معقودة

على أن يلبى جميع أصحاب الفكر السديد من الرجال والنساء، في جميع أنحاء العالم، هذا النداء للمساهمة بكل ما يستطيعون من أجل هذا المشروع الجديد بأن يحظى بكل الرعاية والاهتمام.

الفصل السابع عشر
الكويت ١٩٣٩-١٩٤٢

الحرب العالمية الثانية — محمد السيد يستعرض قواته — خط سير متعرج للسرطان ذي المخلب — على العريق لا ينسى — العفو الملكي — الاستعداد للسفر — كيف ترسو السفينة عند عودتها — أطلال مدينة قديمة — جزر الطيور — الطيور المهاجرة عبر الكويت.

الحرب العالمية الثانية:

تمكنّ هتلر ببراعة وذكاء، واعتمادًا على دكتور جروبًا السفير الألماني في بغداد، أن ينشئ في الكويت حزب شباب الحرية الذي عرف باسم الشبيبة، وكان يتبنّى نفس الأساليب والتكتيك الذي استخدم في تشيكوسلوفاكيا للقيام بثورة مفاجئة وكان هدف هذا الحزب هو الإطاحة بالشيخ أحمد الجابر الصباح، ونبذ التحالف مع الحكومة البريطانية ورفض الدخول تحت حمايتها، على أن تشغل ذلك المركز المتميز الذي تشغله العراق دولة إسلامية.

ونتيجة لسوء التوقيت - أساسًا - فشلت المحاولة، كما فشلت ثورة رشيد عالي الكيلاني الموالى للألمان التي أعقبت ذلك في بغداد، ولكن بعد وقوع بعض الخسائر في الأرواح، والاستيلاء على ترسانة الأسلحة الكويتية لبضعة أيام، وتحرك الملك ابن سعود في الحدود الكويتية على رأس قوة كبيرة لمساندة فخامة الشيخ أحمد من أجل استعادة النظام.

ودفعت الحرب العالمية الثانية الكويت مرة أخرى إلى الوقوف إلى جانب بريطانيا، ليثبت الشيخ أحمد جدارته بالثقة الكبيرة التي أولته إيّاها حكومة صاحب الجلالة منذ وقت طويل.

وفي أوائل ١٩٤١، وبعد فترة وجيزة من احتلال القوات البريطانية المحمولة جوًا من الهند للبصرة لمواجهة تمرّد رشيد عالي الكيلاني في إجراء سريع، تم إجلاء سيدات شركة نفط الكويت إلى الهند عن طريق البصرة، كإجراء وقائي. ورفضت زوجتي الرحيل إحساسًا منها بأن وجودها يمكن أن تكون له فوائد إذا تعرضت الكويت لهجوم جوّي، وفضلت البقاء مع صديقاتها العربيات

بدلاً من الهروب من الموقع، وبقيت سيدات الإرسالية الأمريكية أيضًا، وواصلن العمل في المستشفي طوال الحرب، كان الوقت عصيبًا بالنسبة للجميع، وخاصة فقراء المدينة والبادية نظرا لتعذّر الحصول على الطعام أو الملابس أو الدواء. وخيمت على الجميع سحابة قاتمة من الأسى والمعاناة.

وفي أواخر أبريل ١٩٤١، عندما عُيّن الماجور جالوواى، وكان يشغل في ذلك الوقت منصب الوكيل السياسي بالكويت، ضابط اتصال مع القوات البريطانية التي وصلت منذ قليل إلى العراق، طلب منّي أن أنهض بواجبات المقيم السياسي مرة أخرى إلى أن يتم تعيين الماجور توم هيكينيوتام في ١٦ من أغسطس من نفس العام، وفي هذه الفترة على وجه التحديد، تمكنت أنا وزوجتي، بجهودنا الذاتية من أن نستورد من فارس مائة زوج من أحجار الرَحَى وزعنّاها على البدو الذين يتضورون جوعًا في المناطق الداخلية (زوج لكل عشرة خيام) حتى يتمكنوا من طحن الشعير، الذي جلبناه لهم أيضًا، لإعداد نوع خشن من الخبز يتم إنضاجه على نار الحطب. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك أي قمح أو دقيق في المدينة من الناحية العملية، وكان الأرز نادرًا لدرجة رهيبة، بينما وصل ثمن التمر إلى أرقام فلكية.

ولكن الحياة استمرت دون أن تشهد الكويت أي حدث من أحداث القتال، مما أتاح لنا العديد من الفرص للتعرف أكثر واكثر على عرب البادية ومساعدتهم بالطعام والملابس على وجه الخصوص، إلى جانب مساعدة المرضى والمعوزين، وكانت أحوال أهل البادية أكثر قسوة بكثير من أحوال سكان المدينة.

محمد السيد يستعرض قدراته:

في ٢٥ من يونيو ١٩٤٠، وقع حدث على الحدود الجنوبية للكويت لَفَت نظري بشدّة إلى القوة غير العادية لآل مُرّة. كنت أقوم بجولة تفتيشية في أحد مخافر الحراسة التابعة لشركة النفط. بالقرب من البئر رقم ٤ بالبرقان، كان يومٌ شديد الحرارة، ووصلنا إلى المخفر في الساعة العاشرة صباحًا لأجد الحارس محمد بن وطيان، وهو من العجمان، في نوبة العمل بمفرده بينما ذهب الحارسان الآخران إلى مركز واره للحصول على المخصصات التموينية، ورحّب بي محمد وأنا أترجل من سيارتي وقال إنه انتهى لتوّه من إعداد القهوة لرجل مريض جدًا، وأن وصولي في هذه اللحظة يبشّر بالخير.

كان مخفر الحراسة مجرد عشه من غرفة واحدة، وبدون نوافذ، وبابها في الجانب المواجه للجنوب. ودخلت وجلست إلى جانب الوجار - الموقد المخصص لصناعة القهوة - وكان في مواجهة الباب مباشرة. وكان هناك شخص يرقد بعيدًا في الركن المظلم مدثرًا ببشت. وقال محمد إن الرجل المريض ينتسب لفصيلة مرّة، وأنه وصل الليلة السابقة وهو مصاب بالحمى مع ارتفاع شديد في درجة الحرارة، وطلب منه أن يأويه لقضاء الليل. وكان محمد لا يعرف اسمه، ولكنه علم أنه في طريقه إلى الكويت بحثًا عن وظيفة كقصاص للأثر لدى الشيخ أحمد.

وبعد أن جلست مع محمد قرابة العشرين دقيقة أناقش المسائل المتعلقة بواجباته وبأمن المخفر بشكل عام، اقترب اثنان من البدو قادمين من جهة الجنوب، يمتطي أحدهما ناقة بنية اللون ويمتطي الآخر ناقة بيضاء. وكان باستطاعتي أن أراهما من حيث أجلس دون أن أقف أو أن أغادر العشة. ولكن الرجل المريض كان عاجزًا تمامًا عن رؤيتهما لأن مدى بصره لم يكن ليتجاوز الباب أو جدران العشة التي صنعت من الحصير السميك. وهذه نقطة هامة لها علاقتها الهامة بقصتنا كما سنرى.

وبكل الأدب الذي عرف به البدو، أناخ الرجلان ناقتيهما على بعد حوالي المائة وخمسين ياردة من العشة وشرعا في ربط رُكب الناقتين لمنعهما من النهوض. وكان من الواضح أن الناقتين من سلالة جيدة سريعة العدو، الأمر الذي يوحي بأن الرجلين لهما وزنهما، أو ربما كانا شيخين نظرًا لما يتدلى من سرجي ناقتيهما من أكياس زاهية الألوان. وكانت الأكياس منتفخة، الأمر الذي يوحي بدوره بأنهما قادمان من مكان بعيد.

وطلبت من محمد بن وطيان أن يدعو الغريبين لتناول القهوة، فتوجه إليهما، ولكنه عاد بمفرده ليأخذ بعض الماء، أخبراه بأنه هو كل ما هما في حاجة إليه. ولا شك أنهما شاهدا سيارتي إلى جوار الكوخ، ولذلك فعندما أدركا أن هناك رجلاً إنجليزيًا داخل الكوخ، قررا مواصلة رحلتهما دون توقف، فشربا الماء الذي قدمه لهما محمد وانصرفا، وجلس محمد مرة أخرى بجوار الوجار ليواصل حديثه معي. ولم أتحرك من مكاني، كذلك لم تبدُ أي حركة عن الرجل المريض المسجى تحت بشته في الركن البعيد.

وعندما سألت عن هوية الغريبين أجابني محمد بأنه ليس لديه أدنى فكرة عن ذلك، وأنهما لم يتفضلا بالإفصاح عن أي شيء يمكن أن تتبين منه حقيقتهما.

وجلست مع محمد لمدة نصف ساعة أخرى تناولت أثناءها وجبة خفيفة جلبتها معي. وعندما انتهيت من تناول طعامي وبدأت الاستعداد للرحيل، جلس الرجل المريض المسجى في الركن فجأة، ثم نهض واقفًا وسار متجهًا نحوي وحياني بالطريقة المعتادة، كانت علامات المرض الشديد بادية عليه، ودعوته للجلوس وتناول القهوة، ثم سألته عن حاله؛ فأجاب: لقد زايلتني الحمى تقريبًا، وأنا الآن أحسن حالاً، والحمد لله؛ وأمسكت برسغه فتأكدت أن درجة حرارته انخفضت، ولكنه كان يعاني من الضعف والدمار.

وكان يبدو من مظهره الخارجي ممتلئًا متوسط الطول، وكانت له لحية ملفتة للنظر، فاحمة السواد، تصل إلى منتصف صدره، وبعد أن تناول القهوة أحس بتقدم كبير أمكنه معه أن يتكلم.

وسرعان ما عرفت أنه سمع أن شيخ الكويت يحتاج لقصاص أثر جيد، ولما كان من أبناء قبيلة مرة، فقد شق طريقه إلى الكويت سعيًا للحصول على هذه الوظيفة. وكان محمد السيد وهو اسمه الذي عرفناه في سياق حديثنا معه، ثرثارًا جدًا، فبدأ على الفور يروى لنا القصص عن قبيلته وأبنائها، وعن الأرض التي ينزلون بها، بعيدًا في الجنوب.

واشترك الحارس محمد في الحديث، بطريقة مزعجة إلى حدٍ ما، وأبدى ملاحظة قال فيها أن آل مرة لهم شهرتهم كقصاصي أثر لا يشق لهم غبار، وأنه ربما يستطيع أن يحدد من هما المسافران اللذان نزلا عليه طلبًا للماء أثناء نومه.

ورد محمد السيد بكل جدية على هذه الملاحظة فقال: ليس في مقدرتي إخباركما باسميهما، أما إذا أتحتما لي الفرصة لأرى أين أناخت ناقتاهما وآثار أقدامهما وهما يقفان إلى جانب الدابتين، فربما تمكنت من أن أقدم لكما بعض المعلومات.

وأشرت إلى حيث توقف الرجلان، فخرج محمد السيد بمفرده ليتفحص الأرض، وتعمدت ألا أسمح للحارس محمد بالخروج من العشة، وبعد تأمل طويل ودقيق لمدة عشر دقائق تقريبًا، عاد محمد إلينا، وجلس، وتناول قدحًا آخر من القهوة، وفعلت نفس الشيء، وسألته: حسن! كيف كان الحظ معك؟

فقال: جيد جدًا، ومن الواضح أن آثار أقدام الناقتين تؤكد أنهما من سلالة عريقة، وأن أحدهما وضحة (ناقة بيضاء)، والأخرى خضرة (ناقة بنية اللون)، وقد تحركت الوضحة وراكبها في اتجاه الشمال الغربي شطر قرية الجهرة، بينما تحركت الخضرة براكبها في اتجاه الشمال الشرقي، وربما في طريقها إلى قرية الفحيحيل على الساحل، والمسافران من صغار الشيوخ في قبيلة بني هاجر، جاءا من شبه جزيرة قطر أو من الأراضي الداخلية للقطيف. وأنا لا أستطيع أن أحدد اسم كل منهما، ولكني أعتقد أنهما يبحثان عن عبدٍ هارب من عبيدهما، وأنهما يقتفيان أثره، لأني رأيت على مسافة غير كبيرة من المكان الذي ترجلوا عنده صورة شاحبة لقدم عارية لعبد أسود يتجه نحو الشمال. وتوضح آثار الأقدام أن العبد مر بجوار المخفر في المساء، ولكنه لم يتوقف خشية أن يرفض طلبه إذا التمس إيواءه حتى الصباح. وكان الرجلان من بني هاجر من الشباب، بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمرهما، فكانا في ذروة الإرهاق بعد رحلتهما على ظهر الناقتين والتي امتدت لمسافة الأربعمائة ميل.

وسألت وأنا مندهش تمامًا: "هل من مزيد؟.

كلا، ولكن من المؤكد أنهما من شيوخ بني هاجر، ويحملان بندقيتان من طراز موزار، وضعاها على الأرض عندما كانا يشربان، وسوف يكون من المتجاوز والخطأ أن أدعى قدرتي على معرفة اسميهما، فالله وحده هو الذي يستطيع ذلك.

وبين مزيج من التعجب وعدم القدرة على تكذيب كل ما أسمع، لأنني أعرف هؤلاء القوم جيدًا، انصرفت، ولكن بعد أن أحضرت بعض أقراص الأسبرين من حقيبتي الطبية الصغيرة التي تركتها في السيارة، وأعطيتها لمحمد السيد.

وبعد أربعة أيام، وفي الساعة الثامنة صباحًا كنت حاضرًا في مجلس فخامة الشيخ عبدالله المبارك الصباح، نائب الحاكم المسئول عن الأمن العام وشئون البدو، ونظرًا لارتفاع درجة الحرارة انعقد المجلس في الشرفة الفسيحة أمام مكتبه، وجئت لأقدم واجب الاحترام كما كنت أفعل كثيرًا. وكان هناك عدد كبير من الزائرين في ذلك الصباح، وعندما رحت أجول بناظري من حولي، رأيت فجأة صديقي المرّي بلحيته السوداء، يجلس القرفصاء على الأرض يحيط به عدد من أتباع الشيخ المسلحين، ورآني هو الآخر في نفس اللحظة، وعندما تعرف عليّ أشاح بوجهه عني.

وبعد أن جلست بجوار الشيخ عبدالله لمدة عشرين دقيقة أخرى، أقبل رجلان يمتطيان ناقتين يغطي سرج كل منهما نسيج مزركش جميل، إحداهما بيضاء والأخرى بنية اللون، وبعد أن أناخا ناقتيهما وربطا ركبها، سارا معًا في اتجاهنا، وكانت ثيابهما تؤكد أنهما من قبيلة بني هاجر، وكان الاثنان في أواسط العشرينات من عمرهما، ويبدو أن راكب الناقة البيضاء أكبر سنـًا، ووقفا أمام الشيخ عبدالله في احترام وكأنهما ينتظران الإذن لهما بالكلام، وحياهما الشيخ بحرارة وسألهما عما يمكنه أن يفعله من أجلهما.

وأجاب الأكبر سنـًا: يا عبدالله مبارك، نحن من بني هاجر، وأقارب لابن شافي شيخنا الكبير، ولقد جئنا من بعيد، من قطر بلاد ابن ثاني، بحثـًا عن عبدٍ لنا ولى فرارًا، وظللنا نقتفي أثره لمدة خمسة عشر يومًا، وبحث عنه صديقي في قرية الفحيحيل وغيرها من قرى القصر الساحلية، بينما توجهت أنا إلى الجهرة لأتأكد أن العبد الهارب لم يمر من هناك في طريقه إلى البصرة، ولم نتمكن من تحديد مكان العبد أو الحصول على أي أخبار عنه. ولذلك نعتقد أنه وصل إلى الكويت. مدينتك المضيافة. ويختبئ بها. وبدون مساعدتك لن نستطيع أن نفعل شيئًا. ولذلك نلتمس من فخامتكم بكل إجلال واحترام. معاونتنا في البحث عنه. أطال الله عمرك.

وهكذا جاء البرهان المذهل لصحة ما رواه محمد السيد في عشة الحارس في البرقان. ومن بين الرجال المسلحين رفع صديقي ذو اللحية السوداء هامته، وابتسم لي. وبدا وكأنه يقول: لقد قلت لك كل ذلك.

خط سير متعرج للسرطان ذي المخلب:

أخبرني الشيخ عبدالله المبارك فيما بعد أن العبد الهارب لم يُقبض عليه بأي حال. كما لم ألتق بمحمد السيد بعد ذلك. فبعد أن فشل في الحصول على وظيفة لدى الشيخ أحمد شيخ الكويت، أخذ يسعى لإثارة اهتمام الشيخ صباح الناصر الصباح بأمره ولفت نظره إليه. وكان الشيخ ينزل في ذلك الوقت في مخيم بالقرب من ساحل البحر على بعد حوالي خمسة أميال جنوب قرية الشعيبة، ولم يقم بإسناد أي عمل لمحمد، ولكنه أبقاه معه لعدة أيام وأعطاه هدية قيّمة عند رحيله.

وأخبرني الشيخ صباح فيما بعد أن سائق سيارته تقدم بشكوى يقول فيها إن ساعة يده سُرقت بينما كان يستحم. كان المد مرتفعًا عندما وصل إلى الشاطئ،

وبعد أن خلع ملابسه، وضعها على الرمال، ووضع ساعته من فوقها ونزل إلى البحر، لم يلاحظ أن أحدًا رآه وهو يقترب من الشاطئ، كما اعترف بأنه لم يكن على القدر الكافي من الحذر والانتباه. وعندما خرج من الماء وجد ملابسه متغيرة، واكتشف اختفاء الساعة.

وعلى الفور، أبلغ الشيخ صباح بالسرقة، كان محمد السيد حاضرًا في الخيمة، ولكن لم يطلب أحد مشورته أو يلتمس مساعدته. ونظرًا لما أثاره الحادث من اهتمام، توجه في هدوء وأناة إلى الشاطئ، وكان المد قد بدأ في الانحسار. وتعرف بكل سهولة على المكان الذي وضعت فيه الملابس على الرمال، كما رأى آثار أقدام السائق متجهة نحو الماء ثم وهي تخرج منه. ورغم ما اعتراه من دهشة لبعض الوقت، وفحصه لكل شبر من الأرض إلا أنه لم يجد أي أثر لإنسان آخر، كانت الآثار الوحيدة على الرمال هي تلك التي تخلفها السرطانات وراءها نتيجة لحركتها التي لا تتوقف في كل أنحاء هذه المنطقة على امتداد الساحل. وتتميز هذه السرطانات بصغر مخالبها نسبيًا، ومع وجود مخلب أكثر طولاً من سائر مخالبها. وهي تعيش في جحور فوق أعلى منسوب للمياه، ويبنى كل منها حصنـًا من الرمال بجوار جحره مباشرة.

وأفضى أثر من الآثار التي خلفتها هذه السرطانات إلى النقطة التي وضعت عندها الملابس، ثم شكلت عدة دوائر حولها، ثم مضت مبتعدة بعد ذلك. ولم يكن محمد يفكر في أي شيء من هذا القبيل في ذلك الوقت، ولكنه انتهى إلى أن السائق يكذب، وأنه فقد ساعته قبل ذلك ثم جاء ليروى لسيده قصة مفتعلة من أجل دفعه لأن يعطيه ساعة أخرى.

وعاد محمد إلى المخيم، ولكنه ظل يفكر في حادث السرقة. واستبد به القلق، وفي الصباح التالي، توجه إلى نفس الموقع على الشاطئ، كان المد مرتفعًا هذه المرة، فأزالت المياه كل الآثار السابقة، وجلس بالقرب من الساحل وانتظر إلى أن ينحسر المد قليلاً.

كانت السرطانات تخرج من جحورها وتجرى وتتقافز على الرمال. وسار محمد في اتجاهها وبدأت الفرار لتختبئ داخل هذه الجحور. وبعد أن تفحص الآثار التي خلفتها بكل دقة تعرّف فجأة من بين خمسين أو ستين منها، على سرطان تنطلق الآثار التي خلفها ابتداءً من الآثار التي رآها بالقرب من المكان

الذي وضعت فيه الملابس في اليوم السابق. وتتبع هذا الأثر بكل حرص لمسافة مائة ياردة إلى أن وصل إلى جحر السرطان، فعثر في قاعه على ساعة اليد سليمة لم يمسها أي سوء.

وأكد لي الشيخ صباح صدق ذلك، ولكن نظرًا لاستمرار تشككي، قمت بالمزيد من المحاولات للتعرف على حقيقة الأمر، فتوصلت في ١٠ من يوليو إلى ما يؤكد صحتها، عن طريق المدعو علي بن لافي، وهو من الرعاة العوازم، لم تكن له أي علاقة بصباح الناصر أو بمخيمه، وكانت له خيمته الخاصة التي ضربها على مسافة غير بعيدة، وكان المرّي قد التقى به وتناول طعام العشاء معه قبل وصوله، وسمع القصة منه مباشرة.

علي العريق لا ينسى:

كان هناك ثلاثة من أشهر من يقتفون الأثر يعملون في خدمة الملك ابن سعود. وكان ثلاثتهم من قبيلة المرّة، وهم الأخوة علي، ومحمد، وسالم، العريق. وإليكم قصة رواها لي الشيخ عبيد المتلقم، صديق عم الملك، في ١٣ من أغسطس ١٩٤٣ تدور حولهم؛ وأكدها لي علي العريق، في تاريخ لاحق، عندما جاء إلى الكويت وقام بزيارتي.

أثناء حملة اليمن عام ١٩٤٣ توجه الشيخ جفران الفقم، كبير الصهبة، من مطير، إلى الرياض على رأس مجموعة من الشيوخ وأتباعهم في زيارته السنوية للملك ابن سعود وتجرى هذه الزيارة عادة في الشهر السابق على رمضان، وبعد تجديد البيعة، يعودون إلى عائلاتهم حاملين الهدايا المعتادة من النقود والملابس.

وذات صباح، علم جفران أن اثنتين من ذلوله (النوق المستخدمة للركوب) سرقتا أثناء الليل من بين القطيع الصغير الذي يرعى كل يوم خارج الرياض، وأنه أمكن العثور على آثار أقدام اللصوص الثلاثة والاحتفاظ بها سليمة، جنبًا إلى جنب مع آثار الناقتين، بوضع الأواني والأحواض الفارغة من فوقها وسرعان ما بلغ النبأ مسامع الملك، فأرسل في استدعاء علي وسالم العريق، اللذان امتطيا ناقتيهما بعد فحصهما لآثار الأقدام واقتفيا أثر اللصوص من موقع المخيم في البطحاء خارج الرياض مباشرة، إلى رماح حيث أفضى بهما الأثر إلى رمال الدهناء ثم عبراها متوغلين في الصمان إلى أن انتهى بهما إلى جرية السفلي، على بعد مائتين وخمسين ميلا، وهنا تتبعا أثر اللصوص إلى أن دخلا خيمتهم أثناء جلوسهم مع نسائهم.

وهرب أحد اللصوص، وقبض علي وسالم على اللصين الآخرين، وبعد ضربهما وإحكام وثاقهما، عادا بهما إلى الرياض ومعهما الإبل المسروقة، فاستردها جفران الفقم على الفور. وألقي باللصين في السجن، واتضح أنهما من مطير، ومن نفس قبيلة جفران الفقم، وظلا في السجن لمدة عام، ثم أطلق سراحهما.

وبعد خمس سنوات، وبينما علي العريق خارج المسجد في الرياض بعد صلاة الجمعة، كان أحد اللصوص ممن هرب من السجن غريبًا تمامًا بالنسبة لعلي. ولكن ما أن رأى علي آثار قدمي الرجل حتى تعرف عليها وتأكد أنها آثار أقدام اللص الذي هرب منه في جرية، وعلى الفور ألقي القبض عليه، ثم ضُرب وألقي به في السجن حيث توفي بعد فترة.

وأكد علي لي أنه يمكنه أن يتذكر آثار قدم أي رجل أو دابة لمدة عشرة أعوام، وأنه لم يخطئ في ذلك أبدًا.

العفو الملكي:

روى لي علي العريق القصة التالية: في خريف عام ١٩٤١ كان ثلاثة من صغار شيوخ قبيلة عتيبة في طريق العودة إلى مخيمهم بعد زيارتهم السنوية المعتادة للملك في الرياض، فالتقى بهم ثلاثة رجال يمتطون الجمال طلبوا منهم السماح لهم بمرافقتهم. وعلى رغم عدم معرفة الشيوخ بهم، إلا أنه كان واضحًا أنهم من العتبان، أي من قبيلة عتيبة، ولذلك رحب الشيوخ بهم. وبعد بضعة أيام وصلت المجموعة كلها إلى وجهتها وبينما الجميع يجلسون معًا لتناول القهوة في إحدى الخيام، أقبل الاثنان من خدم الملك وترجلا عن دابتيهما، وكان هذان الرجلان هما محمد بن داوس، من مرة، وخربوش بن صدحة من عجمان.

وبعد أن دارت القهوة على الجميع وتبودلت التحيات المعتادة، شرح محمد وخربوش للشيوخ كيف اقتفيا أثر ثلاثة رجال آخرين أمر الملك بالقبض عليهم لعلاقتهم بحادث سرقة وقع في الرياض منذ قريب. واستسلم الرجال المطلوب القبض عليهم، وبدون استخدام أي قيود أو أصفاد، توجهوا عائدين إلى الرياض يصحبهم محمد وخربوش.

وضربوا خيامهم لقضاء الليل في موقع على بعد مائتين وخمسين ميلاً غرب الرياض. وبعد وجبة العشاء، غط الحارسان في النوم فسرق السجناء

مسدسيهما وخزانتي الذخيرة، وليس من المعروف، ولن يعرف أحدٌ أبدًا ما إذا كان الحارسان قد استيقظا قبل أن يتمكن السجناء الهرب تحت جنح الظلام، ولكن الحقيقة التي لاجدال فيها هي أن السجناء انقضوا عليهما وقتلاهما، وجرداهما من ملابسهما وانطلقوا ومعهم النوق الخمس في اتجاه الشمال، عاقدين أملهم على الفرار إلى العراق قبل أن يكتشف أمرهم، وتبدأ ملاحقتهم.

ولم يبدأ تنظيم مجموعة للبحث عنهم إلا بعد انقضاء عشرة أيام، عندما أحس الملك بالقلق لتخلف محمد وخربوش عن العودة. وأعدت ثلاث سيارات إلى جانب عدد من الرجال على ظهور الإبل، وكانت كل سيارة تحمل عدة رجال مسلحين وأحد مقتفي الأثر من آل مرّة، على العريق في السيارة التي في المقدمة، وسالم ومحمد في السيارتين االثانية والثالثة على التوالي.

وبعد السير في بطء لعدة أيام، مع التوقف بين الحين والحين للاستكشاف والتعرف على آثار الأقدام، عثرت المجموعة على جثتي محمد وخربوش مجردتين من أي ثياب، وقررت المجموعة أن تضرب خيامها في هذا المكان لقضاء الليل. وبعد حفر قبرين ودفن القتيلين، نحروا شاة وقاموا بطهيها لتناول عشاءهم (ويعلق على هذا التصرف بأنه نوع من التقرب إلى الله وطلب المغفرة بنحر الأضاحي).

واتجهت آثار الأقدام من هذا الموقع صوب الشمال، ولكن من العسير تتبعها نظرًا لتلاشيها عمليًا بمرور الوقت. وبعد حوالي الشهر من المتابعة الدقيقة، وصلوا إلى القصيم، ومنها بعثوا برقية إلى الملك يخبرونه بعثورهم على الجثتين ويحيطونه علمًا بأن السيارات مازالت تقتفي أثر القتلة في اتجاه الشمال، وابتهج الملك لهذه الأنباء لأن أخبار المجموعة كانت قد انقطعت عنه لمدة ستة أسابيع، وأمر بتوجيه رسائل باللاسلكي إلى جميع المخافر الحدودية على الفور، وإبلاغها تعليماته بمواصلة البحث عن ثلاثة من العتوب يسوقون معهم خمسًا من النوق.

وبكل حماس وتحفز، أخذ المرّيون الثلاثة يقتفون أثر الهاربين إلى أن لحقوا بهم أخيرًا عند الرخيمية بالقرب من الحدود العراقية، وكان حرس الحدود في هذا الموقع قد ألقوا القبض على اثنين من الهاربين بينما أطلق الرصاص على الثالث فخر قتيلاً أثناء محاولته الفرار. وتم إخطار الملك على عجل، وعاد الأسيرين مع السجينين إلى الرياض، عن طريق الصمان، بعد التوقف على الطريق

عند روضة خريم، في المنطقة التي يقيم الملك وأسرته مخيمهم فيها. وعندما وصلت السيارات الثلاث، كان الملك في جولة للصيد، وتمكن أحد السجناء بشكل ما من توصيل رسالة إلى زوجة الملك الأثيرة، الأميرة منيرة، يلتمس فيها استخدام ما لها من تأثير على الملك من أجل إنقاذ حياتهم.

وفي اليوم التالي، وقبل غروب الشمس مباشرة، عاد الملك من رحلة الصيد، وكان قد أمضى وقتًا طيبًا، وتمكنت المجموعة المرافقة له من صيد عدد كبير من الغزلان، وكمية وافرة من طيور الحباري، وفي تلك الليلة، أحضرت له الأميرة منيرة ابنه الصغير بندر، وأجلسته في حجر الملك وهى تقول كأن الطفل هو الذي يتكلم: طَلَبتُك.

ولما كان الملك يعرف جيدًا ماذا يعنيه ذلك، رد على الفور

أعطاكم الله إياك.

وقبل ابنه الصغير.

ثم صدر الأمر بترحيل الرجلين إلى الرياض وإيداعهما السجن، ثم وصل في اليوم التالي أمر آخر بإطلاق سراحهما، مع منح كل منهما خمسمائة روبية، وبشتين جديدين، وبعيرين للركوب، وطاقم كامل من الملابس، وتوصيلهما إلى حيث تقيم أسرتاهما، كما أمر الملك بمنح أسرتي القتيلين، محمد بن داوس وخربوش بن صدحة، ألف وخمسمائة روبية.

وتعجب الجميع في ذلك الوقت لهذا التصرف الذي أقدم عليه الملك، ولم يبدأ القوم فهم السبب الكامن وراء هذا الإجراء الذي يفيض عطفا وشفقة، إلا بعد انقضاء بعض الوقت، وذيوع قصة الأميرة منيرة، وابنها الصغير بندر.

الاستعداد للسفر: بقلم فيوليت ديكسون

السفر، وهى كلمة تعنى حرفيًا: الرحلة البحرية، هي الاسم الذي يطلق على موسم خروج الداوات متجهة إلى الهند، وأفريقيا، وزنزبار (زنجبار). ويصادف هذا الاسم أوائل الخريف من كل عام. وفي وقت من الأوقات كانت جميع السفن الشراعية الكبيرة التي تمخر عباب البحار من طراز "البغلة" ذات النوافذ المربعة في قطاعها الخلفي وفي مؤخرتها، بينما يقتصر طراز "البوم" على المراكب متوسطة الحجم والصغيرة.

وفيما يلي ما كتبته في ٥ من سبتمبر ١٩٤٠:

تجرى الآن اللمسات الأخيرة لإعداد البغلة التي يملكها عبدالوهاب القطامي الزايد قبل إقلاعها من المرفأ عندما يبلغ المد ذروة ارتفاعه اليوم.

وطوال الأسبوعين الماضيين كانت جميع الأيدي لا تكف عن العمل فيها، فهي تحتاج إلى شراع جديد ولذلك تجمع حوالي الثلاثين رجلاً في الطريق الممتد وراء منزل هلال المطيري، تاجر اللؤلؤ الشهير، يضمون القطع الطويلة الضيقة من النسيج المستخدم في صناعة الشراع ويحيكونها لتشكيل قطعة واحدة. وفي بادئ الأمر تحدد أبعاد الشكل المطلوب على الأرض باستخدام الأوتاد والحبال، ثم تحاك القطع الطويلة الضيقة، وتضم لبعضها البعض حتى تغطى المساحة المحددة على الأرض، وهم يعملون من الصباح الباكر وحتى ساعة متأخرة بعد الظهر، وعندما تغيب الشمس يواصلون العمل على ضوء المصابيح، ويستخدم في صناعة أكبر أنواع الأشرعة، والمسمى بالعود[1]، خمسة وخمسون من قطع القماش الطويلة الضيقة.

أما البغلة نفسها فقد طليت بزيت السمك، وهو مادة كريهة الرائحة تُجلب من الهند، وسُد كل ما بها من تشققات وثقوب في الجزء الواقع أسفل خط الماء، وأخيرًا، أنجزت كل عمليات الإصلاح المطلوبة، على أن تُطلى صباح اليوم باستخدام دهون ليّة الخراف، ونوع خاص من الجير، وكمية ضئيلة من البرافين، بعد تسخينها معًا لدرجة الغليان على نار تُعد في المرفأ عند انحسار المدّ. وتأتي صفائح الدهن عادة من الهند محملة على هذه المراكب كل ربيع، ويبلغ ثمن الصفيحة الواحدة عشر روبيات، وتحتاج البغلة إلى ثلاثين صفيحة. أما الجير فيُشترى من مكلا[2]، بحضرموت، على خليج عدن، ويقال إنه أحسن أنواع الجير التي تستخدم لهذا الغرض، وهناك أعلى الجزء الذي يجرى تبييضه مباشرة وأسفل سطح السفينة ويتركون شريطًا يبلغ عرضه حوالي القدمين لا يُطلى بالزيت ولا تسد به الثقوب والتشققات، فسوف يستكمل ذلك عند الوصول إلى البصرة بعد أن تغسل البغلة يوميًا، ولمدة أسبوع في مياه شط العرب النقية.

---

(١) العود – بمعنى الكبير باللهجة المحلية.

(٢) هذه التركيبة يسمونها (الشونة).

الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر، وقد بدأ في الانحسار وحان الوقت لتنطلق البغلة من المرفأ. وها هو علم الكويت الأحمر الكبير يرفرف من مؤخرتها بينما يرفرف علم أصغر حجمًا من طرف مجداف، إشارة بأنها على وشك أن تتحرك، وكان عبدالوهاب القطامي قد سبح حتى وصل إلى المدخل وها هو يقف فوق حاجز صد الأمواج بجوار عامود متين راسخ يلتف حوله حبل يشده طاقم البغة، وكان لا يرتدي شيئًا إلا إزارًا من القطن، فبدا شكله غريبًا وهو يقف هناك كتمثال أقيم فوق الصخور، وهو رجل بهي الطلعة، أزرق العينين، أبيض البشرة.

وتحسست البغلة طريقها وهي تنسل من بين السفن الأخرى التي اكتظ بها المرفأ، تجر وراءها قاربًا صغيرًا إلى جانب صاريها الرئيسي الذي سترفعه عندما تخرج إلى البحر.

واعترض طريقها مجداف طويل امتد من بوم تمر بالقرب منها، فقفز عليه اثنان من طاقم البغلة بكل رشاقة ودفعاها بعيدًا، وفي أناة، أخذت البغلة تنسل لتخرج من المرفأ وصاحبها يصدر تعليماته ويلوح بذراعيه إلى أن بلغت الممر الضيق وشرعت في اجتيازه، وبينما هي تخرج من فتحة المرفأ، كان عدد من الأطفال قد سبحوا وجلسوا يترقبون على النقعة (حائط المرفأ)، وما أن اقتربت البغلة حتى قفزوا إلى البحر وتسلقوا الصاري الرئيسي الذي تجره وراءها. وكان عدد آخر من الفتيان الأصغر سنـًا يجلسون تحت المظلة البيضاء في المؤخرة العالية للبغلة. وفي مركب كبير من هذا النوع يخصص نصف المؤخرة لإقامة قمرة صغيرة، تطل منها نافذة، فيما يخصص النصف الآخر ليستخدم كحمام، ودورة للمياه، وأيضًا مع وجود نافذة تطل عليه.

والآن ها هو الشراع يرفع على صاريها الثاني الأصغر حجمًا، وبالرغم من الضعف الشديد لحركة الهواء إلا أنها تزحف إلى الخارج مع حركة المد. وقفز الفتيان الذين فوقها الواحد بعد الآخر إلى الماء، وأذرعهم مرفوعة، بعضهم يواصل امتطائه للصاري الرئيسي، بينما يواصل البعض الآخر السباحة حتى يصلون إلى النقعة فيصعدون إليها ويركضون فوق الحجارة المرجانية الخشنة وكأنهم جرذان الماء. أما الذين مازالوا على ظهر البغلة فها هم أخيرًا يقفزون إلى الماء ويسبحون للعودة من حيث أتوا عندما يداعب النسيم الشراع ويدفعه أمامه وتنطلق البغلة صوب البحر.

وكان عبدالوهاب قد انصرف الآن من حيث كان يقف بجوار حائط المرفأ،

إما ليسبح عائدًا إلى الشاطئ، أو يركب قاربًا صغيرًا يستخدمه في عودته.

وسوف تلقى البغلة مراسيها لمدة خمسة أو ستة أيام في بندر الشويخ، وهو بناء يوفر الحماية للمراكب التي تدفعه ويقع على بُعد ميلين غرب مدينة الكويت، يقوم طاقمها أثناءها بشراء لوازمهم واستكمال الإجراءات المتبقية قبل الإقلاع إلى البصرة، ويأخذ كل جزء منهم ثمان دشداشات من صنع نساء أسرته قبل السفر مباشرة، لأنه سيظل بعيدًا في الغربة لمدة ثمانية أو تسعة أشهر، وسوف يحصلون الليلة على السلفة ومقدم الأجر لإعالة أسرهم أثناء غيابهم ويتفاوت المبلغ الذي يحصل عليه كل منهم، ولكنه يبلغ عادة ستين روبية لكل فرد.

وفي البصرة سيتم شحن البغلة بالتمر، ومنها تبدأ رحلتها الطويلة، ونظرًا لصناعة هذه البغلة منذ ثلاثين عامًا، فإن حمولتها لا تتجاوز ألفين وخمسمائة "من"* للبضائع، بينما يبلغ عدد طاقمها خمسة وعشرين شخصًا، أي بمعدل شخص واحد لكل مائة "من" ووفقًا للقاعدة المتَّبَعة، ويبلغ إجمالي الدخل الذي تحققه مثل هذه الرحلة حوالي العشرة آلاف روبية، ويبلغ حجم رسوم الموانى وتكلفة الطعام اللازم للطاقم ...الخ، حوالي الألفين روبية، ويخصص نصف الفارق بين هذين المبلغين لطاقم السفينة، بينما يمثل النصف الآخر الأرباح، وذلك بعد خصم تكلفة أي إصلاحات أجريت للبغلة، بما في ذلك شراء الحبال والأشرعة الجديدة إذا لزم الأمر. وتقسم الأربعة آلاف روبية المخصصة للطاقم إلى ثلاثين حصة، بينما يستحوذ الربان وبعض أعضاء الطاقم على الربح. ويجرى التقسيم على النحو التالي:

البيان	الطاقم	الربح
النوخذة (الربان)	١ حصة	٣ حصص
السكوني (موجّه الدفة)	١,٥ حصة	١,٥ حصة
الاستاد (الملاح)	١,٥ حصة	١,٥ حصة
المعلم (كبير الضباط)	٢ حصة	–

* "مَنْ" مقدار من معايير الأوزان، عُرف في الكويت ويعادل ١٤٠ رطلاً، أو ١٦٨ رطلاً، و"المَنْ" لفظة هندية: الموسوعة الكويتية ج٣، أحمد محمد السعيدان، ١٩٧١.

النوتي رقم ١	٢ حصة	-
النوتي رقم ٢	١,٥ حصة	-
الطباخ	١,٥ حصة	ربع حصة
الطاقم (١٩ فردًا)	١ حصة لكل منهم	-

وإذا دفعت أي مبالغ مقدمًا للطاقم أثناء وجودهم بالميناء، وإذا كانت الرحلة طويلة، فهم يحصلون عليها عادة في بومباي، وزنجبار وموزمبيق، ثم تُخصم من الحصص النهائية. كما تدفع المكافآت الإضافية نظير ما يقوم به الطاقم من أعمال بطولية لمواجهة الأخطار، ويتراوح حجمها بين ربع ونصف حصة.

وإني لأشعر بشيء من الحزن لخروج هذه السفينة الجميلة مرة أخرى إلى البحر، ونظرًا لمعيشتي على مقربة منهم جميعًا، فأنا أكاد أعرفهم شخصيًا فردًا فردًا، والمرفأ يموج بشعور من المودة والألفة عندما يعودون جميعًا من رحلاتهم الطويلة، وحيث يحط كل منهم الرحال، عامًا بعد عام، في نفس الموقع، وربما كانت هذه هي رحلة الوداع بالنسبة لبغلة عبدالوهاب. وكم كان القلق يستبد بي كلما هبت العواصف في الخريف والشتاء خوفًا عليها وعلى طاقمها، وفي هذا الوقت يخلو المرفأ تمامًا من أية مراكب، إلا زوارق الصيد التي تتجول فرادى، أو قوارب نقل المياه.

ومر عام وعادت بغلة عبدالوهاب في سلام إلى الكويت في أوائل الصيف، وكان عبدالوهاب يملك أكبر بوم في الكويت، وتبلغ حمولته مِن البضاعة خمسة آلاف وخمسة "مَنْ"، ويقال إن هذا الطراز من السفن تتوفر به فراغات أكبر لنقل البضائع مما عليه الحال في البغلة، التي كانت بمؤخرتها المدببة، أكثر سرعة وأفضل أداءً، وخاصة في بحر مرتفع الأمواج، أما مقدمها فهو طويل ومستقيم، ومطلي عند نهايته باللون الأسود، ودائرة بيضاء، ولكنها على خلاف البغلة بلا نوافذ.

الـــــداو:

وسبق لعبدالوهاب أن وعدني بأن يصحبني لمشاهدة هذه البوم الجديد، والذي يسمى الداو قبل أن يخرج من المرفأ في الصباح الباكر من يوم ٢ من سبتمبر ١٩٤١ ولم أدع هذه الفرصة تفلت مني، كان المد قد انحسر فارتديت سروال ركوب الخيل وزوجًا قديمًا من الأحذية قبل أن أخوض في الرمال المبللة والطمي

في المنطقة المحيطة بالمرفأ، لأصل إلى حيث تقف الداوة، كان الملاّحون يعملون عليها بكل جد وينشدون أغانيهم وهم يبيضونها أسفل خط الماء. وعلى مسافة غير بعيدة من خلفهم كان عدد آخر منهم يقوم بتسخين مزيج من ليّة (شحم الذيل) الخراف والجير حتى درجة الغليان في أحد المراجل.

وبينما أنا أراقبهم ظهر عبدالوهاب من خلفي وهو يقول: اليوم ليس يومًا جيدًا، فالماء في تصاعد، وسوف أصطحبك إليها في ماشووه Mashuwah (قارب يدفعه مجداف) في يوم يصفو فيه الجو وهي تستعد للإبحار إلى البصرة، وسوف يكون من الأفضل كثيرًا أن تشاهدينها في ذلك الوقت.

كانت مياه المد المتدفقة إلى داخل المرفأ والتي اكتسبت لون المداد نتيجة لحركة العديد من الأقدام الملطخة بالطمي، تتلاطم حول القارب الصغير الخشن البسيط الذي ربط في غير عناية بجانب البوم بواسطة حبل وشعرت بإحباط شديد.

لقد تعمدت أن أرتدي هذا الزي يا عبدالوهاب حتى أتمكن من صعود السلم بسهولة أكبر، وأنا لا أبالي بالمياه المليئة بالطمي، ولأن حذائي قديم جدًا، ومن النوع الذي لا يمكن أن يصاب بأي أضرار.

وبسرعة أصدر أمرًا لأحد الرجال المنهمكين في كسوة جانب السفينة بطبقة من الجص، كانت يده اليمنى لاتزال ملطخة حتى أعلى الرسغ بالدهن والجير، فذهب وسحب وجذب جزءًا من جزع شجرة وضعه عند الطرف الأسفل للسلم، فصعدنا عليه، ثم على السلم، ودخلت الداوة، كانت رائعة حقًا بسطحها المغطى وفتحاتها. ثم صعدنا مرة أخرى إلى النيم (مكان جلوس النوخذه) مستخدمين سلمًا متحركًا، ومن هناك بدأ عبدالوهاب يشرح لي كل التفاصيل.

قال وهو يشير إلى فراغ صغير يغطيه سياج من القضبان يبلغ طوله ثمانية أقدام وعرضه قدمين، على الجانب الأيمن: هذا هو مقعدي، ثم أراني مقعد الربان، ويقع خلف عجلة قيادة كبيرة في وسط السفينة ومثبت بأنرع متينة، وقال: هنا أمام مقعد الربان مباشرة نضع البوصلة وتحتها مصباح يضاء أثناء الليل، وهذه هي المقابض الحديدية التي يميل منها حبل لربط الكيت (زورق النجاة) الملحق بالداوة بينما نضع الماشووة على الجانب الأيمن عند منتصف السفينة، وأمامها خزانان كبيران لمياه الشرب كلٌ على جانب.

ثم أخذنا نطوف جيئة وذهابًا واتجهنا صوب مقدم السفينة.

هذا هو الصندوق المبطن بالصفيح الذي يطهو فيه الطباخ الطعام، ومن ورائه "الكشتيل" (جزء من مقدم السفينة مخصص لنوم البحارة).

وصعدت إلى مقدم السفينة وسألت عن اسم قطعة الخشب ذات العجلة الخشبية المثبتة على الجانب الأيمن من الطرف الأمامي.

هي الفخ أو البلولة (وهو ثقب في السفينة يتدلى منه حبل المرساة). والآن يجب أن تشاهدي القمرة الجميلة التي لدينا، وهى لا تُستخدم إلا لنزول الركاب من نوع خاص، وكان منهم ابن الإمام يحيى إمام اليمن في الرحلة الأخيرة.

واتجهنا إلى المؤخرة مرة أخرى، ومن هناك هبطنا سلمًا شديد الميل على الجانب الأيسر، وكان هناك باب عند طرفه الأسفل يفضي إلى داخل القمرة، وهي غرفة صغيرة تبلغ مساحتها حوالي اثنا عشرة قدمًا مربعًا، وكانت مليئة بالأشرعة والحبال، قطع الحبال البالية. وكانت هناك في السقف كوّتان زجاجيتان، ولكن لم تكن هناك أي نوافذ من أي نوع، وعندما اعتادت عيناي على الضوء الخافت رأيت أعدادًا كبيرة من الصراصير الضخمة اللامعة بقرون استشعارها الطويلة تتحرك على الجدران، وصحت "صراصير".

فأجاب: لابد (أي لا مفر من وجودها)، وبالطبع هناك فئران أيضًا.

وهكذا كانت هذه حال القمرة التي يزهو بها!.

كان باب الحمام وباب المرحاض، واللذان يقعان إلى جانب القمرة مباشرة، مغلقتين بواسطة سلسلة وقفل، وأرسل أحد الملاحين ليسارع بإحضار المفتاح، فاختفي لبرهة ثم عاد ومعه عدة مفاتيح، كان باب المرحاض موصدًا، ولكنه استعصى على الفتح نظرًا لازدحام المرحاض بمعدات وأدوات من كافة الأنواع، وكان الحمام على نفس الحال ولم أتمكن من رؤية ما بداخله.

قال عبدالوهاب: الحمام والمرحاض مخصصان للنساء أو المسافرين نوى الأهمية الخاصة.

ولم أتصور بأي حال أنني أستطيع استخدام هذه الوسائل أثناء رحلتي، وفي حدود ما تمكنت من رؤيته لم يكن هناك مكان آخر توضع به الأشرعة والحبال البالية، ولذلك تيقنت من أن الحمام والمرحاض لا يمكن أن يخلو أي

منهما أبدًا من هذه الأشياء.

وها هما الصاريان الكبيران على أهبة الاستعداد الآن، أما العبد، وهو الصاري الصغير الذي يستخدم كدعامة للصاري الرئيسي، فكان ناتئـًا فوق السطح بارتفاع ثمانية أقدام.

وتوجه عبدالوهاب إلى الطرف الأسفل لهذا الصاري وهو يتنقل من جانب إلى جانب ليريني كيف تم تثبيت الصاري الرئيسي وكيف تنزح المياه من جوف السفينة، وكان من الواضح أن لكل جزء من البوم اسمه، ورغم معرفتي لكثير منها، إلا أن هناك العديد والعديد غيرها.

وإليكم بضع ملاحظات سجلتها في ذلك الوقت:

بالنسبة للصاري الرئيسي:	عدد الشرائح
١- العود	٥٥
٢- السفدرة	٤٩
٣- التركيت	٣٦
بالنسبة للصاري الثاني:	
١- الغلمي العود أو العلمي الكبير	٣٦
٢- الغلمي الصغير	٢٦
٣- شراع جيب	٢٣

ويبلغ عرض كل شريحة مثل عرض قماش الشراع، أي حوالي ثمانية عشر بوصة:

الحبال:

١- عمار مولى، وطوله اثنا عشر بوصة.

٢- عمار شرقي، وطوله عشر بوصات.

٣- بْرَيدُون، وطوله خمس بوصات.

ويستخدم الحبل لوضع المثبت (الهلب) في المكان المطلوب في الرمال أو الطمي، أما عند التوقف بجوار منطقة صخرية فتستخدم السلاسل (الصناقيل).

والآن ازداد المد ارتفاعًا، وكان هناك حوالي قدمين من المياه عند قاعدة السلم، ونزل عبدالوهاب أولاً، وأتى بما يكفي من ألواح الخشب والنشارة ليوفر لي ممرًا جافًا أعبره للعودة إلى الشاطئ.

رحلة موفقة وحظ سعيد يا عبدالوهاب، وليرجعك الله بالسلامة.

وخرجت الداوة تلك الليلة في مهابة، في هدوء تام ودون أي ضجيج، يسحبها إلى البحر لنش آلي لتتوقف بعض الوقت في مرساها، ثم أقلعت مساء ٢١ من سبتمبر.

وعادت في منتصف يونيو، بادية الإرهاق بعد رحلتها الطويلة ولكثرة ما تسرب إليها من رشح.

كيف ترسو السفينة عند عودتها: بقلم فيوليت ديكسون

وكان من بين ما كتبت: عند مد منتصف النهار، ستدخل الداوة إلى المرفأ، وهي تلقي مراسيها الآن على بعد ميل واحد تقريبًا من الشاطئ، بعد أن أنزل صاريها الرئيسي، بينما يرفرف العلمان على أحد الصواري وعلى المقدمة.

ووفقًا لإشارة متفق عليها يرفع شراعها، ويسحب المثبتان إلى أعلى إلى ما فوق الماء مباشرة، ثم تبدأ التحرك في بطء، ويبدأ الطاقم الآن دق الطبول، وفي إيقاع هادئ أول الأمر، ثم يأخذ الصوت في الارتفاع أكثر فأكثر كلما اقتربت من المرفأ، مع الغناء والتصفيق، وها هي نسمة رقيقة تهب على مدخل المرفأ، فيقفز أعضاء الطاقم إلى البحر من فوق سطحها ويسبحون إلى النقعة حيث يربطون حبلًا. ثم يطوى شراعها وتترنح في أناة حول نفسها في النقعة.

ويتوقف دق الطبول هنيهة، يقوم الطاقم أثناءها بطي الشراع ... الخ. ويتوقف الغناء أيضًا لتحل محله الترنيمة التقليدية "هيلا، هولا"، وهم يشدون الحبل ويلقون المثبتين في الماء ...الخ. ويستمتع الأطفال الذين لا تعرف من أين جاءوا، بالمشهد وهم يحومون في الماء حول مؤخرتها، وهم يركبون زوارقهم الصغيرة الطويلة، والمد مازال يتصاعد، وقبل أن ينحسر ستكون قد حطت الرحال في المرسى التي تقضي فيها أشهر الصيف كل عام. وكل شيء هادئ الآن على السطح لانشغال الطاقم في تثبيت الفرمن (عارضة تحمل شراعًا مثلث الشكل)، أسفل وسط السفينة وتدلية الحبال استعدادًا لإنزال الصاري. في رفق وأناة صوب المؤخرة، وهو يجذب إلى أعلى في بادئ الأمر بواسطة حبال تعمل من المؤخرة، ثم يُدلى بواسطة حبال في المقدمة إلى أن يستقر في وضعه النهائي في المؤخرة، على امتداد السفينة كلها بحيث تكون قاعدته تجاه مقدم السفينة وطرفه العلوي تجاه مؤخرها، ثم يبدأ طلاؤها بزيت السمك.

وتبين العناية التي تولى لهذه السفن من أجل حمايتها من الشمس على امتداد شهرين، مدى حب أصحابها لها، على نفس النحو الذي يحب به البدوي ناقته. إنها حياته، ووضعت حصر من سعف النخيل تمتد من المقدمة إلى المؤخرة لتشكل سقيفة على ارتفاع حوالي أربعة أقدام من السطح ويجرى طي الصواري والفرمن داخل قطع من الحصير ثم توضع على الشاطئ، وتُطلى السلاسل والمثبتات باللون الأسود باستخدام القطران الذي تعالج به بكل عناية وإتقان. وتُغلف السفينة كلها بألياف النخيل لحماية جانبها من الشمس اللافحة. وكانت هناك أربع مثبتات ضخمة على جانبها حتى تظل السفينة في وضعها الرأسي أثناء انحسار المد.

وفي عام ١٩٤٣ صادرت الحكومة الهندية الداوة بتهمة التهريب، ويسرني أن أقول إن عبدالوهاب لم يكن هو مالكها في ذلك الوقت.

وقد أخبر الشيخ أحمد شيخ الكويت، زوجي ذات مرة أن كلمة داو لم تكن معروفة لدى العرب، وأنه لم يرد لها أي ذكر إلا في ارتباط ببعض الأحداث التاريخية، وكان ذلك في غموض شديد - أثناء غزو بنى كعب للكويت أيام مريم عندما تم الاستيلاء على "خمس داوات ضخمة".

وفي أعقاب ذلك، واصل هارولد متابعته لهذه المسألة وتقصى الحقيقة حولها. تعرف من الحاكم الحالي، فخامة الشيخ عبدالله السالم، أنه بالرغم من أن الكلمة لم تكن معروفة على الإطلاق في الخليج، إلا أنه اكتشف أنها كانت تستخدم من وقتٍ لآخر من جانب سكان اليمن الذين يعملون في البحر، وأشار إلى أنه حصل على هذه المعلومات من بعض المعمرين الذين كانوا في الكويت آنذاك. وأخبره زوجي أن هناك كلمة فارسية هي داويد وتعني "سريع"، من المحتمل أن يكون بنو كعب قد اشتقوا منها كلمة داو لتعني السفينة الشراعية السريعة، فقال فخامته: ربما.

وإلى جانب السفن الكويتية هناك أنواع مختلفة من وسائل النقل البحري الأجنبية التي تشاهد أحيانًا عند توقفها في المرفأ أثناء أشهر الصيف، منها على سبيل المثال:

عبري، من سيحوت بحضرموت: وهي سفينة ذات صاريين، مدببة المقدمة والمؤخرة، وتتميز دفتها بشكل خاص، وذراع الدفة فيها شبيه بتلك التي

نجدها في الجالبوت الكويتية، مع وجود حلقات حديدية للدفة مثبتة في جسم المؤخرة.

زاروق (أو الزاروقة) من جيزان باليمن: وهى سفينة ذات صاريين مدببة المؤخرة والمقدم، تطلى مؤخرتها بألوان زاهية.

السمبوك، من مكلا وعدن: مقدم ومؤخرة يختلفان قليلاً عن السفن التي تصنع في الكويت للغوص على اللؤلؤ، ولكنها أكبر حجمًا، وهناك في العادة خطوط ملونة بالأزرق والأبيض على الجانبين.

البنوش: قارب صغير ملحق بسمبوك مكلا، يشبه الماشوة الملحقة بالبوم، ويتميز بوجود حبل يلتف حولها مع عدم استخدام أي مسامير في صناعته، وهى مدببة الطرفين.

المنجي، من بومباى: سفينة ذات صاريين، ومقدمتها تشبه إلى حدٍ ما مقدمة "البلم" الكبير، وهى السفينة النهرية العراقية، بينما تشبه المؤخرة الجالبوت، وتعمل هذه القوارب عادةً بين بومباى وكراتشى، وكاتياوار.

البدان (أو البدنى)، من مسقط، عمان: وهى سفينة شراعية متوسطة الحجم، ذات صاري واحد مميز الشكل.

البقرة، من الساحل المتهادن وعمان: ولها مؤخرة مدببة جدًا وصاري واحد.

أطلال مدينة قديمة:

في أوائل أبريل ١٩٤٢ وجه نائب رئيس شركة كاليفورنيا أرابيان ستاندارد للنفط، الدعوة لي ولزوجي لزيارته في الظهران، فسافرنا في سيارتنا يرافقنا كل من سالم المزين ومحمد بن طاحوس، من عجمان، وتوليت قيادة سيارتي، وعملت كمرشد للركب، وبينما نحن في الظهران روى لي أمير محمد الضحي، وهو من بلدة الخبر المجاورة القصة التالية:

قال أمير محمد: منذ عام أو عامين كان الملك في طريقه لأداء مهمة عاجلة في منطقة صحراوية نائية على طريق الرياض - مكة، ولم تكن معه إلا سيارة واحدة، ولم يصدر الأمر للسيارات المرافقة، باللحاق بها إلا فيما بعد.

وحدث أن تعثرت سيارة الملك في جرف من الرمال، فترجل منها وجلس

ليستريح تحت شجيرة من شجيرات الأرطا، بينما يبذل بقية مرافقيه قصارى جهودهم لزحزحة السيارة من مكانها.

واقترب أحد البدو العابرين من الملك وسأله عما إذا كان الإمام قد مر بهذا الموقع أو سيمر، بالقرب منه أثناء النهار، وعندما سأله الملك عن أسباب هذه الرغبة الشديدة والواضحة لمعرفة ذلك، أجاب الرجل بأنه يتوق للقاء الإمام الذي يمتدحه الجميع ويقال إنه يعطى النقود للمسلمين.

ثم أضاف: زد على ذلك أن البدو يقولون إن الملك لا يعطى إلا القليل لمن يلتقي به ضمن حشد كبير، أما عندما يمر بأشخاص فقراء فرادى في الخلاء، فيصل مقدار ما يعطيه للفرد أحيانـاً، إلى خمسة وعشرين بل وربما ثلاثين ريالاً.

وعندئذٍ قال الملك: يا صديقي إذا كان لابد أن تعرف الحقيقة، والإمام مر من هنا ومضى في طريقه، أما من تراهم أمامك، فنحن خدمه وسوف نلحق به فور أن تتحرك سيارتنا وتخرج من هذا الجرف اللعين.

وأضاف أنه مسلم حسن الإيمان، ويخشى الله، وأنه حريصٍ على أن يفعل خيرًا في ذلك اليوم. ولذلك سيدفع للرجل خمسة وعشرين ريالاً من جيبه الخاص، وسيعطيه خمسة وعشرين أخرى نيابة عن الملك، سيده الذي يعمل في خدمته.

وفجأة فاض وجه البدوي بشرًا. وأمسك بيد الملك، وانحنى يقبل أنفه، وهو يقول متعجبًا: السلام عليكم يا عبدالعزيز، الآن أدركت أنني أخاطب الإمام نفسه.

وأسدى لنا نائب رئيس شركة "كاليفورنيا أراب ستاندرد" ومديرها العام صنيعًا لا يُنسى بمساعدتنا على زيارة الجبل البحري في جبيل، وأطلال مدينة ثاج القديمة في وادي المياه، ثم وسط الأحساء، أثناء رحلة العودة من الظهران، وقد وضعا تحت تصرفنا خدمات المرشد العجماني الشهير، خميس بن رمثان العجمي، الذي رافقنا وظل معنا إلى أن عدنا إلى الكويت بسلام.

زيارة جبيل والثاج:

والجبل البحري هو أحد تلين بالقرب من بلدة جبيل الساحلية الصغيرة، أو عينين كما يطلق عليها العرب. ويسمى التل الآخر الجبل البرى، والبدو يروون

العديد من القصص التي تتحدث عن وجود كنز مدفون في وسط الجبل البحري.
وهناك نقش باللغة العربية على صخرة كبيرة مسطحة عمودية، وعندما قمنا بدراسة ما تقوله هذه الكلمات وجدنا أنه من الصعب رؤيتها ونسخها، نظرًا لسقوط صخرة كبيرة أمامها من أعلى، ويقال إن النقش جاء به ما يلي:

من الجبل البحري
إلى الجبل البري
حمل سبعة جمال ذكور
في سبعة أيام
أمانة الله وحده

وهناك فوق النقش الذي حفر بكل دقة وعناية في الصخر ثقب يبلغ اتساعه حوالي ثمانية عشرة بوصة مربعة، ينتهي بثقب في حجم قطعة عملة من فئة الثلاث بنسات، ويقولون إنه يمكن استخراج قطن ذكي الرائحة أو صوف من هذا الثقب الداخلي بواسطة قضيب من الحديد، أو سلك معدني، يبلغ طوله قدمين وينتهي بطرف كالخطاف.

وعندما غادرنا جبيل لم نتبع الطريق القصير والمباشر المؤدى إلى الكويت عن طريق أبو حدرية، وإنما اتجهنا صوب الغرب وسرنا على طريق الرياض، الذي يعبر رمال الدهناء عند أم عقالة، أو معقالة، وهو الاسم الأكثر شيوعًا.

وكانت أول واحة نصل إليها هي الحنات، وبها هجرة (مستوطنة) للإخوان من قبيلة العوازم. وإلى الغرب من القرية كانت هناك آثار لأطلال، وكانت الآبار مركبة من طبقات من عدد كبير من القوالب الحجرية كبيرة الحجم جيدة القطع، من بقايا حضارة سابقة، وأمكننا أن نرى على البعد في اتجاه الجنوب الغربي تلاً مربع الشكل تقريبًا، مسطح القمة، أخبرنا مرشدنا أنه يسمى الجويديات وأنه يقع على بعد أربعة أميال شمال غرب ثاج.

لم تكن أمامنا فسحة كبيرة من الوقت، ولذلك لم نمكث طويلاً في الحنات، ووصلنا إلى ثاج في حوالي الساعة الخامسة والربع صباحًا، فتوفرت لنا ثلاثة أرباع ساعة للتجول في المنطقة قبل مغيب الشمس، وبينما خدمنا وسائقو السيارات ينصبون خيامنا بالقرب من بئر وبستان مليء بالشعير الناضج، أخذنا نتجول فوق الأطلال.

وثاج أيضًا هي إحدى هجرات، أو مستوطنات الإخوان من العوازم، وكانت أغلب منازلها التي شيد بعضها من الطمي وبعضها الآخر من الحجارة المجلوبة من الأطلال، خالية في ذلك الوقت من العام، لأن سكانها لا يأتون إليها إلا في فصل الصيف، ولكن هناك عدد ضئيل من البستانين يقومون بزراعة المحاصيل ويقيمون إقامة دائمة في هذا المكان. والمستوطنة مشيدة على حافة سبخة كبيرة، وتمتد الأطلال شرق القرية وتغطي مساحة تبلغ حوالي الميل المربع، وكان هناك عديد من الروابي والهضاب الصغيرة على منحدر منخفض في اتجاه الجنوب الشرقي، يخترق منخفضًا به بئر أو بئران، وقال لنا مرشدنا إن هذه الروابي والهضاب ليست إلا أطلالاً، ولكننا لم نقم بزيارتها.

كانت الأواني الفخارية المهشمة في كل مكان، وكانت كمية كبيرة تفوق أي كمية في أي موقع آخر، تغطي أربعة شعاب شمال شرق القرية. ويبلغ ارتفاع هذه الروابي حوالي الأربعين قدمًا، ومن المحتمل أنها كانت مدافن لشخصيات هامة أو أماكن لتقديم القرابين.

وكان من الواضح أن أقسامًا من القرية تتكون من بقايا المدينة القديمة، وأن بقية الأقسام شيدت بالحجارة التي جمعت من الأطلال وكانت الألواح المكسو منها وغير المكسو، تستخدم في بناء جدران المنازل، بينما ينم مظهر الجدران التي لا يتجاوز ارتفاعها أربعة أقدام والتي تحيط بالحفائر في طرف القرية عن استخدام بقايا الجدران الأصلية في بنائها.

وتمتد إلى الشمال الغربي والجنوبي الشرقي، ثم في زاوية قائمة وموازية لوادي المياه، أسس ما كان في يوم من الأيام حائطًا طويلا، يبلغ سُمكه عشرين قدمًا، به بقايا من خندق مائي، فيتناثر داخل هذه الحدود القديمة للمدينة أسس منازل ...الخ، على قطع مهشمة من الفخار نلتقي بها في كل مكان.

وإلى الجنوب من القرية هناك أطلال توحي بأنها ربما كانت مدافن في وقت من الأوقات، تبدو واضحة للعيان كتل من الحجر سميكة حسنة القطع بالقرب من السطح، يشكل كل ثلاثة منها أحيانًا قبرًا ضيقًا، وكان أحد الألواح التي رأيناها في هذا الموقع جيد القطع، متقن الصقل، ويبلغ طوله خمسة أقدام، وكان به على بعد قدم من أحد طرفيه تقريبًا، شق محفور، يبلغ عرضه حوالي ثلاث بوصات، مما يوحي بأن هذا اللوح كان مثبتًا في مكانه في وقت من الأوقات

بواسطة حبل يلتف حول هذا الشق، ولم تكن عليه أية نقوش، كما لم نعثر على أي ألواح أخرى عليها نقوش.

وكان من السهل أن نرى أن جدران المساكن يدخل في تشكيلها العديد من القوالب الحجرية المسطحة السليمة، ولكنها كانت في وضع أفقي، ومن ثم كان من المتعذر اكتشاف أي نقوش عليها، وكانت جدران البستان والمباني الحجرية المحيطة بالبئر في الشمال الشرقي من القرية مشيدة في الأغلب باستخدام حجارة متقنة الصقل. وكانت الآبار تدار بواسطة الحمير. وكانت هناك مقبرة حديثة صغيرة في الشمال الشرقي من القرية.

ولم نلتقط أية أدوات حجرية بين الأطلال. وكانت قطع الفخار المتناثرة هنا وهناك متعددة الألوان، فمنها الأسود في احمرار، والرمادي الداكن، والأحمر، والأخضر، المشوب بالحمرة، مع طلاء أصفر شاحب لامع في الداخل والخارج، أو طلاء أسود لامع على جانب واحد، ولفت أنظارنا شيئان مربعان صغيران لكل منهما أربعة سيقان صغيرة، وربما كانا موقدين لحرق البخور. وقد عثرنا عليهما على رابيتين مرتفعتين بجوار خيمتنا، كان أحدهما من الفخار الأسود المشوب بالحمرة. أبيض اللون تقريبًا من الداخل، وليست عليه أية نقوش، بينما الآخر (وكان مهشمًا) من الفخار الأحمر مع نقش على طرفه الأعلى وعلى السيقان، كما وجدنا بين الأطلال أيضًا قليلاً من القطع المعدنية، اخضرت بفعل الزمن، كما عثرنا على الرابية المجاورة لخيمتنا على بقايا لا يحتمل أن يكون رأسًا حجميًا لبلطة، أو مثقابًا للصخور.

ولما كان سكان ثاج من المتعصبين بشكل أو آخر، لم ندخل القرية. كما لم نتمكن خلال الفسحة القصيرة من الزمن التي أتيحت لنا أن نختبر المنطقة وما تحتويه بدقة. ولكن على أي الأحوال، لا يمكن لأحد في الوقت الراهن أن يحصل على تصريح بالحفر في أي أطلال في العربية السعودية ولا يمكن إلا للتنقيب في الروابي أن يميط اللثام عن أسرار ثاج.

وبعد أن غادرنا هذا المكان، توقفنا عند التل مسطح القمة المسمى الجويديات، ولكننا لم نتسلقه حتى القمة. ويبلغ ارتفاع هذا التل ثلاثمائة قدم تقريبًا، وطوله أربعمائة ياردة، والأطلال الوحيدة التي تبدو واضحة للعيان فيه هي أجزاء من جدار يبلغ ارتفاعه أربعة أو خمسة أقدام شيد عند منتصف المسافة

بين سفح التل وقمته. وربما كان التل نفسه في وقت من الأوقات مخفرًا أماميًا لحماية الأطراف الشمالية لمدينة ثاج، وربما كانت الحظائر التي تحيطها الجدران منطقة تأوي إليها قطعان الماشية والأغنام عندما تلوح أي أخطار.

جُزُر الطيور: بقلم فيوليت ديكسون

استشرف المدعو إبراهيم الفودري، الذي يتولى صيانة المغارة في جزيرة مسكان (مسجان)، ويمارس صيد الأسماك، حول أنسب وقت لزيارة جزيرة عوهه، نظرًا لرغبتي مشاهدة الطيور التي تبنى أوكارها هناك. فقال لي أن أبناءه قاموا في العام الماضي ١٩٤١ بزيارة هذه الجزيرة في ٢٣ من ربيع الثاني، وهو الشهر الرابع من السنة الهجرية، وأنهم جمعوا حوالي مائة وخمسين بيضة، باعوها في سوق الكويت، وقال: سوف تظهر ثريا في الخامس والعشرين من الشهر، وإذا أمكنك الحضور حوالي يوم ٢٦ فسوف يكون الطقس مناسبًا.

وطلبت منه أن يحضر للقائي مرة أخرى قبل بضعة أيام من التوجه إلى هناك حتى أتمكن من إجراء الترتيبات النهائية، وجاء إلى بالفعل صباح ٥ من مايو، وقال إنه سمع أبناءه يتفقون على الذهاب إلى عوهه لجمع البيض، فطلب منهم إرجاء موعد خروجهم حتى تتمكن الخاتون (السيدة) من مرافقتهم، ولذلك نصحني بالتبكير بالرحلة.

واتخذت كافة التدابير لمغادرة الكويت في الصباح الباكر يوم الخميس ٧ من مايو، وحرصت على أن أصطحب مرافقنا البدوي سالم المزين، وكان ممن مارسوا مهنة الغوص على اللؤلؤ في وقت من الأوقات، وابنة أخيه عمشة بنتٍ إبراهيم المزين. وكان كل ما حملته معي لا يتجاوز خيمة صغيرة تزن ٣٠ رطلاً، وسرير صغير (يُطوى ويُفتح)، بطانية وسجادتين من الصناعة المحلية، ووسادتين، كما أخذت معي نصف غرارة من أرز كراتشي، ونصف غرارة من الدقيق، وأوقية من الدهن، وأوقية من البن، وحزمة من الحطب لأقدمها هدية لأسرة الفودري التي كنت سأنزل في ضيافتها.

وفي الصباح الباكر ليوم الخميس، دخلت البلم التي يملكها إبراهيم المرفأ أمام منزلنا في الكويت، ونظرًا لارتفاع المد، بادرنا بحملٍ منقولاتنا إليها وانطلقنا ونسيم لطيف يهب من الغرب، ولكن الوضع تغير قليلاً بعد ساعتين أو قرابة الساعتين واضطررنا إلى تغيير مسارنا واتجهنا شطر الجانب الشمالي الغربي من

مسكان، ووصلنا في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، في جو شديد الحرارة مشبع بالرطوبة، وكان منزل إبراهيم المكون من مجموعة من الأكواخ الصغيرة المنخفضة المشيدة من الحجارة على الساحل الغربي، وبجواره مباشرة المنارة التي تضاء كل مساء عند غروب الشمس. وكانت هناك شجرة نحيلة الأغصان على بعد حوالي المائتي ياردة، توفر الظل لأبقاره وأغنامه وقت الظهيرة.

وتغطي الجزيرة حوالي الثلاثين فدانًا، وبها خزانان جيدان للمياه مشيدان من الأسمنت، يمتلئان بمياه الأمطار كل عام، وهناك كلأ جيد وأحراش تتخذ شكل التندات تغطي الجزيرة. وهذه الأشجار تقطع كل خريف ولا تقتلع من جذورها، عندما تجف لتستخدم كوقود، ثم تنمو الفروع من جديد في الربيع والصيف لتضفي على الجزيرة مظهرًا أخضر خلابًا.

ووسيلة العيش الرئيسية لإبراهيم هي الأسماك التي يقوم بصيدها هو وأبناؤه بواسطة الشباك ويأتون بها إلى سوق الكويت. وكانت أسرته تتكون من زوجته، وثلاثة أبناء كبار مع زوجاتهم وعدد من الأطفال الصغار، وابنته المتزوجة وثلاث بنات أخريات في سن العاشرة والثامنة والخامسة، وكان للسيدات مكان خاص يجلسن فيه يُعرف بالعريش، على حافة الساحل بالقرب من منزلهن، تتكون جدرانه من بقايا صواري السفينة وأعمدتها وقطع من الشباك البالية، مع سقيفة من الحصر الوارد من أهوار العراق. ونصبت خيمتي خلف هذا العريش مباشرة، وكنت أجلس في ظله بالنهار على حشية ووسادتين.

وكانت الرياح تهب طوال اليوم، باستثناء ساعة واحدة قبل وقت الظهيرة، إما من الجنوب، وإما من الغرب. وكانت باردة ومنعشة بالنسبة لهذا الوقت من السنة. وأقبلت بقرتان لحلبهما في الساعات الأولى من وقت الظهيرة، ثم خلدتا إلى الراحة تحت الشجرة حتى حوالي الساعة الثالثة فتم حلبهما مرة أخرى قبل أن تخرجا إلى المرعى، أو لتلتهما أي أسماك مجففة تعثر عليها. وعند مغيب الشمس تربط كل بقرة على حدة، وتقدم لها وجبة من نوى التمر أو قليل من التمر نفسه، تتناولها من إناء يتكون من صدفة كبيرة لسلحفاة ضخمة، وعند حلول الظلام أقبلت أيضًا إحدى عشرة عنزًا وشاة لقضاء الليل تحت الشجرة.

وأعدت نساء الأسرة لي في وجبة الغذاء أشهى أصناف من الأرز، بعضه محلى بالسكر، والبعض غير محلى، وتشكيلة من الأسماك طهيت بطرق مختلفة.

وتمر مطبوخ بالعسل، إلى جانب اللبن. وأما بالنسبة لوجبة العشاء فكان هناك المزيد من الأرز والأسماك، وصنف من بيض الحمام بالزبد، بالإضافة إلى زجاجة من الماء أضيفت إليها حبوب اللقاح من نخلة (ذكر) للمساعدة على الهضم.

ومنذ منتصف الليل فصاعدًا، هبت رياح جنوبية وكان الندى كثيفًا جدًا حتى بات من المتعذر التوجه إلى عوهه في الصباح التالي، كما كنت أتمنى، ولذلك أمضينا يومًا آخر في استرخاء ونحن نذرع أرجاء الجزيرة، وخرجت لصيد الطيور مع الأولاد وأخذت أرقب الرجال وهم يصنعون شباك صيد الأسماك باستخدام القصب الوارد من العراق، بينما يقوم البعض الآخر منهم بطرق العذوق التي تحمل التمر ليصنعوا منها حبلاً يربطونها به. ويسمى هذا الحبل بالعسو، وتحتاج الشباك إلى تجديد مستمر نظرًا لسهولة تمزقها بفعل العواصف. وكانت أنواع الأسماك التي تم صيدها أثناء زيارتي هي الزبيدي، والسبيطي، والشعم، إلى جانب ما تضمه الشباك عادة من زهاء عشرة من اللخمة (الشفيتين البحري) اللداغ كبير الحجم، وصغارها.

وهناك نوعان من اللخمة البحري اللداغ (اللخمة) في هذه المياه، أحدهما مكور الجانبين يُعرف في الكويت باسم السنيني، والآخر مدبب الجانبين مثل الجناحين وذيله أطول وأرفع ويشبه السوط، ويعرف هذا النوع بالانسيفي. وقد تعرض إبراهيم وأبناؤه جميعًا للدغات هذه الحيوانات الشرسة، أصابتهم في أجزاء من الساق والفخذ، واضطروا معها أحيانًا إلى ملازمة الفراش لعدة أشهر. ومن الواضح أن لدغة اللخمة الصغيرة تُحدث تسممًا أقل مما تحدثه اللخمة الكبيرة. ويتخذ الزباني (أداة اللدغ) شكل زائدة رفيعة صلبة كالعظام، يبلغ طولها بوصتين ونصف البوصة، تتوقف فجأة داخل الجرح، ولا يمكن إزالته إلا بعمل فتحة في العضل في مواجهة نقطة الدخول وجذبه إلى الخارج.

وكانت الجوبا، وهى القبرة ذات العرف، آوية في أوكارها، وعثرت أنا والأطفال على عش صغير لها تحت فرع شجيرة حمض، وكان مشيدًا كله، وبكل دقة وأناقة - من حشائش *الصمّيع الجافة*، وكانت به ثلاث بيضاء. كما عثرنا على عش مشابه، وإن كان صغيرًا جدًا لا يزيد اتساعه عن البوصة وتضعه البومة أسفل أحد الأفرع، ولم يكن به أي بيضة.

وكان هناك ما يتراوح بين خمسة عشر وعشرين وكرًا من أوكار خضيري،

وهو طائر أخضر اللون يأكل النحل، تتوارى جميعها في جحور شقت في الأرض، بزاوية مائلة، وإلى عمق لا يقل عن عشرة أقدام. ولمحت بيضة عند مدخل أحد هذه الجحور، وكانت بيضاء اللون بيضاوية الشكل تقريبًا.

ويبني القراوى وهو طائر الزقزاق، وكره عادة فوق رقعة جافة من التربة بعيدًا عن الشاطئ. وكانت الأوكار مجرد منخفضات دائرية تحدها رقائق من الطمي الجاف وقطع من أصداف البحر المهشمة. وعثرت على وكرين بكل منهما ثلاث بيضات، ووكر به بيضة واحدة. ورأينا أحد هذه الطيور يحوم من فوقنا ناشرًا جناحيه ويتحرك في خط متعرج صوب الشاطئ، والأرجح أنه كانت له صغار، ولكننا لم نعثر عليها.

وكانت الجويدة، وهي طائر صغير يشبه النورس، تأوي إلى أوكارها وتطير من فوقنا وهي تطلق صرخاتها. وكان أحد الأوكار أسفل فرع لشجيرة حمض وبه بيضة مدببة لدرجة أكبر قليلاً مما رأيناه في البيض الذي تضمه أوكار القروي، ربما كانت بيضة جويدة، رغم مشابهة الوكر لوكر القروي.

وكانت فضلات الحباري، والعديد من طيور السنونو والخطاف الميتة تتناثر على الأرض، وكان من الواضح أنها هلكت نتيجة للعطش والإرهاق أثناء هجرتها. وعثر الأطفال على أنواع أكبر حجمًا من آكل النحل، برتقالية وبنية اللون، وهي في حالة إعياء شديد. ولم تكن هذه الطيور تبنى أوكارها في الجزيرة، كما لاحظت أن بعض الأنواع الأخرى من الطيور المهاجرة تمر من فوق الجزيرة لمواصلة رحلتها ولكن لم أتمكن من التعرف على أنواعها. كما رأينا ستة من طائر الكروان المائي على الشاطئ، وفي الصباح الباكر كانت الطيور المغردة الصغيرة تمتص الرحيق الندى المتراكم على أغصان السيقان.

وبعد تناول طعام العشاء في الليلتين الأولى والثانية من زيارتي، جلست ربة البيت مع عمشة ومعي تحكى لنا القصص عن البادية وهى أصلا فتاة بدوية، كما تقول – أبوها من قبيلة شمر وأمها من عنزة، وقد جاءا بها إلى قرية العيون بالقرب من حائل.

قالت لي: في تلك الأيام التي لم تنقطع فيها القلاقل والاضطرابات كان الجميع يحملون أسلحتهم النارية، وكان الرجال لا يفكرون في الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة إلا وهم مسلحون، وحتى الفتيات تعلمن ضرب النار، وركوب المهر،

وكانت المنطقة المتاخمة لحائل تتميز بتعدد التلال التي تكثر بها الكهوف، وكانت الأخطار تحدق بنا دائمًا نحن وماشيتنا لأن الضباع والنمور كانت تأتى بالليل لاختطاف أغنامنا وعنزاتنا.

وقد روت لي أمي قصة جرت وقائعها وأنا لا أزال رضيعة غضة في الشهر الثاني من عمري، عندما كاد أحد النمور أن يخطفني ويفر هاربًا، كان أبى في المسجد يؤدى الصلاة، بينما عادت أمي، وهى تحملني، إلى المنزل. وعندما توجّه أبى إلى المسجد نسى أن يغلق الباب، ولذلك فما أن دخلت أمي إلى الساحة حتى قفز نمر كان يربض في الداخل قفزةً واحدة وحاول أن يمسك بي من ذراعي، وأصابت أنيابه رسغي وأصابعي بجراح شديدة غائرة، ولكن أميّ أطلقت صرخة حادّة مدوّية جعلت الرجال يهرعون من المسجد، وأسلحتهم في أيديهم، وهم على أهبة الاستعداد لملاقاة عدوّ أو التصدي لمجموعة من المغيرين، وعندما قالت لهم أميّ أن المهاجم نمر، بدأوا مطاردته على الفور، ولكن بعد فوات الأوان، لأن الوحش تمكن من الهرب إلى التلال. ولازالت آثار الجروح على يدي، وسوف ترينها في الصباح على ضوء الشمس.

وحكت لي مضيفتي أيضًا أنه كان هناك في مكان ما بين التلال تل كانت تعرفه منذ طفولتها، تعيش فيه امرأة متوحشة يُعتقد أنهًا من أكلة لحوم البشر. وقد اختفي بعض الأشخاص في ظروف غامضة في أوقات مختلفة، وكانت هناك شائعات تتحدث عن رؤية ساحرة أو امرأة مصاصة للدماء تخرج عندما يجنّ الليل ويسود الظلام لتقتل وتأكل أي غافل.

وأصرّ ابن الرشيد، أمير حائل، على أن يقطع دابر هذه الشائعات، فإذا تبين أن بها أي قدر من الحقيقة، كلفّ حرسه بالقبض على هذه المرأة. وطوال عدة أشهر لم يتوقف عن إرسال رجاله من راكبي الجمال، بالليل وبالنهار، للبحث عنها. وذات ليلة، وصل نبأ يقول إنها شوهدت وهى تتسلل خارجة من أحد الكهوف. وعلى الفور، توجهت مجموعة مسلحة من الحراس راكبي الجمال إلى الموقع، فحاصرت الكهف. وعندما عادت هذه المخلوقة البشعة إلى مخبئها قبيل الفجر، هاجمتها القوة المسلحة وألقت القبض عليها وكُبلت بالقيود، وأتوا بها لتمثل أمام ابن الرشيد.

كانت امرأة دميمة بشعة المظهر، ضخمة الرأس، تطلّ من وجهها

علامات التوحش والضراوة، وشعرها أشعث مجعّد، وأسنانها أشبه بأنياب حيوان مفترس. وتكلمت فكانت لغتها غريبة لم يفهمها السامعون إلاّ بصعوبة، فاعترفت بأنه حدث مرّة أو مرّتين أن أكلت لحمًا بشريا وشربت دماء إنسان. ولم تتمكن من أن تحدد من أين جاءت أو مَنْ تكون، ولكنها قالت إنها نصف رجل ونصف امرأة أي خنثى.

وقبل أن يصدر ابن الرشيد حكمه بإعدامها، أراد أن يحصل على دليل يؤكد أنها قتلت إنسانـًا وأكلت لحمًا بشريًا، فأمرها بأن تصطحب رجاله إلى مخبئها في التلال. وعندما وصل الحراس إلى أطراف المدينة، قتلوها ودفنوها وفقا لترتيبات متفق عليها من قبل.

وفي الساعة الثالثة والنصف من صباح السبت ٩ من مايو، أيقظني إبراهيم وهو ينادى من خارج خيمتي: الرياح تهبّ من الغرب. استعدّى، فسوف نتحرك.

وما أن بلغت الساعة الرابعة حتى كنّا جميعًا على ظهر البلم، نشق العباب صوب سعد وسعيد، (وهما مزاران وجد بالقرب منهما مجموعة من آثار فيلكا) المطلان من الطرف الجنوبي الغربي لجزيرة فيلكا.

وتقع عوهه بالقرب من الركن الجنوبي الغربي لفيلكا، حيث تمتد مساحة من الأرض الرملية تعرف باسم الليوان (الشرفة). وخور عوهه هو الاسم الذي يطلق على مجرى عميق يبلغ عرضه حوالي الميل ونصف الميل، يفصل فيلكا عن عوهه، التي تبلغ مساحتها حوالي عشرة أفدنة، وتتميز بشاطئ رملي متدرج على جانبها الشمالي. ونزلنا في هذا المكان في الساعة التاسعة مساءً.

وبينما نحن نقترب من موقع نزولنا، هبّ سربٌ من الطيور كان يجلس على الشاطئ، وكان يتكوّن، في حدود ما تمكنت من رؤيته، من طيور الخرشة والنورس، رغم وجود طائرين من نوعٍ أكبر كثيرًا من النورس أسود الرأس والجناحين رمادي الظهر، وبعد أن هبّت هذه الطيور وأطلقت صيحة النذير، هبّ أيضًا سرب ضخم من وسط الجزيرة يضم حوالي المائة من زقزاق السرطان يتبعه سرب كبير آخر بعد فترة وجيزة. وأخذت هذه الطيور تحومّ رائحة غادية قبل أن تنطلق إلى البحر حيث تفرقت في أسراب أقل حجمًا يضم كل منها ما يتراوح بين عشرة واثني عشرة طيرًا. وكانت هذه الأسراب الصغيرة ترجع لتحوّم حول الجزيرة على فترات.

وبعد أن نزلنا إلى الشاطئ، عثرنا على بيضتين كبيرتين متقاربتين فوق علامة أعلى منسوب للماء مباشرة، وكانت كلٌ منهما في حفره ضحلة يحيط بجوانبها رشاش من نقط بيضاء. وكانت إحدى البيضتين صفراء اللون ضاربة للبرتقالي مع شيء من الحمرة، وعليها خطوط رمادية ضاربة للزرقة، ونقط ومساحات من اللون البني الداكن والضارب إلى الحمرة، وكان حجم هذه البيضة ٢,٥٨ × ١,٦٩ بوصة، أما البيضة الأخرى فكان حجمها ٥,٥٧ × ١,٧٧ بوصة، وكانت بيضاء اللون مع بقع رمادية مائلة إلى الزرقة، وعليها بعض النقاط والخطوط والبُقع بنيّة اللون. ويعرف العرب هذا النوع من البيض باسم الطراشي؛ والأرجح أن هاتين البيضتين كانتا للطائرين الكبيرين اللذين سبق أن رأيناهما ينطلقان من الشاطئ.

وتوغلنا في الجزيرة، واقتربنا من رقعة من الأرض تتميز بكثرة الشقوق والالتواءات التي تبنى فيها طيور زقزاق السرطان أوكارها. وخرجت بعض الطيور فرادى من هذه الأوكار وأخذت تجرى على الأرض وهي تمدّ أعناقها إلى الأمام، ثم طارت. ويطلق العرب على هذه الطيور اسم القويرى (وتنطق الشويرى) ويقولون إنها لا تأكل الأسماك ولا تعيش إلا على الديدان والسرطانات الصغيرة التي تلتقطها على امتداد الساحل. ومن هنا، ونظرا لخلوّها من طَعم السمك ورائحته، فالطلب يزيد على بيضها أكثر من الأنواع الأخرى. وبدأ الملاحون في جمع هذا النوع من البيض، وكانت مهمة شاقة، وجحور هذه الطيور، التي يبلغ اتساع فتحة كل منها حوالي الست بوصات، تمتد مائلة داخل الأرض. وكان بعضها يمتد لمسافة أربعة أقدام ونصف القدم، والبعض الآخر أقل قليلاً، مع وجودِ البيض عند طرفها الأقصى. ولم تسفر محاولات البحث في الجحور عن نتائج إلا بنسبة الثُلث. وبيضة زقزاق السرطان، وهى بيضاء اللون، كبيرة جدًا بالنسبة لحجم الطائر نفسه، وتتفاوت قليلاً في أحجامها كما يتضح من القياسات التي أجريتها في ذلك اليوم: ٢,٥٧ × ١,٨٢: و ٢,٦٢ × ١,٨٨؛ و ٢,٦٤ × ١,٧٩؛ و ٢,٥٣ × ١,٥٥ . وتضع أنثى هذا الطائر بيضة واحدة في العادة، ولكن كثيرًا ما نجد بيضتين في جحر واحد.

وحاولت اصطياد أحد هذه الطيور حتى أتمكن من تحديد نوعها على وجه الدقة، ولكنني فشلت، حيث كانت بندقيتي عتيقة الطراز وارتفعت درجة الحرارة بها بسرعة، فأصبح الأمر شاقاً بل ومستحيلا بالنسبة لي. أما الطائر

الوحيد الذي تمكنت من إصابته فسقط في البحر، ولم نتمكن من الوصول إليه. وعلى الفور انفصلت أنثاه عن السرب الصغير وطارت من فوقه وظلت تحوم حوله بعض الوقت وهي تطلق صيحة حزينة إلى أن جرفته مياه البحر.

وتركنا أنا وإبراهيم الرجال الثلاثة الذين يجمعون البيض وأخذنا نتجول متجهين نحو الجانب الجنوبي من الجزيرة، حيث عثرنا على ثلاثة أوكار لأنواع من الطيور يعرفها العرب باسم الزرجي، وأبا الخصيف، والسلطاني. وكانت جميع الأوكار متشابهة ومسطحة تقريبًا، ومبنية من الأغصان الجافة، ويبلغ عرض كل منها حوالي تسع أو عشر بوصات. وكانت هذه الأوكار مثبّتة على أطراف الأغصان الدنيا لشجيرات الحمض، على ارتفاع يتراوح بين اثنا عشرة وأربع عشرة بوصة من سطح الأرض. وكان البيض أخضر اللون مشوبًا بالزرقة مع بقع بيضاء مثل الجير. ووجدنا بيضة واحدة في كل وكر من أربعة أوكار، وثلاث بيضات في الوكر الخامس. وكان أحد هذه الأوكار مشيدًا فوق قمة بعض الحجارة التي تراكمت عند سفح إحدى الروابي الصغيرة، بينما كان وكر آخر على قمة عامود ملاحة حديدي قديم علاه الصدأ منذ سنوات ولم يعد ظاهرا منه فوق سطح الأرض إلاّ حوالي عشرة أقدام.

ورأينا على الصخور على امتداد هذا الشاطئ الطيورَ صاحبة هذه الأوكار. كان البعض منها من طيور البَلَبْشون السوداء صغيرة الحجم، والبعض الآخر من طيور البلشون البيضاء ناصعة البيضاء أو البلشون المائي من نفس الحجم. ووفقا لما قدّمه إبراهيم من معلومات كانت الطيور البيضاء من ذكور وإناث أبا الخصيف، بينما كانت المائلة للسواد من الزرجي. أما الطائر الذي قال إنه يُسمّى السلطاني فكان له ما يشبه التاج المكوّن من ريش طويل أسفل الرأس والرقبة. وعثرنا على بيضة مهشّمة ملقاة على الأرض بالقرب من الوكر، قال ابن الرشيد إن الطيور تهشمها إذا رأت غريبًا يقبل نحوها.

وكانت جحور زقزاق السرطان التي حفرتها الطيور في العام الماضي والعام السابق عليه بادية للعيان في موقعين آخرين من الجزيرة. ومرة أخرى وفقا لما يقوله إبراهيم. فهذه الطيور تحفر جحورًا جديدة كل عام على بعد قليل من الجحور القديمة، وكانت جميع الجحور القديمة مملوءة، والأرجح أن الرياح وتقلبات الجو هي التي ملأتها بالرمال والوحل. ولم يكن هناك أي أثر لنباتات

تنمو من فوقها رغم ما كان في المنطقة المحيطة بها من شجيرات الحمض والطهمة (أعشاب من فصيلة الخنتزيريات) والشفون. وكان هناك على الجزيرة عدد من طائر السنونو الميّتة وأجسام متحللة لعديد من الطيور الصغيرة التي تشبه البلشون بصدرها الأبيض ونصفها الأعلى الرمادي المشوب باللون البنّي.

وغادرنا عوهه في حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف بعد أن جمعنا أربعة وسبعين بيضة من بيض زقزاق السرطان، إلى جانب سبعة من بيض الزارجى، وبيضتين من بيض النورسين (التراشى) السابق ذكرها، وعندما انتقلنا إلى القارب، بدأت الأسراب الصغيرة من زقزاق السرطان تعود لتهبط على الشاطئ على بعدٍ قليل، إلى أن تكوّن سرب كبير، فبدأت تجرى معًا على الساحل، ثم اندفع مائة منها إلى أوكارها دفعة واحدة، ثم أعقبها المزيد والمزيد، ووصفها إبراهيم لي فقال إن سيقانها سوداء، يبلغ طولها سبع بوصات، وجسمها أبيض اللون كله باستثناء شريط أسود على الظهر والرأس والرقبة. ولاحظت أيضًا أن بعض الريش داكن اللون لا يظهر إلا عندما تبسط جناحيها لتطير، أو عندما تمد ساقيها إلى أقصى مداها، من ورائها. وقال إبراهيم إنه تمكن هو وأبناؤه من الحصول على سبعة منها من أوكارها داخل الجحور، وإن إحدى الإناث وضعت بيضة عندما عادوا إلى منزله في مسكان. وهذه الطيور لا تتجاوز في حجمها حجم الحمامة، وكانت طيبة المذاق عندما تطهى، كما وجدت البيض سائغًا عندما يتم إنضاجه رغم أن البيضاء منها كانت عسيرة المضغ. وكان القليل من البيض الذي جمعناه في ذلك اليوم قد سبق أن احتضنته الطيور لفترة. وقال إبراهيم إن أعداد أوكار الخرشة حمراء الظهر ونورس البحر والقويرى كانت في الأعوام الماضية أكثر مما هي عليه هذا العام وعندما عدنا إلى مسكان لم تتوقف الحرشة ذات الرأس الأسود عن التحليق حول البلم، كما كانت تغوص في البحر وراء سمكة صغيرة. ولم تكن تنجح في الغوص إلا قليلا، وكانت تعود صفر اليدين في أغلب الأحيان، وفجأة تعرض اثنان من طائر الخرشة كانا يحوّمان من فوقنا للهجوم من جانب طائر اسود أرقش أكبر حجمًا، وكان من الواضح أنه يريد الإمساك بهما وقتلهما. وعلى حين غرّة، بدا وكأن المهاجم لم يعد يعنيه من أمرهما شيء، وابتعد عنهما تمامًا، واقترب من الماء ليهبط في مكان بعيد. ثم ذكر لنا إبراهيم أن هذا الطائر الغريب يعيش على روث الخرشة، وأنه يطير من خلفها ويهاجمها ويجبرها على أن تستسلم له وتتصرف وفقا لإرادته - بعد أن تتوتر أعصابها - وعندئذ تنقض

عليها الطيور الأكبر حجمًا وتأكلها وهي تحلّق في الجوّ ثم تطير مبتعدة، ورغم أنني شهدت مثل هذا الهجوم مرتين إلا أن كل شيء جرى في سرعة كبيرة لم استطع معها أن أرى على وجه الدقة ما يحدث. وهناك نظرية أخرى تقول إنه الخرشة تتقيّأ الاسماك الصغيرة التي أوقعت بها لتوّها، وأضاف إبراهيم أن هذا النوع الأخير من الطيور له ذيل متشعب مثل النورس، ولكنني لم أتمكن من التأكد من ذلك.

وفي ظل رياح قوية بعض الشيء، عدنا إلى مسكان في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر.

الطيور المهاجرة عبر الكويت:

هناك هجرة إلى الشمال في الربيع، وهجرة إلى الجنوب في الخريف، ويجب ألا يغرب ذلك عن بالنا أبدًا. وعلى امتداد عام كامل تمكنت من تسجيل الملاحظات الميدانية الآتية.

- **طيور السنونو**: وصلت إلى الكويت بأعداد كبيرة في رحلة الشمال في ١٧ من فبراير ١٩٣٩، وحاول العديد منها أن يجد مكانا ليبيت فيه في شرفتنا، أما عند هجرتها إلى الجنوب فهي تظهر عادة في ١٠ من أغسطس.
- **الطيور الخضراء آكلة النحل**: وصلت في ٢٨ من فبراير ١٩٣٩، كما وصل العديد من أكلة النحل العاديّة في ١٢ من مارس ١٩٣٩.
- **الهدهد**: نشاهد هذه الطيور دائمًا في الكويت في ٧ من أغسطس، وقد رأيت إحداها تحوم حول مخيمنا في عريفجان، على الحدود الشمالية لدولة الكويت في ٤ من مارس ١٩٣٩، ومرة أخرى في ٢١ من مارس ١٩٤٠، وفي ٢٦ من فبراير ١٩٤٩. كما رأيت أكثر من مائتين منها تمرّ عبر الكويت ابتداء من فبراير وحتى آخر مايو، وكانت هذه حالة نادرة جدًا، لأن أسرابها تتكون عادة من عشرة طيور.
- **الذُعرة***: وصلت الذعرة الرمادية في حوالي ١٥ من فبراير ١٩٣١، وفي ٥ من مارس ١٩٣٩ و١٥ من أغسطس ١٩٤٠. ووصلت الذعرة الصفراء في

* الذُعَرَة: طائر صغير يكثر تحريك ذنبه، ويتلفت كأنه مذعور، يعيش قرب الماء. وتسمّى في الشام أم سَكَعْكَع، المنجد، ط١، سنة ٢٠٠٠، ص ٥٠٨، عامود ٣.

١٥ من أغسطس ١٩٤٠، وفي ٤ من أبريل ١٩٤١ جاءت إلى خيمتنا في الصحراء أعداد كبيرة من الذعرة زرقاء الرأس وسوداء الرأس، على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب من الكويت، كما وصلت بعض الأنواع من اللون الرمادي – والأصفر والأبيض.

سمان Quail، شوهد عند آبار الطويل جنوب دولة الكويت في ٥ من مارس ١٩٣٩.

الطائر أزرق الرقبة – شوهد أحدها في ٢٦ من مارس ١٩٣٣، ثم مرة أخرى في ٢٩ من مارس ١٩٤١م بالقرب من المدينة، كما شوهد في المخيم في الصحراء على بعد خمسين ميلا جنوب غرب الكويت في ٤ مارس ١٩٥٢.

اللوّاء: شوهد إحداها في ٢٤ من أبريل ١٩٣٩م، ثم مرة أخرى في ٤ من أبريل ١٩٥٢م. وهو طائر له خصائصه المميزة، وقد أمسك صبيٌ بدوي بواحد منها في مخيمنا، وكان قد جاء إلى المخيم ليحتمي في الظل وزحف ليقبع تحت سرج الدابّة، حيث أمسك به الصبي. وكان طوله حوالي ستة بوصات ونصف البوصة، وله منقار صغير حاد، ومنقط اللون، وعلى جسمه مساحات ملونة باللون الرمادي والبنّي والخمري. وعندما أمسكت به بين يديّ، لوى رقبته ومدّها وأغمض عينيه بطريقة غريبة جدًا، وكان له مخلبان في الأمام أحدهما طويل والآخر قصير، ومخلب قصير في الخلف، ولذلك أطبق على أصبعي بمخلبين من كل جانب. وقال الصبي إن هذا الطائر "شيطان" وأنه يتظاهر بالموت ويترك رأسه لتسقط على صدره ويغمض عينيه. وقد رأيت هذا المشهد بالفعل، ونظرًا لأن الصبيّ ربط جناحيه، فقد تركته ليحبو داخل الخيمة، وبعد أن درست ملامحه المميزة بكل دقة، فككت جناحيه فطار مبتعدًا، ولكن بعد أن ظل راقدا على راحة يدي لمدة ثلاثين ثانية ويبدو وكأنه لفظ أنفاسه تمامًا.

الطيطوى الشرقي الصغير: في ١٧ من مايو ١٩٤٣ عثرنا على أحدها بعد أن غلبه الإعياء والإرهاق. يبلغ طوله ست بوصات؛ وطول منقاره بوصة ونصف البوصة، أسود الساقين؛ والظهر رمادي أو أسود اللون، ضارب إلى الحمرة؛ أبيض الصدر، والرقبة بيضاء خالية من الريش؛ بنى الذيل، ابيض المؤخرة، وهناك مخلب خلف في القدم.

- **الهازجة (الطائر المغرّد)**: شوهد العديد منها في ٦ فبراير ١٩٤٠.
- **العَدّاء ابيض اللون**: أمسكت باثنين من صغاره، يتراوح عمرها بين ستة وخمسة أيام، في ١٧ من مارس ١٩٣٩. ويظهر العديد من هذه الطيور في الربيع أثناء هجرتها إلى الشمال.
- **الشقيراق**: شوهدت أربعة منها في مطار الكويت في ٢٦ من مارس ١٩٣٩، كما شوهدت ثلاثة في نفس المكان في أول أغسطس ١٩٤٠.
- **القليعي المطوّق**: وجدت أحدها ميتًا في حديقتنا في ٤ من مارس ١٩٤٢.
- **اليمامة البريّة الفارسية المنقطّة**: شوهدت في ١٧ من أبريل ١٩٣٩، كما شوهدت تمرّ في أعداد كبيرة في ٢٤ من أبريل من نفس العام؛ وكذلك في ٨ و ١٥ من أغسطس ١٩٤٠، رغم أنها لا تشاهد عادة حتى أول سبتمبر.
- **طيهوج الرمل**: يهاجر هذا النوع، وهو منقط في العادة ومدبب الذيل، إلى الشمال عبورًا فوق الكويت بأعداد ضخمة في الفترة من حوالي ١٠ إلى ٣٠ أبريل. وفي أوائل مايو ١٩٣٥، وبعد أن توقفت الهجرة المعتادة إلى الشمال، شوهد عدد كبير منها غرب سلسلة تلال الظهر، وكان من الواضح تمامًا أنها تخلفت لتبنى أوكارًا وتضع البيض؛ يؤكد ذلك البيض الذي جلبه لنا البدو الذين يتجولون في المنطقة طوال اليوم. وهو شبيه ببيض الحمام، ولكنه أكبر قليلا.

وعندما زار عَالِمْ الطيور الشهير الكولونيل ريتشارد منيرتز هاجين، الكويت في يناير ١٩٥١، تعرف على الطيور الآتية:

١٠ من يناير – أسراب من القُبرّة وثلاثة من طائر الأبعق بين حقول القمح والأحراش خارج المدينة.

١١ من يناير – أسراب صغيرة من القبرّة قصيرة المخالب بين حقول القمح. اصطاد ثلاث منها. لم تكن هناك أي قبارّات عادية، كما تمكن من صيد اثنين من القبارّات ذات الوجهين، ذكر وأنثى، في الصحراء المتاخمة للصبيحة؛ كما تمكن أيضًا من صيد طهروجين أبيض اللون.

١٢ من يناير – تمكن من صيد سبعة من طائر الباشق الإسباني في واحة ماله.

١٣ من يناير – تم صيد ذكر صغير من طائر العوسق وعزيزاء سمراء مصفرّة في الجهرة، وتعرف على امتداد الشاطئ على طيور الدريّجة، والكروان، وطائر واحد من آكل المحار، والمدروان، والقاق. وتمكن من صيد طائر سرطان وعلى ضخم.

١٥ من يناير – شوهد عدد كبير من صعو الصفصاف وطائر واحد من نوع الحميراء بين الأشجار حول قرية الفنطاس.

الفصل الثامن عشر
الكويت ١٩٤٢-١٩٤٣

تسوية قضية وفقًا لقانون البادية - العطش في جوف الصحراء - المطير يفدون من الصمان - عم "شرير" - مدينة تحت الرمال - أغنية غريبان - ابن تعذاب المرّي - معركة مع شويعر اليمن - كلب أسود في الهفوف - الذئاب تأكله حيًا - اللص البدوي- "اقتلوا الرجل الذي ذبح الكلب"

تسوية قضية وفقًا لقانون البادية:

نمى إلى مسامعي أن المشاعر متنافرة بين الأمير هيف بن حجرف، كبير آل سليمان من عجيم، وابن أخيه سعود بن شلاش Shlash، ولذلك اهتممت بالتعرف على آخر التفصيلات وخاصة أن كلا الرجلين كان من أصدقائي القدامى، وقد حكى لي القصص كلها سعود بن شلاش وسرور بن فرحان، وهو من أبرز شخصيات مطير، فكان يعمل في خدمة الشيخ أحمد شيخ الكويت.

قالا إنه حدث في أواسط يوليو ١٩٤٢ أن كان أحد رجال قبيلة عجيم، من آل سليمان، يشق طريقه في جوف الصحراء بالقرب من طريق الرياض على بعد مائة ميل من الكويت. وعندما رأى ناقتين ضالتين أمسك بهما وأخذهما إلى واحة الجهرة حيث كان قوم الأمير هيف وسعود بن شلاش يقيمان مخيمهما لقضاء فصل الصيف، وتبين أن الناقتين تخلفتا عن الركب أثناء سيرهما ضمن قافلة نجدية متجهة إلى الرياض، ولكن أحدًا لم يكن يعلم ذلك في ذلك الوقت. وأصيبت إحدى الناقتين إصابة شديدة بالجرب ولفظت أنفاسها.

وعاد النجَدي مالك هذه الناقة، إلى الكويت يحمل معه رسالة من الملك ابن سعود يطلب فيها تقديم كل مساعدة للرجل من أجل استرداد ناقتيه المفقودتين. وتعرفَ في الجهرة على الناقة التي ظلت على قيد الحياة وتقدم بالشكوى ضد رجل من الدواسر، قصير سعود بن شلاش (أي جاره في الخيمة) يتهمه فيها أمام الشيخ عبدالله المبارك الصبّاح، المشرف على الأمن في الكويت، بالسرقة، وعندما سمع العجمي الذي عثر على الناقتين وباعهما لرجل من الدواسر بكل هذه المشكلات التي ثارت حولهما وما تنذر به من خطر، تسلل هاربًا إلى الصحراء.

وبعد أن استمع عبدالله المبارك لكل التفاصيل، أمر بتغريم الدوسري ثلاثمائة روبية، مائة وخمسون ثمناً للناقة التِي نفقت ومائة وخمسون لعدم إبلاغه عن عثوره على الناقتين الضالتين. وعلق سعود بن شلاش على هذه الإجراءات فوصفها بأنها غير عادلة، وأنه لن يسمح بأي حال بتوقيع غرامة على قصيرة، وهو غريب في تلك النواحي. وبناء على ذلك حكم الشيخ عبدالله باسترداد مائة وخمسين روبية من سعود ومائة وخمسين من الأمير هيف ابن حجرف، أمير العجمان الكبير، وتقديم المبلغ كله للتاجر النجدي، بالإضافة إلى الناقة التي لا تزال على قيد الحياة.

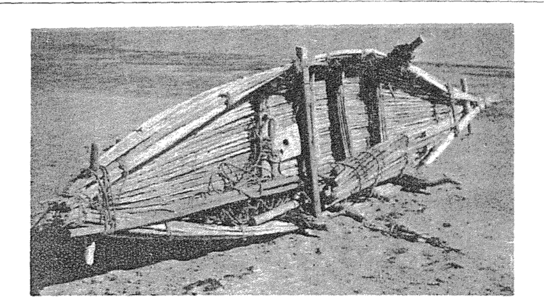
وأثناء نظر هذه القضية، كان الأمير هيف في الرياض في زيارة للملك، وعندما عاد، أحس بأن ثمة إهانة لحقت به وأن سعود هو السبب في فرض الغرامة عليه. وكان يعتقد أنِ الجاني الحقيقي هرب واختفي بناء على مشورة منِ سعود، ورغم موافقته على ألاّ يدفع الدوسري شيئًا، بصفته ضيفهم وجارهم، إلا أنه رأى أن يتحمل سعود الغرامة كلها.

ومن هنا شجر العداء بين الأمير وابن أخيه، وقبل أن ينصرف سِعود من زيارتي، أبلغته أن الأمر يرجع له ليطيبَ خاطر الرجل العجوز، وإلاّ فلن أدعوه لتناول القهوة معي بعد ذلك في منزلي. ووعدني أن يتصرف وفقا لما أشرت عليه به.

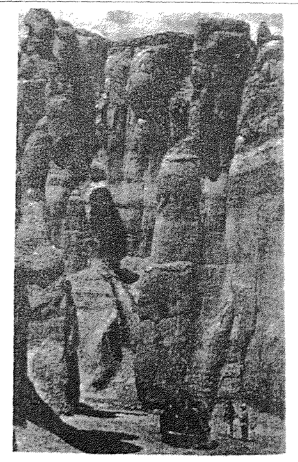
العطش في جوف الصحراء:

في كل عام، عندما تبلغ درجة الحرارة ذروتها في شهري يوليو وأغسطس، لتصل إلى ١٥٠ف، تشهد المناطق الداخلية من الكويت حالات للوفاة بسبب العطش، ومن الطبيعي أن نتساءل كيف يخطيء البدوي؛ وهو الخبير بالمسافاتِ بين الآبار والشقوق ويعرفها كما يعرف راحةَ يده، ويمكنه أن يحدد بكلّ دقّه عدد القِرب اللازمة له في أي رحلة؛ في حساباته فيستهلك كل ما يحمله من قبل أن يصل إلى وجهته.

والإجابة ليست هي الجهل أو الحمق، بقدر ما هي سوء الحظ، لأن البعير تصاب في الصيف بالهزال والضعف نتيجة لندرة العلف الجيد، رغم ما يبدو عليها ظاهريا من علامات الصحة، وتتعرض للانهيار المفاجئ أو تعجز عن السير بسرعتها المعتادة، ومن ثم يعجز عن الوصول إلى مصادر المياه التي سيعتمد



"الورجية" وهي سفينة صيد بدائية تُستخدم في جزيرة فيلكا



صخور جبل قارا في واحة الهفوف بالإحساء

خارج مدخل كهف إبراهيم



مزار الخضر في جزيرة فيلكا

عليها بعد حين، خلال العدد المألوف من الأيام، ويجب أن ندرك أن الوقت الذي يستغرقه البعير للوصول من منطقة للآبار إلى منطقة مماثلة أخرى في الأراضي الداخلية للكويت يتراوح بين ستة وسبعة أيام، وإذا بدأت حركة البعير في التباطؤ ولم يعد يستطيع الوصول إلى مهمته إلا خلال ثمانية أو تسعة أيام، فهنا تنشأ المشكلات بالنسبة للمسافر ولدابته معًا.

وكان عام ١٩٤٢ عامًا استثنائيا فيما يتعلق بارتفاع درجة الحرارة ولكن مما يبعث على السرور أن نسجّل أنه لم تحدث أي وفيات نتيجة للعطش في ذلك الصيف، ولكن كانت هناك بعض الحالات التي أفلت فيها أطرافها من الخطر بكل صعوبة، وقد روى لي الشيخ شايع Shaiyah الجبيلي ونحن بجوار بئر المياه رقم ١٣ الذي حفرته شركة نفط الكويت في المنطقة المعروفة لدى البدو المحليين باسم الحماطيات والتي تفصلها أربعة من مجارى المياه غربي منخفض الشق عن مدينة الكويت، ويقع على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الغربي منها. وكان شايع الجبيلي، وهو من صغار شيوخ الجبلان من مطير، يتولى مسئولية الإشراف على القطعان الثلاثة الكبيرة من الجمال التي يمتلكها فخامة الشيخ أحمد، وكان يقيم بالكويت.

في ١٤ أغسطس ١٩٤٢ غادر رجل من الدهامشة- من العمارات من عنزة - آبار اللصافة بالعربية السعودية متوجها إلى الكويت. وكان معه رجل من صلبه، اتخذ منه دليلا، بالإضافة إلى زوجته، وكانت وجهتهم هي بئر المياه رقم ١٣ على مسير ستة أيام من السفر بالصيف. وبينما هم لا يزالون على بعد اثنتى عشر ميلا من البئر، نفذت كمية الماء التي يحملونها معهم وبدأت علامات الإرهاق تتبدّى على مطاياهم، ورغم ذلك، واصلا السير طوال يوم وليلة بكاملهما دون أن يدركوا، وأصبحوا على بعد عشرة أميال فحسب من البئر. وهنا انهارت المطايا وكانت لم تتناول جرعة ماء واحدة طيلة ستة أيام. كانت الشمس قد غربت منذ قليل، والركب لم يشربوا قطرة ماء لمدة ثلاثين ساعة، فأخبر الرجل مرافقيه أن لن يستطيع مواصلة الرحلة سيرًا على قدميه، وأنه سيمكث وما يحملونه من أشياء بينما يحاولون هم الوصول إلى البئر.

وكانت آخر كلماته لهم عند انصرافهم: "إذا أمكنكم العودة لمساعدتي صباح الغد، فالأرجح أنكم ستجدونني على قيد الحياة، أما إذا لم تتمكنوا، إذن فالوداع".

ومضى الصّلبي وزوجته في طريقهما سيرًا على الأقدام وعندما انتصف الليل كانا قد وصلا بالفعل إلى نقطة تبعد حوالي الثلاثة أقدام عن البئر رقم ١٣ وخيام شايع الجبيلي من مطير. ونتيجة للظلام ضلا الطريق وانحرفا عن موقع المخيم لمسافة ميل، وفجأة قالت المرأة لزوجها إنها تعتقد أنها سمعت صوت كلب ينبح من ورائهم من الناحية اليُمنى، وكان الرجل في حالة من الإرهاق لم يتمكن معها من أن يسمع أو يتكلم أو يعبرّ عمّا يريد، ولذلك أمسكت زوجها من يده، واقتادته صوب مصدر النباح، وسارا معًا في خطوات مرهقة ومتعثرة، إلى أن دخلا عند الساعة الثالثة صباحًا نطاق خيام شايع، حيث خرّ الاثنان فاقدي الواعي.

ولم يعودا إلى رشدهما إلاّ في الساعة السادسة بعد صبّ الكثير من الماء البارد فوق رأسيهما، وتناولهما قدرا قليلا منه، وعندما استرد الصّلبي قدرته على الكلام أخبر شايع عن الرفيق الذي خلفاه وراءهما منذ اثنتى عشر ساعة، وتوسّل إليه أن يرسل مجموعة من راكبي الجمال لإنقاذه والعودة به، ولسوء الحظ كانت المطايا جميعًا في مرعاها في الباطن منذ يومين، فطلب الصّلبي الشهم قربة خفيفة ملأها بالماء وانطلق سيرًا على قدميه مع اثنين من أبناء قبيلته للحاق برفيقه قبل أن يدهمه الموت؛ وعثروا عليه في الساعة الثالثة بعد الظهر وكان لم يتناول جرعة ماء طوال حوالي الخمسين ساعة، وفي حالة احتضار، وإن كان لا يزال على قيد الحياة. وبعد أن أعطوه قدرا من الماء ثم بعض الطعام ساعدوه في العودة إلى المخيم سيرًا على قدميه بعد غروب الشمس. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة وصلوا جميعًا إلى البئر رقم ١٣ وسط جو صاخب من الفرحة والابتهاج.

وأخبرني شايع الجبيلي أنه لولا ضعف الجمال بعد المجهود الشاق والطويل الذي بذلته لتمكن من الوصول إلى مخيمه بسهولة عند الفجر ولما انحرف عنه لمسافة ميل. وكان عدم إعداد الجمال على النحو السليم، وليس الخطأ في التقدير من جانب الرجال، هو الذي أدّى إلى هذه المأساة.

وأما القصة الثانية فتدور حول اثنين من العوازم كانا في طريقهما من الباطن إلى الكويت مرورًا بجرية السفلى في نفس الشهر، أغسطس، وكان أحد الجملين اللذين امتطاهما الرجلان مستعارًا من أحد أبناء القبيلة من أترابهم، أي لم يكن مما يملكان، وبينما هما لا يزالان على مسيرة حوالي الثلاثين ساعة من

الوفرة، نفذت كل مياه الشرب التي يحملونها معهما. ونتيجة لشرود أحد الجملين أثناء الليل اضطرا لقضاء يوم وليلة بكاملهما بحثًا عنه إلى أن عثرا عليه، وحاولا الصمود ومواصلة الرحلة بدون ماء. وبعد أن بذلا جهدًا جسورًا على امتداد ثلث المسافة التي قطعاها، ونظرًا لإحساسهما ببوادر الدوار وفقدان الوعي التي بدأت أعراضها عليهما، قررا نحر أحد الجملين وشرب ما يحتويه جوفه من ماء، وهي كمية ضئيلة، يختزنها في جزء مما يسمى بالكرش. ولاشك أن هذا التصرف أنقذهما من هلاك محقق، وتمكن الاثنان بعد لأي من الوصول إلى آبار الوفرة قبل أن ينهارا أمام خيام بعض قبيلتهم، ويقال إنهما ظلا غائبين عن الوعي لما يزيد عن الأربع ساعات.

ولكن هذه الواقعة كان لها امتداد مؤسف شهدته بنفسي في الكويت بعد عشرة أيام، بينما كان الشيخ عبدالله المبارك يترأس مجلسه لإقامة العدل بين القبائل. وقف الرجلان اللذان أوردت قصتهما. في ساحة القضاء متهمَين بنحر جمل لا يملكانه، وأنه كان معارًا لهما فحسب. وطالب صاحب الجمل بإصدار قرار عادل بإعطائه جملاً بديلا، أو ثمنه، وتساءل في تعجُب! لماذا لم ينحر الرجلان اللذان نال منهما العطش الجمل الذي يملكانه؟ وحاولا، عبثًا، أن يوضحا أنه في ظل الوضع الذي وجدا أنفسهما فيه، كانا في حالة عجز عن التفكير، وأنهما احتفظا بالمطيّة الأقوى من بين الاثنتين فقط بدافع الرغبة في الحفاظ على النفس.

وقرر الشيخ عبدالله أن يدفع المتهم لصاحب الشكوى مائة وثلاثين روبية، بعد أن استشار أشخاصا كانوا يعرفون الجمل موضوع القضية.

ومثل هذه القضايا لا تعرف العواطف عند الحكم فيها، وإنما قاعدة العين بالعين والسن بالسنّ هي التي تأخذ مجراها. وكم شعرت بالأسى لما حاق بالمتهم.

وجرت أحداث القصة الثالثة في أغسطس ١٩٤٢، على بعدٍ غير كبير من البئر رقم ١٣، عندما كان اثنان من رجال قبيلة حرب في طريقهما إلى الكويت بالجمال، من حفر الباطن. وكانا يعتزمان التوجه إلى بئر الماء رقم ١٣، ولكنهما ضلا الطريق نتيجة لهبوب عاصفة عاتية، وعندما وصلا إلى نقطة تبعد عشرة أميال عن البئر، وقد نال منهما الإرهاق نحرا الجملين وشربا ما في جوف كل منهما من ماء، حفاظًا على حياتهما. ونظرًا لعجزهما عن مواصلة السير على

الأقدام، وعدم معرفتهما الاتجاه الذي عليهما اتباعه، أخذا يتجولان في حركة دائرية دون الاقتراب من وجهتهما، إلى أن عجزا عن الحركة تمامًا، وخرا على الأرض.

وبعد يوم، عثرت عليهما مجموعة من رجال شايع الجبيلي كانوا في طريق العودة بجمالهم من الباطن بعد أن ارتوت، وأتوا بهما إلى المخيم، بعد أن أيقن الجميع أنهما أصبحا في عداد الموتى، ولكنهما استردّا الوعي، رغم قضائهما أربعة أيام في أواسط أغسطس بدون ماء. وعلق الجبيلي بعد أن أنهى سرده لهذه القصة: "أن رحمة الله واسعة".

آل مطير يقبلون من الصمان:

قررت شركة نفط الكويت أن توقف كل عمليات الضخ طوال فترة الحرب. وفي أواخر ١٩٤٢ اكتملت إجراءات تنفيذ هذا القرار ولم يبق في الكويت إلا عدد ضئيل من موظفيها. وفي شهر أكتوبر من نفس العام، عُيِّنت مديرًا عامًا بالإنابة إلى جانب إشرافي على قاعدة الصيانة والإصلاحات.

وفي شهر مارس ١٩٤٣، قمت أنا وزوجتي بزيارة الشق، وكان هذا العام متميزاً واستثنائيًا فيما يتعلق بما شهده من أمطار بلغ منسوبها تسع بوصات منذ الخريف، وهو رقم قياسي بالنسبة للكويت. ونتيجة لوفرة المياه، كانت الصحراء في أزهى حالاتها فاغتنمنا الفرصة للقيام بالعديد من الزيارات لمعارفنا من البدو في المناطق الداخلية، بالإضافة إلى النازلين بمخيمنا، وأخذنا نتوغل بعيدًا عن مدينة الكويت لمسافات أبعد مما كنّا نفعل في المرات السابقة.

وبعد ليلة عاصفة، كان صباح الأربعاء ١٧ مارس مشرقًا رائعًا رغم تكاثف السحب، ثم بدأ هطول الأمطار في الساعة الحادية عشرة والنصف، يصاحبها هزيم الرعد ووميض البرق، مع سحب كثيفة ضخمة سوداء آتية من الغرب، وفي السَاعة الثانية والنصف، ورغم استمرار هطول الأمطار بغزارة، قررنا أن نرجع إلى مخيمنا حيث يبدو الجو أكثر إشراقًا في الغرب مما يبشّر بقضاء ليلة رائعة.

وكان من المتعذر المغادرة وسلوك الطريق الرئيسي إلى الرياض نظرًا لوجود سبخة واسعة بالقرب منها يستحيل المرور فيها بعد أن تراكمت فيها كميات ضخمه من مياه الأمطار، ولذلك، فما أن اجتزنا سور المدينة حتى سلكنا طريق

جليب الشيوخ، ولكننا لم نصل إلى القرية الصغيرة التي تحمل هذا الاسم، بل تركنا الأسوار إلى يميننا واتجهنا إلى طريق السيارات الذي يبدأ من المقوع والشدادية، ثم تحولنا صوب اليمين، وكانت الأمطار لا تزال تهطل بغزارة.

كان العشب في ذلك الموقع رائعًا، وقد تجاوز طوله القدم أو أكثر، ويشع لونه بالخضرة الزاهية، وكانت هناك دجاجة بريّة تستمتع بالأمطار، صفقت بجناحيها وهي تعبر الدرب وهرولت مبتعدة على يسارنا، وابتداء من هذه النقطة وحتى وصولنا إلى مفترق الدرب حيث يتجه طريق الرياض الرئيسي نحو اليسار بينما يستمر طريق الشق في مساره، كانت الرحلة ممتعة. وكان الدرب زاخرًا بالرمال، ولكن الأمطار أكسبته صلابة وتماسكًا.

واختلفت الصورة حول كبد وكبيده، فالمياه تجرى على الطريق وكأنها غدير يهدر في مجراه لتصبَ عن يميننا في منخفض من الأرض إلى جانبنا ليكوّن بركة جديدة. وكان الطريق مسدودًا تمامًا في جزءٍ منه نتيجة لتراكم الوحل، فواجهنا خطر الانحراف عن الطريق والغرق في لجة مساحة شاسعة من الطمي الأبيض اللزج على الجانبين.

وازداد هطول الأمطار الآن بغزارة أكثر من أي وقت مضى وكأنها كانت الدفعة الأخيرة منه وقبل أن نصل إلى التل الصغير شديد الانحدار كانت الشمس تشرق ساطعة. وهنا بدأت متاعبنا، كان التل على درجة من الانحدار بحيث لا يمكن للسيارة أن تصعد، وبعد عدة محاولات، توقفنا يائسين؛ وأجسامنا ملطخة بالطمي والوحل من الرأس إلى القدم، وكان الحل الوحيد هو أن نقوم بحركة التفاف من حول مجرى النهر الرملي لنلتقي بالطريق فيما بعد.

وبعد هذه المشكلة، جرت الأمور على ما يرام، وكان الدرب الذي سلكناه تتجمع عليه مياه الأمطار وتقطعه في أكثر من موقع، وكانت بعض الشعاب لا تزال تزخر بالمياه المتدفقة. والتقينا بسيارتين، أحدهما يركبها عدد من الفداوية، والأخرى يستقلها الشيخ فهد السالم الصباح، الأخ الأصغر للحاكم الحالي، وكان من أصدقائنا. وبعد تبادل التحيات المعتادة، واصلنا طريقنا. وعلمنا فيما بعد أنه لجأ إلى خيمتنا منذ الصباح ليحتمي من الأمطار، ولم يغادرها إلا قبل لقائنا مباشرة.

ووصلنا إلى الشق في حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر. كان المشهد رائعًا

بعد الأمطار. وكانت البرك الصغيرة التي تجمعت فيها المياه في كل مكان، وإلى جانب أغلبها قِرَبٌ وصفائح ملأهما البدو بالماء. وكانت أعشاب الصمعة الطويلة تتمايل مع النسيم وتغطي المنطقة كلها إلى مدى البصر، والجمال ترعى بعشرات الآلاف. ومنذ أسبوع واحد، لم يكن هناك كائن حي واحد في هذه المنطقة ولم تكن هناك أية معالم تراها العين سوى مخيمنا الصغير الذي ينتظرنا سالم المزين فيه الآن. كانت الجمال في كل مكان؛ في الشمال الغربي، وفي الغرب، وفي الجنوب الشرقي. وكانت بين هذا الحشد الهائل من المطايا نساء شيوخ مطير مقبلة تتهادى من الجنوب الشرقي في طريقها إلى الشق، وتبدو واضحة بحجمها الكبير وما تحمله من متاع. وكانت هذه هي الهجرة الكبرى لمطير التي تنطلق إلى الشمال الغربي قادمة من الصمان، بعد أن سمعوا عن توفر الكلأ الجيد والعديد من البرك في هذه المنطقة، وكانت هذه المجموعة هي حرس المقدمة، ثم يأتي من ورائهم مباشرة بندر الدويش وأتباعه، وكان بندر يرافق الحراس أحيانًا، وكان من التقاليد المرعيّة لدى مطير إلاّ يذكروا في مجالسهم أي شيء عن شيخهم الدويش أو عن تحركاته، ولذلك كان من الصعب دائما أن تعرف أين يكون.

ولم يكن من السهل أن نعثر على مخيمنا، ولكن كلابنا التي أخذت تركض وراء السيارة أكدت ما انتهينا إليه من أن الخيام الخمسة التي نراها على مدى البصر هي خيام سالم المزين وربعه. وقبل مغيب الشمس، وصلت أسرة كاملة من مطير وتوقفت إلى جوار خيمتنا مباشرة. وأنيخت الجمال وهي تزمجر، وأنزلت الأحمال من على ظهورها، بينما وقفت الضالة على بعد قليل على أحد الجانبين، بينما انطلقت الجمال لتلتهم الأعشاب الغضّة الوفيرة، والأسرة تستعد لقضاء الليل في حلقة صغيرة. لم يضربوا خياما، لعلمهم أنهم سيواصلون السير عند الفجر نحو الشمال الغربي، وعندما خيّم الظلام، ظهرت آلاف من الشعلات الصغيرة من نيران المخيم من حولنا، وكأنها عيون حيوانات تختفي بعيدًا ولا نراها، ولتعكس الضوء من سيارتنا طوال الليل.

بدأت الكلاب تنبح، وجاء رجل يمتطي جملاً إلى خيمة سالم، ثم ترجل وربط راحلته في عمود الخيمة، كان الرجل هو مطلق الأصقه الدويش، وهو شيخ شاب من الدوشان، جاء للزيارة، فدعوناه لدخول الخيمة وقدمت القهوة؛ وقال أن خيامه قريبة منّا، وإنهم وصلوا عند الظهر أثناء هطول الأمطار، وإنه رأى سيارتنا من خلال نظّارته ولذلك جاء بعد أن جناد الظلام لتحيتنا والتعبير عن احترامه،

وظل يثرثر لمدة ساعة ونصف الساعة ويسرد علينا كل أخبار مطير، وحقيقة أحوال بدر الذي كان لايزال جنوبي الشق ويتوقع وصوله في الغد. وانصرف بعد تناول قدح آخر من القهوة، ونادى علي غلام ليأتي له براحلته، وكانت جميلة حقا، كستنائية اللون ممتلئة الجسم كأحسن ما يمكن أن تكون عليه الناقة في الصحراء في الربيع. وأرخى مطلق مسدسه وراء ظهره ثم توجه إليها.

وسألت "هل يمكن أن تشرّفنا بتناول الغداء معنا غدًا"؟.

ولم يجب على سؤالي وإنما قال:

"هل أعجبتك ناقتي؟ سوف أعطيها لك، إنها حمدانية". كانت ناقة جميلة بلا شك، ولكن كان من المحال أن نقبل هديته، فقفز إلى سرجه وانطلق مسرعًا ليصل إلى خيمته في الظلام.

وفي تلك الليلة كنت أناقش ونحن جلوس حول نار المخيم مسألة كروية الأرض وكيف تكون إنجلترا في فصل الشتاء عندما تكون أستراليا في الصيف، وأثناء هذه المناقشة، وصل لزيارتنا زنيفر بن حويلة، وهو كهل من عجيم. وبعد أن تناول القهوة شارك في الحديث الذي انتقل من معضلة الكون إلى ألغاز وأحاجى من نوع آخر.

قال زنيفر أن أحد الشيوخ ترك سبعة عشر جملاً وأوصى بأن توزع بين أبنائه الثلاثة بعد موته، على أن يحصل الابن الأكبر على النصف، والثاني على الثلث، والثالث على التُسع. ثم أضاف شرطا غريبًا يقضى بعدم التخلي عن أي جمل، سواء بالبيع أو بالموت، حتى يسهل التقسيم.

وتوفي الرجل، ولم يعرف أحد كيف يمكن تقسيم الجمال السبعة عشر وفقا للنسبة التي حددها، ونشب شجار عنيف وبدا وكأن الدماء ستراق بين الأخوة الثلاثة وأنصار كل منهم؛ وهنا أقبل رجل غريب يمتطى جملاً، فترجل، وسأل عمّا يتصارع الأخوة حوله. وأحيط علمًا بالأمر.

وبعد أن فكر لبضع دقائق، سأل عما إذا من الممكن السماح له بتسوية المسألة، ووافق الأخوة الثلاثة، فأمر الوافد الغريب بحشد الجمال السبعة عشر جميعًا أمامه، ثم ضمّ إليها جمله، ليصل المجموع إلى ثمانية عشر؛ أعطى منها تسعة (النصف) للابن الأكبر، وستة (الثلث) للابن الثاني، واثنين (التسع) للابن الثالث. ثم أخرج جمله من بين الجمال الثمانية عشر، فامتطاه، وانصرف.

وقال زنيفر: "وعمّت الفرحةُ الجميع".

وعندما بزغت الشمس صباح اليوم التالي بدأت الجمال تبتعد عن الخيام التي أمضت ليلتها بالقرب منها، والرعاة يركبون مطاياهم ويحثّون الخطى أمامها ويدعونها لإتباعهم. وكانت بعض القطعان من ممتلكات الملك، وكان البعض منها الذي أخذ يرعى فيما بعد أمام خيمتنا في الصباح يحمل ميسمه، على الفخذ الأيسر، وكانت بعض الدواب في حالة جيدة، بينما عُزل عددٍ كبير منها وبدأ علاجه من الجرب بالجير والزرنيخ. وهذا المرض يتفشى عادةً بعد عام يقلّ فيه الكلأ. وكان القطيع الذي أهداه عبدالله بك الفالح باشا آل سعدون للملك منذ عدة أعوام يتجمّع بالقرب من خيمتنا أغلب ساعات اليوم.

وبعدِ الغداء، رأينا أِحد الرعاة وهو يجمع العظام البيضاء لجمل قضى نحبه ليشكل منها، بكل دقة وعناية، نوعا من الهيكل العظمى ويضع من فوقها باقة من الزهور البرّية، وعندما سألنا عن تفسير لما يفعل، قال: "لإخافة الجمال"، ولكننا لم نفهم ما يقصد إلاّ فيما بعد. فالجَمل يلتقط ويمضغ أي عظام يجدها ملقاة على الأرض، الأمر الذي يفقده الشهية فلا يقبل على التهام الأعشاب ولا يزداد وزنا؛ أما عندما تجمع العظام على النحو الذي رأيناه، فينتاب الدابة الخوف ولا تقترب منها.

ولم تتوقف الحركة طوال اليوم نظرًا لانتقال العديد من الشيوخ إلى الشق، ومجيئ مخيمات أخرى من الجنوب الشرقي لتحلّ محلها. وكان من العسير جدًا على الرعاة أن يمنعوا دوابهم من الاختلاط بقطعان جيرانهم، وكانت ذكور الجمال تقيد من ساقها الأمامية إلى ساقها الخلفية. فكان موسم التزاوج قد انقضى الآن وكانت بعض الجمال الصغيرة التي تتراوح أعمارها بين الشهرين والثلاثة أشهر تجرى مع أمهاتها.

وخرج الشيخ مطلق وصقره رابض على رسغة، مبكرًا ومعه كلب من كلاب الصيد وخادم. والتقينا به ونحن في طريقنا لزيارة شايع الجبيلي، ونظرًا لعدم ممارسته للصيد في ذلك الوقت، جاء معنا وتناول القهوة في خيمة شايع الذي وجد نفسه الآن، ولفرط بهجته، في قلب هجرة مطير الكبرى. وتم تبادل زيارات كثيرة بن السيدات من بطون مطير المختلفة، وتعدد على وجه الخصوص زوّار طفله، زوجة شايع، وهى امرأة بدوية رائعة من أسرة عريقة كانت بعيدة عن

صديقاتها لعدّة أشهر. وكان من الواضح أن كثيرات منهن يتعاملن معها بكل الإجلال والتبجيل، ولمسنا مدى جدوى الهدية المتواضعة من الشاي والسكر التي قدمناها لها في الترحيب بضيافتها. وقد وعدت بالحضور لتناول القهوة مع زوجتي، ولكنها لم تتمكن من إنجاز هذا الوعد.

واستغرق المهاجرون حوالي الأسبوع قبل أن يغادروا مخيمنا، ثم أخذوا يتحركون في بطء، ثم اتجهوا مرّة أخرى صوب الجنوب الشرقي عبر طريق يمتد إلى الغرب إلى مدى أبعد مارًا بإقليمي الدبدبة وقرعة، وكانت وجهتهم هي ديارهم في الصمان مرة أخرى.

ولم نلتق ببندر الدويش، شيخ مطير الشهير، إلى أن عدنا إلى الكويت عندما جيء به إلى مستشفي الإرسالية الأمريكية وهو يعانى من ركلة شديدة في معدته سددها إليه جمل أثناء علاجه له من الجرب. وكانت أمه سيدة من سبيع، تعرف باسم البيضة، لبياض لون بشرتها.

عـــمٌ شرّيـــر

قبل العودة إلى الكويت خرجنا أنا وزوجتي في جولة للصيد بالصقور ونحن نركب سيارتنا، وكانت متعة رياضية جيدّة تعرّفنا أثناءها على المنطقة الجنوبية من سلسلة تلال المسنّات التي تقع داخل أراضى العربية السعودية نفسها. كانت المنطقة مهجورة تمامًا، وكان آخر من رأيناهم من بدو، وهم الذين التقينا بهم في منخفض الشق، قد غادروا خيمتنا مع جماعة سالم المزين، على بعد ثلاثين ميلا.

ثم رأينا على البعد شخصين يدخلان ويخرجان بين أحراش الحمض، وكان وجود آدميين بمفردهما، يسيران على الأقدام في هذه المنطقة المنعزلة الموحشة، يعنى أن هناك مسافرين نفقت جمالهم، ولذلك اتجهنا نحوهما لتقديم كل ما نستطيع من مساعدة. وعندما اقتربنا، فوجئنا بأن هذين الشخصين هما امرأة طاعنة في السن وفتاة في حوالي الثامنة من عمرها كانت تقتاد العجوز من يدها. وكان الإرهاق باديًا عليهما. وعندما وصلنا إلى حيث كانتا قالت لنا العجوز إنها من قبيلة الجوارين، وهم من رعاة المنتفق، وأنها ضربت خيمتها على الجانب الشمالي من تلال المسنّات، ومنذ خمسة أيام، وجدت هذه الفتاة البدوية الصغيرة ضالة وتكاد تموت عطشا في الصحراء القاحلة، فأخذتها إلى خيمتها واعتنت بها إلى أن استعادت حيويتها، وكانت هي وابناها في طريقهم للهجرة في

اتجاه حفر الباطن، ولم يعرفوا ماذا يفعلون بهذه الطفلة، وعندما رأت سيارتنا تقبل من بعيد، ونظرًا لغيبة ابنيها، اتجهت نحونا ومعها الفتاة الصغيرة، يحدوها الأمل أن نأخذها منها لنبحث لها عن قومها.

ووافقنا على أن نفعل ذلك، واصطحبنا الفتاة الصغيرة عندما جناد الليل إلى خيمتنا في الشق، كانت حلوة لطيفة وتدعى ثريا. ولم تكن من النوع الذي يلجّمه الخجل عن الحديث بأي حال، وكانت ممتّنة كل الامتنان، وبشكل أكثر من المعتاد، لأننا سوف نصحبها إلى الكويت لنسلمّها لأمها. وفي تلك الليلة، حكت لنا قصتها.

كانت ابنة لامرأة تدعى جزعة Jazza، وهى أرملة من مطير تعيش في منطقة المخيمات في الشامية خارج مدينة الكويت، وكانت لها أخت أصغر تدعى وسمية وأخ طفل يدعى محمد. وكان لهم عم يدعى الشقيحي يرعى الأسرة ويقوم منها مقام الأب. ولكنه كان رجلا غليظ القلب. ونظرًا لأنه كان يعيش بمفرده في الصحراء مع أغنامه وبضعة جمال، كان يصرّ دائما على أن يأخذ ثريا من أمها لتطهو له طعامه وتعتني بالخيمة أثناء غيبته، ولم تجرؤ أمها أن تعارضه لأنه شقيق المرحوم زوجها، والمسئول عنهم بعد وفاته. وقبل ستة أيام، طلب عمّها منها أن تخرج لرعى الجمال في الأراضي التي يتوفر بها الحمض، فنامت تحت شجرة، لتجد عندما استيقظت أن الجمال رحلت بعيدًا، وحاولت طيلة يوم بأكمله أن تعثر عليها إلى أن انهارت وخرت على الأرض نتيجة للإعياء والعطش، وعثر عليها رعاة من الجواريين المهاجرين فأخذوها واعتنوا بها، واستمروا يرعونها لفترة، ولكنهم هم أنفسهم كانوا في منطقة لا ماء فيها ويريدون أن يتخففوا قدر طاقتهم ليحثوا الخطى، وبعد أن اعتنوا بأمرها لمدة خمسة أيام، سعوا الآن للخلاص منها.

وحاولنا بكل طاقتنا أن ندخل البهجة على الصغيرة ثريا أثناء إقامتها معنا في خيمتنا، وكانت من أجمل البدويات الصغيرات التي التقينا بهن طوال السنوات العديدة التي أمضيناها في الكويت. وتقبّلتنا على الفور كأب وأم لها، وكانت تهرع إلينا وتحيط رقبتينا بذراعيها لتقبلنا عندما نعود بعد جولة أو رحلة للصيد. وكانت تزحف لتلتصق بنا أثناء الليل لتنال ما تصبو إليه من دفء تحت معاطفنا المصنوعة من جلود الأغنام.

وتطلب الأمر بعض الوقت إلى أن عثرنا على أمها بعد عودتنا إلى الكويت. وأقامت الفتاة لمدة ثلاثة أيام مع إحدى صديقاتنا العديدات بالمدينة، وهي عمشة بنت إبراهيم المزين. وأثناء بحثنا عن أمها، قدّم لنا رجعان المطيري، مسؤول بوابة دروازة نايف، مساعدات جمة وتمكنّا بفضله من تحديد مكانها، وكم كانت فرحتها عندما عدنا إليها بثريا. ونشأت صداقة وطيدة بيننا وبينها، والتقينا بوسمية بنت محمد، ولمدة عام كامل، لم تنقطع عن زيارتنا بانتظام، ونظرًا لعدم وجود عائل لهم، ولأنه كثيرا ما كان يعزّ عليهم الحصول على الطعام والملابس، كنا نبذل كل ما في وسعنا لمساعدتهم.

وذات ليلة، اختفت الأم والأطفال الثلاثة فجأة وبطريقة غامضة، وقال الجيران إنهم رحلوا إلى الزبير في العراق خوفا من أن يجبرهم الشقيحي، العم الشرير، على الخروج إلى الصحراء؛ بينما قال آخرون أن الأم كان لها صديق يقيم بالقرب من الزبير يريد أن يتزوجها فطلب منها أن تذهب إليه سرًا ودون أن تترك أي أثر من ورائها.

شغفنًا كل الشغف بثريا وافتقدناها كثيرا، ولكن العائلات البدوية تسكن في وجدانها غريزة الحنين إلى الموطن الأصلي، ولذلك كنّا على يقين أننا سنلتقي بها مرة أخرى ذات يوم، ربما عندما يختفي العم الشرير من الساحة.

مدينة تحت الرمال:

سبق أن أشرت على هذه الصفحات إلى محمد بن سالم بن دراهم المرّي، الذي زار الكويت عام ١٩٤٣ وحكى لنا بعض القصص المشوّقة. وتدور إحدى هذه القصص حول عاد بن جناد، ملك عُبار أو أوبار الأسطوري، وقد رواها في ٢ أبريل من نفس العام، فور عودتنا من الشق.

قال محمد أن أهل المدن يعرفون هذا الملك الشاذ البشع الأسطوري باسم عاد، ولكن مُرّة تعرفه دائما باسم عاد بن جناد. وكان هذا الملك يعيش في عُبار في وسط الربع الخالي، وقد وجدت هذه المدينة العجيبة، التي تطلق عليها قبيلة آل رشيد وأهالي جنوب شبه الجزيرة العربية اسم أوبار، منذ عدة مئات من السنين في وسط القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية، ويقال أن جدران حصونها كانت مطلية بالذهب، وأن قصورها كانت مطلية بالفضة ومكسوة بقشرة من الياقوت، وكانت الحوريات، بنات الجنة يتهادين في جنات عاد، وكانت

أجسامهن شفافة كالبللور، ولكنهن لا يتناولن طعامًا أبدًا ولا يشربن إلاّ الماء واللبن، وعندما ينهلن من الغدران الجارية كان الماء يُرَى وهو ينساب من خلال رقابهن الشفافة، ولم يحدث أبدًا أن زاولت أجسامهن أي أعمال غير نظيفة، ولذلك كنّ طاهرات طوال الوقت. وكان هذا هو الجانب المبهج من المدينة، ولكن كان هناك الجحيم في جانب آخر، وبه أتون متّقد لا تخبو ناره أبدًا يلقى داخله بالأرواح التي يحكم عليها بالحرق لتعاني من العطش الدائم وتتعالى صرخاتها وهى تطلب الماء.

وذات يوم قرر الملك عاد، وهو الذي يملك كل ما يريد على سطح الأرض، أن يمتطى ظهر طائر ليقوم بزيارة لله في السماء، وليقتله، وأرسل دعوة لجميع النسور فاختار من بينها أكبرها وأقواها. وبعد أن دلى قطعة من اللحم النيئ على طرف عصاه وامتطى ظهر النسر، دفع بقطعة اللحم أمامه ليطير به. واستمرت رحلتهما طويلا، إلى أن التقوا بعد شهرين ببعض الملائكة الذين سألوا الملك عاد عن وجهته وعمّا يريد.

فقال: "إنني أبحث عن الله، أريد أن أقتله"، وأنقذت الملائكة نفسها لتقول: "الله ليس هناك، لقد هبط من السماء".

وانحنى الملك عاد إلى الأمام فتراقصت قطعة اللحم أمام النسر، فهبط هبوطًا فجائيًا وسريعًا أدى إلى سقوط الملك على ظهره.

كان الهبوط تدريجيًا، استغرق عشرين عامًا، وكان جسمه يتحلّل شيئًا فشيئًا أثناء الهبوط حتى لم يتبق منه إلاّ جمجمته الضخمة عندما وصل إلى نهاية رحلته الطويلة. وهنا أمر الله الرياح، وهو غاضب، أن تدفن مدينته العجيبة تحت الرمال.

وحدث أن ذئبًا هائمًا في الصحراء عثر على جمجمة عاد، ومن أجل أن يحتمي من لفح الشمس، دلف إلى تجويف العين اليسرى وكأنه يدخل كهفًا. كما عثر غزالٌ أيضًا على الجمجمة ودخل في تجويف العين اليمنى لينعم بالبرودة. ثم اقبل بدويٌ يمتطى جملاً، وعندما رأى تلك الكتلة البيضاء الضخمة التي تراءت له من بعيد، اقترب منها ليستكشف ماذا تكون، وعندما أصبح إلى جوارها، هرب الذئب، والتفّ من حولها متجها إلى الجانب الآخر، فانطلق منه الغزال هاربًا. وكانت الجمجمة من الضخامة بحيث لم ير الذئب والغزال أي منهما الآخر.

وتحسس البدوي، الذي يريد أن يعرف هذا الذي يجرى، الجمجمة بعصاه ليرى ما إذا كانت صخرًا أو عظامًا، فانطلق منها على الفور صوت يقول:

"لا تشك فيما ترى، ولا تسخر".

وفوجئ البدوي فهرع لا يلوي على شيء إلى أن وصل إلى حيث يقيم سليمان بن داوود فأخبره بما رأى، وكيف رأى في الصحراء الطرف الأعلى لجمجمة ضخمة، وكيف خرج ذئب من تجويف العين اليسرى، وغزال من تجويف العين اليمنى، ومدى ما كانت عليه الجمجمة من ضخامة حتى لم يكن في مقدرة الذئب والغزال أن يرى أحدهما الآخر.

وقال: "وتحسستها بعصاي، فانطلق منها صوت يقول: "لا تشك فيما ترى. ولا تسخر".

فسأله الملك سليمان ما إذا كان يستطيع أن يذهب به إلى حيث يرقد هذا الشيء.

وكان الردّ: "بالطبع أستطيع. ألست بدويًا من هذه المنطقة"؟.

ووعده الملك سليمان بأنه إذا تحدث صوت من داخل الجمجمة عندما يمسّها بعصاه، فسوف يمنحه هدية من الذهب تعادل وزنه، وأما إذا لم يصدر أي صوت، فسوف يقطع رأسه.

وانطلق الملك سليمان ومرافقوه في صحبة البدوي ليروا تلك الجمجمة الضخمة الملقى بها في صحراء لا يعرفها أحد. وعندما وصلوا إليها، ربت عليها الملك سليمان بعصاه، ولكن لم يصدر عنها أي صوت. وبعد محاولة أخرى أو محاولتين لم تسفرا عن شيء، أمر الملك خدمه بقطع رأس البدوي. وما أن تم تنفيذ أمر الملك حتى بدأت الجمجمة تتكلم موجهة حديثها إلى الرجل الذي دُقت عنقه:

"لا تشك فيما ترى. ألم أقل لك لا تشك فيما ترى؟ ولا تسخر مني".

والآن، وبعد أن تكلمت الجمجمة، انتاب الملك سليمان حزن شديد لقطعه رأس البدوي، ووقف يفكر فيما يجب عليه أن يفعل، وقرر على الفور دعوة جميع الطيور المحلقة في الجوّ للاجتماع به ليسألها عما إذا كانت قد سمعت عن ملك عجيب يدعى عاد بن جناد . ولبّت الطيور دعوته، ولكنها قالت جميعًا إنه

لم يحدث أبدًا أن سمعت عن عاد بن جناد. وهنا أقبل نسر يجر ساقيه وهو يبلغ من العمر أرذله حتى لم تعد هناك ريشة واحدة فوق جسده. وسأله الملك سليمان عمّا إذا كان قد سمع عن عاد بن جناد عاد الذي عاش في مدينة عجيبة مبنية من الفضة والذهب، وتدعى عُبار.

وقال الملك: "إذا استطعت أن تحدثني عنه فسوف أمسح بيدي جسمك العاري ليعود كل ريشك، ولتصبح كالطائر اليافع من جديد".

وأجاب النسر: "نعم أيها الملك، لقد سمعت عن عاد بن جناد، ويمكنني أن أُريك أين تقع مدينته العجيبة، مدينة الذهب والفضة والياقوت والفيروز".

وهنا مسح الملك براحته على الظهر العاري للنسر العجوز فعاد كل ريشه وأصبح مثل الطائر الشاب من جديد، واقتاد الملك ومرافقيه إلى حيث ترقد عُبار، المدينة العجيبة، تحت الرمال. ثم طار النسر ليحوُم من فوقهم وقال للملك سليمان أن عبار تقع تحت الرمال.

وهنا استدعى سليمان الشمال، وهى الرياح الشمالية الغربية، وطلب منها أن تهب وتثير عاصفة ترابية عاتية؛ ثم استدعى الكوس، وهى الرياح الجنوبية الشرقية؛ ثم الشرقي، وهى الرياح الشرقية، وطلب منها نفس الشيء. وأخيراً، وعندما سكنت الرياح، ظهرت مدينة عبار أمامهم، فدخلها سليمان، ورأى بعينيه المباني العجيبة المشيدّة من الذهب والفضة والياقوت والفيروز، والحدائق اليانعة الزاهرة التي عرفت باسم جنّات عاد، والنار المتقدّة التي لا يخبو أوارها أبدًا.

وأحس الملك سليمان بالخوف عندما رأى كل هذه الأشياء، واعتقد أنه لو بقى هناك فسوف يغضب الله عليه ويحلّ به العقاب؛ ولذلك خرج من المدينة، واستدعى الشمال والكوس والغربي والشرقي مرّة أخرى، فهبّت بكل قوتها لتختفي المدينة تحت الرمال من جديد. ومازالت ترقد حتى اليوم تحت رمال الربع الخالي.

وعاد الملك سليمان إلى موطنه، وقد جرت كل هذه الأحداث في عهد الملك سليمان بن داوود، وأثناء حياته.

هكذا جرت أحداث القصة التي رواها لي محمد بن سالم بن دراهم المرّى. وعندما انتهى من حكايته سألته ما إذا كان يعرف، هو أي شخص آخر من

قبيلته، موقع عُبار اليوم على وجه الدقة، فأجاب إنهم يمكنهم أن يقطعوا بوجودها في إطار منطقة تبلغ مساحتها عشرة أميال مربعة، ولكن أحدًا لم يكتشف بعد موقعها على وجه اليقين نظرًا لتعذّر الحفر لكثافة طبقات الرمال المتراكمة فوقها، وقال أن البدو يعثرون في تلك المنطقة أحيانًا على قطع من الفخار وأواني الشرب المهشّمة عندما تنزاح من فوقها الرمال المتحركة، والرمال حمراء اللون، وتتلألأ عندما تسقط عليها أشعة الشمس وكأنها مخلوطة بالذهب،أما الكثبان الرئيسية للرمال في الربع الخالي فبيضاء اللون، وتتحرك في اتجاه الشمال سبعة أذرع كل عام (الذراع = عشرة أقدام ونصف القدم).

وتذكرت أن فيلبى يذهب في كتابه "الربع الخالي" إلى أن عبار أو وربار كما كتبها عندما حدد موقعها على خريطته، دُمِّرت على الأرجح نتيجة لاصطدام شهاب بالأرض، وأن أم حديدة تقع في مكانها الآن. وسألت محمد عما إذا كانت لدى آل مرّة أي قصص متوارثة تقول أن عبار دُمرَت بواسطة نجم سقط من السماء.

فأجاب: "كلا، لقد طمرتها الرمال".

فسألت: "فكيف إذن تمكنَ آل مرة من تحديد موقعها على وجه التقريب؟"

فأجاب: بأن هناك العديد من الدروب والشعاب القديمة لا تزال قائمة في الصحراء وخاصة فوق الأجزاء الصخرية التي انزاحت عنها الرمال، وأنها تتلاقى جميعًا فوق المنطقة التي ترقد المدينة تحتها. ثم وصف موقعها، بشكل عام، مستخدما لهجة مطير المحلية فقال:

"بين موطن آل الرشيد ووادي الدواسر، وبين أم الحديدة والدقاقة".

وقال أن آل مرة، يعرفون المنطقة اليوم باسم مُحمل العيد، وتعنى "المليئة بالألعاب;" وأنها تعجّ بالبقر الوحشي والنعام والغزلان، وتتجول أعداد كبيرة من السقنقور بين رمالها.

وسألته: "وما هي المسافة التي تفصل بين أم الحديدة ومدينة عبار هذه؟" فقال: "خمسة أيام رحلة بالجمال في اتجاه سهيل". وهذا يعنى أنها تقع جنوب أم الحديدة مباشرة.

ثم أضاف محمد: "وهناك عقيدة مترسخة بيننا نحن آل مرة بأن الله

سينزل عقابه بالدنيا، فتكون نهايتها، إذا حاول أحد إعادة هذه المدينة إلى الحياة".

وسألت: "هل من المحتمل أن يكون المرشد المرّى الذي رافق مستر فيلبى قد أحس بالخوف عندما اقتربا من الموقع فأقنعه بأن أم الحديدة هي المكان الذي ترقد تحته عبار؟"

فأجاب محمد بن سالم الذي يجيد اللف والدوران:

"لا شك أن هذا هو ما حدث".

أغنية غريبان GHARAIHIBAN

في وقت من الأوقات، كان يعيش بالقرب من نجران (كما يقول محمد بن سالم) رجلٌ من آل مرة وزوجته وابناه. وكان الابن الأكبر مختل العقل، واعتاد أخوه الأصغر – وكان سويًا – أن يسخر منه.

وأصيب الرجل بمرض أودى بحياته تاركًا الأرملة والطفلين. وبعد فترة، تزوجت الأم وأنجبت ستة أبناء آخرين من زوجها الثاني. وكان أكبر الأبناء يسمى غريبان، وتحولت حياته إلى جحيم بسبب ملاحقة أخوته الأصغر ومشاغبتهم له. ولكنه تعوّد بمرور الوقت ألاّ يأبه بهم، ولم يكن يرُى قط إلاّ ومعه حصانه الخشبي الذي كان يمتطيه متظاهرًا بأنه شيخ يركب ناقته. وعندما شبّ عن الطوق، كان لا يكف عن تحذير أخوته مهددًا بأنه سيقتلهم جميعًا في يوم من الأيام. ولكن تهديداته لم تكن تزدهم إلاّ سخرية منه.

وذات يوم، توجّه غريبان إلى زوج أمه مطالبًا بالحصول على نصيبه من الماشية والأغنام وإن يؤذن له بالزواج. وسخر زوج الأم منه ولم يقدّم له شيئا، أمّا عندما رأى أن الشاب جادٌ في طلبه وأن عينيه تشعّان حقدًا وكراهية، أحس بالخوف. ولكن الوقت كان متأخرًا جدًا؛ فقد تناول غريبان خنجره وبطعنةٍ قصيرة خاطفة قتل الرجل المسنّ، ثم تحوّل إلى أخوته فقتلهم جميعًا الواحد تلو الآخر.

والآنِ، أصبحت كل ثروة الأسرة في حوزة غريبان، وبدأ يمتطي ناقة فائقة الجمال بدلاً من حصانه الخشبي، وبعد فترة، تزوّج من إحدى فتيات القبيلة كانت مشهورة بجمالها وشعرها الطويل الذي يصل إلى كاحليها.

وفي كل شتاء وربيع، كان يتجوّل في الصحراء ومعه زوجته، ويسوق معه أغنامه وماشيته. وذات يوم، خرج في رحلة إلى طويٍ Tuwai' في نجران لشراء بعض الاحتياجات. وأثناء غيبته جاءت جماعة من المغيرين تنتمي لقبيلة معادية فاستولت على أغنامه وماشيته، وأخذت خيمته وما بها من أثاث، وأواني الطهي، وكل ما يملك، بما في ذلك الملابس والحلي التي كانت زوجته ترتديها وتتزين بها، وتركوها عارية تتلوى في لفح الشمس.

وعندما عاد غريبان من المدينة اجتاحه أسى عميق بعد أن علم بما حدث، وكان أول ما فكر فيه هو زوجته العارية. وفي نفس الوقت خلبه بياض بشرتها وشعرها الطويل الجميل. ونادى عليها لتأتي إليه، ولكن الحياء لم يدعها تتحرك من مكانها، فتناول غطاء رأسه الحريري ودثّرها به، ثم وضعها وراءه على ظهر ناقته وانطلق مسرعًا إلى خيمة مجاورة لبعض الأصدقاء، فتركها وهرع ليلحق بالمعتدين ليسترد ممتلكاته.

وكانت ناقته غير مدربة على الجري السريع، ولكنها أثبتت أنها جديرة حقًا بما كان لها من شهرة. ولحق بالمجموعة المغيرة أثناء الليل، بينما كانت الأغنام والماشية السليبة ترعى، وقتل الشيخ الذي يتزعمهم ومعه سبعة عشر آخرين، بينما ولى الباقون الأدبار في جوف الصحراء. فرجع بدوابه السليبة إلى موطنه.

وبعد هذه المأثرة الشجاعة نودي بغريبان شيخًا لبطن قوية من بطون آل مطير. وما زالت القبيلة تذكر اسمه وتمتدح جسارته حتى اليوم، وتتغنى أثناء تجوالهما من بين رمال الربع الخالي، وبلهجتهم المحلية المحببة، بناقته الجميلة وما أبداه من إقدام في قتل المغيرين بيديه المجردتين بعد أن سرقوا أغنامه وماشيته وخيمته وكل ما يملك.

ابن تعذاب المرى:

تمكن محمد بن سالم من أن يؤكد لي صحة قصة رواها لي في نفس العام محمد بن عبداللطيف المانع، وهو من وجهاء القوم في قطر.

قال إنه منذ عديد من السنوات، كان يعيش في صحراء الجفورة شيخ شهير من شيوخ البهي، من آل مرة، يسمى تعذاب، ينتمي لأسرة ابن دالية.

وتزوج من امرأة شابة ولكنه لم يحز رضاها ولم ترق له. وبعد أن عاش معها حوالي العام دون أن تنجب له ولدا، قرر أن يطلقها وأن يتزوج فتاة أخرى. وهو لا يدرى أن جنينًا من صُلبه بدأ يتحرك في أحشاء زوجته.

وينص القانون السائد في شبه الجزيرة العربية الآن على أنه لا يجوز للمرأة، بعد الطلاق أن تتزوج إلا بعد انقضاء ثلاثة دورات شهرية، استنادًا للشريعة الإسلامية، وذلك لضمان ألا تكون حاملاً من زوجها السابق، ولكن هذه القبيلة البدائية لم تكن تلتزم في ذلك الوقت بنصوص القرآن، وبعد خمسة عشر يومًا فحسب من هجران تعذاب لزوجته، تزوجت من رجل آخر يدعى جابر، من آل جابر بن مرة، وبعد فترة وضعت وليدها فاستقبل بالحفاوة والابتهاج.

وبعد خمسة أعوام أو ستة، انتشرت شائعات بين قبيلة آل البهية تقول أن تعذاب له بن يعيش في كنف آل جابر. ولما كان آل مرّة قد اشتهروا بقدرتهم على التعرف على أي شخص "إنسانًا كان أو حيوانًا"، إذا فحصوا آثار أقدام الأب، فقد شهد عدد كبير من رجالهم آثار أقدام الغلام بعد مشاهدتهم لآثار أقدام الأب وقالوا إنها تطابق آثار أقدام تعذاب تمامًا.

وعندما بلغت هذه القصة مسامع تعذاب، قام بالمزيد من التقصي إلى أن اقتنع بالفعل بصحتها، وطالب بعودة ابنه إليه. ولم يوافق آل جابر على دعواه في بادئ الأمر، وبدأت مرحلة طويلة من الشجار والقتال وتبادل الغارات بين فريقيّ القبيلة، وفي خاتمة المطاف، وكان الغلام الذي سُمى هادى قد شب عن الطوق وأصبح شابًا يافعًا، نشبت معركة تمكنت فيها قوات بن دعيله Daila من دحر آل جابر، فأدى ذلك إلى تسوية المسألة نهائيًا، لأن هادى أدرك الآن دون أدنى ريب بن منْ يكون، ووافق على البقاء مع والده الحقيقي تعذاب.

وسرعان ما اشتهر هادى بن تعذاب المرى بالجود والكرم، وكم من قصص تُحكى عن إشعاله النيران في الليل في البادية والإبقاء عليها متقدة لتهدى المسافرين ليفدوا إلى خيمته حيث يستقبلون بالترحاب ويقدم الطعام الذي يكون دائمًا في انتظارهم. وعندما توفي والده أصبح شيخًا لقومه، ثم خلفه راشد بن دايله المرى ومحمد بن يعزالله المرى فتوليا المشيخة مناصفة بينهما.

معركة مع شويعر اليمن:

كان محمد بن عبداللطيف المانع أيضًا هو الذي روى لي هذه القصة الأسطورية عن على بن مرة، جد آل مطير الأكبر.

كان على بن مرة يعيش في نجران جنوب غرب شبه الجزيرة العربية، ولم يكن قومه على وفاق مع أهل اليمن، وبعد العديد من المناوشات والمصادمات الصغيرة، قرر على أن يخوض ضدهم معركة حاسمة. وتوجه على رأس قومه لمنازلة شويعر اليمن الشهير الذي يقال إنه من قبيلة قحطان. وخاض المعركة ضده طوال يوم كامل، وسقط العديد من القتلى من الجانبين. وتجدد القتال بين الطرفين سبع مرات إلى أن لم يعد على قيد الحياة سوى قائدي الفريقين، على وشويعر، فكفا عن القتال، وعاد كل منهما إلى أسرته.

ولكن وقف القتال لم يستمر طويلاً، لأن على عاد مرة أخرى ليجدد الصدام، مصطحبًا ابنه معه، وكان شويعر قد فعل نفس الشيء، ومرة أخرى واجه كلٌ منهما الآخر في المعارك، ونازل ابن على شويعر بينما تصدى ابن شويعر لعلى. وانهزم ابن شويعر ولقي مصرعه بطعنة نجلاء من خنجر سدده إلى صدره المحارب القديم الذي ترامت إلى مسامعه صيحات ابنه وهو يدعوه لنجدته، فهرع إليه وهو يقول: "يا لبوبك، يا صبى، بي عمّك. إلا بادلت ضاحكت بالكلامي".

كان يتكلم بلهجة آل مرة، ويمكن ترجمة قوله على وجه التقريب كما يلي: "يا حبيبي، يا بنى، سوف أساعدك لقد بكيت (عند الولادة) قبل أن تضحك".

وعندما سدد ضربته لشويعر وأرداه قتيلاً، قال لابنه مرة أخرى، وبصوت جهوري:

والله قمت مثل العير. أصلى حي على الفلاح"، وعندئذ ارتجت الأرض وانشقت تحت أقدامهم لتبتلع شويعر، واستولى على عليّ وابنه رعب شديد فصرخا معًا: "بالله، لقد قلت لجاري ألا يسخر، بالله، ورغم ذلك فقد نجت جماله وكذلك جمالي".

وعادت الأرض كما كانت، ورأى الله أن على بن مرة رجل صالح، فوعده بأن بذرته سوف تتكاثر مثل حبات الرمال في الصحراء الكبرى.

كلبٌ أسود في الهفوف:

وهذه قصة عجمانية حكاها لي في ١٣ من أبريل ١٩٤٣ أحد زعماء هذه القبيلة من الشباب، هو سعد بن منيف الحبيش.

في سالف الزمان، كان أحد أسلاف يام Yam ويدعى عجيم بن على مسافرًا على ذلوله -من نجران، حيث يعيش، إلى الهفوف، وبعد أن استمر في رحلته لمدة تقارب خمسة وعشرين يومًا، كان يمر عبر موقع موحش مهجور بين الرمال، فالتقى بشخص تصور أنه رجل ضل الطريق، ولكنه كان من الجن، وناداه هذا الغريب وسأله إلى أي جهة، وأجاب عجيم: إلى الهفوف في الإحساء، في تجارة، وقال الغريب: وأنا أيضًا لي تجارة ذات شأن في الهفوف، ولا أعرف كيف سأستطيع الوصول إليها سيرًا على قدماي، لأنها بعيدة.

وقال عجيم: أرحب بأن تركب معي، ثم وضعه من ورائه على ظهر ذلوله.

وواصلا السير عدة أيام إلى أن بدت على الذلول تحت ثقل حملها المزدوج، علامات الإعياء الشديد وارتمت على الأرض في خاتمة المطاف بعد أن نال منها الإرهاق، وأصبح عجيم الآن بمثابة الرفيق أو الأخوي (الرفيق المسئول عن أحوال المسافر)، لذلك الغريب، ولذلك ما كان يستطيع أن يتركه في الصحراء، فاقترح أن يبقى مع ما يحمله من متاع وأن يواصل الرجل الآخر المسير بمفرده.

وألح قائلاً: خذ ذلولي، وقم بتجارتك في الإحساء، وعُد إلى بأسرع ما تستطيع.

ورفض الغريب الأخذ بهذا الاقتراح، إدراكًا منه لمدى الذي يحدق بمن يذرع الصحراء وحيدًا، وخاصة خطر الذئاب التي لن تتردد أن تقتله وتتخذه طعامًا.

ثم قال: وإذا توليت أمر تجارتي بدلاً منى، فليس هناك ما يدعو لأن اذهب بنفسي، ويمكنني أن أعود إلى حيث أتيت.

ووافق عجيم على أن ينفذ كل ما طلبه الغريب، وأقسم على ذلك، بالله ووجهه.

وقال الغريب: عندما تصل إلى الإحساء، اذهب بعد الظهر قبل مغيب الشمس إلى البوابة الشرقية للمدينة، وسوف ترى هناك كلبًا أسود ضخم يرقد في الظل، إنه كلب أسود تمامًا دون شعرة واحدة بيضاء، اذهب إليه واركله بقدمك ثم ربَتْ على عنقه، وعندما يهدر متذمرًا قل له: هل أنت سيد نوري؟ وسوف يرد عليك قائلاً: نعم، أنا هو، وعندئذ عليك أن تقول له: محمد نوري موصيني عليك، يقول الشوق انذبح في نجران، وأنا مضطهد وأنت لا تخلينا. ويجب أن تحرص حتى لا يكون بالقرب منك من يسمع هذا الحديث، والآن هيا، افعل ما أمرتك به.

وامتطى عجيم ذلوله، وكانت قد استردت حيويتها ونشاطها، وترك الغريب ووصل إلى الهفوف بعد فترة، وتوجه بعد الظهر إلى البوابة الشرقية للمنطقة وفقًا لما طلب منه، فتأكد من وجود كلب أسود ضخم يرقد في ظل برج البوابة، ولكن كان هناك عديد من السابلة يذرعون المكان وتوجه مرة أخرى بعد ظهر اليوم التالي، وكان الكلب مازال راقدًا في نفس المكان، ولكن أيضًا كان المكان يصطخب بحركة الرائحين والغادين، وفي اليوم الثالث، توجه إلى هناك متأخرًا ساعة عن الموعد المحدد، فلم يجد أحدًا هناك، وكان الكلب الأسود يغط في النوم، كما كان يفعل من قبل، وتوجه عجيم إلى الكلب وركله ثم ربت على عنقه، فأخذ يهدر متذمرًا.

فسأله: هل أنت سيد نوري؟

وعلى الفور تحول الكلب إلى رجل وأجاب: نعم أنا هو.

وعندئذ، أعاد عجيم تلاوة الرسالة التي أمره الغريب بإبلاغها، فأجاب الرجل:

لا أستطيع أن أفعل شيئًا لمساعدته، إلى أن يزيل عني هذه اللعنة التي تحولني إلى كلب أسود بعد ظهر كل يوم، ولن تزول هذه اللعنة إلا إذا تزوجت من الابنة الجميلة للمدعو عيسى القصيبي، أن الشياطين تتلبسني الآن، ويقوم على حراسة هذه الفتاة ديك أصفر ضخم لا يسمح للأرواح الشريرة أن تقترب منها، ويجب أن تقيم علاقات طيبة ووثيقة بأسرتها، ثم تذبح الديك، وبذلك أستطيع أن انهب وأتزوج الفتاة، وعندئذ فقط سأسترد حريتي.

وما أن انتهى من قوله هذا حتى استحال كلبًا أسودًا من جديد، وراح يجرجر ساقيه مبتعدًا.

وأحس عجيم بارتباك شديد، وانطلق يبحث عن منزل عيسى القصيبي، وأرشده البعض لموقعه، فتوجه إليه وتعرّف على عيسى الذي دعاه لتحديد موعد يأتي فيه لتناول القهوة معه، ووعد عجيم بأن يحضر بعد ظهر نفس اليوم قبل مغيب الشمس.

وعندما جاء إلى المنزل، أدخلوه الديوانية، حيث مُدت السجاجيد وكانت القهوة مجهزة لتقديمها للضيف.

ونادى المضيف قائلا: "هات قدوع Gidua (أي أحضروا الحلوى وعادة يكون من التمر) فدخلت الغرفة فتاة جميلة تحمل صينية عليها تمر وإناء به ماء.

كانت هذه هي ابنة عيسى القصيبى. وتشاغلت الفتاة ببعض الأمور داخل الغرفة لبعض الوقت قبل أن تنصرف حاملة الصينية معها، وبعد أن تناول عجيم قهوته جلس لفترة وجيزة، فلاحظ وجود ديك أصفر يذرع المكان خارج باب الغرفة. وعندما حان وقت انصرافه، وضع في يد مضيفه ثلاث قطع من الذهب.

وسأله عيسى: "متى ستأتي مرّة أخرى وتشرفنا بزيارتك؟ بيتك بيتي، وسوف نسعد برؤياك في أي وقت".

وهكذا توجه عجيم إلى المنزل في اليوم التالي وتناول القهوة. وقدمّ التمر كما جرى في المرة السابقة، وكانت الفتاة الجميلة هي التي تحمله أيضًا؛ ولكن الديك الأصفر الضخم جاء يتبختر هذه المرة واقتحم الغرفة، وعند انصرافه، وضع عجيم ثلاثة قطع من الذهب في يد عيسى الذي قال:

"نريدك أن تأتى لتناول الغداء معنا المرة القادمة، وليس لمجرد شرب القهوة. متى ستأتي؟".

ووعد عجيم بأن يأتي عند مغيب الشمس في اليوم التالي لتناول العشاء معه. وأنجز عجيم وعده، وعند الانصراف، وكما حدث في المرّة السابقة، وضع عجيم ثلاثة قطع من الذهب في يد عيسى الذي قال:

"تصرّف وكأن هذا البيت بيتك، واحضر لزيارتنا في أي وقت تشاء:

وزاره عجيم عدة مرات ليتناول معه القهوة، دون أن ينس أن يضع الثلاث قطع من الذهب في يد مضيفه عند الانصراف. وذات صباح، توجّه إلى المنزل الذي بدا وكأن ليس به أحد، وجلس منتظرًا في الديوانية، فدخل الديك الأصفر الضخم، فسنحت الفرصة المواتية لذبحه، فاندفع نحوه عجيم وانقض عليه بعصاه وأخذ يضربه حتى الموت.

وما أن أزال آثار الدم من على الأرض، حتى دخل عيسى البيت فرأى الديك يرقد على الأرض وقد هلك. وأوضح عجيم كيف اضطر لمهاجمته دفاعًا عن نفسه، فسقط الديك قتيلا أثناء ذلك. ورفع الديك من مكانه وألقى به بعيدًا، وعندما انصرف عجيم، خُيّل إليه أنه يسمع صوت فتاة تبكى وتصرخ في غرفة بعيدة.

والآن وقد قُتل الديك، زالت اللعنة. وفى تلك الليلة تحوّل الكلب الأسود إلى رجل، ودخل بيت عيسى خِلسةً، وتوجّه إلى غرفة الفتاة الجميلة وأجبرها على مضاجعته - وتكرر ذلك في الليلة الثانية ثم الثالثة، وخرجت الروح الشريرة من الرجل لتتلبس الفتاة، ولتصبح أسيرة في قبضة الشياطين.

وانزعج أبوها، الذي لم يعرف شيئا مما حدث، أشد الانزعاج، وعرض أن يقدّم خمسمائة قطعة من الذهب لمن يتمكن من شفائها. وهنا أخبر سيد نوري عجيم بأنه لابد عليه أن يتظاهر بأنه طبيب، وأن يذهب ليقرأ عليها، ويعطيها دواءً ناوله إياه، وبذلك يحصل على الخمسمائة قطعة من الذهب. وهكذا توجّه عجيم إلى المنزل مرة أخرى وأخبر عيسى أنه يستطيع شفاء ابنته وأنه أحضر معه بعض الدواء. وبعد أن قرأ عليها، أعطاها جرعة لتشربها، وعلى الفور هدأت وراحت في سبات عميق. وفى صباح اليوم التالي، كانت قد شفيت تمامًا ويبدو وكأن شيئا لم يلمّ بها. وحصل عجيم على الخمسمائة قطعة. وبعد أن شكره سيد نوري لكل ما فعله من أجله، قرر أن يعود إلى نجران.

ولما كان سيد نوري جنيًا، كان في استطاعته أن يشق طريقه أكثر سرعة، فذهب إلى نجران، وقتل الرجل الذي سبق أن قتل أخاه، ولحق بأخيه الآخر، محمد نوري، في الصحراء، قبل أن يصل عجيم، ووجدهما عجيم في انتظاره، وكانا قد أعدّا مأدبة ضخمة لتكريمه وقالا له إنهما ردا على ما أسداه لهما من معروف وما أبداه من تعاطف فسوف يزوجانه من أختهما، وأن الشرط الوحيد

لهما هو ألاّ يخاطبها أبدًا بخشونة، وألاّ يغضب منها. ووعد عجيم بذلك، وتزوجَ من الجنية بعد حين، وكان اسمها يعمية Ya´miyah.

وأخذها معه إلى نجران، وعاشا في سعادة غامرة. وبعد حوالي عام، رزقا بولد، ولكن حدثِ أن دخل الخيمة كلب أسود ضخم دون أن يلحظه أحد، فأمسك بالغلام وولى هاربًا به. وتقطع قلب عجيم حزنًا، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، ولم يغضب من زوجته.

وبعد عام، تكرر نفس الشيء، فرزقا بولد، ومرة أخرى جاء الكلب الأسود الضخم فأمسك به وحمله ليختفي معه. ومرة أخرى اجتر عجيم أحزانه في صمت ولم يقل شيئًا لزوجته. وأما عندما فَقَد ابنه الثالثِ بنفس الطريقة، حزن عليه، واستشاط غضبًا من زوجته ولعنها واتهمها بالتواكل والإهمال. وعلى الفور اختفت الزوجة وعادت إلى شقيقيها فأخذاها وهبطا بها تحت الأرض مرة أخرى لتنضم إلى قومها من الجنّ.

كما أُخذا عجيم أيضًا ليعيش مع الجن تحت الأرض، ولكنه لم يكن يعلم أن أبناءه الثلاثة يعيشون الآن في كنف جدّة زوجته ورعايتها. وبعد أن أمضى عدة سنوات مع الجنّ تحت الأرض، أعطاه شقيقا زوجته ذلولاً وناقة وطلبا منه أن يصعد إلى الصحراء ويرجع إلى قومه.

وقالا له: "بعد أن تمضي في طريقك لمدة ساعة واحدة تقريبًا، سيلحق بك أبناؤك الثلاثة، وسوف تسمع من ورائك صوت جيادٍ تركض، ولكن إياك أن تتلفت حواليك. وسوف يطيب لك كل ما تراه من أمامك، أمّا أي شيء تراه من ورائك فلن يحمل إلا شرًا".

وانطلق مرة أخرى إلى الصحراء، ليبدأ رحلته، وبعد أن واصل المسير لمدة ساعة، سمع صوت جياد تركض من ورائه، وبعد بضع ثواني، تجاوزه فتى رائع يمتطي ناقة جميلة واستدار ليصبح في مواجهته، ثم ترجل.

وقال، وهو يقبّله: "أبي. أنا أكبر أبنائك".

ثم مرّ فارس آخر، وبعد أن قام بعدّة دورات وتعرجاَت مدهشة، ترجَل أمام عجيم وقال وهو يقبّله: "أبي. أنا ثاني أبنائك".

وبدأ صوتِ دبيب جواد لفارس آخر تطرق الآذان من بعيد، وطغى على عجيم شوقه وتلهفه للقاء أصغر أبنائه فنسى ما قاله الجن، وأخذ يتلفت حواليه.

وما أن فعل ذلك، حتى رأى الأرض تنشق ويصدر عنها دوّى يصم الآذان، فتملكه الرعب. وابتلعت الأرض الفارس والجواد معًا ولم يرى لهما من أثر.

كان ابنه الأكبر يدعى مرزوق بن عجيم، ويدعى الثاني مرّة بن عجيم. وقال سعيد بن منيف أن هذين الشابين هما أكابر قبيلتي عجيم وآل مرّة، وأن أبوهما عجيم عاد معهما إلى نجران حيث عاشوا معًا.

الذئاب تأكله حيًا:

لم يجرؤ الجنيّ المسمى محمد نوري على الذهاب بمفرده إلى الإحساء لخوفه من الذئاب؛ ويعود ذلك بذاكرتنا إلى واقعة حقيقية رواها لي شقيق صيته، وهي سيدة عجمانية من صديقاتنا.

جرت هذه الوقائع في عام ١٩٤٨ في المنطقة الواقعة شمال الإحساء، والتي تكثر بها الذئاب نتيجة لوفرة المياه، والتي ينمو فيها صغار النخيل المعروف بالخويسات لا يقترب منها أحد ولذلك تأوي إليها الذئاب مطمئنة أثناء النهار. وتوقفت جماعة من عجيم وهي في طريقها إلى الشمال لقضاء الليل بالقرب من أحد الآبار حتى ترتوي منه الجمال. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، عندما بدأ السير من جديد، تأخر رجل وأسرته في الخروج حتى بلغت المسافة التي تفصله عن بقية الركب خمسة أميال أو زهاء ذلك. ولم يكن في نيّة هذا الرجل أن يصحب زوجته إلى مدى أبعد صوب الشمال. أما الآن فقد واصل سيره معهم إلى أن لحقوا بالجماعة الرئيسية بالقرب من بئر أخرى؛ ثم عاد الرجل بمفرده.

وبعد يومين، عثر عليه بعض العجمان، ومن بينهم شقيق صيته، الذي كان في طريقه أيضًا إلى الشمال، كان لحم ذراعيه وساقيه قد أكلها أحد الذئاب حتى لم يعد لها من أثر، ولم يتبق إلاّ العظام؛ وأما وجهه وعنقه وصدره وبطنه فلم تُمسّ، وكان مازال يعي بما يدور من حوله ويستطيع أن يتكلم، وتوسّل إلى الرجال أن يأخذوه معهم وألاّ يتركوه للذئب ليكمل الإجهاز عليه، فقالوا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا من أجله. ولكنه ظل يتوسل ويتوسل إلى أن تقدم أحدهم فخلع بشته ولفه فيه، وأتى به إلى خيمتهم. وقالت صيته أن المشهد كان مجللاً بالحزن والأسى العميق، وإنه كان لا يزال على وعيه ويمكنه التعرف على من حوله. ووضعوا رماد هشيم محترق فوق ساقيه وذراعيه، ولكنه قضى نحبه خلال يومين، فدفنوه.

اللص البدوي:

روى لي هذه القصة التي تبين ما يتسم به البدوي من شجاعة، وما عليه من نشأ في المدينة من ليونة، سعد بن منيف الحبيشي، وهو من عجيم كما سبق وأن ذكرنا.

كان هناك في قديمِ الزمانِ رجل ذاعت شهرته بين بدو شبه الجزيرة العربية، ورغم أنه كان لصًا، إلا أنه كان أيضًا على درجة خارقة من الذكاء بحيث لم يتمكن أحد من القبض عليه وكان يفلت دائما من العقاب الذي يحيق باللصوص، وتهامس الناس بأنه يستطيع أن يفتح أي قفل وأن يدخل أي بيت تحت جنح الظلام دون أن يلحظه أحد.

وحدث ذات ليلة أن تسلل إلى منزل تاجر غنيّ في مدينة شهيرة، وصعد إلى السطح، ثم دلف إلى غرفة في الطابق العلوي وأخذ يجيل النظر فيما حوله، فرأى صندوقًا فاخرًا ضخمًا تخيلّ أنه يحوى الكثير من النفائس بكل تأكيد. وحرصًا منه على ألا يضيع وقتًا، حمل الصندوق على ظهره وانطلق ليهبط من سطح المنزل، وسار عبر ممر ضيق أفضى به إلى الخارج، في الصحراء.

وعندما ابتعد عن المدينة لعدة أميال توقف، وفتح الصندوق بكل حرص وحذر، فقفزتِ من داخله فتاة جميلة. وبهت محمد الحرامي، وهذا هو اسمه، فلم يستطع إلاّ أن يقف في مكانه بلا حراك يمعن النظر لبضع دقائق، وقد اطار جمال الفتاة صوابه.

وعندما أفاق من دهشته، خطا نحوها وهو ينوى أن يضمهّا بين ذراعيه، ولكن ظهرت من ورائها ساحرة (روح) على شكل أسد غاضب، وهاجمه على الفور، ولكن محمد تمكن من أن يسدد له طعنة هائلة من خنجره، فخرّ قتيلا.

وأصرّ على أن تكون هذه الفتاة الجميلة له، فدنا منها من جديد، وليحدث نفس الشيء مرة أخرى، فسدد خنجره للأسد فقتله. ورغم ذلك أقبلت الساحرة على شكل أسد للمرة الثالثة لتحمى الفتاة، وللمرة الثالثة أيضًا لقي الأسد حتفه.

وهنا حدثته الفتاةٍ وقالت إنها بنت بيت (ابنة عائلة شريفة) وإنه إذا وعدها بوجهه (بشرفه) ألاّ يلحق بها أذى فسوف تروى له قصتها. ودون تردد، وعَدَها، فجلست إلى جانبه، قالت الفتاة: "أنا ابنة الملك، وقد خطبني ابن عمى

الذي لا أحبه ولا أرغب في الزواج منه، وفى عشية عقد القران هربت إلى بيت جيراننا لاحتمى بهم، فأخذتني ربة البيت، وهى من صديقاتي، إلى الطابق العلوي وأخفتني في الصندوق. ثم جئت أنت وسرقت الصندوق تحت جنح الظلام وأتيت بي إلى هنا، والآن، أتوسّل إليك أن تعيدني إلى داخل الصندوق وترجع بي إلى حيث وجدتني".

وبرًا منه بما وعد، عاد بها محمد قبل أن تشرق الشمس ووضع الصندوق مرة أخرى في الغرفة التي وجده فيها.

كانت التوتر شديدًا داخل القصر عندما اكتشفوا عدم وجود الأميرة، وبحثوا عنها في كل مكان، ولكن دون جدوى وكان لابدّ من تأجيل الزواج، وفى صباح اليوم التالي، دخلت الأميرة القصر لتجد والدها في اضطراب وهياج شديدين، ويكاد أن يُجنْ لأن أحدًا لم يكن يعرف ماذا كان مصيرها. وقالت الفتاة إنها لم تفعل سوى أنها قضت الليل في بيت صديقة لأنها لا ترغب في الزواج من ابن عمها.

وقال الملك وهو يهدر كالعاصفة: "لن تغادري هذا القصر أبدًا" وسوف يعقد قرانك الليلة".

وامتلأت الأميرة حزنـًا، ولكنها امتثلت احترامًا لمشيئة أبيها. وعُقد القران في تلك الليلة، ووفقًا للتقاليد، أُدْخَل الزوج غرفة العروس فجلس يرنو إلى زوجته. وجاءت لها صديقاتها، ثم تركنها وأغلقن الباب عليها مع زوجها، وظل العريس وعروسه يجلسان في صمت لبعض الوقت، وعند أول بادرة للتحرك من جانبه قفز من السقف فأر هائل الحجم، وجرى فوق جسد العريس فأصابه الذعر، وعجز عن التصرف، ولم يبذل أي محاولة لقتله، وظل قابعًا في ركن الغرفة بقية الليل. وكانت العروس سعيدة لما ترى، وأخذت تسخر من جبنه وتوتره.

وتكرر نفس الشيء على وجه الدقّة في الليلة الثانية، ولكن الفأر كان هذه المرّة أكبر حجمًا فهرب العريس مذعوراً إلى غرفة مجاورة قضى بها الليل.

وحدث نفس الشيء في الليلة الثالثة، ولم يعد العريس قادرًا على تحمل هذا الذي يجرى، فذهب إلى الملك، وعرض عليه كل ما حدث، وكان يحسّ بالإحباط لأن الأميرة تمكنت من أن تغرر به ليصبح مادة للسخرية من جانب فتاة

لم تتزوج بعد، في الوقت الذي كان عليها أن تقف إلى جانبه وتشعر بالخجل والخوف.

وقال: "والآن، أطلب منك السماح لي بطلاقها".

واجتاح الملك إحساس عميق بالخجل والارتباك عندما سمع القصة، وأرسل على الفور يطلب حضور ابنته، وقالت الفتاة: "يا أبي. عِدْني بألاّ يحيق بي أي أذى وسوف أحكي لك كل شيء".

وعندئذ قالت لوالدها كيف لجأت لدى جارتها التي أخفتها في صندوق سرقه لص ليلة زفافها وانطلق به إلى الصحراء، وكيف أُخِذَ اللص بجمالها وحاول أن يعانقها، وكيف كانت الساحرة تظهر كل مرّة لتهاجمه فيقتلها الرجل وهى على شكلِ أسد، وكيف فعل ذلك ثلاث مرات قبل أن تكلمه وتقنعه بأن يَعِدَها بوجهه ألاّ يلحق بها أي أذى، وكيف توسلت إليه أن يردّها إلى حيث عثر عليها.

وواصلت الأميرة: "وعندما وجدت ابن عمّي، الذي زوجتني منه، يصاب بالذعر من فأر حتى أصبح كالمرأة، ضحكت وسخرت منه، تذكرت هذا الرجل الذي قتل الأسود الثلاثة الضارية ولم ينتبه أي خوف منها".

وهنا أقسم الملك الذي سمع عن هذا اللص الشهير الذي لم يستطع أحد أن يوقع به لينال منه ليقدم للمحاكمة وينال جزاءه، أن يعثر عليه.

وسأل ابنته: "هل يمكنك التعرف عليه مرة أخرى إذا رأيته"، وكان ردّها أنها على يقين من أنها ستستطيع.

وبعد أن ظلّ يفكر لعدّة أيام محاولاً التوصل إلى طريقة يمكن اتباعها، طرأت للملك فكرة. فأرسل الدعوات إلى كل مكان يطلب من الجميع الحضور إلى مأدبة ضخمة، وأمر بنحر عشرة جمال وعدد كبير من الأغنام والطيور الداجنة. وفي اليوم المحدد، افتتحت المأدبة في ممر طويل له باب عند كل طرف، ويفضي أحدها إلى طريق جانبي خلفي ليدخل منه المدعوون، وكان هذا هو الباب الرئيسي، بينما يفضي الباب الآخر إلى زقاق قذر تتجمع فيه مخلفات المساكن والمطابخ المجاورة، ولذلك لم يكن يخلو أبدًا من الأوحال والقاذورات.

وأمر الملك بأن يوضع إلى جانب الباب الرئيسي طائر مفترس يبث الرعب في قلوب الضيوف، الذين بدأوا في الوصول الواحد تلو الآخر، وعندما رأوا هذا

الطائر المخيف لم يجرؤا على الدخول إلى البهو الذي أقيمت فيه المأدبة، وأخذوا يتساءلون عمّا إذا كان هناك باب آخر، وعندما تلقوا الرد بالإيجاب، اتجهوا نحو مؤخرة القصر، واجتازوا الزقاق المليء بالأوحال والقاذورات، ووصلوا إلى الباب فخلعوا صنادلهم وأحذيتهم إلى جواره بعد أن اكتست جميعًا بالوحل.

وسرعان ما أقبل بدوي متواضع المظهر، وعصاه التي يسوق بها بعيره في يده، وعندما رأى الطائر بجوار الباب الأمامي صرخ في وجهه في صوت جهوري فخرّ الطائر يغط في سبات عميق، فدخل إلى البهو، وترك صندله خارج الباب مباشرة.

وبدأ تناول الطعام، وكان اللحم والأرز على درجة حرارة عالية للغاية، فكان الضيوف يصابون بالحروق في أيديهم عندما يدسّونها في أكوام الثريد، ثم يولولون ويحركون أصابعهم وأيديهم في كل اتجاه التماسًا لشيء من البرودة. أما محمد الحرامي، فاستّل خنجره من غمده، وأخذ يقطع اللحم قطعًا صغيرة ويأكلها إلى أن شبع. وتجنب تناول أي قدر من الأرز الساخن.

وطوال ذلك الوقت، كان الملك يراقب البدوي الغريب عن كثب ويرصد كل حركاته، وكان هو الوحيد الذي دخل من الباب الرئيسي. وعندما انتهت المأدبة، وكان الضيوف على وشك الانصراف، توجّه الملك إلى محمد وسأله عن اسمه، وأبدى إعجابه بالطريقة الذكية التي لجأ إليها لتقطيع اللحم، وسأله عما دعاه لعدم تناول الأرز.

وكان الردّ: "أنا مجرد بدوي بسيط، أعرف بين قبيلتي باسم محمد، ولديّ الكثير من الأرز، أما اللحم فنادرًا ما أحصل عليه، ولذلك أكلت اللحم وتجنبت الأرز".

وبعد تناول القهوة وإدارة البخور على الضيوف كما جرت العادة، بدأوا في الانصراف تباعًا، وخرجوا جميعًا من الباب الذي دخلوا منه، وتأهب محمد أيضًا للانصراف واتجه إلى الباب الرئيسي، فذهب إليه الملك – وقد تأكدت ظنونه تمامًا الآن – وطلب منه أن يتبعه إلى داخل القصر. وكانت الأميرة تنتظر وراء ستار وما أن رأت محمد وهو يدخل حتى تعرفت عليه وتأكدت أنه هو الرجل الذي حملها بالليل وهي داخل الصندوق. ودعى الملك ابنته وسألها ما إذا كانت قد تعرفت على الرجل:

فأجابت: "إنه هو بكل تأكيد"، ثم انسحبت إلى جناحها. ونجحت خطة الملك، ولكنه كان حزينـاً ومندهشًا لكثرة عدد الجبناء بين أتباعه وخاصة وأن من بينهم ابن أخيه نفسه.

وقال الملك: حقًا وجدت رجلاً واحدًا شجاعًا يستحق بكل جدارة يد ابنتي، وأطلب منه أن يقبل منصب الوزير في مملكتي، وأقدم له ابنتي لتكون زوجة له.

ووافق محمد على ما عرضه الملك لأنه ما كان له أن ينسى جمال الأميرة الآسر. وتم الزفاف على الفور وسط الفرحة الغامرة. ونُفي ابن عم الأميرة خارج المملكة. وعاش محمد وعروسه سنوات عديدة، تظلهما السعادة.

اقتلوا الرجل الذي ذبح الكلب:

تهدف القصة الأخيرة من قصص القبائل التي أرويها على هذه الصفحات إلى توضيح أهمية توقيع العقاب الفوري حتى وإن كان الجرم ضئيلا، لأن البدو إذا أحسّوا أن قبضة السلطة تراخت، لم تعد هناك أي سيطرة عليهم؛ وهي سمة شائعة بين العرب بشكل عام. ولهذه القصة روايتان، سمعت الأولى من خان بهادار مُلا صالح، السياسي الكبير القديم الذي عمل وزيرا مع الحكام الأربعة الأخيرين للكويت ثم استقال وابتعد عن الحياة ليخلفه ابنه القدير عبدالله الملا صالح، الذي يعمل الآن سكرتيرًا سياسيًا لفخامة الشيخ عبدالله السالم، الحاكم الحالي، وتبشر كل تصرفاته بأنه سيسير على منوال والده الشهير.

يقول ملاّ صالح: يحكى أن كهلاً بدويًا من مطير كان يعيش مع أبنائه الثلاثة الذين بلغوا مرحلة الشباب في خيمة واحدة، ومعهم أمهم، وأن الأبناء كانوا يتولون أمر أغنام أبيهم وجماله، وحدث ذات يوم أن كانت الأسرة تنزل في مخيم أقامته لقضاء فصل الصيف بجوار مجموعة من الآبار، على نحو ما جرت العادة في شبه الجزيرة العربية، وكان ينزل إلى جوارهم مباشرة أحد الرعاة الفقراء من نفس القبيلة، لا يملك إلا عشرة أغنام وجملين.

ووفقا للقانون المطبقّ في الصحراء منذ قديم الزمان، فالواجب الأسمى لأي رجل هو أن يحمي جاره؛ ألَمْ يقل نبي الله محمد (ﷺ) لما سألوه عن الواجبات الثلاثة للمرء في الحياة بأنها "جارهم، ثم جارهم، وجارهم".

وجاء رجل من القبيلة ذات يوم لزيارة هذا الراعِي الفقير، وعندما اقترب من الخيمة، انقض عليه الكلب وأخذ ينبح ويزمجر. ولما عجز الزائر عن تنحيته عن طريقه، أخرج غدّارته وسدد إليه طلقة في رأسه فخرّ صريعا، وقوبل هذا العدوان غير المألوف والذي لا مبرر له بالسخط والاستياء الشديدين، لأن الكلب لا غنى عنه بالنسبة لمن ينزل في خيمة، ليس لمنع الذئاب من مهاجمة الأغنام وخطفها أثناء الليل فحسب، بل وأيضًا لإبعاد اللصوص والأشخاص غير المرغوب فيهم، وذهب أبناء المطيري الكهل الذين ينزلون بالخيمة المجاورة إلى والدهم وحكوا له ما حدث، وطلبوا منه الرأي والمشورة.

قالوا: "لقد ذبح كلب جارنا بطريقة غاشمة، ماذا علينا أن نفعل؟" وفكر الكهل هنيهة ثم أجاب:

"يا أبنائي، اقتلوا الرجل الذي ذبح الكلب"

وغادر الشبان الثلاثة الخيمة وتشاوروا فيما بينهم وانتهوا إلى أن والدهم يخرّف أو يتكلم بالرموز، لأنه من الحماقة، في رأيهم، أن يزهقوا روح إنسان مقابل كلب. وبدلاً من تنفيذ ما أشار به الأب، بحثوا عن صاحب الكلب القتيل من أجل تطييب خاطره. وبعد أن تمكنوا من تهدئته، ارتفع صوته في الخيام المجاورة منددًا بتلك الفعلة المشينة، فتعاطف الجميع مع الراعي الفقير.

كان الرأي العام حاسمًا في وقفته إلى جانب الراعي، ووجّهت إلى قاتل الكلب أقسى عبارات الذمّ والتقريع، وبدا وكأن المسألة انتهت عند هذا الحدّ، إلى أن وقع انتهاك خطير آخر لقانون الصحراء، بعد أسبوعين، فبينما كان الراعي الفقير يروى قطيعه الصغير من أحد الآبار، داهمته مجموعة من شباب البدو المتغطرسينَ وأرادوا أن تَردَ جمالهم الماء من نفس البئر رغم وصولهم إليها بعد الراعي الفقير، فأوسعوه ضَربًا، وانتزعوا حوضه ومزقوه إربًا وطرحوه على الرمال، ليرتكبوا بذلك عملاً مشينًا ضد شخص ضعيف لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ويعتبر جُرما لا يمكن لأي فرد من أبناء القبيلة أن يغفره.

وانسحب الراعي المدحور إلى خيمته يجتر آلامه.

وتعالى صوته وهو ينتحب: "هل قُدّر للقويّ دائما أن يتنمّر على الضعيف؟ أين أنتم يا أبناء مطير، يا من تسمحون بمثل هذا الظلم؟ إن الله – بلا جدال – لا يقرّ هذه الفعال".

وعندما سمع أبناء المطيري الثلاثة بما حدث، ذهبوا إلى والدهم مرة أخرى يطلبون المشورة ويسألون عمّا ينبغي عليهم عمله لوقف هذا النوع من التصرفات. وكان كل ماردّ عليهم به هو:

اقتلوا من ذبح الكلب.

وتلاقت آراء الأخوة الثلاثة وقالوا: "إن أبانا بلغ من العمر أرذله وبدأ يهذي ويخرف. ونحن لم يعد يعنينا أمر الكلب الذي مات، ولكن الذي يعنينا الآن هو هذا الانتهاك الذي لم نسمع بمثله من قبل لحقوق جارنا في الخيمة من جانب بعض الشبان المتغطرسين الذين يستحقون العقاب".

ورغم ذلك، لم يقدموا على أي خطوة عملية سواء الكلام والتنديد بالمعاملة الظالمة التي لقيها عضو سيئ الحظ من أبناء القبيلة، وأما الشبان المعتدون، فردّوا بكل استعلاء وصلف على كل من جَرُأ على انتقادهم:

"اغربوا عن وجوهنا أيها المعتوهون. أليس على الضعيف أن يُخلي مكانه للقوى؟ هذه هي القاعدة السائدة في الصحراء، وهكذا كانت الحال منذ الأزل".

وانقضى شهر، وأراد أحد صغار شيوخ القبيلة، وكان مكروهًا لما اشتهر به من بخل، أن يحصل على حَمَل ليهيئ منه طعامًا لوليمة صغيرة أزمع أن يقيمها. ولما لم يجد ما يناسبه بين قطعانه، أرسل رجاله ليروا ما إذا كان يمكنهم شراء حمل من نزلاء الخيام المجاورة. وعندما رأى هؤلاء الرجال القطيع الصغير للراعي المطيري الفقير الذي سبق أن قُتلَ كلبُه، التمعت في أذهانهم فكرة أخذ أحد حملانه عنوة، لأنه، كما قالوا:

"أليس هذا هو الذي تجاسر بالشكوى وقال أن من حق جماله أن ترتوي قبل جمال العرب"؟.

وقالوا للرجل الذي اعترض على مزاعمهم أن شيخهم يريد حملاً للوليمة، وإنه من الخير له أن يلتزم الهدوء والصمت وألا يشدّد معهم.

وأثار هذا العدوان الثالث، والأشد هولاً، عاصفة من السخط على المعتدين، والتعاطف مع المعتدى عليه. ورغم ذلك لم تتخذ أي خطوة عملية لأن الشيخ الذي سرق رجاله الحمل كانت تحت إمرته مجموعة مدرّبة من الخدم والأتباع، بينما كان كل من شهدوا هذه الأحداث عازفين عن بدء صدام ربما

انتهى بمعركة تراق فيها الدماء، وكل ذلك من أجل عضو في الجماعة لا أهمية له على الإطلاق.

وقالوا: الأفضل أن تسلمّ الأمر كله للّه يسوّيه بمعرفته، فهو الذي يدبّر الأمور جميعًا.

ومرة أخرى، ذهب الأبناء الثلاثة إلى أبيهم وعرضوا عليه الأمر، فالتفت إليهم وقال:

"لا تسألوني المشورة ليس لديّ إلاّ ما سبق أن قلته لكم وأكرر قولي الآن: أذهبوا واقتلوا الرجل الذي ذبح الكلب، وعندئذ سوف تتوقف كل هذه الانتهاكات وكل هذا العدوان على الضعيف"

واشتعل الأبناء الثلاثة حماسًا وهبوا لتنفيذ مشورة أبيهم. وبحثوا عن قاتل الكلب فقتلوه. واستقبل هذا العمل من جانب العرب جميعًا كنوع من التعويض العادل، ووافقت عليه الأغلبية الساحقة من الرأي العام وانحازت لمن أقدموا على هذه الخطوة. وهنا تجمعّ أقارب الذي قتل، والشيخ الذي استولى رجاله على الحمل عنوة، وأخذوا يطلبون الصفح من الراعي المطيري الفقير. بل وبلغ بهم الأمر أن أصرّوا على عدم دفع أي ديّة لأقارب الرجل الذي قتل، بينما دفعوا تعويضا مقابل الكلب الذي أطلق عليه الرصاص، إلى جانب تقديم حوض جديد بدلا من الحوض الذي سبق تمزيقه، والحملان الثلاثة التي سلبت منه،

وساد الهدوء والأمن من جديد بين البدو النازلين بخيامهم بالقرب من الآبار، وأصبح احترام الضعيف والخوف من العقاب هما القاعدتين السائدتين بين الجميع، وهذا هو النوع من العدالة الذي يفهمه أبناء البادية.

روايــة أخــرى:

وعندما حكيت هذه الرواية لعثمان بن حميد العتيبي، وهو من أبرز الشخصيات في قبيلة عتيبة، قال إنها ليست الرواية الصحيحة، وإن القصة الحقيقية تدور حول عتيبة وليس حول مطير. وكانت روايته على النحو الآتي:

منذ سنوات عديدة، كان هناك رجل ثري شهير من عتيبة، يملك قطعانا ضخمة من الجمال والأغنام، ويحظى بالاحترام والتبجيل من الجميع، ولكنه

كان هرمًا وضريرا، وأبناؤه الثلاثة الذين وهبهم الله له هم الذين يرعونه، ويتولون أمر الأغنام والجمال.

وبعد أن ماتت أم هؤلاء الأبناء الثلاثة، أراد الأب أن يكون إلى جانبه من يؤنس وحدته ويرعى شئونه من كهولته، فاتخذ لنفسه زوجة جديدة، وكانت فتاة جميلة ذكية، من أسرة عريقة، وتحسن تدبير أمور المعيشة. وسعد الأب الكهل لوجودها، أما الأبناء، فكانوا متبرمين بعض الشيء، الأمر الذي لم يغب طويلا عن فطنة زوجة الأب.

وكان لهذه السيدة أحد المعجبين، وهو شاب من أقاربها ينزل ببعض الخيام المجاورة، وكان يزور الأب الكهل بانتظام بدافع الصداقة في ظاهر الأمر، بينما المقصود حقًا هو أن يلتقي بالزوجة الشابة الجميلة قوية المراس، ويتجاذب معها أطراف الحديث. ومهما يمكن من أمر، فالعلاقات بينهما ظلت دائما بمنأى عن أي خطأ أو زلل.

وعند مغادرة هذا الشاب المعجب لخيمة الأب الكهل في يوم من اليام، تبعه كلب المخيم، وثب على عقبيه كأنما يريد أن يعقره، ولم يكتف الشاب بتنحيته بعيدًا عنه، بل ورفع بندقيته وأطلق عليه النار، فصرعه.

وعندما ترامى إلى سمع الأب الكهل صوت الرصاص صرخ قائلا:

"من الذي يطلق النار"؟

وهرع إليه أبناؤه الثلاثة وقالوا:

"زائرك هو الذي أطلق النار على كلبنا"

وقال الكهل: "ماذا؟ إذن أذهبوا فاقتلوا من قتل الكلب" وقال الأبناء الثلاثة لأنفسهم:

"هذا أمر عجيب لا يُصدّق. لقد جُنّ أبونا وأصيب عقله بالوهن فراح يخرّف، هل يمكننا أن نقتل رجلا قتل كلبا مهما بلغت قيمة هذا الكلب؟!"

ورأت الزوجة الشابة أن الأبناء الثلاثة لم يفعلوا شيئًا، فأخذت تفكر مليا، وبعد أسبوع، وأثناء خروجهم بجمال أبيهم لتشرب، التقى الأبناء بزوجة أبيهم عند الآبار وشهدوها تتهادى علنًا مع الشاب المعجب بها، الذي امتلأ زهوا وخيلاء فاصطدم بحوار (جمل صغير) وكسر ساقه، وكان يعلم أنه لابد من ذبح

هذا الحوار، وكان يريد لحمًا ليأكل، وهرع الأبناء الثلاثة إلى أبيهم الكهل الضرير وأخبروه بما حدث وهم في ذروة الانفعال والتوتر.

وصاحوا: "ماذا علينا أن نفعل؟ ماذا علينا أن نفعل؟"

وردّ الكهل الضرير: "حقا؟! أذهبوا فاقتلوا الرجل الذي قتل الكلب".

كانت الزوجة الشابة ترى كل هذا الذي يجرى، ومرة أخرى أخذت تفكر مليًا، لأنها كانت تعلم علم اليقين أن الأبناء الثلاثة لن يفعلوا شيئا، وبعد بضعة أيام، بعثت برسالة سرية إلى الشاب المعجب تطلب منه فيها أن يقابلها بعد حلول الظلام في المجرى المائي الرملي الجاف بعيدًا عن الخيام. ونفذ الشاب ما طلبته، وقضى الاثنان وقتا طويلا معًا، إدراكا من الزوجة الشابة أنه لن تكون هناك أي عقوبات، حتى لو اكتشف أمرهما وبلغ النبأ مسامع زوجها الكهل.

وبعد فترة اكتشفت أنها حامل، وذهبت وأبلغت الكهل الضرير أن في أحشائها جنينًا، وأنه من صلبه. وابتهج الرجل وكاد يطير فرحًا. ووضعت الزوجة وليدها بعد حين فاستقبل باحتفالات كلها البهجة والفرحة.

ومرت ستة عشر عامًا، أرسلت الأم تطلب أبناء زوجها الثلاثة للقائها، وقالت لهم: "إبني الأول رجلاً الآن أعطوه بندقية حتى يتعلم ضرب النار"، ونفذوا ما أرادت، وتدرّب الشاب، وأصبح من أكثر الرماة مهارة. وكانت أمه قد سبق أن حكت له كيف أن أبناء الكهل الثلاثة لم يفعلوا أي شيء عندما ألح عليهم أبوهم لاتخاذ موقف عملي منذ عدة سنوات، ثم عادت لتقول له ذات يوم:

"يا بُنيَ، أنت مبعث العزة والفخار في قلبي. اذهب الآن واصرع الرجل الذي قتل الكلب"

ودون تردد، خرج الشاب المتحمس المحِبّ لأمه يبحث عن الرجل إلى أن عثر عليه فقتله، فخورا بأنه الشخص الذي نفذ آخر وصيّة للرجل الذي يعتقد أنه هو والده.

وعندما سمع الكهل الضرير صوت الرصاص تساءل: "ماذا يحدث"؟

وما أن علم بالنبأ، حتى ابتهج وغمرته الفرحة من أعماقه، ثم قال: "يا زوجتي. أنت لم تهبي لي غلاما رائعًا فحسب، وإنما رجلاً حقًا في واقع الأمر".

وأرسل يستدعى الفتى، وضمّه إلى صدره، ودَعَا له، وحظيت الأسرة كلها الآن باحترام الجميع، وأقبل الرجال من كل حدب وصوب ليروا الشاب الذي قتل الرجل الذي انتهك كل أعراف العرب وعاداتهم بإطلاقه النار على كلب جاره.

أما الزوجة، فها هي في ضربة واحدة تجعل من زوجها الكهل الضريرٍ رجلاً سعيدا، وتستعيد شرف الأسرة وأسمها الناصع، وتجعل من غلامها رجلا رائعًا يحترمه الجميع، في نفس الوقت الذي تخلصت فيه أيضًا من ذلك الشاب الذي عشقها.

الفصل التاسع عشر
الكويت ١٩٤٣-١٩٤٥

ضبٌ لوجبة العشاء – زوجة فهد الفاضل المريضة – براعة (مهارة) الدكتور ديم DAME– آبار الطويل – عودة الحجاج – عادة قطع القيد من يد الطفل – ابنة قمزة – سفينة إسماعيل – مصرع رجل من عجمان – مكان لقاء العبيد – في رعاية الله.

ضبٌ لوجبة العشاء بقلم: فيوليت ديكسون

كان حميد المكراد زعيما بارزا من زعماء عجيم، ومن أقرب أصدقاء فخامة الشيخ أحمد، وتوفى في الكويت في عام ١٩٢٨ نتيجة لإصابته بحمىً شديدة. وهو نفس العام الذي توفى فيه أخوه، راكان، لنفس السبب في الرياض.

وكان ابناهما خالد بن حميد المكراد وحَمَد بن راكان لازالا طفلين في ذلك الوقت عند موت الأبوين، ولكنهما شبّا عن الطوق الآن وأصبحا رجلين وسيمين ومعترفا بهما كشيخين من شيوخ آل محفوظ، من عجيم.

وفى شهر يونيو ١٩٤٣ ، كان ابنا العم ينزلان بمخيّم أقاماه على سلسلة تلال الظهر، التي تطل على قرية الفحيحيل الساحلية الصغيرة، على بعد حوالي الأربعة وعشرين ميلاً جنوب وجنوب شرق الكويت. ووجّها الدعوة لي ولزوجي لزيارتهما بالمخيمّ. وكان حميد بن راكان قد جاء إلى المدينة في ٨ يونيو لشراء بعض اللوازم لأسرته قبل أن يتوجه إلى الرياض للقيام بزيارته السنوية لابن سعود. واصطحبناه معنا في سيارتنا. كان صباحًا شديد الحرارة ولكن الرياح الشمالية الغربية المعروفة باسم البارح barih لطفت من حدّة القيظ بعض الشيء. وبالرغم من ذلك، فما أن تحركت سيارتنا في اتجاه الجنوب الغربي بموازاة تلك التلال ارتفعت درجة حرارة الرياح عندما ابتعدنا من البحر، والتهب محرك السيارة حتى اضطررنا إلى التوقف مرتين لتبريده، ولنملأ (الراديايتر) بالماء.

ولما كان الربيع في ذلك العام ربيعا رائعًا لم يسبق له مثيل، عزَفَ طائر القطا عن الهجرة إلى الشمال وأخذ يبنى أوكاره ويضع بيضه على سلسلة التلال. ومررنا بعدة مجموعات منه ونحن في طريقنا، وأبلغنا حميد أنهم عثروا على عدد كبير من البيض.

ووصلنا إلى خيمة حميد في حوالي الساعة الخامسة والنصف وكان هناك عددٌ كبيرٌ من الخيام الأخرى تتناثر هنا وهناك في مجموعات تتكون من خيمتين أو ثلاث متقاربة، بينما ترعى قطعانهم الكبيرة من الجمال الرائعة حولهم في كل مكان. وكانت خيمة حميد قد نُقِلَتْ من موضعها أثناء غيابه بالمدينة، ولكنه تعرفَ بطريقة أو أخرى على موقعها الجديد وراء تل صغير على مقربة من الطريق، ولم يكن هنا على هذا التّل إلاّ امرأة واحدة بمفردها؛ وما أن لمحتنا حتى أشارت لنا ملوحةً بعباءتها فوق رأسها تارة، مع خفضها نحو الأرض تارة أخرى، وفعلت ذلك مرة أو مرتّين.

كانت هذه المرأة هِي ميثه، زوجة حميد التي توجهت إلى المخيم في ذلك اليوم ولكنها لم تصل إلاّ منذ بضع ساعات. ولما كانوا سيواصلون السير نحو مخيمهم الصيفي بالقرب من الهفوف، لم يضربوا خيمتهم الكبيرة واكتفوا بتدلية قطعة من ستارة سوداء من طرف عامود من أعمدة الخيام، وعَلقوا قطعة أخرى من ورائها لصدّ الرياح الساخنة ودرء الرمال.. وسارعت المرأة فسحبت قطاتها المزركشة (ستارة تقسيم الخيمة) من بين ما تحمله من متاع وثبتت عامودًا على الأرض ربطت به شريطًا ملفوفًا طويلاً لتقسم المأوى الصغير إلى قسمين، ولتوفر لنا ظلا جلسنا تحته.

وألقى حميد بشته وسارع يبسط سجادة لنجلس عليها في الظل. ثم أنزل سرج جمل وأتى ببعض الوسائد وضعها لنا لنستند إليها؛ وأمامنا مباشرة، حفر حفرة صغيرة للنار وجَمَع أواني القهوة وكل الأدوات اللازمة لإعدادها من حوله. ثم أتى بعد ذلك بحطب العرفج وكمية من الجلة (روث الجمال) وأشعل النار. وكان الجو حارا حقًّا نتيجة للرياح ولهيب النار التي أمامنا، ولكن الرمال التي تذروها الرياح من حولنا أقنعتنا بأن الأفضل أن نلزم مكاننا.

في هذه الأثناء، ارتدى كلٌ من راكان ونهار، ابنا حميد الصغيران العباءة البيضاء التي اشتريناها لهما وجلسا وهما في قمة السعادة يأكلان بعض الفول السوداني والحلوى التي أعطيناها لهما. ثم انضم إلينا خالد، ابن عم حميد، الذي خرج متوجها إلى المخيمَ في ذلك اليوم واصطحب أسرته إلى آبار الطويل، المتاخمة "لواره"، حيث ينزل والد زوجته وأشقاؤها. وكانت زوجته سارة هي كبرى بنات صديق عزيز من أصدقائنا، وهو زنيفر بن حويلة، وسبق لها الزواج

مرتين، أولاً من فهد الحثيلين، ثم من غليفص Ghalaifis أحد رجال الحرس الخاص للملك ابن سعود في الرياض، وكانت ابنتها من زوجها الثاني تدعى خزنه وهي فتاة صغيرة جميلة في حوالي السابعة من عمرها، أما الآن فلديها ابن صغير رائع، هو حميد، أنجبته لخالد، الذي كان يحب زوجته كل الحب فعاشت معه حياة سعيدة آمنة، وها هو الآن يقبل علينا قادمًا من واره ليقوم بعلاج بعض إبلهم التي أصيبت بالجرب.

أُعدّت القهوة، وكانت تغلى على حافة الرماد الساخن، عندما رأينا على بعد بضع ياردات ناقة فائقة الجمال، ممتلئة الجسم، تحمل على متنها حقيبتين ممتلئتين بالمؤن، وتعدو بعيدًا بأقصى سرعتها. وكانت تجرى وراءها امرأة بدوية شابة تكتسي كلها تقريبًا بالسواد، وملابسها تتطاير مع الرياح وهى تتشبث بمقودها. وبعد جهد خارق من أجل إيقاف الناقة، اضطرت لتركها لتنجوا بنفسها من الأخطار التي يمكن أن تتعرض لها إذا سحبتها الناقة الشاردة وراءها. وعلى بعد حوالي خمسين ياردة من ورائنا، تراخت أربطة إحدى الحقيبتين فهوت على الأرض، ولكن الناقة واصلت العدو وبأقصى سرعة، متجهة صوب الجنوب.

وما أن رأى خالد هذا الذي يجرى حتى هبّ واقفا وهرع بكل ما يستطيع من سرعة ليحاول اللحاق بالناقة. ولكن بعد أن جرى لمسافة نصف الميل بسرعة فائقة، توقف عن المطاردة. وفى هدوء ترك حميد موقد القهوة بعد خروج خالد ببضع دقائق وامتطى بعيرا وأنطلق لمطاردة الناقة الشاردة.

وتعالى صوت المرأة وهو يمتطى البعير "انزع السرج"

وكانت هناك عدّة خيام أخرى لأعضاء من نفس القبيلة تتوارى خلف تل صغير آخر. وعندما بلغ حميد مدى رؤيتهم، خرج شاب بدوي واندفع نحوه وأشار إليه ليتوقف. ومرة أخرى أناخ حميد بعيره وترجّل، ليحلّ الرجل الآخر محله.

وقال وهو يواصل المطاردة: "يجب أن تهتم بأمر ضيوفي يا حمد".

ومن المؤكد أن حميد عندما غادرنا طلب من رجل ينزل بالخيمة المجاورة أن يأتي ليرعى شئوننا ويقدّم لنا القهوة. وسرعان ما اكتشفنا أن هذا الرجل هو نفس الكهل الذي مررنا به على الطريق ممتطيا راحلته مع ابنته وكان في طريقه

إلى المدينة لشراء بعض المؤن، ويبدو أن الناقة فرّت مذعورة في نفس اللحظة التي وصل فيها إلى خيمته، ولم تستطع ابنته أن تمسك بها، وقال إنها ناقة شرسة عنيدة، رغم ارتفاع قيمتها، وأصالتها، وصلاحيتها الكاملة للركوب. وعندما خرج من بوابة المدينة في الصباح ركلته وأحدثت به بعض الإصابات، وأرانا ركبته المحتقنة المتورمة وهو يقول أنها كسرت له ضلعًا أيضًا يؤلمه اشد الألم. وكانت الحقيبة التي سقطت على الأرض تحتوي على كمية من التمر، أمّا الحقيبة الأخرى فكان بها البن والماء وبعض الملابس الجديدة وغير ذلك من الاحتياجات. ونظرًا لأن احتمال فقدان كل هذه الأشياء، وليس ما أصابه من جراح، هو ما كان يشغل بال هذا الكهل المسكين، فقد ألقى بكل جسده ليستلقي على الأرض عندما عاد حميد وحلّ محله أمام النار المتقدّة لإعداد القهوة.

وأحسَ زوجي أنه يتعيّن عليه أن يشارك في المطاردة، فركب السيارة وذهب ليصحب خالد معه، ثم انطلق في اتجاه تحرّك الناقة، ولهجت ألسنة النساء جميعًا بالشكر وساد شعور بأن المشكلة سوف تجد حلا، وأن الناقة سترجع لصاحبها بعد حين. وقدّموا لي القهوة، ولكنها لم تكن جيدة الصنع، ولم يستسغها حميد.

وعندئذ قدّم لي راكان الابن البكر والبالغ من العمر حوالي الخمسة أعوام، ضبًا، وهو الحرباء ذات الأشواك التي تتفرع على جانبي الذيل، فكان راعى جمالهم قد أعطاها في ذلك اليوم. لم تكن كبيرة جدًا، وبلغ طولها ثمانية عشر بوصة فحسب. ولكنها كانت ممتلئة الجسم، وقالوا أنها أنثى وأنه يمكن التعرّف على وجود البيض بداخلها باللمس. وقلت أنني لا أريدها، ولذلك استقر رأيهم على طهيها في رماد النار واتخاذها طعاما، وأخذها حميد فذبحها، فبدت وكأنها مستسلمة متهالكة ولم يصدر عنها أي صوت أو حركة، وكل ما في الأمر هو تساقط بعض قطرات من الدم منها. ثم شق بطنها بطرف خنجره حتى الذيل شقا يبلغ طوله حوالي ست بوصات، وانتزع أحشاءها وألقاها بعيدًا وابقى على الكبد والبيض، وكان عدده خمسة عشر بيضة، ويقارب حجم البيضة حجم فقرة الأخيرة للأصبع الأوسط لإنسان، وتشبه البيض الذي لم يكتمل تشكيله داخل الدجاجة، وأخرج حميد البيض بكل عناية، ووضعه مع الكبد في محماس صغير يستخدم لتحميص البنّ.

وأمسكت ميثه بالزمام وبدأت طهي البيض على النار وهى تقلّبه طول الوقت وتقطعّ الأجزاء الصفراء منه إلى أن حصلت على قرص صغير من العجّة أضافت إليه بعضًا من الزبد المصفى. وبعد أن واصلت الطهي لعدة دقائق أخرى نقلت العجَة إلى المُبَرّد الخشبي ووضعته أمامي. وكان الطفلان يرقصان فرحا توقعا لما سيحصلون عليه من طعام شهى. وأكلت عدّة قطع صغيرة، وكانت جيّدة حقا ولها مذاق الجراد، رغم أن قليلا من الملح كان من الممكن أن يجعلها أفضل.

وأقبل نحو الخيمة زائر يسحب من ورائه كبشا أسود ممتلئ الجسم. وهبّ حجلان، الكلب، لملاقاته وهو ينبح مزمجرًا، ونهض حميد ليرحب به وتبادل الاثنان القبلات، وبعد أن حيّاني الضيف، جلس بجوار موقد القهوة، وخرجت ميثه لتحضر كمية إضافية من حطب العرفج والجلة، إضافتها للنار فازدادت توهجًا، ثم جلست جواري. وكان مما لفت نظري أنها لم تتوارى عند وصول الزائر؛ وعلى أي الأحوال فهو من أبناء قبيلتها بل وربما كان من أقاربها.

ثم وضع حميد الضبّ على النار، وبطنها إلى أعلى، فأخذت تحرَك ذيلها لبعض الوقت وكأنها لا تزال حيّة، على نحو ما تتلوى الأفعى عند موتها، ثم بدأ في تحميص المزيد من البنّ نظرًا لعدم جودة القدح الأول الذي تناولته، وقال إنه يريد قهوة جيدّة لزوجي عندما يعود.

كانت الشمس على وشك المغيب وقرصها يتوارى في الأفق، ولمحنا سيارتنا وهى تتجه نحونا من جديدا، وسرعان ما توقفت وراء الخيمة، وصاح خالد وهو يقفز منها إلى الأرض:

"طَرَحناها" (أي "أمسكنا بها").

وعمّت الفرحة الجميع، وكان أكثرهم فرحًا تلك المجموعة الصغيرة من النساء التي تقف إلى جواري. ورغم أن الوقت كان متأخرًا جدًا، أصرّ حميد على أن يتناول زوجي قدحًا من القهوة، فجلسنا جميعًا من جديد، ووزعت على الجالسين كمية كبيرة من التمر وبقايا عجّة بيض الضبّ. وبعد أن شربنا القهوة حكى زوجي كيف تمكنوًا من اللحاق بالناقة الشاردة وتكبيلها بالقيود.

قال: "لحسن الحظ كان الطريق جيدا وليس به الكثير من الرمال، فتمكنّا من اللحاق بها على بعد حوالي اثنتي عشر ميلاً من موقعنا هذا. وكان ممتطى البعير الذي يقوم بالمطاردة قد تخلف وراءها. والتقينا بها وهى تقف بلا حراك في

مجرى مائي جاف، ولكن ما أن اقتربنا منها حتى هرولت بعيدًا، وبأقصى سرعة، وحاولت أن الحق بها وأجبرها على تغيير اتجاه تحركها، ولكنها لم تشعر بأي خوف من السيارة بل وظلت تجرى جنبا إلى جنب معنا في مكان لم اكن أستطيع فيه أن أزيد من سرعتي.

"وكانت هناك أمامنا، على بعد حوالي ثلاثة أميال، قطعان ضخمة ترعى، من النوق الحلوبة من ممتلكات الشيخ صباح الناصر الصباح، فاتجهت الناقة إليها رأسا، ودخلت بينها، وقدنا سيارتنا بسرعة واقتربنا قدر استطاعتنا، ثم ترجلّ خالد وأخذ يتسلل في خفة وراءها، وأمسك بحبل المقود، وكانت قطعة منه لازالت تتدلى. وبسرعة، أناخ الناقة، ثم بدأ – وسط عجيج وصياح صاخب منها – في تكبيل أرجلها الأربع بحبال أخرجها من السرج وبقايا الحبال التي تثبت الحقيبة على ظهرها، وبعد أن أحكم تكبيلها، وضع الحقيبة في السيارة، وقفلنا راجعين، والناقة التي استبد بها الرعب تحاول عبثًا أن تبتعد سيرًا على ركبتها وساقاها الأماميتان مرفوعتان إلى أعلى. وكان اثنان من عجيم مقبلين من اتجاه آخر على ظهر بعيرهما، فأشار لهما خالد، فتوقفا، وتوجهت إليهما بالسيارة، وأشار خالد إلى الناقة وطلب منهما توصيلها لخيمة حميد"

في هذه الأثناء كان طهي الضبّ يجرى على قدم وساق، فدفنت بكاملها في الرماد الساخن لمدة حوالي خمسة عشر دقيقة، ثم أخرجها حمد وأزال عنها الرماد، وقطع ذيلها وناولني جزءًا منه ثم أخذها خالد منه وبدأ يأكل قطعا كبيرة، الجلد وكل شيء. وكان الرأس من نصيب راكان بينما حصل نهار على ساق، فأخذا يأكلان في شهية واضحة، وأما بالنسبة لي، فكلما قضمت قطعة من الذيل، كان الدهن الساخن داخله يصدر صوتا كالفحيح! وكان اللحم أبيض اللون، وأشبه بالألياف، ويجمع مذاقه بين طعم الجراد وطعم القشريات البحرية، ويجب أن اعترف انه كان جيدا ومتقن الطهى. ورفض زوجي بكل حسم أن يأكل أي شيء، وكم كان استياؤه عندما أخبرته السيدات أنه سبق له أن أكل صغار الضبّ على شكل عجّة!

وأراد خالد أن يهدى زوجي ناقة، ولكن زوجي لم يوافق، وقال خالد أن الملك بن سعود أعطاها له منذ ثلاثة أعوام، وأنها ذلول عريقة النَسَب. وبعد ذلك، منحها خالد للكهل الذي كسرت الناقة الشاردة أحد ضلوعه.

وبعد أن تبادلنا تحيات الوداع، اتجهنا بسيارتنا إلى منزلنا وكان من الممتع أن نرى مدى الفرحة التي عمّت المخيمّ كله لاستعادة الناقة، تلك الفرحة التي تجسّد ذلك الرباط الوثيق الذي يشدّ البدوي إلى بعيره. وكان من المفترض أن تدفع لزوجي طراحة tirahah مقابل دوره في مطاردة الناقة الشاردة وهي مكافأة بحدود ثلاث ريالات.

وانصرفنا ونحن ندعو للكهل المصاب بالشفاء.

زوجة فهد الفاضل المريضة:

في ٢٥ من يوليو ١٩٤٣ قابلت أنا وزوجي مُرّيًا مرحًا يدعى فهد بن عبدالرحمن الفاضل، حفيد الرجل الذي حفر بئر الفاضل الشهيرة في المنطقة الشمالية من الربع الخالي. وكان فهد في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، وعضواً بارزًا من آل نِجاد، من مرّة، وكان ينزل عندما التقينا به في مخيم مع حوالي أربعين خيمة أخرى من خيام آل مرّة بجوار آبار عرك Arq على بعد ثمانين ميلاً جنوب الكويت، وذات صباح، جاء لزيارتنا في منزلنا وهو في حالة من التوتر والاضطراب لم نعهدها فيه من قبل.

وقال: "لقد سمعت عن كل ما أبديتموه نحو أبي ليلى وغيره من قومي من عطف، فجئت إليكم وقطعت كل هذه المسافة الطويلة لأطلب منكم أن تسدوا لي معروفًا. أن لي زوجة مريضة جدًا وعزيزة عليّ، وجئت بها لتعرض على طبيب، ومعنا ثلاثة أطفال صغار إلى جانب أمي المسنّة الواهنة، وليس لديّ أي نقود لدفع الأتعاب، ولكن لديّ بندقية طراز ميزر في حالة جيدة أرجو أن تأخذها لهذا الغرض".

وسألت: "وأين مخيمكم"؟

فقال: "خارج دروازة نايف، في خيمة صغيرة على صهيد (رابية) عجمان وراء آبار الشامية، وتقع خيمتنا بالقرب من خيمة امرأة عجمية تدعى صفيّة أو أم مانع.

وكنا نعرف هذه المرأة، ووعدناه بزيارتهم في المساء، فتوسّل إلينا ألاّ نتأخر لأن زوجته في حالة بالغة التدهور، وتجشمت آلامًا مبرّحة وهى تمتطى البعير لمسافة ثمانين ميلا.

ووجدنا خيمة صغيرة قذرة، أو بالأحرى مجرد مأوى يتكوّن من عامود واحد وقطعتين من القماش تتدليان من قمته على الجانبين. وقال فهد، الذي كان يترقبّ وصولنا على أحرّ من الجمر، وهو يشير إلى هذا المأوى إنها أسهل ما يمكن حمله أثناء السفر". ورأينا داخل الخيمة شبحا هزيلا يتخذ شكل امرأة من الواضح أنها في مقتبل العمر وتتسم بشيء من الجاذبية ولكنها كانت أضعف من أن تنهض لتقف، فأخذت ترنو إلينا بعينين جافلتين وهي تضم إلى صدرها وليدًا لا يتجاوز عمره بضعة أشهر.

وقال فهد: قومي يا وضحة، هذه هي أم سعود وهذا هو أبو سعود، جاءا لزيارتك وليجعلاكِ في أحسن حال".

وبذلت وضحة قصارى جهدها لتلبية نداء زوجها، ولكن الجهد اللازم لوقوفها لتحيتنا كان أكبر من أن تتحمله فلم يسعها إلا أن تتأوه. وشرح لنا فهد حالتها فقال، أن لديها خراجًا كبيرًا في رقبتها ظهر منذ أربعة أشهر وأخذ ينمو وينمو حتى يئست زوجته تمامًا من الشفاء. وطلبنا أن نرى الخراج، ورأيناه، وكان متورمًا لدرجة بشعة ومخيفة، ويمتد من الأذن اليسرى حتى الكتف، وتتوسطه بقعة محتقنة حمراء كبيرة في حجم البرتقالة، وكان شعرها قصيرًا، وعجزت تمامًا عن تحريك رقبتها أو رأسها.

وقالت زوجتي: سوف نشفيكِ وسوف تكونين في أحسن حال، وفي صباح الغد، سيكون أول ما أفعله أنا وزوجي هو أن نأتي في سيارتنا لنأخذك إلى مستشفى الإرسالية الأمريكية التي تتولى إدارتها سيدة، وبها طبيب ماهر جدًا.

وأشارت وضحة المسكينة، مستخدمة عينيها المرهقتين، وبتحريك أصابعها، لتعبر عن شكرها وامتنانها.

وطوال الفترة التي أمضيناها معها في هذا الموقع كان حشد من النساء البدويات وأطفالهن، بما في ذلك صفية بالطبع، يتجمع من حولنا في هرج وصخب ويدفعننا من ظهورنا لمحاولة إلقاء نظرة على ما يجرى، وانهمك فهد في منعهم من دفعنا بالقوة داخل الخيمة الصغيرة.

وانصرفنا بعد لأي، ثم عدنا في اليوم التالي واصطحبنا المريضة وزوجها وأمه والأطفال الثلاثة إلى المستشفى. وعلى الفور أجريت لواضحة عملية، وكما قال لنا د. سكدر وزوجته البارعة فيما بعد، أزيلت كميات ضخمة من الصديد،

ولم نتوقف عن إرسال سيارتنا كل يوم، ولمدة أسبوع، لتوصيل المريضة إلى المستشفى لتغيير الضمادات، وفى ٦ أغسطس كانت واضحة في طريقها إلى الشفاء الكامل بعد أن تمكنت من أن تسير على قدميها وأن تتكلم، فحدثتنا عن حياتها في أقصى الجنوب، وكان فهد يأتي لزيارتنا كل يوم تقريبًا، ويقول إنه يريد أن يرى المزيد من أمثالنا.

وقال: "أن قومي سوف يسمعون بلا شك عمّا أبدته أم سعود من عطف نحو أختها، وحتى الملك عبدالعزيز سوف يحاط علمًا بكل ما جرى، وسوف يعجب بما فعلتما.

وأجاب زوجي، بكل تأكيد، وإذا حزنا رضاء الملك عبدالعزيز وتقديره، فسوف يكون في ذلك خير مكافأة لنا حقًا، ولكنى ألح عليكم لزيارتنا قبل رحيلكم.

إنهم قوم بسطاء طيبون، آل مرّة هؤلاء، كما أن لهم أساليبهم الخاصة للمجاملة والتعبير عن المودة، ولم نأخذ بندقية فهد، وقمنا بتغطية نفقات العلاج.

براعة الدكتور ديم DAME :

كان الطبيب الشهير الدكتور لويس ديم، الذي توفي في الولايات المتحدة عام ١٩٥٣ في وقت من الأوقات عضو شرف بالإرسالية الأمريكية بالبحرين، ثم عمل بعد ذلك في شركة "كاليفورنيا أربيان ستاندارد أويل" للنفط في الظهران، إلى أن اضطر إلى العودة إلى بلاده لاعتلال صحته. وكان يحظى بتقدير لا مثيل له أثناء وجوده في شبه الجزيرة العربية من جانب البدو في كل مكان، وكان من الرجال القلائل الذين يتوجهون إلى الرياض بانتظام لعلاج أفراد الأسرة المالكة والعديد من المرضى من البدو الذين يأتون إلى العاصمة للعلاج.

وكان البدو يعتبرون د. ديم ساحرًا، وإن كان من طراز حديث، وكان المديح يزجى إليه دائمًا من جانب عالم الرعاة المقر بالجميل والذي لم يكن يكف أبدًا عن الحديث عن براعته وتعاطفه وقدرته على لأم الجراح. ولكن هذا ليس كل ما في الأمر، لأن البدو، الذين يتجاوبون بطبيعتهم مع أي بادرة طيبة نحوهم ويردون الجميل مضاعفًا مائة مرة، نشروا في كل مكان قصصًا مبالغًا فيها وروايات عجيبة تدور كلها حول فضل الرجل الذي ساعدهم وشفاهم من أمراضهم الغريبة.

ففي ٢٧ يوليو ١٩٤٣ لبّى عبدالرحمن بن ماضي، الأمير السعودي لأبرق الكبريت في شمال الإحساء، دعوتنا له لزيارة الكويت، وهو الذي سبق أن رحب بي أنا وزوجتي ترحيبًا حارًا عندما زرناه في شهر مايو من نفس العام، ودعوناه لزيارة الكويت وأثناء مأدبة الغذاء التي أقمناها تكريمًا له، روى لنا القصة التالية عن الدكتور ديم:

ذات يوم، أحضروا إلى ديم في الشقرة بدويًا فقيرًا كان الجميع يعتقدون أنه هالك لا محالة بعد أن وصل إلى آخر مراحل الإصابة بالدرن.

وقال المرافقون الذين جاءوا معه: إنه يتمنى الموت، ولكننا أتينا به إليك، أملاً في أن تتمكن من عمل أي شيء من أجله.

وفحص د. ديم المريض فحصًا شاملا، وقال إنه لم يجد به أي أعراض لمرض عضوي، فأبقاه تحت الملاحظة لعدة أيام، ولكن فشلت كل جهوده لإحراز أي تقدم في حالة الرجل، واكتشف ديم أن الطعام الوحيد الذي كان يعيش عليه هذا المريض طوال العام ونصف العام المنصرمة، هو التمر، مع القليل من الماء، مع القليل جدًا من لبن البعير في بعض الأحيان، وفجأة، التمعت في ذهن د. ديم فكرة، وسأل عن موعد ذبح الجزارين المحليين للجمال، وطلب إحضار قطعة من الوسائد الجلدية المكتنزة التي تكسو الركبة، ثم أخذ شريحة منها في حجم الروبية وربط بها خيطًا رفيعًا، وطلب من المريض أن يبتلع اللحم نيئًا، وجلس لينتظر النتائج مع حرصه على استمرار تدلى الخيط من فمه.

وبعد يوم أو حوالي اليوم. سحب د. ديم الخيط في بطء وحذر شديد ليخرج قطعة لحم الجمل من معدة الرجل، فوجد قرادة (حشرة تمتص دم الحيوان) فائقة الحجم ملتصقة بها بشدة، وكانت من النوع الذي ينمو حتى يصبح في حجم حبة العنب الكبير، عندما تمتلئ بالدم.

وقال ديم، وهو سعيد بما حقق من انتصار، هذا هو سبب المرض.

وكان من الواضح أن البدوي المريض ابتلع قرادة جمل أثناء شربه للبن، وأن هذه القرادة تشبثت بجانب حيوي من الأعضاء الداخلية حيث عاشت وظلت تنمو لفترة من الوقت. وعندما دخلت قطعة لحم الجمل معدة الرجل تعرفت عليها القرادة على الفور إما بالغريزة وإما لرائحتها المميزة، فأخلت مكانها على الفور وتخلت عن تشبثها باللحم البشرى لتلتصق بشدة بطعامها الطبيعي.

وشفى المريض تمامًا.

وأنا أورد هذه القصة دون أي تعليق، ولا يمكنني أن أحدد أن كانت صحيحة أم هي من اختراع البدو. ولكن ثمة شيء مؤكد، وهو أن القصة انتشرت في كل مكان، وصدقها جميع البدو، وهذا ما حرص الأمير عبدالرحمن على تأكيده، أولئك البدو الذي بلغ بهم الأمر أن نسبو لديم براعات تدخل في إطار ما وراء الطبيعة.

آبـــار الطويـــل:

تقع على بعد حوالي اثنين وثلاثين ميلاً جنوب وجنوب غرب الكويت، وتعتبر مع الصبيحة التي تقع على بعد اثنتى عشر ميلا أخرى إلى الجنوب، والجهرة أكثر أراضى إقامة المخيمات الصيفية في شمال شرق شبه الجزيرة العربية أهمية وشهرة. وتحوى ثلاثتها عددًا كبيرًا من الآبار التي يرجع تاريخها إلى العصور القديمة، وهى جديرة جميعًا أن ينزل بها أي بدوي أثناء الجو الحار، والتجول بين خيام مطير وعجمان شديدة السواد والمتراصة بجوار بعضها البعض في كثافة شديدة، ومشاهدة قطعان الجمال وهى تشرب حول أفواه الآبار المختلفة، أو تنتظر دورها في صبر.

وفى ٢٦ أغسطس ١٩٤٣ بزغ النجم سهيل، فكان ذلك إيذانًا بانتهاء فصل الصيف، وكان بزوغه قد اكتمل منذ ثلاثة أيام في نجد وأخذ الليل يتسم بالبرودة، وبدأت الجمال تشرب مرة كل ثلاثة أيام. ويقال أن الإنسان أيضًا يحتاج لكميات أقل من مياه الشرب عندما يبزغ هذا النجم، والذي نسميه نحن كانوبوس، وألسنا نشعر بالبرودة في داخلنا كما يشعر الحيوان؟

وواكبت بداية شهر رمضان الأول من سبتمبر في ذلك العام، ولم يعد هناك إلا بضعة أيام يستطيع الناس فيها تناول الطعام والشراب أثناء النهار، وكان الشيخ خالد بن حميد المكراد، الذي شاركني في مطاردة الناقة الشاردة، ينتظر على أحر من الجمر في الكويت متى تتوفر سيارة يتوجه بها إلى الرياض، والواقع أنه لم يكن متحمسًا لهذه الرحلة، ولكن أوامر الملك العظيم ما كان لأحد أن يتجاهلها بسهولة. وكان ابن سعود قد أخبره منذ شهر أن عليه أن يعود إلى العاصمة حتى يمضى شهر الصيام معه. وكان الملك يحب دائمًا أن يجمع حوله مجموعة من الشباب والشيوخ المقربين طوال شهر الصيام، إلى جانب مجموعات

أخرى من أصدقاء أسرته، وكان خالد شابًا محبوبًا ويحظى بالإعجاب من الجميع. وكان يأمل التوجه إلى الحج بصحبة فخامته، سبعين يومًا بعد عيد الفطر الذي به ينتهي شهر رمضان، وكان هذا يعني الحصول على الخرجية (هدية من النقود)، والكسوة (هدية من الملابس) لأن الملك لم يكن يبخل أبدًا على أصدقائه المقربين أو على أي شيخ من شيوخ القبائل يرافقه عند الخروج للحج.

وأراد خالد أن يرى زوجته وأطفاله قبل أن ينطلق صوب الجنوب فسألني ما إذا كنت أستطيع توصيله إلى الطريق. وكانت لديّ بعض المهام التفتيشية التي ينبغي إنجازها في الدائرة، ولذلك وافقت على أن أصطحب خالد أولاً إلى الطريق، وبدأنا رحلتنا في الساعة الخامسة والنصف صباح يوم ٢٨ أغسطس، وعندما اقتربنا من الطويل طلب مني خالد أن أحمل شدّاده المفضل (سرج الجمل)، بالسيارة عند عودتي، لأنه يريد أن يكون في متناول يده في الكويت إذا اضطر إلى الذهاب إلى الرياض على ظهر بعير، ووافقت.

كانت الطويل زاخرة بالمشاهد الرائعة، وكان المحفوظ والمصرا. وكلاهما من عجمان، قد انتقلوا إلى الصبيحية والجهرة. ولذلك كان عدد الخيام أقل مما رأيته آخر مرة. وعلى ذلك بلغ عدد ما تبقى منها حوالي الخمسمائة تشكل مشهداً خلابًا. وكانت إبل الدياحين (من مطير) الذين يترأسهم شيخهم الشهير عياد المترجى. تتزاحم حول الآبار وتحيط بها من كل جانب بينما تجمعت أعداد أخرى منها حول الحوض المستدير الكبير الذي أقيم بالقرب من فتحات الآبار. وينتظر البعض منها دوره متراصًا في صفوف بجوار الخيام، وفي مواجهة شمس الصباح الباكر على نحو ما جرت عليه العادة.

وكانت هناك أيضًا جمال زنيفر بن حويلة العجوز وأبنائه، ولكن أصحابها كانوا منهمكين في إنهاء بناء قمة بئر جديدة، فرغوا لتوهم من تطهيرها وتدعيم جوانبها بالأفرع الجافة للعرفج وعظام الجمال.

وتوجهنا رأسًا إلى خيمة زنيفر، زوج أم خالد، حيث تنزل سارة والطفلان خزنة وحمد، وعلى الفور، التفّ حولنا مجموعة من النساء والأطفال بينما ذهب عدد منهن لاستدعاء زنيفر وابنيه عبدالله ومعضد Ma'athad اللذين يعملون في البئر. ومدت سارة سجادة في جناح الرجال بالخيمة، والذي يُعرف بالربع،

ورحبت بنا، ثم دخل الصغار، حمد ونورية وحصة، أحفاد زنيفر - واقتربوا منى بوجوههم الصافية البريئة بطريقة رشيقة، كي أقبلها.

وجاء زنيفر وابناه، تغمر ثلاثتهم الفرحة والسعادة، وملابسهم ملطخة بالأوساخ والطين نتيجة لعملهم في حفر البئر، فجلسوا معنا، وأتت سارة بلبن النوق في إناء خشبي كبير، وأعقبت ذلك بالقهوة، وكانت مجهزة من قبل لتقديمها للعاملين في البئر.

وبعد قليل، انسل خالد، الذي قوبل بترحيب خاص لوضعه كرئيس مشترك لآل محفوظ، وفى هدوء، انهمك في حديث هامس مع سارة، التي حلت نمشة، زوجة زنيفر، مكانها على الفور وهى تبدو أكثر ضمورًا من المعتاد، وكان أول ما نطقت به:

هل أحضرتم لي كسوة؟ أنتم تأتون دائمًا بالهدايا لسارة والأطفال، ولكنكم تنسونني.

وأجبت: زنيفر، وليس أنا، سوف يعطيك كسوتك يا سيدتي الكبيرة، اذهبي واستدعى لنا شقحه Shagha.

وكانت شقحه وهى من أكثر المحببات لدينا، ابنة عبدالله من زوجته السابقة صنوة التي انفصل عنها بالطلاق، وكانت الابنة في حوالي السادسة عشرة من عمرها.

وبعد القهوة، أصر الرجال على أن أقوم بالتفتيش على جمالهم وعلى البئر الجديدة، التي منحها فخامة الشيخ لهم، ولمدى الحياة، منذ بضعة أيام، كما قالوا، وكانت البئر مليئة بالمياه التي تراكمت على امتداد كل تلك الأعوام، وكان ماؤها عذبًا جدًا، رغم عدم صفائه إلى حدٍ ما في ذلك الوقت، وأعطوني قدرًا منه لأتذوقه، وهم مزهوون بالدعامات التي ثبتوها حول فتحة البئر، والكساء الذي أحاطوها به من الطمي الذي لم يكن قد جف بعد. وأعجبت كل الإعجاب بما رأيت لأنهم أدوا المهمة في إجادة وإتقان. وكانت القامة التي تستخدم لرفع المياه مثبتة في مكانها، وكان الجميع باسمين، فتمنيت لهم حظًا سعيدًا وقلت بصوت جهير: مبروك! مبروك!.

وعندئذ جرني زنيفر العجوز، الذي كان يثرثر أكثر من المعتاد، ليريني قطيعه الخاص المكون من ثلاث وخمسين من النوق الحلوبة، كانت تتجمع على

مسافة غير بعيدة عن الخيمة، وكانت جميعًا إناث الفحول (الذكور)، العمانية التي يملكها، والتي قال إنه حصل عليها منذ حوالي أربعة أعوام كهدية من محمد أبو ليلى، شيخ آل نقادان، من مطير، وأشار زنيفر في فخر إلى ثلاث بنات (ابنة الناقة) العمانية تبلغ عمرها ثلاثة أعوام، وعامين، وعامًا واحدًا، وكانت الأنثى الأم رائعة حقًا، وممتلئة الجسم بطريقة ملفتة، ولها سنام ضخم.

وعندما عاد زنيفر مرة أخرى للعمل في البئر، جاءني خالد، ورجعنا معًا إلى الخيمة، وفى هذه المرة، كان هناك حشدٌ أكبر كثيرًا من الكهول، والفتيان، والأطفال، كلهم ملطخين بالأوساخ وشبه عرايا، تغمرهم السعادة جميعًا، ويتوقون لمعرفة ما يشهده العالم من أحداث مثيرة.

وكان السؤال العام الأول الذي وُجه إلى هو: "متى ستنتهي الحرب؟ ولماذا تحد الحكومة من شراء المواد الغذائية والأرز؟ وكان ذلك من آثار النقص الشديد لهذه السلع في الكويت. وكان هناك سؤال آخر هو: ماذا ستفعل الحكومة مع هترر (هتلر) عندما يقبض عليه؟

فقلت: سوف يضعونه في قفص ويسلمونه لعجمان، أليس هو آخر أحفاد راكان الحثلين الذي كان شيخكم في يوم من الأيام؟ وكان المقصود هنا هو التندر على ابن سعود الذي كان يلجأ إلى كل وسيلة للتهدئة من روع عجمان وكسبها إلى جانبه بقوله إنه عندما كان راكان الحثيلين سجينًا في القسطنطينية منذ حوالي التسعين عامًا، تزوج من امرأة تركية وأنجب منها أطفالاً، وأن أدولف هتلر إنما هو سليل لإحداهن.

ورددوا جميعًا: نعم، نعم، سلموه لنا فنحن نعرف كيف نعتني بأمره، ابن ستين كلب.

ولم يعد لدىّ ما أقوله، فودعت الرجال ومن فوق القاطع استأذنت للانصراف من نمشه، وسارة، وشقحه، وزوجة عبدالله، ريجة Raiga، واللاتي اجتمعن جميعًا في جناح النساء في الخيمة عندما بدأ الرجال يقبلون.

وكانت تحية الوداع الأخيرة هي التي وجهتها لخالد، أما توديع الأطفال فكان مؤثرًا للغاية بالنسبة لي، ثم قبلني زنيفر العجوز، وهو يقول: أقبل وزرنا مرة أخرى، واصطحب معك أم سعود المرة القادمة.

حملنا معنا شدّاد خالد وانطلقنا صوب برقان، ثم يممنا شطر نقطة واره من خلال طريق جانبي متعرج، وأسعدني أن ألتقي بخميس بن رمثان، وهو شخصية محببة، وكان يعمل رئيسًا لحرس شركة "كاليفورنيا آربيان ستاندارد أويل"، وجاء من الإحساء لزيارة زوجته الجديدة نورا، أخت محمد بن طاحوس Tahus رئيس حرس منطقة برقان.

وبعد تناول القهوة في كوخ الحراس، أخذني خميس ومحمد في جولة لزيارة نورا الجميلة وأمها، وتقديم التحية والاحترام لهما. وكانت نورا قد خصصت غرفة نظيفة تعزلها ستائر جميلة لها ولزوجها في جناح محمد، بينما استقلت أمها العجوز البدينة، سارة، في خيمة خاصة بها، وكنت أنا وزوجتي نعرف نورا وأمها منذ حوالي أربعة عشر عامًا، ولذلك حظينا بمعاملة من نوع خاص، فكأنني من أفراد الأسرة، وكان مسموحًا لي بدخول جناح نورا سواء ترافقني زوجتي أو بمفردي، وهذه عادة من العادات التي تنفرد بها عجمان.

وقضيت نصف الساعة أتجاذب أطراف الحديث مع خميس ونورا وكان كلاهما يرتدى ملابس جيدة. ولم تنس نورا، بالطبع، أن تطلب منى كيسًا من الأرز الذي كان شحيحًا جدًا في تلك الأيام، فوعدت ببذل أقصى جهدى من أجلها، وكانت تبدو وكأنها لا تزال طفلة عندما تتحدث أو تتعامل مع أي شخص، ولم يكن بالأمر الغريب أن تستحوذ على قلب فخامة الشيخ أحمد الذي تزوجها في عام ١٩٣٨ ولكن من المؤسف أن هذا الزواج انتهى بالطلاق بعد عامين لعدم قدرة نورا الصغيرة على الإنجاب.

وأبلغني خميس بالكثير من أبناء أصدقائي من الأمريكيين والعرب في الظهران، كما استعدنا ذكرياتنا عن الرحلة التي قمنا بها أنا وزوجتي إلى الظهران وأطلال ثاج القديمة، والتي كان هو مرشدنا أثناءها. ولا جدال في أن هؤلاء البدو الذين ينتمون للفئات الموسرة يحسنون إكرام الضيف عندما يزورهم في بيوتهم وكثيرًا ما كنت أقضي اليوم كله بصحبة خالد المكراد.

ورجعنا إلى الكويت في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا، قبل أن تشتد الحرارة، ووفيت بوعدي فقمت بجولة مماثلة زرت خلالها نفس القوم في ٧ أكتوبر، تصحبني زوجتي هذه المرة. وكانت الهدية التي أخذناها معنا لسارة تتكون من زوج من الحجارة المستديرة التي تستخدم لطحن الحبوب (الرحى) سمعنا أنها في حاجة ماسة إليها. أما الأطفال فأعطينا كلا منهم دشداشة وكوفية

صغيرة. ولم ننس نورا المقيمة في واره، وأحضرنا لها كيس الأرز الذي طلبته ولكنها كبدتنا جهدًا كبيرًا عند نقلها إليها.

عودة الحجاج:

تعتبر عودة الحجاج من مكة مناسبة من أسعد المناسبات، وتجربة من أكثر التجارب التي تبعث الفرحة بين الجميع، ونجد خارج الكويت أصدقاء الحجاج وأقاربهم لمسافة مائة ميل أو أكثر لاستقبالهم والترحيب بهم وتزويدهم بالطعام والماء وغيرها من الاحتياجات.ألم يكونوا في بيت الله، وألم تُغفر لهم ذنوبهم ليعودوا أطهارًا من كل وزر؟ ويحظى ترحيب الأصدقاء بمغزى وأبعاد خاصة إذا كان الحجاج قد قطعوا طريقهم (ألفى ميل) على ظهور الجمال لأن هذا يعنى تغيبهم عن ديارهم لمدة ثمانين يومًا بالإضافة إلى الأيام التي يقضونها في مكة والمدينة، وليس من السهل وصف البهجة التي تعم الحجاج العائدين، وهى من ذلك النوع الذي يشيع الهدوء والأمان في القلب، ويحرك مشاعر المودة والحب عندما يشرعون في توزيع الهدايا والحلي الصغيرة التي أحضروها لإهدائها لكل عزيز لديهم، وقبل أي شيء آخر. فهذا الحج إلى مكة، هو الذي يبقى على الإسلام ويعمل على تلاحم وشائجه.

وإني لأتذكر جيدًا عودة سالم المزين من الحج في ٥ يناير ١٩٤٥ ذلك اليوم المشهود في حياة أسرته. زوجته عمشة، وأخته منيرة، ومزيد الظفيرى، وسليمان زوج شيخة ابنة إبراهيم المزين، شقيق سالم، والعبد الصغير المسمى مبارك. والذين افتقدناهم في غيبتهم التي استمرت ثلاثة أشهر، وسمعنا والفرحة تغمرنا أنهم وصلوا إلى رجم الجهطان على بعد خمسين ميلا جنوب غرب واره، حيث كان قطيعهم الكبير يرعى وفقًا لترتيب مسبق.

وما أن بلغنا هذا النبأ حتى جهزنا سيارتنا، أنا وزوجتي وابني مسعود الذي كان يقيم معنا لبضعة أيام، للتوجه بها إلى مخيم سالم وتحية الحجاج العائدين بعد رحلتهم المرهقة، وأخذنا معنا ما يكفى من طعام، وأدوات للنوم، لنقضي الليلة في خيامهم السوداء، وكان لهم اثنان منها، ووصلنا إلى مخيمهم في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا. ويقع هذا المخيم في منخفض صغير جنوب رجم الجهطان (أي النُصُب التذكاري لقحطان). وبينما نحن في طريقنا أخذت الكلاب تنبح واستقبلنا حشد كبير من الرجال والنساء والأطفال وعلى رأسهم

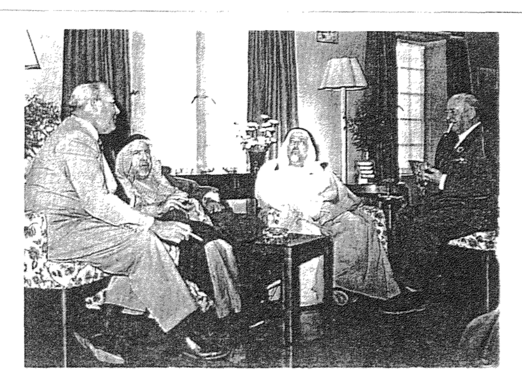
سالم، بصيحات الترحيب والبشر والسعادة. وكنا نجد هذه الأسرة العربية الصغيرة، وابتهجنا لرؤيتهم من جديد.

وبعد كلمات وخُطب الترحيب الأولية المعتادة، ذهب سالم ليعد القهوة، وعندما انتهينا من تناولها التف الجميع من حولنا لإبلاغنا عن أنبائهم وليسألوا عما يجرى من أحداث في الكويت، ورغم كل ما كانوا عليه من إعياء، إلا أنهم كانوا متماسكين وفى حالة جيدة بشكل عام، فركوب الجمال في رحلة تمتد ألفى ميلا مسألة ليست بالهينة وخاصة بالنسبة للنساء. وكان قد سبق لهم أن التقوا بمحمد وحمود، ابنيّ إبراهيم المزين، حصة ابنة سالم، فأقبلوا علينا يدفعون الأغنام وهم سعداء لرؤيتنا.

وبعد أن سألت عمشة عن صحتنا وصحة العديد من أصدقائها، قدمت لنا هداياها الصغيرة شديدة التواضع، فأعطت زوجتي صفيحة مستديرة صغيرة مليئة بماء من بئر زمزم، وهو ماء اشتهر بأنه يماثل تمامًا ذلك الماء الذي أتى به الملاك جبريل. بمعجزة، لإنقاذ هاجر وابنها إسماعيل من الموت عندما ضلا طريقهما في الصحراء الموحشة منذ عدة قرون، كما أعطتها أيضًا بعض ثمرات الدوم التي روى لنا عنها زوجها فيها قصة أسطورية. أما ابننا فأعطته عمشة زوجًا رخيصًا من الجوارب اشترته من سوق مكة. وكان لهذه الهدية أبلغ الأثر عليه، وأما بالنسبة لي فكان هناك ما يشبه قطعة حجر النيازك عليه بعض النقوش التي تشبه ما نراه على الحجر الأسود بجوار الكعبة، ذلك البناء المقدس الذي يتوسط الفناء المركزي للمسجد الكبير.

وقالت عمشة: وجدته بعد يوم من مسيرة رحلة العودة من مكة، وتصورت أنه ربما يروق لك أن تعرف شكل الحجر الأسود. كان أسود اللون مشوبًا بالخضار، وعليه نقوش بيضاء ربما كانت تماثل الألفباء في لغة قديمة، ومازلت أحتفظ به ضمن مقتنياتي الثمينة، ويبلغ وزنه حوالي خمسة أرطال، وتم نقله بكل عناية لمسافة ألف ميل داخل إحدى حقائب عمشة.

وبدأ سالم يقدم لنا وصفًا تفصيليًا ودقيقًا للحج ولما رآه من أشياء عجيبة، والشعائر الدينية المختلفة التي أداها، وكانت هذه هي زيارته الأولى لمكة، ومن الواضح أنه تأثر تأثرًا عميقًا عند زيارتها، فراح يصف لنا عجائبها في نوع من النشوة الآسرة. وأدركنا من ثنايا قصته التي أخذ يرويها بكل بساطة وجدية، مدى التحول الذي اعترى وجدانه هو وزوجته بزيارة بيت الله على الأرض، وغفران ذنوبهما الذي تحقق لهما فوق جبل عرفات.



تناول الشاي بعد الظهر في دار الضيافة التابعة لشركة النفط في الأحمدي. ويبدو في الصورة من اليسار إلى اليمين: ل. ث. جوردان المدير العام للشركة. سمو حاكم الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح. والشيخ علي بن ثاني حاكم قطر. والمؤلف الكولونيل ديكسون



الشيخ عبدالله المبارك الصباح في مجلسه يحكم في إحدى القضايا



الشيخ مبارك الحمد الصباح حفيد الشيخ الكبير مبارك الصباح



في حفل تنصيب صاحب السموّ الشيخ عبدالله السالم الصباح

وتمتد الأراضي المقدسة على مساحة واسعة حول مكة، وهناك علامات للحدود تمتد حتى مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، تحدد موقع هذه الأراضي، وعندما وصل سالم إلى الحدود الشرقية وضربت المجموعة المرافقة له خيامها، اغتسلوا وتطهروا وارتدوا ملابس الإحرام، وهى بيضاء اللون بالنسبة للرجال خضراء داكنة بالنسبة للنساء، وظلوا يرتدونها حتى يوم التضحية الكبير، وهو العاشر من ذي الحجة. وقبل مواصلة السير إلى مكة قص الرجال سوالف شعرهم عن جانبي الوجه، وخصلة من منتصف الرأس فوق الجبهة، أما النساء فأزلن البوصتين الأخيرتين فحسب من شعرهن، ومنذ اليوم الأول من ذي الحجة، وحتى اليوم العاشر منه، يحرم قص الشعر أو إزالة الأظفار بالنسبة للجنسين.

ووصلوا إلى مكة سيرًا على الأقدام، وهم حفاة، والرجال حاسرو الرؤوس قبل اليوم المعهود بستة أيام، وفى هذه الأثناء طافوا حول الكعبة سبع مرات، ثم قبلوا الحجر الأسود وزاروا مقام إبراهيم وغيره من الأنبياء وشربوا من ماء زمزم، وعندما يصل الحجاج مبكرًا مثلما فعل سالم وعائلته يمكنهم إذا أرادوا أن يؤدوا هذه الشعائر عدة مرات، فلكل خطوة في هذا السبيل ثوابها.

أما أكثر شعائر الحج أهمية، والتي تستحق المثوبة قبل أي شيء آخر، فهي الإدلاء بالشهادتين فوق جبل عرفات. أما إذا لم يتمكن الحاج من ذلك، ومهما كانت الأسباب، فيصبح الحج كله باطلاً، ولا قيمة له، حتى ولو أدى الحاج كل الشعائر الأخرى المفروضة عليه، فالوقوف بعرفة والإدلاء بالشهادتين هما جوهر الحج ولابد من أدائها مع الجموع المحتشدة في اليوم التاسع من ذي الحجة وهو آخر أيام السنة العربية.

وفى الصباح الباكر لذلك اليوم، حملت مجموعتنا الصغيرة جمالها بما معها من خيام وطعام، وغيرها من الأغراض ويممت وجهها شطر جبل عرفاتٍ، وهو تل مخروطي غير مرتفع من الجرانيت على بعد حوالي ثمانية عشر ميلاً من مكة على طريق الطائف، ووصلت إليه مرورًا بقرية منى. وفوق جبل عرفات، ومنذ الظهيرة حتى غروب الشمس، وبين مئات الآلاف من الحجاج والجميع في ثبات الإحرام، يدلى الجميع بالشهادة، ويرددون "لبيك اللهم لبيك"، ويشتركون جميعًا في أداء الصلاة وغيرها من الشعائر.

وما أن غربت الشمس حتى بدأت الهرولة نحو مني، على بعد ثمانية أميال على طريق العودة إلى مكة، حيث يتعين على الحاج أن يمكث لمدة ثلاثة أيام، وبالقرب من منى يقع مكان رمي الجمرات، ويشتمل على ثلاثة أعمدة يحيط بها جدار منخفض تعرف بالشيطان الكبير والجمرات الوسطى والشيطان الصغير، وفي صباح اليوم الأول رجموا الشيطان الكبير بسبع قطع من الحجار، ونفس الشيء في اليوم الثاني مع الجمرات الوسطى، ليتكرر ذلك من جديد في اليوم الثالث مع الشيطان الصغير.

ورغم أنه من المفروض أن يقوم الحاج برمي الجمرات كل صباح طوال إقامته في منى، إلا أن شعائر الحج تنتهي رسميًا في أول هذه الأيام، العاشر من ذي الحجة، ويعرف هذا اليوم بعيد الأضحى أو عيد الضحية، وبعد رجم الشيطان الكبير بالجمرات قام سالم بأداء ما يسمى بالتضحية الكبرى بنحر خروف، في نهاية الأيام الثلاثة، في بطحاء منى. ثم ارتدوا جميعًا ملابسهم العادية وعادوا إلى مكة حيث أزال الرجال شعر رؤوسهم، وقامت عمشة ومنيرة يقص قدر ضئيل من شعرهن. وقضت المجموعة أربعة أيام أخرى في مكة، قامت أثناءها بزيارة الأماكن المقدسة، وفي اليوم الخامس خرجوا ووجهتهم الكويت، وتطلب الأمر كله ثلاثين يومًا كاملة من السير الشاق للوصول إلى مخيمهم الحالي عند رجم الجهطان.

وكنا قد أحضرنا معنا من الكويت حملين ممتلئين إلى جانب اللوازم الأخرى مثل البن والأرز والدقيق والزبيب والنخي، وهو الحمص المجفف. وفي تلك الليلة، قدمنا للحجاج أول وجبة طعام حقيقية يتناولونها منذ عدة أيام. وكانت وجبة رائعة حقًا تناولوها بجوار نار المخيم، وأحس الجميع بالشبع والسعادة.

وحكى لنا سالم أسطورة نخلة الدوم التي تنمو في البساتين المنتشرة في مكان يسمى مران، على بعد خمسة عشر ميلاً شمال شرق المدينة المكرمة، وهذه النخلة من فصيلة النخيل ذات الأفرع واسمها العلمي "هايفاين ريثياكيو"، والثمرة داكنة السواد، ويبلغ حجمها حجم ثمرة الكمثرى الصغيرة، وبلغ طول إحدى العينات التي أعطتها عمشة لزوجتي خمسة وستين ملليمتر، وعرضه أربعة

وخمسين ملليمتر، والثمرة لا بذور لها، ولكنها شديدة الصلابة، ويكسوها غلاف جلدى ولا طعم لها، ولذلك أطلق عليها العرب تسمية الدوم، وتعنى الحجر.

وقال سالم أن هذه الأسطورة ترجع إلى أيام رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ فقد حدث أن كان النبي على سفر مع بعض مرافقيه على الطريق إلى مكة، وعندما وصلوا إلى مشارف مران كان الإرهاق قد استبد بهم ونال منهم القيظ فتوقفوا للراحة في واحة من النخيل، تحمل كلها ثمار جميلة من التمر، وكان مالك هذه النخيل منهمكاً في رفع الماء من بئر ليروى بستانه. واقترب النبي منه وسأله عما إذا كان في استطاعته أن يعطى بعض التمر للمسافرين المرهقين ليقتاتوا به أثناء الطريق، وهو نوع من الكرم المألوف بين البدو في مثل هذه الأحوال.

ولكن الرجل أجاب في صلف وغطرسة:

أغرب عن وجهي أيها المتسول، ليس لدىّ أي تمر. أن هذا الذي تراه على الأشجار حجارة وليس تمرًا.

ومنذ ذلك الوقت، كما يقول سالم، لم تعد كل النخيل في تلك الواحة تثمر تمرًا وإنما تثمر دومًا. وعندما يمر بها الحجاج في رحلة العودة من مكة إلى ديارهم، يأخذون بعضًا منها ويحضرونها معهم لتقديمها كنوع من الهدايا، كدليل على صدق كلمة رسول الله محمد بن عبدالله.

وعندما واصلنا السير في حوالي الساعة التاسعة والنصف كان الجو باردًا وبدأت السحب الكثيفة تتراكم، بينما يصم آذاننا هزيم الرعد، ويخطف أبصارنا وميض البرق. □وكانت معنا خيمتنا الصغيرة ذات الطراز الخاص، والتي أحضرناها لمواجهة الليالي العاصفة وأمر سالم بوضع الحملين وراء خيمته لحمايتها. ولما كانت الذئاب تتجول في البادية في مثل تلك الليالي، فقد حذر الرعاة وطلب منهم إشعال النيران طوال الساعات التي يسود فيها الظلام.

وكانت لمخاوف سالم ما يبررها، ففي حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، هاجم ذئبان كبيران، كان من الواضح من تكوينهما الجسماني أنهما ذكر وأنثى، الخراف وخطفا كبشًا كبيرًا تحت ستار الظلام الدامس والأمطار الغزيرة، وبالرغم من النباح الشديد لكلاب الحراسة، ولّى الذئبان الأدبار بصيدهما الثمين، وفى الصباح الباكر عثرنا على البقايا بعد أن التهما الكبش تمامًا، ولم يتركا منه إلا الجلد والعظم، وكان ذلك على بعد ثلاثمائة ياردة فحسب من الخيام.

وكان من السهل تصور ما حدث، فقد تصدى كلب الحراسة بكل شجاعة ومقدرة، ولكن الذئب الذكر تولى مشاغلته وإبعاده حتى أكلت الأنثى، ثم تبادلا الأدوار، وفي لجة الظلام والمطر الغزير لم يتمكن سالم والآخرون من عمل أي شيء لإنقاذ الكبش.

وعدنا إلى الكويت ونحن نشعر بشيء من الحزن، أما أسرة سالم التي جاءت في أثرنا بعد يومين، فلم يبد عليهما أي انزعاج، بل وكانوا سعداء بالعودة إلى ديارهم ولقاء أصدقائهم من جديد.

وقبل أن نغادر رجم الجهطان، أسرت عمشة لنا بأنها قررت أن تقنع سالمًا باتخاذ زوجة جديدة أملاً في أن تنجب له وليدًا ذكرًا، بعد أن فشلت عمشة طوال عدة سنوات من الزواج أن تنجب له غلامًا، وجاءها في المنام أثناء وجودها على جبل عرفات أن تتصرف على هذا النحو، وتزوج سالم بالفعل من فتاة من العوازم، أنجبت له اثنين من الذكور، وعمشة سعيدة الآن وتعاملهما كما لو كانت أمهما الأصلية.

وثمة شيء آخر يمكنني أن أسجله هنا، فعندما خرج سالم متوجهًا إلى مكة من أبرق خيطان، وهي المنطقة التي يضرب بها مخيمه دائمًا خارج الكويت مباشرة، خلف وراءه اثنين من أشد كلاب الحراسة روعة، ذكرًا وأنثى، ليتوليا حماية قطيعه، وكان كلاهما أسود اللون ويجيدان مطاردة الذئاب وغيرها من الواجبات. وبعد أربعة أيام من مغادرة سالم للكويت استيقظ ذات صباح ليجد كلبته السوداء تهز ذيلها وتبتسم له، بعد أن أحست بشكل ما أن سيدها سيخرج في رحلة طويلة فسارت في إثره، ربما بغريزتها، واندهش سالم لذلك، فقرر أن يأخذها معه في رحلة الألف ميل، فلم يعد الوقت يسمح بإعادتها، وظلت الكلبة ملازمة لسيدها ولسيدتها إلى أن وصلت إلى مشارف الأرض المقدسة حول مكة، ونظرًا لاستحالة دخولها هذه الأماكن طلب سالم من جماعة من البدو تنزل بمخيمهم لها بالقرب من مكة على جانب الطريق أن يتولوا رعايتها لمدة اثنتا عشرة يومًا. ووافقوا ثم ربطوها بحبل متين من الجلد لمنعها من السير في إثره.

وعند العودة من مكة، طلب سالم الكلبة فقيل له إنها لم تكف عن النباح طيلة غيابه، وبلغ بها الضمور مبلغه، وأنها حلت وثاقها واختفت بين الأحراش، ولم يكن سالم ليستطيع إرجاء رحلته، ولذلك فبعد يوم واحد من

البحث والسؤال، مضى في طريقه من جديد. وعندما وصلوا إلى رجم الجهطان، ظهر الكلب الآخر الذي خلفوه وراءهم وهو كسير القلب لعدم وجود أنثاه معهم، ولابد أنه عرف أنها ذهبت مع سالم فظل ينتظرها صابرًا لمدة ثلاثة أشهر حتى يرحب بها عند عودتها إلى ديارها، وبعد يومين من التحريات المكثفة وعدم الوصول إلى أي بوادر مبشرة. بدا وكأن الكلب يتفهم الموقف، فلم يكف عن النباح ثلاث ليال متوالية، ثم رقد وأسلم الروح وهو ممزق القلب.

وكان تعليق سالم: أن الحيوان مثلنا نحن البشر، وهى تحب إناثها، والحمد لله خالق كل شيء.

قطع الرباط: بقلم فيوليت ديكسون

في شتاء ١٩٤٤ وربيع ١٩٤٥ كنا نقيم في المنطقة الزاخرة بشجيرات الحمض بجوار الشق مباشرة، على بعد حوالي الستين ميلاً من الكويت. وأمضيت في هذا المكان عدة أيام في أواخر فبراير، بينما ظل زوجي بالمنزل. وكان هناك في نفس المنطقة عدة عائلات من آل مرة، بالإضافة إلى مرشدنا سالم المزين وأسرته. وعدد من العوازم وعدوان والدياحين وكلهم من مطير.

كان قصادنا (نزلاء الخيام المجاورة) هم صالح المرى وزوجته قمزة وابنه محمد. وكان صالح وهو من أقارب آل الصعق Sa'ag شيخ آل البهية من مرة، يعمل كرئيس للمرشدين لدى الشيخ عبدالله المبارك الصباح. وفى منتصف يناير، وضعت قمزة أثناء إقامتها بالمخيم مولودًا ذكرًا، ولكنها عانت الكثير، وساءت حالتها حتى اضطر صالح للاستئذان لأخذها بعيدًا عن المخيم حتى تسترد صحتها وتستطيع العناية بأغنامه وجماله، كما أحضرنا لها بعض الدواء من دكتورة مس كروز، إلى جانب القليل من الأرز نظرًا لعدم قدرتها على تناول القمح أو الشعير واللذين كانا هما وحدهما المادتين المسموح بالحصول عليهما ببطاقة التموين.

وأثناء ليلتنا الأولى بالمخيم، أيقظتني أصوات رجال يتحدثون على مقربة منا، تعرفت من بينها على صوت سالم المزين الذي كان يتحدث مع شخص آخر ليس بعيد عن خيمتنا، ولم أكد أعرف بأي حال في أي ساعة من اليوم نحن، ولكنى لم أنزعج لذلك، وكل ما فعلته هو أنى عدت إلى النوم من جديد، وفى

الصباح التالي، توجهت لتناول القهوة مع سالم، فحدثني عن ذلك الشخص الغريب الذي وصل في المساء.

كان سالم يرقد في خيمته عندما سمع كلب الحراسة ينبح بشدة وضراوة، فخرج ليستطلع ما في الأمر، لأنه رغم عدم وجود الذئاب في تلك المنطقة إلا أنه من المحتمل أن يكون أحدها يحوم متعقبًا لإحدى الأغنام، وسمع صوت جمل وراكبه يحاول إناخته، ثم رأى في ضوء القمر بدويًا يترجل أمام خيمتي، فذهب إليه ودعاه للدخول إلى خيمته، وقدم له القهوة، ثم بعضًا من التمر واللبن، واستراح الغريب بضع ساعات، ثم واصل طريقه متجهًا إلى الكويت.

وكانت معه غرارات مليئة بالكمأ (الفقع) ينوى بيعها في المدينة، وراح يحث الخطى عندما سمع بارتفاع ثمنها في اليوم السابق، وكان كل ذلك من الأمور المعتادة.

ولكن بينما نحن نتحدث حول هذه المسألة، أقبل سالم المرى من خيمته الصغيرة وانضم إلينا ونحن نجلس حول موقد القهوة، وبعد أن تناولنا أقداحًا منها، أخذته إلى حيث أناخ الجمل خارج خيمتي وسألته عن لون هذا الجمل، فأجاب دون تردد:

إنه ذكر، صغير السن، أصفر اللون.

ثم جرى إلى حيث أناخ أمام خيمة سالم وردد عدة مرات يحدث نفسه:

ذكر، صغير السن، أصفر اللون.

وسألته: ومن الراكب؟

ولكن عديدًا من الناس كانوا قد ساروا أمام الخيمة منذ الصباح فتعذر التوصل إلى آثار أقدام الغريب، وهمس سالم في أذني، في محاولة لمداعبة صالح، يقول:

والله لقد كان الجمل أصفر اللون وذكرًا صغير السن حقًّا، لأني رأيته بوضوح في ضوء القمر، ولكنى سأخبر صالح المرى أنه أخطأ وأن الجمل كان أنثى، ولونها بنى داكن.

وقلت له: لا، لا تفعل، هذا ظلم.

ثم قلت لصالح، أنت على حق يا صالح، وأكد سالم قولي.

وفي اليوم التالي خرجت مع سالم في جولة لجمع الكمأ، وكانت ترافقنا العمشتان، عمشة زوجة سالم وعمشة ابنة أخيه، وشاب يدعى حمود كان يتولى أمر جمال سالم في ذلك الوقت، كما أخذنا معنا حمارًا لحمل طعامنا من اللبن والتمر والشاي والبن، والخبز.

وبعد أن سرنا لمدة تناهز الثلاث ساعات، وصلنا إلى منخفض جميل تتكاثر به شجيرات الحمض، وتنمو فيه الزهور البرية إلى ارتفاع قدمين تقريبًا، وتوقفنا وأشعلنا نارين، إحداهما للنساء والأخرى للرجال، وتناولنا طعامنا، وقمنا بشواء بعض الكمأ في رماد النار، كما نفعل مع البطاطس في منزلنا، ثم غمسناها في الملح وأكلناها.

وسرعان ما اكتشف صالح وجود آثار على الرمال تؤكد وجود حيوان، فنادى عليّ ليقول أن هناك أرنبًا بريًا في مكان ما على مسافة غير بعيدة عنا.

وقال: ولكنى لا أستطيع اقتفاء أثار لأقدامه، فالأرض رميلة وهناك الكثير من العشب.

وبعد الغداء، قمت بجولة أخرى في هذا الموقع فعثرت على ثلاثة أرانب صغيرة تنام تحت شجيرة صغيرة، ولم أخبر صالح بوجودها، وواصلت جولتي لأنني لم أشأ أن يمسك بها، وبينما كنت أجمع بعض الزهور على مسافة غير بعيدة، من الأرانب الصغيرة، اندفع أرنب رمادي كبير الحجم هارب من داخل أحراش الحمض، وعندما عدت إلى جماعتنا الصغيرة أخبرت صالح بما رأيت فقال لي أن الأم لا تقبع بجوار صغارها طوال النهار، ولكنها تعود إليها كل مساء.

وقال: لا شك أن تلك كانت صغارها، ولو إني رأيتها لنصبت شراكي وأمسكت بها الليلة عند عودتها إليها.

وقلت ونحن على طريق العودة أنني أريد البحث عن وكر لطائر الحباري، وأريد الحصول على عدد من بيضه، فرد سالم بأنه يعرف كيف يعد فخًا للإمساك بالحباري، ومن الواضح أن هذا الطائر يترك آثارًا لقدميه على الأرض عندما يتوجه إلى وكره، وأن صغاره تغادر الوكر عن طريق آخر بعد خروجها من البيض، وأنه من السهل جدًا الإمساك بهذه الصغار نظرًا لقيام هذا الطائر ببناء مصطبة صغيرة من الطمي والعصي يبلغ ارتفاعها حوالي الخمس

بوصات تحيط بالبعض من ثلاثة جوانب، بحيث يكون الخروج من الوكر أو الخروج منه من خلال الضلع الرابع، والفخ، الذي يشبه فخ الفئران المعروف، لا يغطى بالطين وإنما بقطعة قذرة من القماش لحماية سيقان الطائر من الكسر، وقال صالح أن أنثى هذا الطائر تظهر في بعض الأحيان وهى تحوم حول شجيرة غير بعيد عن الوكر، ويمكن اصطيادها بنفس الأسلوب، ولسوء الحظ لم نعثر على أي أثر للحباري تلك المرة.

وفى أول مارس، جاء أبو سعود، وهو الاسم الذي يطلقه البدو على زوجي، إلى المخيم، وكان هذا هو اليوم الأربعين بعد ميلاد الابن الثاني لصالح المرى، الذي جاء إلى خيمتنا بعد الغداء وجلس بجوار النار، وأخذ يحيطنا علمًا، في نبرة شبه رسمية، بأن هناك عادة دينية لآل مرة تقضى بأن يربطوا حول الرسغ الأيمن للطفل عند مولده قطعة من الحبل، يلتفت طرفه الآخر بإحكام حول قطعة من المرّ*، ولا يقطع هذا الحبل إلا في اليوم الأربعين بعد ميلاد الطفل، وأضاف صالح قائلا: ولكن هذه العملية لا يقوم بها إلا رجل شجاع، كريم، حسن السيرة والسمعة.

وقال إنه يود أن يكون أبو سعود هو هذا الرجل، ورغم وجود العديد من الرجال الذين تتوافر فيهم هذه الصفة، إلا أنه هو وزوجته قمزة، يريان أنه ليس هناك من هو أفضل من أبو سعود.

ووافق زوجي بكل سرور، فتوجه، وأنا معه، إلى خيمة صالح الصغيرة، كان الطفل نائمًا في مهده الهزاز من الجلد (مزبه) Mizbah ملفوفًا في إحكام في قطعة من نسيج ناعم، مثبتة بواسطة خيط سميك متين من الصوف، وعندما جلسنا أخرجته أمه من مهده، وخففت من إحكام الخيط حتى تمكنت من سحب ذراعه الأيمن الرقيق. وأتى صالح بمقص صغير من النوع المستخدم لتقليم الأظافر ناوله لزوجي ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم.

---

* المر: من الأدوية الشعبية، يؤخذ لعلاج بعض الأمراض الباطنية وخاصة الغازات المعوية.

وقطع زوجي الخيط، بينما هو يدعو للطفل بطول البقاء والحظ السعيد، معبرًا عن أمله في أن يصبح مقاتلاً صلدًا مثل أبيه، وكان من الواضح أن مسلك زوجي أسعد الأب والأم كل سعادة.

وقال صالح: لقد أطلقنا عليه اسم دكسان، وكل آل مرة يعرفون ذلك الآن، لأني أنبأت الجميع بذلك منذ وقت طويل.

ولم تبد قمزة اعتراض ولكنا عرفنا فيما بعد أنها كانت تود أن يكون اسمه سالم.

وقال زوجي: سوف يطلق عليه اسم سالم دكسان، فأعجب هذا الحل الجميع وأرضاهم.

وقال صالح: والآن يجب أن أعثر على شاة سنها ستة أشهر وعشرة أيام، وأن أنحرها كنوع من الشكر لله لمولد ابننا، وإن شاء الله سأتمكن من الحصول عليها يوم الجمعة القادم، وسوف أدعوكم للحضور ومشاركتنا الاحتفال.

وقلت له: وعليّ أنا تدبير الأرز اللازم.

وسوف آتى لك في الأسبوع القادم بخمسة وعشرين رطلاً لتغطية ما يلزم من المأدبة.

ابنة قمزة: بقلم فيوليت ديكسون

كنا في حوالي منتصف نوفمبر ١٩٤٧ عندما وضعت قمزة مولودة أنثى، رأيتها في اليوم التالي للولادة، وكانت جميلة مستديرة الوجه، وقالت قمزة: أطلقنا عليها اسمك: فهي تسمى خاتون.

وخاتون يعنى السيدة، وهم يطلقون عليّ هذا الاسم عادة.

وفى ٩ من نوفمبر من العام التالي كتبت عن خاتون ما يلي:

وهى الآن على وشك إكمال الشهر الثالث من عمرها، باسمة محببة للنفس مثل سائر الأطفال في سنها، وقد لفوها في إحكام في ملابسها الفضفاضة لتنام في أمان في (المزبة) مهدها التي تتدلى من كتف أمها.

ورغم شدة البرودة في ذلك اليوم، كانت الطفلة تنعم بالدفء، وملابسها جافة بقدر المستطاع، وأطلعتني قمزة على السر، كان الإناء النحاسي الكبير

المخصص لحرق روث الناقة (أنثى الجمل) (الجلة) لإعداد القهوة مليئًا ببعض الوقود المتقد، فقامت الأم بفك الأربطة التي تلتف حول مهاد خاتون وأخرجتها من بينها وتركتها لتلعب لفترة قصيرة في حجرها. وعندما شعرت الطفلة بالبرودة، حملتها أمها واقتربت بها من النار، حيث كان القمح يحمص لإعداد العشاء للأم والطفلة، ومدت قطعة جافة من القماش، ثم تناولت ملء قبضتها مرتين من الروث (الجلة) فوضعته في وسط قطعة القماش، ثم وضعت الطفلة نفسها فوق هذه القطعة الجافة، ونثرت الروث الجاف على كل جسدها وساقيها، ثم ضمت كلتا يداها على صدرها، مع امتداد ساقيها بكامل حريتهما، ثم لفتها بقطعة أخرى من القماش، وأحكم ربطها بخيط طويل من رأسها حتى أطراف أصابع قدميها، ثم أعطوها مشروبًا تناولته وهى تبتسم مستمتعة بالدفء قبل أن توضع في المهد لتنام من جديد.

وشرحت لي قمزة كيف أن لروث الناقة البيضاء رائحة ذكية جدًا، وأن ابنتها تبدو دائمًا جميلة ونظيفة نتيجة لتعريض المهاد للأبخرة المتصاعدة من المر (الصمغ) عندما يحترق.

وقالت: أنظري كيف أصبحت ساقاها غضتين ممتلئتين، وكيف امتلأ جسمها، أن كل هذا يرجع إلى حرصي على أن تنعم بالدفء على الدوام، وأنا أغير ملابسها كل صباح ومساء. وانظري إلى ابن سالم المزين، إنه هزيل ويرتعش من البرد وساقاه باردتانٍ، وتقول أمه إنها من أهل المدينة ولا تكف عن غسل ملابسه ولذلك يظل مبتلا ويعانى من برودة الجو.

ولا جدال في أن هؤلاء النساء من آل مرة يعرفن كيف تكون الرعاية الحقة لأطفالهن، وعندما تبلغ خاتون الشهر الرابع من عمرها فسوف تضع لها قلادة مستديرة تزينها أعشاب طيبة الرائحة، سوف تلفها دون إحكام، حول رقبتها، يقلن إنها تدرأ المرض.

مركب Markab إسماعيل:

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية تولى إدارة عمليات شركة نفط الكويت مدير عام أمريكي الجنسية يعاونه طاقم كبير من الموظفين الإنجليز والأمريكيين، وفى عام ١٩٤٥ استؤنف حفر الآبار من جديد.

وفي هذه الأثناء كنا أنا وزوجتي نقضي إجازة قصيرة في شتورة، وهي بلدة صغيرة في لبنان، على الطريق إلى دمشق في سهل البقاع. وكان شهر نوفمبر السابق قد شهد تمردًا في دمشق، وقصف الفرنسيون بقنابل مدفعيتهم المتمركزة في معسكراتهم على التلال القريبة من الصالحية. ولكن الهدوء عاد الآن، واكتمل لتوه الجلاء النهائي لجميع القوات الفرنسية من سوريا، وكانت الفرقة المصفحة الهندية رقم ٣١ تعسكر بكاملها بالقرب من المدينة، وأصبح البريطانيون يعاملون كأصدقاء للجميع، وكان ابننا سعود مجندًا في كتيبة هودسون للفرسان، والتي تشكل أحد أقسام الفرقة الهندية المذكورة، ولذلك أتيحت لنا الفرصة لنلتقي به في دمشق.

وكان اللفتنانت كولونيل سيترلنج، الذي عاد لتوه من إجازة في لندن، يقيم في دمشق ويتولى إدارة منطقة البادية، والتقينا به مصادفة عندما جاء إلى فندقنا في شتورة ذات صباح، فحادثناه في رغبتنا منذ أمد بعيد في زيارة مركب إسماعيل أو سفينة إسماعيل، وهو من الرولة، من عنزة، وكان الأمير فواز بن نوري الشعلان، شيخ الرولة الشهير الذي ينزل في الصحراء السورية بالقرب من دمشق، قد عاد منذ قريب من رحلة استمرت ثلاثة أشهر للولايات المتحدة وإنجلترا، والتقى به الكولونيل ستيرلنج في لندن منذ بضعة أسابيع مضت، ودعاه للغداء في فندق سافوي، وقال أن زيارة منه للأمير في مخيمه الصيفي على بعد حوالي العشرين ميلاً شمال شرق دمشق يمكن أن تسوى الأمر كله.

والمركب هودج ضخم من القش له شكله الخاص، ويخصص للنساء ويتكون من إطار خشبي خفيف يصنع من أفرع شجرة الرمان ويغطى بريش النعام، ويطلق عليه اسم مركب إسماعيل تخليدًا للراعي الأول إسماعيل بن إبراهيم من زوجته المصرية هاجر، ويقال أن إسماعيل هو الذي أقام المركب الأصلي. ولاشك أنه يرجع إلى تاريخ سحيق، قد لا يقل عن ألف ومائتي عام. وكلما زال ريش النعام أو تحطم الإطار الخشبي، استبدلها الرولة بغيرها، ليبقوا على المظهر الجيد للمركب.

وعندما تخرج عنزة للقتال، تركب ابنة الشيخ مطيتها وتنتقل إلى داخل المركب، ثم تتقدم لتتوسط القوة التي ستخرج للقتال، لتحث المحاربين على الأقدام والصمود والشجاعة. ويقال إنه عندما يندلع القتال، تقيد حركة البعير

الذي يحمل المركب بسلسلة من الحديد لمنعه من التقهقر، وأما إذا دارت الدوائر على عنزة، فلا يُسمح بالتقهقر إلا إلى حيث يكون المركب، حيث يتعين أن يحتشدوا جميعًا ليقاتلوا حتى الموت دفاعًا عنه وعن السيدة التي تجلس داخله.

وأخبرني الشيخ أحمد ذات يوم أن ابن سعود استخدم هودجًا مماثلاً في معركة جراب في يناير ١٩١٥ كما استخدمه أيضًا الشيخ مبارك شيخ الكويت، في ديسمبر ١٩٠١ عندما كان ابن الرشيد يهدد بمهاجمة الجهرة، بتواطؤ من الأتراك، حيث وضعت ابنة لمبارك كانت من أجمل نساء آل صباح، داخله وشعرها يتطاير في الهواء، ووجهها بلا حجاب، ولو لم ينسحب ابن الرشيد لتجمعت القوة الكويتية عن بكرة أبيها من حولها.

ومهما يكن من أمر، فليس هناك شك بأن هذين الهودجين كانا من الهوادج القبلية المزينين بالنقوش الجميلة وكان ينبغي أن يسمى بالمكسر وهو الشائع الذي تستخدمه نساء قبائل مطير وعجمان وحرب والظفير، وفي عام ١٩٣٤ أخبرني الشيخ خالد الحثيلين (زب سحمان)، أن عجمان مازالت تستخدم هذه المركب عند الخروج إلى الحرب، ويضعون فيها أجمل نسائهم غير محجبات حتى يشعر المتقاعسون والمترددون بالخجل فيندفعون إلى الصفوف الأولى للمعركة، ولكنهم يطلقون عليها تسمية المقعد، وفي حدود علمي فالرولة هم القبيلة الوحيدة التي تستخدم المركب الحقيقي كرمز أو راية للقبيلة، ومن المؤكد أن هذه العادة ترجع إلى أقدم العصور.

وبعد عدة أيام، أقبل الكولونيل ستيرلنج لزيارتنا مرة أخرى، بعد أن التقى بالأمير فواز الذي كان يستعد لإقامة مأدبة في خيمته عند مغيب الشمس يوم الأحد، ودعانا لحضورها. وفي حوالي الساعة السادسة والربع من يوم الأحد ١٦ سبتمبر وصلنا أنا وزوجتي وابننا إلى منزل الكولونيل سيترلنج وزوجته، والتقينا عنده بعدد آخر من المدعوين منهم مستر تريفور إيفانز، القنصل البريطاني العام بالإنابة وزوجته، والقائد العام للقوات البريطانية، والكولونيل مورجان من إدارة المخابرات، وأربعة من الضباط.

وتوجهنا جميعًا بالسيارات على طريق بغداد الرئيسي إلى أن اقتربنا من عنزه، فتحولنا إلى درب انتهى بنا بعد نصف ميل أو حوالي ذلك إلى خيمة الأمير مباشرة، والتي كانت أضواء المصابيح الكهربائية تشع منها بشدة عند

مغيب الشمس حتى حجبت الخيام السوداء المحيطة بها من الرؤية. وكان محرك المولد الصغير الذي ينطلق منه التيار الكهربائي يربض في مبنى إلى يميننا. وكانت هناك سيارات عديدة، بالإضافة إلى خمس عشرة حافلة لنقل الركاب قد وصلت قبلنا ووقفت بالقرب من الخيمة الكبيرة.

وكانت الخيمة التي تطل واجهتها الطويلة صوب الجنوب تستند إلى إحدى عشر عامودًا مركزيًا، وتنقسم عند العامود الخامس من ناحية جانبها الشرقي إلى قسمين بواسطة قاطع جميلة النقوش، يبلغ طولها اثنتى عشر قدمًا، وتصل إلى قمة الخيمة ثم وتمتد خارجها من الأمام لمسافة تبلغ حوالي عشر ياردات. وكانت هناك سجاجيد جميلة مدت على أرضية الجناح الغربي، ورصت به الوسائد والحشيات لجلوس الضيوف، وفى حدود معلوماتي يمكنني أن أقول أن الجناح الشرقي كان مخصصًا لنساء الأمير.

وأثناء سيرنا لنتخذ مجلسنا من الطرف الشرقي من الجناح الغربي، كان هناك مركب أمام القاطع الكبيرة التي تقسم الخيمة، وكان شيئًا مثيرًا حقًا ويحيط به عدد من العبيد السود لحراسته عن يمينه وعن يساره. وكان طوله حوالي خمسة عشر قدمًا، بينما يبلغ ارتفاعه حوالي تسعة أقدام، وكان في حالة رائعة، وبداخله تسعة عناقيد بنية وسوداء اللون من ريش النعام تتدلى من القمة وتتماوج مع نسمات الليل الرقيقة. وكانت الجوانب كلها تكتسي بمجموعات صغيرة من ريش النعام الرمادي الداكن المثبتة على الإطار الخشبي الذي ترتكز عليه الخيمة.

وعندما اتخذنا مجلسنا على الحشيات التي استخدم الزُنْبرك المعدني في صناعتها، وكان موقعها أمام المركب، تجمع البدو بالقرب من الجوانب الثلاثة المفتوحة ليشكلوا جدارًا حيًا صامتًا، ولم يكن يصدر عنهم أي صوت ولو بكلمة واحدة، بل وتوقفوا جميعًا في هدوء مطبق يرقبون ما يجرى، ومن المؤكد أن عددهم ما كان ليصل إلى الخمسمائة رجل بأي حال.

وكان هناك عبدان يحمل كل منهما بندقية ويرتدى الجوخ - وهو الثوب الخارجي الفضفاض الطويل قرمزي اللون - والموشى بخيوط الذهب الذي يشيع استخدامه في نجد، يقفان في منتصف الخيمة في مواجهتنا لأي أوامر، وجاء أبناء الأمير الصغار وأعتقد أن أسماؤهم كانت محمد ومتعب وسلطان، فجلسوا بيننا، وكان متعب، وهو في الثانية عشرة من عمره، يجيد الحديث بالإنجليزية، فأخذ

يحكى لنا القصص عن حياته في الصحراء..الخ. وكان يحمل في جيبه قلم حبر أحضره أبوه معه عند عودته من أمريكا، ولكنه لم يتمكن من استخدامه لعدم وجود المداد، ووعدته مسز إيفانز بأن ترسل إليه زجاجة، وأرجو ألا تنسى وعدها.

مضيـــف مثــالي:

والأمير فواز مضيف مثالي لا يكف عن التنقل بين ضيوفه متحدثًا بالعربية والفرنسية أو اعتمادًا على كاتبه للترجمة.

وكانت الإشارة التي تعنى إحضار الطعام هي بسط المفرش الطويل الأسود اللامع على الأرض على امتداد الخيمة كلها، ثم يعقب ذلك حركة أخرى بين البدو المتجمعين عند الطرف الأقصى فيعنى ذلك دخول الطعام إلى مكان تناوله. ثم دخل عدد من العبيد يحملون خمس صواني كبيرة تئن تحت ما تحمله من لحم وأرز، يبلغ عرض اثنين منها على الأقل ستة أقدام، ويضعونها من وقتٍ لآخر في وسط المفرش الأسود الممتد على الأرض، وكانت الصواني من النوع البدوي المعتاد المعروف باسم أبو كرسي، وهو صينية نحاسية مستديرة ضخمة مطلية بلون الفضة، ولها قاعدة معدنية يبلغ ارتفاعها ثمانية عشر بوصة، وتحمل بواسطة مقابض على الجانبين، ثم رصت حول كل صينية عدة صحون صغيرة وأرغفة من الخبز الرقيق.

وقال مضيفنا: سَمُّوا،

وتلبية لندائه، بدأ تناول الطعام، فوقفنا جميعًا ثم جلسنا، وقدمت لكل ضيف أوروبي صينية فارغة، وسكين وشوكة وملعقة، ووضعت منشفة بيضاء جديدة من التيل على ركبة كل ضيف، وكان هناك على قمة تل الأرز الذي يرتفع في كل صينية، كومة من اللحوم المجزأة إلى قطع صغيرة، وخمسة من رؤوس الخراف، وإذا كان عدد رؤوس الخراف يعنى شيئًا، فلابد أن عدد ما تم ذبحه منها لهذه الوليمة لا يقل عن الخمسة وعشرين.

ولم تفلح جهودنا في أن تنال بشكل جدي من حجم تلك الكميات الهائلة من الأرز واللحم التي وضعت أمامنا، وكنت أجلس إلى يمين الأمير الذي لم يكن يتناول هو نفسه أي طعام، بل كان يقوم بتقديم القطع طيبة المذاق من اللحم لي

ولغيري من المدعوين، وعندما انتهينا نهضنا واقفين، وعند طرف الخيمة غسل أيديهم كل من استعملها مثلنا، في تناول الطعام، قبل أن نعود إلى أماكننا من جديد.

ثم التفت صغار الشيوخ حول الطعام، وسرعان ما نهضوا بعد أن نالوا كفايتهم منه، وانصرفوا بعد أن لم يتخلف عنهم إلى القليل على الصواني. وتوالى الجلوس إلى الطعام مرتين حتى استهلكت كل محتويات الصواني تقريبًا، ولم يتبق ولا حتى العظام، لأن العادة جرت بأن يأخذ الرجل معه قطعة أو قطعتين ليقدمها لبعض الصغار في خيمته ممن لا تسمح لهم أوضاعهم بالحضور إلى المأدبة مع والده.

وبعد أن رفعت آخر الصحون، وسحب المفرش الأسود من على الأرض كانت لا تزال هناك السجاجيد والتي بدت وكأن لها حوافًا بيضاء شكلتها حبات الأرز المتساقطة. وبسرعة رفع أربعة من العبيد هذه السجاجيد وأزالوا ما عليها من أرز خارج الخيمة مباشرة، ثم أعادوها إلى حيث كانت على الفور.

وبعد قليل، قدم القهوة عبد يحمل عددًا من فناجيل القهوة، على يده اليمنى ودلة القهوة في يده اليسرى، ثم جاءت أكواب الشاي الداكن المحلى بالسكر، وكان يصب من إبريق خاص، وبعد ذلك اقترح الكولونيل سيترلنج أن ننصرف ولكن الأمير قال:

أنتم لم تتناولوا الفاكهة بعد.

وطلب إحضار الفاكهة، فجاءوا بمنضدة طويلة منخفضة ترتفع عن الأرض لمسافة اثنتى عشر بوصة، وعليها أنواع من العنب الأبيض والأسود، والبطيخ، والشمام، والخوخ، ووضعت الصحون والسكاكين والشوك أمام الضيوف فأحطنا جميعًا بالمنضدة واستمتعنا بما تحمله. وقال الأمير إنه دفع في لندن سبعة جنيهات لشراء كمية من العنب، تقل عما تبقى على المنضدة، بعد أن أكلنا كلنا منه، وعندما انتهينا صب عبد الماء على أيدينا فوق حوض، ثم عدنا لنجلس في أماكننا، ومرة أخرى دارت فناجيل القهوة على الحاضرين.

وبعد قليل، انصرفنا، ورافقنا الأمير حتى وصلنا إلى حيث ننتظر سياراتنا، وبينما نحن على وشك التحرك، قيل لنا أنهم نسوا إلقاء الخطبة، ولذلك فلابد من أن نرجع إلى الخيمة وهكذا رجعنا جميعًا وجلسنا مرة أخرى،

ووقف أمامنا متعب الصغير وفي يده ورقة، وألقى خطبة قصيرة مهذبة، يرحب فيها بنا بالإنجليزية، ويتطلع لصداقة وطيدة مع أولئك الذين أنقذوهم من الفرنسيين.

ثم حصلت على معلومات شيقة حول ما يعلقه الرولة على المركب من أهمية، فكان محدثي هو نايف بن نوري الشعلان، أخو الأمير، وأحد العاملين الرسميين بالحكومة السعودية بالطائف، قال: إنه الوحيد من نوعه في العالم في الوقت الراهن، وتملك بعض القبائل الأخرى، مثل العمارات (من عنزة)، أنواعًا أقل حجمًا يزينونها بريش النعام ويتبعونها عند الخروج إلى القتال، ولكنها ليست مثل ما لدينا، إنها مجرد نسخ مقلدة، ولعل أكثر الأشياء لديكم شبهًا بالمركب هو أعلام فرقكم، فإذا تمكن العدو من الاستيلاء عليها، فسوف يعني ذلك القضاء على قبيلتنا إلى الأبد، ولذلك فسوف نموت جميعًا دفاعًا عنه، وإذا حدث أن استحوذ عليها أحد، وهو ما يحرمه الله، فلا يمكن صناعة مركب آخر ليحل محله في قبيلتنا.

وسألته: وفي حالة القتال ضد قبيلة أخرى، فمن هي السيدة التي تركب داخله؟

وكانت إجابته هي أن يتحتم أن تكون إحدى نساء الشعلان، إما ابنة الشيخ نفسه، أو ابنة شقيقه، أو ابنة أقرب أعضاء الأسرة من الذكور.

مصرع رجل من عجمان:

أثناء غيابنا عن الكويت وقعت حادثة في أوائل سبتمبر على مسافة غير بعيدة عن آبار جرية، كان أحد أطرافها فيصل بن عبدالعزيز الماجد الدويش الابن الأكبر لصديقتنا العظيمة فيحاء، شقيقة عمشة.

أمضى الدوشان شهور الصيف بجوار آبارهم في اللهابة بالقرب من اللصافة، واقترب موعد رحيلهم ولكنهم فضلوا البقاء في المنطقة المحيطة بالآبار إلى أن يبدأ هطول الأمطار، وقرر فيصل وكان لايزال شابًا يافعًا، أن يتوجه مع صديق عتبي إلى الإحساء لإنجاز بعض الأعمال المتعلقة بمحصول التمر الجديد.

وانطلقا على ذلولين رائعين، وبعد بضعة أيام من السفر، وصلا عند الظهيرة إلى حيث يرعى اثنان من قبيلة عجمان، ينتميان إلى قوم الشيخ عبدالله

بن جمعه، جمالهم، واتجها نحوهما ثم ترجلا، وبعد تبادل التحيّات المعتادة طلبا إناء ليحلبا فيه إحدى النوق نظرًا لإحساسهما بالعطش، وأراهما الرجلان قربة مليئة باللبن وقالا لهما إنه يمكنهما أن يشربا منها لأن النوق حلبت منذ ساعات قليلة، ولم يعد في ضروعها إلا القليل من اللبن لأبنائها الصغار، ورفض فيصل وأصر على أن يحصل على لبن طازج من إحدى النوق، وتعالت الأصوات، ولكنه أخذ بالإناء وهرع ليمسك بناقة ليحلبها بالقوة.

وخوفًا من تطور الأمر إلى ما لا تُحمد عقباه، انسل أحد العجمانيين إلى ذلول فيصل، دون أن يلحظه أحد، ونزع مؤخر البندقية المدلاة من السرج، وألقى بها بعيدًا بين الأحراش، ثم عاد مرة أخرى ليقف إلى جوار فيصل وفجأة، شرعا يتبادلان الكلمات ويتصارعان بعد أن سقطا على الأرض، كان فيصل لا يحمل أي سلاح، بينما كان العجمي مسلحًا بخنجر مقوس، ولكن قبل أن يتمكن من تجريده من غمده، أمسك فيصل به وتمكن من إصابة البدوي بجرح خطير في بطنه، ولم ينتظر ليرى مدى خطورة الجرح، بل ترك الرجل مستلقيًا على الأرض، وامتطى هو وصديقه ذلوليهما وانطلقا صوب الجنوب الشرقي.

وأسرع البدوي الآخر، بعد أن بذل قصارى جهده لإسعاف الجريح، إلى خيام بعض أبناء مطير تصادف نزولهم في مخيم لهم بالقرب من ذلك المكان، وعاد ومعه أحد الأخوة الثلاثة، وبعد فحص آثار الأقدام، انتهى إلى أن الغريب الذي هاجم العجمي وأصابه بالجرح الخطير، من الدوشان، من مطير.

ووضع الجريح على جمل، وأوصلوه إلى جرية العليا حيث أخبر الأمير بالقصة كلها قبل أن يسلم الروح متأثرًا بجراحه في اليوم التالي. وأرسل الأمير تقريرًا عن الحادث إلى الرياض، فتلقى التعليمات بأن يرسل مجموعة من الرجال مع قصاص للأثر، من مطير، ليتتبع خطى العتبيين والقبض عليهما والعودة بهما إلى جرية، وإرسال مجموعة أخرى إلى آبار اللهابة لإحضار أحد شيوخ دوشان الشباب كرهينة.

ولحق قصاص الأثر والمجموعة التي ترافقه بالرجلين عند المشارف الخارجية للأحساء وعادوا بهما إلى جرية حيث أودعا السجن انتظارًا للمحاكمة. وكان السخط يسود عجمان كلها لهذه الجريمة النكراء، واستقر رأيهم جميعًا على رفض أي دية نقدية، وأن يتركز مطلبهم في رأس فيصل بن عبدالعزيز، وجاء

شيوخ دوشان عن بكرة أبيهم، وعلى رأسهم بندر الدويش شيخ مطير الشهير، إلى جرية ترقبًا لتطورات الأحداث.

وانقضى شهر أكتوبر كله وعجمان ترفض قبول الحصول على أي دية نقدية، بينما شيوخ دوشان وعجمان ينتظرون في مخيمهم في جرية، ولم يكن أحد قد سمع من قبل على امتداد تاريخ شبه الجزيرة العربية، أن حياة ابن من أبناء الدوشان كان هو الثمن الذي لابد من دفعه مقابل حياة رجل من عجمان.

وفي شهر نوفمبر، وفي نفس الوقت الذي عدت فيه أنا وزوجتي إلى الكويت، سوى الملك ابن سعود النزاع، بأن أمر العجمان بقبول اثنى عشر ألف روبية كفدية، وكان من دلائل عظمة الملك أنه لم يأمر الدوشان بدفع هذا المبلغ على الفور، وإنما بعث بأوامره من مكة، حيث كان يقيم في ذلك الوقت، إلى ابنيه محمد وناصر، وكانا في الرياض، بأن يدفع كل منهما خمسة آلاف روبية لعجمان ويدفع فيصل وصاحبه العتيبي كل منهما ألف روبية، وبعد دفع هذا المبلغ أطلق سراح السجينين وعاد كل منهما إلى أسرته.

وتكمن حكمة هذه التسوية في أن الشريعة تلزم بدفع الدية النقدية، ولكن الواقع أن الملك هو الذي دفعها بدلاً من فيصل حتى يتجنب نشوب القتال بين عجمان ومطير، فتقرر أن تتحمل ميزانية الحكومة المبلغ الذي سيدفعه كل من محمد وناصر، كنوع من المساندة لدوشان.

روى لي هذه القصة كل من عبدالمحسن الحبيشى، شايع الجبيلى، وسالم المزين، وزيد الصانع، وفيحاء أم فيصل بن عبدالعزيز.

مكان لقاء العبيد: بقلم فيوليت ديكسون

العبد الأسود الذي يُشترى بالمال نادر الوجود نسبيًا في مدينة الكويت، أما المولد، وهو العبد المحلى الذي ولد في الأسر من أبوين من العبيد اللذين ربما كانوا من ممتلكات أسرة معينة لعدة أجيال، فغالبًا ما يوجد لدى الأسر الموسرة. والسادة يعاملون هؤلاء العبيد المحليين عمومًا معاملة كلها البر والرحمة، ويربونهم على نفس النحو الذي يربون به أطفالهم الذين يختلطون بهم على قدم المساواة، والمولد ذكرًا كان أم أنثى، غالبًا ما يضطلع بمسئوليات كبيرة تؤكد ما يحظى به من ثقة.

وبالرغم من أن هناك مسلمين ليس لهم من إسلامهم إلا مظاهره الخارجية، وأن الحاكم يتجاهل ذلك، إلا أن أعضاء جماعة العبيد يحلو لهم التمسك بعاداتهم الإفريقية القديمة القائمة على السحر والشعوذة، وفي مساء كل خميس، وبعض الليالي الأخرى التي تواكب مناسبات خاصة، يلتقون معًا في النوبان، وهو الاسم الذي يطلق على مكان لقائهم، وهناك مكانان من هذا النوع في مدينة الكويت، يقع الرئيسي منهما في حي المرقاب، جنوب غرب المدينة، والآخر والأقل أهمية في الحي الشرقي الصغير المسمى الميدان، والذي يتكون أغلب سكانه من الفرس والبحرانيين، ويقع بالقرب من منزلنا.

وبدعوة من بخيتة، ذهبت مع بارون - فراشنا الفارسي، إلى هذا المكان الأصغر للقاء، في حوالي الساعة التاسعة مساء، في ليلة اكتمل فيها البدر، وكان ذلك يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٤٥وكانت بخيتة من العبيد اللذين اعتقوا، كما كانت ذات يوم من ممتلكات زوجة فيصل الدويش، وسبق لها أن رافقت زوجته في رحلته بالطائرة عندما توجه إلى العراق ليستسلم للبريطانيين عام ١٩٣٠م.

كان المنزل وساحته الصغيرة يطلان على الطريق الرئيسي، ولم يكن به ما يميزه عن أي منزل آخر في المنطقة سوى ذلك الصاري المخصص لرفع الأعلام الذي نراه في أحد أركان الساحة، وعندما اقتربنا من الباب، أعلنت دقات الطبول والموسيقى، وما يصاحبها من صيحات وأصوات مميزة، أن الرقص بدأ.

وكان السكون يخيم لتوقف الموسيقى عندما يخلد الراقصون للراحة. وبدأنا بطرق الباب بشدة، فانفتح لمسافة بضع بوصات، وسألنا عبد عما نريده.

وسأله خادمي، هل بخيتة هنا؟ لقد وعدت باستقبال الخاتون هنا الليلة.

ومرة أخرى أغلق الباب، ولكنه فتح بعد بضع ثوان وسمعنا صوتًا يقول أن بخيتة ليست هناك، وأن الخاتون - أي أنا - يمكنها أن تدخل، وخلعت حذائي بكل حذر، ودخلت. كان عدد كبير من النساء يتجمع عند أحد جانبي البهو، بينما يجلس عدد من الرجال مستندين إلى الحائط في الجانب المقابل يشاهدون ما يجرى في هذا المكان. وأخذوني عبر البهو إلى حيث صفت بعض المقاعد لأنهم توقعوا أن يكون زوجي معي، وجلست وخلع بارون نعليه وجلس مع الرجال بالقرب من الحائط. كان جو ديني يغلف المكان والرجال والنساء يتكلمون بنبرة هامسة أغلب الوقت.

ووقفت إلى جانبي أَمَة سوداء ترتدى زيًا جميلاً، وأخذت تداعب الهواء من حولي بمروحة من ألياف النخيل، وكان الجو مشبعًا برائحة قوية لبخور يحترق في بوتقة صغيرة من الطمي، وضعت أمام آلة بها ثقوب تسمى الطنبورة، يقف أمامها - وكأنما راح في تفكير عميق - رجل مسن أشيب الرأس، ثم استدار نحوي أحد العبيد وأومأ برأسه عدة مرات، ثم قام واتجه نحو الطمبورة، ولكنه قال إنه لا يعرف كيف يعزف عليها، فحل محله عبدٌ آخر. وكان للطمبورة صوتٌ شديد العذوبة، أشبه بالأصوات التي تصدرها الأوتار الوسطى للقيثار.

وبدأ قرع ثلاث أو أربع طبول وضعت على الأرض على أحد جانبي الطمبورة، وبدأ الغناء، وكانت الأغنية تختلف تمامًا عن أي شيء سمعته بين العرب، أو حتى بين العبيد في مراكب الغوص على اللؤلؤ.

وكانت هناك إلى يسارى مباشرة صينية وضعت على منضدة منخفضة، عليها ثلاث شمعات مشتعلة، وثلاثة أوان للزهور المائية، وفى الوسط إناء يحتوى سبع بيضات غير مطهية ومشموم، وحول كل هذه الأشياء تناثر ثلاثة عشر من صحون الفناجين مليئة بأشياء مختلفة قالت بخيتة إنها:

- محلب (أو محلبية)، نوع من الحلوى التي تشبه النشا المحلى بالسكر، وتتكون من لباب الدقيق أو الأرز البرى المرشوش بجوزة الطيب، ويطلق عليها العرب تسمية المهلبية.
- الصندل، زيت خشب الصندل.
- السعد، تشكيلة يدخل في تكوينها النعناع.
- ياوني، لست متأكدة من معنى الكلمة، وهى كلمة متداولة بين العبيد السود، والأرجح أنها ترجع لأصول أفريقية (نوع من أصناف البخور).
- علوك (أو علوج)، كلمة يستعملها العبيد السود، وتعنى اللبان المصنوع من البخور.
- مشموم، حشائش حلوة الرائحة.
- (مسواك)، سيقان خشبية حلوة الرائحة داكنة اللون، وعندما توضع قطعة صغيرة منه على الفحم الحجري، يطلق منها دخان أبيض طيب الأريج.
- المعمول، كلمة يستخدمها العبيد السود بمعنى البخور.

- ملح.
- الشب، حجر الشب.
- هيل، حبوب الهيل، وهى بذور قوية النكهة تستخدم كتوابل، وفى صناعة العقاقير الطبية، وتضاف دائمًا إلى القهوة العربية.
- القرنفل، نوع من التوابل (مسمار).
- المستكة، مثل العلوك ولكن من نوع أفضل.

وبينما الغناء لا يزال مستمرًا، نهض الرجال والنساء وهم يتمايلون في إيقاع عجيب، ويأتون بحركات فجائية غريبة. وكانت الأرواح تتقمص رجلا هنا أو هناك فيتناول بيضة من الإناء ويمسك بها بقبضة يده دون أن يتوقف عن الرقص، وكان أحد الرجال يرتدى إزارًا تتدلى عليه أظلاف الخراف تتصادم مع بعضها ليصدر عنها الصوت الذي سمعناه عند دخولنا.

وعندما انتهت الأغنية، توقف الرقص، وعاد الجميع إلى أماكنهم، ووضعت كميات إضافية من الفحم في البوتقة، كما وضع المزيد من البخور. وسمع صوت طرق على الباب، ودخل عبدٌ شاب توجّه رأسًا إلى الطمبورة، وتحسسها بيده، ثم رفع يده ليضعها فوق جبهته قبل أن يجلس.

كانت هناك غرفتان على جانبي البهو، يعدّ الرجال القهوة في إحداها بينما خصصت الأخرى للسيدات اللاتي يردن الحصول على قسط من الراحة أو التدخين، ولا يمكن لأي سيدة أن تحضر مثل هذا الحفل أن لم تكن نظيفة، ويُقال إنها إذا حاولت أن تفعل ذلك فسوف يتعالى صوت رنين أحد أوتار الطمبورة على الفور.

ومكثت حتى شهدت ثلاث رقصات، وكان وجه أحد عبيد الشيخ عبدالله الأحمد، ابن الحاكم، ملطخًا بالأتربة نتيجة لمارسته لهذه الطقوس، وكان يحيط رقبته برباط من المشمع.

وأرسلت لنا بخيتة بعد قليل تقول أنها رجعت إلى منزلها لإحساسها بالإرهاق الشديد. ثم جاءت لزيارتنا في صباح اليوم التالي وشرحت لي أسرار كل ما رأيت. وأعطيتها عشرين روبية لشراء بعض البنّ لفريق الطنبورة.

في رعاية الله:

ومازال هناك الكثير من القصص التي يمكن سردها، ولكنى أشعر أنه لابدّ من التوقف عند هذا الحد، ولذلك اكتفي بعرض مركزّ للوضع الراهن، وإذا ساعدت التجارب والنوادر التي سجلتها أنا وزوجتي على هذه الصفحات على رسم صورة للحياة اليومية لسكان الكويت وجيرانها، فسوف يعنى أننا حققنا الهدف الذي نسعى إليه، وربما كان العديد من الوقائع التي رويناها تافهة في حدّ ذاتها، ولكنها توضح بلا شك، إذا نظرنا إليها مجتمعة، أن البادية والحضر، أي سكان الصحراء وسكان المدن، إنما هم رجال ونساء من البشر مثلنا، وبهم كل الفضائل والنواقص التي ورثها الجنس البشرى.

وعبارة "في رعاية الله"، شكل من أشكال التحية؛ وقد انتهى كارل راسوان إلى تفسير معناها على النحو الآتي بعد زيارته لنا:

"فلتحلّ بركة الله بكما وبأطفالكما المحبوبين، وليبارك الله عملكم أنتم وأصدقائكم - الإنجليز، والعرب، والأمريكيين كبيرهم وصغيرهم، غنيهّم وفقيرهم، والذين يبادلونكم جميعًا إخلاصًا بإخلاص"

وهنا يمكنني أن أنهى هذا الجزء الثالث من الكتاب.

الجزء الرابع

وهو جزء إضافي

ما دمتم في دارهم دارهم

الفصل العشرون

أول شحنة من النفط – وجهة النظر اللبنانية – سخط في العربية السعودية – المؤثرات الغربية – تقدم شركة نفط الكويت.

أول شحنة من النفط: ٣٠ من يونية ١٩٤٦م

(كتب مستر ك.أ.ب شاوثويل في تقريره له يقول): بدأ فخامة شيخ الكويت حفل الافتتاح عندما أدار صمامًا من الفضة على أنبوبة التحميل ليبدأ تدفق النفط الخام من حقل بلاده إلى أسواق العالم، وحضر الاحتفال كل من الكولونيل و. ر. هاي، المقيم السياسي بالخليج؛ والوكيل السياسي البريطاني؛ ومستر وليم كارتر بورديت نائب القنصل الأمريكي بالبصرة؛ وجميع الشخصيات المرموقة في الكويت، وكان مستر ا.ب ساوثويل، ممثلا للمديرين البريطانيين والأمريكيين لشركة نفط الكويت؛ في استقبال فخامته، بينما رافقه مستر ل.د.سكوت ومستر ت.ا. باتريك وهو يعبر المشى الموازى لخط الأنابيب حتى صمام التشغيل الرئيسي، ثم أطلق فخامته إشارة من محطة الإشارات ليعلن بدء عمليات الشحن.

وألقى مستر ساوثويل خطابًا علي الحاضرين قال فيه إنه يودّ باسم شركة نفط الكويت والعاملين بها، أن يعبرَ عن ترحيبه العميق والصادق لحضور فخامته؛ وقال:

"ونحن نلتقي هنا للاحتفال بأول شحنة من النفط تخرج من الكويت، وهو حدث بالغ الأثر في تطوير منابع النفط في الكويت، والذي أوكلت فخامتكم لشركتنا منذ حوالي اثنتي عشر عامًا، ونحن نقدّر أعلى التقدير تلك الثقة التي أوليتموها فخامتكم لقدرة شركتنا على إنجاز هذه المهمة التي سيكون لها أعمق الأثر بالنسبة لرخاء دولتكم، ونحن سعداء الآن للاحتفال مع فخامتكم بهذا الحدث الذي يبدأ مرحلة جديدة من التقدم الناجح التي حققته جهودنا بتشجيع فخامتكم ومساندتكم. وليكن اليوم يومًا ميمون الطالع لفخامتكم، ولدولة الكويت، ولشركة نفط الكويت.

"وفخامتكم تدركون أن العمل الذي تم إنجازه حتى الآن على يد شركتنا كان لابدّ أن يجرى على مراحله متتابعة؛ فأولا وقبل أي شيء قام الخبراء الجيولوجيون العاملون بالشركة بمسح شامل لأراضي البلاد للتعرف على ما إذا كانت هناك، استنادًا إلى المؤشرات السطحية، أي احتمالات للعثور على النفط، ومن خلال عملهم، اكتشفوا ما بدا وكأنه بعض المواقع المبشرة. وكانت الخطوة الثانية هي تحديد ما إذا كانت هذه المؤشرات مجرد آثار متخلفة عمّا كان حقلا للنفط في الماضي السحيق أم أنه لا يزال في الأعماق في باطن الأرض كميات ضخمة من النفط، وعن طريق الحفر، أمكن التوصّل إلى إجابة على هذا السؤال، وتمكنت الشركة بعد أبحاث مطولة من الجزم بأن هناك رصيدًا ضخمًا من النفط تحت تربة الكويت، وأما المرحلة الثالثة في هذه العمليات فها نحن نصل إليها الآن، وهى مرحلة الإنتاج الفعلي للنفط وتصديره إلى الأسواق العالمية.

"وسوف توافقون فخامتكم على أن هذه النتيجة الموفقّة للمحاولات الأولية الجسورة للشركة تمثّل إنجازا ليس بالهين، وخاصة فيما يتعلق بحتمية ممارسة العمل في ظلّ ظروف شاقة إلى أقصى حد نتيجة للحرب عندما كان إنتاج وسائل الحفر وغيرها من المعدّات يتوقف من وقت لآخر، إلى جانب القصور في وسائل النقل البحري نتيجة لما فرض عليها من حظر.

"وما كان للنجاح الذي أُسعدنا بتتويجه لجهودنا أن يتحقق لولا ما أبديتموه فخامتكم من صبر لا ينفذ، وصداقة مخلصة وتعاون وثيق، ولولا العمل الرائع الذي أنجزه العاملون البريطانيون، المهارة التكتيكية والخبرات الضخمة

المتراكمة لهذه الشركة التي تمتزج فيها الكوادر، والمصالح البريطانية والأمريكية في توافق وانسجام.

"وليس هناك ظل من الشك في أن هذه الشحنة التي نحتفل بها اليوم لن تكون، أن شاء الله، إلا شحنة أولى تتبعها شحنات أخرى توصّل نفط الكويت إلى أسواق العالم، ونحن نفخر بأن شركتنا، وهى الأداة التي وقع عليها اختيار فخامتكم، كانت قادرة على تحقيق هذا النظام الناجح ومن ثم تساهم في رخاء دولتكم وشعبكم، وبعيدا عن مشاعرنا الحارة بالعرفان والامتنان والصداقة، اقدم لفخامتكم هذه الهدية المتواضعة التي صممّها وصنعها أصحاب الحرف من أهلنا في الغرب من أجل هذه المناسبة السعيدة".

كما قدّم مستر ساوثويل للشيخ علبة لحفظ المجوهرات مصنوعة من الذهب ومطلية بالمينا، من صنع شركة جولد سميث وسيلفر سميث في لندن، نقشت عليها عبارات التخليد لهذه الذكرى.

وردًا على ذلك قال الشيخ:

"اليوم يوم سعيد جدًا إذ نحتفل بأول شحنة وبتصدير النفط من الكويت، ولاشك أن جميع أفراد شعبي وأصدقائي سوف يبتهجون معي لهذا الحدث السعيد، الذي سيكون بإذن الله فاتحة خير لرفاهيتنا في المستقبل.

"وإنني لأقدرَ أسمي التقدير ما تبذله الشركة من نشاط وما أنجزته من أعمال من أجل اكتمال العمليات، سواء قبل وقت العمل أثناء الحرب أو بعد استئنافه، وأني لأحمد الله أن أتاح لنا هذه الفرصة التي ستساعدنا على إنجاز الإصلاحات المختلفة التي نصبوا إليها من أجل سعادة ورفاهية دولتي وشعبي. وأودّ أن أشير إلى المساعدات التي قدمتها لنا الشركة أثناء إجرائها لعملياتها في دولتي، كما اشكر حكومة صاحب الجلالة لما قدمته من مساعدات لإنجاح العمليات، وكذلك أشكر أصدقائي الشخصيين من مديري الشركة البريطانيين منهم والأمريكيين، ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر لجميع العاملين في الشركة سواء الذين وفدوا من الخارج أو من أبناء البلاد والذين قدم كل منهم أقصى ما يستطيع من جهد، وأنيّ لأتقبل مع جزيل الشكر هذه الهدية التذكارية التي قدمتها لي الشركة في هذه المناسبة التي لا تُنسى. وأنيّ لعلى يقين من أن علاقاتنا الودّية مع الشركة سوف تستمر بروح الحب والنوايا الحسنة".

وأعقبت هذا الحفل احتفالات أخرى في المدينة، كانت بينها احتفالات رقصة الحرب، وأقامت شركة النفط مأدبة غداء عربية للشيخ وموظفي الدولة وعلية القوم والممثلين الأجانب، في منزل مستر ك.د سكوت، كما أقام العديد من سراة الكويتيين مآدب خاصة. كذلك أقام صغار العاملين بنادي الوحدة مأدبة غداء أعقبها عرض سينمائي، كما أقام كبار العاملين بنفس النادي مأدبة أخرى في المقوع، ووجبات خارج المنزل على الطريقة العربية التقليدية دعي إليها الحرفيون والعمال.

وجهة النظر اللبنانية ١٩٥٠:

في ٣١ من أغسطس ١٩٥٠ دار بيني وبين أحد الساسة اللبنانيين البارزين في بيروت، سبق أن تعرفت به منذ عدة سنوات، حديث صريح ألقى الضوء على الكثير من الحقائق. وكانت آراؤه تستند إلى أساس متين. وبدأت المناقشة نتيجة لملاحظة أبديتها قلت فيها إنه من المؤسف حقًّا أن العلاقات السورية – اللبنانية بلغت ذلك الحدّ من التدهور، خاصة وأن الضحايا الأساسيين هم التجار والمسافرين الأبرياء الذين يسعون وراء تجارتهم وأعمالهم، وأشرت إلى أن سيارتي استوقفت يوم ٢١ أغسطس أربع مرات لفحص جواز السفر وتفتيش ما أحمله من منقولات، على امتداد الطريق من دمشق إلى شتورة.

وردّ عليّ في شيء من الحدّة: "نعم، أنا أوافق على ذلك تمامًا، ولكن هل تعرف على من تقع مسئولية هذا الخطأ"؟

"كلا".

"إذن سأخبرك. أن الأمر كله يرجع إلى مؤامرات أكبر دولتين. يُفتْرض أنهما ديموقراطيتان في هذا العالم؛ الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. وهما تتآمران ليلا ونهارا من أجل اقتسام بلدان الشرق الأوسط بينهما، أو على الأقل ليجعلا منها منطقتي نفوذ منفصلتين. فالولايات المتحدة، على سبيل المثال، تحاول إدخال لبنان تحت نفوذها، بينما تحرّض إنجلترا العراق للاستيلاء على سوريا بالاشتراك مع الملك عبدالله، ملك الأردن. ويؤدى ذلك إلى دخول العربية السعودية كطرف في القضية، فهي متحالفة مع سوريا، وبمساندة أمريكية، كما تصرّ الولايات المتحدة على دق إسفين بين الملك عبدالله، وعبدالإله الوصي على عرش العراق، من أجل إحباط مخططات الحكومة البريطانية.

وبالإضافة إلى ذلك، فأمريكا تساند إسرائيل، بينما تساند إنجلترا الملك عبدالله، ويتصاعد عداء مصر للاثنين نتيجة لما تؤمن به من أن هناك محاولة سافرة من جانب إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية معًا لتحطيم الجامعة العربية وإثارة أعضائها ضد بعضهم البعض. وحصيلة كل ذلك هي أن المشاعر المعادية للأوروبيين تتزايد كل يوم في جميع بلدان الشرق الأوسط، وخاصة ضد إنجلترا وأمريكا اللتين لا يخفى على أحد أنهما تستفيدان من إشاعة الفرقة بين بلدان الشرق الأوسط.

"ومما يدعو إلى الرثاء، أنه بينما لإنجلترا وأمريكا مستشارون على أعلى درجة من الكفاءة والمقدرة ممن عاشوا سنوات عديدة في تلك المنطقة، إلا أنه يبدو أن لا أحدًا في بلديهما يسعى للتعرف على ما ينصحون به أو يريد العمل بمقتضاه. وهذه أوضاع تدعو إلى الأسى، وسوف تساعد الاتحاد السوفيتي بلا ريب على تدعيم مكانته ومواقعه في بلدان الشرق الأوسط، وخاصة بين الأجيال الجديدة. ولا جدال في أن روسيا في وضع يجعلها تشعر بالسعادة فتقف لترقب ما يجرى عن كثب انتظارا للثمرة التي سوف تنضج وتسقط داخل فمها. أن لها عملاءها بالفعل في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وهم على صلة بسفاراتها المدعمة بعدد كبير من الخبراء والمتخصصين، الذين لا يكفّون عن ترديد أن الذئب الكبير الشرير الذي يجلب الشقاء للجميع في الشرق الأوسط هو أمريكا، ومعها إنجلترا التي تدور في فلكها".

وقلت: "ولكن من المؤكد أن الرئيس ترومان ومستر آتلى سوف يستمعان، أن لم يكن اليوم فغدًا، لمستشاريهم الذين حنكتهم التجارب حول شئون الشرق الأوسط، وسوف تتخذ الأشياء مجراها السليم".

"كلا، هذا بالتحديد هو الخطأ الذي تقعون فيه. فمستشارو ترومان الأساسيين في الوقت الراهن هم الكتلة اليهودية القوية في نيويورك. ونفس الشيء ينطبق على لندن، ولكن لدرجة أقلّ. صَدِقني، أن اليهود اليوم هم الذين يحددون سياسة بلادكم في الشرق الأوسط، مع كل ما ينتج عن ذلك من عواقب وخيمة محزنة. وهم يؤيدون- علنًا - فكرة استيلاء أمريكا وبريطانيا على بلدان الشرق الأوسط أو تقسيمها إلى منقطتين للمصالح والنفوذ، ويعتقدون أنه عندئذ، وعندئذ فقط، سيتمكنون من تدعيم مراكزهم داخل إسرائيل نفسها، وتحسين وضعهم

الاقتصادي المتردّي. إنهم دولة مفلسة، ولابد لها من المتاجرة مع جاراتها. وكيف نعتقد أنهم يدبرون أمورهم الآن؟ من الواضح انهم يدبّرونها باستخدام شركات النفط في الشرق الأوسط والعربية السعودية والخليج، بل وهم يحاولون الآن، في هذه اللحظة، أن يفسدوا العلاقات بين الحكومات العربية في الشرق الأوسط وشركات النفط البريطانية والأمريكية، ودفع هذه الشركات إلى اتخاذ مواقف أكثر تشددا لحماية مصالحها.

"صدّقني يا كولونيل ديكسون، إنه ليس من قبيل المصادفة أن جميع الدول العربية في الشرق الأوسط أخذت تطالب في الآونة الأخيرة بزيادة الرسوم، في ظل نوع من التهديد بأن شيئا سوف يحدث إذا لم يستجب لمطالبها. وتتركزّ الخطة اليهودية على وجه الخصوص في دفع شركات النفط إلى مناشدة حكوماتها للتدخل بالوسائل الدبلوماسية وغيرها لدى الدول التي تمارس فيها نشاطها، ولقد رأينا العربية السعودية والبحرين والعراق تطالب جميعًا بزيادة الرسوم. ثم حذت سوريا ولبنان حذوها فتقدمتا بمطالب غريبة لزيادة رسوم مرور النفط عبر أراضيهما. وكانت الكويت آخر من انضم إلى الركب وبدأت بدورها تطالب بالزيادة".

ويقدّم هذا الحديث مثالاً حيًا للطريقة التي تناقش بها القضية الفلسطينية في جميع أنحاء لبنان. وهى طريقة تقطع بمدى العلاقة الوثيقة بين مشكلات النفط الحساسة والأوضاع السياسية في الشرق الأوسط عمومًا؛ كما توضح على وجه الخصوص عمق العلاقات بين بيروت والكويت.

ثم واصل حديثه فقال: "أن الفرصة الوحيدة لبريطانيا اليوم هي أن ترفض السير في ركاب أمريكا. وإنجلترا صديق قديم للعرب وتفهم الخلفية التي تستند إليها الأمم الإسلامية في الشرق الأوسط أكثر ما يفهمها الأمريكيون، ويجب عليها "أن تتعاون مع العرب لا أن تهددهم؛ وقبل أي شيء ينبغي على شركات النفط أن تتعاون مع البلدان العربية وحكامها لا أن تسارع باللجوء إلى حكوماتها طلبًا لتدخلها عندما يبرز أي سوء تفاهم. ويجب أن يتصرفوا كأصدقاء وان يكفوا عن التلويح بالعصا الغليظة عندما تنشأ أي مشكلة، وهذا هو الخطأ الفادح الذي وقعت فيه شركة النفط الأمريكية الإيرانية في إيران، هذه هي الخلفية التي لن تجنى منها إلا الفشل. واليهود يعلمون بالفعل، ومن خلال الوسائل الخفيّة التي

يعرفونها جيدا، أن الدول العربية سوف تدرك أن إنجلترا وأمريكا تعتزمان فرض سيطرتهما على بلادهم عندما تسنح الفرصة تحت زعم أن مصالحها النفطية تتعرض للخطر وأنها لا تستطيع أن تقبل أي تهديد لهذه المصالح. ونتيجة لكل ذلك تزداد شكوك البلدان العربية. ويجب على إنجلترا أن تهدئ من غضب المتشككين الآن، وأن يكون موقفها هو: "تولوا شئونكم بأنفسكم، وسوف نساعدكم بقدر طاقتنا كلما طلبتم منّا المساعدة".

"ولا تنسى يا كولونيل ديكسون أن المسئولين السوفيت يرقبون الأوضاع المتعلقة بالنفط في الشرق الأوسط هذه اليام بكل يقظة وتربّص، وسوف يساندون أي دعاية تزيد من اهتزاز مكانة بريطانيا والولايات المتحدة في الشرق الأوسط وفقدان الثقة بها. وأما فيما يتعلق بالكويت، فنحن في لبنان نعلم تمامًا بمحاولات الحكومة البريطانية لفرض مستشار مالي على الشيخ الجديد، كما تحاول إجباره على الاستغناء عن خدمات سكرتيره اللبناني المحبوب وتعيين أحد أعضاء أسرة آل صباح الموالين لها مكانه. وأما أن الحكومة البريطانية تدرك الآن صفاقة هذه الخطوة ووقاحتها، فيتضح بكل جلاء في عزوفها عن الاستمرار في إثارة مطالبها الأصولية.

سخط في العربية السعودية:

قبل ثلاثة أعوام من وفاة الملك عبدالعزيز آل سعود في نوفمبر ١٩٥٣ كتبت ما يلي:

"استناداً إلى مراقبتنا لما يجرى من تطورات في شبه الجزيرة العربية ونحن نطلّ عليها من طرفها الشرقي حيث تقع الكويت، يمكننا القول بأن المذهب الوهابي وماله من نفوذ، لم يعد هو القوة التي يعتمد عليها ابن سعود كركيزة سياسية له، فبعد أن وطدّ أقدامه في شبه الجزيرة العربية نراه يتحوّل باهتمامه إلى تطوير علاقاته مع الدول الخارجية - وتعميق سيطرته في الداخل، ويبدو أنه عقد العزم على أن يمكن ورثته، في حالة وفاته، من مواصلة العمل الذي بدأه دون أن يضطروا إلى مواجهة تمرد أو انهيار عام في المملكة، كما يتهيأ البعض.

"لقد تقدمت السن كثيرًا بابن سعود، وهو لا يستطيع الآن السير على قدميه، وقام بتوزيع الكثير من سلطاته على أبنائه وعلى مستشاريهم المصريين والسوريين الذين يرى البدو أنهم يحجبون عن ملكهم المحبوب الكثير من

الحقائق عمّا يجرى، وربما كان هذا هو أحد الأسباب لتزايد الكراهية المتناهية للنظام السعودي والتي تتجلى، بين البدو كافة، ويذهب بعض قادته السابقين من الإخوان إلى حد وصفه بالحاكم الجبّار، أي المستبد. وهم لا يعنون بذلك الملك الكهل وإنما يعنون النظام الحالي كله، الذي ينزع إلى المركزية والعنف في ظل الجيل الجديد من أسرة آل سعود والمستشارين الأجانب، ولم يعد متعاطفا مع جمهرة الناس أو اتصال دائم بهم كما كانت الحال فيما مضى، ويقال أيضًا أنهم يعارضون بشدّة زيارات أعضاء الأسرة المالكة لأوروبا وأمريكا حيث سينزلون – كما يقولون – في كنف من يتعاطون الخمور من المسيحيين، ويكتسبون عادات شريرة، وينسون واجباتهم نحو الله والواقع أن قضية التحديث هي القضية الجذرية التي تنبثق منها المشكلة كلها، والناس يتوقون إلى العودة إلى الحكم الشخصي للكهم عندما كان متاحًا لأكثر رعاياه تواضعًا أن يطرق بابه وأن يلتقي به.

ويقول من هم على صلة وثيقة بالأحداث، إنه لو حدث أي شيء لابن سعود خلال السنوات القليلة القادمة، لا قدّر الله، فسوف تندلع اضطرابات تأتى على كل موارد العربية السعودية. وأنا شخصيا لا أعتقد أن هذا سوف يحدث. فشعب نجد لازال يفخر في أعماقه بعبدالعزيز آل سعود بطلهم الجسور وملكهم المغوار، لما أنجزه من جليل الأعمال داخل شبه الجزيرة العربية، وللموقف العظيم الذي يتخذه دائما ضد النفوذ الأجنبي والعدوان الخارجي؛ وهو إلى جانب كل ذلك، أشبه بتشاكا، ملك الزولو قديمًا، والذي كان يبث الرعب في قلب الرجل الأبيض، ومازال شعبه فخورًا بمآثره ولن ينساه أبدًا.

ولكن، إذا نحينا جانبًا ما يحظى به ابن سعود من شعبية ومحبّة، فشعبه يتطلع بلا شك إلى سيطرة اقلّ في المركز، ويخشى زحف حضارة الرجل الأبيض التي تعنى بالنسبة له نبذ الدين ونسيان الله والعبودية في الواقع العملي؛ ويقولون أن العودة الكاملة إلى النظام القبلي بكل قوته وأمجاده أفضل من ذلك بكثير؛ وعلى أن يكون زعماء قبائلهم دون سواهم هم الذين يتولون إدارة شئونهم، ولكن هذا بلا جدال ليس هو ما ينتويه أي عضو من أعضاء أسرة آل سعود الذين، كما يقول العرب "تمثّل السلطة والحكم بالنسبة لهم أعزّ شيء على الأرض، بل وجوهر الحياة نفسها".

ثم جاءت الأحداث اللاحقة لتبين أن الوريث المتوقع، الأمير سعود، الذي انتقلت إلى يديه أغلب السلطات عندما أقعد المرض أباه، بدأ يدرك في بطء كيف يفكر الناس، فكان من الفطنة والحكمة بحيث قرر إقامة نظام أشد صرامة فيما يتعلق بالتمسك بالدين والممارسات الدينية. وعلى سبيل المثال، حظر حظرًا تامًا استيراد المشروبات الروحية حتى بالنسبة للعاملين الأمريكيين في أرامكو، بل والأكثر من ذلك أن جعل حيازة أي بدوي من سكان بلاده لزجاجة من الخمر جريمة من أبشع الجرائم.

ولكن هل جاء في الوقت المناسب.

المؤثرات الغربية ١٩٥٣:

ألف صديقي الدكتور د. هارولد ستورم، عضو الإرسالية الأمريكية بالخليج، والذي يتولى الآن إدارة إحدى المستشفيات بالهفوف، كتابًا عنوانه شبه الجزيرة العربية، إلى أين؟ ولقد تجاسرت عن طرح تعليقاتي التالية عن أهمية موضوع المؤثرات الغربية في شبه الجزيرة العربية، بالرجوع إلى العرض الرائع الذي يقدمه د. ستورم للموقف. وعندما لجأ إلى استخدام مفاهيم لست أنا صاحبها، فأنا أفعل ذلك مع كل العرفان والامتنان للدكتور ستورم، وللدار التي تكفلت بنشر كتابه، وورلد دومينويون برس.

والأرجح أنه لم يعد في عالمنا مناطق يعيش فيها القديم والجديد جنبًا إلى جنب على النحو الذي نراه في شبه الجزيرة العربية. ففي أعماق الصحراء لازالت الحياة على ما كانت عليه أيام إبراهيم، وبكل تفاصيلها. والراعي البدوي لا يزال على نفس النحو الذي يصوره الكتاب المقدس، وأفكاره أيضًا لازالت إلى حد بعيد هي نفس الأفكار التي كانت سائدة أيام أيوب. ثم جاء الإسلام ليعمق من اعتزازه المفرط بذاته ونزعته للاستقلال وزهده واكتفائه الذاتي، بينما تجسدت حياته في نظام صارم يمزج بين العقيدة والنصوص.

ولكن المؤثرات الغربية غيرت من طبيعة ومزاج العديد من المدن الساحلية التي يتركز فيها البدو الجياع الذين يأتون إليها بحثًا عن الطعام والزاد، فينظرون إلى التغيرات التي تحيط بهم من كل جانب نظرة لا يخفى ما تحمله من ازدراء، ثم يعودون إلى مواطنهم في الصحراء أكثر قناعة من أي وقت مضى بحياتهم بين

رمالها وشعابها، ومع ذلك فعجلة التقدم تدور بلا توقف، ولا يمكن لأبناء البادية أن يقفوا بمنأى عمّا يجرى.

وأغلب الظن أنه لا يمكن لعنصر واحد أن يُحدث كلّ هذا التغيير في تفكير عرب الصحراء مثلما فعلت السيارة. فبعد أن كانت رحلة الحج على ظهور الجمال عبر الصحراء من الكويت إلى مكة تستغرق ما لا يقلّ في العادة عن الأربعين يوما، تقطع السيارة الآن نفس المسافة في ستة أيام، وعندما يسافر حاكم العربية السعودية من عاصمته الداخلية، الرياض، إلى مكة، فهو ينتقل إليها ومعه حاشيته على متنٍ طائرة من أحدث طراز أو باستخدام رتل ضخم من السيارات التي يقود كلا منها سائق من بلاد أخرى: من الكويت، وباكستان، ومصر، والصومال، وسوريا، بل حتى من إندونيسيا. وليس من الصعب إدراك الأثر البالغ لكل ذلك، لأن السيارات ليست هي وحدها التي تحدث التغيير، وإنما السائق نفسه أيضًا، الذي يأتي معه بأفكار وأخلاق وعادات جديدة. ففي الرياض، على سبيل المثال، نجد السائقين يعيشون في مجتمع صغير خاص بهم خارج أسوار المدينة، وإن كانت هذه الفئة لا تحظى بأي اهتمام له وزنه من جانب الطبقة الحاكمة والزعماء الدينيين، إلاّ أن ثمة تيار لا ينقطع من سكان المدن والسيارات يتوجه لزيارتهم، وعلى هذا النحو تنتشر الأفكار الغث منها والسمين، الوافدة من الكويت، والقاهرة، ودمشق، وعدن، وكراتشي بين البدو، فيتشربّها هؤلاء القوم البسطاء وتتغلغل في وجدانهم.

وتحمل السهولة الكبيرة التي أصبحت عليها وسائل المواصلات في طياتها أنواعًا من البذخ الذي يتيح الفرص للحياة الرغدة المنعمة. وهذا في حدّ ذاته عنصر من عناصر التحلل. ولم يعد الشيخ العربي الشاب يستخدم ناقته، إنما يفضّل أن يقود سيارته، وتحوّل الصيد بالصقور، وكان ذات يوم الرياضة العربية الرئيسة، إلى إبادة جماعية منظمة للآلاف من طائر الحباري كل عام، لأنها تّمارَس الآن باستخدام السيارات؛ كما يجرى أيضًا صيد الغزال على نطاق واسع اعتمادًا على السيارات سريعة الحركة حتى أوشك هذا الحيوان الجميل على الانقراض، لقد دخلت الروح الرياضية الحقة في ذمة التاريخ.

وهناك تأثير آخر أشد وضوحا للسيارة على سيكولوجية العرب، فالمنافسة من أجل الحصول على أحدث الأنواع وأغلاها ثمنًا قائم على قدم وساق بين

الأمراء الأثرياء وتجار المدن، وأصبح العجز عن تملك سيارة مصدر من مصادر السخط والتبرّم من الطبقات الوسطى والدنيا، ولكن، من الناحية الأخرى ليست كل النتائج سيئة، فقد تلاشت المسافات وتناقصت عزلة القبائل. وها هي السيارات تتغلغل في مراعي القبائل، والتي كان من العسير الوصول إليها في وقت من الأوقات، ويتم نقل المواد الغذائية بسهولة أكبر إلى التجمعات النائية. وهكذا تتقارب المسافات بين الشعب والحاكم.

أما تأثير السيارة على سيدات المدن فهو عميق ولا يمكن الرجعة فيه. وبالرغم من أنهن لازلن يركبن السيارات وهن محجبّات والستائر مسدلة، إلاّ إنهن يستطعن الآن زيارة أماكن كان من المتعذر عليهن الوصول إليها، ويجرى الآن تزاور أوسع مدى بين العائلات من نفس الطبقة. والنساء يسمعن ويرين أكثر كثيرا مما كنّ يسمعن ويرين فيما مضى، والأرجح أن السيارة سوف تكون عاملا هامًا في القضاء الفعلي على الحجاب، رغم أن هذا لن يتحقق إلاّ على المدى البعيد جدًا فيما يتعلق بالقبائل.

وبالرغم من أن النساء في شبه الجزيرة العربية لم يتحررن بعد بالمعنى الحقيقي للكلمة، إلاّ أن شيئا من العناصر الملطفة بدأت تؤثر في أسلوب حياتهن الرتيب الموحش. فالمذياع ينتقل بهن إلى عالم الموسيقى والناس، وإلى أماكن وأحداث كانت لا تراود أمهاتهن ولا في الأحلام ولا يعلمن بوجودها أصلاً، والسيارات (من طراز بكارد) وآلات الخياطة (سنجر) متواجدة الآن في أكثر المدن والقرى في شبه الجزيرة العربية بُعدًا عن المركز، وبينما كانت أعدادٌ من الجواري يعملن طوال ساعات وأيام من أجل إعداد الملابس لأعضاء الأسرة وخاصة بمناسبة الأعياد، يتم إنجاز هذا العمل الآن خلال بضع ساعات، ويتزايد اهتمام نفس هؤلاء الناس بمستحضرات التجميل والعطور وأدوات الزينة والمساحيق وأنواع الصابون.

كما حررّ علم الطب الحديث المرأة العربية أيضًا من المعاناة والقلق عندما تصاب بأي مرض عضوي. وبينما كانت الأجيال السابقة تتلقى العلاج على يد نساءٍ محليّات ممن يمارسن مهنة التوليد دون أي مؤهلات إلا الجهل والقذارة، يؤدى العمل الدؤوب الذي يضطلع به الأطباء البريطانيون والأمريكيون والممرضات في الإرسالية وغيرها، إلى تزايد الرغبة في الحصول على العلاج القائم على العلم

الحديث، بل وإلى الاستعداد، إذا لزم الأمر، لدخول المستشفى، وهناك اهتمام متزايد بالتغذية السليمة والعناية بالأطفال، مع ما ينتج عن ذلك - كما هو متوقع - من إثارة نزاعات خطيرة داخل العديد من البيوت العربية، وتواجه السيدات من الأجيال الجديدة اللاتي يحاولن تطبيق الأفكار الجديدة في مجال تغذية الأطفال واستحمامهم ونومهم بمعارضة ضارية من نساء الجيل القديم.

ونتيجة لافتتاح ابن سعود الشبكة اللاسلكية للاتصالات في جميع أنحاء مملكته، هناك الآن عشر محطات أو أكثر في المراكز الكبرى، وعشرة أخرى من المحطات المتنقلة. ويستخدم الحاكم الحالي، وخليفته المرتقب، وإخوته، ونائب الملك في الحجاز، وغيرهم ممن يشغلون مناصب الدولة الأساسية، هذا النوع الأخير بحيث يظلون دائما، وأيًا كان المكان الذي يتواجدون فيه في الصحراء، على اتصال مباشر بالعاصمة وغيرها من أقسام البلاد؛ هكذا يمكن مواجهة أي تمردٍ مهما تضاءل شأنه بل ووأده في المهد قبل أن يبدأ.

وترتبط الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة العربية ببعضها البعض عن طريق محطات سلكية ولاسلكية مختلفة. وعندما يطرأ أي تغيرّ في الأسعار في بومباي، تعلم به في نفس اليوم كل أسواق البحرين ومسقط والكويت وجدّة والرياض. أما الإذاعات الناطقة باللغة العربية والتي تبث برامجها من لندن وبيروت والأردن وبغداد وموسكو، فتحيط الناس علمًا، أولاً بأول، بكل ما يجرى على الساحة الدولية، وفى محاولة لتوحيد الفكر الإسلامي يزداد أيضًا إذاعة البرامج الإسلامية، وما أن يذاع نبأ أي صدام بين اليهود والعرب في فلسطين، حتى يسمع به العرب، ويتجمعون في حلقات لمناقشته من وجهة نظرهم، وهناك الآن في الكويت وحدها حوالي ثمانية آلاف جهاز استقبال. كما تقوم الصحف اللبنانية والمصرية والعراقية والهندية بتفسير الشئون العربية لكل جزء من شبه الجزيرة العربية والعالم العربي. كما تُوزّع في الخارج أيضًا الكثير من الكتابات المعادية للمسيحية، وغالبًا ما توضع العراقيل أمام نشاط الإرساليات نتيجة للتقارير التي تشوّه نشاطها عن عمد، ولقد أثار إنزال الفرنسيين لسلطان مراكش من عرشه منذ قريب ونفيه إلى كورسيكا مناقشات حادّة في سوق الكويت ومقاهيها بعد يومين من وقوعه.

والعربي البدوي الذي يسكن الصحراء ولازال يرتدى زي أسلافه ويعيش كما عاش آباؤه من قبل، ويفكرّ بعقلية الماضي، يجد نفسه مضطرا لمواجهة التقدم الحديث الذي يجرى في العالم وتقبّل الآثار التي تعتري حياته باستخدام أشياء مثل السيارة والمذياع.

ولقد أدى اكتشاف النفط في البحرين في السنوات الأخيرة، والاكتشافات الأحدث عهدا في العربية السعودية والكويت وقطر، إلى وصول الوسائل الحديثة وعادات الغرب ومؤثرات حضارته إلى جميع المناطق والأراضي الداخلية للخليج. وها هي الكويت تزدهر فجأة لتصبح حاضرة الخليج بعد أن كانت مجرد دولة عربية صغيرة، رغم أن بريطانيا جعلت من البحرين قاعدة بحرية لها في الخليج واتخذت منها مقرًا للمقيم السياسي البريطاني.

ولكن الساحة شهدت أيضًا بروز عامل جديد بالغ الخطورة يمكننا أن نسميّه المادّية الجديدة، وهو عامل من الصعب أن تقدرّ أثره ونتائجه في الوقت الحاضر، وفيما مضى، اصطدام الإسلام بالعديد من الأديان ولكنه لم يهزم قط. فمع كل سيارة وجريدة مطبوعة، تدخل المادية العلمية وعدم الإيمان وتلك الوثنية الجديدة التي تمثل العدو المشترك لكل من يؤمن بالأديان في كل مكان، ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بمدى ما سيحققه هذا النوع الجديد من عدم الإيمان من انتشار، ولكننا لسنا في حاجة إلى القولِ بأن هذه الوثنية تزحف الآن كالفيضان، وإن كان تأثيرها لا يزال محدودا، إلا أن قوتها في تزايد مستمر وثابت. ومن الطبيعي أن يستبد القلق بالعرب الذين يخشون الله وبكل ذوى المكانة وأصحاب السمعة الطيبة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية.

والمادية التي ينشرها العلم الحديث تُضعف الإسلام(*) على نفس النحو الذي أضعفت به الغنوسطية المسيحية في القرون الأولى. فالمادية تدعى، كما ادعت الغنوسطية من قبل، أنها ليست ضد الدين وإنما هي حليف له، وهنا تكمن حقيقة خطيرة. فمن المؤكد أن التقدم المادي مصدر قوة لأي دين، ولكن عندما يصبح الاستحواذ على الممتلكات الدنيوية هو الهدف الذي تُكرس كل حياة من أجله، وعندما يصبح هو القوة الدافعة وليس الإخلاص والولاء للحقيقة والعدل،

(*) لا مجال لمناقشة هذا الرأي وهو يعَبر عن رأي صاحبه.

فهناك يتأثر الدين، والرخاء المادي، وهو ليس خيرًا أو شرًا في حد ذاته، وإنما هو مثل النار يمكن أن تسخّر لخدمة البشر ويمكن أن تدمّر الحياة تدميرا، يتوقف على كيفية استخدامه، ومن ثم يعمل على إضعاف الإسلام وليس على تقويته.

وجنبا إلى جنب مع تزايد تأثير المادية وشيوع نمط الحياة الغربي، يتسلل إلى حياة العرب شيء من الروح القومية التي نجدها في أماكن أخرى من العالم. ولكن هذه الروح لم تتفشَ ولم تجنح إلى التطرف كما حدث في تركيا ومصر، ولكنها تتجسد في ذلك الاعتزاز الشديد للعربي بجنسه، والذي كثيرا ما يساء استخدامه. ولاشك أن قضية فلسطين تلعب دورها في تدعيم هذه النزعة، على نفس النحو الذي تدعمها به المخططات الحديثة والدعاية الواسعة التي تسعى لتحقيق الوحدة العربية الشاملة.

وفى عام ١٩٣٤ ، وكما سبق أن رأينا، قام الملك ابن سعود في أعقاب نزاع لم يدم طويلاً وإن كان حاسما، بضمّ عسير، كما أبرم معاهدة للصداقة الإسلامية مع الإمام يحيى، إمام اليمن. وكانت هذه المعاهدة مقدمة لمعاهدات أخرى بين البلدان الإسلامية.

بعد إبرامها مباشرة، بدأت المفاوضات من أجل توقيع ميثاق رباعي بين تركيا، وإيران، والعراق، وأفغانستان، وفى نفس الوقت قرر إمام اليمن أن ينضم إلى معاهدة الصداقة والتحالف الموقعة في ١٢ أبريل ١٩٣٦ بين الحكومتين العراقية والعربية السعودية، كما وقعت معاهدة أخرى بين العربية السعودية واليمن في ٣ نوفمبر ١٩٣٧، الأمر الذي أدّى إلى التقارب بين أكبر مملكتين عربيتين مستقلتين وتركيا والعراق وإيران وأفغانستان، التي وقعت المعاهدة بينهما في ١٩٣٧ ، ومن أجل التقارب والتفاهم مع مصر، أنهى الملك سعود منذ وقت بعيد النزاع الذي استمر عشرة أعوام مع الحكومة المصرية، التي وافقت بدورها على استئناف إرسال الكسوة السنوية إلى مكة.

ولا يمكن لأحد أن يتجاسر بالتنبؤ بالآثار بعيدة المدى لهذه المعاهدات السياسية، وأما بالنسبة لأصدقاء العرب، فهم يرحبّون بأن تتوصل البلدان العربية فيما بينها إلى تفاهم أفضل وأكثر عمقًا يمكن أن يؤدى إلى تحالف الدول الإسلامية الأساسية. ولكن من المتعذر أن نحدد الآن ما إذا كان هذا التطور سيؤدى إلى

إحياء الثقافة الإسلامية والحماس الديني، أم إلى فصل السلطة السياسية عن الدين.

والمصالح الأجنبية هي مصالح بريطانية في أغلبها. ولكن البلدان الأخرى تبدى أيضًا اهتمامها بشئون شبه الجزيرة العربية، ويصدق ذلك على وجه الخصوص على الولايات المتحدة الأمريكية التي تسير في ركاب شركة النفط الأمريكية، أرامكو، في الظهران، فتسعى لأن يكون لها نفوذها السياسي هي الأخرى في شبه الجزيرة العربية. واستجابة لمطلب عام، أخذ اتحاد الإذاعات البريطانية يبث برامج باللغة العربية منذ عدة أعوام، وتقوم السفن الحربية الأمريكية الآن بزيارات منتظمة للخليج، لتدخل في منافسة سلمية مع أصدقائها البريطانيين.

والرأي العام في العربية السعودية يتتبع مجرى الأحداث في أوروبا باهتمام متزايد، ومن ثم يستطيع الناس في كل مكان أن تكون أحكامهم أكثر دقة بالنسبة للشئون الأمريكية. وليس من المحتمل أن تلعب شبه الجزيرة العربية في ظل الإسلام دورا هاما في السياسة الدولية على الفور، رغم أنها تشغل المركز الديني للعالم الإسلامي.

ولقد بدأت الحركات الاجتماعية والسياسية التي ظهرت في مصر وباكستان وشمال أفريقيا ولبنان وإيران، تمارس تأثيرها في شبه الجزيرة العربية، وسوف يكون لهذه الحركات، في نهاية الأمر، تأثير متزايد على مجرى الأحداث. وها نحن نرى الحركات القومية تتعاظم بالفعل، وهي لا تعدو أن تكون في حقيقة الأمر نوعًا من التحدّي لإنجلترا، وفى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٣ قال لي أحد الشخصيات البارزة في الكويت:

"وأنت لا تستطيع أن تلومنا نحن العرب لأننا نريد محاكاة الغرب، والأخذ ببعض النظم مثل النقابات وغيرها من الوسائل الغربية لحماية حقوق عمال شركة النفط عندما نسمع كل يوم عن مثل هذه الأشياء من خلال البرامج التي تُبثّ حول مثل هذه الموضوعات في إنجلترا وأمريكا. وإذا كانت إنجلترا تشهد اضطرابا لسائقي سيارات نقل البترول لزيادة أجورهم، فلماذا لانفعل نحن نفس الشيء؟"

والخطر المباشر والفادح بالنسبة لدولة مثل الكويت، بموقعها وظروفها الخاصة، هو بلا شك تدفق الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين والإيرانيين والمصريين، وغيرهم من الأجانب على نطاق لم يحلم به أحد فيما مضى، والذي لازال يجرى حتى وقتنا الراهن على قدم وساق مع التوسع في إنجاز خطط تطوير المدينة، وسواء كان هؤلاء الوافدين من المشردّين الفلسطينيين أو من العمال المهرة من لبنان، أو من العمّال غير المهرة من العراق وإيران، وسواء كانوا من الرجال العاملين في مجال الصحافة العربية أو من رجال الأعمال في بيروت، فهم يبشرون جميعًا الكويتي بقولهم" "بلاد العرب للعرب، والكويت للكويتيين"؛ وكثيرا ما يكون ذلك في أكثر الأشكال ركاكة وضررا.

وهم يتصدّون لهذه القضية بكل ذكاء، ويلتزمون بخط محدد هو أن الكويت إمارة مستقلة، وإذن فلماذا يوجد بها مثل هذا النفوذ البريطاني القوى؟ وما هو المقصود بوجود وكيل سياسي بريطاني؟ ؛ ثم يرددون أنه لابّد من وضع حدّ لكل ذلك، والتخلص من نفوذ الوكيل السياسي، وأن الكويتيين أنفسهم هم وحدهم الذين يمكنهم تحقيق هذه المهمة. وهم يركزون نقدهم على الوضع الخاص لبريطانيا التي حصلت على امتيازات وحقوق خاصة للاستغلال، ويقولون إنه لابد من إلغائها، وأن الوكيل السياسي البريطاني ينبغي أن يكون قنصلا مثل سائر قناصل الدول الأخرى ويسمح له بالحضور أمام المحكمة التي يترأسها حاكم الكويت، وهم بلا شك ينصحون الشباب من عائلة آل صباح بأن يتولوا شئون الدولة كما هي الحال في العربية السعودية، ويضربون المثل بوضع أرامكو في الظهران. وكيف تعلَم الأمريكيون هناك أن يحسنوا التعامل مع العرب ومع الحكومة السعودية. وفى خضمَ كل هذه الأخطار التي تحيط بالبريطانيين والأمريكيين معًا، يجب عليهم جميعًا أن يتذكروا جيدا، أينما كانوا، أن العربي من الفئة التي لا تحمل لهم أي ود، والذي غالبا ما يعتنق أفكارًا متطرفة، سيسعى دائما للنيل من العلاقات بينهما وإفسادها. وهو ماهر في هذه اللعبة أيضًا.

وكان آخر ما لجأ إليه العراق هو أن يلوّح للكويتيين بمزايا الحصول على الماء من شط العرب في العراق بواسطة خط للأنابيب وبذلك يمكن تحويل مساحات شاسعة من التربة الخصبة بالقرب من مدينة الكويت والجهرة إلى بساتين تنتج الفاكهة والخضروات، وأن يزداد حجم مياه الشرب التي تصل إلى المدن أربع مرات، وهم يعرفون أن زرّاع الأراضي الجديدة، وفقًا لهذه الخطة،

لابدّ بالضرورة أن يكونوا من الفلاحين من أبناء القبائل الزراعية العراقية، وبذلك، وبخطوة واحدة، يتم احتلال جزء كبير من الكويت بواسطة العناصر العراقية القومية، وسوف تكون هذه العناصر على استعداد دائما لدعوة حكومتها إلى التدخل لصالحها عند نشوب أي نزاع، حقيقي أو مفتعل، بينها وبين الحكومة الكويتية.

ومما يدعو إلى الأسى، أنه بينما يتزايد معاداة الشباب المتطرفين أو القوميين من الكويتيين للأجانب وخاصة البريطانيين، يتحول العربي من الطراز القديم الذين يقيمون في البادية، والتجّار القدامى أصحاب النفوذ بالمدينة، واللذين مازالوا جميعًا يحبّون الرجل الإنجليزي، واشتهروا بعلاقاتهم الودية والتجارية مع البريطانيين لعدة قرون، يتحولون في بطء ضد الغرب عموما، ولكن لسبب مختلف تمامًا. فنظرا لأن هذا النوع من الرجال عميق الإيمان بالدين، فهم يرون في المؤثرات الغربية، مع ما تأتي به في طياتها من تيارات مادية مختلفة، خطرًا داهما على أخلاقهم وعاداتهم المتوارثة، وعلى دينهم على وجه الخصوص. وهم يرون أن أطفالهم أصبحوا يسيئون السلوك، ويشربون الخمر، ولا يتمسكون بدينهم، ولا يؤدّون الصلاة، وينبذون القيم الأخلاقية ويخرجون على طاعة الوالدين. وبناء على ذلك، فهم يقولون لأنفسهم أن هذا التحوّل المدمرّ لابد أن يكون سببه هو المؤثرات الغربية، وما تحمله في ركابها من مال، وخمر، وانصراف عن الدين.

وكنوع من الدفاع عن النفس يتحول هذا الجيل القديم المحافظ إلى موقف العداء؛ وفي نزعة متطرفة أكثر من أي وقت مضى نجدهم يرفعون شعار "ديننا في خطر"، ونظرًا لاعتقادهم أن الغرب يحكم قبضته على بلادهم، وأبنائهم وأطفالهم فشعارهم اليوم هو: "فلنقطع كل علاقة مع الغرب، لأنه ليس على الصورة التي رأيناها في يوم من الأيام". وهكذا يتحول العربي المسالم من الطراز القديم إلى معاداة الأجانب، ومعاداة البريطانيين والأمريكيين، وان كانت هذه المعاداة لا تستند إلى نفس الأسباب التي دفعت الأجيال الجديدة إلى هذه المعاداة.

فما هو الردّ على هذا الوضع المأساوي؟ أتجاسر بأن أطرح رأيي على النحو الآتي:

فليكفَّ الغرب عن محاولة فرض مفاهيمه عن الحضارة، مثل رفع مستوى المعيشة والأفكار الغربية المتعلقة بالتعليم، والتربية، والتغذية الحديثة، والملابس العصرية، الخ، وليناد بدلاً من ذلك بالتطور الهادئ والبناء على قاعدة من الصخر وليس على قاعدة من الرمال؛ وليبشرّ بأن التقدم، رغم أن أحدًا لا يستطيع أن يوقفه، إلاّ أنه ينبغي أن يتحقق عبر خطوات متأنية وواثقة، وليس كالنار التي تلتهم كل ما يعترض طريقها.

وليبشرّ الغربُ بمزايا تربية الشخصية، ومبادئ الدين، والإيمان بالله وقدرته، وأن يدعو قبل كل شيء إلى الالتزام بالوصايا العشر.

ويجب ألا يدخر الغرب، وكل أصحاب النوايا الحسنة في حقيقة الأمر، وسعًا من أجل محاصرة ونبذ الشرور التي تأتي بها ما يسمى بالحضارة، وأن يسعى، بدلاً من ذلك، لنبذ الأشياء الجديدة المستهجنة مثل الخمر والسينما، الخ، والتي تفوق سلبياتها ما قد يكون لها من جوانب إيجابية.

تقدم شركة نفط الكويت ١٩٥٣:

(نشر هذا المقال في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٣ على صفحات جريدة بتروليوم تايمز، وبعد استئذان الكاتبة، مس مرجريت ك. كلارك، والجريدة، نعيد نشره هنا نظرًا لما يتضمنه من عرض دقيق للتطور المذهل لشركة نفط الكويت منذ استئناف العمليات بعد الحرب العالمية الثانية).

في شهر يونيو ١٩٤٦ تم تصدير أول برميل من النفط من الكويت، ففي أوائل ذلك الشهر تجاوز الإنتاج من الخزان شبه الخرافي الكامن تحت "الرمال الملتهبة" في الكويت علامة ألف مليون، وألف مليون برميل من النفط فيما يقل عن ثمانية أعوام، رقم قياسي بكل المعايير، وهو بلا شك أكثر الإنجازات الصناعية إثارة في العصر الحديث، وهو إنجاز لم يسبق له مثيل في تاريخ حقول النفط.

ولم يحدث من قبل أن تطورّ حقل كبير للنفط بمثل هذه السرعة، وسوف تظل النجاحات التي يؤكدها هذا الرقم القياسي مثالاً لأرقى أشكال التعاون الأنجلو-أمريكي. وقبل هذا الإنجاز كانت ثمانية من بلدان العالم فقط هي التي تجاوز الإنتاج فيها الألف مليون برميل من النفط الخام وهى الولايات المتحدة الأمريكية، والمكسيك، وفنزويلا، ورومانيا، وروسيا، وإيران، والعربية السعودية

وإندونيسيا؛ أما الآن فإن مشيخة الكويت وهي من أصغر بلدان العالم، تأخذ مكانها بين عمالقة النفط هؤلاء. والجدير بالذكر أن الكويت حققت هذه المكانة خلال فترة زمنية أقل كثيرا مما استغرقته البلدان الثمانية التي سبقتها؛ ولذلك فمن المهم، عند هذا المنعطف، أن نستعيد القصة الكامنة وراء الخطوط العامة التي تتناول هذه المسألة في الوقت الراهن.

وبالرغم من أن شركة نفط الكويت تتولّى إدارة الامتياز الذي يعطيها وحدها الحق في استكشافات واستغلال جميع أراضي الكويت شركة بريطانية مسجلة، إلا أنها في حقيقة الأمر ملكية مشتركة لكل من شركة الخليج الكويتية (اتحاد نفط الكويت)، ودي-آركي كويت كومباني (شركة النفط البريطانية الإيرانية)، وفي عام ١٩٣٤ منحت الشركة الامتياز لمدة خمسة وسبعين عامًا، وفي شهر نوفمبر ١٩٥١ وقعت اتفاقية جديدة بين الشركة وحاكم الكويت تقرر بمقتضاها اقتسام الأرباح مناصفة بين الحاكم والشركة بعد أن كانت الاتفاقية السابقة تكتفي بفرض ضريبة على الإنتاج. وتقرر أن يستمر تطبيق الامتياز المعدّل لمدة خمسة وسبعين عامًا من تاريخ إقراره.

ويمكن القول بأن عمليات الإنتاج بدأت في أول يونيو (حزيران) ١٩٤٦ عندما أدار فخامة الشيخ أحمد الجابر الصباح صمامًا في ميناء الأحمدي لشحن أول ناقلة، هي بريتش فوزلييه Fusilier، بحمولة من النفط الخام توجهت بها إلى جرانجماوث (Grangemouth)، لتكون مؤشرًا لما ستكون عليه الحال في المستقبل، لأن بريطانيا ظلت منذ ذلك الوقت هي المستهلك الرئيسي للنفط الخام الكويتي.

بدأت العمليات في مواجهة العديد من المصاعب الناجمة عن ضرورة القيام بها في أراض بعيدة كل البعد عن أي نشاط صناعي، وفي بلاد يسودها مناخ يحمل في طياته تعقيدات غير مألوفة. فقبل اكتشاف النفط في الكويت بأراضيها التي لا تتجاوز مساحتها الستة آلاف ميلا مربعا على رأس الخليج، كان أهلها يعيشون عل صيد الأسماك والغوص على اللؤلؤ وصناعة السفن والتجارة؛ وبذلك لم يكن هناك أي تقاليد صناعية وفقًا للنمط الأوروبي يمكن أن تستند إليها الصناعة الجديدة، ولا عمّال مهرة، ولا مواد، ولا مواصلات، وبالإضافة إلى كل ذلك لم تكن هناك الأسواق الملائمة لاستيعاب النفط حتى لو أمكن التغلب على كل النواقص التي ذكرناها، والشمس والرمال عدو شديد الضراوة في بلد يكاد يفتقر

تماماً للماء حيث لا يزيد المعدّل السنوي للأمطار عن خمس بوصات، وتبلغ الحرارة أثناء النهار، وفي الظل، ما يتراوح بين مائة وعشرة ومائة وعشرين بل مائة وثمانية وعشرين درجة فهرنهايت، وهل هذه الظروف الشاقة التي كان لابدّ من العمل والحياة في إطارها، وخاصة في المراحل الأولى، هي التي ضاعفت من أهمية وروعة ما تحقق من نجاح.

ووفقا للبرنامج الذي وضع من أجل التطوير الشامل لمصادر النفط في البلاد، تم حتى اليوم حفر مائة وثلاثة وخمسين بئرًا، كما كاد العمل أن ينتهي في حفر ثلاث أخرى. وترجع الطبقات الحاملة للنفط إلى العصر الطباشيري الوسيط أو الحديث. وهناك تكوينات من النوع الرملي المنتج للنفط تم التعرف بالفعل على مواقع ثلاثة منها، ويبلغ الحدّ الأدنى لعمق التكوين الرملي الأول ٣,٥٤٥ قدما، بينما يبلغ الحد الأقصى لعمق التكوين الرابع ٤,٧٢٢ قدما. وكل الآبار تقريبًا ثنائية الإنتاج. والتكوينان الرمليان الثالث والرابع هما الأكثر إنتاجية، ويحتوى التكوين الثالث على النسبة الأكبر من الاحتياطي ويتراوح الإنتاج الخاص لكل بئر بين ٥٠٠ برميلا في اليوم بالنسبة لآبار التكوين الرملي الأول وما يتراوح بين ٦٠٠٠ و٩٠٠٠ برميلا في اليوم في التكوين الرملي الثالث. وهذه الإنتاجية الملفتة للنظر للبرميل الواحد هي التي تميز الكويت عن الحقول المنتجة القديمة، وخاصة حقول أمريكا الشمالية.

والكويت من أغنى بلدان العالم باحتياطات النفط، بل والواقع أن الكويت تحمل في باطن أراضيها أغنى هذه الاحتياطيات. وبالرغم من عدم وجود أي صعوبات، من ناحية المبدأ، بالنسبة لنقل النفط من الآبار إلى ساحل الخليج الذي يقع على بعد يتراوح بين أربعة عشر ميلا وعشرين ميلا، إلا أن هناك جانب آخر للمسألة يتعلق بمشكلة النقل، إذ من المحتم جلب كل قطعة من المعدّات في أي مرحلة من مراحل البحث والنقل والشحن - وحتى آخر العمليات التي يمر بها النقل قبل أن تنطلق به الناقلات - من بريطانيا والولايات المتحدة اللتين لا تقعان على بعد مئات الأميال بل على بعد آلاف الأميال. والمياه الملاصقة لساحل الخليج ضحلة، ولمسافات بعيدة عن الشاطئ وليس هناك أي مدخل أو شرم يوفرّ الحماية من الرياح العادية التي تهب على المنطقة. وحتى في خليج الكويت، في الشمال، يتعيّن على السفن الكبيرة أن تلقى مراسيها على بعد عدة أميال من الشاطئ - وأن تفرغ حمولتها من المعدّات في سفن أصغر حجما تتوجه بها إلى

الأرصفة لتفريغها، ثم تحمل بعد ذلك عبر الصحراء حتى مواقع العمليات، مع تعرضها للتلفيات في كل مرحلة من هذه المراحل. والواقع أن التلفيات كانت تمثل بالفعل مشكلة كبرى في المراحل الأولى، ومع ذلك استمر تزايد كمية المواد الواردة بما يتناسب مع استمرار العمل في الحقول وتطوره.

وفى شهر واحد، فبراير ١٩٤٨، تم تفريغ ٢٥٫٠٠٠ طن من المعدّات على الشاطئ بهذه الطريقة. وبلغ الحجم الإجمالي للمعدات الواردة في ذلك العام رقما قياسيا هو ١٩٠٫٠٠٠ طن، وكان هذا في حد ذاته أحد العراقيل التي كان لابد من تخطيها قبل تطوير الحقل. وبالإضافة إلى ذلك، كان لابد من تدريب العمال المحليين، الذي لم يألفوا الخضوع لأي نوع من أنواع التنظيم، وتعليمهم كيفية استخدام الوسائل والأساليب الغربية للعمل. وكان لابد أيضًا من جلب الأعداد المناسبة من الأخصائيين الفنيين من الخارج ومع كل منهم ما يلزمه لممارسة العمل والحياة في الصحراء، ويجب ألا نسمح بأي حال لأي شيء، ومهما كانت الدوافع، بأن يطمس هذا العمل أو ينال من روعته.

ويتدفق النفط من الآبار ليصبّ في تسعة مراكز للتجميع، ومنها يتم ضخّه إلى مجموعة الصهاريج تعمل بفعل الجاذبية الأرضية في الأحمدى والتي تقع على لسان على بعد حوالي خمسة أميال من الساحل. وتبلغ سعة التخزين في هذه الصهاريج أكثر من أربعة ملايين برميل، ومنها ينطلق النفط من خلال أنابيب يتراوح نصف قطرها بين ٢٢ و٣٠ بوصة إلى الميناء وإلى معمل التكرير.

البلدان التي أنتجت ١٫٠٠٠ مليون برميلا من النفط الخام

نوضح الوقت الذي تطلبه الوصول إلى هذا الحجم من الإنتاج – نقلا عن مكتب إحصائيات المناجم بالولايات المتحدة.

الكويت	١٩٤٦ — ١٩٥٣	٨ سنوات
العربية السعودية	١٩٣٦ — ١٩٥١	١٦ سنة
فنزويلا	١٩١٧ — ١٩٣٤	١٨ سنة
المكسيك	١٩٠١ — ١٩٢٣	٢٣ سنة
إيران	١٩١٣ — ١٩٤٠	٢٨ سنة
الولايات المتحدة	١٨٥٩ — ١٩٠٠	٤٢ سنة
روسيا	١٨٦٣ — ١٩٠٥	٤٣ سنة
اندونيسيا	١٨٩٣ — ١٩٤١	٤٩ سنة
رومانيا	١٨٥٧ — ١٩٤٣	٨٧ سنة

في ميناء الأحمدى. وهناك خطان جديدان للأنابيب يجرى أقامتهما، يبلغ نصف قطر أحدهما ٣٤ بوصة، يُعتقد أنه سيكون أكبر نصف قطر لأنابيب النفط الخام في العالم.

وارتفع الإنتاج نتيجة لهذا التطوير الشامل إلى معدلات مذهلة، على النحو الآتي:

العام	عدد البراميل
١٩٤٦ (السبعة شهور الأخيرة وحدها	٥٩٢٧,٩٧٦
١٩٤٧	١٦,٢٢٧,٩٠٦
١٩٤٨	٤٦,٥٤٦,٧٩٥
١٩٤٩	٨٩,٩٣٠,٤٤٤
١٩٥٠	١٢٥,٧٢٢,٣٦٩
١٩٥١	٢٠٤,٩٠٩,٦٦٢
١٩٥٢	٢٧٣,٤٣٢,٨٩٥
١٩٥٣ (الخمسة أشهر الأولى وحدها)	٢٠٦,٠٩٥,١٩٢

وفى الأشهر الستة الأولى من هذا العام تم إنتاج ١٥٢,٠٤٩,٣١٩ برميلا، وبذلك احتلت الكويت للمرة الأولى المركز الثالث بين البلدان المنتجة للنفط في العالم الحر، ولم تعد تتفوق عليها إلا الولايات المتحدة وفنزويلا.

وغنيّ عن البيان أنه ما كان من الممكن تحقيق هذه لو لم تتوفر الوسائل والنظم الملائمة للنقل والتخزين والشحن، وهى جوانب حظيت من البداية والاهتمام الكامل لضمان سرعة تتابع حلقات الإنتاج والخطوات المكمّلة له، على النحو الذي يواكب السرعة التي يتنامى بها هذا الإنتاج.

وفى أوائل عام ١٩٤٦، بدأت العمليات بوضع أول سلسلة من خطوط الأنابيب ١٢ بوصة الممتدة تحت سطح الماء على قاع البحر على معدل حوالي الميل من أدنى علامة للماء. وبالإضافة إلى ذلك تم تثبيت محطتين للإرشاد متصلتين بخط الأنابيب الممتد تحت الماء في الموقعين المحددين لهما، ومرسيين تنطلق منهما الناقلات. وفى الفترة ما بين ١٩٤٦-١٩٤٩ تم ربط عشرة خطوط من أنابيب النفط، كل أنبوبين ربط بمرسى واحد من المراسي الخمسة التي كانت تستخدم في ذلك الوقت. وفي نهاية عام ١٩٤٩ تم بناء أكبر رصيف لشحن الناقلات في ميناء الأحمدى ويمتد هذا الرصيف لمسافة ٤,١٠٠ قدمًا في حوض

البحر، ويجرى فوقه طريق يبلغ عرضه ٢٤ قدمًا صُمِمّ بحيث يستطيع تحمل أثقل الشاحنات المتحركة وزنًا، ومجرى أنبوبي يتكون من ثمانية خطوط لشحن النفط الخام يبلغ نصف قطر كل منها ٢٤ بوصة، بالإضافة إلى عدد من الخطوط الأدنى قدرة لنقل المشتقات النفطية المستخدمة كوقود والماء إلى السفن، والهواء المضغوط اللازم للهياكل المعدنية للآبار ومحطات الإرشاد. وهناك ستة مراسي على الامتداد الشمالي للطرف القصي للرصيف الذي يبلغ طوله ٢٨٠٠ قدمًا وعرضه ١٠٥ قدما، يمكن شحن الناقلات منها بسرعة كبيرة، أما الامتداد الجنوبي، والذي يبلغ طوله ١,٠٥٠ قدما وعرضه ١٠٠ قدمًا، فيه مرسيان كانا يستخدمان أصلا لتفريغ السفن التي تجلب المعدّات، ولكنهما غالبا ما يستخدمان الآن لشحن الناقلات. ويمكن شحن السفنٍ عند هذا الرصيف بمعدل مليون برميل في اليوم، كما يمكن مواصلة التحميل ليلاً ونهارًا.

وبينما هذه التسهيلات المتقنة لتداول النفط تدخل حيز الاستخدام، حركة الناقلات تزايدت على النحو الآتي:

عدد الناقلات التي تم شحنها من الكويت

العام	عدد الناقلات
١٩٤٦	٦١
١٩٤٧	١٦٨
١٩٤٨	٤٣٦
١٩٤٩	٨٠٣
١٩٥٠	٩٩٥
١٩٥١	١٧٣٥
١٩٥٢	٢٢٨٠
١٩٥٣ (الأشهر التسعة الأولى)	١٨١٣

وسوف يصبح في الإمكان زيادة عدد الناقلات التي تشحن في العام القادم نظرًا لما يطرأ على وسائل تداول النفط أيضًا من توسع. ويجرى الآن بناء ثلاثة مراسي جديدة، يرتبط كل منها بالساحل بواسطة خط لشحن النفط الخام يبلغ نصف قطره ٢٤ بوصة، كما يجرى أيضًا توفير مستودعات الفحم الحجري.

وتبلغ طاقة معمل التكرير في الأحمدى ٣٠,٠٠٠ برميل في اليوم. وفى عام ١٩٥٢ أنتج هذا المعمل ما يكفى من بنزين السيارات، والكيروسين، والغاز السائل

لتلبية احتياجات السوق المحلية وشركة النفط، والأنواع المختلفة من الوقود اللازمة للناقلات وسفن نقل البضائع في المحطة البحرية، كما تم بناء مصنع للبيتومين (القار) بجوار معمل التكرير، افتتح في أوائل هذا العام؛ وينتج من ٢٥ إلى ٣٠ طنـاً من البيتومين في اليوم تستخدمها الدولة في تنفيذ برنامجها لرصف الطرق.

كما قامت الشركة أيضًا ببناء محطة للطاقة في ميناء الأحمدى تبلغ قدرتها ٢٢,٥٠٠ كيلووات، ومصنع لإزالة ملوحة مياه البحر تبلغ طاقته ٦٠٠,٠٠٠ جالونا في اليوم، وعنابر للأنابيب ومركز للتحكم الكهربائي لمراقبة تدفق النفط إلى معمل التكرير وإلى وسائل شحن الناقلات. كما تم تركيب الأجهزة الخاصة بالقياس الآلي في جميع أنحاء الحقل حتى يمكن التحكم في العمليات عن بُعد بقدر المستطاع، وضمان أقصى درجات الدقة في التشغيل، وإصلاح الأعطال على الفور، وتوفير نسبة كبيرة من الأيدي العاملة.

وهناك خط للأنابيب يبلغ طوله ٢٧ ميلاً يربط بين معمل التكرير ومدينة الكويت عند طرفها الشمالي من أجل تزويدها باحتياجاتها من منتجات النفط، وتنتقل المنتجات من مستودع كبير في المدينة إلى أربع محطات للخدمة، يتم من خلالها توزيعها على المستهلكين، وهناك أيضًا خطا للغاز يبلغ طوله ٣٠ ميلا، ونصف قطره ٨ بوصات، ينقل الغاز من حقل النفط إلى مدينة الكويت.

وجنبا إلى جانب مع تطوير حقول النفط، يستمر العمل من أجل رفاهية العدد الكبير من العاملين في الشركة من مختلف الجنسيات، وينبغي أن نؤكد، أنه عندما بدأت العمليات، لم تكن الأرض التي تزدهر فوقها هذه المنشئات الصناعية المتلاحقة إلاّ صحراء جرداء ربما نمت فيها بعض الأعشاب الهزيلة في بعض الأحيان، ولم يكن بها من موارد طبيعية سوى الماء - غير الصالح للشرب - الذي يستخرج من بعض الآبار المالحة.

أما الآن فقد أدى بناء المساكن المؤقتة إلى قيام مدينة سكنية رائعة فيها منازل مبنية بناءًا جيدًا لأنشطة مختلفة، ترويحية وتعليمية والعناية الصحية، كما تشمل هذه المباني أيضًا المستشفيات، والمستوصفات، والصيدليات والمدارس، والكنائس، ومسجدًا، ومغسلة، ومصنعًا للثلج، ومخبزًا، ومحلات تجارية، والواقع أن كل الوسائل اللازمة للحياة اليومية في مجتمع متحضر تمت إقامتها

لخدمة العاملين ومعاونيهم، وهى مهمة ضخمة لأن هناك أكثر من ٩٠٠ من العمال البريطانيين والأمريكيين، و ٣,٠٠٠ من الهنود والباكستانيين، و٢,٤٠٠ من الكويتيين، و ١,٨٢٠ من بلدان عربية أخرى.

وبالإضافة إلى ذلك، تم إنشاء مدرسة للتدريب يتم فيها إكساب العرب المهارات الفنية في شتى المجالات، حتى أصبح في الإمكان أن يتحوّل العديد منهم كل شهر من مهنهم التقليدية التي لا تحقق إلاّ قدرًا محدودا من التقدم الاقتصادي، للبحث عن فرص جديدة وأوسع في المجالات التي تتطلب العمل الماهر وشبه الماهر في خدمة شركة النفط، كما تتخذ الشركة الإجراءات اللازمة لإرسال عدد من المرشحين إلى الخارج لتلقى المزيد من التعليم التكنيكي والجامعي بحيث يتمكن الكويتيون من احتلال مواقعهم في المستويات العليا للسلم الوظيفي. ولم تكن كل هذه الخطوات لتقل أهمية عن العمليات الجارية للحقول، فيما يتعلق بإنجاز هذا التوسع السريع في إنتاج النفط.

ولكن آثار تطوير موارد النفط في الكويت لا تنتهي عند هذا الحد؛ فالاقتصاد القومي للبلاد يزداد ازدهارا خطوة بعد خطوة مع تطور الحقول، بحيث أصبح في مقدرة الحاكم الحالي أن يخطط لتحديث الخدمات البلدية، بما في ذلك الصحة العامة ومصادر الماء والكهرباء. كما ساهمت العمالة الكاملة والأجور الجيدة في الارتفاع العام لمستوى المعيشة. ولكن نظرًا لأن نصيب الحاكم من عائدات النفط بلغ حوالي ٥٠ مليون جنيها في العام الماضي، ونظرًا دولة تبلغ مساحتها ٦,٠٠٠ ميلا مربعا من الصحراء ولا يزيد عدد سكانها عن ٢٠٠,٠٠٠ لا يستطيع أن تستوعب كل هذا الدخل حتى مع تنفيذ أكثر الخطط شمولا للاستقرار وتحقيق الرخاء الاجتماعي، نجد أن استخدام عائدات النفط يطرح مشكلات من نوع خاص. وإدراكا من الحاكم لما يمكن أن يؤدى إليه التضخم الفجائي للثروة وتدفقها إلى بلاده من مصاعب لا تقل وطأة عن تلك التي تنشأ عن الفقر ونقص الموارد في بلدان أخرى، فهو يتصدى بكل طاقته لمهمة تأمين الانتقال المفاجئ من الندرة إلى الوفرة بدون متاعب أو آلام، وفى ظل إدارته الحكيمة يتم استثمار الفائض الضخم الراهن في الدخل من أجل المستقبل.

ولقد كان العامل الأساسي الذي أدى إلى زيادة الإنتاج في الكويت في السنتين ونصف السنة الماضية حتى حقق الأرقام القياسية الراهنة، هو بلا شك

فتح أسواق العالم عندما توقفت الصادرات من إيران في حزيران (يونيو) عام ١٩٥١ . وتوضح المقارنة بين حجم صادرات الكويت في عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٢ كيف أن هذه الصادرات لم ترتفع فحسب أثناء الأزمة الإيرانية وإنما توضح أيضًا كيف استفادت بعض البلدان من هذه الأزمة.

ولا يحتاج المِوقع الهام الذي يشغله نفط الكويت على الساحة الدولية، والذي لم تنقض إلاّ ثمانية أعوام فحسب على تصدير أول شحناته من ميناء الأحمدى، إلى أي تأكيد جديد. وسوف نرى أن جميع البلدان الواقعة خارج منطقة الدولار، على وجه الخصوص، تستفيد من نفط الكويت؛ كما ساهمت التكلفة المنخفضة نسبيا للدولار مقارنة بالنفط الوارد من الحقول المجاورة في العربية السعودية والبحرين في التوصل إلى هذه النتيجة. ولكن منطقة الدولار استفادت هي الأخرى؛ وعلى سبيل المثال، بلغ حجم واردات النفط الكويتي في الولايات المتحدة ١٥,٦٪ من إجمالي وارداتها، في النصف الأول من هذا العام، كما بلغ حجم وارداتها من الشرق الأوسط ٤٥ ٪ في نفس الفترة.

صادرات النفط الخام من الكويت

البلدان	١٩٥٢	١٩٥٠
	بالبرمـــيل	
بريطانيا العظمى	٩٧,٠٤٧,٩١٧	٢٨,٠٥٣,٦٢٣
فرنسا	٥٦,٨٤٠,٣١٤	٢٨,١٦٨,٨٦٤
هولندا	٣٠,٥٥٥,١٤٩	١٧,٨٤١,١٥١
الولايات المتحدة	٢٧,٢٢٣,٠٨٧	٢٦,٣٦١,٤٢٨
إيطاليا	١٤,٧٢١,٩٦٥	١٠,٦٣١,٥٣٢
بلجيكا	١٢,٥٢٥,٩٧٨	–
الأرجنتين	٩,٠٧٢,١٩٤	–
السويد	٤,٠١٧,٦٢١	١,٤٣٢,١٥١
بلدان أخرى	١٢,٠٢٤,٠٤٦	٤,٢١٦,٢٥٤
الإجمالي	٢٦٤,٠٢٨,٢٧١	١١٦,٧٠٥,٠٠٣

وليس هناك بلد في العالم يعتمد على نفط الكويت أكثر مما تعتمد بريطانيا؛ فبرنامج التوسع في التكرير الذي بدأت المملكة المتحدة تطبيقه بعد الحرب، والذي تمكنت بمقتضاه من معالجة ١٦٤,٣٠٦,٠٠٠ برميلاً من النفط

الخام في معامل التكرير البريطانية في العام الماضي، يخطو إلى الأمام أو يتراجع وفقا لحجم الواردات من نفط الشرق الأوسط، حتى أصبحت الكويت الآن هي المورّد الرئيسي للملكة المتحدة.

وكانت البلدان المورّدة للنفط الخام في الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٤٦، قبل أن يتوفر النفط الخام الوارد من الكويت، هي: جزر الأنتيل ٤٤ ٪، وفنزويلا ٢٦٪ ، وإيران ١٥٪ ، والولايات المتحدة ١٤٪ ، وبلدان أخرى ١٪ .

ثم تغيرت الصورة في الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٥٠ وأصبحت البلدان المورّدة للنفط الخام هي: الكويت والبحرين معًا ٤٠٪ (وكانت مساهمة البحرين في هذا الصدد ضئيلة لا تكاد تذكر)، وإيران ٢٥,١٪ ، وجزر الأنتيل ١٢,٤٪ ، والعربية السعودية ١٢,١٪ ، والعراق ٤,٣٪ ، وفنزويلا ٢,٩٪ ، وبلدان أخرى ٣,٢٪.

وفى الأشهر الستة الأولى من هذا العام، أصبحت الكويت هي أكبر مورّد للنفط الخام إلى المملكة المتحدة، حيث تزودها بما يعادل ٥٧,٨٪ من احتياجاتها، وكانت البلدان المورّدة الأخرى هي: العراق ٢٨,٨٪ ، والبحرين ٥,٩٪ ، جزر الأنتيل ٢,٤٪ ، وفنزويلا ٢,٣٪. ومازالت مساهمة نفط الكويت في الاقتصاد البريطاني في تزايد مستمر؛ فقد بلغ حجم الواردات من نفط الكويت في الأشهر التسعة الأولى من هذا العام ٥٩,١٪ من إجمالي واردات النفط الخام؛ وإذا احتسبنا جميع الواردات من النفط فسوف نجد أن الكويت قامت حتى الآن بتزويد ٤٦,٩٪ من النفط البريطاني.

وإذا كان هذا العرض يتناول بعضًا مما يعتبره الكثيرون "تاريخا قديما"، فإنما يرجع ذلك إلى أهمية نفط الكويت بالنسبة للاقتصاد البريطاني. والأرجح أن نصف عدد السيارات التي تجرى في هذه اللحظة في شوارع لندن تستخدم النفط الكويتي – وهى حقيقة يقرّ بها الجميع. ولذلك فليس من الملائم، وفى بريطانيا على وجه الخصوص أن تتوارى الإنجازات التي أكسبت الشركة ما هي عليه الآن من أهمية، في طيّ النسيان. ويجب أن نعترف بالفضل لكل العاملين في شركة نفط الكويت الذين ساهمت جسارتهم وإقدامهم في تحقيق هذه النتائج الرائعة، ولحاكم الكويت ورعاياه، الذين ساعد تفهمهم ومساندتهم على توثيق عرى الصداقة بين الشرق والغرب، تلك الصداقة التي لولاها ما تحقق أي نجاح.

ولكن القصة لا تنتهي عند النجاح الراهن، فالعمليات تجرى على النحو الذي يسمح بتحقيق أعلى معدلات للإنتاج اعتمادا على أفضل الأساليب والوسائل العملية في هذا المجال، والحفاظ على حياة الحقول لأطول فترة ممكنة، وتشير التقديرات إلى أن الكويت تمتلك أغنى احتياطيات للنفط في العالم، ولذلك يحق لنا القول بأن تاريخ إنتاج النفط - وهو رائع رغم أنه لم يتجاوز الثامنة من عمره – مازال يخطو خطوة البداية.

KUWAIT AND HER NEIGHBOURS

by

H. R. P. Dickson

Translated by

Prof. Dr. Foutouh A. Al-Khatrash



